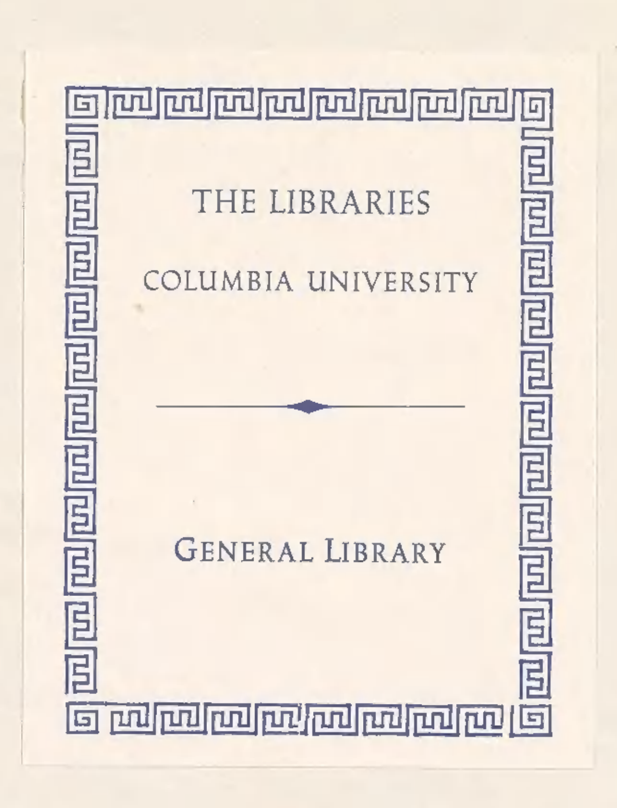



THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY
GENERAL LIBRARY



البداية والنهاية
في التاريخ

للإمام العالم الحافظ عماد الدين أبي الفداء

إسماعيل بن عمر بن كثير الشافعي الدمشقي المتوفي سنة ٧٧٤ هـ (١٣٧٣ م)

تحقيق ومراجعة وتعليق وتصحيح

محمد عبد العزيز النجار

المفتش العام السابق بوزارة التربية والتعليم

بالجمهورية العربية المتحدة

الجزء الثاني

طبعة جديدة منقحة كاملة

يطلب من

مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده

بميدان الأزهر - تليفون ٩٠٦٥٨٠



البداية والنهاية

في التاريخ

للإمام العالم الحافظ عماد الدين أبي الفداء « إسماعيل

ابن عمر بن كثير » الشافعي الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤ هـ (١٣٧٣ م)

تحقيق ومراجعة وتعليق وتصحيح

محمد عبد العزيز النجار

المفتش العام السابق بوزارة التربية والتعليم

بالجمهورية العربية المتحدة

الجزء الثاني

طبعة جديدة منقحة كاملة

إن شاء الله

يطلب من

مكتبة الفلاح

شارع البطحاء بالرياض

مطبعة الفجالة الجديدة

شارع القويسني بالظاهر ـ القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

باب ذكر جماعة من أنبياء بنى إسرائيل

بعد موسى عليه السلام

ثم نتبعهم بذكر داود وسليمان عليهما السلام . قال ابن جرير فى تاريخه : لا خلاف بين أهل العلم بأخبار الماضين وأمور السالفين من أمتنا وغيرهم ـ أن القائم بأمور بنى إسرائيل بعد يوشع ؛ كالب بن يوفنا ـ يعنى أحد أصحاب موسى عليه السلام ـ وهو زوج أخته مريم ، وهو أحد الرجلين اللذين ممن يخافون الله ، وهما يوشع وكالب . وهما القائلان لبنى إسرائيل حين نـكلوا عن الجهاد : (ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنــكم غالبون * وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) . قال ابن جرير : ثم من بعده كان القائم بأمور بنى إسرائيل ـ حزقيل بن بوزى ، وهو الذى دعا الله فأحيا الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت .

قصة حزقيل

قال الله تعالى : (ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم ، إن الله لذو فضل على الناس ولـكن أكثر الناس لا يشـكرون[1]) . قال محمد بن إسحاق عن وهب بن منبه : إن كالب بن يوفنا لما قبضه الله إليه بعد يوشع خلف فى بنى إسرائيل حزقيل بن بوذى . وهو ابن العجوز ، وهو الذى دعا للقوم الذين ذكرهم الله فى كتابه فيما بلغنا : (ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت) ، قال ابن إسحاق : فروا من الوباء فنزلوا بصعيد من الأرض ، فقال لهم الله موتوا فماتوا جميعاً ، فحظروا[2] عليهم حظيرة دون السباع ، فمضت عليهم دهور طويلة ، فمر بهم حزقيل عليه السلام فوقف عليهم متفـكراً ، فقيل له : أتحب أن يبعثهم الله وأنت تنظر ؟ فقال نعم . فأمر أن يدعو تلك العظام أن تـكتسى لحماً ، وأن يتصل العصب بعضه ببعض . فناداهم عن أمر الله له بذلك ، فقام القوم أجمعون ، وكبروا تـكبيرة رجل واحد .

وقال أسباط عن السدى عن أبى مالك ، وعن أبى مالك عن ابن عباس ، وعن مرة عن ابن مسعود ، وعن أناس من الصحابة فى قوله : (ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم) ـ قالوا : كانت قرية يقال لها « ذا وردان » قبل واسط ، وقع بها الطاعون فهرب عامة أهلها فنزلوا ناحية منها ، فهلك من بقى فى القرية ، وسلم الآخرون فلم يمت منهم

---

(١) الآية : ٢٤٣ من سورة البقرة (٢) أى اتخذوا حظيرة .

كثير . فلما ارتفع الطاعون رجعوا سالمين ، فقال الذين بقوا : أصحابنا هؤلاء كانوا أحزم منا ، لو صنعنا كما صنعوا بقينا ، ولئن وقع الطاعون ثانية لنخرجن معهم . فوقع فى قابل فهربوا ، وهم بضعة وثلاثون ألفاً، حتى نزلوا ذلك المكان ، وهو واد أفيح ، فناداهم ملك من أسفل الوادى وآخر من أعلاه : أن موتوا ، فماتوا ، حتى إذا هلكوا وبقيت أجسادهم — مر بهم نبى يقال له حزقيل ، فلما رآهم وقف عليهم فجعل يتفكر فيهم ويلوى شدقيه وأصابعه ، فأوحى الله إليه : تريد أن أريك كيف أحييهم ؟ قال — نعم . وإنما كان تفكره أنه تعجب من قدرة الله عليهم ، فقيل له : ناد ، فنادى ياأيتها العظام ! إن الله يأمرك أن تجتمعى ، فجعلت العظام يطير بعضها إلى بعض ، حتى كانت أجساداً من عظام ، ثم أوحى الله إليه أن ناد ، فنادى ياأيتها العظام ! إن الله يأمرك أن تكتسى لحما ، فاكتست لحماً ودماً وثيابها التى ماتت فيها ، ثم قيل له ناد ، فنادى : أيتها الأجساد ! إن الله يأمرك أن تقومى فقاموا . قال أسباط : فزعم منصور عن مجاهد أنهم قالوا حين أحيوا : سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت . فرجعوا إلى قومهم أحياء يعرفون أنهم كانوا موتى ؛ سحنة الموت على وجوههم ، لا يلبسون ثوباً إلا عاد رسماً ، حتى ماتوا لآجالهم التى كتبت لهم . وعن ابن عباس أنهم كانوا أربعة آلاف ، وعنه ثمانية آلاف ، وعن أبى صالح تسعة آلاف ، وعن ابن عباس أيضاً كانوا أربعين ألفاً . وعن سعيد بن عبد العزيز كانوا من أهل أذرعات .

وقال ابن جريج عن عطاء : هذا مثل — يعنى أنه سيق مثلا مبيناً ؛ أنه لن يغنى حذر من قدر ، وقول الجمهور أقوى إن هذا وقع . وقد روى الإمام أحمد وصاحبا الصحيح من طريق الزهرى ، عن عبد الحميد ابن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ، عن عبد الله بن الحارث بن نوفل ، عن عبد الله بن عباس : أن عمر ابن الخطاب خرج إلى الشام ، حتى إذا كان بسرغ[1] لقيه أمراء الأجناد : أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه فأخبروه أن الوباء وقع بالشام ، فذكر الحديث — يعنى فى مشاورته المهاجرين والأنصار فاختلفوا عليه ، فجاءه عبد الرحمن بن عوف — وكان متغيباً ببعض حاجته — فقال : إن عندى من هذا علماً ؛ سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا كان بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه ، وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه » فحمد الله عمر ثم انصرف . وقال الإمام : حدثنا حجاج ويزيد المفتى قالا حدثنا ابن أبى ذؤيب عن الزهرى عن سالم عن عبد الله بن عامر بن ربيعة : أن عبد الرحمن بن عوف أخبر عمر — وهو فى الشام — عن النبى ﷺ « إن هذا السقم عذب به الأمم قبلكم ، فإذا سمعتم به فى أرض فلا تدخلوها وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه » . قال فرجع عمر من الشام . وأخرجاه من حديث مالك عن الزهرى بنحوه .

قال محمد بن إسحاق : ولم يذكر لنا مدة لبث حزقيل فى بنى إسرائيل . ثم إن الله قبضه إليه ، فلما قبض نسى بنو إسرائيل عهد الله إليهم ، وعظمت فيهم الأحداث وعبدوا الأوثان . وكان فى جملة ما يعبدونه

(١) قال فى القاموس : سرغ — موضع قرب الشام بين المغيثة وتبوك .

من الأصنام صنم يقال له « بعل » فبعث الله إليهم إلياس بن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون ابن عمران . قلت : وقد قدمنا قصة إلياس تبعاً لقصة الخضر ؛ لأنهما يقرنان فى الذكر غالباً ، ولأجل أنها بعد قصة موسى فى سورة الصافات ، فتعجلنا قصته لذلك والله أعلم . قال محمد بن إسحاق ـ فيما ذكر له عن وهب بن منبه ـ قال : ثم تنبأ فيهم بعد إلياس وصيه اليسع بن أخطوب عليه السلام . وهذه :

قصة اليسع عليه السلام

وقد ذكره الله تعالى مع الأنبياء فى سورة الأنعام فى قوله : (وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلا فضلنا على العالمين[1]) ، وقال تعالى فى سورة ص : (واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار[2]) . قال إسحاق بن بشر ـ أبو حذيفة : أنبأنا سعيد عن قتادة عن الحسن قال : كان بعد إلياس اليسع عليهما السلام ، فمكث ماشاء الله أن يمكث يدعوهم إلى الله ، مستمسكا بمنهاج إلياس وشريعته ، حتى قبضه الله عز وجل إليه . ثم خلف فيهم الخلوف ، وعظمت فيهم الأحداث والخطايا ، وكثرت الجبابرة وقتلوا الأنبياء . وكان فيهم ملك عنيد طاغ ويقال إنه الذى تكفل له ذو الكفل إن هو تاب ورجع ـ دخل الجنة ، فسمى ذا الكفل .

قال محمد بن إسحاق : هو اليسع بن أخطوب ، وقال الحافظ أبو القاسم بن عساكر فى حرف الياء من تاريخه : اليسع هو الأسباط بن عدى بن شوتلم بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل ، ويقال هو ابن عم إلياس النبى ـ عليهما السلام ، ويقال كان مستخفياً معه بجبل قاسيون من ملك بعلبك ثم ذهب معه إليها ، فلما رفع إلياس خلفه اليسع فى قومه ونبأه الله بعده . ذكر ذلك عبد المنعم ابن إدريس عن أبيه عن وهب بن منبه . قال : وقال غيره وكان ببانياس . ثم ذكر ابن عساكر قراءة من قرأ اليسع بالتخفيف وبالتشديد ، ومن قرأ والليسع[3] وهو اسم واحد لنبى من الأنبياء . قلت قد قدمنا قصة ذا الكفل بعد قصة أيوب عليهما السلام ؛ لأنه قد قيل إنه ابن أيوب ، فالله أعلم .

فصـــل

قال ابن جرير وغيره : ثم مَرِج[4] أمر بنى إسرائيل وعظمت منهم الخطوب والخطايا ، وقتلوا من قتلوا من الأنبياء ، وسلط الله عليهم بدل الأنبياء ملوكاً جبارين يظلمونهم ويسفكون دماءهم . وسلط الله عليهم الأعداء من غيرهم أيضاً . وكانوا إذا قتلوا أحداً من الأعداء يكون معهم تابوت الميثاق الذى كان فى قبة الزمان ، كما تقدم ذكره ؛ فكانوا ينصرون ببركته ، وبما جعل الله فيه من السكينة والبقية مما ترك آل موسى وآل هارون . فلما كان فى بعض حروبهم مع أهل غزة وعسقلان ـ غلبوهم

---

(١) الآية : ٨٦ (٢) الآية : ٤٨ (٣) أى بادخال اللام عليه كما أدخلت فى اليزيد . وصاحب هذه القراءة : حمزة والكسائى . (٤) أى اختلط واضطرب

وقهروهم على أخذه ، فانتزعوه من أيديهم ، فلما علم بذلك ملك بنى إسرائيل فى ذلك الزمان ، مالت عنقه فمات كمداً . وبقى بنو إسرائيل كالغنم بلا راع ، حتى بعث الله فيهم نبياً من الأنبياء يقال له «شمويل» ، فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكا ليقاتلوا معه الأعداء ، فكان من أمرهم ماسنذكره مما قص الله فى كتابه . قال ابن جرير : فكان من وفاة يوشع بن نون إلى أن بعث الله عز وجل شمويل ابن بالى ـ أربعمائة سنة وستون سنة . ثم ذكر تفصيلها بمدد الملوك الذين ملكوا عليهم ، وسماهم واحداً واحداً ، وقد تركنا ذكرهم قصداً .

قصة شمويل « عليه السلام » ، وفيها بدأ أمر داود « عليه السلام »

هو شمويل ، ويقال له : أشمويل بن بالى بن علقمة بن يرخام بن اليهو بن تهو بن صوف بن علقمة ابن ماحث بن عموصا بن غزريا . قال مقاتل : وهو من ورثة هارون ، وقال مجاهد : هو أشمويل بن هلفاقا ، ولم يرفع فى نسبه أكثر من هذا ، فالله أعلم .

حكى السدى بإسناده عن ابن عباس وابن مسعود وأناس من الصحابة ، والثعلبى وغيرهم : أنه لما غلبت العمالقة من أرض غزة وعسقلان ـ على بنى إسرائيل ، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، وسبوا من أبنائهم جمعاً كثيراً ، وانقطعت النبوة من سبط لاوى ، ولم يبق فيهم إلا امرأة حبلى جعلت تدعو الله عز وجل أن يرزقها ولداً ذكراً ، فولدت غلاماً فسمته أشمويل . ومعناه بالعبرانية « إسماعيل » أى سمع الله دعائى . فلما ترعرع بعثته إلى المسجد وأسلمته عند رجل صالح فيه يكون عنده ؛ ليتعلم من خيره وعبادته فكان عنده . فلما بلغ أشده بينما هو ذات ليلة نائم إذا صوت يأتيه من ناحية المسجد ، فانتبه مذعوراً فظنه الشيخ يدعوه ، فسأله : أدعوتنى ؟ فكره أن يفزعه فقال : نعم . ثم ناداه الثانية فكذلك ، ثم الثالثة فإذا جبريل يدعوه ، فجاءه فقال : إن ربك قد بعثك إلى قومك ، فكان من أمره معهم ماقص الله فى كتابه . قال الله تعالى فى كتابه العزيز : (ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى ، إذ قالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله ، قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ، قالوا وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ؟ فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين * وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا ، قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ؟ ولم يؤت سعة من المال ؟ قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم ، والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم * وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم ، وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة ، إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين * فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر ؛ فمن شرب منه فليس

منى ، ومن لم يطعمه فإنه منى . إلا من اغترف غرفة بيده ، فشربوا منه إلا قليلا منهم ، فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه ، قالوا لاطاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ، قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين * ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين * فهزموهم بإذن الله ، وقتل داود جالوت ، وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين[1]) .

قال أكثر المفسرين : كان نبى هؤلاء القوم المذكورين فى هذه القصة ــ هو « شمويل » ، وقيل شمعون ، وقيل هما واحد ، وقيل يوشع وهذا بعيد ؛ لما ذكره الإمام أبو جعفر بن جرير فى تاريخه : أن بين موت يوشع وبعثة شمويل ــ أربعمائة سنة وستين سنة ، فالله أعلم .

والمقصود أن هؤلاء القوم لما أنهكتهم الحروب وقهرهم الأعداء ــ سألوا نبى الله فى ذلك الزمان ، وطلبوا منه أن ينصب لهم ملكا يكونون تحت طاعته ؛ ليقاتلوا من ورائه ومعه وبين يديه الأعداء ، فقال لهم : (هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ، قالوا ومالنا ألا نقاتل فى سبيل الله) أى وأى شىء يمنعنا من القتال ؟ (وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا) ، يقولون نحن محروبون موتورون ، فحقيق لنا أن نقاتل عن أبنائنا المنهورين المستضعفين فيهم المأسورين فى قبضتهم . قال تعالى : (فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين) كما ذكر فى آخر القصة : أنه لم يجاوز النهر مع الملك إلا القليل ، والباقون رجعوا ونكلوا عن القتال . (وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا) قال الثعلبي : وهو طالوت بن قيش بن أفيل بن صارو بن تحورت بن أفيح بن أنيس بن بنيامين بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم الخليل .

قال عكرمة والسدى : كان سقاءاً ، وقال وهب بن منبه : كان دباغاً . وقيل غير ذلك ، فالله أعلم . ولهذا : (قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال) وقد ذكروا أن النبوة كانت فى سبط لاوى ، وأن الملك كان فى سبط يهوذا ، فلما كان هذا من سبط بنيامين ــ نفروا منه ، وطعنوا فى إمارته عليهم وقالوا : (نحن أحق بالملك منه) . وذكروا أنه فقير لاسعة من المال معه ، فكيف يكون مثل هذا ملكا ؟ (قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم) .
قيل كان الله قد أوحى إلى شمويل : أن أىّ بنى إسرائيل كان طوله على طول هذه العصا ، وإذا حضر عندك يفور هذا القرن الذى فيه من دهن القدس ــ فهو ملكهم ، فجعلوا يدخلون ويقيسون أنفسهم بتلك العصا ، فلم يكن أحد منهم على طولها سوى طالوت ، ولما حضر عند شمويل فار ذلك القرن فدهنه منه

---

(١) الآيات : ٢٤٦ ــ ٢٥١ من سورة البقرة .

وعينه الملك عليهم ، وقال لهم : (إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم) ؛ قيل فى أمر الحروب ، وقيل بل مطلقاً (والجسم) قيل الطول ، وقيل الجمال . والظاهر من السياق أنه كان أجلهم وأعلمهم بعد نبيهم عليه السلام . (والله يؤتى ملكه من يشاء) فله الحكم وله الخلق والأمر (والله واسع عليم ﴿ وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم ، وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون تحمله الملائكة ، إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين) . وهذا أيضاً من بركة ولاية هذا الرجل الصالح عليهم ويمنه عليهم ؛ أن يرد الله عليهم التابوت الذى كان سلب منهم ، وقهرهم الأعداء عليه ، وقد كانوا ينصرون على أعدائهم بسببه ، (فيه سكينة من ربكم) قيل طشت من ذهب كان يغسل فيه صدور الأنبياء ، وقيل السكينة مثل الريح الخجوج[1] وقيل صورتها مثل الهرة ، إذا صرخت فى حال الحرب أيقن بنو إسرائيل بالنصر (وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون) ، قيل كان فيه رضاض[2] الألواح وشىء من المن الذى كان نزل عليهم بالتيه (تحمله الملائكة) أى تأتيكم به الملائكة يحملونه وأنتم ترون ذلك عياناً ؛ ليكون آية لله عليكم وحجة باهرة على صدق ماأقوله لكم ، وعلى صحة ولاية هذا الملك الصالح عليكم ، ولهذا قال : (إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين) .

وقيل إنه لما غلب العمالقة على هذا التابوت ــ كان مافيه ما ذكر من السكينة والبقية المباركة . وقيل كان فيه التوراة أيضاً ، فلما استقر فى أيديهم وضعوه تحت صنم لهم بأرضهم ، فلما أصبحوا إذا التابوت على رأس الصنم ، فوضعوه تحته . فلما كان اليوم الثانى إذا التابوت فوق الصنم . فلما تكرر هذا علموا أن هذا أمر من الله تعالى ؛ فأخرجوه من بلدهم وجعلوه فى قرية من قراهم ، فأخذهم داء فى رقابهم . فلما طال عليهم هذا جعلوه فى عجلة وربطوها فى بقرتين وأرسلوهما ، فيقال إن الملائكة ساقتهما حتى جاءوا بهما ملأ بنى إسرائيل وهم ينظرون ، كما أخبرهم نبيهم بذلك ، فالله أعلم على أى صفة جاءت به الملائكة . والظاهر أن الملائكة كانت تحمله بأنفسهم كما هو المفهوم بالجنود من الآية ، والله أعلم . وإن كان الأول قد ذكره كثير من المفسرين أو أكثرهم .

(فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر ، فمن شرب منه فليس منى ، ومن لم يطعمه فإنه منى إلا من اغترف غرفة بيده) . قال ابن عباس وكثير من المفسرين : هذا النهر هو نهر الأردن وهو المسمى بالشريعة ، فكان من أمر طالوت بجنوده عند هذا النهر ، عن أمر نبى الله له ، عن أمر الله له اختباراً وامتحاناً ــ أن من شرب من هذا النهر فلا يصحبنى فى هذه الغزوة ، ولا يصحبنى إلا من لم يطعمه ، إلا غرفة فى يده . قال الله تعالى : (فشربوا منه إلا قليلا منهم) . قال السدى : كان الجيش

---

(١) هي الريح الشديدة المر ، أو الملتوية فى هبوبها . (٢) أي فتاتها بعد أن تكسرت ، والرض : الدق والجرش .

ثمانين ألفاً فشرب منه ستة وسبعون ألفاً ، فبقى معه أربعة آلاف ، كذا قال . وقد روى البخارى فى صحيحه من حديث إسرائيل وزهير والثورى عن أبى إسحاق عن البراء بن عازب قال : كنا أصحاب محمد ﷺ نتحدث أن عدّة أصحاب بدر – على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر ، ولم يجاوز معه إلا بضعة عشر وثلثمائة مؤمن . وقول السدى : أن عدة الجيش كانوا ثمانين ألفاً – فيه نظر ؛ لأن أرض بيت المقدس لاتحتمل أن يجتمع فيها جيش مقاتلة يبلغون ثمانين ألفاً ، والله أعلم .

قال الله تعالى : (فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لاطاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده) أى استقلوا أنفسهم واستضعفوها عن مقاومة أعدائهم ، بالنسبة إلى قلتهم وكثرة عدد عدوهم ، (قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين) يعنى بها الفرسان منهم ، والفرسان أهل الإيمان والإيقان ، الصابرون على الجلاد والجدال والطعان .

(ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين) ، طلبوا من الله أن يفرغ عليهم الصبر – أى يغمرهم به – من فوقهم ، فتستقر قلوبهم ولا تقلق ، وأن يثبت أقدامهم فى مجال الحرب ومعترك الأبطال ، وحومة الوغى والدعاء إلى النزال ، فسألوا التثبت الظاهر والباطن ، وأن ينزل عليهم النصر على أعدائهم وأعدائه ؛ من الكافرين الجاحدين بآياته وآلائه . فأجابهم العظيم القدير ، السميع البصير الحكيم الخبير إلى ماسألوا ، وأنالهم ماإليه فيه رغبوا ، ولهذا قال : (فهزموهم بإذن الله) أى بحول الله لابحولهم ، وبقوة الله ونصره لابقوتهم وعددهم ، مع كثرة أعدائهم ، وكمال عددهم ؛ كما قال تعالى : (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون) . وقوله تعالى : (وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء) – فيه دلالة على شجاعة داود عليه السلام ، وأنه قتله قتلاأذل به جنده وكسره ، ولا أعظم من غزوة يقتل فيها ملك عدوه ، فيغنم بسبب ذلك الأموال الجزيلة ، ويأسر الأبطال والشجعان والأقران ، وتعلو كلمة الإيمان على الأوثان . ويدال[1] لأولياء الله على أعدائه ، ويظهر الدين الحق على الباطل وأوليائه .

وقد ذكر السدى فيما يرويه : أن داود عليه السلام ، وكان أصغر أولاد أبيه – وكانوا ثلاثة عشر ذكرا – كان سمع طالوت ملك بنى إسرائيل وهو يحرض بنى إسرائيل على قتل جالوت وجنوده وهو يقول : من قتل جالوت زوجته بابنتى ، وأشركته فى ملكى . وكان داود عليه السلام يرمى بالقذافة – وهى المقلاع – رمياً عظيما . فبينما هو سائر مع بنى إسرائيل إذ ناداه حجر : أن خذنى فإن بى تقتل جالوت فأخذه ، ثم حجر آخر كذلك ، ثم آخر كذلك . فأخذ الثلاثة فى مخلاته ، فلما تواجه الصفان برز جالوت ودعا إلى

(١) أي يمنحون الغلبة والنصر ، والإدالة : الغلبة .

نفسه ، فتقدم إليه داود « فقال له ارجع فإنى أكره قتلك « فقال لـكنى أحب قتلك . وأخذ تلك الأحجار الثلاثة فوضعها فى القذافة ، ثم أدارها فصارت الثلاثة حجراً واحداً . ثم رمى بها جالوت ففلق رأسه ، وفر جيشه منهزماً . فوفى له طالوت بما وعده ، فزوجه ابنته ، وأجرى حكمه فى ملـكه « وعظم داود عليه السلام عند بنى إسرائيل ، وأحبوه ومالوا إليه أكثر من طالوت . فذكروا أن طالوت حسده وأراد قتله ، واحتال على ذلك فلم يصل إليه ، وجعل العلماء ينهون طالوت عن قتل داود « فتسلط عليهم فقتلهم ، حتى لم يبق منهم إلا القليل . ثم حصل له توبة وندم وإقلاع عما سلف منه ، وجعل يكثر من البكاء ويخرج إلى الجبانة فيبكى حتى يبل الثرى بدموعه « فنودى ذات يوم من الجبانة « أن يا طالوت قتلتنا ونحن أحياء ، وآذيتنا ونحن أموات « فازداد لذلك بكاؤه وخوفه ، واشتد وجله . ثم جعل يسأل عن عالم يسأله عن أمره ، وهل له من توبة ؟ فقيل له : وهل أبقيت عالماً ؟ حتى دل على امرأة من العابدات ، فأخذته فذهبت به إلى قبر يوشع عليه السلام ، قالوا : فدعت الله فقام يوشع من قبره ، فقال أقامت القيامة ؟ فقالت ـ لا . ولـكن هذا طالوت يسألك هل له من توبة ؟ فقال : نعم . ينخلع من الملك ويذهب فيقاتل فى سبيل الله حتى يقتل ، ثم عاد ميتاً . فترك الملك لداود عليه السلام وذهب ومعه ثلاثة عشر من أولاده ، فقاتلوا فى سبيل الله حتى قتلوا . قالوا : فذلك قوله : (وآتاه الله الملك والحـكمة وعلمه مما يشاء) . هكذا ذكره ابن جرير فى تاريخه من طريق السدى بإسناده . وفى بعض هذا نظر ونكارة ، والله أعلم .

وقال محمد بن إسحق : النبى الذى بعث فأخبر طالوت بتوبته — هو اليسع بن أخطوب ، حكاه ابن جرير أيضاً . وذكر الثعلبى : أنها أتت به إلى قبر أشمويل فعاتبه على ما صنع بعده من الأمور ، وهذا أنسب . ولعله إنما رآه فى النوم ـ لا أنه قام من القبر حياً ؛ فإن هذا إنما يكون معجزة لنبى ، وتلك المرأة لم تـكن نبية « والله أعلم . وزعم أهل التوراة أن مدة ملك طالوت إلى أن قتل مع أولاده — أربعون سنة ، فالله أعلم .

قصة داود « عليه السلام » وما كان فى أيامه
وذكر فضائله وشمائله ودلائل نبوته وإعلامه

هو داود بن إيشا[1] بن عويد بن عابر بن سلمون بن نحشون بن عويناذب بن إرم بن حصرون ابن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم الخليل ، عبد الله ونبيه وخليفته فى أرض بيت

(١) الذى فى ابن جرير ـ داود بن ايشى بن عويد بن باعز بن سلمون بن نحشون بن عمى ناذب بن رام ... الخ .

المقدس . قال محمد بن إسحق عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبه : كان داود عليه السلام قصيراً أزرق العينين قليل الشعر طاهر القلب نقيه . وتقدم أنه لما قتل جالوت — وكان قتله له فيما ذكر ابن عساكر عند قصر أم حكيم بقرب مرج الصفر — أحبته بنو إسرائيل ، ومالوا إليه وإلى ملكه عليهم ، فكان من أمر طالوت ما كان ، وصار الملك إلى داود عليه السلام ، وجمع الله له بين الملك والنبوة ، بين خيرى الدنيا والآخرة . وكان الملك يكون فى سبط والنبوة فى آخر ، فاجتمع فى داود هذا وهذا ، كما قال تعالى : (وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين) أى لولا إقامة الملوك حكاماً على الناس — لأكل قوى الناس ضعيفهم ؛ ولهذا جاء فى بعض الآثار : « السلطان ظل الله فى أرضه » . وقال أمير المؤمنين عثمان بن عفان : إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن .

وقد ذكر ابن جرير فى تاريخه : أن جالوت لما بارز طالوت ـ قال له اخرج إلى وأخرج إليك ، فندب طالوت الناس ، فانتدب داود فقتل جالوت . قال وهب بن منبه : فمال الناس إلى داود حتى لم يكن لطالوت ذكر ، وخلعوا طالوت وولوا عليهم داود . وقيل إن ذلك عن أمر « شمويل » حتى قال بعضهم : إنه ولاه قبل الوقعة . قال ابن جرير : والذى عليه الجمهور ـ أنه إنما ولى ذلك بعد قتل جالوت ، والله أعلم . وروى ابن عساكر عن سعيد بن عبد العزيز : أن قتله جالوت كان عند قصر أم حكيم ، وأن النهر الذى هناك هو المذكور فى الآية ، فالله أعلم . وقال تعالى : (ولقد آتينا داود منا فضلا ، يا جبال أوبى معه والطير ، وألنا له الحديد * أن اعمل سابغات وقدر فى السرد واعملوا صالحاً إنى بما تعملون بصير[1]) . وقال تعالى : (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين * وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون[2]) . أعانه الله على عمل الدروع من الحديد ليحصن المقاتلة من الأعداء ، وأرشده إلى صنعتها وكيفيتها فقال : (وقدر فى السرد) ـ أى لا تدق المسمار فيقلق ولا تغلظه فيفصم ، قاله مجاهد وقتادة والحكم وعكرمة .

قال الحسن البصرى وقتادة والأعمش : كان الله قد ألان له الحديد حتى كان يفتله بيده ، لا يحتاج إلى نار ولا مطرقة . قال قتادة : فكان أول من عمل الدروع من زرد ، وإنما كانت قبل ذلك من صفائح . قال ابن شوذب : كان يعمل كل يوم درعاً يبيعها بستة آلاف درهم ، وقد ثبت فى الحديث : « أن أطيب ما أكل الرجل من كسبه . وإن نبى الله داود كان يأكل من كسب يده » . وقال تعالى : (واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب * إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق * والطير

---

(١) الآيتان : ١٠ ، ١١ من سورة سبأ (٢) الآيتان : ٧٩ ، ٨٠ من سورة الأنبياء .

محشورة كل له أواب ۞ وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب)[١] قال ابن عباس ومجاهد : الأيد – القوة فى الطاعة ، يعنى ذا قوة فى العبادة والعمل الصالح . قال قتادة : أعطى قوة فى العبادة ، وفقهاً فى الإسلام ، قال : وقد ذكر لنا أنه كان يقوم الليل ويصوم نصف الدهر . وقد ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « أحب الصلاة إلى الله صلاة داود ، وأحب الصيام إلى الله صيام داود ؛ كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه ، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، ولا يفر إذا لاقى » وقوله : (إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق ۞ والطير محشورة كل له أواب) كما قال : (ياجبال أوبى معه والطير) أى سبحى معه . قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد فى تفسير هذه الآية ، (إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق) أى عند آخر النهار وأوله ؛ وذلك أن الله تعالى كان قد وهبه من الصوت العظيم مالم يعطه أحداً بحيث إنه كان إذا ترنم بقراءة كتابه يقف الطير فى الهواء يُرجّع بترجيعه ويسبح بتسبيحه ، وكذلك الجبال تجيبه وتسبح معه كلما سبح بكرة وعشيا ، صلوات الله وسلامه عليه .

وقال الأوزاعى : حدثنى عبد الله بن عامر قال : أعطى داود من حسن الصوت مالم يعط أحد قط ؛ حتى إن كان الطير والوحش ينعكف حوله حتى يموت عطشاً وجوعاً ، وحتى إن الأنهار لتقف . وقال وهب بن منبه : كان لايسمعه أحد إلا حجل كهيئة الرقص ، وكان يقرأ الزبور بصوت لم تسمع الآذان بمثله ، فيعكف الجن والإنس والطير والدواب على صوته حتى يهلك بعضها جوعاً . وقال أبو عوانة الاسفراينى : حدثنا أبو بكر بن أبى الدنيا ، حدثنا محمد بن منصور الطوسى ، سمعت صبيحاً أبا تراب قال أبو عوانة : وحدثنى أبو العباس المدنى ، حدثنا محمد بن صالح العدوى ، حدثنا سيار – هو ابن حاتم – عن جعفر عن مالك قال : كان داود عليه السلام إذا أخذ فى قراءة الزبور تفتقت العذارى ، وهذا غريب . وقال عبدالرزاق عن ابن جريج : سألت عطاء عن القراءة على الغناء فقال : ومابأس بذلك ، سمعت عبيد ابن عمر يقول : كان داود عليه السلام يأخذ المعزفة[٢] فيضرب بها فيقرأ عليها فترد عليه صوته – يريد بذلك أن يبكى وتبكى . وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر عن الزهرى عن عروة عن عائشة قالت : سمع رسول الله ﷺ صوت أبى موسى الأشعرى وهو يقرأ فقال : «لقد أوتى أبو موسى من مزامير آل داود » ، وهذا على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه من هذا الوجه .

وقال أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا حماد بن سلمة عن محمد بن عمر عن أبى سلمة عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : « لقد أعطى أبو موسى من مزامير داود » على شرط مسلم . وقد روينا عن أبى عثمان الترمذى أنه قال : لقد سمعت البربط[٣] والمزمار ، فما سمعت صوتاً أحسن من صوت أبى موسى

---

(١) الآيات : ١٧ – ٢٠ من سورة ص .

(٢) المعزفة : واحدة المعازف ، وهى الملاهى ؛ كالعود والطنبور ، والعازف : اللاعب بها والمغنى .

(٣) البربط كجعفر – العود .

الأشعرى ، وقد كان مع هذا الصوت الرخيم سريع القراءة لكتابه الزبور ؛ كما قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر عن همام عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « خفف على داود القراءة ، فكان يأمر بدابته فتسرج ، فكان يقرأ القرآن من قبل أن تسرج دابته ، وكان لايأكل إلا من عمل يديه » وكذلك رواه البخارى منفرداً به عن عبد الله بن محمد عن عبد الرزاق به . ولفظه : « خفف على داود القرآن فكان يأمر بدوابه فتسرج ، فيقرأ القرآن قبل أن تسرج دوابه ، ولايأكل إلا من عمل يديه » ، ثم قال البخارى : ورواه موسى بن عقبة عن صفوان ــ هو ابن سليم ــ عن عطاء بن يسار عن أبى هريرة عن النبى ﷺ . وقد أسنده ابن عساكر فى ترجمة داود عليه السلام فى تاريخه ، من طرق ؛ عن إبراهيم بن طهمان عن موسى بن عقبة ، ومن طريق أبى عاصم عن أبى بكر السبرى عن صفوان بن سليم به . والمراد بالقرآن ههنا ــ الزبور الذى أنزل عليه وأوحاه إليه . وذكر رواية أشبه أن تكون محفوظة : أنه كان ملكا له أتباع ، فكان يقرأ الزبور بمقدار ما تسرج الدواب . وهذا أمر سريع مع التدبر والترنم والتغنى به على وجه التخشع ، صلوات الله وسلامه عليه . وقد قال الله تعالى : (وآتينا داود زبوراً) والزبور كتاب مشهور . وذكرنا فى التفسير ــ الحديث الذى رواه أحمد وغيره : أنه أنزل فى شهر رمضان وفيه من المواعظ والحكم ماهو معروف لمن نظر فيه . وقوله : (وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) أى أعطيناه ملكا عظيما وحكما نافذاً .

روى ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس : أن رجلين تداعيا إلى داود عليه السلام فى بقرة ؛ ادعى أحدهما على الآخر أنه اغتصبها منه ، فأنكر المدعى عليه فأرجأ أمرهما إلى الليل ، فلما كان الليل أوحى الله إليه أن يقتل المدعى . فلما أصبح قال له داود : إن الله قد أوحى إلىّ أن أقتلك ، فأنا قاتلك لا محالة ، فما خبرك فيما ادعيته على هذا ؟ قال : والله يانبى الله إنى لمحق فيما ادعيت عليه ، ولكنى كنت اغتلت أباه قبل هذا ، فأمر به داود فقتل . فعظم أمر داود فى بنى إسرائيل جداً ، وخضعوا له خضوعاً عظيما . قال ابن عباس : وهو قوله تعالى : (وشددنا ملكه) . وقوله تعالى : (وآتيناه الحكمة) أى النبوة (وفصل الخطاب) قال شريح والشعبى وقتادة وأبو عبد الرحمن السلمى وغيرهم : فصل الخطاب ــ الشهود والأيمان ؛ يعنون بذلك البينة على المدعى واليمين على من أنكر . وقال مجاهد والسدى : هو إصابة القضاء وفهمه . وقال مجاهد : هو الفصل فى الكلام وفى الحكم ، واختاره ابن جرير . وهذا لاينافى ماروى عن أبى موسى أنه قول : « أما بعد » . وقال وهب بن منبه : لما كثر الشر وشهادات الزور فى بنى إسرائيل ــ أعطى داود سلسلة لفصل القضاء ، فكانت ممدودة من السماء إلى صخرة بيت المقدس ، وكانت من ذهب ، فإذا تشاجر الرجلان فى حق ، فأيهما كان محقاً نالها والآخر لايصل إليها ، فلم تزل كذلك حتى أودع رجل لؤلؤة فجحدها منه ، واتخذ عكازة وأودعها فيها ، فلماحضرا عند الصخرة تناولها

المدعى ، فلما قيل للآخر خذها بيدك ، عمد إلى العكازة فأعطاها المدعى وفيها تلك اللؤلؤة ، وقال : اللهم إنك تعلم أنى دفعتها إليه ، ثم تناول السلسلة فنالها ، فأشكل أمرها على بنى إسرائيل ، ثم رفعت سريعاً من بينهم . ذكره بمعناه غير واحد من المفسرين ، وقد رواه إسحق بن بشر عن إدريس بن سنان عن وهب به بمعناه .

(وهل أتاك نبؤا الخصم إذ تسوروا المحراب * إذ دخلوا على داود ففزع منهم ، قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض ، فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط * إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة ، فقال أكفلنيها وعزنى فى الخطاب * قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ، وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم ، وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب * فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب[1]) .

وقد ذكر كثير من المفسرين من السلف والخلف هاهنا قصصاً وأخباراً أكثرها إسرائيليات ، ومنها ماهو مكذوب لامحالة ، تركنا إيرادها فى كتابنا قصداً ؛ اكتفاء واقتصاراً على مجرد تلاوة القصة من القرآن العظيم ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

وقد اختلف الأئمة فى سجدة « صٓ » هل هى من عزائم السجود ؟ أو إنما هى سجدة شكر ليست من عزائم السجود ؟ على قولين . قال البخارى : حدثنا محمد بن عبد الله ، حدثنا محمد بن عبيد الطنافسى عن العوّام قال : سألت مجاهداً عن سجدة صٓ[2] فقال : سألت ابن عباس من أين سجدت ؟ قال أوما تقرأ : (ومن ذريته داود وسليمان ـ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) ، فكان داود ممن أمر نبيكم ﷺ أن يقتدى به ، فسجدها داود عليه السلام فسجدها رسول الله ﷺ » . وقد قال الإمام أحمد : حدثنا إسمعيل ـ هو ابن علية ـ عن أيوب عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال فى السجود فى صٓ : ليست من عزائم السجود ، وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها . وكذا رواه البخارى وأبو داود والترمذى والنسائى من حديث أيوب ، وقال الترمذى هو حسن صحيح . وقال النسائى : أخبرنى إبراهيم ابن الحسن المقسمى ، حدثنا حجاج بن محمد عن عمر بن ذر عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن النبى ﷺ سجد فى صٓ وقال : «سجدها داود توبة ونسجدها شكراً .» تفرد به أحمد ورجاله ثقات ، وقال أبو داود : حدثنا أحمد بن صالح ، حدثنا ابن وهب ، أخبرنى عمرو بن الحارث عن سعيد ابن أبى هلال عن عياض بن عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، عن أبى سعيد الخدرى قال : قرأ رسول الله ﷺ وهو على المنبر : صٓ ، فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد معه الناس ، فلما كان يوم آخر

---

(١) الآيات : ٢١ ـ ٢٥ من سورة صٓ .

(٢) أى كيف هى مع أن اللفظ لفظ الركوع ، (خر راكعا)

قرأها ، فلما بلغ السجدة استشرف(١) الناس للسجود فقال : « إنما هى توبة نبى ولكن رأيتكم استشرفتم » فنزل وسجد . تفرد به أبو داود وإسناده على شرط الصحيح . وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا يزيد بن زريع ، حدثنا حميد ، حدثنا بكر ـ هو ابن عمر وأبو الصديق الناجى : أنه أخبره أن أبا سعيد الخدرى رأى رؤيا أنه يكتب ص ، فلما بلغ إلى التى يسجد بها رأى الدواة والقلم وكل شىء بحضرته ـ انقلب ساجداً . قال فقصها على النبى ﷺ فلم يزل يسجد بها بعد ، تفرد به أحمد . وروى الترمذى وابن ماجة من حديث محمد بن يزيد بن خنيس عن الحسن بن محمد بن عبيد الله بن أبى يزيد قال : قال لى ابن جريج : حدثنى جدك عبيد الله بن أبى يزيد ، عن ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال يارسول الله : إنى رأيت فيما يرى النائم ، كأنى أصلى خلف شجرة ، فقرأت السجدة فسجدت الشجرة بسجودى ، فسمعتها تقول وهى ساجدة : « اللهم اكتب لى بها عندك أجراً ، واجعلها لى عندك ذخراً ، وضع عنى بها وزراً ، واقبلها منى كما قبلت من عبدك داود » . قال ابن عباس : فرأيت النبى ﷺ قام فقرأ السجدة ثم سجد ، فسمعته يقول وهو ساجد كما حكى الرجل عن كلام الشجرة . ثم قال الترمذى غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه .

وقد ذكر بعض المفسرين : أنه عليه السلام مكث ساجداً أربعين يوماً ، وقاله مجاهد والحسن وغيرهما وورد فى ذلك حديث مرفوع ، لكنه من رواية يزيد الرقاشى وهو ضعيف متروك الرواية . قال الله تعالى : (فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) أى إن له يوم القيامة لزلفى ـ وهى القربة التى يقربه الله بها ، ويدنيه من حظيرة قدسه بسببها ، كما ثبت فى حديث : « المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين ؛ الذين يقسطون فى أهليهم وحكمهم وما ولوا » . وقال الإمام أحمد فى مسنده : حدثنا يحيى بن آدم ، حدثنا فضيل عن عطية عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله ﷺ : « إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلساً ـ إمام عادل ، وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذاباً ـ إمام جائر » . وهكذا رواه الترمذى من حديث فضيل بن مرزوق الأغر به ، وقال لانعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه . وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا عبد الله بن أبى زياد ، حدثنا سيار ، حدثنا جعفر بن سليمان : سمعت مالك بن دينار فى قوله : (وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) ـ قال : يقوم داود عليه السلام يوم القيامة عند ساق العرش ، فيقول الله : يا داود مجدنى اليوم بذلك الصوت الحسن الرخيم ، الذى كنت تمجدنى به فى الدنيا ، فيقول : وكيف وقد سلبته ؟ فيقول إنى أرده عليك اليوم . قال : فيرفع داود بصوت يستفرغ نعيم أهل الجنان .

(يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل

---

(١) أى انتصبوا وتهيأوا .

الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) . هذا خطاب من الله تعالى مع داود . والمراد ولاة الأمور وحكام الناس ، وأمرهم بالعدل واتباع الحق المنزل من الله — لا ماسواه من الآراء والأهواء ، وتوعد من سلك غير ذلك وحكم بغير ذلك . وقد كان داود عليه السلام هو المقتدى به فى ذلك الوقت ؛ فى العدل وكثرة العبادة وأنواع القربات ، حتى إنه كان لا يمضى ساعة من آناء الليل وأطراف النهار إلا وأهل بيته فى عبادة ليلا ونهاراً ؛ كما قال تعالى : (اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادى الشكور) . قال أبو بكر بن أبى الدنيا : حدثنا إسمعيل بن إبراهيم بن بسام ، حدثنا صالح المزى عن أبى عمران الجونى ، عن أبى الجلد قال : قرأت فى مسألة داود عليه السلام أنه قال : يا رب كيف لى أن أشكرك وأنا لا أصل إلى شكرك إلا بنعمتك ؟ قال فأتاه الوحى : « أن يا داود ألست تعلم أن الذى بك من النعم منى ؟ قال : بلى يارب ، قال فإنى أرضى بذلك منك » . وقال البيهقى : أنبأنا أبو عبد الله الحافظ ، أنبأنا أبو بكر بن بالويه ، حدثنا محمد بن يونس القرشى ، حدثنا روح بن عبادة ، حدثنى عبد الله ابن لاحق عن ابن شهاب قال قال داود : «الحمد لله كما ينبغى لكرم وجهه وعز جلاله ، فأوحى الله إليه : إنك أتعبت الحفظة يا داود » . ورواه أبو بكر بن أبى الدنيا عن على بن الجعد عن الثورى مثله .

وقال عبد الله بن المبارك فى كتاب الزهد : أنبأنا سفيان الثورى عن رجل عن وهب بن منبه قال : إن فى حكمة آل داود : حق على العاقل أن لا يغفل عن أربع ساعات ؛ ساعة يناجى فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يفضى فيها إلى إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ويصدقونه عن نفسه ، وساعة يخلى بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويجمل ؛ فإن هذه الساعة عون على هذه الساعات ، وإجمام للقلوب . وحق على العاقل أن يعرف زمانه ، ويحفظ لسانه ، ويقبل على شأنه . وحق على العاقل أن لا يظعن إلا فى إحدى ثلاث : زاد لمعاده ، ومرمة لمعاشه[1] ، ولذة فى غير محرم . وقد رواه أبو بكر بن أبى الدنيا عن أبى بكر بن أبى خيثمة عن ابن مهدى عن سفيان عن أبى الأغر عن وهب بن منبه فذكره . ورواه أيضاً عن على بن الجعد عن عمر بن الهيثم الرقاشى عن أبى الأغر عن وهب بن منبه فذكره . وأبو الأغر هذا — هو الذى أبهمه ابن المبارك فى روايته . قاله ابن عساكر وقال عبد الرزاق : أنبأنا بشر ابن رافع ، حدثنا شيخ من أهل صنعاء يقال له أبو عبد الله قال : سمعت وهب بن منبه ، فذكر مثله .

وقد روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة داود عليه السلام أشياء كثيرة مليحة . منها قوله : كن لليتيم كالأب الرحيم ، واعلم أنك كما تزرع كذلك تحصد . وروى بسند غريب مرفوع قال داود : يازارع السيئات أنت تحصد شوكها وحسكها . وعن داود عليه السلام أنه قال : مثل الخطيب الأحمق فى نادى

(١) المرمة بالفتح والكسر : من ذوات الظلف كالفم للانسان . والرمة : ما على وجه الأرض من فتات الحشيش .

القوم — كمثل المغنى عند رأس الميت . وقال أيضاً : ما أقبح الفقر بعد الغنى ، وأقبح من ذلك الضلالة بعد الهدى . وقال : انظر ماتكره أن يذكر عنك فى نادى القوم فلا تفعله إذا خلوت . وقال : لاتعدن أخاك بما لاتنجزه له ؛ فإن ذلك عداوة مابينك و بينه . وقال محمد بن سعد : أنبأنا محمد بن عمر الواقدى ، حدثنى هشام بن سعد عن عمر مولى عفرة قال : قالت يهود — لما رأت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتزوج النساء : انظروا إلى هذا الذى لا يشبع من الطعام ، ولا والله ماله همة إلا إلى النساء . حسدوه لكثرة نسائه وعابوه بذلك ، فقالوا لو كان نبياً مارغب فى النساء . وكان أشدهم فى ذلك حيى بن أخطب ، فأكذبهم الله وأخبرهم بفضل الله وسعته على نبيه صلوات الله عليه وسلامه فقال : (أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله) يعنى بالناس — رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ (فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما) — يعنى ما أتى الله سليمان بن داود ؛ كانت له ألف امرأة : سبعمائة مهرية ، وثلاثمائة سرية . وكانت لداود عليه السلام مائة امرأة : منهن امرأته «أوريا» أم سليمان ابن داود التى تزوجها بعد الفتنة ، وهذا أكثر مما لمحمد صلى الله عليه وسلم . وقد ذكر الكلبى نحو هذا ، وأنه كان لداود عليه السلام مائة امرأة ، ولسليمان ألف امرأة ، منهن ثلاثمائة سرية .

وروى الحافظ فى تاريخه فى ترجمة صدقة الدمشقى ، الذى يروى عن ابن عباس من طريق الفرج ابن فضالة الحمصى ، عن أبى هريرة الحمصى عن صدقة الدمشقى : أن رجلا سأل ابن عباس عن الصيام فقال : لأحدثنك بحديث كان عندى فى البحث[1] مخزوناً ؛ إن شئت أنبأتك بصوم داود ، فإنه كان صواماً قواماً ، وكان شجاعاً لا يفر إذا لاقى ، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أفضل الصيام صيام داود» ، وكان يقرأ الزبور بسبعين صوتاً يكوّن[2] فيها ، وكانت له ركعة من الليل يبكى فيها نفسه ، ويبكى ببكائه كل شىء ، ويصرف بصوته الهموم والمحموم . وإن شئت أنبأتك بصوم ابنه سليمان ؛ فإنه كان يصوم من أول الشهر ثلاثة أيام ، ومن وسطه ثلاثة أيام ، ومن آخره ثلاثة أيام ، يستفتح الشهر بصيام ووسطه بصيام ويختمه بصيام . وإن شئت أنبأتك بصوم ابن العذراء البتول عيسى بن مريم ؛ فإنه كان يصوم الدهر ، ويأكل الشعير ، ويلبس الشعر ؛ يأكل ما وجد ولا يسأل عما فقد ، ليس له ولد يموت ولا بيت يخرب ، وكان أينما أدركه الليل صَفَنَ[3] بين قدميه وقام يصلى حتى يصبح ، وكان رامياً لا يفوته صيد يريده ، وكان يمر بمجالس بنى إسرائيل فيقضى لهم حوائجهم . وإن شئت أنبأتك بصوم أمه مريم بنت عمران ؛ فإنها كانت تصوم يوماً وتفطر يومين . وإن شئت أنبأتك بصوم النبى العربى الأمى محمد ﷺ ؛ فإنه كان يصوم من كل شهر ثلاثة أيام ، ويقول إن ذلك صوم الدهر . وقد رواه الإمام أحمد عن أبى النصر عن فرج بن نضالة ، عن أبى هرم عن صدقة عن ابن عباس مرفوعاً — فى صوم داود .

---

(١) البحث : المعدن يبحث فيه عن الذهب والفضة . (٢) يحدث ويجدد . (٣) ضرب بهما الأرض وصفهما

ذكر كمية حياته وكيفية وفاته عليه السلام

قد تقدم فى ذكر الأحاديث الواردة فى خلق آدم : أن الله لما استخرج ذريته من ظهره فرأى فيهم الأنبياء عليهم السلام ، ورأى فيهم رجلا يزهر فقال : أى رب ! من هذا ؟ قال : هذا ابنك داود ، قال أى رب ! كم عمره ؟ قال : ستون عاماً ، قال : أى رب ! زده فى عمره . قال لا : إلا أن أزيده من عمرك . وكان عمر آدم ألف عام فزاده أربعين عاماً ، فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت ، فقال بقى من عمرى أربعون سنة : ونسى آدم ما كان وهبه لولده داود ، فأتمها الله لآدم ألف سنة ولداود مائة سنة . رواه أحمد عن ابن عباس والترمذى ، وصححه عن أبى هريرة وابن خزيمة وابن حبان ، وقال الحاكم على شرط مسلم . وقد تقدم ذكر طرقه ، وألفاظه فى قصة آدم . قال ابن جرير : وقد زعم بعض أهل الكتاب أن عمر داود كان سبعاً وسبعين سنة ، قلت هذا غلط مردود عليهم . قالوا : وكان مدة ملكه أربعين سنة ، وهذ قد يقبل نقله ؛ لأنه ليس عندنا ما ينافيه ولا ما يقتضيه .

وأما وفاته عليه السلام فقال الإمام أحمد فى مسنده : حدثنا قبيصة ، حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن بن محمد بن عمرو بن أبى عمرو عن المطلب عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « كان داود عليه السلام فيه غيرة شديدة ، فكان إذا خرج أغلقت الأبواب فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع ، قال : فخرج ذات يوم وأغلقت الدار ، فأقبلت امرأته تطلع إلى الدار فإذا رجل قائم وسط الدار ، فقالت لمن فى البيت : من أين دخل هذا الرجل والدار مغلقة ؟ والله لنفتضحن بداود . فجاء داود فإذا الرجل قائم وسط الدار ، فقال له داود : من أنت ؟ فقال أنا الذى لا أهاب الملوك ولا أمنع من الحجاب ، فقال داود : أنت والله إذن ملك الموت ، مرحباً بأمر الله ، ثم مكث حتى قبضت روحه . فلما غسل وكفن وفرغ من شأنه ـ طلعت عليه الشمس ، فقال سليمان للطير : أظلى على داود ؛ فأظلته الطير حتى أظلمت عليه الأرض فقال سليمان للطير : اقبضى جناحاً جناحاً ، قال : قال أبو هريرة : فطفق رسول الله ﷺ يرينا كيف فعلت الطير ؟ وقبض رسول الله ﷺ بيده ، وغلبت عليه يومئذ المضرحية . انفرد بإخراجه الإمام أحمد وإسناده جيد قوى ، ورجاله ثقات . ومعنى قوله : وغلبت عليه يومئذ المضرحية ـ أى وغلبت على التظليل عليه الصقور الطوال الأجنحة ، واحدها مَضْرَحِىّ . قال الجوهرى : وهو الصقر الطويل الجناح . وقال السدى عن أبى مالك عن ابن عباس قال : مات داود عليه السلام فجأة ، وكان بسبت ، وكانت الطير تظله . وقال السدى أيضاً عن أبى مالك وعن سعيد بن جبير قال : مات داود عليه السلام يوم السبت فجأة . وقال إسحاق بن بشر عن سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن الحسن قال : مات داود عليه السلام وهو ابن مائة سنة ؛ ومات يوم الأربعاء فجأة .

وقال أبو السكن الهجرى : مات إبراهيم الخليل فجأة ، وداود فجأة ، وابنه سليمان فجأة . صلوات الله وسلامه

عليهم أجمعين ، رواه ابن عساكر . وروى عن بعضهم أن ملك الموت جاءه وهو نازل من محرابه ، فقال له دعنى أنزل أو أصعد ، فقال يا نبى الله قد نفدت السنون والشهور والآثار والأرزاق ، قال فخر ساجداً على مرقاة من تلك المراقى فقبضه وهو ساجد . وقال إسحاق بن بشر[١] أنبأنا وافر بن سليمان عن أبى سليمان الفلسطينى عن وهب بن منبه قال : إن الناس حضروا جنازة داود عليه السلام ، فجلسوا فى الشمس فى يوم صائف ، قال : وكان قد شيع جنازته يومئذ أربعون ألف راهب عليهم البرانس — سوى غيرهم من الناس . ولم يمت فى بنى إسرائيل بعد موسى وهرون — أحد كانت بنو إسرائيل أشد جزعاً عليه منهم على داود . قال فآذاهم الحر ، فنادوا سليمان عليه السلام أن يعمل لهم وقاية لما أصابهم من الحر ، فخرج سليمان فنادى الطير : فأجابت ، فأمرها أن تظل الناس ، فتراص بعضها إلى بعض من كل وجه حتى استمسكت الريح ، فكاد الناس أن يهلكوا غماً ، فصاحوا إلى سليمان عليه السلام من الغم ، فخرج سليمان فنادى الطير :أن أظلى الناس من ناحية الشمس وتنحى عن ناحية الريح ـ ففعلت ، فكان الناس فى ظل وتهب عليهم الريح ، فكان ذلك أول ما رأوه من ملك سليمان . وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا أبو همام الوليد بن شجاع ، حدثنى الوليد بن مسلم عن الهيثم بن حميد عن الوضين بن عطاء عن نصر ابن علقمة عن جبير بن نفير عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « لقد قبض الله داود من بين أصحابه ما فتنوا ولا بدلوا ، ولقد مكث أصحاب المسيح على سننه وهديه مائتى سنة » . هذا حديث غريب ، وفى رفعه نظر . والوضين بن عطاء كان ضعيفاً فى الحديث ، والله أعلم .

قصة سليمان بن داود عليهما السلام

قال الحافظ بن عساكر : هو سليمان بن داود بن إيشا بن عويد بن عابر بن سلمون بن نحشون بن عمينا داب بن ارم بن حصرون بن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم أبى الربيع ، نبى الله ابن نبى الله . جاء فى بعض الآثار أنه دخل دمشق ، قال ابن ماكولا : فارص ـ بالصاد المهملة ، وذكر نسبه قريباً مما ذكره ابن عساكر . قال الله تعالى : (وورث سليمان داود وقال ياأيها الناس علمنا منطق الطير ، وأوتينا من كل شىء ، إن هذا لهو الفضل المبين[٢]) أى ورثه فى النبوة والملك ، وليس المراد ورثه فى المال ؛ لأنه قد كان له بنون غيره ، فما كان ليخص بالمال دونهم ؛ ولأنه قد ثبت فى الصحاح من غير وجه عن جماعة من الصحابة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : «لانورث ما تركنا فهو صدقة» ، وفى لفظ « نحن معاشر الأنبياء لانورث[٣] » فأخبر الصادق المصدوق أن الأنبياء لا تورث أموالهم عنهم كما يورث غيرهم ، بل تكون أموالهم صدقة من بعدهم على الفقراء والمحاويج ، لايخصون بها أقرباءهم ؛ لأن الدنيا كانت أهون عليهم وأحقر عندهم من ذلك ، كما هى عند الذى أرسلهم واصطفاهم وفضلهم . وقال : (ياأيها الناس

---

(١) طعن فيه وكذبه بعضهم (٢) الآية : ١٦ من سورة النمل . (٣) تمامه : ما تركناه فهو صدقة .

علمنا منطق الطير ... الآية) يعنى أنه عليه السلام كان يعرف مايتخاطب به الطيور بلغاتها ، ويعبر للناس عن مقاصدها و إرادتها . وقد قال الحافظ أبو بكر البيهقى : أنبأنا أبوعبدالله الحافظ[1] أنبأنا على بن حمشاذ حدثنا إسمعيل بن قتيبة ، حدثناعلى بن قدامة ، حدثنا أبوجعفر الأُستُوائى يعنى محمد بن عبد الرحمن عن أبى يعقوب القُمِّى ، حدثنى أبو مالك قال : مر سليمان بن داودبعصفور يدور حول عصفورة ، فقال لأصحابه : أتدرون مايقول ؟ قالوا ومايقول يانبى الله ؟ قال يخطبها إلى نفسه ويقول : زوجينى أسكنك أى غرف دمشق شئت . قال سليمان عليه السلام : لأن غرف دمشق مبنية بالصخر ، لا يقدر أن يسكنها أحد ، ولكن كل خاطب كذاب . رواه ابن عساكر عن أبى القاسم زاهر بن طاهر عن البيهقى به ، وكذلك ماعداها من الحيوانات وسائر صنوف المخلوقات . والدليل على هذا قوله بعد هذا من الآيات : (وأوتينا من كل شىء) أى من كل ما يحتاج الملك إليه ؛ من العدد والآلات والجنود والجيوش والجماعات ؛ من الجن والإنس والطيور والوحوش والشياطين السارحات ، والعلوم والفهوم والتعبير عن ضمائر المخلوقات ؛ من الناطقات والصامتات . ثم قال : (إن هذا لهو الفضل المبين) أى من بارىء البريات وخالق الأرض والسموات ، كما قال تعالى : (وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون * حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة ياأيها النمل ادخلوا مساكنكم ، لايحطمنكم سليمان وجنوده وهم لايشعرون * فتبسم ضاحكا من قولها ، وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدى ، وأن أعمل صالحاً ترضاه ، وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين[2]) .

يخبر تعالى عن عبده ونبيه وابن نبيه سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام : أنه ركب يوماً فى جيشه جميعه من الجن والإنس والطير ؛ فالجن والإنس يسيرون معه ، والطير سائرة معه تظله بأجنحتها من الحر وغيره ، وعلى كل من الجيوش الثلاثة وزعة ــ أى نقباء ، يردون أوله على آخره ، فلا يتقدم أحد عن موضعه الذى يسير فيه ولا يتأخر عنه . قال الله تعالى : (حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة ياأيها النمل ادخلوا مساكنكم ، لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون) فأمرت وحذرت واعتذرت عن سليمان وجنوده بعدم الشعور . وقد ذكر وهب : أنه مر وهو على البساط بواد بالطائف ، وأن هذه النملة كان اسمها « جرسا » ، وكانت من قبيلة يقال لهم « بنو الشيصان » ، وكانت عرجاء وكانت بقدر الذئب ، وفى هذا كله نظر . بل فى هذا السياق دليل عل أنه كان فى موكبه راكباً فى خيوله وفرسانه ــ لا كما زعم بعضهم من أنه كان إذ ذاك على البساط ؛ لأنه لو كان كذلك لم ينل النمل منه شىء ولاوطء ؛ لأن البساط كان عليه جميع ما يحتاجون إليه ؛ من الجيوش والخيول والجمال والأثقال والخيام والأنعام ، والطير من فوق ذلك كله ، كما سنبينه بعد ذلك إن شاء الله تعالى .

---

(١) هو المعروف بالنيسابورى صاحب المستدرك (٢) الآيات : ١٧ ــ ١٩ من سورة النمل

والمقصود أن سليمان عليه السلام ـ فهم ماخاطبت به تلك النملة لامتها[1]، من الرأى السديد والأمر الحميد، وتبسم من ذلك على وجه الاستبشار والفرح والسرور بما أطلعه الله عليه دون غيره. وليس كما يقوله بعض الجهلة، من أن الدواب كانت تنطق قبل سليمان، وتخاطب الناس، حتى أخذ عليها سليمان ابن داود العهد، وألجمها فلم تتكلم مع الناس بعد ذلك؛ فإن هذا لا يقوله إلا الذين لا يعلمون. ولو كان هذا هكذا لم يكن لسليمان فى فهم لغاتها مزية على غيره؛ إذ قد كان الناس كلهم يفهمون ذلك. ولو كان قد أخذ عليها العهد ألا تتكلم مع غيره وكان هو يفهمها ـ لم يكن فى هذا أيضاً فائدة يعول عليها، ولهذا قال: (رب أوزعنى) أى ألهمنى وأرشدنى (أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدى، وأن أعمل صالحاً ترضاه، وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين)، فطلب من الله أن يقيضه للشكر على ما أنعم به عليه، وعلى ما خصه به من المزية على غيره، وأن ييسر عليه العمل الصالح، وأن يحشره ـ إذا توفاه ـ مع عباده الصالحين، وقد استجاب الله تعالى له. والمراد بوالديه: داود عليه السلام وأمه. وكانت من العابدات الصالحات، كما قال سنيد بن داود عن يوسف بن محمد بن المنكدر عن أبيه عن جابر عن النبى ﷺ قال: «قالت أم سليمان بن داود: يابنى لاتكثر النوم بالليل؛ فإن كثرة النوم بالليل تدع العبد فقيراً يوم القيامة». رواه ابن ماجة عن أربعة من مشايخه عنه به نحوه.

[وقال[2] عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى: إن سليمان بن داود عليه السلام خرج هو وأصحابه يستسقون، فرأى نملة قائمة رافعة إحدى قوائمها تستسقى، فقال لأصحابه ارجعوا فقد سقيتم؛ إن هذه النملة استسقت فاستجيب لها. قال ابن عساكر: وقد روى مرفوعاً ولم يذكر فيه سليمان، ثم ساقه من طريق محمد بن عزيز عن سلامة بن روح بن خالد عن عقيل عن ابن شهاب، حدثنى أبو سلمة عن أبى هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «خرج نبى من الأنبياء بالناس يستسقون الله، فإذا هم بنملة رافعة بعض قوائمها إلى السماء، فقال النبى: ارجعوا فقد استجيب لكم من أجل هذه النملة»، وقال السدى: أصاب الناس قحط على عهد سليمان عليه السلام، فأمر الناس فخرجوا، فإذا بنملة قائمة على رجليها، باسطة يديها وهى تقول: «اللهم إنا خلق من خلقك، ولا غناء بنا عن فضلك» قال فصب الله عليهم المطر]. قال تعالى: (وتفقد الطير فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين * لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين * فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به، وجئتك من سبأ بنبأ يقين * إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم * وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لايهتدون * ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون * الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم * قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين * اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم، ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون *

(١) اللامة: الهول والشدة. (٢) ما بين هذين القوسين: [ ] ليس فى بعض النسخ

قالت يأيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم * إنه من سليمان و إنه بسم الله الرحمن الرحيم * ألا تعلوا علىّ وأتونى مسلمين * قالت يأيها الملأ أفتونى فى أمرى ، ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون * قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد ، والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين * قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون * و إنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون * فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال ؟ فما آتانى الله خير مما آتاكم ، بل أنتم بهديتكم تفرحون * ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لاقبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون[1]) .

يذكر تعالى ما كان من أمر سليمان والهدهد ؛ وذلك أن الطيور كان على كل صنف منها مقدمون ؛ يقومون بما يطلب منهم و يحضرون عنده بالنوبة ، كما هى عادة الجنود مع الملوك . وكانت وظيفة الهدهد — على ماذكره ابن عباس وغيره : أنهم كانوا إذا أعوزهم الماء فى القفار فى حال الأسفار — يجىء فينظر لهم هل بهذه البقاع من ماء ؟ وفيه من القوة التى أودعها الله تعالى فيه — أن ينظر إلى الماء تحت تخوم الأرض ، فإذا دلهم عليه ، حفروا عنه واستنبطوه وأخرجوه ، واستعملوه لحاجتهم . فلما تطلبه سليمان عليه السلام ذات يوم — فقده ، ولم يجده فى موضعه من محل خدمته (فقال مالى لاأرى الهدهد أم كان من الغائبين) أى ماله مفقود من ههنا ؟ أو قد غاب عن بصرى فلا أراه بحضرتى ؟ (لأعذبنه عذاباً شديداً) ، توعده بنوع من العذاب ؛ اختلف المفسرون فيه ، والمقصود حاصل على كل تقدير (أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين) أى بحجة تنجيه من هـذه الورطة .

قال الله تعالى : (فمكث غير بعيد) أى فغاب الهدهد غيبة ليست بطويلة ثم قدم منها (فقال) لسليمان : (أحطت بما لم تحط به) أى اطلعت على مالم تطلع عليه (وجئتك من سبأ بنبأ يقين) أى بخبر صادق ، (إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم) . يذكر ما كان عليه ملوك سبأ فى بلاد اليمن ؛ من المملكة العظيمة والتبابعة[2] المتوجين ، وكان الملك قد آل فى ذلك الزمان إلى امرأة منهم ابنة ملكهم ، لم يخلف غيرها فملكوها عليهم .

وذكر الثعلبى وغيره : أن قومها ملكوا عليهم بعد أبيها رجلا فعم به الفساد ، فأرسلت إليه تخطبه فتزوجها ، فلما دخلت عليه سقته خمراً ثم حزت رأسه ونصبته على بابها ، فأقبل الناس عليها وملكوها عليهم ، وهى : «بلقيس» بنت السيرح وهو الهدهاد ، وقيل شراحيل بن ذى جدن بن السيرح بن الحرث ابن قيس بن صيفى بن سبا بن يشحب بن يعرب بن قحطان . وكان أبوها من أكبر الملوك ، وكان يأبى أن يتزوج من أهل اليمن . فيقال إنه تزوج بامرأة من الجن اسمها «ريحانة» بنت السكن ، فولدت له هذه المرأة واسمها «تلقمة» و يقال لها بلقيس . وقد روى الثعلبى من طريق سعيد بن بشير عن قتادة عن النضر

---

(١) الآيات : ٢٠ — ٣٧ من سورة النمل . (٢) التبابعة : ملوك اليمن ، الواحد تبع — كسكر .

ابن أنس عن بشير بن نهيك عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « كان أحد أبوى بلقيس جنياً » وهـذا حديث غريب ، وفى سنده ضعف . وقال الثعلبى : أخبرنى أبو عبد الله بن قبحونة ، حدثنا أبو بكر بن جرجة ، حدثنا ابن أبى الليث ، حدثنا أبو كريب ، حدثنا أبو معاوية عن إسماعيل بن مسلم عن الحسن عن أبى بـكرة قال : ذكرت بلقيس عند رسول الله ﷺ فقال : « لا يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة » . إسماعيل بن مسلم هـذا ـ هو المكى ـ ضعيف . وقد ثبت فى صحيح البخارى من حديث عوف عن الحسن عن أبى بـكرة : أن رسول الله ﷺ لما بلغه أن أهل فارس ملـكوا عليهم ابنة كسرى قال : « لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة » . ورواه الترمذى والنسائى من حديث حميد عن الحسن عن أبى بكرة عن النبى ﷺ ، وقال الترمذى حسن صحيح . وقوله : (وأوتيت من كل شىء) أى مما من شأنه أن تؤتاه الملوك ، (ولها عرش عظيم) يعنى سرير مملـكتها ، كان مزخرفاً بأنواع الجواهر واللآلى والذهب والحلى الباهر .

ثم ذكر كفرهم بالله وعبادتهم الشمس من دون الله ، وإضلال الشيطان لهم وصده إياهم عن عبادة الله وحده لا شريك له ، (الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون) ـ أى يعلم السرائر والظواهر من المحسوسات والمعنويات ، (الله لا إلـه إلا هو رب العرش العظيم) أى له العرش العظيم الذى لا أعظم منه فى المخلوقات . فعند ذلك بعث معه سليمان عليه السلام كتابه ؛ يتضمن دعوته لهم إلى طاعة الله وطاعة رسوله ، والإنابة والإذعان إلى الدخول فى الخضوع لملـكه وسلطانه ، ولهذا قال لهم : (ألا تعلوا علىّ) أى لا تستـكبروا عن طاعتى وامتثال أوامرى ، (وأتونى مسلمين) أى وأقدموا على سامعين مطيعين بلا معاودة ولا مراودة . فلما جاءها الـكتاب مع الطير ـ ومن ثم اتخذ الناس البطائق ، ولـكن أين الثريا من الثرى ؟ تلك البطاقة كانت مع طائر سامع مطيع فاهم عالم بما يقول ويقال له ، فذكر غير واحد من المفسرين وغيرهم : أن الهدهد حمل الـكتاب وجاء إلى قصرها فألقاه إليها وهى فى خلوة لها ، ثم وقف ناحية ينتظر ما يـكون من جوابها عن كتابها ، فجمعت أمراءها ووزراءها وأكابر دولتها إلى مشورتها ـ (قالت يا أيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم) ثم قرأت عليهم عنوانه أولا : (إنه من سليمان) ثم قرأته : (وإنه بسم الله الرحمن الرحيم * ألا تعلوا على وأتونى مسلمين) ، ثم شاورتهم فى أمرها وما قد حل بها ، وتأدبت معهم وخاطبتهم وهم يسمعون (قالت يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى ، ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون) ـ تعنى ما كنت لأبت أمراً إلا وأنتم حاضرون (قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد) يعنون : لنا قوة وقدرة على الجلاد والقتال ومقاومة الأبطال ، فإن أردت منا ذلك فإنا عليه من القادرين (و) مع هذا (الأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين) فبذلوا لها السمع والطاعة ، وأخبروها بما عندهم من الاستطاعة ، وفوضوا إليها فى ذلك

الأمر لترى فيه ماهو الأرشد لها ولهم . فكان رأيها أتم وأسد من رأيهم ، وعلمت أن صاحب هذا الكتاب لايغالب ولا يمانع ، ولا يخالف ولا يخادع .

(قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون) . تقول برأيها السديد : إن هذا الملك لو قد غلب على هذه المملكة لم يخلص الأمر من بينكم إلا إلىّ ، ولم تكن الحدة والشدة والسطوة البليغة إلا علىّ (وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون) أرادت أن تصانع عن نفسها وأهل مملكتها بهدية ترسلها وتحف تبعثها ، ولم تعلم أن سليمان عليه السلام لايقبل منهم والحالة هذه صرفاً ولا عدلا ؛ لأنهم كافرون وهو وجنوده عليهم قادرون . ولهذا : (فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال ؟ فما آتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون) . هذا : وقد كانت تلك الهدايا مشتملة على أمور عظيمة كما ذكره المفسرون . ثم قال لرسولها إليه ، ووافدها الذى قدم عليه ، والناس حاضرون يسمعون : (ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون) . يقول : ارجع بهديتك التى قدمت بها إلى من قدمن بها ، فإن عندى مما قد أنعم الله علىّ وأسداه إلىّ من الأموال والتحف والرجال — ما هو أضعاف هذا ، وخير من هذا الذى أنتم تفرحون به ، وتفخرون على أبناء جنسكم بسببه ، (فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها) أى فلأبعثن إليهم بجنود لا يستطيعون دفاعهم ولا نزالهم ، ولا ممانعتهم ولا قتالهم ، ولأخرجنهم من بلدهم وحوزتهم ومعاملتهم ودولتهم أذلة (وهم صاغرون) عليهم الصغار والعار والدمار . فلما بلغهم ذلك عن نبى الله لم يكن لهم بد من السمع والطاعة ، فبادروا إلى إجابته فى تلك الساعة ، وأقبلوا صحبة الملكة أجمعين سامعين مطيعين خاضعين . فلما سمع بقدومهم عليه ووفودهم إليه — قال لمن بين يديه ؛ ممن هو مسخر له من الجان : ما قصه الله عنه فى القرآن ، (قال يا أيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين * قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ، وإنى عليه لقوى أمين * قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ، فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ؟ ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربى غنى كريم * قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لايهتدون ؟ * فلما جاءت قيل أهكذا عرشك ؟ قالت كأنه هو ، وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين * وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين * قيل لها ادخلى الصرح ، فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها ، قال إنه صرح ممرد من قوارير * قالت رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين[1]) .

لما طلب سليمان من الجان أن يحضروا له عرش بلقيس ، وهو سرير مملكتها التى تجلس عليه وقت

(١) الآيات : ٣٨ — ٤٤ من سورة النمل .

حكمها قبل قدومها عليه . (قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك) يعنى قبل أن ينقضى مجلس حكمك . وكان — فيما يقال — من أول النهار إلى قريب الزوال يتصدى لمهمات بنى إسرائيل ، وما لهم من الأشغال (و إنى عليه لقوى أمين) أى وإنى لذو قدرة على إحضاره إليك ، وأمانة مافيه من الجواهر النفيسة لديك . (قال الذى عنده علم من الكتاب) ـ المشهور أنه آصف بن برخيا ، وهو ابن خالة سليمان . وقيل هو رجل من مؤمنى الجان كان — فيما يقال — يحفظ الاسم الأعظم . وقيل رجل من بنى إسرائيل من علمائهم . وقيل إنه سليمان وهذا غريب جداً . وضعفه السهيلى بأنه لا يصح فى سياق الكلام . قال : وقد قيل فيه قول رابع ، وهو جبريل (أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك) قيل معناه : قبل أن تبعث رسولا إلى أقصى ما ينتهى إليه طرفك من الأرض ثم يعود إليك ، وقيل : قبل أن يصل إليك أبعد من تراه من الناس ، وقيل : قبل أن يكل طرفك إذا أدمت النظر به قبل أن تطبق جفنك ، وقيل : قبل أن يرجع إليك طرفك إذا نظرت به إلى أبعد غاية منك ثم أغمضته ، وهذا أقرب ما قيل . (فلما رآه مستقراً عنده) أى فلما رأى عرش بلقيس مستقراً عنده ـ فى هذه المدة القريبة ـ من بلاد اليمن إلى بيت المقدس فى طرفة عين ، (قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر) أى هذا من فضل الله علىّ وفضله على عبيده ؛ ليختبرهم على الشكر أو خلافه ، (ومن شكر فإنما يشكر لنفسه) أى إنما يعود نفع ذلك عليه (ومن كفر فإن ربى غنى كريم) أى غنى عن شكر الشاكرين ، ولا يتضرر بكفر الكافرين .

ثم أمر سليمان عليه السلام أن يغير حلى هذا العرش و ينكر لها ؛ ليختبر فهمها وعقلها . ولهذا قال : (ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون * فلما جاءت قيل أهكذا عرشك ؟ قالت كأنه هو) وهذا من فطنتها وغزارة فهمها ؛ لأنها استبعدت أن يكون عرشها ؛ لأنها خلفته وراءها بأرض اليمن ، ولم تكن تعلم أن أحداً يقدر على هذا الصنع العجيب الغريب . قال الله تعالى إخباراً عن سليمان وقومه : (وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين * وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين) أى ومنعتها عبادة الشمس التى كانت تسجد لها هى وقومها من دون الله ؛ اتباعاً لدين آبائهم وأسلافهم ، لا لدليل قادهم إلى ذلك ولا حداهم على ذلك وكان سليمان قد أمر ببناء صرح[1] من زجاج ، وعمل فى ممره ماء ، وجعل عليه سقفاً من زجاج ، وجعل فيه من السمك وغيره من دواب الماء ، وأمرت بدخول الصرح وسليمان جالس على سريره فيه (فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح ممرد[2] من قوارير * قالت ربى إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) . وقد قيل إن الجن أرادوا

---

(١) الصرح : القصر ، وكل بناء عال (٢) الممرد : المطول المبني بناء محكماً أملس .

أن يبشعوا منظرها عندسليمان ، وأن تبدى عن ساقيها ليرى ماعليها من الشعر فينفره ذلك منها ، وخشوا أن يتزوجها ؛ لأن أمها من الجان فتتسلط عليهم معه . وذكر بعضهم أن حافرها كان كحافر الدابة ، وهذا ضعيف ، وفى الأول أيضاً نظر ، والله أعلم . إلا أن سليمان قيل : إنه لما أراد إزالته حين عزم على تزوجها ــ سأل الإنس عن زواله ، فذكروا له الموسى فامتنعت من ذلك ، فسأل الجان فصنعوا له النُّورة[1] ووضعوا له الحمام ، فكان أول من دخل الحمام . فلما وجد مسه قال : أوه من عذاب أوه أوه قبل أن لاينفع أوه . رواه الطبرانى مرفوعاً ، وفيه نظر .

وقد ذكر الثعلبى وغيره : أن سليمان لما تزوجها أقرها على مملكة اليمن وردها إليه ، وكان يزورها فى كل شهر مرة ، فيقيم عندها ثلاثة أيام ثم يعود على البساط ، وأمر الجان فبنوا له ثلاثة قصور باليمن : غمدان ، وسَلْحين ، وبيتون ، فالله أعلم . وقد روى ابن إسحاق عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبه : أن سليمان لم يتزوجها ، بل زوجها بملك همدان وأقرها على ملك اليمن ، وسخر « زوبعة » ملك جن اليمن فبنى لها القصور الثلاثة التى ذكرناها باليمن . والأول أشهر وأظهر ، والله أعلم .

وقال تعالى فى سورة صٓ : (ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب * إذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد * فقال إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب * ردوها علىّ فطفق مسحاً بالسوق والأعناق * ولقدفتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب * قال رب اغفر لى وهب لى ملكا لاينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب * فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب * والشياطين كل بناء وغواص * وآخرين مقرنين فى الأصفاد * هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب * وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب[2]) . يذكر تعالى أنه وهب لداود سليمان عليهما السلام ، ثم أثنى الله عليه تعالى فقال : (نعم العبد إنه أواب) أى رجاع مطيع لله . ثم ذكر تعالى ما كان من أمره فى الخيل الصافنات ــ وهى التى تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة ، الجياد ــ وهى المضمرة[3] السراع (فقال إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب) يعنى الشمس . وقيل : الخيل على ماسنذكره من القولين . (ردوها على فطفق مسحاً بالسوق والأعناق) قيل : مسح عراقيبها وأعناقها بالسيوف ، وقيل مسح عنها العرق لما أجراها ، وسابق بينها وبين يديه ، على القول الآخر . والذى عليه أكثر السلف الأول ؛ فقالوا اشتغل بعرض تلك الخيول حتى خرج وقت العصر وغربت الشمس . روى هذا عن على ابن أبى طالب وغيره ، والذى يقطع به أنه لم يترك الصلاة عمداً من غير عذر ، اللهم إلا أن يقال إنه كان سائغاً فى شريعتهم ، فأخر الصلاة لأجل أسباب الجهاد ، وعرض الخيل من ذلك .

---

(١) قيل : هو أول من صنعت له . (٢) الآيات : ٣٠ ــ ٤٠

(٣) قال فى المختار : تضمير الفرس ــ أن تعلفه حتى يسمن ثم ترده إلى القوت ، وهو مايقوم به البدن من الطعام ،

وقد ادعى طائفة من العلماء فى تأخير النبى ﷺ صلاة العصر يوم الخندق : أن هذا كان مشروعاً إذ ذاك ، حتى نسخ بصلاة الخوف . قاله الشافعى وغيره . وقال مكحول والأوزاعى بل هو حكم محكم إلى اليوم : أنه يجوز تأخيرها بعذر القتال الشديد ، كما ذكرنا تقرير ذلك فى سورة النساء عند صلاة الخوف وقال آخرون : بل كان تأخير النبى ﷺ صلاة العصر يوم الخندق نسياناً ، وعلى هذا فيحمل فعل سليمان عليه السلام على هذا ، والله أعلم . وأما من قال إن الضمير فى قوله : (حتى توارت بالحجاب) ـ عائد على الخيل ، وأنه لم تفته وقت صلاة ، وأن المراد بقوله : (ردوها على فطفق مسحاً بالسوق والأعناق) يعنى مسح العرق عن عراقيبها وأعناقها ـ فهذا القول اختاره ابن جرير ، ورواه الوالبى عن ابن عباس فى مسح العرق . ووجه هذا القول ابن جرير ـ بأنه ما كان ليعذب الحيوان بالعرقبة ، ويهلك مالا بلا سبب ولا ذنب لها . وهذا الذى قاله فيه نظر ؛ لأنه قد يكون هذا سائغاً فى ملتهم . وقد ذهب بعض علمائنا إلى أنه إذا خاف المسلمون أن يظفر الكفار على شىء من الحيوانات من أغنام ونحوها ـ جاز ذبحها و إهلاكها ؛ لئلا يتقووا بها ، وعليه حمل صنيع جعفر بن أبى طالب يوم عقر فرسه بمُؤْتَة[1] . وقد قيل إنها كانت خيلا عظيمة ، قيل كانت عشرة آلاف فرس ، وقيل عشرين ألف فرس ، وقيل كان فيها عشرون فرساً من ذوات الأجنحة . وقد روى أبو داود فى سننه : حدثنا محمد بن عوف ، حدثنا سعيد ابن أبى مريم ، أنبأنا يحيى بن أبى أيوب ، حدثنى عمارة بن غزية ـ أن محمد بن إبراهيم ، حدثه عن محمد بن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن عائشة قالت : قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أو خيبر وفى سهوتها[2] ستر ، فهبت الريح فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة تلعب ، فقال : « ماهذا ياعائشة؟ » فقالت بناتى ، ورأى بينهن فرساً له جناحان من رقاع ، فقال : « ماهذا الذى أرى وسطهن ؟ » قالت فرس ، قال « وما الذى عليه هذا ؟ » قالت جناحان قال : « فرس له جناحان ؟ » قالت : أما سمعت أن لسليمان خيلا لها أجنحة ؟ قالت فضحك حتى رأيت نواجذه ﷺ » . وقال بعض العلماء : لما ترك الخيل لله ـ عوضه الله عنها بما هو خير له منها ، وهو الريح التى كانت غدوها شهراً ورواحها شهراً ، كما سيأتى الكلام عليها . كما قال الإمام أحمد : حدثنا إسمعيل ، حدثنا سليمان بن المغيرة عن حميد بن هلال عن أبى قتادة وأبى الدهماء ـ وكانا يكثران السفر نحو البيت ـ قالا : أتينا على رجل من أهل البادية ، فقال البدوى : أخذ بيدى رسول الله ﷺ فجعل يعلمنى مما علمه الله عز وجل ، وقال : « إنك لاتدع شيئاً اتقاء الله عز وجل إلا أعطاك الله خيراً منه » .

وقوله تعالى : (ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب) . ذكر ابن جرير وابن أبى حاتم وغيرهما من المفسرين هاهنا آثاراً كثيرة عن جماعة من السلف ، وأكثرها أو كلها متلقاة من

---

(١) موضع بمشارق الشام حدثت فيه موقعة فى السنة الثانية من الهجرة

(٢) السهوة : الصفة ، والمخدع بين بيتين ، والبهت الصغير .

الإسرائيليات ، وفى كثير منها نكارة شديدة ، وقد نبهنا على ذلك فى كتابنا التفسير ، واقتصرنا هاهنا على مجرد التلاوة . ومضمون ماذكروه : أن سليمان عليه السلام ـ غاب عن سريره أربعين يوماً ثم عاد إليه ، ولما عاد أمر ببناء بيت المقدس ، فبناه بناء محكما . وقد قدمنا أنه جدده ، وأن أول من جعله مسجداً إسرائيل عليه السلام ، كما ذكرنا ذلك عند قول أبى ذر : قلت يارسول الله أى مسجد وضع أول ؟ قال : «المسجد الحرام » ، قلت ثم أى ؟ قال : « مسجد بيت المقدس» . قلت كم بينهما ؟ قال : « أربعون سنة » ، ومعلوم أن بين إبراهيم الذى بنى المسجد الحرام ، وبين سليمان بن داود عليهما السلام ـ أزيد من ألف سنة دع أربعين سنة . وكان سؤاله الملك الذى لاينبغى لأحد من بعده ـ بعد إكماله البيت المقدس ؛ كما قال الإمام أحمد والنسائى وابن ماجة وابن خزيمة وابن حبان والحاكم بأسانيدهم عن عبد الله بن فيروز الديلمى ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : « إن سليمان لما بنى بيت المقدس سأل ربه عز وجل خلالا ثلاثاً . فأعطاه اثنتين ، ونحن نرجو أن تكون لنا الثالثة : سأله حكما يصادف حكمه فأعطاه إياه ، وسأله ملكا لاينبغى لأحد من بعده فأعطاه إياه ، وسأله أيما رجل خرج من بيته لايريد إلا الصلاة فى هذا المسجد ـ خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أمه ، فنحن نرجو أن يكون الله عز وجل قد أعطانا إياها » .

فأما الحكم الذى يوافق حكم الله تعالى ـ فقد أثنى الله تعالى عليه وعلى أبيه فى قوله : (وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ۞ ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلماً[1]) وقد ذكر شريح القاضى وغير واحد من السلف: أن هؤلاء القوم كان لهم كرم ، فنفشت فيه غنم قوم آخرين ـ أى رعته بالليل ، فأكلت شجره بالكلية . فتحاكموا إلى داود عليه السلام فحكم لأصحاب الكرم بقيمته . فلما خرجوا على سليمان قال : بم حكم لكم نبى الله ؟ فقالوا بكذا وكذا فقال : أما لو كنت أنا لما حكمت إلا بتسليم الغنم إلى أصحاب الكرم ؛ فيستغلونها نتاجاً ودراً حتى يصلح أصحاب الغنم كرم أولئك ، ويردوه إلى ما كان عليه ثم يتسلموا غنمهم ، فبلغ داود عليه السلام ذلك فحكم به . وقريب من هذا ما ثبت فى الصحيحين من حديث أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « بينما امرأتان معهما ابناهما إذ عدا الذئب فأخذ ابن إحداهما ، فتنازعتا فى الآخر ؛ فقالت الكبرى إنما ذهب بابنك ، وقالت الصغرى بل إنما ذهب بابنك ، فتحاكمتا إلى داود فحكم به للكبرى ، فخرجتا على سليمان ، فقال ائتونى بالسكين أشقه نصفين لكل واحدة منكما نصفه ، فقالت الصغرى لاتفعل يرحمك الله هو ابنها ، فقضى به لها[2] ، ولعل كلا من الحكمين كان سائغاً فى شريعتهم ، ولكن ما قاله سليمان أرجح ، ولهذا أثنى الله عليه بما ألهمه إياه ، ومدح بعد ذلك أباه فقال : (وكلا آتينا

---

(١) الآيتان : ٧٧ ، ٧٨ من سورة الأنبياء (٢) أى للصغرى لما رأى من شفقتها عليه .

حكما وعلماً ، وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين * وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون) .

ثم قال : (ولسليمان الريح عاصفة) أى وسخرنا لسليمان الريح عاصفة (تجرى بأمره إلى الأرض التى بار كنا فيها وكنا بكل شىء عالمين * ومن الشياطين من يغوصون له و يعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين) وقال فى سورة ص : (فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب * والشياطين كل بناء وغواص * وآخرين مقرنين فى الأصفاد * هـذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب * و إن له عندنا لزلفى وحسن مآب[1]) . لما ترك الخيل ابتغاء وجه الله ـ عوضه الله منها الريح ، التى هى أسرع سيراً وأقوى وأعظم ، ولا كلفة عليه لها ، تجرى بأمره رخاء (حيث أصاب) أى حيث أراد من أى البلاد . كان له بساط مركب من أخشاب ، بحيث إنه يسع جميع مايحتاج إليه من الدور المبنية والقصور والخيام ، والأمتعة والخيول والجمال والأثقال والرجال ؛ من الإنس والجان ، وغـير ذلك من الحيوانات والطيور . فإذا أراد سفراً أو تنزهاً ، أو قتال ملك أو أعداء من أى بلاد شاء ، فإذا حمل هـذه الأمور المذكورة على البساط ـ أمر الريح فدخلت تحته فرفعته ، فإذا استقل بين السماء والأرض ـ أمر الرخاء فسارت به ، فإن أراد أسرع من ذلك ـ أمر العاصفة فحملته أسرع مايـكون فوضعته فى أى مكان شاء ، بحيث إنه كان يرتحل فى أول النهار من بيت المقدس ، فتغدو به الريح فتضعه باصطخر مسيرة شهر ، فيقيم هناك إلى آخر النهار ، ثم يروح من آخره فترده إلى بيت المقدس ، كما قال تعالى : (ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر ، وأسلنا له عين القطر ، ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ، ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير * يعملون له مايشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات ، اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادى الشكور[2]) . قال الحسن البصرى : كان يغدو من دمشق فينزل باصطخر فيتغذى بها ، ويذهب رائحاً منها فيبيت بكابل ، و بين دمشق و بين اصطخر ـ مسيرة شهر ، و بين اصطخر وكابل ـ مسيرة شهر . قلت قد ذكر المتكلمون على العمران والبلدان : أن اصطخر بنتها الجان لسليمان ، وكان فيها قرار مملكة الترك قديماً . وكذلك غيرها من بلدان شتى ؛ كتدمر ، و بيت المقدس ، وباب جيرون و باب البريد ـ اللذين بدمشق على أحد الأقوال .

وأما القطر : فقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة وغير واحد : هو النحاس ، قال قتادة ، وكانت باليمن ، أنبعها الله له ـ قال السدى ـ ثلاثة أيام فقط ، أخذ منها جميع ما يحتاج إليه للبنايات وغيرها . وقوله : (ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ، ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير)

(١) الآيات : ٣٦ ـ ٤٠ (٢) الآيتان ١٢ ، ١٣ من سورة سبأ .

أى وسخر الله له من الجن عمالاً يعملون له ما يشاء ؛ لا يفترون ولا يخرجون عن طاعته ، ومن خرج منهم عن الأمر عذبه ونـكل به . (يعملون له ما يشاء من محاريب) وهى الأماكن الحسنة وصدور المجالس ، (وتماثيل) وهى الصور فى الجدران ، وكان هذا سائغاً فى شريعتهم وملتهم ، (وجفان كالجواب) قال ابن عباس : الجفنة — كالجَوبة من الأرض ، وعنه — كالحياض . وكذا قال مجاهد والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم . وعلى هذه الرواية تكون الجواب : جمع جابية ، وهى الحوض الذى يجبى فيه الماء كما قال الأعشى :

تروح على آل المحلق جفنة كجابية الشيخ العراقى — تفهق[1]

وأما القدور الراسيات ؛ فقال عكرمة : أثافيها منها — يعنى أنهن ثوابت لا يزلن عن أماكنهن ، وهكذا قال مجاهد وغير واحد . ولما كان هذا بصدد إطعام الطعام والإحسان إلى الخلق ؛ من إنسان وجان — قال تعالى : (اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادى الشكور) ، وقال تعالى : (والشياطين كل بناء وغواص * وآخرين مقرنين فى الأصفاد) يعنى أن منهم من قد سخره فى البناء ، ومنهم من يأمره بالغوص فى الماء لاستخراج ما هنالك من الجواهر واللآلى ، وغير ذلك مما لا يوجد إلا هنالك . وقوله : (وآخرين مقرنين فى الأصفاد) أى قد عصوا فقيدوا مقرنين اثنين اثنين فى الأصفاد — وهى القيود . هذا كله من جملة ما هيأه الله وسخر له من الأشياء التى هى من تمام الملك الذى لا ينبغى لأحد من بعده ، ولم يكن أيضاً لمن كان قبله .

وقد قال البخارى : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة عن محمد بن زياد عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « إن عفريتاً من الجن تفلت[2] علىَّ البارحة ليقطع على صلاتى ، فأمكننى الله منه فأخذته ، فأردت أن أربطه إلى سارية من سوارى المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم فذكرت دعوة أخى سليمان : (رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى) فرددته خاسئاً . وكذا رواه مسلم والنسائى من حديث شعبة . وقال مسلم : حدثنا محمد بن سلمة المرادى ، حدثنا عبدالله ابن وهب عن معاوية بن صالح ، حدثنى ربيعة بن يزيد عن أبى إدريس الخولانى عن أبى الدرداء قال : قام رسول الله ﷺ يصلى ، فسمعناه يقول : « أعوذ بالله منك ثم قال — ألعنك بلعنة الله — ثلاثاً ، وبسط يده كأنه يتناول شيئاً ، فلما فرغ من الصلاة قلنا : يارسول الله ! سمعناك تقول فى الصلاة شيئاً لم نسمعك تقوله قبل ذلك ، ورأيناك بسطت يدك ، قال ﷺ : « إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله فى وجهى ، فقلت أعوذ بالله منك ثلاث مرات . ثم قلت ألعنك بلعنة الله التامة فلم يستأخر —

---

(١) فهق الإناء — كفرح : امتلأ ، وأفهقه : ملأه . (٢) أى توثب فجأة ، والفلات : المفاجأة .

ثلاث مرات ، ثم أردت أن آخذه ، والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقاً يلعب به ولدان أهل المدينة » . وكذا رواه النسائى عن محمد بن سلمة به .

وقال أحمد : حدثنا أبو أحمد ، حدثنا ميسرة بن معبد ، حدثنا أبو عبيد حاجب سليمان قال : رأيت عطاء بن يزيد الليثى قائماً يصلى فذهبت أمر بين يديه فردنى ، ثم قال : حدثنى أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قام يصلى صلاة الصبح وهو خلفه ، فقرأ فالتبست عليه القراءة ، فلما فرغ من صلاته قال : « لو رأيتمونى وإبليس ، فأهويت بيدى ، فمازلت أخنقه حتى وجدت برد لعابه بين أصبعى هاتين – الإبهام والتى تليها – ولولا دعوة أخى سليمان لأصبح مربوطاً بسارية من سوارى المسجد ، يتلاعب به صبيان المدينة ، فمن استطاع منكم أن لايحول بينهو بين القبلة أحد فليفعل » . وقد روى أبو داود منه : «فمن استطاع . . . إلى آخره» – عن أبى أحمد بن سريج عن أحمد الزبيرى به .

وقد ذكر غير واحد من السلف أنه كانت لسليمان من النساء ألف امرأة ؛ سبعمائة بمهور وثلثمائة سرارى ، وقيل بالعكس : ثلثمائة حرائر وسبعمائة من الإماء . وقد كان يطيق من التمتع بالنساء أمراً عظيماً جداً ، قال البخارى : حدثنا خالد بن مخلد ، حدثنا مغيرة بن عبد الرحمن عن أبى الزناد ، عن الأعرج عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « قال سليمان بن داود لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تحمل كل امرأة فارساً يجاهد فى سبيل الله ، فقال له صاحبه إن شاء الله ، فلم يقل ، فلم تحمل شيئاً إلا واحداً ساقطاً أحد شقيه» ، فقال النبى ﷺ : «لو قالها لجاهدوا فى سبيل الله» ، وقال شعيب وابن أبى الزناد : تسعين ، وهو أصح . تفرد به البخارى من هذا الوجه . وقال أبو يعلى : حدثنا زهير ، حدثنا يزيد ، أنبأنا هشام بن حسان عن محمد ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « قال سليمان بن داود لأطوفن الليلة على مائة امرأة ، كل امرأة منهن تلد غلاماً يضرب بالسيف فى سبيل الله » ولم يقل إن شاء الله . فطاف تلك الليلة على مائه امرأة ، فلم تلد منهن امرأة – إلا امرأة ولدت نصف إنسان » ، فقال رسول الله ﷺ : « لو قال إن شاء الله – لولدت كل امرأة منهن غلاماً يضرب بالسيف فى سبيل الله عز وجل » . إسناده على شرط الصحيح ولم يخرجوه من هذا الوجه . وقال الإمام أحمد : حدثنا هشيم ، حدثنا هشام عن ابن سيرين عن أبى هريرة قال : « قال سليمان بن داود لأطوفن الليلة على مائة امرأة ، تلد كل واحدة منهن غلاماً يقاتل فى سبيل الله » ولم يستثن ، فما ولدت إلا واحدة منهن شق إنسان » . قال : قال رسول الله ﷺ : « لو استثنى لولد له مائة غلام كلهم يقاتل فى سبيل الله عز وجل » . تفرد به أحمد أيضاً .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا معمر عن ابن طاووس عن أبيه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « قال سليمان بن داود لأطوفن الليلة بمائة امرأة ، تلد كل امرأة منهن غلاماً يقاتل فى سبيل الله ، – قال – ونسى أن يقول إن شاء الله ، فأطاف بهن – قال – فلم تلد منهن امرأة

إلا واحدة نصف إنسان ، فقال رسول الله ﷺ : « لو قال إن شاء الله لم يحنث وكان دركا لحاجته » وهكذا أخرجاه في الصحيحين من حديث عبد الرزاق به مثله . وقال إسحاق بن بشر : أنبأنا مقاتل عن أبي الزناد ، وابن أبي الزناد عن أبيه عن عبد الرحمن عن أبي هريرة : أن سليمان بن داود كان له أربعمائة امرأة وستمائة سرية ، فقال يوماً : لأطوفن الليلة على ألف امرأة ، فتحمل كل واحدة منهن بفارس يجاهد في سبيل الله ولم يستثن ، فطاف عليهن فلم تحمل واحدة منهن إلا امرأة واحدة منهن جاءت بشق إنسان ، فقال النبي ﷺ : «والذى نفسي بيده لو استثنى ــ فقال إن شاء الله ــ لولد له ما قال فرسان ، ولجاهدوا في سبيل الله عز وجل» وهذا إسناد ضعيف لحال إسحاق بن بشر ؛ فإنه منكر الحديث ــ ولاسيما وقد خالف الروايات الصحاح . وقد كان له عليه السلام من أمور الملك واتساع الدولة وكثرة الجنود وتنوعها ــ مالم يكن لأحد قبله ، ولا يعطيه الله أحداً بعده ؛ كما قال : (وأوتينا من كل شيء) ، وقال : (رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب[1]) وقد أعطاه الله ذلك بنص الصادق المصدوق .

ولما ذكر تعالى ما أنعم به عليه ، وأسداه من النعم الكاملة العظيمة إليه ، قال : (هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب) أي أعط من شئت واحرم من شئت ، فلا حساب عليك ــ أي تصرف في المال كيف شئت ؛ فإن الله قد سوغ لك كلما تفعله من ذلك ، ولا يحاسبك على ذلك ، وهذا شأن النبي الملك ، بخلاف العبد الرسول ؛ فإن من شأنه لا يعطى أحداً ولا يمنع أحداً إلا بإذن الله له في ذلك . وقد خير نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه بين هذين المقامين ، فاختار أن يكون عبداً رسولا . وفي بعض الروايات : أنه استشار جبريل في ذلك ، فأشار إليه أن تواضع ، فاختار أن يكون عبداً رسولا ــ صلوات الله وسلامه عليه . وقد جعل الله الخلافة والملك من بعده في أمته إلى يوم القيامه ، فلا تزال طائفة من أمته ظاهرين حتى تقوم الساعة ، فلله الحمد والمنة .

ولما ذكر تعالى ما وهبه الله لنبيه سليمان عليه السلام من خير الدنيا ــ نبه على ما أعده له في الآخرة من الثواب الجزيل والأجر الجميل ، والقربة التي تقربه إليه والفوز العظيم والإكرام بين يديه ، وذلك يوم المعاد والحساب ؛ حيث يقول تعالى : (وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) .

ذكر وفاته ، وكم كانت مدة ملكه وحياته

قال الله تبارك وتعالى : (فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته ، فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين[2]) . روى ابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهما ــ من حديث إبراهيم بن طهمان عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس

(١) الآية : ٣٥ من سورة ص . (٢) الآية : ١٤ من سورة سبأ .

عن النبي ﷺ قال : « كان سليمان نبي الله عليه السلام إذا صلى رأى شجرة نابتة بين يديه ، يقول لها ماسمك ؟ فتقول كذا ، فيقول : لأى شيء أنت ؟ فإن كانت لغرس غرست ، و إن كانت لدواء أنبتت . فبينما هو يصلى ذات يوم إذ رأى شجرة بين يديه ، فقال لها ماسمك ؟ قالت الخروب . قال لأى شيء أنت ؟ قالت : لخراب هذا البيت ، فقال سليمان : اللهم عمّ على الجن موتى حتى تعلم الإنس أن الجن لايعلمون الغيب ، فنحتها عصا فتوكأ عليها حولا ميتاً ، والجن تعمل . فأكلتها الأرضة فتبينت الإنس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا حولاً فى العذاب المهين » . قال : وكان ابن عباس يقرؤها كذلك ، قال فشكرت الجن للأرضة ، فكانت تأتيها بالماء . لفظ ابن جرير ، وعطاء الخراسانى فى حديثه نكارة . وقد رواه الحافظ بن عساكر من طريق سلمة بن كهيل عن سعيد بن جبير عن ابن عباس موقوفاً ، وهو أشبه بالصواب ، والله أعلم .

وقال السدى فى خبر ذكره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس ، وعن مرة عن ابن مسعود وعن أناس من الصحابة : كان سليمان عليه السلام يتجرد فى بيت المقدس السنة والسنتين والشهر والشهرين ، وأقل من ذلك وأكثر ، يدخل فيه ومعه طعامه وشرابه ، فأدخله فى المرة التى توفى فيها ، فكان بدء ذلك أنه لم يكن يوم يصبح فيه إلا نبتت فى بيت المقدس شجرة ، فيأتيها فيسألها ماسمك ؟ فتقول الشجرة : اسمى كذا وكذا ؛ فإن كانت لغرس غرسها ، و إن كانت تنبت دواء قالت نبت دواء لكذا وكذا ، فيجعلها كذلك ، حتى نبتت شجرة يقال لها الخروبة ، فسألها ماسمك ؟ فقالت أنا الخروبة ، فقال ولأى شيء نبت ؟ فقالت : نبت لخراب هذا المسجد . فقال سليمان : ما كان الله ليخربه وأنا حى ، أنت التى على وجهك هلاكى وخراب بيت المقدس ، فنزعها وغرسها فى حائط له . ثم دخل المحراب فقام يصلى متكئاً على عصاه فمات ، ولم تعلم به الشياطين ، وهم فى ذلك يعملون له ، يخافون أن يخرج فيعاقبهم . وكانت الشياطين تجتمع حول المحراب ، وكان المحراب له كوى بين يديه وخلفه ، فكان الشيطان الذى يريد أن يخلع يقول : ألست جلداً إن دخلت فخرجت من ذلك الجانب ؟ فيدخل حتى يخرج من الجانب الآخر . فدخل شيطان من أولئك ، فمر ، ولم يكن شيطان ينظر إلى سليمان عليه السلام وهو فى المحراب إلا احترق . فمر ولم يسمع صوت سليمان ، ثم رجع فلم يسمع ، ثم رجع فوقع فى البيت ولم يحترق ، ونظر إلى سليمان عليه السلام قد سقط ميتاً ، فخرج فأخبر الناس أن سليمان قد مات ، ففتحوا عنه فأخرجوه ، ووجدوا منسأته ـ وهى العصا بلسان الحبشة ـ قد أكلتها الأرضة ، ولم يعلموا منذ كم مات ، فوضعوا الأرضة على العصا فأكلت منها يوماً وليلة ، ثم حسبوا على ذلك النحو فوجدوه قد مات منذ سنة . وهى فى قراءة ابن مسعود : فمكثوا يدأبون له من بعد موته حولا كاملاً فأيقن الناس عند ذلك أن الجن كانوا يكذبون . ولو أنهم علموا الغيب لعلموا بموت سليمان ، ولم يلبثوا فى العذاب سنة يعملون له

وذلك قول الله عز وجل : (مادلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته . فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين). يقول : تبين أمرهم للناس ، أنهم كانوا يكذبونهم . ثم إن الشياطين قالوا للأرضة : لو كنت تأكلين الطعام لأتيناك بأطيب الطعام ، ولو كنت تشربين الشراب سقيناك أطيب الشراب ، ولـكنا سننقل إليك الماء والطين . قال : فهم ينقلون إليها ذلك حيث كانت ، قال : ألم تر إلى الطين الذى يكون فى جوف الخشب ؟ فهو مايأتيها به الشيطان تشكراً لها . وهذا فيه من الإسرائيليات التى لاتصدق ولا تـكذب .

وقال أبو داود فى كتاب القدر : حدثنا عثمان بن أبى شيبة ، حدثنا قبيصة ، حدثنا سـفيان عن الأعمش عن خيثمة قال : قال سليمان بن داود عليهما السـلام لملك الموت : إذا أردت أن تقبض روحى فأعلمنى ، قال : ماأنا أعلم بذاك منك ، إنما هى كتب يلقى إلى فيها تسمية من يموت . وقال أصبغ ابن الفرج ، وعبد الله بن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ـ قال ـ قال سليمان لملك الموت : إذا أمرت بى فأعلمنى ، فأتاه فقال : ياسليمان ؟ قد أمرت بك ، قد بقيت لك سويعة ، فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحاً من قوارير ليس له باب ، فقام يصلى فاتـكأ على عصاه ، قال : فدخل عليه ملك الموت فقبض روحه وهو متوكىء على عصاه ، ولم يصنع ذلك فراراً من ملك الموت . قال : والجن تعمل بين يديه وينظرون إليه ، يحسبون أنه حى . قال : فبعث الله دابة الأرض إلى منسأته فأكلتها ، حتى إذا أكلت جوف العصا ضعفت وثقل عليها فخر ميتاً ، فلما رأت الجن ذلك انفضوا وذهبوا . قال : فذلك قوله : (مادلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته ، فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين) . قال أصبغ : وبلغنى عن غيره : أنها مكثت سنة تأكل فى منسأته حتى خر ، وقد روى نحو هذا عن جماعة من السلف وغيرهم ، والله أعلم .

قال إسحاق بن بشر عن محمد بن إسحاق عن الزهرى وغيره : أن سليمان عليه السلام ، عاش ثنتين وخمسـين سنة ، وكان ملـكه أربعين سـنة . وقال إسحاق : أنبأنا أبو روق عن عكرمة عن ابن عباس : أن ملـكه كان عشرين سنة ، والله أعلم . وقال ابن جرير : فكان جميـع عمر سليمان ابن داود عليهما السلام — نيفاً وخمسين سنة .

وفى سنة أربع من ملـكه ابتدأ ببناء بيت المقدس فيما ذكر ، ثم ملك بعده ابنه «رحبعام» مدة سبع عشرة سنة فيما ذكره ابن جرير ، وقال : ثم تفرقت بعده مملـكة بنى إسرائيل .

باب ذكر جماعة من أنبياء بنى إسرائيل عليهم السلام

(لايعلم وقت زمانهم، إلا أنهم بعد داود وسليمان، وقبل زكريا ويحيى عليهم السلام)

فمنهم: شعيا بن أمصيا، قال محمد بن إسحاق: وكان قبل زكريا ويحيى، وهو ممن بشر بعيسى ومحمد عليهما السلام. وكان فى زمانه ملك اسمه «حزقيا» على بنى إسرائيل ببلاد بيت المقدس، وكان سامعاً مطيعاً لشعيا فيما يأمره به وينهاه عنه من المصالح، وكانت الأحداث قد عظمت فى بنى إسرائيل، فمرض الملك وخرجت فى رجله قرحة، وقصد بيت المقدس ملك بابل فى ذلك الزمان وهو «سنحاريب» قال ابن إسحاق — فى ستمائة ألف راية، وفزع الناس فزعاً عظيما شديداً، فقال الملك للنبى شعيا: ماذا أوحى الله إليك فى أمر سنحاريب وجنوده؟ فقال: لم يوح إلىّ فيهم شىء بعد. ثم نزل عليه الوحى بالأمر للملك «حزقيا» بأن يوصى ويستخلف على ملكه من يشاء؛ فإنه قد اقترب أجله، فلما أخبره بذلك أقبل الملك على القبلة فصلى وسبح ودعا وبكى، فقال وهو يبكى ويتضرع إلى الله عز وجل بقلب مخلص وتوكل وصبر: «اللهم رب الأرباب وإله الآلهة، يارحمن يارحيم، يامن لاتأخذه سنة ولا نوم، اذكرنى بعلمى وفعلى وحسن قضائى على بنى إسرائيل وذلك كله كان منك فأنت أعلم به من نفسى، سرى وإعلانى لك» قال: فاستجاب الله له ورحمه، وأوحى الله إلى شعيا: أن يبشره بأنه قد رحم بكاءه، وقد أخر فى أجله خمس عشرة سنة، وأنجاه من عدوه «سنحاريب». فلما قال له ذلك — ذهب منه الوجع، وانقطع عنه الشر والحزن، وخر ساجداً وقال فى سجوده: «اللهم أنت الذى تعطى الملك من تشاء وتنزعه ممن تشاء، وتعز من تشاء وتذل من تشاء، عالم الغيب والشهادة، أنت الأول والآخر والظاهر والباطن، وأنت ترحم وتستجيب دعوة المضطرين». فلما رفع رأسه أوحى الله إلى شعيا: أن يأمره أن يأخذ ماء التين فيجعله على قرحته فيشفى، ويصبح وقد برئ. ففعل ذلك فشفى، وأرسل الله على جيش «سنحاريب» الموت، فأصبحوا وقد هلكوا كلهم — سوى سنحاريب وخمسة من أصحابه، منهم بُخْت نُصر. فأرسل ملك بنى إسرائيل فجاء بهم فجعلهم فى الأغلال، وطاف بهم فى البلاد على وجه التنكيل بهم والإهانة لهم سبعين يوماً، وكان يطعم كل واحد منهم كل يوم رغيفين من شعير؛ ثم أودعهم السجن. وأوحى الله تعالى إلى شعيا: أن يأمر الملك بإرسالهم إلى بلادهم لينذروا قومهم ماقد حل بهم. فلما رجعوا جمع سنحاريب قومه وأخبرهم بما قد كان من أمرهم، فقال له السحرة والكهنة: إنا أخبرناك عن شأن ربهم وأنبيائهم فلم تطعنا، وهى أمة لايستطيعها أحد من ربهم، فكان أمر سنحاريب مما خوفهم الله به، ثم مات سنحاريب بعد سبع سنين. قال ابن إسحاق: ثم لما مات «حزقيا» ملك بنى إسرائيل مرج أمرهم واختلطت أحداثهم، وكثر شرهم. فأوحى الله

تعالى إلى شعيا : فقام فيهم فوعظم وذكرهم ، وأخبرهم عن الله بما هو أهله ، وأنذرهم بأسه وعقابه إن خالفوه وكذبوه . فلما فرغ من مقالته عدوا عليه وطلبوه ليقتلوه ، فهرب منهم . فمر بشجرة فانفلقت له فدخل فيهـا ، وأدركه الشيطان فأخذ بهـدبة ثوبه فأبرزها ، فلما رأوا ذلك جاؤا بالمنشار فوضعوه على الشجرة ، فنشروها ونشروه معها . فإنا لله وإنا إليه راجعون

ومنهم إرميا بن حلقيا من سبط لاوى بن يعقوب

وقد قيل : إنه الخضر ، رواه الضحاك عن ابن عباس ، وهو غريب وليس بصحيح . قال ابن عساكر : جاء فى بعض الآثار : أنه وقف على دم يحيى بن زكريا وهو يفور بدمشق ، فقال : أيها الدم فتنت الناس فاسكن فسكن ، ورسب حتى غاب . وقال أبو بكر بن أبى الدنيا ، حدثَنى على بن أبى مريم عن أحمد بن حباب عن عبد الله بن عبد الرحمن قال : قال إرميا : أى رب ! أى عبادك أحب اليك ؟ قال : أكثرهم لى ذكراً ، الذين يشتغلون بذكرى عن ذكر الخلائق ، الذين لا تعرض لهم وساوس الفناء ، ولا يحدثون أنفسهم بالبقاء ، الذين إذا عرض لهم عيش الدنيا قلوه ، وإذا زوى عنهم سروا بذلك . أولئك أنحلهم[1] محبتى ، وأعطيهم فوق غاياتهم .

ذكرى خراب بيت المقدس

قال تعالى : (وآتينا موسى الـكتاب وجعلناه هدى لبنى إسرائيل أن لاتتخذوا من دونى وكيلا ❊ ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً ❊ وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الـكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً ❊ فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد ، فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا ❊ ثم رددنا لـكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً ❊ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها ، فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ماعلوا تتبيرا ❊ عسى ربكم أن يرحمكم ، وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للـكافرين حصيرا)[2] قال وهب بن منبه : أوحى الله إلى نبى من أنبياء بنى إسرائيل يقال له : « إرميا » حين ظهرت فيهم المعاصى : أن قم بين ظهرانى قومك فأخبرهم أن لهم قلوباً ولا يفقهون ، وأعيناً ولا يبصرون ، وآذاناً ولا يسمعون . وأنى تذكرت صلاح آبائهم فعطفنى ذلك على أبنائهم ، فسلهم كيف وجدوا غب طاعتى ؟ وهل سعد أحد ممن عصانى بمعصيتى ؟ وهل شقى أحد ممن أطاعنى بطاعتى ؟ إن الدواب تذكر أوطانها فتنزع إليها ، وإن هؤلاء القوم تركوا الأمر الذى أكرمت عليه

---

(١) أى أعطيهم وأمنحهم ، والنحلى بوزن الحبلى : العطية . (٢) الآيات : ٢ — ٨ من سورة الإسراء

آباءهم ، والتمسوا الكرامة من غير وجهها ؛ أما أحبارهم فأنكروا حقى ، وأما قراؤهم فعبدوا غيرى ، وأما نساكهم فلم ينتفعوا بما علموا ، وأما ولاتهم فكذبوا علىّ وعلى رسلى ؛ خزنوا المكر فى قلوبهم ، وعودوا الكذب ألسنتهم .

وإنى أقسم بجلالى وعزتى لأهيجنّ عليهم جُيولا [1] لايفقهون ألسنتهم ، ولا يعرفون وجوههم ولا يرحمون بكاءهم ، ولأبعثنّ فيهم ملكا جباراً قاسياً ؛ له عساكر كقطع السحاب ، ومواكب كأمثال الفجاج ، كأن خفقان راياته طيران النسور ، وكأن حمل فرسانه كر العقبان . يعيدون العمران خرابا ، ويتركون القرى وحشة . فياويل «إيليا» وسكانها ! كيف أذللهم للقتل ، وأسلط عليهم السباء ، وأعيد بعد لجب الأعراس صراخا ، وبعد صهيل الخيل عواء الذئاب ، وبعد شرفات القصور مساكن السباع ، وبعد ضوء السرج وهج العجاج ، وأبدلهم بالعز ذلا وبالنعمة العبودية ، ولأبدلنّ نساءهم بعد الطيب التراب وبالمشى على الزرابى [2] الخبب ، ولأجعلنّ أجسادهم زبلا للأرض ، وعظامهم ضاحية للشمس ، ولأدوسنهم بألوان العذاب ، ثم لآمرن السماء فتكون طبقاً من حديد ، والأرض سبيكة من نحاس ، فإن أمطرت لم تنبت الأرض ، وإن أنبتت شيئاً فى خلال ذلك فبرحمتى للبهائم . ثم أحبسه فى زمان الزرع وأرسله فى زمان الحصاد ، فإن زرعوا فى خلال ذلك شيئاً سلطت عليه الآفة ، فإن خلص منه شىء نزعت منه البركة ، فإن دعونى لم أجبهم ، وإن سألوا لم أعطهم ، وإن بكوا لم أرحمهم ، وإن تضرعوا صرفت وجهى عنهم . رواه ابن عساكر بهذا اللفظ .

وقال إسحاق بن بشر : أنبأنا إدريس عن وهب بن منبه قال : إن الله تعالى لما بعث إرميا إلى بنى إسرائيل — وذلك حين عظمت الأحداث فيهم فعملوا بالمعاصى وقتلوا الأنبياء — طمع بُختُ نَصّرَ فيهم وقذف الله فى قلبه وحدث نفسه بالمسير إليهم ، لما أراد الله أن ينتقم به منهم ، فأوحى الله إلى إرميا : إنى مهلك بنى إسرائيل ومنتقم منهم ، فقم على صخرة بيت المقدس يأتيك أمرى ووحيى ، فقام إرميا فشق ثيابه وجعل الرماد على رأسه وخر ساجداً ، وقال : يارب ! وددت أن أمى لم تلدنى حين جعلتنى آخر أنبياء بنى إسرائيل ، فيكون خراب بيت المقدس و بوار بنى إسرائيل من أجلى . فقال له : ارفع رأسك ، فرفع رأسه فبكى ، ثم قال : يارب ! من تسلط عليهم ؟ فقال عبدة النيران لايخافون عقابى ولا يرجون ثوابى . قم ياإرميا فاستمع وحيى أخبرك خبرك وخبر بنى إسرائيل ؛ من قبل أن أخلقك اخترتك ، ومن قبل أن أصورك فى رحم أمك قدستك ، ومن قبل أن أخرجك من بطن أمك طهرتك ، ومن قبل

---

(١) جمع جيل . وهو الصنف من الناس .

(٢) أى البسط — جمع زربى . والخبب : السرعة فى المشى ، وضرب من العدو .

أن تبلغ نبأتك ، ومن قبل أن تبلغ الأشد اخترتك ، ولأمر عظيم اجتبيتك ؛ فقم مع الملك تسدده وترشده . فكان مع الملك يسدده ويأتيه الوحى من الله ، حتى عظمت الأحداث ونسوا مانجاهم الله به من عدوهم سنحاريب وجنوده ، فأوحى الله إلى إرميا : قم فاقصص عليهم ما آمرك به ، وذكرهم نعمتى عليهم وعرفهم أحداثهم ، فقال إرميا : يارب ! إنى ضعيف إن لم تقونى ، عاجز إن لم تبلغنى ، مخطىء إن لم تسددنى ، مخذول إن لم تنصرنى ، ذليل إن لم تعزنى .

فقال الله تعالى : [أو لم تعلم أن الأمور كلها تصدر عن مشيئتى ؟ وأن الخلق والأمر كله لى ؟ وأن القلوب والألسنة كلها بيدى ، فأقلبها كيف شئت فتطيعنى ؟ فأنا الله الذى ليس شىء مثلى . قامت السموات والأرض وما فيهن بكلمتى . وإنه لايخلص التوحيد ولم تتم القدرة إلا لى ، ولا يعلم ماعندى غيرى . وأنا الذى كلمت البحار ففهمت قولى ، وأمرتها فقبلت أمرى ، وحددت عليها حدوداً فلا تعدو حدى ، وتأتى بأمواج كالجبال فإذا بلغت حدى ألبستها مذلة لطاعتى ، وخوفاً واعترافاً لأمرى . وإنى معك ولن يصل إليك شىء معى ، وإنى بعثتك إلى خلق عظيم من خلقى لتبلغهم رسالاتى ، فتستوجب لذلك أجر من اتبعك ، ولا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً . انطلق إلى قومك فقم فيهم وقل لهم : إن الله قد ذكركم بصلاح آبائكم ، فلذلك استبقاكم يامعشر أبناء الأنبياء ، وكيف وجد آباؤكم مغبة طاعتى ؟ وكيف وجدتم مغبة معصيتى ؟ وهل وجدوا أحداً عصانى فسعد بمعصيتى ؟ وهل علموا أحداً أطاعنى فشقى بطاعتى ؟ إن الدواب إذا ذكرت أوطانها الصالحة نزعت إليها ، وإن هؤلاء القوم رتعوا فى مروج الهلكة ، وتركوا الأمر الذى به أكرمت آباءهم ، وابتغوا الكرامة من غير وجهها .

أما أحبارهم ورهبانهم : فاتخذوا عبادى خَولا[1] يتعبدونهم ويعملون فيهم بغير كتابى؛ حتى أجهلوهم أمرى وأنسوهم ذكرى وسنتى ، وغروهم عنى فدان لهم عبادى بالطاعة التى لاتنبغى إلا لى ؛ فهم يطيعونهم فى معصيتى . وأما ملوكهم وأمراؤهم فبطروا نعمتى وأمنوا مكرى ، وغرتهم الدنيا حتى نبذوا كتابى ونسوا عهدى ؛ فهم يحرفون كتابى ، ويفترون على رسلى ؛ جرأة منهم على وغرة بى ، فسبحان جلالى وعلو مكانى وعظمة شأنى . هل ينبغى أن يكون لى شريك فى ملكى ؟ وهل ينبغى لبشر أن يطاع فى معصيتى ؟ وهل ينبغى لى أن أخلق عباداً أجعلهم أرباباً من دونى ؟ أو آذن لأحد بالطاعة لأحد وهى لاتنبغى إلا لى ؟ وأما قراؤهم وفقهاؤهم فيدرسون مايتخيرون ، فينقادون للملوك فيتابعونهم على البدع التى يبتدعون فى دينى ، ويطيعونهم فى معصيتى ، ويوفون لهم بالعهود الناقضة لعهدى ؛ فهم جهلة بما يعلمون ، لاينتفعون بشىء مما علموا من كتابى .

وأما أولاد النبيين : فمقهورون ومفتونون ، يخوضون مع الخائضين ، يتمنون مثل نصرى آباءهم

(١) الخول محركة : ما أعطاك الله من النعم والعبيد والإماء وغيرهم من الحاشية ، للواحد والذكر والأنثى .

والكرامة التى أكرمتهم بها ، ويزعمون أنه لا أحد أولى بذلك منهم ، بغير صدق منهم ولا تفكر . ولا يذكرون كيف كان صبر آبائهم ؟ وكيف كان جهدهم فى أمرى حين اغتر المغترون ؟ وكيف بذلوا أنفسهم ودماءهم فصبروا وصدقوا حتى عز أمرى وظهر دينى ؟ فتأنيت[1] هؤلاء القوم لعلهم يستحيون منى ويرجعون ، فتطولت[2] عليهم وصفحت عنهم ، فأكثرت ومددت لهم فى العمر ، وأعذرت لهم لعلهم يتذكرون . وكل ذلك أمطر عليهم السماء وأنبت لهم الأرض ، وألبسهم العافية ، وأظهرهم على العدو ، ولا يزدادون إلا طغياناً وبعداً منى . فحتى متى هذا ؟ أبى يسخرون أم بى يتحرشون؟ أم إياى يخادعون أم علىّ يجترئون ؟ فإنى أقسم بعزتى لأتيحنّ عليهم فتنة يتحير فيها الحكيم ، ويضل فيها رأى ذوى الرأى وحكمة الحكيم . ثم لأسلطنّ عليهم جباراً قاسياً عاتياً ؛ ألبسه الهمة وأنزع من قلبه الرأفة والرحمة . وآليت أن يتبعه عدد وسواد مثل الليل المظلم ، له فيه عساكر مثل قطع السحاب ، ومواكب مثل العجاج[3] ، وكأن حفيف راياته طيران النسور ، وحمل فرسانه كسرب العقبان ؛ يعيدون العمران خراباً ، والقرى وحشاً ، ويَعثُون فى الأرض فساداً ، ويتبرون ماعلوا تتبيراً . قاسية قلوبهم ، لايكترثون ولا يرقبون ، ولا يرحمون ولا يبصرون ولا يسمعون . يجولون فى الأسواق بأصوات مرتفعة مثل زئير الأسد ، تقشعر من هيبتها الجلود ، وتطيش من سمعها الأحلام ، بألسنة لايفقهونها ، ووجوه ظاهر عليها المنكر لايعرفونها .

فوعزتى لأعطلنّ بيوتهم من كتبى وقدسى ، ولأخلينّ مجالسهم من حديثها ودروسها ، ولأوحشنّ مساجدهم من عمارها وزوارها ؛ الذين كانوا يتزينون بعمارتها لغيرى ، ويتهجدون فيها ويتعبدون لكسب الدنيا بالدين ، و يتفقهون فيها لغير الدين و يتعلمون فيها لغير العمل . لأبدلنّ ملوكها بالعز الذل ، و بالأمن الخوف و بالغنى الفقر ، وبالنعمة الجوع ، وبطول العافية والرخاء ـ أنواع البلاء ، وبلباس الديباج والحرير ـ مدارع الوبر والعباء ، و بالأرواح الطيبة والأدهان ـ جيف القتلى ، و بلباس التيجان ، أطواق الحديد والسلاسل والأغلال . ثم لأعيدن فيهم بعد القصور الواسعة والحصون الحصينة ـ الخراب ، وبعد البروج المشيدة مساكن السباع ، و بعد صهيل الخيل عواء الذئاب ، و بعد ضوء السراج دخان الحريق ، و بعد الأنس الوحشة والقفار ، ثم لأبدلن نساءها بالأسورة الأغلال ، و بقلائد الدر والياقوت سلاسل الحديد ، و بألوان الطيب والأدهان ـ النقع والغبار ، وبالمشى على الزرابى ـ عبور الأسواق والأنهار ، والخبب إلى الليل فى بطون الأسواق ، و بالخدور والستور ـ الحسور عن الوجوه والسوق[4] والأسفار والأرواح السموم . ثم لأدوسنهم بأنواع العذاب ، حتى لو كان الكائن منهم فى حالق[5] لوصل ذلك إليه . إنى إنما أكرم من أكرمنى ، و إنما أهين من هان عليه أمرى .

(١) ترفقت بهم وانتظرت عليهم . (٢) أى امتننت عليهم (٣) العجاج : الغبار والدخان .
(٤) جمع ساق ، وهو مابين الكعب والركبة . (٥) الحالق : الجبل المرتفع المشئوم .

ثم لآمرنّ السماء خلال ذلك فلتكونن عليهم طبقاً من حديد ، ولآمرنّ الأرض فلتكونن سبيكة من نحاس ، فلا سماء تمطر ولا أرض تنبت ، و فإن أمطرت خلال ذلك شيئاً سلطت عليهم الآفة ، فإن خلص منه شيء نزعت منه البركة ، إن دعونى لم أجبهم ، و إن سألونى لم أعطهم ، و إن بكوا لم أرحمهم ، و إن تضرعوا إلى صرفت وجهى عنهم . و إن قالوا اللهم أنت الذى ابتدأتنا وآباءنا من قبلنا برحمتك وكرامتك ، وذلك بأنك اخترتنا لنفسك وجعلت فينا نبوتك وكتابك ومساجدك ، ثم مكنت لنا فى البلاد واستخلفتنا فيها ، ورببتنا وآباءنا من قبلنا بنعمتك صغاراً ، وحفظتنا و إياهم برحمتك كباراً ، فأنت أوفى المنعمين و إن غيرنا ، ولا تبدل و إن بدلنا ، و إن تتم فبفضلك ومنك وطولك و إحسانك . فإن قالوا ذلك — قلت لهم : إنى أبتدىء عبادى برحمتى ونعمتى ، فإن قبلوا أتممت ، و إن استزادوا زدت ، و إن شكروا ضاعفت ، و إن غيّروا غيّرت ، و إذا غيَّروا غضبت ، وإذا غضبت عذبت ، وليس يقوم شيء بغضبى][1] .

قال كعب : فقال إرميا : برحمتك أصبحت أتعلم بين يديك ، وهل ينبغى ذلك لى وأنا أذل وأضعف من أن ينبغى لى أن أتكلم بين يديك ؟ ولكن برحمتك أبقيتنى لهذا اليوم ، وليس أحد أحق أن يخاف هذا العذاب وهذا الوعيد منى ؛ بما رضيت به منى ، من طول الإقامة فى دار الخاطئين وهم يعصونك حولى ، بغير نكر ولا تغيير منى ، فإن تعذبنى فبذنبى و إن ترحمنى فذلك ظنى بك . ثم قال : يارب ! سبحانك و بحمدك وتباركت ربنا وتعاليت ، أتهلك هذه القرية وما حولها وهى مساكن أنبيائك ومنزل وحيك ؟ يارب ! سبحانك وبحمدك وتباركت ربنا وتعاليت ، أتخرب هذا المسجد وما حوله من المساجد ، ومن البيوت التى رفعت لذكرك ؟ يارب ! سبحانك و بحمدك وتباركت ربنا وتعاليت ، لم قتل هذه الأمة وعذابك إياهم وهم من ولد إبراهيم خليلك ، وأمة موسى نجيك ، وقوم داود صفيك ؟ يارب ! أى القرى تأمن عقوبتك بعد ؟ وأى العباد يأمنون سطوتك بعد ؟ ولد خليلك إبراهيم وأمة نجيك موسى ، وقوم خليفتك داود — تسلط عليهم عبدة النيران . قال الله تعالى : [يا إرميا ! من عصانى فلا يستنكر نقمتى ، فإنى إنما أكرمت هؤلاء القوم على طاعتى ، ولو أنهم عصونى لأنزلتهم دار العاصين — إلا أن أتداركهم برحمتى] .

قال إرميا : يارب اتخذت إبراهيم خليلا وحفظتنا به ، وموسى قربته نجيا ؛ فنسألك أن تحفظنا ولا تتخطفنا ولا تسلط علينا عدونا ، فأوحى الله إليه : [ياإرميا إنى قدستك فى بطن أمك وأخرتك إلى هذا اليوم ، فلو أن قومك حفظوا اليتامى والأرامل والمساكين وابن السبيل — لكنت الداعم لهم ، وكانوا عندى بمنزلة جنة ؛ ناعم شجرها ، طاهر ماؤها ، ولا يغور ماؤها ، ولا تبور ثمارها ولا تنقطع ، ولكن

(١) إلى هنا ينتهى قول الله لإرمياء صفحة ٣٨ ، حين لجأ إليه راجياً عدم إنزال نقمته على بنى إسرائيل لطغيانهم

سأشكو إليك بنى إسرائيل ؛ إنى كنت لهم بمنزلة الداعى الشفيق ، أجنبهم كل قحط وكل عسرة ، وأتبع بهم الخصب حتى صاروا كباشاً ينطح بعضها بعضاً ، فياويلهم ثم ياويلهم ، إنما أكرم من أكرمنى وأهين من هان عليه أمرى . إن من كان قبل هؤلاء القوم من القرون يستخفون بمعصيتى ، و إن هؤلاء القوم يتبرعون بمعصيتى تبرعاً ، فيظهرونها فى المساجد والأسواق ، وعلى رءوس الجبال وظلال الأشجار ، حتى عجت السماء إلى منهم ، وعجت الأرض والجبال ، ونفرت منها الوحوش بأطراف الأرض وأقاصيها ، وفى كل ذلك لاينتهون ولا ينتفعون بما علموا من الكتاب] .

قال فلما بلغهم إرميا رسالة ربهم ، وسمعوا مافيها من الوعيد والعذاب ــ عصوه وكذبوه ، واتهموه وقالوا : كذبت وأعظمت على الله الفرية ، فتزعم أن الله معطل أرضه ومساجده من كتابه وعبادته وتوحيده ، فمن يعبده حين لايبقى له فى الأرض عابد ولا مسجد ولا كتاب ؟ لقد أعظمت الفرية على الله ، واعتراك الجنون . فأخذوه وقيدوه وسجنوه ، فعند ذلك بعث الله عليهم بُخت نصّر . فأقبل يسير بجنوده حتى نزل بساحتهم حتى حاصروهم ، فكان كما قال تعالى : (فجاسوا خلال الديار) . قال فلما طال بهم الحصر نزلوا على حكمه ، ففتحوا الأبواب وتخللوا الأزقة ، وذلك قوله : (فجاسوا خلال الديار) وحكم فيهم حكم الجاهلية و بطش الجبارين ؛ فقتل منهم الثلث وسبى الثلث ، وترك الزمنى والشيوخ والعجائز . ثم وطئهم بالخيل وهدم بيت المقدس ، وساق الصبيان وأوقف النساء فى الأسواق حاسرات ، وقتل المقاتلة وخرب الحصون وهدم المساجد وحرق التوراة ، وسأل عن دانيال الذى كان قد كتب له الكتاب ــ فوجدوه قد مات . وأخرج أهل بيته الكتاب إليه ، وكان فيهم دانيال بن حزقيل الأصغر ، وميشائيل وعزرائيل وميخائيل ، فأمضى لهم ذلك الكتاب . وكان دانيال بن حزقيل خلفاً من دانيال الأكبر ، ودخل بخت نصر بجنوده بيت المقدس ووطىء الشام كلها ، وقتل بنى إسرائيل حتى أفناهم .

فلما فرغ منها انصرف راجعاً وحمل الأموال التى كانت بها ، وساق السبايا ، فبلغ معه عدة صبيانهم من أبناء الأحبار والملوك ــ تسعين ألف غلام . وقذف الكناسات فى بيت المقدس ، وذبح فيه الخنازير . وكان الغلمان سبعة آلاف غلام من بيت داود ، وأحد عشر ألفاً من سبط يوسف بن يعقوب وأخيه بنيامين ، وثمانية آلاف من سبط إيشى بن يعقوب ، وأربعة عشر ألفاً من سبط زبالون ونفتالى ابنى يعقوب ، وأربعة عشر ألفاً من سبط دان بن يعقوب ، وثمانية آلاف من سبط يستاخر بن يعقوب وألفين من سبط زبالون بن يعقوب ، وأربعة آلاف من سبط روبيل ولاوى ، واثنى عشر ألفاً من سائر بنى إسرائيل . وانطلق حتى قدم أرض بابل .

قال إسحاق بن بشر ، قال وهب بن منبه ، فلما فعل مافعل قيل له : كان لهم صاحب يحذرهم

ماأصابهم ، و يصفك وخبرك لهم ، و يخبرهم أنك تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم وتهدم مساجدهم وتحرق كنائسهم ، فكذبوه واتهموه ، وضربوه وقيدوه وحبسوه . فأمر بخت نصر فأخرج « إرميا » من السجن ، فقال له : أكنت تحذر هؤلاء القوم ماأصابهم ؟ قال نعم ، قال : فأنّى علمت ذلك ؟ قال أرسلنى الله إليهم فكذبونى ، قال كذبوك وضربوك وسجنوك ؟ قال نعم ، قال : بئس القوم قوم كذبوا نبيهم وكذبوا رسالة ربهم ، فهل لك أن تلحق بى فأكرمك وأواسيك ؟ وإن أحببت أن تقيم فى بلادك فقد أمنتك . قال له إرميا : إنى لم أزل فى أمان الله منذ كنت ، لم أخرج منه ساعة قط ، ولو أن بنى إسرائيل لم يخرجوا منه لم يخافوك ولا غيرك ، ولم يكن لك عليهم سلطان . فلما سمع بخت نصر هذا القول منه تركه ، فأقام إرميا مكانه بأرض إيليا . وهذا سياق غريب ، وفيه حكم ومواعظ وأشياء مليحة ، وفيه من جهة التعريب غرابة .

وقال هشام بن محمد بن السائب الكلبى : كان بخت نصر « أصفهبذا » لما بين الأهواز إلى الروم ، الملك على الفرس وهو «لهراسب» ، وكان قد بنى مدينة « بلخ» التى تلقب بالحسناء[1] ، وقاتل الترك وألجأهم إلى أضيق الأماكن ، وبعث بخت نصر لقتال بنى إسرائيل بالشام ، فلما قدم الشام صالحه أهل دمشق . وقد قيل إن الذى بعث بخت نصر إنما هو « بهمن » ملك الفرس بعد بشتاسب بن لهراسب ، وذلك لتعدى بنى إسرائيل على رسله إليهم . وقد روى ابن جرير عن يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب عن سليمان بن بلال عن يحيى بن سعيد الأنصارى عن سعيد بن المسيب : أن بخت نصر لما قدم دمشق وجد بها دماً يغلى على كِبا[2] يعنى القمامة ، فسألهم ما هذا الدم ؟ فقالوا أدركنا آباءنا على هذا ، وكلما ظهر عليه الكبا ظهر . قال فقتل على ذلك سبعين ألفاً من المسلمين وغيرهم فسكن . وهذا إسناد صحيح إلى سعيد ابن المسيب ، وقد تقدم من كلام الحافظ بن عساكر مايدل على أن هذا دم يحيى بن زكريا ، وهذا لايصح ؛ لأن يحيى بن زكريا بعد بخت نصر بمدة . والظاهر أن هذا دم نبى متقدم ، أو دم لبعض الصالحين ،أو لمن شاء الله ، ممن الله أعلم به .

قال هشام بن الكلبى : ثم قدم بخت نصر بيت المقدس فصالحه ملكها ، وكان من آل داود ، وصانعه عن بنى إسرائيل ، وأخذ منه بخت نصر رهائن ورجع . فلما بلغ «طبرية» بلغه أن بنى إسرائيل ثاروا على ملكهم فقتلوه لأجل أنه صالحه ، فضرب رقاب من معه من الرهائن ورجع إليهم فأخذ المدينة عنوة ، وقتل المقاتلة وسبى الذرية . قال : وبلغنا أنه وجد فى السجن « إرميا » النبى فأخرجه ، وقص عليه ما كان من أمره إياهم وتحذيره لهم عن ذلك فكذبوه وسجنوه ، فقال بخت نصر : بئس القوم قوم عصوا رسول الله ، وخلى سبيله وأحسن إليه . واجتمع إليه من بقى من ضعفاء بنى إسرائيل فقالوا إنا قد

---

(١) لأنها أحسن مدن خراسان . (٢) فى القاموس ـ الكبا كإلى : الكناسة : وتثنيتها كبوان والجمع أكباء .

أسأنا وظلمنا ، ونحن نتوب إلى الله عز وجل مما صنعنا ، فادع الله أن يقبل توبتنا ، فدعا ربه فأوحى إليه أنهم غير فاعلين ؛ فإن كانوا صادقين فليقيموا معك بهذه البلدة . فأخبرهم بما أمره الله تعالى به ، فقالوا كيف نقيم بهذه البلدة وقد خربت وغضب الله على أهلها ؟ فأبوا أن يقيموا .

قال ابن الكلبي : ومن ذلك الزمان تفرقت بنو إسرائيل فى البلاد ؛ فنزلت طائفة منهم الحجاز ، وطائفة يثرب ، وطائفة وادى القرى . وذهبت شرذمة منهم إلى مصر ، فكتب بخت نصر إلى ملكها يطلب منه من شرد منهم إليه ، فأبى عليه ، فركب فى جيشه فقاتله وقهره وغلبه وسبى ذراريهم . ثم ركب إلى بلاد المغرب حتى بلغ أقصى تلك الناحية . قال : ثم انصرف بسبى كثير من أرض المغرب ومصر وأهل بيت المقدس ، وأرض فلسطين والأردن ، وفى السبى دانيال . قلت والظاهر أنه دانيال بن حزقيل الأصغر لا الأكبر ، على ما ذكره وهب بن منبه ، والله أعلم .

ذكر شيء من خبر دانيال « عليه السلام »

قال ابن الدنيا : حدثنا أحمد بن عبد الأعلى الشيبانى — قال : إن لم أكن سمعته من شعيب بن صفوان فحدثنى بعض أصحابنا عنه — عن الأجلح الكندى عن عبد الله بن أبى الهذيل قال : ضرا[1] بخت نصر أسدين فألقاهما فى جب ، وجاء بدانيال فألقاه عليهما فلم يَهيجاه[2] ، فمكث ما شاء الله ، ثم اشتهى مايشتهى الآدميون من الطعام والشراب ، فأوحى الله إلى إرميا — وهو بالشام — أن أعدد طعاماً وشراباً لدانيال ، فقال : يارب أنا بالأرض المقدسة ، ودانيال بأرض بابل من أرض العراق ، فأوحى الله إليه : أن أعدد ما أمرناك به ، فإنا سنرسل من يحملك ويحمل ما أعددت ، ففعل . وأرسل إليه من حمله وحمل ماأعده حتى وقف على رأس الجب ، فقال دانيال : من هذا ؟ قال : أنا إرميا . فقال ما جاء بك ؟ فقال أرسلنى إليك ربك . قال : أو قد ذكرنى ربى ؟ قال : نعم . فقال دانيال : الحمد لله الذى لا ينسى من ذكره ، والحمد لله الذى يجيب من رجاه ، والحمد لله الذى من وثق به لم يكله إلى غيره ، والحمد لله الذى يجزى بالإحسان إحساناً ، والحمد لله الذى يجزى بالصبر نجاة ، والحمد لله الذى هو يكشف ضرنا بعد كربنا ، والحمد لله الذى يقينا حين يسوء ظننا بأعمالنا ، والحمد لله الذى هو رجاؤنا حين تنقطع الحيل عنا .

وقال يونس بن بكير ، عن محمد بن إسحق عن أبى خلد بن دينار : حدثنا أبو العالية قال : لما افتتحنا « تستر » وجدنا فى مال بيت الهرمزان سريراً عليه رجل ميت عند رأسه مصحف ، فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر بن الخطاب ، فدعا له كعباً فنسخه بالعربية . فأنا أول رجل من العرب قرأه ، قرأته مثل ما أقرأ القرآن هذا ، فقلت لأبى العالية ما كان فيه ؟ قال : سيركم وأموركم ولحون[2] كلامكم ، وما هو

(١) أى عود وضرب . (٢) أى لم يثيراه ولم يقاتلاه (٢) جمع لحن ، من الأصوات المصنوعة الموضوعة .

كائن بعد . قلت : فما صنعتم بالرجل ؟ قال حفرنا بالنهار ثلاثة عشر قبراً متفرقة ، فلما كان بالليل دفناه وسوينا القبور كلها لنعميه على الناس فلا ينبشونه . قلت : فما يرجون منه ؟ قال كانت السماء إذا حبست عنهم برزوا بسريره فيمطرون . قلت : من كنتم تظنون الرجل ؟ قال : رجل يقال له «دانيال» ، قلت منذ كم وجدتموه قد مات ؟ قال منذ ثلثمائة سنة ، قلت أما تغير منه شيء ؟ قال لا — إلا شعرات من قفاه . إن لحوم الأنبياء لاتبليها الأرض ولا تأكلها السباع . وهذا إسناد صحيح إلى أبي العالية ، ولكن إن كان تاريخ وفاته محفوظاً من ثلثمائة سنة فليس بنبي ، بل هو رجل صالح ؛ لأن عيسى بن مريم ليس بينه و بين رسول الله ﷺ نبي بنص الحديث الذى فى البخارى ، والفترة التى كانت بينهما أربعمائه سنة ، وقيل ستمائة وقيل ستمائة وعشرون سنة . وقد يكون تاريخ وفاته من ثمانمائة سنة وهو قريب من وقت دانيال وإن كان كونه دانيال هو المطابق لما فى نفس الأمر ؛ فإنه قد يكون رجلا آخر إما من الأنبياء أو الصالحين ، ولكن قربت الظنون أنه دانيال ؛ لأن دانيال كان قد أخذه ملك الفرس فأقام عنده مسجوناً كما تقدم .

وقد روى بإسناد صحيح إلى أبي العالية أن طول أنفه شبر ، وعن أنس بن مالك بإسناد جيد : أن طول أنفه ذراع ، فيحتمل على هذا أن يكون رجلا من الأنبياء الأقدمين قبل هذه المدد ، والله أعلم .

وقد قال أبو بكر بن أبي الدنيا فى كتاب ﴿ أحكام القبور ﴾ : حدثنا أبو بلال محمد بن الحارث ابن عبد الله بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعرى ، حدثنا أبو محمد القاسم بن عبد الله عن أبي الأشعث الأحمرى ، قال : قال رسول ﷺ : « إن دانيال دعا ربه عز وجل أن تدفنه أمة محمد » ، فلما افتتح أبو موسى الأشعرى « تستر » وجده فى تابوت تضرب عروقه ووريده ، وقد كان رسول الله ﷺ قال : « من دل على دانيال فبشروه بالجنة » فكان الذى دل عليه رجل يقال له «حرقوص» ، فكتب أبو موسى إلى عمر يخبره ، فكتب إليه عمر أن ادفنه وابعث إلى حرقوص ، فإن النبى ﷺ بشره بالجنة . وهذا مرسل من هذا الوجه ، وفى كونه محفوظاً نظر ، والله أعلم .

ثم قال ابن أبي الدنيا : حدثنا أبو بلال ، حدثنا قاسم بن عبد الله عن عنبسة بن سعيد — وكان عالماً — قال : وجد أبو موسى مع دانيال مصحفاً وجَرة فيها وَدَك[1] ودراهم وخاتمه ، فكتب أبو موسى بذلك إلى عمر ، فكتب إليه عمر : أما المصحف فابعث به إلينا ، وأما الودك فابعث إلينا منه ، ومر من قبلك من المسلمين يستشفون به ، واقسم الدراهم بينهم ، وأما الخاتم فقد نفلناكه[2] . وروى عن ابن أبي الدنيا من غير وجه : أن أبا موسى لما وجده وذكروا له أنه دانيال — التزمه وعانقه وقبله ، وكتب إلى عمر يذكر له أمره ، وأنه وجد عنده مالا موضوعاً قريباً من عشرة آلاف درهم — وكان

(١) الودك محركة : الدسم (٢) أى أعطيناه لك نفلا ، والنفل : الغنيمة والهبة .

من جاء اقترض منها ؛ فإن ردها و إلا مرض ـ وأن عنده رَبْعة . فأمر عمر بأن يغسل بماء وسدر ويكفن ويدفن ، و يخفى قبره فلا يعلم به أحد ، وأمر بالمال أن يرد إلى بيت المال ، و بالربعة فتحمل إليه ، ونَفَله خاتمه . وروى عن أبى موسى : أنه أمر أربعة من الأسراء فكروا نهراً وحفروا فى وسطه قبراً فدفنه فيه ، ثم قدم الأربعة الأسراء فضرب أعناقهم فلم يعلم موضع قبره غير أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

وقال ابن أبى الدنيا : حدثنى إبراهيم بن عبد الله ، حدثنا أحمد بن عمرو بن السرح ، حدثنا ابن وهب عن عبد الرحمن بن أبى الزناد عن أبيه قال : رأيت فى يد ابن بردة بن أبى موسى الأشعرى خاتماً نقش فصه ـ أسدان بينهما رجل يلحسان ذلك الرجل ، قال أبو بردة : هـذا خاتم ذلك الرجل الميت الذى زعم أهل هذه البلدة أنه دانيال ، أخذه أبو موسى يوم دفنه . قال أبو بردة : فسأل أبو موسى علماء تلك القرية عن نقش ذلك الخاتم ، فقالوا : إن الملك الذى كان دانيال فى سلطانه ، جاءه المنجمون وأصحاب العلم فقالوا له إنه يولد ليلة كذا وكذا غلام يعور ملكك و يفسده ، فقال الملك : والله لا يبقى تلك الليلة غلام إلا قتلته ، إلا أنهم أخذوا دانيال فألقوه فى أجمة الأسد ، فبات الأسد ولبوته يلحسانه ولم يضراه ، فجاءت أمه فوجدتهما يلحسانه ، فنجاه الله بذلك حتى بلغ مابلغ . قال أبو بردة : قال أبو موسى قال علماء تلك القرية : فنقش دانيال صورته وصورة الأسدين يلحسانه فى فص خاتمه ؛ لئلا ينسى نعمة الله عليه فى ذلك . إسناد حسن .

ذكر عمارة بيت المقدس بعد خرابها

[واجتماع الملأ من بنى إسرائيل بعد تفرقهم فى بقاع الأرض وشعابها]

قال الله تعالى فى كتابه المبين وهو أصدق القائلين : (أو كالذى مرّ على قرية وهى خاوية على عروشها ، قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها ؟ فأماته الله مائة عام ثم بعثه ، قال كم لبثت ؟ قال لبثت يوماً أو بعض يوم ، قال بل لبثت مائة عام ، فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه ، وانظر إلى حمارك ، ولنجعلك آية للناس ، وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً ، فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شىء قدير[1]) قال هشام بن الكلبى : ثم أوحى الله تعالى إلى « إرميا » عليه السلام ـ فيما بلغنى : إنى عامر بيت المقدس فاخرج إليها فانزلها ، فخرج حتى قدمها وهى خراب ، فقال فى نفسه : سبحان الله ! أمرنى الله أن أنزل هذه البلدة ، وأخبرنى أنه عامرها فمتى يعمرها ؟ ومتى يحييها الله بعد موتها ؟ ثم وضع رأسه فنام ومعه حماره وسلة من طعام ، فمكث فى نومه سبعين سنة ، حتى هلك بخت نصر والملك الذى فوقه وهو «لهراسب» . وكان ملكه مائة وعشرين سنة ، وقام بعده ولده بشتاسب بن لهراسب . وكان موت بخت نصر فى دولته ، فبلغه عن بلاد الشام أنها خراب ، وأن السباع قد كثرت فى أرض فلسطين

---

(١) الآية : ٢٥٩ من سورة البقرة .

فلم يبق بها من الإنس أحد ، فنادى فى أرض بابل فى بنى إسرائيل : إن من شاء أن يرجع إلى الشام فليرجع ، وملك عليهم رجلا من آل دلود، وأمره أن يعمر بيت المقدس ، و يبنى مسجدها ، فرجعوا فعمروها ، وفتح الله لإرميا عينيه فنظر إلى المدينة كيف تبنى وكيف تعمر ، ومكث فى نومه ذلك حتى تمت له مائة سنة . ثم بعثه الله وهو لايظن أنه نام أكثر من ساعة ، وقد عهد المدينة خراباً . فلما نظر إليها عامرة آهلة (قال أعلم أن الله على كل شيء قدير) . فأقام بنو إسرائيل بها ، ورد الله عليهم أمرهم ، فمكثوا كذلك حتى غلبت عليهم الروم فى زمن ملوك الطوائف . ثم لم يكن لهم جماعة ولا سلطان ـ يعنى بعد ظهور النصارى عليهم . هكذا حكاه ابن جرير فى تاريخه عنه .

وذكر ابن جرير أن لهراسب كان ملكا عادلا سائساً لمملكته ، قد دانت له العباد والبلاد والملوك والقواد ، وأنه كان ذا رأى جيد فى عمارة الأمصار والأنهار والمعاقل . ثم لما ضعف عن تدبير المملكة بعد مائة سنة ونيف . نزل عن الملك لولده بشتاسب ، فكان فى زمانه ظهور دين المجوسية . وذلك أن رجلا كان اسمه «زردشت» ، كان قد صحب إرميا عليه السلام فأغضبه ، فدعا عليه إرميا فبرص زردشت ، فذهب فلحق بأرض آذربيجان ، وصحب بشتاسب فلقنه دين المجوسية الذى اخترعه من تلقاء نفسه ، فقبله منه بشتاسب ، وحمل الناس عليه وقهرهم وقتل منهم خلقاً كثيراً ممن أباه منهم[1] ثم كان بعد بشتاسب بهمن بن بشتاسب ، وهو من ملوك الفرس المشهورين والأبطال المذكورين ، وقد ناب بخت نصر لكل واحد من هؤلاء الثلاثة ، وعمر دهراً طويلا قبحه الله . والمقصود أن هذا الرأى ذكره ابن جرير ؛ من أن هذا المار على هذه القرية ـ هو إرميا عليه السلام . قال وهب بن منبه وعبد الله بن عبيد ابن عمير وغيرهما : وهو قوى من حيث السياق المتقدم ، وقد روى عن على وعبد الله بن سلام وابن عباس والحسن وقتادة والسدى وسليمان بن بريدة وغيرهم : أنه عزير ، وهذا أشهر عند كثير من السلف والخلف ، والله أعلم .

قصة العزير

قال الحافظ أبو القاسم بن عساكر : هو عزير بن جروة ، ويقال ابن سوريق بن عديا بن أيوب بن درزنا بن عرى بن تقى بن اسبوع بن فنحاص بن العازر بن هارون بن عمران ، ويقال عزير بن سروخا . جاء فى بعض الآثار : أن قبره بدمشق ، ثم ساق من طريق أبى القاسم البغوى عن داود بن عمرو عن حبان بن على عن محمد بن كريب عن أبيه عن ابن عباس مرفوعاً : لا أدرى ألعين تبع أم لا ؟ ولا أدرى أكان عزير نبياً أم لا ؟ ثم رواه من حديث مؤمل بن الحسن عن محمد بن إسحاق السجزى

(١) ذكر بعض الباحثين : أن زردشت هو إبراهيم الزردشت أحد الأنبياء الذين ظهروا فى بلاد القفقاز ، وله كتاب باللغة الفارسية القديمة يشتمل على مبادىء وتعاليم وأحكام على نهج سائر الكتب ، ولايزال أتباعه إلى اليوم بإيران والهند ، وقد بشر بالنبى محمد .

عن عبد الرزاق عن معمر عن ابن أبي ذؤيب عن سعيد المقبرى عن أبي هريرة مرفوعاً نحوه . ثم روى من طريق إسحاق بن بشر ــ وهو متروك ــ عن جويبر ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس : أن عزيراً كان ممن سباه بخت نصر وهو غلام حدث ، فلما بلغ أربعين سنة أعطاه الله الحكمة ، قال : ولم يكن أحد أحفظ ولا أعلم بالتوراة منه . قال : وكان يذكر مع الأنبياء حتى محى الله اسمه من ذلك ــ حين سأل ربه عن القدر . وهذا ضعيف ومنقطع ومنكر ، والله أعلم .

وقال إسحاق بن بشر عن سعيد عن أبي عروبة ، عن قتادة عن الحسن عن عبد الله بن سلام : أن عزير هو العبد الذى أماته الله مائة عام ثم بعثه . وقال إسحاق بن بشر : أنبأنا سعيد بن بشير عن قتادة عن كعب وسعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن ومقاتل وجويبر عن الضحاك عن ابن عباس وعبد الله ابن إسماعيل السدى عن أبيه عن مجاهد عن ابن عباس وإدريس عن جده وهب بن منبه . قال إسحاق : كل هؤلاء حدثونى عن حديث عزير ، وزاد بعضهم على بعض ، قالوا بإسنادهم : إن عزيراً كان عبداً صالحاً حكيما . خرج ذات يوم إلى ضيعة له يتعاهدها ، فلما انصرف أتى إلى خربة حين قامت الظهيرة وأصابه الحر . ودخل الخربة وهو على حماره ، فنزل عن حماره ومعه سلة فيها تين وسلة فيها عنب ، فنزل فى ظل تلك الخربة ، وأخرج قصعة معه فاعتصر من العنب الذى كان معه فى القصعة ، ثم أخرج خبزاً يابساً معه فألقاه فى تلك القصعة فى العصير ليبتل ليأكله ، ثم استلقى على قفاه وأسند رجليه إلى الحائط ، فنظر سقف تلك البيوت ورأى ما فيها وهى قائمة على عروشها ، وقد باد أهلها ، ورأى عظاماً بالية فقال : (أنى يحيى هذه الله بعد موتها؟) ، فلم يشك أن الله يحييها . ولكن قالها تعجباً ، فبعث الله ملك الموت فقبض روحه فأماته الله مائة عام .

فلما أتت عليه مائة عام ــ وكانت فيما بين ذلك فى بنى إسرائيل أمور وأحداث ــ قال : فبعث الله إلى عزير ملكا فخلق قلبه ليعقل قلبه ، وعينيه لينظر بهما فيعقل كيف يحيى الله الموتى . ثم ركب خلقه وهو ينظر ، ثم كسى عظامه اللحم والشعر والجلد ، ثم نفخ فيه الروح . كل ذلك وهو يرى ويعقل ، فاستوى جالساً ، فقال له الملك كم لبثت ؟ قال لبثت يوماً أو بعض يوم ، وذلك أنه كان لبث صدر النهار عند الظهيرة ، و بعث فى آخر النهار والشمس لم تغب ، فقال : أو بعض يوم ولم يتم لى يوم . فقال له الملك : بل لبثت مائة عام ؛ فانظر إلى طعامك وشرابك ــ يعنى الطعام الخبز اليابس ، وشرابه العصير الذى كان اعتصره فى القصعة ، فإذا هما على حالهما لم يتغير العصير والخبز يابس ، فذلك قوله : (لم يتسنه) يعنى لم يتغير . وكذلك التين والعنب غض لم يتغير شىء من حالهما ، فكأنه أنكر فى قلبه . فقال له الملك : أنكرت ما قلت لك ؟ انظر إلى حمارك ، فنظر إلى حماره قد بليت عظامه وصارت نخرة ، فنادى الملك عظام الحمار فأجابت وأقبلت من كل ناحية حتى ركبه الملك وعزير ينظر إليه . ثم ألبسها العروق والعصب

ثم كساها اللحم ، ثم أنبت عليها الجلد والشعر ، ثم نفخ فيه الملك فقام الحمار رافعاً رأسه وأذنيه إلى السماء ناهقاً يظن أن القيامة قد قامت . فذلك قوله : (وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس ، وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً) يعنى وانظر إلى عظام حمارك كيف يركب بعضها بعضاً فى أوصالها ، حتى إذا صارت عظاماً مصورة حماراً بلا لحم ، ثم انظر كيف نكسوها لحماً . (فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شىء قدير) من إحياء الموتى وغيره .

قال فركب حماره حتى أتى محلته ، فأنكره الناس وأنكر الناس ، وأنكر منزله . فانطلق على وهم منه حتى أتى منزله ، فإذا هو بعجوز عمياء مقعدة قد أتى عليها مائة وعشرون سنة كانت أمة لهم ، فخرج عنهم عزير وهى بنت عشرين سنة وكانت عرفته وعقلته ، فلما أصابها الكبر أصابتها الزمانة . فقال لها عزير ياهذه ! أهذا منزل عزير ؟ قالت نعم ، هذا منزل عزير ، فبكت وقالت : مارأيت أحداً من كذا وكذا سنة يذكر عزيراً وقد نسيه الناس ، قال : فإنى أنا عزير ، كان الله أماتنى مائة سنة ثم بعثنى . قالت : سبحان الله ! فإن عزيراً قد فقدناه منذ مائة سنة فلم نسمع له بذكر ، قال فإنى أنا عزير . قالت فإن عزيراً رجل مستجاب الدعوة ؛ يدعو للمريض ولصاحب البلاء بالعافية والشفاء ، فادع الله أن يرد على بصرى حتى أراك ، فإن كنت عزيراً عرفتك . قال فدعا ربه ومسح بيده على عينيها فصحتا ، وأخذ بيدها وقال قومى بإذن الله ، فأطلق الله رجليها فقامت صحيحة كأنما نشطت من عقال : فنظرت فقالت أشهد أنك عزير . وانطلقت إلى محلة بنى إسرائيل وهم فى أنديتهم ومجالسهم ، وابن لعزير شيخ ابن مائة سنة وثمانى عشر سنة ، وبنى بنيه شيوخ فى المجالس . فنادتهم فقالت : هذا عزير قد جاءكم ، فكذبوها فقالت ؛ أنا فلانة مولاتكم ؛ دعا لى ربه فرد على بصرى وأطلق رجلى ، وزعم أن الله أماته مائة سنة ثم بعثه . قال : فنهض الناس فأقبلوا إليه ، فنظروا إليه ، فقال ابنه : كان لأبى شامة سوداء بين كتفيه ، فكشف عن كتفيه فإذا هو عزير .

فقالت بنو إسرائيل : فإنه لم يكن فينا أحد حفظ التوراة فيما حدثنا ــ غير عزير ، وقد حرق بختنصر التوراة ولم يبق منها شىء إلا ما حفظت الرجال ، فاكتبها لنا ، وكان أبوه « سروخا » قد دفن التوراة أيام بخت نصر فى موضع لم يعرفه أحد غير عزير ، فانطلق بهم إلى ذلك الموضع فحفره فاستخرج التوراة ، وكان قد عفن الورق ودرس الكتاب . قال : وجلس فى ظل شجرة وبنو إسرائيل حوله فجدد لهم التوراة ونزل من السماء شهابان حتى دخلا جوفه ، فتذكر التوراة فجددها لبنى إسرائيل . فمن ثم قالت اليهود عزير بن الله ؛ للذى كان من أمر الشهابين ، وتجديده التوراة ، وقيامه بأمر بنى إسرائيل . وكان جدد لهم التوراة بأرض السواد بدير حزقيل ، والقرية التى مات فيها يقال لها « سايراباذ » . قال ابن عباس

فكان كما قال الله تعالى : (ولنجعلك آية للناس) يعنى لبنى إسرائيل . وذلك أنه كان يجلس مع بنيه وهم شيوخ وهو شاب ؛ لأنه مات وهو ابن أربعين سنة فبعثه الله شاباً كهيئة يوم مات . قال ابن عباس : بعث بعد بخت نصر ، وكذلك قال الحسن . وقد أنشد أبو حاتم السجستانى فى معنى ماقاله ابن عباس :

وأسود رأس شاب من قبله ابنه ... ومن قبله ابن ابنه فهو أكبر
يرى لابنه شيخاً يدب على عصاً ... ولحيته سوداء والرأس أشقر
وما لابنه حَيل[1] ولا فضل قوة ... يقوم كما يمشى الصبى فيعثر
يعد ابنه فى الناس تسعين حجة ... وعشرين لا يجرى ولا يتبختر
وعمر أبيه أربعون أمرّها ... لأن ابنه تسعون فى الناس عبر
فما هو فى المعقول إن كنت دارياً ... وإن كنت لاتدرى فبالجهل تعذر

فصـــل

المشهور أن عزيراً نبى من أنبياء بنى إسرائيل ، وأنه كان فيما بين داود وسليمان ، وبين زكريا ويحيى ، وأنه لما لم يبق فى بنى إسرائيل من يحفظ التوراة ـ ألهمه الله حفظها فسردها على بنى إسرائيل ، كما قال وهب بن منبه : أمر الله ملكا فنزل بمغرفية من نور فقذفها فى عزير ، فنسخ التوراة حرفاً بحرف حتى فرغ منها . وروى ابن عساكر عن ابن عباس أنه سأل عبدالله بن سلام عن قول الله تعالى : (وقالت اليهود عزير بن الله) لم قالوا ذلك ؟ فذكر له ابن سلام ما كان من كتبه لبنى إسرائيل التوراة من حفظه ، وقول بنى إسرائيل : لم يستطع موسى أن يأتينا بالتوراة إلا فى كتاب ، وإن عزيراً قد جاءنا بها من غير كتاب ، فرماه طوائف منهم وقالوا عزير ابن الله . ولهذا يقول كثير من العلماء : إن تواتر التوراة انقطع من زمن العزير . وهذا متجه جداً إذا كان العزير غير نبى ؛ كما قاله عطاء بن أبى رباح والحسن البصرى ، وفيما رواه إسحاق بن بشر عن مقاتل بن سليمان عن عطاء وعن عثمان بن عطاء الخراسانى عن أبيه ، ومقاتل عن عطاء بن أبى رباح قال : كان فى الفترة تسعة أشياء : بخت نصر ، وجنة صنعاء ، وجنة سبأ ، وأصحاب الأخدود ، وأمر حاصورا[2] ، وأصحاب الكهف ، وأصحاب الفيل ، ومدينة أنطاكية ، وأمر تبع . وقال إسحاق بن بشر : أنبأنا سعيد عن قتادة عن الحسن قال : كان أمر عزير وبخت نصر فى الفترة . وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « إن أولى الناس بابن مريم لأنا ؛ إنه ليس بينى وبينه نبىّ » . وقال وهب بن منبه : كان فيما بين سليمان وعيسى عليهما السلام ، وقد روى ابن عساكر عن أنس بن مالك وعطاء بن السائب : أن عزيراً كان فى زمن موسى بن عمران ، وأنه

(١) الحيل والحول : الحذق وجودة النظر والقدرة على التصرف . (٢) فى نسخة : وأمر جاصور .

استأذن عليه فلم يأذن له ــ يعنى لما كان من سؤاله عن القدر ، وأنه انصرف وهو يقول مائة موتة أهون من ذل ساعة . وفى معنى قول عزير مائة موتة أهون من ذل ساعة قول بعض الشعراء :

قد يصبر الحر على السيف ويأنف الصبر على الحيف
ويؤثر المــوت على حالة يعجز فيها عن قرى الضيف

فأما ماروى ابن عساكر وغيره عن ابن عباس ونوف البِكالى وسفيان الثورى وغيرهم من أنه سأل عن القدر فمحى اسمه من ذكر الأنبياء ــ فهو منكر ، وفى صحته نظر . وكأنه مأخوذ عن الإسرائيليات .

وقد روى عبد الرزاق وقتيبة بن سعيد عن جعفر بن سليمان عن أبى عمران الجونى عن نوف البكالى قال : قال عزير فيما يناجى به ربه : « يارب تخلق خلقاً فتضل من تشاء وتهدى من تشاء » . فقيل له : أعرض عن هذا ، فعاد ، فقيل له : لتعرض عن هذا أو لأمحونّ اسمك من الأنبياء ؛ إنى لا أسأل عما أفعل وهم يسألون . وهذا لايقتضى وقوع ماتوعد عليه لو عاد ، فما محى اسمه ، والله أعلم .

وقد روى الجماعة ــ سوى الترمذى ــ من حديث يونس بن يزيد عن الزهرى عن سعيد وأبى سلمة عن أبى هريرة ، وكذلك رواه شعيب عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « نزل نبى من الأنبياء تحت شجرة فلدغته نملة فأمر بجهازه[١] فأخرج من تحتها ، ثم أمر بها فأحرقت بالنار ، فأوحى الله إليه : مهلا نملة واحدة » فروى إسحاق بن بشر عن ابن جريج عن عبد الوهاب بن مجاهد عن أبيه ــ أنه عزير . وكذا روى عن ابن عباس والحسن البصرى أنه عزير ، فالله أعلم .

قصة زكريا ويحي عليهما السلام

قال الله تعالى فى كتابه العزيز : (بسم الله الرحمن الرحيم كهيعص * ذكر رحمة ربك عبده زكريا * إذ نادى ربه نداء خفياً * قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيباً ، ولم أكن بدعائك رب شقيا * وإنى خفت الموالى من ورائى ، وكانت امرأتى عاقراً فهب لى من لدنك ولياً * يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا * يازكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا * قال رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقراً وقد بلغت من الكبر عتيا ؟ * قال كذلك قال ربك هو علىّ هين ، وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً * قال رب اجعل لى آية ، قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا * فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا * يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا * وحناناً من لدنا وزكاة وكان تقيا * وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصيا * وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا)[٢] وقال تعالى : (وكفلها زكريا ، كلما دخل عليها

(١) جهاز المسافر والميت والعروس ــ بالكسر والفتح : ما يحتاجون إليه (٢) أول سورة مريم

زكريا المحراب وجد عندها رزقا ، قال يا مريم أنى لك هذا ؟ قالت هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ۞ هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء ۞ فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب ، أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين ۞ قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر ؟ قال كذلك الله يفعل ما يشاء ۞ قال رب اجعل لى آية ، قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً ، واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشى والإبكار)[1] وقال تعالى فى سورة الأنبياء : (وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرنى فرداً وأنت خير الوارثين ۞ فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه ، إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين)[2] وقال تعالى : (وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين)[3] قال الحافظ أبو القاسم بن عساكر فى كتابه التاريخ المشهور الحافل : زكريا بن برخيا ، ويقال زكريا بن دان ، ويقال زكريا بن لدن بن مسلم بن صدوق بن حشبان بن دواد بن سليمان ابن مسلم بن صديقة بن برخيا بن بلعاطة بن ناحور بن شلوم بن بهفاشاط بن اينامن بن رحبعام بن سليمان ابن داود ـ أبو يحيى النبى عليه السلام من بنى إسرائيل . دخل البثينة من أعمال دمشق فى طلب ابنه يحيى ، وقيل إنه كان بدمشق حين قتل ابنه يحيى ، والله أعلم . وقد قيل غير ذلك فى نسبه ، ويقال فيه ـ زكريا بالمد وبالقصر ، ويقال زكرى أيضاً .

والمقصود أن الله تعالى أمر رسوله ﷺ أن يقص على الناس خبر زكريا عليه السلام ، وما كان من أمره حين وهبه الله ولداً على الكبر ، وكانت امرأته عاقراً فى حال شبيبتها ، وقد أسنت أيضاً حتى لا ييأس أحد من فضل الله ورحمته ، ولا يقنط من فضله تعالى وتقدس ، فقال تعالى : (ذكر رحمت ربك عبده زكريا إذ نادى ربه نداء خفياً) . قال قتادة عند تفسيرها : إن الله يعلم القلب النقى ، ويسمع الصوت الخفى . وقال بعض السلف : قام من الليل فنادى ربه مناداة أسرها عمن كان حاضراً عنده مخافته ؛ فقال : يارب ! يارب ! يارب ! فقال الله : لبيك لبيك (قال رب إنى وهن العظم منى) أى ضعف وخار من الكبر (واشتعل الرأس شيباً) استعارة ؛ من اشتعال النار فى الحطب ـ أى غلب على سواد الشعور شيبه ، كما قال ابن دريد فى مقصورته[4] .

أما ترى رأسى حاكى لونه … طرّة صبح تحت أذيال الدجا

---

(١) الآيات : ٣٧ ـ ٤١ من سورة آل عمران (٢) الآيتان ٨٩ ، ٩٠ (٣) الآية : ٨٥ من سورة الأنعام .

(٤) هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد اللغوى البصرى المتوفى سنة ٣٢١ هـ . وقد كان إمام عصره فى اللغة والأدب والشعر ، وقيل إنه أورد أشياء فى اللغة لم ترد فى كتب المتقدمين ، ومنصورته هذه يمدح بها الشاه بن ميكال وولديه وقد أحاط فيها بأكثر المقصور ، وشرحها كثير من المتؤدبين . ومن تلاميذه أبو على القالى صاحب الأمالى .

واشتعل المبيض في مسوده مثل اشتعال النار في جمر الغضا
وآض[1] عود اللهو يبساً ذاوياً من بعد ما قد كان مَجّاج[2] الثرى

يذكر أن الضعف قد استحوذ عليه باطناً وظاهراً . وهكذا قال زكريا عليه السلام : (إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيباً) . وقوله : (ولم أكن بدعائك رب شقياً) أى ماعودتنى فيما أسألك إلا الإجابة . وكان الباعث له على هذه المسئلة أنه لما كفل مريم بنت عمران بن ماثان ، وكان كلما دخل عليها محرابها وجد عندها فاكهة فى غير أوانها[3] ولا فى آنيتها ، وهذه من كرامات الأولياء ، فعلم أن الرازق للشىء فى غير أوانه ـ قادر على أن يرزقه ولداً وإن كان قد طعن فى سنه . (هنالك دعا زكريا ربه ، قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء) . وقوله : (وإنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقراً) قيل : المراد بالموالى العصبة ، وكأنه خاف من تصرفهم بعده فى بنى إسرائيل ؛ بمالا يوافق شرع الله وطاعته . فسأل وجود ولد من صلبه يكون براً تقياً مرضياً ، ولهذا قال : (فهب لى من لدنك) أى من عندك بحولك وقوتك : (ولياً يرثنى) أى فى النبوة والحكم فى بنى إسرائيل ، (ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً) يعنى كما كان آباؤه وأسلافه من ذرية يعقوب أنبياء ، فاجعله مثلهم فى الكرامة التى أكرمتهم بها من النبوة والوحى . وليس المراد هٰهنا وراثة المال كما زعم ذلك من زعمه من الشيعة ، ووافقهم ابن جرير هٰهنا ، وحكاه عن أبى صالح من السلف لوجوه : أحدها : ماقدمنا عند قوله تعالى : (وورث سليمان داود) أى فى النبوة والملك كما ذكرنا فى الحديث المتفق عليه بين العلماء ، المروى فى الصحاح والمسانيد والسنن وغيرها من طرق عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال : «لانورث ماتركنا فهو صدقة» فهذا نص على أن رسول الله ﷺ لايورث ، ولهذا منع الصديق أن يصرف ما كان يختص به فى حياته إلى أحد من وراثه . الذين لولا هذا النص لصرف إليهم . وهم : ابنته فاطمة ، وأزواجه التسع ، وعمه العباس رضى الله عنهم . واحتج عليهم الصديق فى منعه إياهم بهذا الحديث ، وقد وافقه على روايته عن رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب وعثمان ابن عفان وعلى بن أبى طالب والعباس بن عبد المطلب وعبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير وأبو هريرة وآخرون رضى الله عنهم . الثانى : أن الترمذى رواه بلفظ يعم سائر الأنبياء «نحن معاشر الأنبياء لانورث» وصححه . الثالث : أن الدنيا كانت أحقر عند الأنبياء من أن يكنزوا لها أو يلتفتوا إليها أو يهمهم أمرها . حتى يسألوا الأولاد ليحوزوها بعدهم ؛ فإن من لا يصل إلى قريب من منازلهم فى الزهادة ـ لا يهتم بهذا المقدار أن يسأل ولداً يكون وارثاً له فيها . الرابع : أن زكريا عليه السلام كان نجاراً يعمل بيده ويأكل

---

(١) آض : صار (٢) مج الشراب من فيه : رماه (٣) الأون بالفتح وقد يكسر : الحين ، والآنية جمع إناء .

من كسبها ؛ كما كان داود عليه السلام يأكل من كسب يده ، والغالب — ولاسيما من مثل حال الأنبياء — أنه لا يجهد نفسه فى العمل إجهاداً يستفضل منه مالاً يكون ذخيرة له يخلفه من بعده . وهذا أمر بين واضح لكل من تأمله وتدبره ، وتفهم إن شاء الله .

قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد — يعنى ابن هرون — أنبأنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أبى رافع عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « كان زكريا نجاراً » وهكذا رواه مسلم وابن ماجة من غير وجه عن حماد بن سلمة به . وقوله : (يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا[1]) هذا مفسر بقوله : (فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب ، أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين[2]) فلما بشر بالولد وتحقق البشارة — شرع يستعلم على وجه التعجب وجود الولد والحالة هذه له (قال رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً ؟) أى كيف يوجد ولد من شيخ كبير ؟ قيل كان عمره إذ ذاك سبعاً وسبعين سنة ، والأشبه — والله أعلم — أنه كان أسن من ذلك (وكانت امرأتى عاقراً) يعنى وقد كانت امرأتى — فى حال شبيبتها — عاقراً لا تلد والله أعلم ؛ كما قال الخليل : (أبشرتمونى على أن مسنى الكبر فبم تبشرون[3]) وقالت سارة : (يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخاً ؟ إن هذا لشىء عجيب * قالوا أتعجبين من أمر الله ؟ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد[4]) ، وهكذا أجيب زكريا عليه السلام ؛ قال له الملك الذى يوحى إليه بأمر ربه : (كذلك قال ربك هو علىّ هين) أى هذا سهل يسير عليه (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً) أى قدرته أوجدتك بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً ؛ أفلا يوجد منك ولداً وإن كنت شيخاً ؟ وقال تعالى : (فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه : إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين[5]) ومعنى إصلاح زوجه : أنها كانت لا تحيض فحاضت . وقيل كان فى لسانها شىء — أى بذاءة (قال رب اجعل لى آية) أى علامة على وقت تعلق منى المرأة بهذا الولد المبشر به (قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سويا) يقول علامة ذلك — أن يعتريك سكت لا تنطلق معه ثلاثة أيام إلا رمزاً ، وأنت فى ذلك سوى الخلق صحيح المزاج معتدل البنية . وأمره بكثرة الذكر فى هذه الحال ؛ بالقلب واستحضار ذلك بفؤاده بالعشى والإبكار . فلما بشر بهذه البشارة خرج مسروراً بها على قومه من محرابه (فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا) ، والوحى ههنا : هو الأمر الخفى ؛ إما بكتابة كما قاله مجاهد والسدى ، أو بإشارة كما قاله مجاهد أيضاً ووهب وقتادة . قال مجاهد

---

(١) الآية : ٧ من سورة مريم (٢) الآية : ٣٩ من سورة آل عمران (٣) الآية . ٥٤ من سورة الحجر .
(٤) الآيتان : ٧٢ ، ٧٣ من سورة هود (٥) الآية : ٩٠ من سورة الأنبياء .

وعكرمة ووهب والسدى وقتادة : اعتقل لسانه من غير مرض ، وقال ابن زيد : كان يقرأ ويسبح ولكن لايستطيع كلام أحد .

وقوله : (يايحيي خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا) : يخبر تعالى عن وجود الولد وفق البشارة الإلهية لأبيه زكريا عليه السلام ، وأن الله علمه الكتاب والحكمة وهو صغير فى حال صباه . قال عبد الله بن المبارك قال معمر : قال الصبيان ليحيي بن زكريا : اذهب بنا نلعب ، فقال : مااللعب خلقنا . قال وذلك قوله : (وآتيناه الحكم صبيا) وأما قوله : (وحنانا من لدنا) فروى ابن جرير عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال : لا أدرى ما الحنان ؟ وعن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك : (وحنانا من لدنا) : أى رحمة من عندنا رحمنا بها زكريا فوهبنا له هذا الولد . وعن عكرمة (وحنانا) : أى محبة عليه . ويحتمل أن يكون ذلك صفة لتحنن يحيي على الناس ، ولا سيما على أبويه ؛ وهو محبتهما والشفقة عليهما وبره بهما . وأما الزكاة : فهى طهارة الخلق وسلامته من النقائص والرذائل . والتقوى : طاعة الله بامتثال أوامره وترك زواجره . ثم ذكر بره بوالديه وطاعته لهما أمراً ونهياً ، وترك عقوقهما قولا وفعلا فقال : (وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصيا) ، ثم قال : (وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا) هذه الأوقات الثلاثه أشد ما تكون على الإنسان ؛ فإنه ينتقل فى كل منها من عالم إلى عالم آخر ، فيفقد الأول بعد ماكان ألفه وعرفه ، ويصير إلى الآخر ولايدرى مابين يديه . ولهذا يستهل صارخاً إذا خرج من بين الأحشاء وفارق لينها وضمها ، وينتقل إلى هذه الدار ليكابد همومها وغمها . وكذلك إذا فارق هذه الدار ، وانتقل إلى عالم البرزخ بينها و بين دار القرار ، وصار بعد الدور والقصور إلى عرصة الأموات سكان القبور . وانتظر هناك النفخة فى الصور ليوم البعث والنشور ؛ فمن مسرور ومحبور ، ومن محزون ومثبور ، وما بين جبير وكسير ، وفريق فى الجنة وفريق فى السعير . ولقد أحسن بعض الشعراء حيث يقول :

ولدتك أمك باكياً مستصرخاً   والناس حولك يضحكون سرورا
فاحرص لنفسك أن تكون إذا بكوا   فى يوم موتك ضاحكا مسرورا

ولما كانت هذه المواطن الثلاثة أشق ما تكون على ابن آدم ، سلم الله على يحيي فى كل موطن منها فقال : (وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا) ، وقال سعيد ابن أبى عروبة عن قتادة أن الحسن قال : إن يحيي وعيسى التقيا ، فقال له عيسى : استغفر لى أنت خير منى ، فقال له الآخر : استغفر لى أنت خير منى ، فقال له عيسى : أنت خير منى ؛ سلمت على نفسى وسلم الله عليك ، فعرف والله فضلهما . وأما قوله فى الآية الأخرى : (وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين) فقيل المراد بالحصور : الذى لايأتى النساء

وقيل غير ذلك ، وهو أشبه لقوله : (هب لى من لدنك ذرية طيبة) وقد قال الإمام أحمد : حدثنا عفان حدثنا حماد ، أنبأنا على بن زيد ، عن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « ما من أحد من ولد آدم إلا وقد أخطأ أو همّ بخطيئة ليس يحيي بن زكريا ، وما ينبغى لأحد يقول أنا خير من يونس بن متى » . على بن زيد بن جدعان ـ تكلم فيه غير واحد من الأئمة ، وهو منكر الحديث . وقد رواه ابن خزيمة والدارقطنى من طريق أبى عاصم العبادانى عن على بن زيد بن جدعان به مطولا ، ثم قال ابن خزيمة : وليس على شرطنا .

وقال ابن وهب : حدثنى ابن لهيعة عن عقيل عن ابن شهاب قال : خرج رسول الله ﷺ على أصحابه يوماً وهم يتذاكرون فضل الأنبياء ، فقال قائل : موسى كليم الله ، وقال قائل : عيسى روح الله وكلمته ، وقال قائل : إبراهيم خليل الله . فقال : « أين الشهيد ابن الشهيد ، يلبس الوبر ويأكل الشجر مخافة الذنب ؟ » . قال ابن وهب : يريد يحيي بن زكريا . وقد روى محمد بن إسحاق ـ وهو مدلس ـ عن يحيي بن سعيد الأنصارى عن سعيد بن المسيب : حدثنى ابن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « كل ابن آدم يأتى يوم القيامة وله ذنب ، إلا ما كان من يحيي بن زكريا » ، فهذا من رواية ابن إسحاق وهو من المدلسين وقد عنعن هٰهنا . ثم قال عبدالرزاق عن معمر عن قتادة عن سعيد بن المسيب مرسلا ، ثم رأيت ابن عساكر ساقه من طريق أبى أسامة عن يحيي بن سعيد الأنصارى ، ثم رواه ابن عساكر من طريق إبراهيم بن يعقوب الجوزجانى خطيب دمشق : حدثنا محمد بن الأصبهانى ، حدثنا أبو خالد الأحمر عن يحيي بن سعيد عن سعيد بن المسيب عن عبدالله بن عمرو قال : « ما أحد إلا يلقى الله بذنب ، إلا يحيي بن زكريا ، ثم تلا : (وسيداً وحصوراً) ثم رفع شيئاً من الأرض فقال : ما كان معه إلا مثل هذا ، ثم ذبح ذبحا » وهذا موقوف من هذه الطريق ، وكونه موقوفاً أصح من رفعه ، والله أعلم .

وأورده ابن عساكر من طرق عن معمر ؛ من ذلك ما أورده من حديث إسحاق بن بشر ـ وهو ضعيف ـ عن عثمان بن سباح عن ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن معاذ عن النبى ﷺ بنحوه . وروى من طريق أبى داود الطيالسى وغيره عن الحكم بن عبد الرحمن بن أبى نعيم عن أبيه عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة ، إلا ابنى الخالة يحيي وعيسى عليهما السلام » .

وقال أبو نعيم الحافظ الأصبهانى : حدثنا إسحاق بن أحمد ، حدثنا إبراهيم بن يوسف ، حدثنا أحمد بن أبى الحوارى سمعت أبا سليمان يقول : خرج عيسى بن مريم ويحيي بن زكريا يتماشيان ، فصدم يحيي امرأة ، فقال له عيسى : يا ابن خالة لقد أصبت اليوم خطيئة ما أظن أنه يغفر لك أبدا ، قال : وما هى يا ابن خالة ؟ قال امرأة صدمتها ، قال : والله ماشعرت بها ، قال : سبحان الله ! بدنك معى

فأين روحك ؟ قال معلق بالعرش . ولو أن قلبى اطمأن إلى جبريل لظننت أنى ماعرفت الله طرفة عين .
فيه غرابة وهو من الإسرائيليات .

وقال إسرائيل عن أبى حصين عن خيثمة قال : كان عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا ابنى خالة ، وكان عيسى يلبس الصوف ، وكان يحيى يلبس الوبر . ولم يكن لواحد منهما دينار ولا درهم ، ولا عبد ولا أمة ، ولامأوى يأويان إليه ، أين ماجنهما الليل أويا . فلما أرادا أن يتفرقا قال له يحيى أوصنى ، قال : لا تغضب . قال لا أستطيع إلا أن أغضب ، قال لا تقتن مالا ، قال : أما هذه فعسى .

وقد اختلفت الرواية عن وهب بن منبه : هل مات زكريا عليه السلام موتاً ؟ أو قتل قتلا ؟ على روايتين ؛ فروى عبدالمنعم بن إدريس بن سنان عن أبيه عن وهب بن منبه أنه قال هرب من قومه فدخل شجرة فجاءوا فوضعوا المنشار عليها ، فلما وصل المنشار إلى أضلاعه أنّ ، فأوحى الله إليه : لئن لم يسكن أنينك لأقلبن الأرض ومن عليها ، فسكن أنينه حتى قطع باثنتين . وقد روى هذا فى حديث مرفوع سنورده بعد إن شاء الله . وروى إسحاق بن بشر عن إدريس بن سنان عن وهب أنه قال : الذى انصدعت له الشجرة هو شعيا ، فأما زكريا فمات موتاً ، فالله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان أنبأنا أبو خلف موسى بن خلف ـ وكان يعد من البدلاء ـ حدثنا يحيى بن أبى كثير ، عن زيد بن سلام عن جده ممطور عن الحارث الأشعرى أن النبى ﷺ قال : « إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات ؛ أن يعمل بهن ، وأن يأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن ، وكاد أن يبطىء ، فقال له عيسى عليه السلام : إنك قد أمرت بخمس كلمات ؛ أن تعمل بهن ، وتأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن ، فإما أن تبلغهن و إما أن أبلغهن . فقال يا أخى : إنى أخشى إن سبقتنى أن أعذب أو يخسف بى ، قال : فجمع يحيى بنى إسرائيل فى بيت المقدس حتى امتلأ المسجد ، فقعد على الشرف فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن الله عز وجل أمرنى بخمس كلمات ؛ أن أعمل بهن ، وآمركم أن تعملوا بهن .

وأولهن : أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئا ؛ فإن مثل ذلك مثل من اشترى عبداً من خالص ماله بورق أو ذهب ، فجعل يعمل ويؤدى غلته إلى غير سيده ، فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك ؟ وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً . وآمركم بالصلاة ؛ فإن الله ينصب وجهه قبل عبده مالم يلتفت ، فإذا صليتم فلا تلتفتوا . وآمركم بالصيام ؛ فإن مثل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك فى عصابة ، كلهم يجد ريح المسك ، وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك . وآمركم بالصدقة ؛ فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فشدوا يده إلى عنقه ، وقدموه ليضربوا عنقه ، فقال : هل لكم أن أفتدى نفسى منكم ؟ فجعل يفتدى نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه . وآمركم

بذكر الله عز وجل كثيرا ؛ فإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعاً فى إثره ، فأتى حصناً حصيناً فتحصن فيه ، وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان ـ إذا كان فى ذكر الله عز وجل .

قال : وقل ﷺ : « وأنا آمركم بخمس الله أمرنى بهن : بالجماعة والسمع والطاعة والهجرة والجهاد فى سبيل الله ؛ فإن من خرج عن الجماعة قيد شبر فقد خلع رِبَق[1] الإسلام من عنقه إلا أن يرجع ، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من حثا[2] جهنم » قال يارسول الله و إن صام وصلى ، قال : « وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم ، ادعوا المسلمين بأسمائهم بما سماهم الله عز وجل المسلمين المؤمنين عباد الله عز وجل » .

وهكذا رواه أبو يعلى عن هدبة بن خالد عن أبان بن يزيد عن يحيى بن أبى كثير به . وكذلك رواه الترمذى من حديث أبى داود الطيالسى وموسى بن إسماعيل ، كلاهما عن أبان بن يزيد العطار به . ورواه ابن ماجة عن هشام بن عمار عن محمد بن شعيب بن سابور عن معاوية بن سلام عن أخيه زيد بن سلام عن أبى سلام عن الحارث الأشعرى به . ورواه الحاكم من طريق مروان بن محمد الطاطرى عن معاوية ابن سلام عن أخيه به . ثم قال : تفرد به مروان الطاطرى عن معاوية بن سلام . قلت : وليس كما قال ، ورواه عن محمد بن عبدة عن أبى توبة الربيع بن يافع عن معاوية بن سلام عن أبى سلام عن الحارث الأشعرى ، فذكر نحوه ، فسقط ذكر زيد بن سلام عن أبى سلام عن الحارث الأشعرى ، فذكر نحو هذه الرواية . ثم روى الحافظ بن عساكر من طريق عبد الله بن أبى جعفر الرازى عن أبيه عن الربيع ابن أنس قال : ذكر لنا عن أصحاب رسول الله ﷺ فيما سمعوا من علماء بنى إسرائيل : أن يحيى بن زكريا أرسل بخمس كلمات ، وذكر نحو ماتقدم . وقد ذكروا أن يحيى عليه السلام كان كثير الانفراد من الناس ، إنما كان يأنس إلى البرارى ، ويأكل من ورق الأشجار ، ويرد ماء الأنهار ويتغذى بالجراد فى بعض الأحيان ويقول : من أنعم منك يايحيى ؟ وروى ابن عساكر أن أبويه خرجا فى تطلابه فوجداه عند بحيرة الأردن ، فلما اجتمعا به أبكاهما بكاء شديداً لما هو فيه من العبادة والخوف من الله عز وجل . وقال ابن وهب عن مالك عن حميد بن قيس عن مجاهد قال : كان طعام يحيى بن زكريا العشب ، وإنه كان ليبكى من خشية الله ، حتى لو كان القار على عينيه لخرقه .

وقال محمد بن يحيى الذهلى : حدثنا أبو صالح ، حدثنا الليث ، حدثنى عقيل عن ابن شهاب قال : جلست يوماً إلى أبى إدريس الخولانى وهو يقص فقال : ألا أخبركم بمن كان أطيب الناس طعاماً ؟ فلما رأى الناس قد نظروا إليه قال : إن يحيى بن زكريا كان أطيب الناس طعاماً ، إنما كان يأكل مع

---

(١) الربق بالكسر : حبل فيه عدة عرا تشد به البهم ، كل عروة ربقة بالفتح والكسر ، والجمع ربق كعنب .

(٢) الحثا: التراب المحشو.

الوحش كراهة أن يخالط الناس فى معايشهم . وقال ابن المبارك عن وهيب بن الورد قال : فقد زكريا ابنه يحيى ثلاثة أيام ، فخرج يلتمسه فى البرية ، فإذا هو قد احتفر قبراً وأقام فيه يبكى على نفسه ، فقال يابنى ! أنا أطلبك من ثلاثة أيام وأنت فى قبر قد احتفرته قائم تبكى فيه ؟ فقال ياأبت ألست أنت أخبرتنى أن بين الجنة والنار مفازة لاتقطع إلا بدموع البكائين ؟ فقال له ابك يابنى ، فبكيا جميعاً . وهكذا حكاه وهب بن منبه ومجاهد بنحوه ، وروى ابن عساكر عنه أنه قال : إن أهل الجنة لاينامون للذة ماهم فيه من النعيم ، فكذا ينبغى للصديقين ألا يناموا ؛ لما فى قلوبهم من نعيم المحبة لله عز وجل . ثم قال : كم بين النعيمين ؟ وكم بينهما ؟ وذكروا أنه كان كثير البكاء حتى أثر البكاء فى خديه من كثرة دموعه .

بيان سبب قتل يحيى عليه السلام

وذكروا فى قتله أسباباً من أشهرها : أن بعض ملوك ذلك الزمان بدمشق ، كان يريد أن يتزوج ببعض محارمه أو من لايحل له تزوجها ، فنهاه يحيى عليه السلام عن ذلك ، فبقى فى نفسها منه . فلما كان بينها و بين الملك مايحب منها ، استوهبت منه دم يحيى فوهبه لها ، فبعثت إليه من قتله وجاء برأسه ودمه فى طشت إلى عندها ، فيقال إنها هلكت من فورها وساعتها . وقيل بل أحبته امرأة ذلك الملك وراسلته فأبى عليها ، فلما يئست منه تحيلت فى أن استوهبته من الملك ، فتمنع عليها الملك ، ثم أجابها إلى ذلك ، فبعثت من قتله وأحضر إليها رأسه ودمه فى طشت . وقد ورد معناه فى حديث رواه إسحاق ابن بشر فى كتابه [المبتدا] حيث قال : أنبأنا يعقوب الكوفى عن عمرو بن ميمون عن أبيه عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ ليلة أسرى به رأى زكريا فى السماء فسلم عليه ، وقال له : « ياأبا يحيى خبرنى عن قتلك كيف كان ؟ ولم قتلك بنو إسرائيل ؟ » . قال : يامحمد أخبرك أن يحيى كان خير أهل زمانه ، وكان أجملهم وأصبحهم وجهاً ، وكان كما قال الله تعالى : (وسيداً وحصوراً) ، وكان لايحتاج إلى النساء ، فهوته امرأة ملك بنى إسرائيل ، وكانت بغية ، فأرسلت إليه وعصمه الله ، وامتنع يحيى وأبى عليها ، فأجمعت على قتل يحيى . وكان لهم عيد يجتمعون فيه فى كل عام ، وكانت سنة الملك أن يوعد ولايخلف ولايكذب . قال فخرج الملك إلى العيد ، فقامت امرأته فشيعته وكان بها معجباً ، ولم تكن تفعله فيما مضى ، فلما أن شيعته قال الملك : سلينى فما سألتنى شيئاً إلا أعطيتك ، قالت : أريد دم يحيى ابن زكريا ، قال لها : سلينى غيره ، قالت هو ذاك ، قال : هو لك . قال فبعثت جَلاوِزتها[١] إلى يحيى وهو فى محرابه يصلى ، وأنا إلى جانبه أصلى ، قال : فذبح فى طشت وحمل رأسه ودمه إليها . قال : فقال رسول الله ﷺ : «فما بلغ من صبرك ؟» قال : ماانفتلت[٢] من صلاتى . قال : فلما حمل رأسه إليها وضع

---

(١) جمع جلواز بالكسر ، وهو الشرطى وتابعه (٢) أى ما انصرفت ولا خرجت .

بين يديها ، فلما أمسوا خسف الله بالملك وأهل بيته وحشمه ، فلما أصبحوا قالت بنو إسرائيل : قد غضب إله زكريا لزكريا ، فتعالوا حتى نغضب لملكنا فنقتل زكريا ، قال فخرجوا فى طلبى ليقتلونى ، وجاءنى النذير فهربت منهم ، وإبليس أمامهم يدلهم علىّ ، فلما تخوفت أن لاأعجزهم — عرضت لى شجرة ، فنادتنى وقالت : إلىّ إلىّ ، وانصدعت لى ، فدخلت فيها . قال : وجاء إبليس حتى أخذ بطرف ردائى والتأمت الشجرة وبقى طرف ردائى خارجاً من الشجرة ، وجاءت بنو إسرائيل فقال إبليس : أما رأيتموه دخل هذه الشجرة ؟ هذا طرف ردائه دخلها بسحره ، فقالوا نحرق هذه الشجرة ، فقال إبليس شقوه بالمنشار شقاً ، قال فشققت مع الشجرة بالمنشار . قال له النبى ﷺ : «هل وجدت له مساً أو وجعاً ؟ قال : لا . إنما وَجَدَت ذلك الشجرة التى جعل الله روحى فيها » . هذا سياق غريب جداً وحديث عجيب ، ورفعه منكر ، وفيه ما ينكر على كل حال ، ولم ير فى شىء من أحاديث الإسراء ذكر زكريا عليه السلام — إلا فى هذا الحديث . وإنما المحفوظ فى بعض ألفاظ الصحيح : فى حديث الإسراء «فمررت بابنى الخالة يحيى وعيسى » ، وهما ابنا الخالة على قول الجمهور كما هو ظاهر الحديث ؛ فإن أم يحيى « أشياع » بنت عمران أخت مريم بنت عمران . وقيل : بل أشياع — وهى امرأة زكريا أم يحيى — هى أخت حنة امرأة عمران أم مريم ، فيكون يحيى ابن خالة مريم ، فالله أعلم .

ثم اختلف فى مقتل يحيى بن زكريا : هل كان فى المسجد الأقصى أم بغيره ؟ على قولين : فقال الثورى عن الأعمش عن شمر بن عطية قال : قتل على الصخرة التى ببيت المقدس سبعون نبياً ، منهم يحيى بن زكريا عليه السلام . وقال أبو عبيدة القاسم بن سلام : حدثنا عبد الله بن صالح عن الليث عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب قال : قدم بخت نصر دمشق ، فإذا هو بدم يحيى بن زكريا يغلى ، فسأل عنه فأخبروه ، فقتل على دمه سبعين ألفاً فسكن . وهذا إسناد صحيح إلى سعيد بن المسيب ، وهو يقتضى أنه قتل بدمشق ، وأن قصة بخت نصر كانت بعد المسيح كما قاله عطاء والحسن البصرى ، فالله أعلم .

وروى الحافظ ابن عساكر من طريق الوليد بن مسلم عن زيد بن واقد قال : رأيت رأس يحيى بن زكريا — حين أرادوا بناء مسجد دمشق — أخرج من تحت ركن من أركان القبلة الذى يلى المحراب مما يلى الشرق ، فكانت البشرة والشعر على حاله لم يتغير — وفى رواية — كأنما قتل الساعة وذكر فى بناء مسجد دمشق : أنه جعل تحت العمود المعروف بعمود السكاسكة ، فالله أعلم .

وقد روى الحافظ ابن عساكر فى [المستقصى فى فضائل الأقصى] من طريق العباس بن صبيح عن مروان عن سعيد بن عبد العزيز عن قاسم مولى معاوية قال : كان ملك هذه المدينة — يعنى دمشق — هداد بن هدار ، وكان قد زوجه أبوه بابنة أخيه « أريل » ملكة صيدا ، وقد كان من جملة أملاكها سوق الملوك بدمشق ، وهو الصاغة العتيقة ، قال : وكان قد حلف بطلاقها ثلاثاً . ثم إنه أراد مراجعتها

فاستفتى يحيى بن زكريا ، فقال لا تحل لك حتى تنكح زوجاً غيرك ، فحقدت عليه ، وسألت من الملك رأس يحيى بن زكريا ، وذلك إشارة أمها ، فأبى عليها ثم أجابها إلى ذلك . وبعث إليه — وهو قائم يصلى بمسجد حيرون — من أتاه برأسه فى صينية ، فجعل الرأس يقول له : لاتحل له لاتحل له حتى تنكح زوجاً غيره ، فأخذت المرأة الطبق فحملته على رأسها وأتت به أمها وهو يقول كذلك ، فلما تمثلت بين يدى أمها خسف بها إلى قدميها ثم إلى حقويها ، وجعلت أمها تولول والجوارى يصرخن ويلطمن وجوههن ، ثم خسف بها إلى منكبيها ، فأمرت أمها السياف أن يضرب عنقها لتتسلى برأسها ، ففعل ، فلفظت الأرض جثتها عند ذلك ، ووقعوا فى الذل والفناء . ولم يزل دم يحيى يفور حتى قدم بخت نصر فقتل عليه خمسة وسبعين ألفاً . قال سعيد بن عبد العزيز : وهى دم كل نبى ، ولم يزل يفور حتى وقف عنده «إرميا» عليه السلام ، فقال : أيها الدم أفنيت بنى إسرائيل ، فاسكن بإذن الله — فسكن ، فرفع السيف وهرب من هرب من أهل دمشق إلى بيت المقدس ، فتبعهم إليها ، فقتل خلقاً كثيراً لايحصون كثرة ، وسبا منهم ثم رجع عنهم .

قصة عيسى بن مريم « عليه السلام »

قال الله تعالى فى سورة آل عمران التى أنزل صدرها — وهو ثلاث وثمانون آية منها — فى الرد على النصارى ، عليهم لعائن الله ، الذين زعموا أن لله ولدا ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً . وكان قد قدم وفد نجران منهم على رسول الله ﷺ فجعلوا يذكرون ماهم عليه من الباطل ، من التثليث فى الأقانيم[1] ويدعون بزعمهم — أن الله ثالث ثلاثة ، وهم : الذات المقدسة ، وعيسى ، ومريم ، على اختلاف فرقهم . فأنزل الله عز وجل صدر هذه السورة ؛ بين فيها أن عيسى عبد من عباد الله ، خلقه وصوره فى الرحم كما صور غيره من المخلوقات ، وأنه خلقه من غير أب كما خلق آدم من غير أب ولا أم ، وقال له : « كُن » فكان سبحانه وتعالى . وبين أصل ميلاد أمه مريم ، وكيف كان من أمرها ؟ وكيف حملت بولدها عيسى؟ وكذلك بسط ذلك فى سورة مريم كما سنتكلم على ذلك كله بعون الله وحسن توفيقه وهدايته . فقال تعالى وهو أصدق القائلين : (إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ۞ ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم ۞ إذ قالت امرأة عمران رب إنى نذرت لك مافى بطنى محرراً ، فتقبل منى إنك أنت السميع العليم ۞ فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى ، والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى ، وإنى سميتها مريم ، وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ۞ فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً ، وكفلها زكريا ، كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً ، قال يامريم أنى لك هذا ؟ قالت هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب[2]) .

---

(١) أي الأصول — جمع أقنوم بضم الهمزة وهو: الأصل . (٢) الآيات : ٣٢ — ٣٧ .

يذكر تعالى أنه اصطفى آدم عليه السلام ، والخلص من ذريته ، المتبعين شرعه ، الملازمين طاعته . ثم خصص فقال : (وآل إبراهيم) فدخل فيهم بنو إسماعيل وبنو إسحاق . ثم ذكر فضل هذا البيت الطاهر الطيب وهم آل عمران ، والمراد بعمران هذا ـ والد مريم عليها السلام . قال محمد بن إسحاق : هو عمران بن باشم بن أمون بن ميشا بن حزقيا بن إحريق ين موثم بن عزازيا بن أمصيا بن ياوش بن احريهو ابن يازم بن يهفاشاط بن إيشا بن ايان بن رحبعام بن سليمان بن داود . وقال أبو القاسم بن عساكر : مريم بنت عمران بن ماثان بن العازر بن اليودبن اخنر بن صادوق بن عيازوز بن الياقيم بن ايبود بن زريابيل بن شالتال بن يوحينا بن برشا بن أمون بن ميشا بن حزقا بن احاز بن موثام بن عزريا بن يورام ابن يوشافاط بن ايشا بن ايبا بن رحبعام بن سليمان بن داود عليه السلام . وفيه مخالفة كما ذكره محمد بن إسحاق ، ولاخلاف أنها من سلالة داود عليه السلام وكان أبوها عمران صاحب صلاة بني إسرائيل فى زمانه ، وكانت أمها وهى « حنة » بنت فاقود بن قبيل ـ من العابدات ، وكان زكريا نبى ذلك الزمان زوج أخت مريم « أشياع » فى قول الجمهور ، وقيل زوج خالتها « أشياع » ، فالله أعلم .

وقد ذكر محمد بن إسحاق وغيره : أن أم مريم كانت لاتحبل ، فرأت يوماً طائراً يزق[1] فرخاً له فاشتهت الولد ، فنذرت لله إن حملت لتجعلن ولدها محرراً ـ أى حبيساً ـ فى خدمة بيت المقدس ، قالوا فحاضت من فورها ، فلما طهرت واقعها بعلها فحملت بمريم عليها السلام (فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت) وقرئ بضم التاء (وليس الذكر كالأنثى) أى فى خدمة بيت المقدس، وكانوا فى ذلك الزمان ينذرون لبيت المقدس خداماً من أولادهم . وقولها : (وإنى سميتها مريم) ـ استدل به على تسمية المولود يوم يولد . وكما ثبت فى الصحيحين عن أنس فى ذهابه بأخيه إلى رسول الله ﷺ «فحنكه[2] أخاه وسماه عبد الله» . وجاء فى حديث الحسن عن سمرة مرفوعاً : « كل غلام رهينة بعقيقه[3] تذبح عنه يوم سابعه ويسمى ويحلق رأسه » . رواه أحمد وأهل السنن وصححه الترمذى ، وجاء فى بعض ألفاظه ، ويدمى ـ بدل ويسمى ، وصححه بعضهم ، والله أعلم وقولها : (وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) قد استجيب لها فى هذا ، كما تقبل منها نذرها ؛ فقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر عن الزهرى عن ابن المسيب عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « مامن مولود إلا والشيطان يمسه حين يولد ، فيستهل صارخاً من مس الشيطان إياه ـ إلا مريم وابنها » ، ثم يقول أبو هريرة : واقرءوا إن شئتم : (وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) أخرجاه من حديث عبد الرزاق ، ورواه ابن جرير عن أحمد بن الفرج عن بقية عن عبد الله بن الزبيدى عن الزهرى عن أبى سلمة عن أبى هريرة عن النبى ﷺ بنحوه .

---

(١) أى يطعم . (٢) قال فى القاموس : حنك الصبى ـ مضغ تمراً أو غيره فدلكه بحنكه .
(٣) العقيقة : الشاة التى تذبح عن المولود يوم أسبوعه .

وقال أحمد أيضاً : حدثنا إسماعيل بن عمر ، حدثنا ابن أبي ذؤيب عن عجلان مولى المشمعل عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « كل مولود من بني آدم يمسه الشيطان بإصبعه ـ إلا مريم بنت عمران وابنها عيسى » . تفرد به من هذا الوجه ، ورواه مسلم عن أبي الطاهر عن ابن وهب عن عمر بن الحارث عن أبي يونس عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه . وقال أحمد : حدثنا هشيم ، حدثنا حفص بن ميسرة عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « كل إنسان تلده أمه يلكزه[1] الشيطان في حضنه إلا ما كان من مريم وابنها ، ألم تر إلى الصبي حين يسقط كيف يصرخ ؟ » قالوا بلى يارسول الله . قال : « ذلك حين يلكزه الشيطان بحضنه » ، وهذا على شرط مسلم ولم يخرجه من هذا الوجه . ورواه قيس عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «مامن مولود إلا وقد عصره الشيطان عصرة أو عصرتين ـ إلا عيسى بن مريم ومريم » ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : (وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) . وكذا رواه محمد بن إسحاق عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بأصل الحديث . وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الملك ، حدثنا المغيرة ـ هو ابن عبد الله الحزامي ـ عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « كل بني آدم يطعن الشيطان في جنبه حين يولد ـ إلا عيسى بن مريم ، ذهب يطعن فطعن في الحجاب » . وهذا على شرط الصحيحين ولم يخرجوه من هذا الوجه .

وقوله : (فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً وكفلها زكريا) ذكر كثير من المفسرين : أن أمها حين وضعتها لفتها في خروقها ، ثم خرجت بها إلى المسجد فسلمتها إلى العبّاد الذين هم مقيمون به ، وكانت ابنة إمامهم وصاحب صلاتهم فتنازعوا فيها ، والظاهر أنها إنما سلمتها إليهم بعد رضاعها وكفالة مثلها في صغرها . ثم لما دفعتها إليهم تنازعوا في أيهم يكفلها ، وكان زكريا نبيهم في ذلك الزمان ، وقد أراد أن يستبد بها دونهم ؛ من أجل أن زوجته أختها أو خالتها ـ على القولين . فشاحوه[2] في ذلك وطلبوا أن يقترع معهم ، فساعدته المقادير فخرجت قرعته غالبة لهم ؛ وذلك أن الخالة بمنزلة الأم . قال الله تعالى : (وكفّلها زكريا) أي بسبب غلبه لهم في القرعة ، كما قال تعالى : (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ، وما كنت لديهم إذ يختصمون[3]) . قالوا وذلك أن كلا منهم ألقى قلمه معروفاً به ، ثم حملوها ووضعوها في موضع وأمروا غلاماً لم يبلغ الحنث[4] فأخرج واحداً منها وظهر قلم زكريا عليه السلام . فطلبوا أن يقترعوا مرة ثانية وأن يكون ذلك بأن يلقوا أقلامهم في النهر ، فأيهم جرى قلمه على خلاف جريه في الماء فهو الغالب ، ففعلوا ، فكان قلم زكريا هو

---

(١) اللكز والوكز : الضرب بالجمع على الصدر أو في جميع الجسد . (٢) المشاحة : الضنة والحرص ، وتشاح القوم في الأمر : شح بعضهم على بعض حذر فوته (٣) الآية ، ٤٤ من سورة آل عمران (٤) أي الإثم والذنب .

الذى جرى على خلاف جرية الماء، وسارت أقلامهم مع الماء. ثم طلبوا منه أن يقترعوا ثالثة ، فأيهم جرى قلمه مع الماء ويكون بقية الأقلام قد انعكس سيرها صعدا فهو الغالب ، ففعلوا ، فكان زكريا هو الغالب لهم فكفلها ؛ إذ كان أحق بها شرعاً وقدراً لوجوه عديدة .

قال الله تعالى : (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً ، قال يامريم أنى لك هذا ؟ قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) قال المفسرون : اتخذ لها زكريا مكاناً شريفاً من المسجد لا يدخله سواها ؛ فكانت تعبد الله فيه ، وتقوم بما يجب عليها من سدانة البيت إذا جاءت نوبتها ، وتقوم بالعبادة ليلها ونهارها ؛ حتى صارت يضرب بها المثل بعبادتها فى بنى إسرائيل ، واشتهرت بما ظهر عليها من الأحوال الكريمة والصفات الشريفة . حتى إنه كان نبى الله زكريا كلما دخل عليها موضع عبادتها يجد عندها رزقاً غريباً فى غير أوانه ؛ فكان يجد عندها فاكهة الصيف فى الشتاء ، وفاكهة الشتاء فى الصيف فيسألها : (أنى لك هذا ؟) فتقول : (هو من عند الله) أى رزق رزقنيه الله (إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) . فعند ذلك وهنالك ــ طمع زكريا فى وجود ولد من صلبه ، وإن كان قد أسن وكبر (قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء) . قال بعضهم ــ قال : يامن يرزق مريم الثمر فى غير أوانه ، هب لى ولداً وإن كان فى غير أوانه ، فكان من خبره وقضيته ماقدمنا ذكره فى قصته .

(وإذ قالت الملائكة يامريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين * يامريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين * ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ، وما كنت لديهم إذ يختصمون * إذ قالت الملائكة يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيهاً فى الدنيا والآخرة ومن المقربين * ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين * قالت : رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر ؟ قال كذلك الله يخلق مايشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون * ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل * ورسولا إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم ، أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير ، فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ، وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله ، وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم ، إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين * ومصدقاً لما بين يدى من التوراة ، ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم ، وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون * إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم[1]) .

يذكر تعالى أن الملائكة بشرت مريم باصطفاء الله لها من بين سائر نساء عالمى زمانها ؛ بأن اختارها لإيجاد ولد منها من غير أب ، وبشرت بأن يكون نبياً شريفاً (يكلم الناس فى المهد) أى فى صغره ؛ يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له . وكذلك فى حال كهولته ، فدل على أنه يبلغ الكهولة

---

(١) الآيات : ٤٢ ــ ٥١ من سورة آل عمران .

ويدعو إلى الله فيها . وأمرت بكثرة العبادة والقنوت والسجود والركوع ؛ لتكون أهلا لهذه الكرامة ، ولتقوم بشكر هذه النعمة . فيقال إنها كانت تقوم فى الصلاة حتى تفطرت قدماها ، رضى الله عنها ورحمها ورحم أمها وأباها . فقول الملائكة : (يا مريم إن الله اصطفاك) أى اختارك واجتباك (وطهرك) أى من الأخلاق الرذيلة ، وأعطاك الصفات الجميلة (واصطفاك على نساء العالمين) ؛ يحتمل أن يكون المراد عالمى زمانها ؛ كقوله لموسى : (إنى اصطفيتك على الناس) وكقوله عن بنى إسرائيل : (ولقد اخترناهم على علم على العالمين) ومعلوم أن إبراهيم عليه السلام أفضل من موسى ، وأن محمداً ﷺ أفضل منهما . وكذلك هذه الأمة أفضل من سائر الأمم قبلها وأكثر عدداً وأفضل علماً وأزكى عملا من بنى إسرائيل وغيرهم . ويحتمل أن يكون قوله : (واصطفاك على نساء العالمين) محفوظ العموم ، فتكون أفضل نساء الدنيا ممن كان قبلها ووجد بعدها ؛ لأنها إن كانت نبية على قول من يقول بنبوتها ، ونبوة سارة أم إسحاق ، ونبوة أم موسى ، محتجاً بكلام الملائكة والوحى إلى أم موسى كما يزعم ذلك ابن حزم وغيره — فلا يمتنع على هذا أن تكون مريم أفضل من سارة وأم موسى ؛ لعموم قوله : (واصطفاك على نساء العالمين) إذ لم يعارضه غيره ، والله أعلم . وأما قول الجمهور كما قد حكاه أبو الحسن الأشعرى وغيره عن أهل السنة والجماعة ، من أن النبوة مختصة بالرجال ، وليس فى النساء نبية ، فيكون أعلى مقامات مريم كما قال الله تعالى : (ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة) — فعلى هذا لا يمتنع أن تكون أفضل الصديقات المشهورات ؛ ممن كان قبلها وممن يكون بعدها ، والله أعلم .

وقد جاء ذكرها مقروناً مع آسية بنت مزاحم ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد — رضى الله عنهن وأرضاهن . وقد روى الإمام أحمد والبخارى ومسلم والترمذى والنسائى من طرق عديدة عن هشام بن عروة عن أبيه ، عن عبدالله بن جعفر عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « خير نسائها[1] مريم بنت عمران ، وخير نسائها خديجة بنت خويلد » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا معمر عن قتادة عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « حسبك من نساء العالمين أربع : مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد » . ورواه الترمذى عن أبى بكر بن زنجويه عن عبد الرزاق به وصححه ، ورواه ابن مردويه من طريق عبد الله بن أبى جعفر الرازى ، وابن عساكر من طريق تميم بن زياد كلاهما عن أبى جعفر الرازى ، عن ثابت عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « خير نساء العالمين أربع : مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد رسول الله » .

---

(١) أى نساء أهل الدنيا فى زمانها .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر عن الزهرى عن ابن المسيب قال : كان أبو هريرة يحدث أن النبي ﷺ قال : « خير نساء ركبن الإبل صالح نساء قريش ، أحناه[1] على ولد فى صغره ، وأرعاه لزوج فى ذات يده » ، قال أبو هريرة : « ولم تركب مريم بعيراً قط » . وقد رواه مسلم فى صحيحه عن محمد بن رافع وعبد بن حميد ـ كلاهما عن عبد الرزاق به .

وقال أحمد : حدثنا زيد بن الحباب ، حدثنى موسى بن على : سمعت أبى يقول : سمعت أبا هريرة يقول قال رسول الله ﷺ : « خير نساء ركبن الإبل نساء قريش ، أحناه على ولد فى صغره ، وأرأفه بزوج على قلة ذات يده » ، قال أبو هريرة : وقد علم رسول الله ﷺ أن ابنة عمران لم تركب الإبل . تفرد به وهو على شرط الصحيح . ولهذا الحديث طرق أخر عن أبى هريرة .

وقال أبو يعلى الموصلى : حدثنا زهير ، حدثنا يونس بن محمد ، حدثنا داود بن أبى الفرات ، عن علباء ابن أحمر ، عن عكرمة عن ابن عباس قال : خط رسول الله ﷺ فى الأرض أربعة خطوط ، فقال : « أتدرون ما هذا ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، فقال رسول الله ﷺ : « أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، ومريم بنت عمران ، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون » . ورواه النسائى من طرق عن داود أبى هند . وقد رواه ابن عساكر من طريق أبى بكر عبد الله بن أبى داود سليمان بن الأشعث : حدثنا يحيى بن حاتم العسكرى ، أنبأنا بشر بن مهران بن حمدان، حدثنا محمد بن دينار عن داود بن أبى هند عن الشعبى ، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « حسبك منهن أربع ، سيدات نساء العالمين : فاطمة بنت محمد ، وخديجة بنت خويلد ، وآسية بنت مزاحم ، ومريم بنت عمران » . وقال أبو القاسم البغوى : حدثنا وهب بن منبه ، حدثنا خالد بن عبد الله الواسطى عن محمد بن عمرو عن أبى سلمة ، عن عائشة أنها قالت لفاطمة : أرأيت حين أكببت على رسول الله ﷺ فبكيت ثم ضحكت ؟ قالت : أخبرنى أنه ميت من وجعه هذا فبكيت ، ثم أكببت عليه فأخبرنى أنى أسرع أهله لحوقاً به ، وأنى سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم بنت عمران ـ فضحكت ، وأصل هذا الحديث فى الصحيح . وهذا إسناد على شرط مسلم ، وفيه أنهما أفضل الأربع المذكورات . وهكذا الحديث الذى رواه الإمام أحمد : حدثنا عثمان بن محمد ، حدثنا جرير عن يزيد ـ هو ابن أبى زياد ـ عن عبد الرحمن بن أبى نعيم عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « فاطمة سيدة نساء أهل الجنة إلا ما كان من مريم بنت عمران » . إسناد حسن ، وصححه الترمذى ولم يخرجوه . وقد روى نحوه من حديث على بن أبى طالب ، ولـكن فى إسناده ضعف .

والمقصود أن هذا يدل على أن مريم وفاطمة أفضل هؤلاء الأربع . ثم يحتمل الاستثناء أن تكون

---

(١) كان القياس أن يقول : أحناهن وأرعاهن ، لـكن جرى لسان العرب بالإفراد .

مريم أفضل من فاطمة ، ويحتمل أن يكونا على السواء فى الفضيلة . لكن ورد حديث إن صح عين الاحتمال الأول ؛ فقال الحافظ أبو القاسم بن عساكر : أنبأنا أبو الحسن بن الفرا وأبو غالب وأبو عبد الله ابنا البنا ، قالوا أنبأنا أبو جعفر بن المسلمة ، أنبأنا أبو طاهر المخلص ، حدثنا أحمد بن سليمان ، حدثنا الزبير ـ هو ابن بكار ـ حدثنا محمد بن الحسن عن عبد العزيز بن محمد عن موسى بن عقبة عن كريب عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « سيدة نساء أهل الجنة : مريم بنت عمران ، ثم فاطمة ، ثم خديجة ثم آسية امرأة فرعون » . فإن كان هـذا اللفظ محفوظاً بثم التى للترتيب ـ فهو مبين لأحد الاحتمالين اللذين دل عليهما الاستثناء ، وتقدم على ما تقدم من الألفاظ التى وردت بواو العطف التى لا تقتضى الترتيب ولا تنفيه ، والله أعلم . وقد روى هذا الحديث أبو حاتم الرازى عن داود الجعفرى عن عبدالعزيز ابن محمد ـ وهو الدراوردى ـ عن إبراهيم بن عقبة عن كريب عن ابن عباس مرفوعاً ، فذكره بواو العطف لا بثم الترتيبية ، فخالفه إسناداً ومتناً ، فالله أعلم .

فأما الحديث الذى رواه ابن مردويه من حديث شعبة عن معاوية بن قرة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ : « كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا ثلاث : مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » ، وهكذا الحديث الذى رواه الجماعة ـ إلا أبا داود ، من طرق عن شعبة عن عمرو بن مرة ، عن مرة الهمدانى عن أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ : « كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ، ومريم بنت عمران ، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» ـ فإنه حديث صحيح كما ترى ، اتفق الشيخان على إخراجه . ولفظه يقتضى حصر الكمال فى النساء ؛ فى مريم وآسية ، ولعل المراد بذلك فى زمانهما ؛ فإن كلا منهما كفلت نبياً فى حال صغره ؛ فآسية كفلت موسى الكليم ، ومريم كفلت ولدها عبد الله ورسوله ، فلا ينفى كمال غيرهما فى هذه الأمة ؛ كخديجة وفاطمة ؛ فخديجة خدمت رسول الله ﷺ قبل البعثة خمسة عشر سنة ، و بعدها أزيد من عشر سنين ، وكانت له وزير صدق بنفسها ومالها رضى الله عنها وأرضاها . وأما فاطمة بنت رسول الله ﷺ فإنها خصت بمزيد فضيلة على أخواتها ؛ لأنها أصيبت برسول الله ﷺ ، وبقيـة أخواتها متن فى حياة النبى ﷺ . وأما عائشة فإنها كانت أحب أزواج رسول الله ﷺ إليه ، ولم يتزوج بكراً غيرها ، ولا يعرف فى سائر النساء فى هذه الأمة بل ولا فى غيرها ـ أعلم منها ولا أفهم . وقد غار الله لها حين قال لها أهل الإفك ما قالوا ، فأنزل براءتها من فوق سبع سموات . وقد عمرت بعد رسول الله ﷺ قريباً من خمسين سنة ، تبلغ عنه القرآن والسنة ، وتفتى المسلمين ، وتصلح بين المختلفين ، وهى أشرف أمهات المؤمنين ـ حتى خديجة بنت خويلد أم البنات والبنين ـ فى قول طائفة من العلماء السابقين

واللاحقين . والأحسن الوقف فيهما رضى الله عنهما ، وما ذاك إلا لأن قوله ﷺ : وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » ـ يحتمل أن يكون عاماً بالنسبة إلى المذكورات وغيرهن ، ويحتمل أن يكون عاماً بالنسبة إلى ما عدا المذكورات ، والله أعلم .

والمقصود ههنا ذكر مايتعلق بمريم بنت عمران عليها السلام ؛ فإن الله طهرها واصطفاها على نساء عالمي زمانها ، ويجوز أن يكون تفضيلها على النساء مطلقاً كما قدمنا . وقد ورد فى حديث : أنها تكون من أزواج النبى ﷺ فى الجنة هى وآسية بنت مزاحم . وقد ذكرنا فى التفسير عن بعض السلف أنه قال ذلك ، واستأنس بقوله : (ثيبات وأبكاراً) . قال : فالثيب آسية ، ومن الأبكار مريم بنت عمران . وقد ذكرناه فى آخر سورة التحريم ، فالله أعلم .

قال الطبرانى : حدثنا عبد الله بن ناجية ، حدثنا محمد بن سعد العوفى ، حدثنا أبى ، أنبأنا عمى الحسين حدثنا يونس بن نفيع عن سعد بن جنادة ـ هو العوفى ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله زوجنى فى الجنة مريم بنت عمران ، وامرأة فرعون ، وأخت موسى » وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا إبراهيم بن عرعرة ، حدثنا عبدالنور بن عبدالله ، حدثنا يونس بن شعيب عن أبى أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : « أشعرت أن الله زوجنى مريم بنت عمران ، وآسية بنت مزاحم ، وكلثم أخت موسى ؟ » رواه ابن جعفر العقيلى وليس بمحفوظ . وقال الزبير بن بكار : حدثنى محمد بن الحسن ، عن يعلى بن المغيرة ، عن ابن أبى داود قال : دخل رسول الله ﷺ على خديجة وهى فى مرضها الذى توفيت فيه ، فقال لها . « بالكره منى ما أرى منك ياخديجة ، وقد يجعل الله فى الكره خيراً كثيراً ، أما علمت أن الله قد زوجنى معك فى الجنة : مريم بنت عمران ، وكلثم أخت موسى ، وآسية امرأة فرعون ؟ » قالت : وقد فعل الله بك ذلك يارسول الله؟ قال نعم . قالت : بالرفاء والبنين . وروى ابن عساكر من حديث محمد ابن زكريا الغلابى : حدثنا العباس بن بكار ، حدثنا أبو بكر الهزلى عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ دخل على خديجة وهى فى مرض الموت ، فقال : « يا خديجة إذا لقيت ضرائرك فأقرئيهن منى السلام » . قالت يارسول الله وهل تزوجت قبلى ؟ قال : « لا .. ولكن الله زوجنى مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم ، وكلثم أخت موسى » وروى ابن عساكر من طريق سويد بن سعيد : حدثنا محمد ابن صالح بن عمر عن الضحاك ومجاهد عن ابن عمر ، قال : نزل جبريل إلى رسول الله ﷺ بما أرسل به وجلس يحدث رسول الله ﷺ إذ مرت خديجة ، فقال جبريل من هذه يا محمد ؟ قال هذه صديقة أمتى ، قال جبريل : معى إليها رسالة من الرب عزوجل ؛ يقرئها السلام ويبشرها ببيت فى الجنة من قصب ، بعيد ، من اللهب ، لانصب فيه ولاصخب . قالت : الله السلام ومنه السلام والسلام عليكما ورحمة الله وبركاته على رسول الله ، ماذلك البيت الذى من قصب ؟ قال لؤلؤة جوفاء بين بيت مريم بنت عمران وبيت آسية بنت

مزاحم ، وهما من أزواجى يوم القيامة . وأصل السلام على خديجة من الله و بشارتها ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيه ولا وصب — فى الصحيح ، ولكن هذا السياق بهذه الزيادات غريب جداً . وكل من هذه الأحاديث فى أسانيدها نظر . وروى ابن عساكر من حديث أبى زرعة الدمشقى : حدثنا عبد الله بن صالح حدثنى معاوية عن صفوان بن عمرو عن خالد بن معدان عن كعب الأحبار : أن معاوية سأله عن الصخرة — يعنى صخرة بيت المقدس — فقال : الصخرة على نخلة ، والنخلة على نهر من أنهار الجنة ، وتحت النخلة مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم ينظمان سموط[1] أهل الجنة حتى تقوم الساعة . ثم رواه من طريق إسماعيل عن عياش عن ثعلبة بن مسلم عن مسعود ، عن عبد الرحمن عن خالد بن معدان ، عن عبادة بن الصامت عن النبى ﷺ بمثله . وهذا منكر من هذا الوجه ، بل هو موضوع ، وقد رواه أبو زرعة عن عبد الله بن صالح ، عن معاوية عن مسعود بن عبد الرحمن ، عن ابن عابد : أن معاوية سأل كعباً عن صخرة بيت المقدس فذكره . قال الحافظ ابن عساكر : وكونه من كلام كعب الأحبار أشبه . قلت وكلام كعب الأحبار هذا إنما تلقاه من الإسرائيليات التى منها ماهو مكذوب مفتعل ، وضعه بعض زنادقتهم أو جهالهم وهذا منه . والله أعلم .

ذكر ميلاد العبد الرسول « عيسى بن مريم البتول »

قال الله تعالى : (واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً * فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً * قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً * قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً * قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغياً ؟ * قال كذلك قال ربك هو على هين ، ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً * فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً * فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة ، قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً * فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سرياً * وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً * فكلى واشربى وقرى عيناً ، فإما ترين من البشر أحداً ، فقولى إنى نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً * فأتت به قومها تحمله قالوا يامريم لقد جئت شيئاً فرياً * يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً * فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبياً * قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبياً * وجعلنى مباركاً أينما كنت ، وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حياً * وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقياً * والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً * ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون * ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه ، إذا قضى أمراً فإنما

(١) جمع سمط ، وهو الخيط فيه الخرز ، وقلادة أطول من المخنقة .

يقول له كن فيكون * وإن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم * فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم[1]) .

ذكر تعالى هذه القصة بعد قصة زكريا التى هى كالمقدمة لها والتوطئة قبلها ، كما ذكر فى سورة آل عمران ، وقرن بينهما فى سياق واحد ، وكما قال فى سورة الأنبياء : (وزكريا إذ نادى ربه رب لاتذرنى فرداً وأنت خير الوارثين * فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه ، إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهبا وكانوا لنا خاشعين * والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين[2]) .

وقد تقدم أن مريم جعلتها أمها محررة تخدم بيت المقدس ، وأنه كفلها زوج أختها أو خالتها نبى ذلك الزمان زكريا عليه السلام ، وأنه اتخذ لها محراباً ـ وهو المكان الشريف من المسجد ـ لايدخله أحد عليها سواه ، وأنها لما بلغت اجتهدت فى العبادة فلم يكن فى ذلك الزمان نظيرها فى فنون العبادات وظهر عليها من الأحوال ماغبطها به زكريا عليه السلام . وأنها خاطبتها الملائكة بالبشارة لها باصطفاء الله لها ، وبأنه سيهب لها ولداً زكياً ، يكون نبياً كريماً طاهراً مكرماً مؤيداً بالمعجزات . فتعجبت من وجود ولد من غير والد ؛ لأنها لازوج لها ولا هى ممن تتزوج ، فأخبرتها الملائكة بأن الله قادر على مايشاء ، (إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) ، فاستكانت لذلك وأنابت ، وسلمت لأمر الله ، وعلمت أن هذا فيه محنة عظيمة لها ؛ فإن الناس سيتكلمون فيها بسببه ؛ لأنهم لايعلمون حقيقة الأمر ، وإنما ينظرون إلى ظاهر الحال من غير تدبر ولاتعقل . وكانت إنما تخرج من المسجد فى زمن حيضها ، أو لحاجة ضرورية لابد منها ؛ من استقاء ماء أو تحصيل غذاء . فبينما هى يوماً قد خرجت لبعض شئونها ، و (انتبذت) أى انفردت وحدها شرقى المسجد الأقصى ، إذ بعث إليها الروح الأمين جبريل عليه السلام (فتمثل لها بشراً سويا) ، فلما رأته (قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا) . قال أبو العالية : علمت أن التقى ذو نُهية[3] ، وهذا يرد قول من زعم أنه كان فى بنى إسرائيل رجل فاسق مشهور بالفسق اسمه « تقى » ؛ فإن هذا قول باطل بلادليل وهو من أسخف الأقوال (قال إنما أنا رسول ربك) أى خاطبها الملك قائلا : إنما أنا رسول ربك لست ببشر ولكنى ملك بعثنى الله إليك (لأهب لك غلاماً زكيا) أى ولداً زكيا ، (قالت أنى يكون لى غلام) أى كيف يكون لى غلام أو يوجد لى ولد ؟ (ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا) أى ولست ذات زوج ، وما أنا ممن يفعل الفاحشة (قال كذلك قال ربك هو على

(١) الآيات : ١٦ — ٣٧ من سورة مريم .

(٢) الآيات : ٨٩ — ٩١ .

(٣) النهية بالضم — واحدة النهى : وهى العقول ؛ لأنها تنهى عن القبيح .

هين) أى فأجابها الملك عن تعجبها من وجود ولد منها والحالة هذه قائلا : (كذلك قال ربك) أى وعد أنه سيخلق منك غلاماً ولست بذات بعل ، ولا تكونين ممن تبغين (هو على هين) أى هذا سهل عليه و يسير لديه ، فإنه على مايشاء قدير . وقوله : (ولنجعله آية للناس) أى ولنجعل خلقه والحالة هذه دليلا على كمال قدرتنا على أنواع الخلق ؛ فإنه تعالى خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى ، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر ، وخلق بقية الخلق من ذكر وأنثى . وقوله : (ورحمة منا) أى نرحم به العباد بأن يدعوهم إلى الله ، فى صغره وكبره ، فى طفوليته وكهوليته ــ بأن يفردوا الله بالعبادة وحده لاشريك له وينزهوه عن اتخاذ الصاحبة والأولاد والشركاء والنظراء والأضداد والأنداد . وقوله : (وكان أمراً مقضيا) يحتمل أن يكون هذا من تمام كلام جبريل معها ؛ يعنى أن هذا أمر قد قضاه الله وحتمه وقدره وقرره . وهذا معنى قول محمد بن إسحاق ، واختاره ابن جرير ولم يحك سواه ، والله أعلم . ويحتمل أن يكون قوله : (وكان أمراً مقضياً) ــ كناية عن نفخ جبريل فيها ؛ كما قال تعالى : (ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا[1]) . فذكر غير واحد من السلف : أن جبريل نفخ فى جيب درعها فنزلت النفخة إلى فرجها فحملت من فورها ، كما تحمل المرأة عند جماع بعلها . ومن قال : إنه نفخ فى فمها ، أو أن الذى كان يخاطبها هو الروح الذى ولج فيها من فمها ــ فقوله خلاف مايفهم من سياقات هذه القصة فى محالها من القرآن ؛ فإن هذا السياق يدل على أن الذى أرسل إليها ملك من الملائكة وهو جبريل عليه السلام ، وأنه إنما نفخ فيها ولم يواجه الملك الفرج ، بل نفخ فى جيبها فنزلت النفخة إلى فرجها ، فانسلكت فيه ، كما قال تعالى : (فنفخنا فيه من روحنا) ، يدل على أن النفخة ولجت فيه ؛ لافى فمها كما روى عن أبى بن كعب ، ولا فى صدرها كما رواه السدى بإسناده عن بعض الصحابة . ولهذا قال تعالى : (فحملته) أى حملت ولدها (فانتبذت به مكاناً قصيا) . وذلك لأن مريم عليها السلام لما حملت ضاقت به ذرعاً ، وعلمت أن كثيراً من الناس سيكون منهم كلام فى حقها ، فذكر غير واحد من السلف ــ منهم وهب بن منبه ــ أنها لما ظهرت عليها مخايل الحمل ، كان أول من فطن لذلك رجل من عباد بنى إسرائيل يقال له يوسف بن يعقوب النجار ، وكان ابن خالها ــ فجعل يتعجب من ذلك عجباً شديداً ، وذلك لما يعلم من ديانتها ونزاهتها وعبادتها ، وهو مع ذلك يراها حبلى وليس لها زوج . فعرض لها ذات يوم فى الكلام ، فقال : يامريم هل يكون زرع من غير بذر ؟ قالت نعم فمن خلق الزرع الأول ؟ ثم قال : فهل يكون شجر من غير ماء ولا مطر ؟ قالت نعم . فمن خلق الشجر الأول ؟ ثم قال : فهل يكون ولد من غير ذكر ؟ قالت نعم . إن الله خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى . قال لها : فأخبريني خبرك ، فقالت : إن الله بشرنى (بكلمة منه

(١) آخر سورة التحريم .

اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً فى الدنيا والآخرة ومن المقربين * ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين[1]) . ويروى مثل هذا عن زكريا عليه السلام : أنه سألها فأجابته بمثل هذا ، والله أعلم .

وذكر السدى بإسناده عن الصحابة : أن مريم دخلت يوماً على أختها ، فقالت لها أختها : أشعرت أنى حبلى ؟ فقالت مريم : وشعرت أيضاً أنى حبلى ؟ فاعتنقتها ، وقالت لها أم يحيى : إنى أرى مافى بطنى يسجد لما فى بطنك . وذلك قوله : (مصدقاً بكلمة من الله) . ومعنى السجود ههنا الخضوع والتعظيم كالسجود عند المواجهة للسلام ؛ كما كان فى شرع من قبلنا ، وكما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم . وقال أبو القاسم : قال مالك : بلغنى أن عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا ابنا خالة ، وكان حملها جميعاً معاً ، فبلغنى أن أم يحيى قالت لمريم : إنى أرى مافى بطنى يسجد لما فى بطنك ، قال مالك : أرى ذلك لتفضيل عيسى عليه السلام ؛ لأن الله تعالى جعله يحيى الموتى ويبرىء الأكمه والأبرص . رواه ابن أبى حاتم . وروى عن مجاهد قال : قالت مريم : كنت إذا خلوت حدثنى وكلمنى ، وإذا كنت بين الناس سبح فى بطنى .

ثم الظاهر أنها حملت به تسعة أشهر ، كما تحمل النساء ويضعن لميقات حملهن ووضعهن ؛ إذ لو كان خلاف ذلك لذكر . وعن ابن عباس وعكرمة أنها حملت به ثمانية أشهر ، وعن ابن عباس ماهو إلا أن حملت به فوضعته . قال بعضهم : حملت به تسع ساعات . واستأنسوا لذلك بقوله تعالى : (فحملته فانتبذت به مكاناً قصيا * فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة) والصحيح أن تعقيب كل شىء بحسبه ، كقوله : (فتصبح الأرض مخضرة) وكقوله : (ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ، ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين[2]) . ومعلوم أن بين كل حالين أربعين يوماً ، كما ثبت فى الحديث المتفق عليه .

قال محمد بن إسحاق : شاع واشتهر فى بنى إسرائيل أنها حامل ، فما دخل على أهل بيت مادخل على آل بيت زكريا . قال : واتهمها بعض الزنادقة بيوسف الذى كان يتعبد معها فى المسجد . وتوارت عنهم مريم واعتزلتهم ، وانتبذت مكاناً قصيا . وقوله : (فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة) أى فألجأها واضطرها الطلق إلى جذع النخلة ، وهو — بنص الحديث الذى رواه النسائى بإسناد لابأس به عن أنس مرفوعاً والبيهقى بإسناد ، وصححه عن شداد بن أوس مرفوعاً أيضاً — ببيت لحم ؛ الذى بنى عليه بعض ملوك الروم فيما بعد على ماسنذكره — هذا البناء المشاهد الهائل . (قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً) . فيه دليل على جواز تمنى الموت عند الفتن ، وذلك أنها علمت أن الناس يتهمونها ولا يصدقونها ، بل يكذبونها حين تأتيهم بغلام على يدها ، مع أنها قد كانت عندهم من العابدات الناسكات

---

(١) الآيتان : ٤٤ ، ٤٥ من سورة آل عمران . (٢) الآية : ١٤ من سورة المؤمنون .

المجاورات[1] فى المسجد ، المنقطعات إليه المعتكفات فيه ، ومن بيت النبوة والديانة ، فحملت بسبب ذلك من الهم ماتمنت أن لو كانت ماتت قبل هذا الحال ، أو كانت (نسياً منسياً) أى لم تخلق بالكلية .

وقوله : (فناداها مَن تحتَها) وقرىء مِن تحتِها على الخفض ، وفى المضمر قولان : أحدهما أنه جبريل ، قاله العوفى عن ابن عباس ، قال ولم يتكلم عيسى إلا بحضرة القوم ، وهكذا قال سعيد بن جبير وعمرو بن ميمون والضحاك والسدى وقتادة . وقال مجاهد والحسن وابن زيد وسعيد بن جبير فى رواية : هو ابنها عيسى ، واختاره ابن جرير . وقوله : (ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا) قيل النهر ، وإليه ذهب الجمهور ، وجاء فيه حديث رواه الطبرانى لكنه ضعيف واختاره ابن جرير وهو الصحيح . وعن الحسن والربيع بن أنس وابن أسلم وغيرهم : أنه ابنها . والصحيح الأول لقوله : (وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً) فذكر الطعام والشراب . ولهذا قال : (فكلى واشربى وقرى عيناً) . ثم قيل : كان جذع النخلة يابساً ، وقيل كانت نخلة مثمرة فالله أعلم . ويحتمل أنها كانت نخلة لكنها لم تكن مثمرة إذ ذاك ؛ لأن ميلاده كان فى زمن الشتاء وليس ذاك وقت ثمر . وقد يفهم ذلك من قوله تعالى على سبيل الامتنان : (تساقط عليك رطباً جنياً) . قال عمرو بن ميمون ليس شىء أجود للنفساء من التمر والرطب ، ثم تلا هذه الآية . وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا شيبان ، حدثنا مسرور بن سعيد التميمى ، حدثنا عبد الرحمن بن عمرو الأنصارى عن عروة بن رويم عن على بن أبى طالب قال : قال رسول الله ﷺ : « أكرموا عمتكم النخلة ، فإنها خلقت من الطين الذى خلق منه آدم ، وليس من الشجر شىء يلقح غيرها » ، وقال رسول الله ﷺ : « أطعموا نساءكم الوُلّد[2] الرطب ، فإن لم يكن رطب فتمر ، وليس من الشجر شجرة أكرم على الله من شجرة نزلت تحتها مريم بنت عمران » . وكذا رواه أبو يعلى فى مسنده عن شيبان بن فروخ عن مسروق بن سعيد ، وفى رواية مسرور بن سعد . والصحيح مسرور بن سعيد التميمى ، أورد له ابن عدى هذا الحديث عن الأوزاعى به . ثم قال : وهو منكر الحديث ، ولم أسمع بذكره إلا فى هذا الحديث . وقال ابن حبان : يروى عن الأوزاعى المناكير الكثيرة ، التى لا يجوز الاحتجاج بمن يرويها .

وقوله : (فإما ترين من البشر أحداً فقولى إنى نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً) . هذا من تمام كلام الذى ناداها من تحتها ، قال : (فكلى واشربى وقرى عيناً فإما ترين من البشر أحداً) أى فإن رأيت أحداً من الناس (فقولى) له ــ أى بلسان الحال والإشارة : (إنى نذرت للرحمن صوماً) أى صمتاً ، وكان من صومهم فى شريعتهم ترك الكلام والطعام . قاله قتادة والسدى وابن أسلم ، ويدل على ذلك قوله : (فلن أكلم اليوم إنسياً) . فأما فى شريعتنا فيكره للصائم صمت يوم إلى الليل .

---

(١) أى المتكفات فيه . (٢) جمع والدة ، وولود ، ووالد .

وقوله تعالى : (فأتت به قومه تحمله قالوا يامريم لقد جئت شيئاً فريا ۞ ياأخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا) ، ذكر كثير من السلف ممن ينقل عن أهل الكتاب : أنهم لما افتقدوها من بين أظهرهم ــ ذهبوا فى طلبها ، فمروا على محلتها والأنوار حولها ، فلما واجهوها وجدوا معها ولدها ، فقالوا لها : (يامريم لقد جئت شيئاً فريا) أى أمراً عظيما منكراً . وفى هذا الذى قالوه نظر ــ مع أنه ينقض أوله آخره ــ وذلك لأن ظاهر سياق القرآن العظيم يدل على أنها حملت بنفسها ، وأتت به قومها وهى تحمله . قال ابن عباس : وذلك بعد ما تعللت[1] من نفاسها بعد أربعين يوماً .

والمقصود أنهم لما رأوها تحمل معها ولدها (قالوا يامريم لقد جئت شيئاً فريا) ، والفرية : هى الفعلة المنكرة العظيمة من الفعال والمقال . ثم قالوا لها : (ياأخت هرون) . قيل شبهوها بعابد من عباد زمانهم كانت تساميه فى العبادة ، وكان اسمه هرون . وقيل شبهوها برجل فاجر فى زمانهم اسمه هرون ، قاله سعيد ابن جبير . وقيل أرادوا بهرون أخا موسى ، شبهوها به فى العبادة . وأخطأ محمد بن كعب القرظى فى زعمه أنها أخت موسى وهرون نسباً ؛ فإن بينهما من الدهور الطويلة مالايخفى على أدنى من عنده من العلم مايرده عن هذا القول الفظيع . وكأنه غره أن فى التوراة أن مريم أخت موسى وهرون ضربت بالدف يوم أن نجا الله موسى وقومه ، وأغرق فرعون وملأه . فاعتقد أن هذه هى هذه ، وهذا فى غاية البطلان والمخالفة للحديث الصحيح مع نص القرآن ، كما قررناه فى التفسير مطولا ، ولله الحمد والمنة .

وقد ورد الحديث الصحيح الدال على أنه قد كان لها أخ اسمه هرون ، وليس فى ذكر قصة ولادتها وتحرير أمها لها ــ مايدل على أنها ليس لها أخ سواها ، والله أعلم . قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الله بن إدريس سمعت أبى يذكره عن سماك عن علقمة بن وائل عن المغيرة بن شعبة قال : بعثنى رسول الله ﷺ إلى نجران ، فقالوا أرأيت ماتقرءون : (ياأخت هرون) وموسى قبل عيسى بكذا وكذا ؟ قال : فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال : « ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم ؟ » وكذا رواه مسلم والنسائى والترمذى من حديث عبد الله بن إدريس ، وقال الترمذى حسن صحيح غريب لانعرفه إلا من حديثه ، وفى رواية : « ألا أخبرتهم أنهم كانوا يتسمون بأسماء صالحيهم وأنبيائهم ؟ » . وذكر قتادة وغيره أنهم كانوا يكثرون من التسمية بهرون ، حتى قيل إنه حضر بعض جنائزهم بشر كثير منهم ممن يسمى بهرون ــ أربعون ألفاً ، فالله أعلم .

والمقصود أنهم قالوا : (ياأخت هرون) ودل الحديث على أنها قد كان لها أخ نسبى اسمه هرون ، وكان مشهوراً بالدين والصلاح والخير ، ولهذا قالوا : (ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا)

---

(١) أى خرجت . يقال : تعللت المرأة من نفاسها كتعالت ــ خرجت .

أى لست من بيت هذا شيمتهم ولا سجيتهم ؛ لاأخوك ولا أمك ولا أبوك ، فاتهموها بالفاحشة العظمى ورموها بالداهية الدهياء . فذكر ابن جرير فى تاريخه : أنهم اتهموا بها زكريا وأرادوا قتله ، ففر منهم فلحقوه وقد انشقت له الشجرة فدخلها ، وأمسك إبليس بطرف ردائه فنشروه فيها كما قدمنا . ومن المنافقين من اتهمها بابن خالها يوسف بن يعقوب النجار ، فلما ضاق الحال وانحصر المجال وامتنع المقال ـ عظم التوكل على ذى الجلال ، ولم يبق إلا الإخلاص والاتكال . (فأشارت إليه) أى خاطبوه وكلموه ، فإن جوابكم عليه ، وما تبغون من الكلام لديه . فعندها (قالوا) من كان منهم جباراً شقياً : (كيف نكلم من كان فى المهد صبياً ؟) أى كيف تحيلينا فى الجواب على صبى صغير لا يعقل الخطاب ؟ وهو مع ذلك رضيع فى مهده ، ولا يميز بين محض[1] وزبده ، وما هذا منك إلا على سبيل التهكم بنا والاستهزاء والتنقيص لنا والازدراء ؛ إذ لاتردين علينا قولا نطقياً ، بل تحيلين فى الجواب على من كان فى المهد صبياً ، فعندها : (قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبياً * وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حياً * وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقياً * والسلام علىّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً) .

هذا أول كلام تفوه به عيسى بن مريم ، فكان أول ماتكلم به أن (قال إنى عبد الله) ، اعترف لربه تعالى بالعبودية ، وأن الله ربه ، فنزه جناب الله عن قول الظالمين فى زعمهم أنه ابن الله ، بل هو عبده ورسوله وابن أمته . ثم برأ أمه مما نسبها إليه الجاهلون ، وقذفوها به ورموها بسببه ، بقوله : (آتانى الكتاب وجعلنى نبياً) فإن الله لايعطى النبوة من هو كما زعموا — لعنهم الله وقبحهم ، كما قال تعالى : (وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيما[2]) . وذلك أن طائفة من اليهود فى ذلك الزمان ، قالوا إنها حملت به من زنا فى زمن الحيض ، لعنهم الله . فبرأها الله من ذلك ، وأخبر عنها أنها صديقة ، واتخذ ولدها نبياً مرسلا ، أحد أولى العزم الخمسة الكبار . ولهذا قال : (وجعلنى مباركا أينما كنت) وذلك أنه حيث كان دعا إلى عبادة الله وحده لاشريك له ، ونزه جنابه عن النقص والعيب ؛ من اتخاذ الولد والصاحبة ، تعالى وتقدس . (وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حياً) وهذه وظيفة العبيد ، فى القيام بحق العزيز الحميد بالصلاة ، والإحسان إلى الخليقة بالزكاة ، وهى تشتمل على طهارة النفوس من الأخلاق الرذيلة ، وتطهير الأموال الجزيلة بالعطية للمحاويج ، على اختلاف الأصناف وقرى الأضياف ، والنفقات على الزوجات والأرقاء والقرابات ، وسائر وجوه الطاعات وأنواع القربات . ثم قال : (وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقيا) أى وجعلنى براً بوالدتى . وذلك أنه تأكد حقها عليه لتمحض جهتها إذ لا والد له

---

(١) المحض : اللبن الخالص ، وجمعه محاض . ومخض اللبن بالخاء : أخذ زبده .

(٢) الآية : ١٥٦ من سورة النساء .

سواها ، فسبحان من خلق الخليقة و برأها ، وأعطى كل نفس هداها . (ولم يجعلنى جباراً شقيا) أى لست بفظ ولا غليظ ، ولا يصدر منى قول ولا فعل ينافى أمر الله وطاعته . (والسلام على يوم ولدت ويوم أموت و يوم أبعث حياً) ، وهذه الأماكن الثلاثة التى تقدم الكلام عليها فى قصة يحيى بن زكريا عليهما السلام .

ثم لما ذكر تعالى قصته على الجلية ، وبين أمره ووضحه وشرحه ، قال : (ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون* ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنمايقول له كن فيكون) كما قال تعالى بعد ذكر قصته وما كان من أمره — فى آل عمران : (ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم * إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ، الحق من ربك فلا تكن من الممترين * فمن حاجك فيه من بعد ماجاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ، ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكافرين * إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم * فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين[١]) . ولهذا لما قدم وفد نجران وكانوا ستين راكباً يرجع أمرهم إلى أربعة عشر منهم ، ويؤول أمر الجميع إلى ثلاثة هم أشرافهم وساداتهم وهم : العاقب[٢] والسيد[٣] ، وأبو حارثة بن علقمة[٤] فجعلوا يناظرون فى أمر المسيح ، فأنزل صدر سورة آل عمران فى ذلك ، و بين أمر المسيح وابتداء خلقه ، وخلق أمه من قبله ، وأمر رسوله بأن يباهلهم[٥] إن لم يستجيبوا له ويتبعوه ، فلما رأوا اعينها وأذنيها نكصوا وامتنعوا عن المباهلة ، وعدلوا إلى المسالمة والموادعة ، وقال قائلهم — وهو العاقب عبد المسيح : يامعشر النصارى ! لقد علمتم أن محمداً لنبى مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ، ولقد علمتم أنه مالاعن قوم نبياً قط فبقى كبيرهم ولانبت صغيرهم ، وإنها للاستئصال منكم إن فعلتم . فإن كنتم قد أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ماأنتم عليه من القول فى صاحبكم — فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم ، فطلبوا ذلك من رسول الله ﷺ وسألوه أن يضرب عليهم جزية ، وأن يبعث معهم رجلا أميناً ، فبعث معهم أباعبيدة بن الجراح . وقد بينا ذلك فى تفسير آل عمران ، وسيأتى بسط هذه القصة فى السيرة النبوية إن شاء الله تعالى وبه الثقة .

والمقصود أن الله تعالى بين أمر المسيح ، فقال لرسوله : (ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون) يعنى أنه عبد مخلوق من امرأة من عباد الله ، ولهذا قال : (ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) أى لايعجزه شىء ولا يكترثه ولايئوده . بل هو القدير الفعال

---

(١) الآيات : ٥٩ — ٦٣ (٢) اسمه عبد المسيح ، وكان أمير القوم وصاحب مشورتهم

(٣) هو السيد الأيهم وكان عالمهم (٤) أخو بكر بن وائل وكان أسقفهم (٥) أى يلاعنهم ، والمباهلة : الملاعنة .

لما يشاء (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) . وقوله : (و إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم) هو من تمام كلام عيسى لهم فى المهد . أخبرهم أن الله ربه وربهم ، وإلهه وإلههم ، وأن هذا هو الصراط المستقيم . قال الله تعالى : (فاختلف الأحزاب من بينهم ، فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم) أى فاختلف أهل ذلك الزمان ومن بعدهم فيه ؛ فمن قائل من اليهود إنه ولد زنية ، واستمروا على كفرهم وعنادهم . وقابلهم آخرون فى الكفر فقالوا هو الله ، وقال آخرون هو ابن الله ، وقال المؤمنون هو عبد الله ورسوله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، وهؤلاء هم الناجون المثابون المؤيدون المنصورون . ومن خالفهم فى شىء من هذه القيود فهم الكافرون الضالون الجاهلون . وقد توعدهم العلى العظيم الحكيم العليم بقوله : (فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم) .

قال البخارى : حدثنا صدقة بن الفضل ، أنبأنا الوليد ، حدثنا الأوزاعى ، حدثنى عمير بن هانىء حدثنى جنادة بن أبى أمية ، عن عبادة بن الصامت عن النبى ﷺ قال : « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنة حق والنار حق ـ أدخله الله الجنة على ما كان من العمل » . قال الوليد : فحدثنى عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن عمير عن جنادة ، وزاد : « من أبواب الجنة الثمانية أيها شاء » . وقد رواه مسلم عن داود بن رشيد عن الوليد عن جابر به ، ومن طريق أخرى عن الأوزاعى به .

« باب » بيان أن الله تعالى منزه عن الولد

تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً

قال تعالى فى آخر هذه السورة : (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً * لقد جئتم شيئاً إدًّا) أى شيئاً عظيما ومنكراً من القول وزورا (تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً * أن دعوا للرحمن ولدا * وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا * إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً * لقد أحصاهم وعدهم عداً * وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً[1]) فبين أنه تعالى لاينبغى له الولد ؛ لأنه خالق كل شىء ومالكه ، وكل شىء فقير إليه ، خاضع ذليل لديه . وجميع سكان السموات والأرض عبيده ، وهو ربهم لا إله إلا هو ولا رب سواه ، كما قال تعالى : (وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ، سبحانه وتعالى عما يصفون * بديع السموات والأرض ، أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم * ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل * لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير[2]) فبين

---

(١) الآيات : ٨٨ ـ ٩٥ من سورة مريم (٢) الآيات : ١٠٠ ـ ١٠٣ من سورة الأنعام .

أنه خالق كل ، شيء فكيف يكون له ولد ؛ والولد لايكون إلا بين شيئين متناسبين ، والله تعالى لانظير له ، ولاشبيه له ولا عديل له ، فلا صاحبة له ، فلا يكون له ولد . كما قال تعالى : (قل هو الله أحد ☆ الله الصمد ☆ لم يلد ولم يولد ☆ ولم يكن له كفواً أحد) . يقرر أنه الأحد الذى لانظير له فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله ، (الصمد) وهو السيد الذى كمل فى علمه وحكمته ورحمته وجميع صفاته ، (لم يلد) أى لم يوجد منه ولد ، (ولم يولد) أى ولم يتولد عن شىء قبله (ولم يكن له كفواً أحد) . أى وليس له عدل ولا مكافىء ولا مساو ، فقطع النظير المدانى الأعلى والمساوى ، فانتفى أن يكون له ولد ، إذ لا يكون الولد إلا متولداً بين شيئين متماداين أو متقار بين تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وقال تبارك وتعالى وتقدس : (ياأهل الكتاب لاتغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا خيراً لكم ، إنما الله إلٓ واحد سبحانه أن يكون له ولد ، له مافى السموات ومافى الأرض وكفى بالله وكيلا ☆ لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقر بون ، ومن يستنكف عن عبادته و يستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً ☆ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم و يزيدهم من فضله ، وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليما ، ولايجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً[١]) .

ينهى تعالى أهل الكتاب ومن شابههم ، عن الغلو والإطراء فى الدين – وهو مجاوزة الحد ؛ فالنصارى – لعنهم الله – غلوا وأطروا المسيح حتى جاوزوا الحد ، فكان الواجب عليهم أن يعتقدوا أنه عبد الله ورسوله وابن أمته العذراء البتول ، التى أحصنت فرجها فبعث الله الملك جبريل إليها ، فنفخ فيها عن أمر الله نفخة حملت منها بولدها عيسى عليه السلام ، والذى اتصل بها من الملك هى الروح المضافة إلى الله إضافة تشريف وتكريم ، وهى مخلوقة من مخلوقات الله تعالى ، كما يقال بيت الله وناقة الله وعبد الله ، وكذا روح الله أضيفت إليه تشريفاً لها وتكريماً . وسمى عيسى بها ؛ لأنه كان بها من غير أب ، وهى الكلمة أيضاً التى عنها خلق و بسببها وجد ، كما قال تعالى : (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون[٢]) . وقال تعالى : (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل له مافى السموات والأرض كل له قانتون ☆ بديع السموات والأرض و إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون[٣]) . وقال تعالى : (وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ، ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ، قاتلهم الله أنى يؤفكون[٤]) . فأخبر تعالى أن اليهود والنصارى – عليهم لعائن الله – كل من الفريقين ادعوا على الله شططاً ، وزعموا أن له ولداً ، تعالى الله عما يقولون

---

(١) الآيات : ١٧١ – ١٧٣ من سورة النساء (٢) الآية : ٥٩ من سورة آل عمران
(٣) الآيتان : ١١٦ ، ١١٧ من سورة البقرة . (٤) الآية : ٣٠ من سورة التوبة .

علواً كبيراً . وأخبر أنهم ليس لهم مستند فيما زعموه ، ولا فيما ائتفكوه - إلا مجرد القول ، ومشابهة من سبقهم إلى هذه المقالة الضالة ؛ تشابهت قلوبهم . وذلك أن الفلاسفة عليهم لعنة الله زعموا أن العقل الأول صدر عن واجب الوجود ، الذى يعبرون عنه بعلة العلل والمبدأ الأول ، وأنه صدر عن العقل الأول عقل ثان ونفس وفلك ، ثم صدر عن الثانى كذلك ، حتى تناهت العقول إلى عشرة ، والنفوس إلى تسعة ، والأفلاك إلى تسعة ؛ باعتبارات فاسدة ذكروها ؛ واختبارات باردة أوردوها . ولبسط الكلام معهم و بيان جهلهم وقلة عقلهم موضع آخر .

وهكذا طوائف من مشركى العرب ، زعموا لجهلهم أن الملائكة بنات الله ؛ وأنه صاهر سروات[1] الجن فتولد منهما الملائكة تعالى الله عما يقولون وتنزه عما يشركون . كما قال تعالى : (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم ؟ ستكتب شهادتهم و يسألون[2]) وقال تعالى : (فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون * أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون * ألا إنهم من إفكهم ليقولون * ولد الله وإنهم لكاذبون * أصطفى البنات على البنين * مالكم كيف تحكمون * أفلا تذكرون * أم لكم سلطان مبين * فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين * وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ، ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون * سبحان الله عما يصفون * إلا عباد الله المخلصين[3]) . وقال تعالى : (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون * يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون * ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين[4]) . وقال تعالى فى سورة الكهف وهى مكية : (الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا * قيما لينذر بأساً شديداً من لدنه ؛ و يبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً * ماكثين فيه أبدا * و ينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ، مالهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا[5]) . وقال تعالى : (قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغنى له ما فى السموات وما فى الأرض إن عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون * قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون * متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون[6]) فهذه الآيات المكيات الكريمات تشمل الرد على سائر فرق الكفرة ؛ من الفلاسفة ومشركى العرب واليهود والنصارى ، الذين ادعوا وزعموا بلا علم - أن لله ولداً ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون المعتدون علواً كبيراً .

---

(١) أى شرفاءهم وعظماءهم - جمع سراة .
(٢) الآية : ١٩ من سورة الزخرف .
(٣) الآيات : ١٤٩ - ١٦٠ من سورة الصافات
(٤) الآيات : ٢٦ - ٢٩ من سورة الأنبياء .
(٥) الآيات : ١ - ٥
(٦) الآيات : ٦٨ - ٧٠ من سورة يونس .

ولما كانت النصارى ـ عليهم لعنة الله المتتابعة إلى يوم القيامة ـ من أشهر من قال بهـذه المقالة ، ذكروا فى القرآن كثيراً للرد عليهم ، و بيان تناقضهم وقلة علمهم وكثرة جهلهم . وقد تنوعت أقوالهم فى كفرهم . وذلك أن الباطل كثير التشعب والاختلاف والتناقض ، وأما الحق فلا يختلف ولا يضطرب . قال الله تعالى : (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً[1]) . فدل على أن الحق يتحد ويتفق ، والباطل يختلف و يضطرب . فطائفة من ضلالهم وجهالهم : زعموا أن المسيح هو الله تعالى ، وطائفة قالوا : هو ابن الله عز وجل ، وطائفة قالوا : هو ثالث ثلاثة جل الله . قال الله تعالى فى سورة المائدة : (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم ، قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً ؟ ولله ملك السموات والأرض ومابينهما يخلق مايشاء والله على كل شىء قدير[2]) . فأخبر تعالى عن كفرهم وجهلهم ، و بين أنه القادر على كل شىء ، المتصرف فى كل شىء ، وأنه رب كل شىء ومليكه وإلهه . وقال فى أواخرها : (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم ، وقال المسيح يابنى إسرائيل اعبدوا الله ربى ور بكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار * لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إلّه إلا إلّه واحد ، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم * أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم * ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام ، انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون[3]) . حكم تعالى بكفرهم شرعاً وقدراً ، فأخبر أن هذا صدر منهم مع أن الرسول إليهم ـ وهو عيسى بن مريم ـ قد بين لهم أنه عبد مربوب مخلوق مصور فى الرحم ، داع إلى عبادة الله وحده لاشريك له . وتوعدهم على خلاف ذلك بالنار وعدم الفوز بدار القرار ، والخزى فى الدار الآخرة والهوان والعار . ولهذا قال : (إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار) ثم قال : (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إلّه إلا إلّه واحد) . قال ابن جرير وغيره : المراد بذلك قولهم بالأقانيم الثلاثة : أقنوم الأب ، وأقنوم الابن ، وأقنوم الكلمة المنبثقة من الأب إلى الابن ، على اختلافهم فى ذلك مابين المليكية واليعقوبية والنسطورية ، عليهم لعائن الله . كما سنبين كيفية اختلافهم فى ذلك ومجامعهم الثلاثة فى زمن قسطنطين بن قسطس ، وذلك بعد المسيح بثلاثمائة سنة ، وقبل البعثة المحمدية بثلاثمائة سنة ، ولهذا قال الله تعالى : (ومامن إلّه إلا إلّه واحد) أي ومامن إلّه إلا الله وحده لاشريك له ، ولانظير له ولا كفء له ، ولا صاحبة له ولا ولد . ثم توعدهم وتهددهم فقال : (وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم) . ثم دعاهم برحمته ولطفه إلى التوبة

---

(١) الآية : ٨٢ من سورة النساء . (٢) الآية : ١٧ (٣) الآيات : ٧٢ ـ ٧٥

والاستغفار من هذه الأمور الكبار ، والعظائم التى توجب النار فقال : (أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم) .

ثم بين حال المسيح وأمه ، وأنه عبد رسول : (وأمه صديقة) أى ليست بفاجرة كما يقوله اليهود لعنهم الله . وفيه دليل على أنها ليست بنبية كما زعمته طائفة من علمائنا . وقوله : (كانا يأكلان الطعام) كناية عن خروجه منهما كما يخرج من غيرهما ، أى ومن كان بهذه المثابة كيف يكون إلهاً ؟ تعالى الله عن قولهم وجهلهم علواً كبيرا . وقال السدى وغيره : المراد بقوله : (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة) ـ زعمهم فى عيسى وأمه أنهما الإلهان مع الله . يعنى كما بين تعالى كفرهم فى ذلك بقوله فى آخر هذه السورة الكريمة : (وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال سبحانك مايكون لى أن أقول ماليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم مافى نفسى ولا أعلم مافى نفسك إنك أنت علام الغيوب * ماقلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم ، وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم ، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد * إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم[1]) . يخبر تعالى أنه يسأل عيسى ابن مريم يوم القيامة ـ على سبيل الإكرام له ، والتقريع والتوبيخ لعابديه ممن كذب عليه ، وافترى وزعم أنه ابن الله ، أو أنه الله ، أو أنه شريكه ـ تعالى الله عما يقولون ، فيسأله وهو يعلم أنه لم يقع منه مايسأله عنه ، ولكن لتوبيخ من كذب عليه ، فيقول له : (أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال سبحانك) أى تعاليت أن يكون معك شريك : (مايكون لى أن أقول ماليس لى بحق) أى ليس هذا يستحقه أحد سواك ، (إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم مافى نفسى ولا أعلم مافى نفسك : إنك أنت علام الغيوب) . وهذا تأدب عظيم فى الخطاب والجواب . (ماقلت لهم إلا ماأمرتنى به) حين أرسلتنى إليهم وأنزلت علىّ الكتاب الذى كان يتلى عليهم . ثم فسر ماقال لهم بقوله : (أن اعبدوا الله ربى وربكم) أى خالقى وخالقكم ورازقى ورازقكم . (وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم فلما توفيتنى) أى رفعتنى إليك حين أرادوا قتلى وصلبى ، فرحمتنى وخلصتنى منهم وألقيت شبهى على أحدهم حتى انتقموا منه ـ فلما كان ذلك : (كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد) . ثم قال على وجه التفويض إلى الرب عز وجل ، والتبرى من أهل النصرانية : (إن تعذبهم فإنهم عبادك) أى وهم يستحقون ذلك ، (وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) . وهذا التفويض والإسناد إلى المشيئة بالشرط ـ لايقتضى وقوع ذلك . ولهذا قال : (فإنك أنت العزيز الحكيم) ـ ولم يقل الغفور الرحيم .

---

(١) الآيات : ١١٦ ـ ١١٨

وقد ذكرنا فى التفسير مارواه الإمام أحمد عن أبى ذر أن رسول الله ﷺ قام بهذه الآية الكريمة ليلة حتى أصبح[1] (إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) وقال : « إنى سألت ربى عز وجل الشفاعة لأمتى فأعطانيها ، وهى نائلة إن شاء الله تعالى لمن لا يشرك بالله شيئاً » . وقال : (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين ✽ لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين ✽ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون ✽ وله من فى السموات والأرض ومن عنده لايستكبرون عن عبادته ولايستحسرون ✽ يسبحون الليل والنهار لايفترون[2]) وقال تعالى : (لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق مايشاء ، سبحانه هو الله الواحد القهار ✽ خلق السموات والأرض بالحق ، يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ، وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار[3]) . وقال تعالى : (قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين ✽ سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون[4]) وقال تعالى : (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ، ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيرا[5]) . وقال تعالى : (قل هو الله أحد ✽ الله الصمد ✽ لم يلد ولم يولد ✽ ولم يكن له كفواً أحد) وثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يقول الله تعالى : شتمنى ابن آدم ولم يكن له ذلك ؛ يزعم أن لى ولداً وأنا الأحد الصمد ، الذى لم ألد ، ولم أولد ولم يكن لى كفواً أحد » .

وفى الصحيح أيضاً عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله ؛ إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم » . ولكن ثبت فى الصحيح أيضاً عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ : (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد[6]) وكذا قوله تعالى : (وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلىّ المصير)[7] وقال تعالى : (نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ[8]) وقال تعالى : (قل إن الذين يفترون على الله الكذب لايفلحون ✽ متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون[9]) وقال تعالى : (فمهل الكافرين أمهلهم رويدا[10]) .

---

(١) يعنى أنه عليه السلام صلى ذات ليلة فقرأ هذه الآية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها .
(٢) الآيات : ١٦ — ٢٠ من سورة الأنبياء . (٣) الآيتان : ٤ ، ٥ من سورة الزمر .
(٤) الآيتان : ٨١ ، ٨٢ من سورة الزخرف . (٥) آخر سورة الإسراء .
(٦) الآية : ١٠٢ من سورة هود . (٧) الآية : ٤٧ من سورة الحج . (٨) الآية : ٢٤ من سورة لقمان .
(٩) الآيتان : ٦٩ ، ٧٠ من سورة يونس . (١٠) آخر سورة الطارق .

ذكر منشأ عيسى بن مريم عليهما السلام

ومرباه فى صغره وصباه ، وبيان بدء الوحى إليه من الله تعالى

قد تقدم أنه ولد ببيت لحم قريباً من بيت المقدس ، وزعم وهب بن منبه أنه ولد بمصر ، وأن مريم سافرت هى ويوسف بن يعقوب النجار ، وهى راكبة على حمار ليس بينهما وبين الإكاف[1] شىء ، وهذا لايصح؛ والحديث الذى تقدم ذكره دليل على أن مولده كان ببيت لحم كما ذكرنا ، ومهما عارضه فباطل .

وذكر وهب بن منبه : أنه لما ولد خرت الأصنام يومئذ فى مشارق الأرض ومغاربها ، وأن الشياطين حارت فى سبب ذلك ، حتى كشف لهم إبليس الكبير أمر عيسى ، فوجدوه فى حجر أمه والملائكة محدقة به ، وأنه ظهر نجم عظيم فى السماء ، وأن ملك الفرس أشفق من ظهوره ؛ فسأل الكهنة عن ذلك ، فقالوا : هذا لمولد عظيم فى الأرض . فبعث رسله ومعهم ذهب ومر ولبان هدية إلى عيسى ، فلما قدموا الشام سألهم ملكها عما أقدمهم فذكروا له ذلك ، فسأل عن ذلك الوقت فإذا قد ولد فيه عيسى بن مريم ببيت المقدس واشتهر أمره بسبب كلامه فى المهد ، فأرسلهم إليه بما معهم ، وأرسل معهم من يعرفه لهم ليتوصل إلى قتله إذا انصرفوا عنه . فلما وصلوا إلى مريم بالهدايا ورجعوا — قيل لها إن رسل ملك الشام إنما جاءوا ليقتلوا ولدك ، فاحتملته فذهبت به إلى مصر ، فأقامت به حتى بلغ عمره اثنتى عشرة سنة ، وظهرت عليه كرامات ومعجزات فى حال صغره .

فذكر منها : أن الدهقان[2] الذى نزلوا عنده افتقد مالا من داره ، وكانت داره لايسكنها إلا الفقراء والضعفاء والمحاويج ؛ فلم يدر من أخذ ، وعز على مريم عليها السلام ، وشق على الناس وعلى رب المنزل وأعياهم أمرها ، فلما رأى عيسى عليه السلام ذلك ، عمد إلى رجل أعمى وآخر مقعد من جملة من هو منقطع إليه ، فقال للأعمى : احمل هذا المقعد وانهض به ؛ فقال إنى لاأستطيع ذلك ، فقال : بلى — كما فعلت أنت وهو ، حين أخذتما هذا المال من تلك الكوة من الدار ، فلما قال ذلك صدقاه فيما قال وأتيا بالمال ؛ فعظم عيسى فى أعين الناس وهو صغير جداً .

ومن ذلك : أن ابن الدهقان عمل ضيافة للناس بسبب طهور أولاده ، فلما اجتمع الناس وأطعمهم ، ثم أراد أن يسقيهم شراباً — يعنى خمراً — كما كانوا يصنعون فى ذلك الزمان ، لم يجد فى جراره شيئاً ، فشق ذلك عليه . فلما رأى عيسى ذلك منه ، قام فجعل يمر على تلك الجرار ويمر يده على أفواهها ، فلا يفعل بجرة منها ذلك إلا امتلأت شراباً من خيار الشراب ، فتعجب الناس من ذلك جداً وعظموه ، وعرضوا عليه وعلى أمه مالا جزيلا فلم يقبلاه ، وارتحلا قاصدين بيت المقدس ، والله أعلم .

---

(١) الإكاف ككتاب وغراب : برذعة الحمار .

(٢) الدهقان بالكسر والضم : التاجر ، وزعيم فلاحى العجم ، ورئيس الإقليم .

وقال إسحق بن بشر : أنبأنا عثمان بن ساج وغيره عن موسى بن وردان ، عن أبى نضرة عن أبى سعيد وعن مكحول عن أبى هريرة قال : إن عيسى بن مريم أول ماأطلق الله لسانه بعد الكلام الذى تكلم به وهو طفل ـ مجد الله تمجيداً لم تسمع الآذان بمثله ؛ لم يدع شمساً ولا قمراً ولا جبلا ولا نهراً ولاعيناً ـ إلا ذكره فى تمجيده ، فقال : « اللهم أنت القريب فى علوك ، المتعالى فى دنوك ، الرفيع على كل شيء من خلقك ، أنت الذى خلقت سبعاً فى الهواء بكلماتك مستويات طباقاً ، أجبن وهن دخان من فرقك ، فأتين طائعات لأمرك ؛ فيهن ملائكتك يسبحون قدسك لتقديسك ، وجعلت فيهن نوراً على سواد الظلام ، وضياء من ضوء الشمس بالنهار ، وجعلت فيهن الرعد المسبح بالحمد ، فبعزتك يجلو ضوء ظلمتك ، وجعلت فيهن مصابيح يهتدى بهن فى الظلمات الحيران ، فتباركت اللهم فى مفطور سمواتك ، وفيما دحوت من أرضك ، دحوتها على الماء فسكنتها على تيار الموج الغامر ، فأذللتها إذلال التظاهر ، فذل لطاعتك صعبها ، واستحيا لأمرك أمرها ، وخضعت لعزتك أمواجها ، ففجرت فيها بعد البحور الأنهار ، ومن بعد الأنهار الجداول الصغار ، ومن بعد الجداول ينابيع العيون الغزار ، ثم أخرجت منها الأنهار والأشجار والثمار ، ثم جعلت على ظهرها الجبال ، فوتدتها أوتاداً على ظهر الماء ، فأطاعت أطوادها وجلمودها . فتباركت اللهم ! فمن يبلغ بنعته نعتك ؟ أمن يبلغ بصفته صفتك ؟ تنشر السحاب وتفك الرقاب ، وتقضى الحق وأنت خير الفاصلين . لا إله إلا أنت سبحانك ؛ أمرت أن نستغفرك من كل ذنب . لا إله إلا أنت سبحانك ؛ سترت السموات عن الناس . لا إله إلا أنت سبحانك ؛ إنما يخشاك من عبادك الأكياس . نشهد أنك لست بإله استحدثناك ، ولا رب يبيد ذكره ، ولا كان معك شركاء فندعوهم ونذكرك ، ولا أعاننا على خلقنا أحد فنشك فيك . نشهد أنك أحد صمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد .

وقال إسحق بن بشر عن جويبر ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس : إن عيسى بن مريم أمسك عن الكلام بعد أن كلمهم طفلا — حتى بلغ مايبلغ الغلمان ، ثم أنطقه الله بعد ذلك الحكمة والبيان ، فأكثر اليهود فيه وفى أمه من القول ، وكانوا يسمونه ابن البغية ، وذلك قوله تعالى : (وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً[1]) قال فلما بلغ سبع سنين أسلمته أمه فى الكتاب ، فجعل لايعلمه المعلم شيئاً إلا بدره إليه ، فعلمه : أ با جا . فقال عيسى : ما أبا جا ؟ فقال المعلم : لاأدرى ، فقال عيسى : كيف تعلمنى مالاتدرى ؟ فقال المعلم : إذاً فعلمنى ، فقال له عيسى فقم من مجلسك ، فقام فجلس عيسى مجلسه فقال سلنى ، فقال المعلم : ما أ با جا ؟ فقال عيسى : الألف ـ آلاء الله ، والباء ـ بهاء الله ، والجيم ـ بهجة الله وجماله . فعجب المعلم من ذلك . فكان أول من فسر أ با جا .

ثم ذكر : أن عثمان سأل رسول الله ﷺ عن ذلك ، فأجابه على كل كلمة بحديث طويل موضوع

(١) الآية ١٥٦ من سورة النساء .

لايسأل ولايتمادى . وهكذا روى ابن عدى من حديث إسماعيل بن عياش عن إسمعيل بن يحيى عن ابن أبى مايكة عمن حدثه عن ابن مسعود ، وعن مسعد بن كدام عن عطية عن أبى سعيد ، رفع الحديث فى دخول عيسى إلى الكتاب ، وتعليمه المعلم معنى حروف : أبا جا ، وهو مطول لايفرح به .

ثم قال ابن عدى : وهذا الحديث باطل بهذا الإسناد لا يرويه غير إسمعيل . وروى ابن لهيعة عن عبد الله بن هبيرة قال : كان عبد الله بن عمر يقول : كان عيسى بن مريم وهو غلام يلعب مع الصبيان ؛ فكان يقول لأحدهم : أتريد أن أخبرك ماخبأت لك أمك ؟ فيقول : نعم ، فيقول خبأت لك كذا وكذا ؛ فيذهب الغلام منهم إلى أمه فيقول لها أطعميني ماخبأت لى ، فتقول وأى شىء خبأت لك ؟ فيقول : كذا وكذا ، فتقول له : من أخبرك ؟ فيقول : عيسى بن مريم . فقالوا : والله لئن تركتم هؤلاء الصبيان مع ابن مريم ليفسدنهم ؛ فجمعوهم فى بيت وأغلقوا عليهم ، فخرج عيسى يلتمسهم فلم يجدهم ، فسمع ضوضاءهم فى بيت فسأل عنهم ، فقالوا إنما هؤلاء قردة وخنازير، فقال : اللهم كذلك فكانوا كذلك ، رواه ابن عساكر .

وقال إسحق بن بشر عن جويبر ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس قال : وكان عيسى يرى العجائب فى صباه إلهاماً من الله ؛ ففشا ذلك فى اليهود ، وترعرع عيسى فتهممته[1] بنو إسرائيل ، فخافت أمه عليه ، فأوحى الله إلى أمه أن تنطلق به إلى أرض مصر فذلك قوله تعالى : (وجعلنا ابن مريم وأمه آية ، وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين[2]) .

وقد اختلف السلف والمفسرون فى المراد بهذه الربوة التى ذكر الله من صفتها : أنها ذات قرار ومعين ، وهذه صفة غريبة الشكل ؛ وهى أنها رَبْوة وهو المكان المرتفع من الأرض ، الذى أعلاه مستو يقر عليه ، وارتفاعه متسع ؛ ومع علوه فيه عيون الماء ، مَعِين — وهو الجارى السارح على وجه الأرض . فقيل : المراد المكان الذى ولدت فيه المسيح — وهو نخلة بيت المقدس . ولهذا : (ناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا) وهو النهر الصغير فى قول جمهور السلف . وعن ابن عباس بإسناد جيد : أنها أنهار دمشق ، فلعله أراد تشبيه ذلك المكان بأنهار دمشق وقيل ذلك بمصر كما زعمه من زعمه من أهل الكتاب ومن تلقاه عنهم ، والله أعلم . وقيل هى الرملة من فلسطين . وقال إسحق بن بشر : قال لنا إدريس عن جده وهب بن منبه قال : إن عيسى لما بلغ ثلاث عشرة سنة ، أمر الله أن يرجع من بلاد مصر إلى بيت إيليا ، قال فقدم عليه يوسف ابن خال أمه ، فحملهما على حمار حتى جاء بهما إلى إيليا ، وأقام بها حتى أحدث الله له الإنجيل ، وعلمه التوراة وأعطاه إحياء الموتى وإبراء الأسقام والعلم بالغيوب ؛ مما يدخرون فى بيوتهم ، وتحدث الناس بقدومه وفزعوا لما كان يأتى من العجائب ؛ فجعلوا يعجبون منه ، فدعاهم إلى الله ففشا فيهم أمره .

(١) أى طلبته وتحسسته (٢) الآية : ٥٠ من سورة المؤمنون .

بيان نزول الكتب الأربعة ومواقيتها

قال أبو زرعة الدمشقي : حدثنا عبد الله بن صالح ، حدثني معاوية بن صالح عمن حدثه قال : أنزلت التوراة على موسى فى ست ليال خلون من شهر رمضان ، وأنزل الزبور على داود فى اثنتى عشرة ليلة خلت من شهر رمضان ، وذلك بعد التوراة بأربعمائة سنة واثنتين وثمانين سنة . وأنزل الإنجيل على عيسى ابن مريم فى ثمانى عشرة ليلة خلت من رمضان ، بعد الزبور بألف عام وخمسين عاما . وأنزل الفرقان على محمد ﷺ فى أربع وعشرين من شهر رمضان[1] ، وقد ذكرنا فى التفسير عند قوله : (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن) ـ الأحاديث الواردة فى ذلك ؛ وفيها : أن الإنجيل أنزل على عيسى بن مريم عليه السلام فى ثمان عشرة ليلة خلت من شهر رمضان .

وذكر ابن جرير فى تاريخه : أنه أنزل عليه وهو ابن ثلاثين سنة ، ومكث حتى رفع إلى السماء وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ؛ كما سيأتى بيانه إن شاء الله تعالى . وقال إسحاق بن بشر : أنبأنا سعيد بن أبى عروبة عن قتادة ومقاتل عن قتادة عن عبد الرحمن بن آدم عن أبى هريرة قال : أوحى الله عز وجل إلى عيسى بن مريم : ياعيسى جدّ فى أمرى ولا تهن واسمع وأطع ، ياابن الطاهرة البكر البتول إنك من غير فحل ، وأنا خلقتك آية للعالمين ، إياى فاعبد وعلىّ فتوكل . خذ الكتاب بقوة ، فسر لأهل السريانية ، بلغ من بين يديك أنى أنا الحق الحى القائم ، الذى لا أزول . صدقوا النبى الأمى العربى صاحب الجمل والتاج ـ وهى العمامة ـ والمدرعة والنعلين ، والهراوة ـ وهى القضيب ـ الأنجل العينين ، الصلت الجبين ، الواضح الخدين الجعد الرأس ، الكث اللحية المقرون الحاجبين ، الأقنى الأنف المفلج الثنايا ، البادى العنفقة ، الذى كأن عنقه إبريق فضة ، وكأن الذهب يجرى فى تراقيه له شعرات من لبته إلى سرته ، تجرى كالقضيب ليس على بطنه ولا على صدره شعر غيره ، شثن[2] الكف والقدم ، إذا التفت التفت جميعاً ، وإذا مشى كأنما يتقلع من صخر وينحدر من صبب ، عرقه فى وجهه كاللؤلؤ ، وريح المسك تنفح منه ، ولم ير قبله ولا بعده مثله . الحسن القامة الطيب الريح ، نكاح النساء ، ذا النسل القليل ، إنما نسله من مباركة لها بيت ـ يعنى فى الجنة ـ من قصب ، لا نصب فيه ولا صخب ، تكفله ياعيسى فى آخر الزمان كما كفل زكريا أمك . له منها فرخان يستشهدان ، وله عندى منزلة ليست لأحد من البشر . كلامه القرآن ودينه الإسلام وأنا السلام . طوبى لمن أدرك زمانه ، وشهد أيامه ، وسمع كلامه .

---

(١) الوارد : أنه أنزل فى ليلة القدر ، وهى على المشهور — ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان .

(٢) شثنت كفه كفرح وكرم : خشنت وغلظت .

بيان شجرة طوبى ، ماهى ؟

قال عيسى : يارب وماطوبى ؟ قال : « غرس شجرة أنا غرستها بيدى ، فهى للجنان كلها ، أصلها من رضوان وماؤها من تسنيم ، وبردها برد الكافور ، وطعمها طعم الزنجبيل ، وريحها ريح المسك ، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً » . قال عيسى : يارب اسقنى منها ، قال : « حرام على النبيين أن يشربوا منها حتى يشرب ذلك النبى ، وحرام على الأمم أن يشربوا منها حتى تشرب منها أمـة ذلك النبى » ، قال : « ياعيسى أرفعك إلىّ ؟ » قال : رب ولم ترفعنى ؟ قال : « أرفعك ثم أهبطك فى آخر الزمان ، لترى من أمة ذلك النبى العجائب ، ولتعينهم على قتال اللعين الدجال . أهبطك فى وقت صلاة ثم لاتصلى بهم ؛ لأنها مرحومة ولا نبى بعد نبيهم » . وقال هشام بن عمار عن الوليد بن مسلم عن عبد الرحمن بن زيد عن أبيه : إن عيسى قال : يارب أنبئنى عن هذه الأمة المرحومة ، قال : « أمة أحمد ، هم علماء حكماء كأنهم أنبياء ؛ يرضون منى بالقليل من العطاء ، وأرضى منهم باليسير من العمل ، وأدخلهم الجنة بلا إله إلا الله . ياعيسى هم أكثر سكان الجنة ؛ لأنه لم تذل ألسن قوم قط بلا إله إلا الله كما ذلت ألسنتهم ، ولم تذل رقاب قوم قط بالسجود كما ذلت به رقابهم » . رواه ابن عساكر .

وروى ابن عساكر من طريق عبد الله بن بديل العقيلى عن عبد الله بن عوسجة قال : أوحى الله إلى عيسى ابن مريم : « أنزلنى من نفسك كهمك ، واجعلنى ذخراً لك فى معادك ، وتقرب إلى بالنوافل أحبك ، ولا تول غيرى فأخذلك . اصبر على البلاء وارض بالقضاء ، وكن لمسرتى فيك ؛ فإن مسرتى أن أطاع فلا أعصى . وكن منى قريباً وأحى ذكرى بلسانك ، ولتكن مودتى فى صدرك . تيقظ من ساعات الغفلة ، واحكم فى لطيف الفطنة ، وكن لى راغباً راهباً ، وأمت قلبك فى الخشية لى ، وراع الليل لحق مسرتى ، وأظم نهارك ليوم الرى عندى . نافس فى الخيرات جهدك ، واعترف بالخير حيث توجهت ، وقم فى الخلائق بنصيحتى ، واحكم فى عبادى بعدلى ؛ فقد أنزلت عليك شفاء وسواس الصدور من مرض النسيان ، وجلاء الأبصار من غشاء الكلال . ولاتكن حِلْساً[1] كأنك مقبوض وأنت حى تنفس .

ياعيسى بن مريم ! ما آمنت بى خليقة إلا خشعت ، ولا خشعت لى إلا رجت ثوابى ، فأشهدك أنها آمنة من عقابى ، مالم تغير أو تبدل سنتى . ياعيسى ابن مريم البكر البتول ! ابك على نفسك أيام الحيـاة بكاء من ودع الأهل وقلا الدنيا وترك اللذات لأهلها ، وارتفعت رغبته فيما عند إلهه ، وكن فى ذلك تلين الـكلام وتفشى السلام ، وكن يقظان إذا نامت عيون الأبرار . حذار ماهو آت من أمر المعاد ، وزلازل شدايد الأهوال ، قبل ألا ينفع أهل ولا مال . وأكحل عينك بملمول[2] الحزن إذا ضحك البطالون[3]

---

(١) يقال هو حلس بيته : إذا لم يبرح مـكانه .

(٢) الملمول : المـكحال يكتحل به .

(٣) الذين يروجون الباطل والهزل .

كون فى ذلك صابراً محتسباً ، وطوبى لك إن ذلك ماوعدت الصابرين . رج من الدنيا بالله يوماً بيوم ، وذق مذاقة ماقد حرب[1] منك أين طعمه ؟ ومالم يأتك كيف لذته ؟ فرح من الدنيا بالبلغة[2] ، وليكفك منها الخشن الخبيب[3]، قد رأيت إلى مايصير . اعمل على حساب فإنك مسئول ، لو رأت عيناك ماأعددت لأوليائى الصالحين ـ ذاب قلبك وزهقت نفسك » .

وقال أبو داود فى كتاب القدر : حدثنا محمد بن يحيى بن فارس ، حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر عن الزهرى عن ابن طاووس عن أبيه قال : لقى عيسى بن مريم إبليس فقال : أما علمت أنه لن يصيبك إلا ما كتب لك ؟ قال إبليس : فارق بذروة هذا الجبل فتردى منه ، فانظر هل تعيش أم لا ؟ فقال ابن طاووس عن أبيه . فقال عيسى : أما علمت أن الله قال : « لايجربنى عبدى فإنى أفعل ماشئت ؟ » .

وقال الزهرى : إن العبد لايبتلى ربه ، ولـكن الله يبتلى عبده . قال أبو داود : حدثنا أحمد بن عبده ، أنبأنا سفيان عن عمرو عن طاووس قال : أتى الشيطان عيسى بن مريم فقال : أليس تزعم أنك صادق ؟ فأت هوة فألق نفسك . قال : ويلك ، أليس قال : « يا ابن آدم لا تسألنى هلاك نفسك فإنى أفعل ما أشاء» . وحدثنا أبو توبة الربيع بن نافع ، حدثنا حسين بن طلحة ، سمعت خالد بن يزيد قال : تعبد الشيطان مع عيسى عشر سنين أو سنتين ، فقام يوماً على شفير جبل ، فقال الشيطان : أرأيت إن ألقيت نفسى هل يصيبنى إلا ما كتب لى ؟ قال : إنى لست بالذى أبتلى ربى ، ولـكن ربى إذا شاء ابتـلانى ، وعرفه أنه الشيطان ففارقه .

وقال أبو بكر بن أبى الدنيا : حدثنا شريح بن يونس ، حدثنا على بن ثابت عن الخطاب بن القاسم عن أبى عثمان قال : كان عيسى عليه السلام يصلى على رأس جبل ، فأتاه إبليس فقال : أنت الذى تزعم أن كل شيء بقضاء وقدر ، قال : نعم . قال ألق نفسك من هذا الجبل وقل قدر على . فقال : يالعين الله يختبر العباد ، وليس العباد يختبرون الله عز وجل . وقال أبو بكر بن أبى الدنيـا : حـدثنا الفضل ابن موسى البصرى ، حدثنا إبراهيم بن بشار ، سمعت سفيان بن عيينة يقول : لقى عيسى بن مريم إبليس ، فقال له إبليس : ياعيسى بن مريم ! الذى بلغ من عظم ربوبيتك أنك تكلمت فى المهد صبياً ، ولم يتـكلم فيه أحد قبلك . قال : بل الربوبية للإله الذى أنطقنى ثم يميتنى ثم يحيينى . قال : فأنت الذى بلغ من عظم ربوبيتك أنك تحيي الموتى . قال : بل الربوبية لله الذى يحيي ويميت من أحييت ثم يحييه . قال :

---

(١) أى سلب وأخذ (٢) البلغة : مايتبلغ به من العيش .
(٣) اليابس والغليظ : الخشن من كل شيء .

والله إنك لإله فى السماء وإله فى الأرض . قال : فصكه جبريل صكة بجناحيه ، فما نباها دون قرون الشمس ، ثم صكه أخرى بجناحيه ، فما نباها دون العين الحامية ، ثم صكه أخرى فأدخله بحار السابعة فأساخه . وفى رواية ـ فأسلكه فيها حتى وجد طعم الحمأة ، فخرج منها وهو يقول : مالقى أحد من أحد مالقيت منك يا ابن مريم .

وقد روى نحو هذا بأبسط منه من وجه آخر ، فقال الحافظ أبو بكر الخطيب : أخبرنى أبو الحسن ابن رزقويه ، أنبأنا أبو بكر أحمد بن سبدى ، حدثنا أبو محمد الحسن بن على القطان ، حدثنا إسماعيل ابن عيسى العطار ، أنبأنا على بن عاصم ، حدثنى أبو سلمة سويد عن بعض أصحابه قال : صلى عيسى ببيت المقدس فانصرف ، فلما كان ببعض العقبة عرض له إبليس فاحتبسه ، فجعل يعرض عليه ويكلمه و يقول له : إنه لاينبغى لك أن تكون عبداً ، فأكثر عليه وجعل عيسى يحرص على أن يتخلص منه ، فجعل لايتخلص منه ، فقال له فيما يقول : لاينبغى لك ياعيسى أن تكون عبداً ، قال فاستغاث عيسى بربه ، فأقبل جبريل وميكائيل ، فلما رآهما إبليس كف ، فلما استقر معه على العقبة اكتنفا عيسى ، وضرب جبريل إبليس بجناحه فقذفه فى بطن الوادى ، قال : فعاد إبليس معه ، وعلم أنهما لم يؤمرا بغير ذلك . فقال لعيسى : قد أخبرتك أنه لاينبغى أن تكون عبداً ؛ إن غضبك ليس بغضب عبد ، وقد رأيت مالقيت منك حين غضبت ، ولكن أدعوك لأمر هو لك ؛ آمر الشياطين فليطيعوك ، فإذا رأى البشر أن الشياطين أطاعوك ـ عبدوك . أما إنى لاأقول أن تكون إلهاً ليس معه إله ، ولكن الله يكون إلهاً فى السماء وتكون أنت إلهاً فى الأرض . فلما سمع عيسى ذلك منه ـ استغاث بربه ، وصرخ صرخة شديدة ، فإذا إسرافيل قد هبط ، فنظر إليه جبريل وميكائيل فكف إبليس . فلما استقر معهم ضرب إسرافيل إبليس بجناحه فصك به عين الشمس ، ثم ضربه ضربة أخرى فأقبل إبليس يهوى ، ومر عيسى وهو بمكانه ، فقال : ياعيسى لقد لقيت فيك اليوم تعباً شديداً ، فرمى به فى عين الشمس فوجد سبعة أملاك عند العين الحامية ، قال : فغطوه ، فجعل كلما صرخ غطوه فى تلك الحمأة ، قال والله ماعاد إليه بعد . قال : وحدثنا إسماعيل العطار ، حدثنا أبو حذيفة قال : واجتمع إليه شياطينه فقالوا : سيدنا قد لقيت تعباً ، قال إن هذا عبد معصوم ليس لى عليه من سبيل ، وسأضل به بشراً كثيراً ، وأبث فيهم أهواء مختلفة ، وأجعلهم شيعاً ، و يجعلونه وأمه إلهين من دون الله ، قال : وأنزل الله فيما أيد به عيسى وعصمه من إبليس ـ قرآناً ناطقاً يذكر نعمته على عيسى فقال : ﴿ ياعيسى بن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس ﴾ يعنى إذ قويتك بروح القدس ـ يعنى جبريل ﴿ تكلم الناس فى المهد وكهلا ، و إذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ، و إذ تخلق من الطين كهيئة الطير[1] ... الآية ﴾ ، و إذ جعلت المساكين لك بطانة

---

(١) الآية : ١١٠ من سورة المائدة .

وصحابة وأعواناً ترضى بهم ، وصحابة وأعواناً يرضون بك هادياً وقائداً إلى الجنة ، فذلك — فاعلم — خلقان عظيمان ، من لقيني بهما فقد لقيني بأزكى الخلائق وأرضاها عندى . وسيقول لك بنو إسرائيل : صمنا فلم يقبل صيامنا ، وصلينا فلم يقبل صلاتنا ، وتصدقنا فلم يقبل صدقاتنا ، وبكينا بمثل حنين الجمال فلم يرحم بكاءنا . فقال لهم : ولم ذلك ؟ وما الذى يمنعنى إن زلت يدى ؟ قلت أو ليست خزائن السموات والأرض بيدى أنفق منها كيف أشاء ؟ و إن البخل لايعتريني . أو لست أجود من سأل وأوسع من أعطى ؟ أو إن رحمتى ضاقت ؟ و إنما يتراحم المتراحمون بفضل رحمتى . ولو أن هؤلاء القوم ياعيسى بن مريم غذوا أنفسهم بالحكمة التى تورث فى قلوبهم ماستأثروا به الدنيا أثره على الآخرة ، ولعرفوا من أين أوتوا . و إذاً لأيقنوا أن أنفسهم هى أعدى الأعداء لهم . وكيف أقبل صيامهم وهم يتقوون عليه بالأطعمة الحرام ؟ وكيف أقبل صلاتهم وقلوبهم تركن إلى الذين يحاربوني و يستحلون محارمى ؟ وكيف أقبل صدقاتهم وهم يغصبون الناس عليها فيأخذونها من غير حلها ؟ ياعيسى إنما أجزى عليها أهلها . وكيف أرحم بكاءهم وأيديهم تقطر من دماء الأنبياء ؟ ازددت عليهم غضباً .

ياعيسى : وقضيت يوم خلقت السموات والأرض : أنه من عبدنى وقال فيكما بقولى — أن أجعلهم جيرانك فى الدار ، ورفقاءك فى المنازل وشركاءك فى الكرامة . وقضيت يوم خلقت السموات والأرض : أنه من اتخذك وأمك إلهين من دون الله ، أن أجعلهم فى الدرك الأسفل من النار . وقضيت يوم خلقت السموات والأرض : أنى مثبت هذا الأمر على يدى عبدى محمد ، وأختم به الأنبياء والرسل ، ومولده بمكة ، ومهاجرته بطيبة ، وملكه بالشام . ليس بفظ ولا غليظ ، ولا سخاب[1] فى الأسواق ، ولا بزر بالفحش ولا قوال بالخنا . أسدده لكل أمر جميل ، وأهب له كل خلق كريم ، وأجعل التقوى ضميره والحكم معقوله ، والوفاء طبيعته والعدل سيرته ، والحق شريعته والإسلام ملته . اسمه أحمد أهدى به بعد الضلالة ، وأعلم به بعد الجهالة ، وأغنى به بعد العائلة ، وأرفع به بعد الضعة . أهدى به وأفتح به بين آذان صم ، وقلوب غلف ، وأهواء مختلفة متفرقة . أجعل أمته خير أمة أخرجت للناس ، يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر ؛ إخلاصاً لاسمى ، وتصديقاً لما جاءت به الرسل . ألهمهم التسبيح والتقديس والتهليل فى مساجدهم ومجالسهم و بيوتهم ومنقلبهم ومثواهم ، يصلون لى قياماً وقعوداً ، وركعاً وسجوداً ، و يقاتلون فى سبيلى صفوفاً وزحوفاً ، قرباتهم دماؤهم ، وأناجيلهم فى صدورهم ، وقربانهم فى بطونهم . رهبان بالليل ، ليوث فى النهار ؛ ذلك فضلى أوتيه من أشاء وأنا ذو الفضل العظيم .

وسنذكر مايصدق كثيراً من هذا السياق ، مما سنورده من سورتى المائدة والصف إن شاء الله و به الثقة .

---

(١) السخب : الصخب ، وهو شدة الصوت .

وقد روى أبو حذيفة إسحق بن بشر بأسانيده ، عن كعب الأحبار ووهب بن منبه وابن عباس وسلمان الفارسى — دخل حديث بعضهم فى بعض ، قالوا : لما بعث عيسى بن مريم وجاءهم بالبينات ، جعل المنافقون والكافرون من بنى إسرائيل يعجبون منه و يستهزئون به ، فيقولون : ما أكل فلان البارحة ؟ وما ادخر فى منزله ؟ فيخبرهم فيزداد المؤمنون إيماناً ، والكافرون والمنافقون شكا وكفراناً . وكان عيسى مع ذلك ليس له منزل يأوى إليه ؛ إنما يسبح فى الأرض ، ليس له قرار ولا موضع يعرف به . فكان أول ما أحيا من الموتى : أنه مر ذات يوم على امرأة قاعدة عند قبر وهى تبكى ، فقال لها مالك أيتها المرأة ؟ فقالت ماتت ابنة لى لم يكن لى ولد غيرها ، و إنى عاهدت ربى ألا أبرح من موضعى هذا حتى أذوق ماذاقت من الموت ، أو يحييها الله لى ، فانظر إليها . فقال لها عيسى : أرأيت إن نظرت إليها أراجعة أنت ؟ قالت : نعم ، قالوا : فصلى ركعتين ثم جاء فجلس عند القبر ، فنادى : يافلانة قومى بإذن الرحمن فاخرجى . قال فتحرك القبر . ثم نادى الثانية ، فانصدع القبر بإذن الله ، ثم نادى الثالثة فخرجت وهى تنفض رأسها من التراب . فقال لها عيسى : ماأبطأ بك عنى ؟ فقالت : لما جاءتنى الصيحة الأولى — بعث الله لى ملكا فركّب خلقى ، ثم جاءتنى الصيحة الثانية فرجع إلىّ روحى ، ثم جاءتنى الصيحة الثالثة فخفت أنها صيحة القيامة فشاب رأسى وحاجباى وأشفار عينى من مخافة القيامة . ثم أقبلت على أمها فقالت : ياأماه ! ماحملك على أن أذوق كرب الموت مرتين ؟ ياأماه اصبرى واحتسبى فلا حاجة لى فى الدنيا . ياروح الله وكلمته ! سل ربى أن يردنى إلى الآخرة ، وأن يهون علىّ كرب الموت ، فدعا ربه فقبضها إليه واستوت عليها الأرض ، فبلغ ذلك اليهود فازدادوا عليه غضباً .

وقدمنا فى عقيب قصة نوح : أن بنى إسرائيل سألوه أن يحيي لهم سام بن نوح ، فدعا الله عز وجل وصلى لله — فأحياه الله لهم ، فحدثهم عن السفينة وأمرها ، ثم دعا فعاد تراباً . وقد روى السدى عن أبى صالح وأبى مالك عن ابن عباس فى خبر ذكره ، وفيه : أن ملكا من ملوك بنى إسرائيل مات وحمل على سريره فجاء عيسى عليه السلام ، فدعا الله عز وجل فأحياه الله عز وجل ، فرأى الناس أمراً هائلا ومنظر عجيباً : قال الله تعالى وهو أصدق القائلين : (إذ قال الله ياعيسى بن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس ، تكلم الناس فى المهد وكهلا ، وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ، وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى ، فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذنى ، وتبرىء الأكمة والأبرص بإذنى ، وإذ تخرج الموتى بإذنى ، و إذ كففت بنى إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات ، فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين * وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى ، قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون)[1] . يذكره تعالى بنعمته عليه وإحسانه إليه ؛ فى خلقه إياه من غير أب ، بل من أم بلا ذكر .

---

(١) الآيتان : ١١٠ ، ١١١ من سورة المائدة .

وجعله له آية للناس ، ودلالة على كمال قدرته تعالى ، ثم إرساله بعد هذا كله . (وعلى والدتك) في اصطفائها واختيارها لهذه النعمة العظيمة ، وإقامة البرهان على براءتها مما نسبها إليه الجاهلون ولهذا قال : (إذ أيدتك بروح القدس) وهو جبريل : بإلقاء روحه إلى أمه وقرنه معه في حال رسالته ، ومدافعته عنه لمن كفر به . (تكلم الناس في المهد وكهلا) أي تدعو الناس إلى الله في حال صغرك : في مهدك وفي كهولتك (وإذ علمتك الكتاب والحكمة) أي الخط والفهم . نص عليه بعض السلف . (والتوراة والإنجيل)

وقوله : (وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني) أي تصوره وتشكله من الطين على هيئته عن أمر الله له بذلك ، (فتنفخ فيه فيكون طيراً بإذني) أي بأمري ، يؤكد تعالى بذكر الإذن له في ذلك ؛ لرفع التوهم . وقوله : (وتبرىء الأكمه) قال بعض السلف : وهو الذي يولد أعمى ، ولا سبيل لأحد من الحكماء إلى مداواته ، (والأبرص) هو الذي لا طب فيه ، بل قد مرض بالبرص وصار داؤه عضالا ، (وإذ تخرج الموتى) أي من قبورهم أحياء بإذني . وقد تقدم ما فيه دلالة على وقوع ذلك مراراً متعددة مما فيه كفاية . وقوله : (وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين) ، وذلك حين أرادوا صلبه ، فرفعه الله إليه ، وأنقذه من بين أظهرهم ، صيانة لجنابه الكريم عن الأذى ، وسلامة له من الردى .

وقوله : (وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون) قيل : المراد بهذا الوحي — وحي إلهام ؛ أي أرشدهم الله إليه ودلهم عليه ؛ كما قال : (وأوحى ربك إلى النحل[1] — وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم[2]) وقيل : المراد وحي بواسطة الرسول ، وتوفيق في قلوبهم لقبول الحق . ولهذا استجابوا قائلين : (آمنا واشهد بأننا مسلمون) .

وهذا من جملة نعم الله على عبده ورسوله عيسى بن مريم : أن جعل له أنصاراً وأعواناً ينصرونه ، ويدعون معه إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، كما قال تعالى لعبده محمد ﷺ : (هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين ﴿ وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم[3]) وقال تعالى : (ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ﴿ ورسولا إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم ، أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير ، فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ، وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله ، وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم ، إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ، ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ، ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم

---

(١) الآية : ٦٨ من سورة النحل (٢) الآية : ٧ من سورة القصص .

(٣) الآيتان : ٦٢ ، ٦٣ من سورة الأنفال .

وجئتكم بآية من ربكم ، فاتقوا الله وأطيعون ☆ إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ☆ فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله ؟ قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون ☆ ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ☆ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) [1] .

كانت معجزة كل نبى فى زمانه بما يناسب أهل ذلك الزمان ؛ فذكروا أن موسى عليه السلام كانت معجزته مما يناسب أهل زمانه ، وكانوا سحرة أذكياء ، فبعث بآيات بهرت الأبصار ، وخضعت لها الرقاب . ولما كان السحرة خبيرين بفنون السحر وما ينتهى إليه ، وعاينوا ماعاينوا من الأمر الباهر الهائل ، الذى لا يمكن صدوره إلا عمن أيده الله وأجرى الخارق على يديه ، تصديقاً له ــ أسلموا سراعاً ولم يتلعثموا .

وهكذا عيسى بن مريم ؛ بعث فى زمن الطباعية [2] الحكماء ، فأرسل بمعجزات لايستطيعونها ولا يهتدون إليها ، وأنى لحكيم إبراء الأكمه الذى هو أسوأ حالا من الأعمى ؟ والأبرص والمجذوم؟ ومن به مرض مزمن ؟ وكيف يتوصل أحد من الخلق إلى أن يقيم الميت من قبره ؟ هذا مما يعلم كل أحد معجزة دالة على صدق من قامت به ، وعلى قدرة من أرسله . وهكذا محمد ﷺ وعليهم أجمعين ؛ بعث فى زمن الفصحاء البلغاء ، فأنزل الله عليه القرآن العظيم ؛ الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد فلفظه معجز تحدى به الإنس والجن أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور من مثله أو بسورة . وقطع عليهم بأنهم لايقدرون لافى الحال ولا فى الاستقبال ، فلم يفعلوا ولن يفعلوا ، وما ذاك إلا لأنه كلام الخالق عز وجل ، والله تعالى لا يشبهه شىء ؛ لافى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله .

والمقصود أن عيسى عليه السلام لما أقام عليهم الحجج والبراهين ، استمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم وطغيانهم ، فانتدب له من بينهم طائفة صالحة فكانوا له أنصاراً وأعواناً قاموا ؛ بمتابعته ونصرته ومناصحته ، وذلك حين هم به بنو إسرائيل ووشوا به إلى بعض ملوك ذلك الزمان ؛ فعزموا على قتله وصلبه فأنقذه الله منهم ، ورفعه إليه من بين أظهرهم ، وألقى شبهه على أحد أصحابه ، فأخذوه فقتلوه وصلبوه ؛ وهم يعتقدونه عيسى . وهم فى ذلك غالطون ، وللحق مكابرون . وسلم لهم كثير من النصارى ما ادعوه ، وكلا الفريقين فى ذلك مخطئون . قال تعالى : (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) [3] ، وقال تعالى : (وإذ قال عيسى بن مريم يابنى إسرئيل إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدى من التوراة ، ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ، فلما جاءهم ، بالبينات قالوا هذا سحر مبين ☆ ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدى القوم الظالمين ☆

---

(١) الآيات : ٤٨ ــ ٥٤ من سورة آل عمران (٢) نسبه إلى الطباع ، وهى السجية التى يجبل عليها الإنسان .
(٣) الآية : ٥٤ من سورة آل عمران .

يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون)[١] إلى أن قال – بعد ذلك : (ياأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله ، كما قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله ؟ قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة ، فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين[٢]) . فعيسى عليه السلام هو خاتم أنبياء بنى إسرائيل ، وقد قام فيهم خطيباً فبشرهم بخاتم الأنبياء الآتى بعده ، ونوه باسمه وذكر لهم صفته ليعرفوه ، ويتابعوه إذا شاهدوه ؛ إقامة للحجة عليهم ، وإحساناً من الله إليهم كما قال تعالى : (الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم الخبائث ، عليهم ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ؛ فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعو النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون[٣]) .

قال محمد بن إسحاق : حدثنى ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا : يارسول الله أخبرنا عن نفسك ، قال : « دعوة أبى إبراهيم ، وبشرى عيسى ، ورأت أمى حين حملت بى كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام » وقد روى عن العرباض ابن سارية وأبى أمامة عن النبى ﷺ نحو هذا . وفيه : « دعوة أبى إبراهيم ، وبشرى عيسى » وذلك أن إبراهيم لما بنى الكعبة قال : (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم . . . الآية[٤]) . ولما انتهت النبوة فى بنى إسرائيل إلى عيسى — قام فيهم خطيباً فأخبرهم أن النبوة قد انقطعت عنهم ، وأنها بعده فى النبى العربى الأمى خاتم الأنبياء على الإطلاق . أحمد . وهو محمد بن عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم ، الذى هو من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهم السلام . قال الله تعالى : (فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين[٥]) يحتمل عود الضمير إلى عيسى عليه السلام ، ويحتمل عوده إلى محمد ﷺ .

ثم حرض تعالى عباده المؤمنين على نصرة الإسلام وأهله ، ونصرة نبيه ومؤازرته ومعاونته على إقامة الدين ونشر الدعوة ، فقال : (يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله ؟) أى من يساعدنى فى الدعوة إلى الله ؟ (قال الحواريون نحن أنصار الله) ، وكان ذلك فى قرية يقال لها الناصرة ، فسموا بذلك النصارى . قال الله تعالى : (فآمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة) ، يعنى لما دعا عيسى بنى إسرائيل وغيرهم إلى الله تعالى ؛ منهم من آمن ومنهم من كفر ، وكان ممن آمن به أهل « أنطاكية » بكمالهم ؛ فيما ذكره غير واحد من أهل السير والتواريخ والتفسير ، بعث إليهم رسلا ثلاثة : أحدهم « شمعون الصفا » ، فآمنوا واستجابوا ، وليس هؤلاء هم المذكورون فى سورة يس ؛ لما تقدم تقريره فى قصة أصحاب القرية ، وكفر آخرون من بنى إسرائيل وهم جمهور اليهود ،

---

(١) آخر سورة الصف (٢) الآية : ١٥٧ من سورة الأعراف (٣) الآية : ١٢٩ من سورة البقرة.
(٤) الآية : ٧ من سورة الصف . (٥) الآيات : ٦ – ٨ من سورة الصف .

فأيد الله من آمن به على من كفر فيما بعد ، وأصبحوا ظاهرين عليهم قاهرين لهم ، كما قال تعالى : (إذ قال الله ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلى ، ومطهرك من الذين كفروا ، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة . . . الآية[1]) ، فكل من كان إليه أقرب — كان عالياً فمن دونه . ولما كان قول المسلمين فيه هو الحق الذى لاشك فيه ؛ من أنه عبد الله ورسوله — كانوا ظاهرين على النصارى الذين غلوا فيه وأطروه وأنزلوه فوق ما أنزله الله به . ولما كان النصارى أقرب فى الجملة مما ذهب إليه اليهود عليهم لعائن الله — كان النصارى قاهرين لليهود فى أزمان الفترة إلى زمن الإسلام وأهله .

ذكر خبر المائدة

قال الله تعالى : (إذ قال الحواريون ياعيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ؟ قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين * قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين * قال عيسى بن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين * قال الله إنى منزلها عليكم ، فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين[2]) . قد ذكرنا فى التفسير الآثار الواردة فى نزول المائدة عن ابن عباس وسلمان الفارسى وعمار بن ياسر ، وغيرهم من السلف . ومضمون ذلك : أن عيسى عليه السلام — أمر الحواريين بصيام ثلاثين يوماً ، فلما أتموها سألوا من عيسى إنزال مائدة من السماء عليهم ليأكلوا منها ، وتطمئن بذلك قلوبهم — أن الله قد تقبل صيامهم وأجابهم إلى طلبتهم ، وتكون لهم عيداً يفطرون عليها يوم فطرهم ، وتكون كافية لأولهم وآخرهم ؛ لغنيهم وفقيرهم . فوعظهم عيسى فى ذلك وخاف عليهم ألا يقوموا بشكرها ولا يؤدوا حق شروطها . فأبوا عليه إلا أن يسأل لهم ذلك من ربه عز وجل . فلما لم يقلعوا عن ذلك قام إلى مصلاه ولبس مسحاً[3] من شعر ، وصف بين قدميه وأطرق رأسه وأسبل عينيه بالبكاء ، وتضرع إلى الله فى الدعاء والسؤال — أن يجابوا إلى ماطلبوا . فأنزل الله تعالى المائدة من السماء ، والناس ينظرون إليها تنحدر بين غمامتين ، وجعلت تدنو قليلا قليلا . وكلما دنت سأل عيسى ربه عز وجل أن يجعلها رحمة لا نقمة ، وأن يجعلها بركة وسلامة . فلم تزل تدنو حتى استقرت بين يدى عيسى عليه السلام ، وهى مغطاة بمنديل ، فقام عيسى يكشف عنها وهو يقول : بسم الله خير الرازقين . فإذا عليها سبعة من الحيتان وسبعة أرغفة . ويقال : وخل ، ويقال : ورمان وثمار ، ولها رائحة عظيمة جداً . قال الله لها : كونى — فكانت . ثم أمرهم بالأكل منها . فقالوا لا نأكل حتى تأكل . فقال : إنكم الذين

---

(١) الآية : ٥٥ من سورة آل عمران .

(٢) الآيات : ١١٢ — ١١٥ من سورة المائدة .

(٣) المسح بوزن الملح : ثوب من الشعر غليظ ، وجمعه : أمساح ومسوح .

ابتدأتم السؤال لها . فأبوا أن يأكلوا منها ابتداء ، فأمر الفقراء والمحاويج والمرضى والزمنى ، وكانوا قريباً من ألف وثلثمائة ، فأكلوا منها ، فبرأ كل من به عاهة أو آفة أو مرض مزمن . فندم الناس على ترك الأكل منها ؛ لما رأوا من إصلاح حال أولئك . ثم قيل : إنها كانت تنزل كل يوم مرة ، فيأكل الناس منها ؛ يأكل آخرهم كما يأكل أولهم ، حتى قيل إنها كان يأكل منها نحو سبعة آلاف . ثم كانت تنزل يوماً بعد يوم ، كما كانت ناقة صالح يشربون لبنها يوماً بعد يوم . ثم أمر الله عيسى أن يقصرها على الفقراء أو المحاويج دون الأغنياء ، فشق ذلك على كثير من الناس ، وتكلم منافقوهم فى ذلك ، فرفعت بالكلية ، ومسخ الذين تكلموا فى ذلك خنازير .

وقد روى ابن أبى حاتم وابن جرير جميعاً : حدثنا الحسن بن قزعة الباهلى ، حدثنا سفيان بن حبيب ، حدثنا سعيد بن أبى عروبة ، عن قتادة عن خلاس عن عمار بن ياسر عن النبى ﷺ قال : «نزلت المائدة من السماء عليها خبز ولحم ، وأمروا أن لا يخونوا ولا يدخروا ولا يرفعوا لغد ، فخانوا وادخروا ورفعوا ، فمسخوا قردة وخنازير » .

ثم رواه ابن جرير عن بندار ، عن ابن أبى عدى عن سعيد ، عن قتادة عن خلاس عن عمار موقوفاً وهذا أصح . وكذا رواه من طريق سماك عن رجل من بنى عجل عن عمار موقوفاً وهو الصواب ، والله أعلم . وخِلاس عن عمار منقطع ، فلو صح هذا الحديث مرفوعاً لكان فيصلا فى هذه القصة ؛ فإن العلماء اختلفوا فى المائدة : هل نزلت أم لا ؟ فالجمهور أنها نزلت كما دلت عليه هذه الآثار كما هو المفهوم من ظاهر سياق القرآن ، ولا سيما قوله : (إنى منزلها عليكم) كما قرره ابن جرير ، والله أعلم .

وقد روى ابن جرير بإسناد صحيح إلى مجاهد وإلى الحسن بن أبى الحسن البصرى ــ أنهما قالا : لم تنزل ، وإنهم أبوا نزولها حين قال : (فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين) ولهذا قيل : إن النصارى لا يعرفون خبر المائدة ، وليس مذكوراً فى كتابهم ، مع أن خبرها مما تتوفر الدواعى على نقله ، والله أعلم . وقد تقصينا الكلام على ذلك فى التفسير فليكتب من هناك ، ومن أراد مراجعته فلينظره من ثَم ، ولله الحمد والمنة .

فصـــل

قال أبو بكر بن أبى الدنيا : حدثنا رجل سقط اسمه ، حدثنا حجاج بن محمد ، حدثنا أبو هلال محمد بن سليمان ، عن بكر بن عبد الله المزنى قال : فقد الحواريون نبيهم عيسى ، فقيل لهم توجه نحو البحر ، فانطلقوا يطلبونه . فلما انتهوا إلى البحر إذا هو يمشى على الماء ، يرفعه الموج مرة ويضعه أخرى ، وعليه كساء مرتد بنصفه ومؤتزر بنصفه ، حتى انتهى إليهم . فقال له بعضهم ــ قال أبو هلال ظننت أنه من أفاضلهم ــ ألا أجىء إليك يا نبى الله ؟ قال : بلى . قال فوضع إحدى رجليه على الماء ، ثم ذهب ليضع الأخرى ، فقال

أوه ، غرقت يا نبي الله ، فقال : « أرني يدك يا قصير الإيمان ، لو أن لابن آدم من اليقين قدر شعيرة مشى على الماء » . ورواه أبو سعيد ابن الأعرابي عن إبراهيم بن أبي الجحيم عن سليمان بن حرب عن أبي هلال عن بكر بنحوه .

ثم قال ابن أبي الدنيا : حدثنا محمد بن علي بن سفيان ، حدثنا إبراهيم بن الأشعث عن الفضيل بن عياض قال : قيل لعيسى بن مريم : يا عيسى بأي شيء تمشي على الماء ؟ قال بالإيمان واليقين . قالوا : فإنا آمنا كما آمنت ، وأيقنا كما أيقنت قال فامشوا إذاً ، قال فمشَوا معه في الموج فغرقوا ، فقال لهم عيسى : مالكم ؟ فقالوا خفنا الموج ، قال : ألا خفتم رب الموج ؟ قال فأخرجهم ، ثم ضرب بيده إلى الأرض فقبض بها ثم بسطها ، فإذا في إحدى يديه ذهب وفي الأخرى مدر أو حصى ، فقال : أيهما أحلى في قلوبكم ؟ قالوا هذا الذهب ، قال فإنهما عندي سواء . وقدمنا في قصة يحيي بن زكريا عن بعض السلف أن عيسى عليه السلام كان يلبس الشعر ويأكل من ورق الشجر ، ولا يأوى إلى منزل ، ولا أهل ولا مال ولا يدخر شيئاً لغد . قال بعضهم : كان يأكل من غزل أمه ، صلوات الله وسلامه عليه .

وروى ابن عساكر عن الشعبي أنه قال : كان عيسى عليه السلام إذا ذكرت عنده الساعة صاح ويقول : « لاينبغي لابن مريم أن تذكر عنده الساعة ويسكت » ، وعن عبد الملك بن سعيد بن بحر ، أن عيسى كان إذا سمع الموعظة صرخ صراخ الثكلى . وقال عبد الرزاق : أنبأنا معمر ، حدثنا جعفر بن بلقان : أن عيسى كان يقول : « اللهم إني أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره ، ولا أملك نفع ما أرجو ، وأصبح الأمر بيد غيري ، وأصبحت مرتهناً بعملي ؛ فلا فقير أفقر مني . اللهم لا تشمت بي عدوي ، ولا تسؤ بي صديقي ، ولا تجعل مصيبتي في ديني ، ولا تسلط عليّ من لايرحمني » .

وقال الفضيل بن عياض عن يونس بن عبيد كان عيسى يقول : « لانصيب حقيقة الإيمان حتى لانبالي من أكل الدنيا » . قال الفضيل : وكان عيسى يقول : « فكرت في الخلق فوجدت من لم يخلق أغبط عندي ممن خلق » . وقال إسحاق بن بشر عن هشام بن حسان عن الحسن قال : إن عيسى رأس الزاهدين يوم القيامة . قال : وإن الفرارين بذنوبهم يحشرون يوم القيامة مع عيسى . قال : وبينما عيسى يوماً نائم على حجر قد توسده ، وقد وجد لذة النوم ، إذ مر به إبليس ، فقال ياعيسى : ألست تزعم أنك لاتريد شيئاً من عرض الدنيا ؟ فهذا الحجر من عرض الدنيا ، فقام فأخذ الحجر ورمى به إليه وقال : هذا لك مع الدنيا .

وقال معتمر بن سليمان : خرج عيسى على أصحابه وعليه جبة صوف وكساء وتبان[1] حافياً باكياً شعثاً مصفر اللون من الجوع ، يابس الشفتين من العطش . فقال ، السلام عليكم يابني إسرائيل . أنا الذي

(١) التبان كرمان : سراويل صغير يستر العورة المغلظة .

أنزلت الدنيا منزلتها بإذن الله ، ولا عجب ولا فخر أتدرون أين بيتى ؟ قالوا أين بيتك ياروح الله ؟ قال بيتى المساجد ، وطيبى الماء ، وإدامى الجوع ، وسراجى القمر بالليل ، وصلاتى فى الشتاء مشارق الشمس وريحانى بقول الأرض ، ولباسى الصوف ، وشعارى خوف رب العزة ، وجلسائى الزمنى والمساكين . أصبح وليس لى شىء ، وأمسى وليس لى شىء ، وأنا طيب النفس غير مكترث ، فمن أغنى منى وأربح ؟ رواه ابن عساكر .

[وروى فى ترجمة محمد بن الوليد بن ابان بن حبان أبى الحسن العقيلى المصرى حدثنا هانىء بن المتوكل الاسكندانى عن حيوة بن شريح ، حدثنى الوليد بن أبى الوليد عن سفى بن نافع عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « أوحى الله تعالى إلى عيسى : أن ياعيسى انتقل من مكان إلى مكان ، لئلا تعرف فتؤذى ، فوعزتى وجلالى لأزوجنك ألف حوراء ، ولأولمن عليك أربعمائة عام » . وهذا حديث غريب رفعه ، وقد يكون موقوفاً من رواية سفى بن نافع عن كعب الأحبار أو غيره من الإسرائيليين والله أعلم][1] .

وقال عبد الله بن المبارك عن سفيان بن عيينة ، عن خلف بن حوشب قال : قال عيسى للحواريين : « كما ترك لكم الملوك الحكمة فكذلك فاتركوا لهم الدنيا » . وقال قتادة : قال عيسى عليه السلام : « سلونى فإنى لين القلب ، وإنى صغير عند نفسى » . وقال إسماعيل بن عياش ، عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال : قال عيسى للحواريين : « كلوا خبز الشعير واشربوا الماء القراح ، واخرجوا من الدنيا سالمين آمنين . بحق ماأقول لكم ؛ إن حلاوة الدنيا مرارة الآخرة ، وإن مرارة الدنيا حلاوة الآخرة ، وإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين . بحق ما أقول لكم ؛ إن شركم عالم يؤثر هواه على علمه ، يود أن الناس كلهم مثله » ، وروى نحوه عن أبى هريرة . وقال أبو مصعب عن مالك أنه بلغه أن عيسى كان يقول : « يابنى إسرائيل عليكم بالماء القراح والبقل البرير[2] وخبز الشعير ، وإياكم وخبز البر فإنكم لن تقوموا بشكره » . وقال ابن وهب عن سليمان بن بلال عن يحيى بن سعيد قال : كان عيسى يقول : « اعبروا الدنيا ولاتعمروها » . وكان يقول : « حب الدنيا رأس كل خطيئة ، والنظر يزرع فى القلب الشهوة » . وحكى وهيب بن الورد مثله ، وزاد : « ورب شهوة أورثت أهلها حزناً طويلا » . وعن عيسى عليه السلام : « يابن آدم الضعيف ! اتق الله حيث ما كنت ، وكن فى الدنيا ضيفاً ، واتخذ المساجد بيتاً ، وعلم عينك البكاء ، وجسدك الصبر ، وقلبك التفكر ، ولا تهتم برزق غد فإنها خطيئة » . وعنه عليه السلام أنه قال : « كما أنه لايستطيع أحدكم أن يتخذ على موج البحر داراً ، فلا يتخذ الدنيا قراراً » .

---

(١) مابين هذين القوسين [ ] غير موجود فى بعض النسخ .

(٢) البرير : أول مايظهر من ثمر الأراك ، وقيل الثمر إذا اسود وبلغ .

وفى هذا يقول سابق البربرى[1] :

لكم بيوت بمستن السيوف وهل يُبنى على الماء بيت أسه مدرُ ؟

وقال سفيان الثورى قال عيسى بن مريم : « لايستقيم حب الدنيا وحب الآخرة فى قلب مؤمن ، كما لايستقيم الماء والنار فى إناء » . وقال إبراهيم الحربى عن داود بن رشيد ، عن أبى عبد الله الصوفى قال قال عيسى : « طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً حتى يقتله » . وعن عيسى عليه السلام : « إن الشيطان مع الدنيا ، وفكره مع المال ، وتزيينه مع الهوى ، واستمكانه عند الشهوات » ، وقال الأعمش عن خيثمة : كان عيسى يضع الطعام لأصحابه ويقوم عليهم ويقول : هكذا فاصنعوا بالقرى . وبه قالت امرأة لعيسى عليه السلام : طوبى لحجر حملك ، ولثدى أرضعك ، فقال : طوبى لمن قرأ كتاب الله واتبعه . وعنه : طوبى لمن بكى من ذكر خطيئته وحفظ لسانه ووسعه بيته ، وعنه : طوبى لعين نامت ولم تحدث نفسها بالمعصية ، وانتبهت إلى غير إثم . وعن مالك بن دينار قال : مر عيسى وأصحابه بجيفة فقالوا ماأنتن ريحها ! فقال ما أبيض أسنانها ! لينهاهم عن الغيبة . وقال أبو بكر بن أبى الدنيا : حدثنا الحسين بن عبد الرحمن عن زكريا بن عدى قال : قال عيسى بن مريم : « يامعشر الحواريين ! ارضوا بدنى الدنيا مع سلامة الدين ، كما رضى أهل الدنيا بدنى الدين مع سلامة الدنيا » . قال زكريا وفى ذلك يقول الشاعر :

أرى رجالا بأدنى الدين قد قنعوا ولا أراهم رضوا فى العيش بالدون
فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

وقال أبو مصعب عن مالك ، قال عيسى بن مريم عليه السلام : « لاتكثروا الحديث بغير ذكر الله فتقسو قلوبكم ؛ فإن القلب القاسى بعيد من الله ولكن لاتعلمون ، ولا تنظروا فى ذنوب العباد كأنكم أرباب ، وانظروا فيها كأنكم عبيد ؛ فإنما الناس رجلان : معافى ومبتلى ، فارحموا أهل البلاء واحمدوا الله على العافية » وقال الثورى : سمعت أبى يقول عن إبراهيم التيمى قال : قال عيسى لأصحابه : « بحق أقول لكم : من طلب الفردوس فخبز الشعير والنوم فى المزابل مع الكلاب كثير » . وقال مالك بن دينار قال عيسى : « إن أكل الشعير مع الرماد والنوم على المزابل مع الكلاب لقليل فى طلب الفردوس» . وقال عبد الله بن المبارك أنبأنا سفيان عن منصور عن سالم بن أبى الجعد قال ، قال عيسى : « اعملوا لله ولا تعملوا لبطونكم ، انظروا إلى هذه الطير ؛ تغدو وتروح لاتحرث ولا تحصد والله يرزقها ، فإن قلتم نحن أعظم بطوناً من الطير — فانظروا إلى هذه الأباقير من الوحوش والحمر ؛ فإنها تغدو وتروح

(١) هو أبو سعيد سابق بن عبدالله ، من الشعراء المجيدين فى الزهد والحكم ، ومن شعره وقد ذهب مذهب المثل :

قد ينفع الأدب الأحداث فى مهل وليس ينفع عند الكبرة الأدب
إن الغصون إذا قومتها اعتدلت ولن تلين إذا قومتها الخشب

لاتحرث ولا تحصد والله يرزقها » . وقال صفوان بن عمرو عن شريح بن عبد الله عن يزيد بن ميسرة قال : قال الحواريون للمسيح : يامسيح الله ! انظر إلى مسجد الله ماأحسنه ! قال : « آمين آمين . بحق ماأقول لكم ؛ لايترك الله من هذا المسجد حجراً قائماً إلا أهلكه بذنوب أهله . إن الله لا يصنع بالذهب ولا بالفضة ولا بهذه الأحجار التى تعجبكم شيئاً ؛ إن أحب إلى الله منها القلوب الصالحة ، وبها يعمر الله الأرض ، وبها يخرب الله الأرض ، إذا كانت على غير ذلك ».

وقال الحافظ أبو القاسم بن عساكر فى تاريخه : أخبرنا أبو منصور أحمد بن محمد الصوفى ، أخبرتنا عائشة بنت الحسن بن إبراهيم الوركانية قالت : حدثنا أبو محمد عبد الله بن عمر بن عبد الله بن الهشيم إملاء ، حدثنا الوليد بن إبان إملاء ، حدثنا أحمد بن جعفر الرازى ، حدثنا سهل بن إبراهيم الحنظلى ، حدثنا عبد الوهاب بن عبد العزيز عن المعتمر عن ليث عن مجاهد عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « مر عيسى عليه السلام على مدينة خربة فأعجبه البنيان ، فقال أى رب ! مر هذه المدينة أن تجيبنى ، فأوحى الله إلى المدينة : أيتها المدينة الخربة جاوبى عيسى ، قال فنادت المدينة : عيسى حبيبى وما تريد منى ؟ قال : مافعل أشجارك ومافعل أنهارك ومافعل قصورك وأين سكانك ؟ قالت : حبيبى جاء وعد ربك الحق ، فيبست أشجارى ، ونشفت أنهارى ، وخربت قصورى ، ومات سكانى . قال فأين أموالهم ؟ فقالت جمعوها من الحلال والحرام موضوعة فى بطنى ، لله ميراث السموات والأرض قال فنادى عيسى عليه السلام : عجبت من ثلاث أناس ؛ طالب الدنيا والموت يطلبه ، وبانى القصور والقبر منزله ، ومن يضحك ملء فيه والنار أمامه . ابن آدم : لا بالكثير تشبع ولا بالقليل تقنع ، تجمع مالك لمن لايحمدك ، وتقدم على رب لا يعذرك . إنما أنت عبد بطنك وشهوتك ، وإنما تملأ بطنك إذا دخلت قبرك ، وأنت ياابن آدم ترى حشد مالك فى ميزان غيرك » . هذا حديث غريب جداً ، وفيه موعظة حسنة فكتبناه لذلك .

وقال سفيان الثورى عن أبيه عن إبراهيم التيمى قال : قال عيسى عليه السلام : « يامعشر الحواريين اجعلوا كنوزكم فى السماء ؛ فإن قلب الرجل حيث كنزه » . وقال ثور بن يزيد عن عبد العزيز بن ظبيان قال : قال عيسى بن مريم : « من تعلم وعلم وعمل ، دعى عظيما فى ملكوت السماء » . وقال أبو كريب روى أن عيسى عليه السلام قال : « لاخير فى علم لايعبر معك الوادى و يعبر بك النادى ». وروى ابن عساكر بإسناد غريب عن ابن عباس مرفوعاً : أن عيسى قام فى بنى إسرائيل فقال : « يامعشر الحواريين لاتحدثوا بالحكم غير أهلها فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم . والأمور ثلاثة : أمر تبين رشده فاتبعوه ، وأمر تبين غيه فاجتنبوه ، وأمر اختلف عليكم فيه فردوا علمه إلى الله عز وجل » . وقال عبد الرزاق : أنبأنا معمر عن رجل عن عكرمة قال : قال عيسى : « لا تطرحوا اللؤلؤ إلى الخنزير ؛ فإن

الخنزير لا يصنع باللؤلؤ شيئاً . ولا تعطوا الحكمة من لا يريدها ؛ فإن الحكمة خير من اللؤلؤ ، ومن لا يريدها شر من الخنزير» . وكذا حكى وهب وغيره عنه ، وعنه أنه قال لأصحابه : «أنتم ملح الأرض فإذا فسدتم فلا دواء لكم ، وإن فيكم خصلتين : من الجهل : الضحك من غير عجب ، والصبحة[1] من غير سهر» . وعنه أنه قيل له : من أشد الناس فتنة ؟ قال : زلة العالم ؛ فإن العالم إذا زل يزل بزلته عالم كثير» . وعنه أنه قال : «ياعلماء السوء جعلتم الدنيا على رءوسكم والآخرة تحت أقدامكم ؛ قولكم شفاء وعملكم دواء ، مثلكم مثل شجرة الدِّفْلَى[2] تعجب من رآها وتقتل من أكلها» . وقال وهب قال عيسى : « ياعلماء السوء جلستم على أبواب الجنة ، فلا تدخلوها ولا تدعون المساكين يدخلونها ، إن شر الناس عند الله عالم يطلب الدنيا بعلمه» . وقال مكحول : التقى يحيي وعيسى فصافحه عيسى وهو يضحك ، فقال له يحيي : ياابن خالة ! مالى أراك ضاحكاً كأنك قد أمنت ؟ فقال له عيسى : مالى أراك عابساً كأنك قد يئست ؟ فأوحى الله إليهما : « إن أحبكما إلى أبشكما بصاحبه » . وقال وهب بن منبه : وقف عيسى هو وأصحابه على قبر وصاحبه يدلى فيه ، فجعلوا يذكرون القبر وضيقته فقال : « قد كنتم فيما هو أضيق منه من أرحام أمهاتكم ، فإذا أحب الله أن يوسع وسع » . وقال أبو عمر الضرير : بلغنى أن عيسى كان إذا ذكر الموت يقطر جلده دماً ، والآثار فى مثل هذا كثيرة جداً . وقد أورد الحافظ ابن عساكر منها طرفاً صالحاً اقتصرنا منها على هذا القدر ، والله الموفق للصواب .

ذكر رفع عيسى عليه السلام إلى السماء فى حفظ الرب
وبيان كذب اليهود والنصارى فى دعوى الصلب

قال الله تعالى : (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ۞ إذ قال الله ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلىّ ، ومطهرك من الذين كفروا ، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ، ثم إلى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون[3]) . وقال الله تعالى : (فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا ۞ وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيما ۞ وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله ، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ، وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ، مالهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً ۞ بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيما ۞ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ، ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً[4]) فأخبر تعالى أنه رفعه إلى السماء بعد ما توفاه بالنوم ، على الصحيح المقطوع به ، وخلصه ممن كان أراد أذيته من اليهود الذين وشوا به إلى بعض الملوك الكفرة فى ذلك الزمان .

---

(١) الصبحة بالضم والفتح : نوم الغداة .
(٢) نبت مر قتال ، زهره كالورد الأحمر وحمله كالخرنوب .
(٣) الآيتان : ٥٤ ، ٥٥ من سورة آل عمران .
(٤) الآيات : ١٥٥ — ١٥٩ من سورة النساء .

قال الحسن البصرى ومحمد بن إسحاق : كان اسمه ـ داود بن نورا ، فأمر بقتله وصلبه ، فحصروه فى دار ببيت المقدس ، وذلك عشية الجمعة ليلة السبت . فلما حان وقت دخولهم ألقى شبهه على بعض أصحابه الحاضرين عنده ، ورفع عيسى من روزنة[1] ذلك البيت إلى السماء ، وأهل البيت ينظرون ، ودخل الشرط فوجدوا ذلك الشاب الذى ألقى عليه شبهه ، فأخذوه ظانين أنه عيسى ، فصلبوه ووضعوا الشوك على رأسه إهانة له ، وسلم لليهود عامة النصارى الذين لم يشاهدوا ما كان من أمر عيسى ـ أنه صلب ، وضلوا بسبب ذلك ضلالا مبيناً كثيراً فاحشاً بعيداً . وأخبر تعالى بقوله : (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) أى بعد نزوله إلى الأرض فى آخر الزمان قبل قيام الساعة ؛ فإنه ينزل ويقتل الخنزير ويكسر الصليب ويضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام ؛ كما بينا ذلك بما ورد فيه من الأحاديث عند تفسير هذه الآية الكريمة من سورة النساء ، وكما سنورد ذلك مستقصى فى كتاب الفتن والملاحم ؛ عند أخبار المسيح الدجال . فنذكر ماورد فى نزول المسيح المهدى عليه السلام من ذى الجلال ، لقتل المسيح الدجال الكذاب الداعى إلى الضلال .

وهذا ذكر ماورد فى الآثار فى صفة رفعه إلى السماء . قال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء ـ خرج على أصحابه ، وفى البيت اثنا عشر رجلا منهم ـ من الحواريين ، يعنى نخرج عليهم من عين فى البيت ورأسه يقطر ماء ، فقال : إن منكم من يكفر بى اثنتى عشرة مرة بعد أن آمن بى ، ثم قال : أيكم يلقى عليه شبهى فيقتل مكانى فيكون معى فى درجتى ؟ فقام شاب من أحدثهم سناً ، فقال له اجلس . ثم أعاد عليهم ، فقام الشاب ، فقال له اجلس . ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال أنا ، فقال : نعم ، أنت هو ذاك ، فألقى عليه شبه عيسى ، ورفع عيسى من روزنة فى البيت إلى السماء . قال وجاء الطلب من اليهود ، فأخذوا الشبه فقتلوه ثم صلبوه ، فكفر به بعضهم اثنتى عشرة مرة بعد أن آمن به . وافترقوا ثلاث فرق . فقالت طائفة : كان الله فينا ماشاء ثم صعد إلى السماء ـ وهؤلاء اليعقوبية . وقالت فرقة : كان فينا ابن الله ما شاء ثم رفعه الله إليه ـ وهؤلاء النسطورية . وقالت فرقة : كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء ثم رفعه الله إليه ـ وهؤلاء المسلمون . فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها ، فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً ﷺ . قال ابن عباس وذلك قوله تعالى :(فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين[2]) . وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس على شرط مسلم ، ورواه النسائى عن أبى كريب عن أبى معاوية به نحوه ، ورواه ابن جرير عن مسلم بن جنادة عن أبى معاوية ، وهكذا ذكر غير واحد من السلف .

---

(١) الروزنة : الكوة ، وهى معربة

(٢) آخر سورة الصف

وممن ذكر ذلك مطولا ــ محمد بن إسحق بن بشار قال : وجعل عيسى عليه السلام يدعو الله عز وجل أن يؤخر أجله ــ يعنى ليبلغ الرسالة ويكمل الدعوة ، ويكثر الناس الدخول فى دين الله . قيل وكان عنده من الحواريين اثنا عشر رجلا : بطرس ، ويعقوب بن زبدا ، ويحنس أخو يعقوب ، وأندراوس ، وفليبس ، وابن تلما ، ومتى ، وتوماس ، ويعقوب بن حلقيا ، وتداوس ، وفتاتيا ، ويوذس زكريا يوطا . وهذا هو الذى دل اليهود على عيسى . قال ابن إسحق : وكان فيهم رجل آخر اسمه : سرجس ــ كتمته النصارى ، وهو الذى ألقى شبه المسيح عليه فصلب عنه . قال وبعض النصارى : يزعم أن الذى صلب عن المسيح وألقى عليه شبهه ــ هو يوذس بن زكريا يوطا ، والله أعلم

وقال الضحاك عن ابن عباس : استخلف عيسى شمعون ، وقتلت اليهود يوذس الذى ألقى عليه الشبه ، وقال أحمد بن مروان : حدثنا محمد بن الجهم قال: سمعت الفراء يقول فى قوله : (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) قال : إن عيسى غاب عن خالته زماناً فأتاها ، فقام رأس الجالوت اليهودى فضرب على عيسى ، حتى اجتمعوا على باب داره ، فكسروا الباب ودخل رأس جالوت ليأخذ عيسى ، فطمس الله عينيه عن عيسى . ثم خرج إلى أصحابه فقال لم أره ، ومعه سيف مسلول . فقالوا أنت عيسى ، وألقى الله شبه عيسى عليه ، فأخذوه فقتلوه وصلبوه ، فقال جل ذكره : (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا يعقوب القمىّ عن هارون بن عنترة عن وهب بن منبه قال : أتى عيسى ومعه سبعة عشر من الحواريين فى بيت فأحاطوا بهم ، فلما دخلوا عليهم صورهم الله كلهم على صورة عيسى ، فقالوا لهم : سحرتمونا ؛ لتبرزن إلينا عيسى أو لنقتلنكم جميعاً ، فقال عيسى لأصحابه : من يشترى منكم نفسه اليوم بالجنة ؟ فقال رجل أنا ، فخرج إليهم فقال أنا عيسى ، وقد صوره الله على صورة عيسى ، فأخذوه فقتلوه وصلبوه . فمن ثم شبه لهم وظنوا أنهم قد قتلوا عيسى ، فظنت النصارى مثل ذلك أنه عيسى ، ورفع الله عيسى من يومه ذلك .

قال ابن جرير : وحدثنا المثنى ، حدثنا إسحاق ، حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم ، حدثنى عبد الصمد ابن معقل أنه سمع وهباً يقول : إن عيسى بن مريم لما أعلمه الله أنه خارج من الدنيا جزع من الموت وشق عليه ، فدعا الحواريين وصنع لهم طعاماً ، فقال : احضرونى الليلة فإن لى إليكم حاجة ، فلما اجتمعوا إليه من الليل عشاهم وقام يخدمهم ، فلما فرغوا من الطعام أخذ يغسل أيديهم ويوضئهم بيده ويمسح أيديهم بثيابه ، فتعاظموا ذلك وتكارهوه ، فقال : ألا من رد على شيئاً الليلة مما أصنع فليس منى ولا أنا منه ؛ فأقروه . حتى إذا فرغ من ذلك قال : أما ما صنعت بكم الليلة ؛ مما خدمتكم على الطعام وغسلت أيديكم بيدىّ ــ فليكن لكم بى أسوة ؛ فإنكم ترون أنى خيركم ، فلا يتعظم بعضكم

على بعض ، وليبذل بعضكم لبعض نفسه ، كما بذلت نفسي لكم . وأما حاجتي التي أستعينكم عليها ، فتدعون الله لي ، وتجتهدون في الدعاء أن يؤخر أجلي . فلما نصبوا أنفسهم للدعاء وأرادوا أن يجتهدوا أخذهم النوم حتى لم يستطيعوا دعاء ، فجعل يوقظهم ويقول : سبحان الله ! أما تصبرون لي ليلة واحدة تعينوني فيها ؟ فقالوا : والله ما ندري مالنا ؛ والله لقد كنا نسمُر فنكثر السمر ، وما نطيق الليلة سمرا ، وما نريد دعاء إلا حيل بيننا وبينه . فقال : يُذْهَبُ بالراعي وتتفرق الغنم . وجعل يأتي بكلام نحو هذا ينعى به نفسه . ثم قال : الحقّ ليكفرنّ بي أحدكم قبل أن يصيحَ الديك ثلاث مرات ، وليبيعنّني أحدكم بدراهم يسيرة ، وليأكلنّ ثمني ، فخرجوا وتفرقوا .

وكانت اليهود تطلبه ، فأخذوا شمعون أحد الحواريين فقالوا هذا من أصحابه ، فجحد وقال ما أنا بصاحبه فتركوه . ثم أخذه آخرون فجحد كذلك ، ثم سمع صوت ديك فبكى وأحزنه . فلما أصبح أتى أحدُ الحواريين إلى اليهود فقال : ماتجعلون لي إن دللتكم على المسيح ؟ فجعلوا له ثلاثين درهماً ، فأخذها ودلهم عليه — وكان شبه عليهم قبل ذلك — فأخذوه واستوثقوا منه ، وربطوه بالحبل وجعلوا يقودونه ويقولون : أنت كنتَ تحيي الموتى ، وتنتهر الشيطان ، وتبرئ المجنون ، أفلا تنجي نفسك من هذا الحبل ! ويبصقون عليه ويلقون عليه الشوك ، حتى أتوا به الخشبة التي أرادوا أن يصلبوه عليها ، فرفعه الله إليه وصلبوا ما شبه لهم ، فمكث سبعاً .

ثم إن أمه والمرأة — التي كان يداويها عيسى فأبرأها الله من الجنون — جاءتا تبكيان حيث كان المصلوب ، فجاءهما عيسى فقال : علام تبكيان ؟ قالتا عليك ، فقال إني قد رفعني الله إليه ولم يصبني إلا خير ، وإن هذا شيء شُبّه لهم ، فأمُرا الحواريين أن يلقوني إلى مكان كذا وكذا ، فلقوه إلى ذلك المكان أحد عشر ، وفقد الذي كان باعه ودل عليه اليهود ، فسأل عنه أصحابه فقالوا : إنه ندم على ما صنع فاختنق وقتل نفسه ، فقال : لو تاب لتاب الله عليه . ثم سألهم عن غلام يتبعهم يقال له يحيى ، فقال : هو معكم ، فانطلقوا فإنه سيصبح كل إنسان منكم يحدث بلغة قوم فلينذرهم وليدعُهم[1] . وهذا إسناد غريب عجيب ، وهو أصح مما ذكره النصارى : من أن المسيح جاء إلى مريم وهي جالسة تبكي عند جذعة ، فأراها مكان المسامير من جسده ، وأخبرها أن روحه رفعت وأن جسده صلب ، وهذا بهت وكذب واختلاق وتحريف وتبديل ، وزيادة باطلة في الإنجيل ، على خلاف الحق ومقتضى النقل .

وحكى الحافظ ابن عساكر من طريق يحيى بن حبيب فيما بلغه : أن مريم سألت من بيت الملك بعدما صلب المصلوب بسبعة أيام وهي تحسب أنه ابنها — أن ينزل جسده ، فأجابهم إلى ذلك ودفن هنالك ، فقالت مريم لأم يحيى : ألا تذهبين بنا نزور قبر المسيح ؟ فذهبنا . فلما دنتا من القبر قالت مريم لأم يحيى :

(١) ذكر هذا الحديث ابن جرير الطبري في تاريخه جزء أول صفحة ٦٠١ طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٠ .

ألا تستترين ؟ فقالت : وممن أستتر ؟ فقالت : من هذا الرجل الذى هو عند القبر ، فقالت أم يحيى : إنى لا أرى أحداً . فرجت مريم أن يكون جبريل ، وكانت قد بعد عهدها به ، فاستوقفت أم يحيى وذهبت نحو القبر ، فلما دنت من القبر قال لها جبريل — وعرفته : يامريم أين تريدين ؟ فقالت أزور قبر المسيح فأسلم عليه وأحدث عهداً به . فقال : يا مريم إن هـذا ليس المسيح ؛ إن الله رفع المسيح وطهره من الذين كفروا ، ولـكن هذا الفتى الذى ألقى شبهه عليه وصلب وقتل مكانه . وعلامة ذلك أن أهله قد فقدوه فلايدرون مافعل به . فهم يبكون عليه ، فإذا كان يوم كذا وكذا فأت غيضة كذا وكذا فإنك تلقين المسيح . قال : فرجعت إلى أختها وصعد جبريل . فأخبرتها عن جبريل وماقال لها من أمر الغيضة . فلما كان ذلك اليوم ذهبت فوجدت عيسى فى الغيضة ، فلما رآها أسرع إليها وأكب عليها فقبل رأسها وجعل يدعو لها كما كان يفعل . وقال يا أمه ! إن القوم لم يقتلونى . ولـكن الله رفعنى إليه وأذن لى فى لقائك . والموت يأتيك قريباً فاصبرى واذكرى الله كثيراً . ثم صعد عيسى فلم تلقه إلا تلك المرة حتى ماتت .

قال : وبلغنى أن مريم بقيت بعد عيسى خمس سنين ، وماتت ولها ثلاث وخمسون سنة . رضى الله عنها وأرضاها . وقال الحسن البصرى : كان عمر عيسى عليه السلام يوم رفع — أربعاً وثلاثين سنة . وفى الحديث : « إن أهل الجنة يدخلونها جرداً مرداً مكحلين أبناء ثلاث وثلاثين » . وفى الحديث الآخر على ميلاد عيسى وحسن يوسف . وكذا قال حماد بن سلمة عن على بن زيد عن سعيد بن المسيب أنه قال : رفع عيسى وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة .

فأما الحديث الذى رواه الحاكم فى مستدركه ، ويعقوب بن سفيان الفسوى فى تاريخه ، عن سعيد بن أبى مريم عن نافع بن يزيد عن عمارة بن غزية عن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان : أن أمه فاطمة بنت الحسين حدثته أن عائشة كانت تقول : أخبرتنى فاطمة أن رسول الله ﷺ أخبرها أنه لم يـكن نبى كان بعده نبى إلا عاش الذى بعده نصف عمر الذى كان قبله ، وأنه أخبرنى أن عيسى بن مريم عاش عشرين ومائة سنة ، فلا أرانى إلا ذاهب على رأس ستين ، هـذا لفظ الفسوى — فهو حديث غريب[1] .

قال الحافظ ابن عساكر : والصحيح أن عيسى لم يبلغ هذا العمر ، وإنما أراد به مدة مقامه فى أمته كما روى سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة قال : قالت فاطمة قال لى رسول الله ﷺ : «إن عيسى بن مريم مكث فى بنى إسرائيل أربعين سنة» . وهذا منقطع . وقال جرير والثورى عن الأعمش : إن عيسى مكث فى قومه أربعين عاماً . ويروى عن أمير المؤمنين علىّ : أن عيسى عليه السلام رفع ليلة الثانى والعشرين من رمضان ، وتلك الليلة فى مثلها توفى علىّ بعد طعنه بخمسة أيام . وقد

(١) قوله : فهو حديث غريب — جواب قوله : فأما الحديث الذى رواه الحاكم .

روى الضحاك عن ابن عباس : أن عيسى لما رفع إلى السماء ، جاءته سحابة فدنت منه حتى جلس عليها وجاءته مريم فودعته وبكت . ثم رفع وهى تنظر ، وألقى إليها عيسى برداً له وقال : هذا علامة ما بينى وبينك يوم القيامة ، وألقى عمامته على شمعون ، وجعلت أمه تودعه بأصبعها تشير بها إليه . حتى غاب عنها . وكانت تحبه حباً شديداً ؛ لأنه توفر عليها حبه من جهتى الوالدين ، إذ لا أب له ، وكانت لاتفارقه سفراً ولا حضراً . قال بعض الشعراء .

وكنت أرى كالموت من بين ساعة　　فكيف ببيْنٍ كان موعده الحشر

وذكر إسحاق بن بشر عن مجاهد بن جبير : أن اليهود لما صلبوا ذلك الرجل الذى شبه لهم وهم ـ يحسبونه المسيح . وسلم لهم أكثر النصارى بجهلهم ذلك ـ تسلطوا على أصحابه بالقتل والضرب والحبس . فبلغ أمرهم إلى صاحب الروم ، وهو ملك دمشق فى ذلك الزمان . فقيل له إن اليهود قد تسلطوا على أصحاب رجل كان يذكر لهم أنه رسول الله . وكان يحيي الموتى ويبرىء الأكمه والأبرص ويفعل العجائب ، فعدوا عليه فقتلوه ، وأهانوا أصحابه وحبسوهم ، فبعث فجىء بهم وفيهم يحيى بن زكريا وشمعون وجماعة ، فسألهم عن أمر المسيح فأخبروه عنه ، فبايعهم فى دينهم وأعلى كلمتهم . وظهر الحق على اليهود . وعلت كلمة النصارى عليهم ، وبعث إلى المصلوب فوضع عن جذعه ، وجىء بالجذع الذى صلب عليه ذلك الرجل فعظّمه . فمن ثم عظمت النصارى الصليب . ومن ها هنا دخل دين النصرانية فى الروم ، وفى هذا نظر من وجوه :

أحدها : أن يحيى بن زكريا نبى لايقر على أن المصلوب عيسى فإنه معصوم يعلم ماوقع على جهة الحق .

الثانى : أن الروم لم يدخلوا فى دين المسيح إلا بعد ثلثمائة سنة ، وذلك فى زمان قسطنطين بن قسطن بانى المدينة المنسوبة إليه على ما سنذكره .

الثالث : أن اليهود لما صلبوا ذلك الرجل ثم ألقوه بخشبته ـ جعلوا مكانه مطرحاً للقمامة والنجاسة وجيف الميتات والقاذورات . فلم يزل كذلك حتى كان فى زمان قسطنطين المذكور ، فعمدت أمه هيلانة الحرانية الفندقانية ، فاستخرجته من هنالك ، معتقدة أنه المسيح ؛ ووجدوا الخشبة التى صلب عليها المصلوب . فذكروا أنه مامسها ذو عاهة إلا عوفى ، فالله أعلم ؛ أكان هذا أم لا . وهل كان هذا لأن ذلك الرجل الذى بذل نفسه كان رجلاً صالحاً ؟ أو كان هذا محنة وفتنة لأمة النصارى فى ذلك اليوم . حتى عظموا تلك الخشبة وغشوها بالذهب واللآلىء ؟ ومن ثم اتخذوا الصلبانات وتبركوا بشكلها وقبلوها . وأمرت أم الملك هيلانة فأزيلت تلك القمامة وبنى مكانها كنيسة هائلة مزخرفة بأنواع الزينة . فهى هذه المشهورة اليوم ببلد بيت المقدس ـ التى يقال لها القمامة . باعتبار ما كان عندها . و يسمونها القيامة ـ يعنون التى يقوم جسد المسيح منها . ثم أمرت هيلانة بأن توضع قمامة البلد وكناسته وقاذوراته

على الصخرة التى هى قبلة اليهود ، فلم يزل كذلك حتى فتح عمر بن الخطاب بيت المقدس ، فكنس عنها القمامة بردائه وطهرها من الأخباث والأنجاس ، ولم يضع المسجد وراءها ولكن أمامها ، حيث صلى رسول الله ﷺ ليلة الإسراء بالأنبياء ـ وهو الأقصى .

ذكر صفة عيسى عليه السلام وشمائله وفضائله

قال الله تعالى : (ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة[1]) . قيل سمى المسيح لمسحه الأرض ؛ وهو سياحته فيها وفراره بدينه من الفتن فى ذلك الزمان ؛ لشدة تكذيب اليهود له ، وافترائهم عليه وعلى أمه عليهما السلام . وقيل : لأنه كان ممسوح القدمين . وقال تعالى : (وقفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى بن مريم وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور) وقال تعالى : (وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس[2]) والآيات فى ذلك كثيرة جداً ، وقد تقدم ما ثبت فى الصحيحين : « ما من مولود إلا والشيطان يطعن فى خاصرته حين يولد فيستهل صارخاً ، إلا مريم وابنها ذهب يطعن فطعن فى الحجاب » . وتقدم حديث عمير بن هانىء عن جنادة عن عبادة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته التى ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنة حق والنار حق ـ أدخله الله الجنة على ما كان من العمل » ، رواه البخارى وهذا لفظه ، ومسلم .

وروى البخارى ومسلم من حديث الشعبى عن أبى بردة بن أبى موسى عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أدّب الرجل أمَته فأحسن تأديبها ، وعلمها فأحسن تعليمها . ثم أعتقها فتزوجها ـ كان له أجران وإذا آمن بعيسى بن مريم ثم آمن بى فله أجران . والعبد إذا اتقى ربه وأطاع مواليه فله أجران » ، هذا لفظ البخارى . وقال البخارى : حدثنا إبراهيم بن موسى ، أنبأنا هشام عن معمر «ح» وحدثنى محمود ، حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا معمر عن الزهرى ، أخبرنى سعيد بن المسيب عن أبى هريرة قال : قال النبى ﷺ : « ليلة أسرى بى لقيت موسى ـ قال ـ فنعته ، فإذا رجل ـ حسبته قال مضطرب ـ رَجِل الرأس . كأنه من رجال شنوءة[3] . قال : ولقيت عيسى فنعته النبى ﷺ فقال : ربعة أحمر ؛ كأنما خرج من ديماس ـ يعنى الحمام ، ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به . . . الحديث» ، وقد تقدم فى قصتى إبراهيم وموسى . ثم قال : حدثنا محمد بن كثير ، أنبأنا إسرائيل عن عثمان بن المغيرة عن مجاهد عن ابن عمر قال : قال النبى ﷺ : «رأيت عيسى وموسى وإبراهيم ؛ فأما عيسى فأحمر جعد عريض الصدر ، وأما موسى فآدم جسيم سبط كأنه من رجال الزُّط[4] » ، تفرد به البخارى .

---

(١) الآية : ٧٥ من سورة المائدة (٢) الآية : ٨٧ من سورة البقرة .
(٣) أزد شنوءة : قبيلة من قبائل اليمن ، سميت بذلك لشنآن بينهم (٤) جيل من السند أو الهند .

وحدثنا إبراهيم بن المنذر ، حدثنا أبو ضمرة ، حدثنا موسى بن عقبة عن نافع قال : قال عبد الله بن عمر : ذكر النبي ﷺ يوماً بين ظهراني الناس المسيح الدجال . فقال : « إن الله ليس بأعور ، ألا وإن المسيح الدجال أعور العين اليمنى كأن عينه عنبة طافئة[1] وأراني الليلة عند الكعبة في المنام ؛ فإذا رجل آدم كأحسن ما يرى من آدم الرجال ، تضرب لمته بين منكبيه ، رَجِل الشعر يقطر رأسه ماء ، واضعاً يديه على منكبي رجلين ، وهو يطوف بالبيت ، فقلت من هذا ؟ فقالوا المسيح بن مريم . ثم رأيت رجلا وراءه جعد قطط[2] أعور عين اليمنى ، كأشبه من رأيت بابن قطن ، واضعاً يده على منكبي رجل يطوف بالبيت ، فقلت من هذا ؟ فقالوا المسيح الدجال » . ورواه مسلم من حديث موسى بن عقبة . ثم قال البخاري : تابعه عبد الله بن نافع ، ثم ساقه من طريق الزهري عن سالم بن عمر قال الزهري : وابن قطن ــ رجل من خزاعة هلك في الجاهلية ، فبين صلوات الله وسلامه عليه صفة المسيحين : مسيح الهدى ومسيح الضلالة ؛ ليعرف هذا إذا نزل فيؤمن به المؤمنون ، ويعرف الآخر فيحذره الموحدون .

وقال البخاري : حدثنا عبدالله بن محمد ، حدثنا عبدالرزاق ، أنبأنا معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « رأى عيسى بن مريم رجلا يسرق ، فقال له أسرقت ؟ قال كلا والذي لا إله إلا هو ، فقال عيسى : آمنت بالله وكذبت عيني » . وكذا رواه محمد بن رافع عن عبد الرزاق . وقال أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة عن حميد الطويل عن الحسن وغيره عن أبي هريرة قال ولا أعلمه إلا عن النبي ﷺ قال : « رأى عيسى رجلا يسرق ، فقال يا فلان أسرقت ؟ فقال لا . والله ما سرقت ، فقال آمنت بالله وكذبت بصري » . وهذا يدل على سجية طاهرة ، حيث قدم حلف ذلك الرجل ، فظن أن أحداً لا يحلف بعظمة الله كاذباً على ما شاهده منه عياناً ، فقبل عذره ورجع على نفسه فقال : آمنت بالله ــ أي صدقتك وكذبت بصري لأجل حلفك .

وقال البخاري : حدثنا محمد بن يوسف ، حدثنا سفيان عن المغيرة بن النعمان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « تحشرون حفاة عراة غُرْلاً[3] » . ثم قرأ : (كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين) فأول الخلق يكسى إبراهيم ، ثم يؤخذ برجال من أصحابي ذات اليمين وذات الشمال ، فأقول أصحابي : فيقال : إنهم لن يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم ، فأقول كما قال العبد الصالح عيسى بن مريم : (وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد * إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم[4]) . تفرد به

---

(١) روى بالهمز وتركه ، فالمهموز : هي التي ذهب نورها ، وغير المهموز التي نتأت وطفت مرتفعة وفيها ضوء .
(٢) شديد جعودة الشعر (٣) أي قلفاً ، والغرلة : القلفة ، والأغرل : الأقلف الذي لم يختتن .
(٤) الآيتان : ١١٧ ، ١١٨ من سورة المائدة .

دون مسلم من هذا الوجه . وقال أيضاً : حدثنا عبدالله بن الزبير الحميدى ، حدثنا سفيان سمعت الزهرى يقول : أخبرنى عبد الله بن عبد الله عن ابن عباس أنه سمع عمر يقول على المنبر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى بن مريم ؛ فإنما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله » .

وقال البخارى : حدثنا إبراهيم ، حدثنا جرير بن حازم عن محمد بن سيرين ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة : عيسى . وكان فى بنى إسرائيل رجل يقال له جريج كان يصلى فجاءته أمه فدعته، فقال أجيبها أو أصلى ، فقالت : اللهم لاتمته حتى تريه وجوه المومسات ، وكان جريج فى صومعة ، فعرضت له امرأة وكلمته فأبى ، فأتت راعياً فأمكنته من نفسها فولدت غلاماً ، فقيل لها ممن ؟ قالت من جريج ، فأتوه فكسروا صومعته وأنزلوه وسبوه ، فتوضأ وصلى ثم أتى الغلام فقال : من أبوك ياغلام ؟ قال : فلان الراعى . قالوا أنبنى صومعتك من ذهب ؟ قال لا — إلا من طين . وكانت امرأة ترضع ابناً لها فى بنى إسرائيل ، فمر بها رجل راكب ذو شارة[1] فقالت : اللهم اجعل ابنى مثله ، فترك ثديها وأقبل على الراكب ، فقال : اللهم لاتجعلنى مثله ، ثم أقبل على ثديها يمصه — قال أبوهريرة : كأنى أنظر إلى النبى صلى الله عليه وسلم يمص أصبعه . ثم مُرَّ بأمة فقالت : اللهم لاتجعل ابنى مثل هذه ، فترك ثديها ، فقال : اللهم اجعلنى مثلها ، فقالت لم ذلك ؟ فقال : الراكب جبار من الجبابرة ، وهذه الأمة يقولون سرقت وزنت ولم تفعل » .

وقال البخارى : حدثنا أبو اليمان ، حدثنا شعيب عن الزهرى ، أخبرنى أبو سلمة — أن أبا هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «أنا أولى الناس بابن مريم ، والأنبياء أولاد عَلَّات[2] ليس بينى وبينه نبى » تفرد به البخارى من هذا الوجه . ورواه ابن حبان فى صحيحه من حديث أبى داود الحفرى عن الثورى عن أبى الزناد عن أبى سلمة عن أبى هريرة . وقال أحمد : حدثنا وكيع . حدثنا سفيان — هو الثورى — عن أبى الزناد عن الأعرج ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا أولى الناس بعيسى عليه السلام ، والأنبياء إخوة أولاد علات ، وليس بينى وبين عيسى نبى » ، وهذا إسناد صحيح على شرطهما ، ولم يخرجوه من هذا الوجه . وأخرجه أحمد عن عبدالرزاق عن معمر عن همام عن أبى هريرة عن النبى ﷺ بنحوه ، وأخرجه ابن حبان من حديث عبد الرزاق نحوه .

وقال أحمد : حدثنا يحيى عن ابن أبى عروبة ، حدثنا قتادة عن عبد الرحمن بن آدم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « الأنبياء إخوة لعلات ، دينهم واحد وأمهاتهم شتى ، وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم ؛ لأنه لم يكن بينى وبينه نبى ، وإنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه ؛ فإنه رجل مربوع إلى الحمرة

---

(١) أى ذو هيئة حسنة (٢) هم الإخوة لأب من أمهات شتى ، والمراد : أن أصولهم واحدة وفروعهم مختلفة .

والبياض ، سبط كان رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل ، بين ممصرتين ؛ فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويعطل الملل حتى يهلك فى زمانه كلها غير الإسلام ، ويهلك الله فى زمانه المسيح الدجال الكذاب ، وتقع الأمنة فى الأرض ، حتى ترتع الإبل مع الأسد جميعاً ، والنمور مع البقر ، والذئاب مع الغنم ، ويلعب الصبيان والغلمان بالحيات لا يضر بعضهم بعضاً ، فيمكث ماشاء الله أن يمكث ، ثم يتوفى فيصلى عليه المسلمون ويدفنونه » .

ثم رواه أحمد عن عفان عن همام عن قتادة عن عبد الرحمن عن أبى هريرة فذكر نحوه ، وقال : فيمكث أربعين سنة . ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون . ورواه أبو داود عن هدبة بن خالد عن همام بن يحيى به نحوه . وروى هشام بن عروة عن صالح مولى أبى هريرة عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « فيمكث فى الأرض أربعين سنة » ، وسيأتى بيان نزوله عليه السلام فى آخر الزمان فى كتاب الملاحم ، كما بسطنا ذلك أيضاً فى التفسير عند قوله تعالى فى سورة النساء : (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً[1]) وقوله : (وإنه لعلم للساعة ... الآية[2]) وإنه ينزل على المنارة البيضاء بدمشق وقد أقيمت صلاة الصبح ، فيقول له إمام المسلمين : تقدم ياروح الله فصل ، فيقول : لا ـ بعضكم على بعض أمراء مكرمة الله هذه الأمة . وفى رواية فيقول له عيسى : إنما أقيمت الصلاة لك فيصلى خلفه ، ثم يركب ومعه المسلمون فى طلب المسيح الدجال ، فيلحقه عند باب لد فيقتله بيده الكريمة . وذكرنا أنه أقوى الرجال حين بنيت هذه المنارة الشرقية بدمشق التى هى من حجارة بيض ، وقد بنيت أيضاً من أموال النصارى حين حرقوا التى هدمت وما حولها ، فينزل عليها عيسى ابن مريم ، عليه السلام فيقتل الخنزير ويكسر الصليب ، ولا يقبل من أحد إلا الإسلام . وأنه يحج من فج الروحاء حاجاً أو معتمراً أو لثنتيهما ، ويقيم أربعين سنة ، ثم يموت فيدفن — فيما قيل — فى الحجرة النبوية عند رسول الله ﷺ وصاحبيه . وقد ورد فى ذلك حديث ذكره ابن عساكر فى آخر ترجمة المسيح عليه السلام فى كتابه ، عن عائشة مرفوعاً : أنه يدفن مع رسول الله ﷺ وأبى بكر وعمر فى الحجرة النبوية ، ولكن لا يصح إسناده .

وقال أبو عيسى الترمذى : حدثنا زيد بن أخزم الطائى ، حدثنا أبو قتيبة مسلم بن قتيبة ، حدثنى أبو مودود المدنى ، حدثنا عثمان بن الضحاك عن محمد بن يوسف بن عبد الله بن سلام عن أبيه عن جده قال : مكتوب فى التوراة صفة محمد ، وعيسى بن مريم عليه السلام يدفن معه . قال أبو مودود : وقد بقى من البيت موضع قبر . ثم قال الترمذى هذا حديث حسن كذا قال ، والصواب ـ الضحاك بن عثمان المدنى ، وقال البخارى : هذا الحديث لا يصح عندى ولا يتابع عليه .

---

(١) الآية : ١٥٩ . (٢) الآية : ٦١ من سورة الزخرف .

وروى البخارى عن يحيى بن حماد عن ابن عوانة عن عاصم الأحول ، عن أبى عثمان النهدى عن سلمان قال : الفترة مابين عيسى ومحمد ﷺ ستمائة سنة ، وعن قتادة خمسمائة وستون سنة ، وقيل خمسمائة وأربعون سنة ، وعن الضحاك أربعمائة وبضع وثلاثون سنة . والمشهور ستمائة سنة ، ومنهم من يقول ستمائة وعشرون سنة بالقمرية ، لتكون ستمائة بالشمسية ، والله أعلم .

وقال ابن حبان فى صحيحه : [ذكر المدة التى بقيت فيها أمة عيسى على هديه] حدثنا أبو يعلى ، حدثنا أبو همام ، حدثنا الوليد بن مسلم عن الهيثم بن حميد عن الوضين بن عطاء عن نصر بن علقمة عن جبير بن نفير عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « لقد قبض الله داود من بين أصحابه فما فتنوا ولا بدلوا ، ولقد مكث أصحاب المسيح على سنته وهديه مائتى سنة » ، وهذا حديث غريب جداً وإن صححه ابن حبان . وذكر ابن جرير عن محمد بن إسحاق : أن عيسى عليه السلام قبل أن يرفع — وصى الحواريين بأن يدعو الناس إلى عبادة الله وحده لاشريك له ، وعين كل واحد منهم إلى طائفة من الناس فى إقليم من الأقاليم ؛ من الشام والمشرق وبلاد المغرب ، فذكروا أنه أصبح كل إنسان منهم يتكلم بلغة الذين أرسله المسيح إليهم . وذكر غير واحد : أن الإنجيل نقله عنه أربعة : لوقا ومتى ومرقس ويوحنا ، وبين هذه الأناجيل الأربعة — تفاوت كثير بالنسبة إلى كل نسخة ونسخة ، وزيادات كثيرة ونقص بالنسبة إلى الأخرى . وهؤلاء الأربعة ؛ منهم اثنان ممن أدرك المسيح ورآه وهما : متى ويوحنا ، ومنهم اثنان من أصحاب أصحابه[1] وهما : مرقس ولوقا . وكان ممن آمن بالمسيح وصدقه من أهل دمشق رجل يقال له ضينا ، وكان مختفياً فى مغارة داخل الباب الشرقى قريباً من الكنيسة المصلبة ؛ خوفاً من بولص اليهودى ، وكان ظالماً غاشماً مبغضاً للمسيح . ولما عرف جاء به — وكان قد حلق رأس ابن أخيه حين آمن بالمسيح وطاف به فى البلد ، ثم رجمه حتى مات رحمه الله . ولما سمع بولص أن المسيح عليه السلام قد توجه نحو دمشق — جهز بغاله وخرج ليقتله . فتلقاه عند « كوكبا » ، فلما واجه أصحاب المسيح جاء إليه ملك فضرب وجهه بطرف جناحه فأعماه : فلما رأى ذلك وقع فى نفسه تصديق المسيح ، فجاء إليه واعتذر عما صنع وآمن به ، فقبل منه ، وسأله أن يمسح عينيه ليرد الله عليه بصره . فقال اذهب إلى « ضينا » عندك بدمشق فى طرف السوق المستطيل من المشرق فهو يدعو لك ، فجاء إليه فدعا ، فرد عليه بصره وحسن إيمان بولص بالمسيح عليه السلام أنه عبد الله ورسوله ، وبنيت له كنيسة

---

(١) لبعضهم : يرد على النصارى فى قولهم بصلب المسيح وتسليمه لليهود ، ودعواهم أنه ابن الله :

عجباً للمسيح بين النصارى * وإلى الله ولداً نسبوه أسلموه إلى اليهود وقالوا * إنهم بعد قتله صلبوه
فإن كان ما تقولون حقاً * وصحيحاً فأين كان أبوه ؟ حين خلى ابنه رهين الأعادى * أتراهم أرضوه أم أغضبوه ؟
فلئن كان راضياً بأذاهم * فاعذروهم لأنهم وافقوه ولئن كان ساخطاً فاتركوه * واعبدوهم لأنهم غلبوه

باسمه فهى كنيسة بولص المشهورة بدمشق ، من زمن فتحها الصحابة رضى الله عنهم ، حتى خربت فى الزمان الذى سنورده إن شاء الله تعالى .

فصــــل

اختلف أصحاب المسيح عليه السلام بعد رفعه إلى السماء فيه على أقوال ، كما قاله ابن عباس وغيره من أئمة السلف ، كما أوردناه عند قوله : (فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين) . قال ابن عباس وغيره : قال قائلون منهم : كان فينا عبد الله ورسوله فرفع إلى السماء ، وقال آخرون : هو الله ، وقال آخرون : هو ابن الله . فالأول هو الحق ، والقولان الآخران كفر عظيم كما قال : (فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم[1]) .

وقد اختلفوا فى نقل الأناجيل على أربعة أقاويل : مابين زيادة ونقصان ، وتحريف وتبديل . ثم بعد المسيح بثلثمائة سنة — حدثت فيها الطامة العظمى والبلية الكبرى — اختلف البتاركة الأربعة ، وجميع الأساقفة والقساوسة والشمامسة والرهابين فى المسيح ، على أقوال متعددة لاتنحصر ولا تنضبط . واجتمعوا وتحاكموا إلى الملك قسطنطين بانى القسطنطينية ، وهم المجمع الأول . فصار الملك إلى قول أكثر فرقة اتفقت على قول من تلك المقالات ، فسموا الملائكة ، ودحض من عداهم وأبعدهم . وتفردت الفرقة التابعة لعبد الله بن أديوس الذى ثبت على أن عيسى عبد من عباد الله ، ورسول من رسله ، فسكنوا البرارى والبوادى ، وبنوا الصوامع والديارات والقلايات . وقنعوا بالعيش الزهيد ولم يخالطوا أولئك الملل والنحل . وبنت الملائكة الكنائس الهائلة ، وعمدوا إلى ما كان من بناء اليونان فحولوا محاريبها إلى الشرق ، وقد كانت إلى الشمال إلى الجدى .

بيان بناء بيت لحم والقمامة

وبنى الملك قسطنطين بيت لحم على محل مولد المسيح ، وبنت أمه هيلانة القمامة — يعنى على قبر المصلوب ـ وهم يسلمون لليهود أنه المسيح . وقد كفرت هؤلاء وهؤلاء ووضعوا القوانين والأحكام . ومنها ماهو مخالف للعتيقة التى هى التوراة ، وأحلوا أشياء هى حرام بنص التوراة ، ومن ذلك الخنزير . وصلوا إلى الشرق ولم يكن المسيح صلى إلا إلى صخرة بيت المقدس . وكذلك جميع الأنبياء بعد موسى ، ومحمد خاتم النبيين صلى إليها بعد هجرته إلى المدينة ـ ستة عشر أو سبعة عشر شهراً ، ثم حول إلى الكعبة التى بناها إبراهيم الخليل . وصوروا الكنائس ولم تكن مصورة قبل ذلك ، ووضعوا العقيدة التى يحفظها أطفالهم ونساؤهم ورجالهم ـ التى يسمونها بالأمانة ، وهى فى الحقيقة أكبر الكفر والخيانة ،

(١) الآية : ٣٧ من سورة مريم .

وجميع الملكية والنسطورية أصحاب نسطورس أهل المجمع الثانى ، واليعقوبية أصحاب يعقوب البرادعى أصحاب المجمع الثالث ـ يعتقدون هذه العقيدة ويختلفون فى تفسيرها . وها أنا أحكيها ـ وحاكى الكفر ليس بكافر ؛ لأبث[1] على ما فيها من ركة الألفاظ ، وكثرة الكفر والخبال المفضى بصاحبه إلى النار ذات الشواظ ، فيقولون : نؤمن بإله واحد ضابط الكل ، خالق السموات والأرض ، كل ما يرى وكل ما لا يرى ، وبرب واحد يسوع المسيح بن الله الوحيد ، المولود من الأب قبل الدهور ، نور من نور ، إله حق من إله حق ، مولود غير مخلوق ، مساو للأب فى الجوهر الذى كان به كل شىء من أجلنا نحن البشر ، ومن أجل خلاصنا نزل من السماء ، وتجسد من روح القدس ومن مريم العذراء ، وتأنس وصلب على عهد ملاطس النبطى ، وتألم وقبر وقام فى اليوم الثالث كما فى الكتب ، وصعد إلى السماء وجلس عن يمين الأب . وأيضاً فسيأتى بجسده ليدبر الأحياء والأموات الذى لا فناء لملكه ، وروح القدس الرب المحيي المنبثق من الأب مع الأب والابن مسجود له ، ويمجد الناطق فى الأنبياء كنسبة واحدة جامعة مقدسة يهولية ، واعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا ، وأنه حى قيامة الموتى وحياة الدهر العتيد كونه آمين .

كتاب أخبار الماضين

من بنى إسرائيل وغيرهم إلى آخر زمنة الفتر سوى أيام العرب وجاهليتهم

سنورد ذلك بعد فراغنا من هذا الفصل إن شاء الله تعالى . قال الله تعالى : (كذلك نقص عليك من أنباء الرسل ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكراً[2]) ؛ وقال : (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين[3]) .

خبر ذى القرنين

قال الله تعالى : (ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً * إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سبباً فأتبع سبباً * حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة ووجد عندها قوماً * قلنا ياذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً * قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً * وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى ، وسنقول له من أمرنا يسراً * ثم أتبع سبباً * حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً * كذلك وقد أحطنا بما لديه خبراً * ثم أتبع سبباً * حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولا * قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض ، فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً ؟ * قال ما مكنى فيه ربى خير ، فأعينونى بقوة أجعل بينكم

---

(١) أى لأنشر وأظهر هذا الخلط . (٢) الآية : ٩٩ من سورة طه . (٣) الآية : ٣ من سورة يوسف .

وبينهم ردماً * آتونى زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا ، حتى إذا جعله ناراً قال آتونى أفرغ عليه قطراً * فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا * قال هذا رحمة من ربى فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء وكان وعد ربى حقاً) [(١)] .

ذكر الله تعالى ذا القرنين هذا ، وأثنى عليه بالعدل ، وأنه بلغ المشارق والمغارب ، وملك الأقاليم وقهر أهلها ، وسار فيهم بالمعدلة التامة ، والسلطان المؤيد المظفر المنصور القاهر المقسط . والصحيح أنه كان ملكا من الملوك العادلين ، وقيل كان نبياً ، وقيل رسولا . وأغرب من قال : كان ملكا من الملائكة ، وقد حكى هذا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ؛ فإنه سمع رجلا يقول لآخر : ياذا القرنين ، فقال ، مه ، ما كفاكم أن تتسموا بأسماء الأنبياء حتى تسميتم بأسماء الملائكة ، ذكره السهيلى . وقد روى وكيع عن إسرائيل عن جابر عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو قال : كان ذو القرنين نبياً . وروى الحافظ ابن عساكر من حديث أبى محمد بن أبى نصر عن أبى إسحاق بن إبراهيم بن محمد بن أبى ذؤيب ، حدثنا محمد بن حماد ، أنبأنا عبد الرزاق عن معمر ، عن ابن أبى ذؤيب عن المقبرى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا أدرى أتبع كان لعيناً أم لا ؟ ولا أدرى الحدود كفارات لأهلها أم لا ؟ ولا أدرى أذو القرنين كان نبياً أم لا ؟ » . وهذا غريب من هذا الوجه . وقال إسحاق بن بشر عن عثمان بن الساج عن خصيف عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان ذو القرنين ملكا صالحاً رضى الله عمله ، وأثنى عليه فى كتابه ، وكان منصوراً ، وكان الخضر وزيره .

وذكر أن الخضر — عليه السلام — كان على مقدمة جيشه ، وكان عنده بمنزلة المشاور الذى هو من الملك بمنزلة الوزير فى إصلاح الناس اليوم . وقد ذكر الأزرقى وغيره : أن ذا القرنين أسلم على يدى إبراهيم الخليل ، وطاف معه بالكعبة المكرمة هو وإسماعيل عليه السلام . وروى عن عبيد بن عمير وابنه عبد الله وغيرهما : أن ذا القرنين حج ماشياً ، وأن إبراهيم لما سمع بقدومه تلقاه ودعا له ووصاه ، وأن الله سخر لذى القرنين السحاب يحمله حيث أراد ، والله أعلم .

واختلفوا فى السبب الذى سمى بهذا القرنين ؛ فقيل : لأنه كان له فى رأسه شبه القرنين ، قال وهب ابن منبه : كان له قرنان من نحاس فى رأسه ، وهذا ضعيف . وقال بعض أهل الكتاب : لأنه ملك فارس والروم ، وقيل لأنه بلغ قرنى الشمس غرباً وشرقاً ، وملك ما بينهما من الأرض ، وهذا أشبه من غيره وهو قول الزهرى . وقال الحسن البصرى : كانت له غديرتان من شعر يضفيهما فسمى ذا القرنين ، وقال إسحاق بن بشر عن عبد الله بن زياد بن سمعان عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده أنه قال : دعا ملكا جباراً إلى الله فضربه على قرنه فكسره ورضه ، ثم دعاه فدق قرنه الثانى

(١) الآيات : ٨٣ — ٩٨ .

فكسره فسمى ذا القرنين وروى الثورى عن حبيب بن أبى ثابت عن أبى الطفيل عن على بن أبى طالب أنه سئل عن ذى القرنين فقال : كان عبداً ناصحَ اللهَ فناصحه ، دعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه فمات ، فأحياه الله ، فدعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه الآخر فمات ، فسمى ذا القرنين . وهكذا رواه شعبة عن القاسم بن أبى بزة عن أبى الطفيل عن علىّ به . وفى بعض الروايات عن أبى الطفيل عن على قال : لم يكن نبياً ولا رسولا ولا ملكا ، ولكن كان عبداً صالحاً .

وقد اختلف فى اسمه ؛ فروى الزبير بن بكار عن ابن عباس : كان اسمه عبد الله بن الضحاك بن معد ، وقيل مصعب بن عبدالله بن قنان بن منصور بن عبد الله بن الأزد بن غوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن قحطان . وقد جاء فى حديث : أنه كان من حمير وأمه رومية ، وأنه كان يقال له ابن الفيلسوف لعقله . وقد أنشد بعض الحميريين[1] فى ذلك شعراً يفتخر بكونه أحد أجداده فقال :

قد كان ذوالقرنين جدى[2] مسلماً   ملكا تدين له الملوك وتحشد[3]
بلغ المشارق والمغارب يبتغى   أسباب أمر من حكيم مرشد
فرأى مغيب الشمس عند غروبها   فى عين ذى خُلُب و ثَأط حَرمد[4]
من بعده بلقيس كانت عمتى   ملكتهمُ حتى أتاها الهدهد

قال السهيلى : وقيل كان اسمه مرزبان بن مرزبة ، ذكره ابن هشام ، وذكر فى موضع آخر : أن اسمه الصعب بن ذى مرأد وهو أول التبابعة ، وهو الذى حكم لإبراهيم فى بئر السبع . وقيل إنه أفريدون ابن أسفيان الذى قتل الضحاك . وفى خطبة قس : يا معشر إياد أين الصعب ذو القرنين ، ملك الخافقين ، وأذل الثقلين ، وعمر ألفين ، ثم كان ذلك كلحظة عين ؟ ثم أنشد ابن هشام للأعشى :

والصعب ذو القرنين أصبح ثاوياً   بالجنو فى جدث، أشم مقيما

وذكر الدارقطنى وابن ماكولا : أن اسمه هرمس ، ويقال هرويس بن قبطون بن رومى بن لنطى بن كشلوخين بن يونان بن يافث بن نوح ، فالله أعلم .

---

(١) هو تبع اليمانى كما فى تفسير الألوسى .   (٢) فى رواية : قبلى .

(٣) فى رواية : وتسجد . وعلى كلتا الروايتين فى القصيدة عيب من عيوب القافية يسميه العروضيون ـ الإقواء ؛ وهو اختلاف القوافى بالضم والكسر . وقد ذكر الألوسى البيت الأول هكذا :

قد كان ذو القرنين جدى مسلما   ملكا علا فى الأرض غير مفند

واقتصر على الأبيات الثلاثة وعليه فلا إقواء .

(٤) الخلب كما فى اللسان : الطين الأسود ، وقيل طين الحمأة ، وقيل الطين عامة . والثأطة : الحمأة والطين ، والجمع ثأط ، والحرمد : المتغير اللون والرائحة وقال ابن عباس : الخلب : الحمأة ، والثأط : ما تحتها من الطين ، والحرمد : ما تحته من الحصى والحجر .

وقال إسحاق بن بشر عن سعيد بن بشير ، عن قتادة قال : اسكندر ــ هو ذو القرنين ، وأبوه أول القياصرة . وكان من ولد سام بن نوح عليه السلام . فأما ذو القرنين الثانى ، فهو اسكندر بن فيليس ابن مصريم بن هرمس بن ميطون بن رومى بن لنطى بن يونان بن يافث بن يونة بن شرخون ابن رومة بن شرفط بن توفيل بن رومى بن الأصفر بن يقز بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل ، كذا نسبه الحافظ ابن عساكر فى تاريخه . المقدونى اليونانى المصرى بانى الإسكندرية الذى يؤرخ بأيامه الروم ، وكان متأخراً عن الأول بدهر طويل ؛ كان هذا قبل المسيح بنحو من ثلاثمائة سنة ، وكان إرطاطاليس الفيلسوف وزيره . وهو الذى قتل دارا بن دارا ، وأذل ملوك الفرس وأوطأ أرضهم .

وإنما نبهنا عليه لأن كثيراً من الناس يعتقد أنهما واحد ، وأن المذكور فى القرآن هو الذى كان إرطاطاليس وزيره ، فيقع بسبب ذلك خطأ كبير ، وفساد عريض طويل كثير ؛ فإن الأول كان عبداً مؤمناً صالحاً ، وملكا عادلا ، وكان وزيره الخضر ، وقد كان نبياً على ما قررناه قبل هذا . وأما الثانى فكان مشركاً ، وكان وزيره فيلسوفاً ، وقد كان بين زمانيهما أزيد من ألفى سنة ، فأين هذا من هذا ؟ لا يستويان ولا يشتبهان إلا على غبى لا يعرف حقائق الأمور .

قوله تعالى : (ويسألونك عن ذى القرنين) ــ كان سببه أن قريشاً سألوا اليهود عن شىء يمتحنون به علم رسول الله ﷺ ، فقالوا لهم : سلوه عن رجل طواف فى الأرض ، وعن فتية خرجوا لا يدرى ما فعلوا ، فأنزل الله تعالى قصة أصحاب الكهف ، وقصة ذى القرنين . ولهذا قال : (قل سأتلو عليكم منه) أى من خبره وشأنه (ذكراً) أى خبراً نافعاً كافياً فى تعريف أمره وشرح حاله ، فقال : (إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سبباً) أى وسعنا مملكته فى البلاد ، وأعطيناه من آلات المملكة ما يستعين به على تحصيل ما يحاوله من المهمات العظيمة والمقاصد الجسيمة . قال قتيبة عن أبى عوانة عن سماك عن حبيب بن حماد قال : كنت عند على بن أبى طالب ، وسأله رجل عن ذى القرنين كيف بلغ المشرق والمغرب ؟ فقال له : سخر له السحاب ، ومدت له الأسباب ، وبسط له فى النور ، وقال : أزيدك ؟ فسكت الرجل وسكت على رضى الله عنه .

وعن أبى إسحاق السبيعى عن عمرو بن عبد الله الوادعى ، سمعت معاوية يقول : ملك الأرض أربعة ؛ سليمان بن داود النبى عليهما السلام ، وذو القرنين ، ورجل من أهل حلوان ، ورجل آخر . فقيل له : الخضر ؟ قال ــ لا . وقال الزبير بن بكار : حدثنى إبراهيم بن المنذر عن محمد بن الضحاك عن أبيه عن سفيان الثورى قال : بلغنى أنه ملك الأرض كلها أربعة : مؤمنان وكافران ؛ سليمان النبى وذو القرنين ، ونمرود وبخت نصر . وهكذا قال سعيد بن بشير سواء .

وقال إسحاق بن بشر عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن قال : كان ذو القرنين ملك بعد النمرود . وكان من قصته : أنه كان رجلا مسلماً صالحاً أتى المشرق والمغرب ، مد الله له فى الأجل ونصره حتى قهر البلاد ، واحتوى على الأموال وفتح المدائن ، وقتل الرجال وجال فى البلاد والقلاع ، فسار حتى أتى المشرق والمغرب ، فذلك قول الله : (ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً) أى خبراً ، (إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سبباً) أى علماً بطلب أسباب المنازل .

قال إسحاق : وزعم مقاتل أنه كان يفتح المدائن ويجمع الكنوز ، فمن اتبعه على دينه وتابعه عليه — وإلا قتله . وقال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وعبيد بن يعلى والسدى وقتادة والضحاك ، (وآتيناه من كل شىء سبباً) — يعنى علماً ، وقال قتادة ومطر الوراق : معالم الأرض ومنازلها وأعلامها وآثارها ، وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم : يعنى تعليم الألسنة . وكان لايغزو قوماً إلا حدثهم بلغتهم ، والصحيح أنه يعم كل سبب يتوصل به إلى نيل مقصوده فى المملكة وغيرها ؛ فإنه كان يأخذ من كل إقليم من الأمتعة والمطاعم والزاد مايكفيه ويعينه على أهل الإقليم الآخر . وذكر بعض أهل الكتاب أنه مكث ألفاً وستمائة سنة يجوب الأرض ويدعو أهلها إلى عبادة الله وحده لاشريك له ، وفى كل هذه المدة نظر ، والله أعلم .

وقد روى البيهقى وابن عساكر حديثاً متعلقاً بقوله : (وآتيناه من كل شىء سبباً) — مطولا جداً وهو منكر جداً . وفى إسناده محمد بن يونس الكديمى وهو متهم ؛ فلهذا لم نكتبه لسقوطه عندنا ، والله أعلم .

وقوله : (فأتبع سبباً) أى طريقاً (حتى إذا بلغ مغرب الشمس) يعنى من الأرض ، انتهى إلى حيث لا يمكن أحداً أن يجاوزه ، ووقف على حافة البحر المحيط الغربى الذى يقال له أوقيانوس ، الذى فيه الجزائر المسماة بالخالدات ، التى هى مبدأ الأطوال على أحد قولى أرباب الهيئة ، والثانى من ساحل هذا البحر كما قدمنا . وعنده شاهد مغيب الشمس فيما رآه بالنسبة إلى مشاهدته (تغرب فى عين حمئة) والمراد بها البحر فى نظره ؛ فإن من كان فى البحر أو على ساحله يرى الشمس كأنها تطلع من البحر وتغرب فيه ولهذا قال : (وجدها) أى فى نظره ، ولم يقل فإذا هى تغرب فى عين حمئة — أى ذات حمأة ، قال كعب الأحبار : وهو الطين الأسود . وقرأه بعضهم حامية ؛ فقيل يرجع إلى الأول ، وقيل من الحرارة ، وذلك من شدة المقابلة لوهج ضوء الشمس وشعاعها .

وقد روى الإمام أحمد عن يزيد بن هارون عن العوام بن حوشب ، حدثنى مولى لعبد الله بن عمرو عن عبد الله ، قال : نظر رسول الله ﷺ إلى الشمس حين غابت فقال : « فى نار الله الحامية لولا ما يزعها من أمر الله لأحرقت ما على الأرض » فيه غرابة ، وفيه رجل مبهم لم يسم ، ورفعه فيه نظر ،

وقد يكون موقوفاً من كلام عبد الله بن عمرو ؛ فإنه أصاب يوم اليرموك زاملتين من كتب المتقدمين ، فكان يحدث منهما ، والله أعلم .

ومن زعم من القصاص أن ذا القرنين جاوز مغرب الشمس ، وصار يمشى بجيوشه فى ظلمات مدداً طويلة — فقد أخطأ وأبعد النجعة ، وقال ما يخالف العقل والنقل .

بيان طلب ذى القرنين عين الحياة

وقد ذكر ابن عساكر من طريق وكيع عن أبيه عن معتمر بن سليمان عن أبى جعفر الباقر عن أبيه زين العابدين — خبراً مطولا جداً ؛ فيه أن ذا القرنين كان له صاحب من الملائكة يقال له رناقيل ، فسأله ذو القرنين : هل تعلم فى الأرض عيناً يقال لها عين الحياة ؟ فذكر له صفة مكانها ، فذهب ذو القرنين فى طلبها وجعل الخضر على مقدمته ، فانتهى الخضر إليها فى واد فى أرض الظلمات فشرب منها ولم يهتد ذو القرنين إليها . وذكر اجتماع ذى القرنين ببعض الملائكة فى قصر هناك ، وأنه أعطاه حجراً فلما رجع إلى جيشه سأل العلماء عنه ؛ فوضعوه فى كفة ميزان وجعلوا فى مقابلته ألف حجر مثله فوزنها ، حتى سأل الخضر فوضع قباله حجراً ، وجعل عليه حفنة من تراب فرجح به . وقال : هذا مثل ابن آدم لا يشبع حتى يوارى بالتراب ، فسجد له العلماء تكريماً له وإعظاماً ، والله أعلم .

ثم ذكر تعالى أنه حكم فى أهل تلك الناحية : (قلنا ياذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً * قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً) أى فيجتمع عليه عذاب الدنيا والآخرة ، وبدأ بعذاب الدنيا لأنه أزجر عند الكافر ، (وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا) فبدأ بالأهم وهو ثواب الآخرة ، وعطف عليه الإحسان منه إليه — وهذا هو العدل والعلم والإيمان . قال الله تعالى : (ثم أتبع سبباً) أى سلك طريقاً راجعاً من المغرب إلى المشرق ؛ فيقال إنه رجع فى ثنتى عشرة سنة ، (حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا) أى ليس لهم بيوت ولا أكنان يستترون بها من حر الشمس . قال كثير من العلماء : ولكن كانوا يأوون إذا اشتد عليهم الحر إلى أسراب قد اتخذوها فى الأرض شبه القبور ؛ قال الله تعالى : (كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا) أى ونحن نعلم ما هو عليه ، ونحفظه ونكلؤه بحراستنا فى مسيره ذلك كله ، من مغارب الأرض إلى مشارقها .

وقد روى عن عبيد بن عمير وابنه عبد الله وغيرهما من السلف : أن ذا القرنين حج ماشياً ، فلما سمع إبراهيم الخليل بقدومه — تلقاه ، فلما اجتمعا دعا له الخليل ، ووصاه بوصايا . ويقال إنه جىء بفرس ليركبها فقال : لا أركب فى بلد فيه الخليل ، فسخر الله له السحاب ، وبشره إبراهيم بذلك ، فكانت

تحمله إذا أراد . وقوله تعالى : (ثم أتبع سبباً * حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوماً لايكادون يفقهون قولا) يعنى غشما . يقال إنهم هم الترك أبناء عم يأجوج ومأجوج . فذكروا له أن هاتين القبيلتين قد تعدوا عليهم وأفسدوا فى بلادهم وقطعوا السبل عليهم ، وبذلوا له جعلا – وهو الخراج – على أن يقيم بينهم وبينهم حاجزاً يمنعهم من الوصول إليهم ، فامتنع من أخذ الخراج اكتفاء بما أعطاه الله من الأموال الجزيلة ، (قال ما مكنى فيه ربى خير) . ثم طلب منهم أن يجمعوا له رجالا وآلات ليبنى بينهم وبينهم سداً – وهو الردم بين الجبلين – وكانوا لا يستطيعون الخروج إليهم إلا من بينهما ، وبقية ذلك بحار مغرقة وجبال شاهقة ، فبناه كما قال تعالى – من الحديد والقطر – وهو النحاس المذاب ، وقيل الرصاص ، والصحيح الأول . فجعل بدل اللبن حديداً ، وبدل الطين نحاساً ، ولهذا قال تعالى : (فما اسطاعوا أن يظهروه) أى يعلوا عليه بسلالم ولاغيرها ، (وما استطاعوا له نقباً) أى بمعاول ولافئوس ولاغيرها ، فقابل الأسهل بالأسهل ، والأشد بالأشد [1] (قال هذا رحمة من ربى) أى قدر الله وجوده ليكون رحمة منه بعباده – أن يمنع بسببه عدوان هؤلاء القوم على من جاورهم فى تلك المحلة . (فإذا جاء وعد ربى) أى الوقت الذى قدر خروجهم على الناس فى آخر الزمان – (جعله دكاء) أى مساوياً للأرض ولا بد من كون هذا ؛ ولهذا قال : (وكان وعد ربى حقاً) كما قال تعالى : (حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون * واقترب الوعد الحق . . . الآية [2]) ولذا قال هٰهنا : (وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض) يعنى يوم فتح السد على الصحيح ، (ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعاً) وقد أوردنا الأحاديث المروية فى خروج يأجوج ومأجوج فى التفسير . وسنوردها إن شاء الله فى كتاب الفتن والملاحم من كتابنا هذا ؛ إذا انتهينا إليه بحول الله وقوته ، وحسن توفيقه ومعونته وهدايته .

قال أبو داود الطيالسى عن الثورى : بلغنا أن من أول من صافح ذو القرنين . وروى عن كعب الأحبار أنه قال لمعاوية : إن ذا القرنين لماحضرته الوفاة أوصى أمه ؛ إذا هو مات أن تصنع طعاماً وتجمع نساء أهل المدينة وتضعه بين أيديهن ، وتأذن لهن فيه إلا من كانت ثكلى فلا تأكل منه شيئاً . فلما فعلت ذلك لم تضع واحدة منهن يدها فيه . فقالت لهن : سبحان الله ! كلكن ثكلى ، فقلن : إى والله مامنا إلا من أثكلت ، فكان ذلك تسلية لأمه . وذكر إسحاق بن بشر عن عبد الله بن زياد عن بعض أهل الكتاب – وصية ذى القرنين ، وموعظة أمه بليغة طويلة ، فيها حكم وأمور نافعة ، وأنه مات وعمره ثلاثة آلاف سنة وهذا غريب . قال ابن عساكر : وبلغنى من وجه آخر أنه عاش ستاً وثلاثين سنة ، وقيل كان عمره ثنتين وثلاثين سنة . وكان بعد داود بسبعمائة سنة وأربعين سنه ، وكان بعد آدم بخمسة آلاف ومائة وإحدى وثمانين سنة ، وكان ملكه ست عشرة سنة . وهذا الذى ذكره إنما ينطبق على إسكندر

(١) فإن الظهور عليه أسهل من النقب ، فقابل كلا بما يناسبه (٢) الآيتان : ٩٦ ، ٩٧ من سورة الأنبياء .

الثانى لا الأول ، وقد خلط فى أول الترجمة وآخرها بينهما ، والصواب التفرقة كما ذكرنا ، اقتداء بجماعة من الحفاظ ، والله أعلم .

وممن جعلهما واحداً ـ الإمام عبد الملك بن هشام راوى السيرة ، وقد أنكر ذلك عليه الحافظ أبو القاسم السهيلى رحمه الله إنكاراً بليغاً ، ورد قوله رداً شنيعاً ، وفرق بينهما تفريقاً جيداً كما قدمنا . قال ولعل جماعة من الملوك المتقدمين تسموا بذى القرنين تشبهاً بالأول ، والله أعلم[١] .

ذكر أمتى يأجوج ومأجوج وصفاتهم

وماورد من أخبارهم ، وصفة السد

هم من ذرية آدم بلا خلاف نعلمه ، ثم الدليل على ذلك ما ثبت فى الصحيحين من طريق الأعمش عن أبى صالح عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله تعالى يوم القيامة : يا آدم قم فابعث بَعث[٢] النار من ذريتك ، فيقول يارب ومابعث النار ؟ فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار ، وواحد إلى الجنة ؛ فحينئذ يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد . قالوا يارسول الله أينا ذلك الواحد ؟ فقال رسول الله ﷺ : أبشروا فإن منكم واحداً ، ومن يأجوج ومأجوج ألفاً »[٣] ، وفى رواية فقال : « أبشروا فإن فيكم أمتين ما كانتا فى شىء إلا كثرتاه » أى غلبتاه كثرة ، وهذا يدل على كثرتهم وأنهم أضعاف الناس مراراً عديدة . ثم هم من ذرية نوح ؛ لأن الله تعالى أخبر أنه استجاب لعبده نوح فى دعائه على أهل الأرض بقوله : (رب لاتذر على الأرض من الكافرين دياراً[٤]) ، وقال تعالى : (فأنجيناه وأصحاب السفينة[٥]) ، وقال : (وجعلنا ذريته هم الباقين[٦]) . وتقدم فى الحديث المروى فى المسند والسنن أن نوحاً ولد له ثلاثة ، وهم : سام ، وحام ، ويافث . فسام أبو العرب ، وحام أبو السودان ، ويافث أبو الترك . فيأجوج ومأجوج طائفة من الترك وهم مَغل[٧] المغول ، وهم أشد بأساً وأكثر فساداً من هؤلاء ، ونسبتهم إليهم كنسبة هؤلاء إلى غيرهم . وقد قيل : إن الترك إنما سموا بذلك حين بنى ذو القرنين السد ، وألجأ يأجوج ومأجوج إلى ما وراءه ، فبقيت منهم طائفة لم يكن عندهم كفسادهم ، فتركوا من ورائه ؛ فلهذا قيل لهم الترك .

---

(١) ذهب النيسابورى والفخر الرازى والبيضاوى وتبعهم جمهور من المفسرين والمؤرخين ـ إلى أن ذا القرنين هو الاسكندر الرومى بن فيليبوس المقدونى لأنه هو الذى فتح أكثر ماعرف فى الدنيا إذ ذاك ، ولو كان غيره لانتشر خبره ولم يعرف مكانه ، وقد كتب الأستاذ فريد وجدى بحثاً قيما فى دائرة معارف القرن العشرين فى مادة «أسك» معضداً هذا الرأى ، وجها ماورد من الآثار والأحاديث فارجع إليه إن شئت (٢) أى مبعوث النار وهو حزبها (٣) هذا الحديث فى البخارى مع زيادة واختلاف فى بعض الألفاظ . (٤) سورة نوح . (٥) الآية : ١٥ من سورة العنكبوت .
(٦) الآية : ٧٧ من سورة الصافات (٧) المغل : الوسخ الذى يجتمع فى العين ، يريد أنهم من مفسديهم .

ومن زعم أن يأجوج ومأجوج خلقوا من نطفة آدم حين احتلم ، فاختلطت بتراب فخلقوا من ذلك ، وأنهم ليسوا من حواء — فهو قول حكاه الشيخ أبو زكريا النواوى فى شرح مسلم وغيره ، وضعفوه . وهو جدير بذلك ؛ إذ لا دليل عليه ، بل هو مخالف لما ذكرناه : من أن جميع الناس اليوم من ذرية نوح بنص القرآن . وهكذا من زعم أنهم على أشكال مختلفة وأطوال متباينة جداً ؛ فمنهم من هو كالنخلة السحوق[1] ، ومنهم من هو غاية فى القصر ، ومنهم من يفترش أذناً من أذنيه ويتغطى بالأخرى ، فكل هذه أقوال بلا دليل ، ورجم بالغيب بغير برهان ، والصحيح أنهم من بنى آدم وعلى أشكالهم وصفاتهم . وقد قال النبى ﷺ : « إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعاً ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن » ، وهذا فيصل فى هذا الباب وغيره . وما قيل من أن أحدهم لا يموت حتى يرى من ذريته ألفاً ؛ فإن صح فى خبر قلنا به ، وإلا فلا نرده ؛ إذ يحتمله العقل ، والنقل أيضاً قد يرشد إليه ، والله أعلم .

وقد ورد حديث مصرح بذلك إن صح . قال الطبرانى : حدثنا عبدالله بن محمد بن العباس الأصبهانى ، حدثنا أبو مسعود أحمد بن الفرات ، حدثنا أبو داود الطيالسى ، حدثنا المغيرة عن مسلم عن أبى إسحاق عن وهب بن جابر عن عبد الله بن عمرو ، عن النبى ﷺ قال : « إن يأجوج ومأجوج من ولد آدم ، ولو أرسلوا لأفسدوا على الناس معايشهم ، ولن يموت منهم رجل إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً ، وإن من ورائهم ثلاث أمم : تاويل ، وتايس ، ومنسك » . وهو حديث غريب جداً وإسناده ضعيف ، وفيه نكارة شديدة . وأما الحديث الذى ذكره ابن جرير فى تاريخه : أن رسول الله ﷺ ذهب إليهم ليلة الإسراء فدعاهم إلى الله فامتنعوا من إجابته ومتابعته ، وأنه دعا تلك الأمم التى هناك ، تاريس وتاوبل ومنسك ، فأجابوه — فهو حديث موضوع ، اختلقه أبو نعيم عمرو بن الصبح ، أحد الكذابين الكبار الذين اعترفوا بوضع الحديث ، والله أعلم .

فإن قيل : فكيف دل الحديث المتفق عليه أنهم فداء المؤمنين يوم القيامة ؟ وأنهم فى النار ولم يبعث إليهم رسل ؟ وقد قال الله تعالى : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا[2]) . فالجواب : أنهم لا يعذبون إلا بعد قيام الحجة عليهم ، والإعذار إليهم ؛ كما قال تعالى : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) ، فإن كانوا فى الزمن الذى قبل بعث محمد ﷺ قد أتتهم رسل منهم — فقد قامت على أولئك الحجة ، وإن لم يكن قد بعث الله إليهم رسلا فهم فى حكم أهل الفترة ، ومن لم تبلغه الدعوة . وقد دل الحديث المروى من طرق عن جماعة من الصحابة عن رسول الله ﷺ : « إن من كان كذلك يمتحن فى عرصات القيامة ، فمن أجاب الداعى دخل الجنة ومن أبى دخل النار » . وقد أوردنا الحديث بطرقه وألفاظه وكلام الأئمة عليه عند قوله : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) .

---

(١) أي الطويلة . (٢) من الآية : ١٥ من سورة الإسراء .

وقد حكاه الشيخ أبو الحسن الأشعرى إجماعاً عن أهل السنة والجماعة، وامتحانهم لا يقتضى نجاتهم، ولا ينافى الأخبار عنهم بأنهم من أهل النار؛ لأن الله يطلع رسوله ﷺ على ما يشاء من أمر الغيب، وقد أطلعه على أن هؤلاء من أهل الشقاء، وأن سجاياهم تأبى قبول الحق والانقياد له، فهم لا يجيبون الداعى إلى يوم القيامة. فيعلم من هذا أنهم كانوا أشد تكذيباً للحق فى الدنيا لو بلغهم فيها؛ لأن فى عرصات القيامة ينقاد خلق ممن كان مكذباً فى الدنيا، فإيقاع الإيمان هناك لما يشاهد من الأهوال - أولى وأحرى منه فى الدنيا، والله أعلم، كما قال تعالى: (ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون[1])، وقال تعالى: (أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا[2]) وأما الحديث الذى فيه أن رسول الله ﷺ دعاهم ليلة الإسراء فلم يجيبوا — فإنه حديث منكر بل موضوع، وضعه عمرو بن الصبح.

وأما السد: فقد تقدم أن ذا القرنين بناه من الحديد والنحاس، وساوى به الجبال الصم الشامخات الطوال، فلا يعرف على وجه الأرض بناء أجل منه، ولا أنفع للخلق منه فى أمر دنياهم. قال البخارى: قال رجل للنبى ﷺ رأيت السد، قال: وكيف رأيته؟ قال: مثل البُرد المحبرّ فقال رأيته هكذا، ذكره البخارى معلقاً بصيغة الجزم، ولم أره مسنداً من وجه متصل أرتضيه. غير أن ابن جرير رواه فى تفسيره مرسلا فقال: حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد عن قتادة قال: ذكر لنا أن رجلا قال: يا رسول الله، قد رأيت سد يأجوج ومأجوج، قال: «انعته لى»، قال: كالبرد المحبَّر؛ طريقة سوداء وطريقة حمراء، قال: «قد رأيته».

وقد ذكر أن الخليفة الواثق بعث رسلا من جهته، وكتب لهم كتباً إلى الملوك يوصلونهم من بلاد إلى بلاد، حتى ينتهوا إلى السد فيكشفوا عن خبره، وينظروا كيف بناه ذو القرنين على أى صفة؟ فلما رجعوا أخبروا عن صفته، وأن فيه باباً عظيماً وعليه أقفال، وأنه بناء محكم شاهق منيف جداً، وأن بقية اللبن — الحديد والآلات — فى برج هناك، وذكروا أنه لا يزال هناك حرس لتلك الملوك المتاخمة لتلك البلاد، ومحلته فى شرقى الأرض فى جهة الشمال فى زاوية الأرض الشرقية الشمالية[3]. ويقال إن بلادهم متسعة جداً، وإنهم يقتاتون بأصناف من المعايش؛ من حراثة وزراعة واصطياد من البر ومن البحر. وهم أمم وخلق لا يعلم عددهم إلا الذى خلقهم.

فإن قيل فما الجمع بين قوله تعالى: (فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا)، وبين الحديث الذى رواه البخارى ومسلم عن زينب بنت جحش أم المؤمنين رضى الله عنها قالت: استيقظ رسول الله

---

(١) الآية: ١٢ من سورة السجدة. (٢) الآية: ٣٨ من سورة مريم.

(٣) قال المفسرون: السدان: هما جبلان بأرمينية وآذربيجان.

ﷺ من نوم محمراً وجهه وهو يقول : «لا إله إلا الله ، ويل للعرب ، من شر قد اقترب ، فُتح اليوم ، من رَدم[١] يأجوج ومأجوج مثل هذا» ، وحلق بإصبعيه الإبهام والتي تليها ، قلت يارسول الله ! أنَهلِك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم ، «إذا كثر الخَبَث[٢]» .

وأخرجاه في الصحيحين من حديث وهيب عن ابن طاوس عن أبيه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «فُتِح اليوم من رَدم يأجوج ومأجوج مثلُ هذا» ، وعقد بيده تسعين[٣] — فالجواب : أما على قول من ذهب إلى أن هـذا إشارة إلى فتح أبواب الشر والفتن ، وأن هذا استعارة محضة وضرب مثل — فلا إشكال . وأما على قول من جعل ذلك إخباراً عن أمر محسوس كما هو الظاهر المتبادر — فلا إشكال أيضاً ؛ لأن قوله : (فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً) أى فى ذلك الزمان ؛ لأن هذه صيغة خبر ماض ، فلا ينفي وقوعه فيما يستقبل بإذن الله لهم فى ذلك قدراً ، وتسليطهم عليه بالتدريج قليلا قليلا حتى يتم الأجل ، وينقضى الأمر المقدور فيخرجون ، كما قال الله تعالى : (وهم من كل حدب ينسلون) .

ولكن الحديث الآخر أشكل من هذا ، وهو مارواه الإمام أحمد فى مسنده قائلا : حدثنا روح ، حدثنا سعيد بن أبى عروبة عن قتادة ، حدثنا أبو رافع ، عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : «إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم ، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس ، قال الذى عليهم : ارجعوا فستحفرونه غداً ، فيعودون إليه كأشد ما كان ، حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس — حفروا ، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذى عليهم : ارجعوا فستحفرونه غداً إن شاء الله ويستثنى ، فيعودون إليه وهو كهيئته يوم تركوه ، فيحفرونه ويخرجون على الناس فينشفون المياه ، وتتحصن الناس منهم فى حصونهم ، فيرمون بسهامهم إلى السماء ، فترجع وعليها كهيئة الدم ، فيقولون قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء ، فيبعث الله عليهم نغفاً[٤] فى أقفائهم فيقتلهم بها» . قال رسول الله ﷺ : «والذى نفس محمد بيده ، إن دواب الأرض لتسمن وتشكر شكراً من لحومهم ودمائهم» ، ورواه أحمد أيضاً عن حسن بن موسى عن سفيان عن قتادة به . وهكذا رواه ابن ماجة من حديث سعيد عن قتادة — إلا أنه قال : حدث أبو رافع ، ورواه الترمذى من حديث أبى عوانة عن قتادة به ، ثم قال غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه . فقد أخبر فى هذا الحديث : أنهم كل يوم يلحسونه حتى يكادوا ينظرون شعاع الشمس من ورائه لرقته ، فإن لم يكن رفع هذا الحديث محفوظاً — وإنما هو مأخوذ عن كعب الأحبار كما قاله بعضهم —

---

(١) أى سد : يقال ردم الباب والثلمة — سد (٢) أى الفسق والفجور (٣) عقد التسعين . أن يجعل طرف السبابة اليمنى فى أصلها ويضمها ضما محكماً بحيث تنطوى عقدتاها حتى تصير مثل الحية المطوقة .

(٤) النغف : الدود يكون فى أنوف الإبل والغنم ، أو فى النوى — الواحدة نغفة .

فقد استرحنا من المؤنة ، وإن كان محفوظاً فيكون محمولا على أن صنيعهم هذا يكون فى آخر الزمان عند اقتراب خروجهم ، كما هو المروى عن كعب الأحبار . أو يكون المراد بقوله : (وما استطاعوا له نقباً) — أى نافذاً منه ، فلا ينفى أن يلحسوه ولا ينفذوه ، والله أعلم .

وعلى هذا فيمكن الجمع بين هذا وبين مافى الصحيحين عن أبى هريرة : « فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا » ، وعقد تسعين ، أى فتح فتحاً نافذاً فيه ، والله أعلم .

قصة أصحاب الكهف

قال الله تعالى : (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً * إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشداً * فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عدداً * ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً * نحن نقص عليك نبأهم بالحق ، إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى * وربطنا على قلوبهم إذ قاموا ، فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً شططا * هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة ، لولا يأتون عليهم بسلطان بين ، فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا * وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله ، فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيىء لكم من أمركم مرفقاً * وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين ، وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم فى فجوة منه ، ذلك من آيات الله ، من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً * وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود ، ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد ، لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً * وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم ، قال قائل منهم كم لبثتم ؟ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم ، قالوا ربكم أعلم بما لبثتم ، فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه وليتلطف ، ولا يشعرن بكم أحدا * إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا إذاً أبدا * وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق ، وأن الساعة لاريب فيها ، إذ يتنازعون بينهم أمرهم ، فقالوا ابنوا عليهم بنياناً ربهم أعلم بهم ، قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً * سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ، ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ، ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم ، قل ربى أعلم بعدتهم مايعلمهم إلا قليل ، فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً ولا تستفت فيهم منهم أحداً * ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت ، وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشداً * ولبثوا فى كهفهم ثلثمائة سنين وازدادوا تسعاً *

قل الله أعلم بما لبثوا ، له غيب السموات والأرض ، أبصر به وأسمع ، مالهم من دونه من ولى ولا يشرك فى حكمه أحدا[1]) .

كان سبب نزول قصة أصحاب الكهف وخبر ذى القرنين ، ماذكره محمد بن إسحاق فى السيرة وغيره : أن قريشاً بعثوا إلى اليهود يسألونهم عن أشياء يمتحنون بها رسول الله ﷺ ، ويسألونه عنها ليختبروا مايجيب به فيها ، فقالوا : سلوه عن أقوام ذهبوا فى الدهر فلا يدرى ماصنعوا ، وعن رجل طواف فى الأرض ، وعن الروح . فأنزل الله تعالى : (ويسألونك عن الروح – ويسألونك عن ذى القرنين) وقال ههنا : (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا) أى ليسوا بعجب عظيم ، بالنسبة إلى ماأطلعناك عليه من الأخبار العظيمة والآيات الباهرة والعجائب الغريبة . والكهف : هو الغار فى الجبل ، قال شعيب الجبائى : واسم كهفهم – « حيزم » . وأما الرقيم ؛ فعن ابن عباس أنه قال : لاأدرى ماالمراد به . وقيل : هو الكتاب المرقوم فيه أسماؤهم وما جرى لهم ، كتب من بعدهم . واختاره ابن جرير وغيره . وقيل هو اسم الجبل الذى فيه كهفهم . قال ابن عباس وشعيب الجبائى : واسمه « بنجلوس » . وقيل هو اسم واد عند كهفهم ، وقيل اسم قرية هنالك ، والله أعلم .

قال شعيب الجبائى : واسم كلبهم – « حمران » ، واعتناء اليهود بأمرهم ومعرفة خبرهم – يدل على أن زمانهم متقدم على ماذكره بعض المفسرين ؛ من أنهم كانوا بعد المسيح وأنهم كانوا نصارى . والظاهر من السياق أن قومهم كانوا مشركين يعبدون الأصنام . قال كثير من المفسرين والمؤرخين وغيرهم : كانوا فى زمن ملك يقال له « دقيانوس » ، وكانوا من أبناء الأكابر ، وقيل من أبناء الملوك ، واتفق اجتماعهم فى يوم عيد لقومهم ، فرأوا مايتعاطاه قومهم من السجود للأصنام والتعظيم للأوثان ، فنظروا بعين البصيرة ، وكشف الله عن قلوبهم حجاب الغفلة ، وألهمهم رشدهم ، فعلموا أن قومهم ليسوا على شىء ، فخرجوا عن دينهم وانتموا إلى عبادة الله وحده لاشريك له . ويقال إن كل واحد منهم لما أوقع الله فى نفسه ماهداه إليه من التوحيد – انحاز عن الناس ، واتفق اجتماع هؤلاء الفتية فى مكان واحد ، كما صح فى البخارى : « الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » . فكل منهم سأل الآخر عن أمره وعن شأنه – فأخبره بما هو عليه ، واتفقوا على الانحياز عن قومهم ، والتبرى منهم والخروج من بين أظهرهم ، والفرار بدينهم منهم ، وهو المشروع حال الفتن وظهور الشرور .

قال الله تعالى : (نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى * وربطنا

(١) الآيات : ٩ – ٢٦ من سورة الكهف .

على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً شططا ﴿ هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين) أى بدليل ظاهر على ماذهبوا إليه وصاروا من الأمر عليه ، (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ﴿ وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله) أى وإذ فارقتموهم فى دينهم ، وتبرأتم مما يعبدون من دون الله ، وذلك لأنهم كانوا يشركون مع الله كما قال الخليل : (إننى براء مما تعبدون ﴿ إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين[1]) وهكذا هؤلاء الفتية ، قال بعضهم : إذ قد فارقتم قومكم فى دينهم فاعتزلوهم بأبدانكم ، لتسلموا منهم أن يوصلوا إليكم شراً ، (فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيىء لكم من أمركم مرفقا) — أى يسبل عليكم ستره وتكونوا تحت حفظه وكنفه ، ويجعل عاقبة أمركم إلى خير ، كما جاء فى الحديث : « اللهم أحسن عاقبتنا فى الأمور كلها ، وأجرنا من خزى الدنيا ومن عذاب الآخرة » .

ثم ذكر تعالى صفة الغار الذى آووا إليه ، وأن بابه موجه إلى نحو الشمال ، وأعمقه إلى جهة القبلة ، وذلك أنفع الأماكن — أن يكون المكان قبلياً وبابه نحو الشمال فقال : (وترى الشمس إذا طلعت تزاور) وقرىء تزوّر (عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال) ، فأخبر أن الشمس — يعنى فى زمن الصيف وأشباهه — تشرق أول طلوعها فى الغار فى جانبه الغربى ، ثم تشرع فى الخروج منه قليلا قليلا ، وهو ازورارها ذات اليمين ، فترتفع فى جو السماء وتتقاص عن باب الغار ، ثم إذا تضيفت[2] للغروب — تشرع فى الدخول فيه من جهته الشرقية قليلا قليلا ، إلى حين الغروب . كما هو للشاهد بمثل هذا المكان .

والحكمة فى دخول الشمس إليه فى بعض الأحيان — أن لا يفسد هواؤه (وهم فى فجوة منه ذلك من آيات الله) أى بقاؤهم على هذه الصفة دهراً طويلا من السنين ؛ لا يأكلون ولا يشربون ولا تتغذى أجسادهم فى هذه المدة الطويلة — من آيات الله وبرهان قدرته العظيمة . (من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ﴿ وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود) قال بعضهم : لأن أعينهم مفتوحة لئلا تفسد بطول الغمض (ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال) قيل فى كل عام يتحولون مرة من جنب إلى جنب ، ويحتمل أكثر من ذلك ، فالله أعلم (وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد) قال شعيب الجبائى : اسم كلبهم — «حمران» ، وقال غيره : الوصيد — أسكفة[3] الباب والمراد أن كلبهم الذى كان معهم وصحبهم حال انفرادهم من قومهم — لزمهم ولم يدخل معهم فى الكهف ، بل ربض على بابه ، ووضع يديه على الوصيد . وهذا من جملة أدبه ، ومن جملة ما أكرموا به ؛ فإن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب ولما

(١) الآيتان : ٢٦ ، ٢٧ من سورة الزخرف . (٢) أى مالت .
(٣) الأسكفة : خشبة الباب التى يوطأ عليها ، وهى العتبة .

كانت التبعية مؤثرة حتى كانت فى كلب هؤلاء ـ صار باقياً معهم ببقائهم ؛ لأن من أحب قوماً سعد بهم ، فإذا كان هذا فى حق كلب فما ظنك بمن تبع أهل الخير وهو أهل للإكرام . وقد ذكر كثير من القصاص والمفسرين لهذا الكلب نبأ وخبراً طويلا ، أكثره متلقى من الإسرائيليات ، وكثير منها كذب ومما لا فائدة فيه ؛ كاختلافهم فى اسمه ولونه .

وأما اختلاف العلماء فى محلة هذا الكهف . فقال كثيرون : هو بأرض أيلة ، وقيل بأرض نينوى ، وقيل بالبلقاء ، وقيل ببلاد الروم وهو أشبه ، والله أعلم . ولما ذكر الله تعالى ما هو الأنفع من خبرهم ، والأهم من أمرهم ووصف حالهم ، حتى كأن السامع راء ، والمخبر مشاهد لصفة كهفهم وكيفيتهم فى ذلك الكهف ، وتقلبهم من جنب إلى جنب ، وأن كلبهم باسط ذراعيه بالوصيد ـ قال : (لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً) أى لما عليهم من المهابة والجلالة فى أمرهم الذى صاروا إليه ، ولعل الخطاب ههنا لجنس الإنسان المخاطب ـ لا بخصوصية الرسول ﷺ كقوله : (فما يكذبك بعد بالدين) أى أيها الإنسان ، وذلك لأن طبيعة البشرية تفر من رؤية الأشياء المهيبة غالباً . ولهذا قال : (لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً) ودل على أن الخبر ليس كالمعاينة ؛ كما جاء فى الحديث ؛ لأن الخبر قد حصل ، ولم يحصل الفرار ولا الرعب .

ثم ذكر تعالى : أنه بعثهم من رقدتهم بعد نومهم بثلاثمائة سنة وتسع سنين ، فلما استيقظوا قال بعضهم لبعض : (كم لبثتم ؟ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم ، قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة) أى بدراهمكم هذه ـ يعنى التى معهم ـ إلى المدينة . ويقال كان اسمها دفسوس (فلينظر أيها أزكى طعاماً) أى أطيب طعاماً (فليأتكم برزق منه) أى بطعام تأكلونه ، وهذا من زهدهم وورعهم ، (وليتلطف) أى فى دخوله إليها (ولا يشعرن بكم أحدا * إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا إذاً أبدا) أى إن عدتم فى ملتهم بعد إذ أنقذكم الله منها . وهذا كله لظنهم أنهم رقدوا يوماً أو بعض يوم أو أكثر من ذلك ، ولم يحسبوا أنهم قد رقدوا أزيد من ثلثمائة سنة ، وقد تبدلت الدول أطواراً عديدة ، وتغيرت البلاد ومن عليها ، وذهب أولئك القوم الذين كانوا فيهم ، وجاء غيرهم وذهبوا ، وجاء غيرهم ، ولهذا لما خرج أحدهم وهو تيذوسيس [1] فيما قيل ، وجاء إلى المدينة متنكراً لئلا يعرفه أحد من قومه فيما يحسبه ـ تنكرت له البلاد ، واستنكره من يراه من أهلها ، واستغربوا شكله وصفته ودراهمه . فيقال إنهم حملوه إلى متوليهم ، وخافوا من أمره أن يكون جاسوساً ، أو تكون له صولة يخشون من مضرتها . فيقال إنه هرب منهم ، ويقال بل أخبرهم خبره ومن معه وما كان

(١) الذى فى ابن جرير والألوسى : أن اسمه يمليخا ، وأن تيذوسيس ـ اسم الملك الذى كان على المدينة حين قيامهم من رقدتهم .

من أمرهم ، فانطلقوا معه ليريهم مكانهم . فلما قربوا من الكهف دخل إلى إخوانه فأخبرهم حقيقة أمرهم ومقدار مارقدوا ، فعلموا أن هذا أمر قدره الله . فيقال إنهم استمروا راقدين ، ويقال بل ماتوا بعد ذلك . وأما أهل البلدة ، فيقال إنهم لم يهتدوا إلى موضعهم من الغار ، وعمّى الله عليهم أمرهم . ويقال لم يستطيعوا دخوله جبنا ، ويقال مهابة لهم .

واختلفوا فى أمرهم ؛ فقائلون يقولون : (ابنوا عليهم بنياناً) أى سدوا عليهم باب الكهف لئلا يخرجوا ، أو لئلا يصل إليهم ما يؤذيهم . وآخرون ـ وهم الغالبون على أمرهم ، قالوا : (لنتخذن عليهم مسجداً) أى معبداً يكون مباركاً لمجاورته هؤلاء الصالحين ، وهذا كان شائعاً فيمن كان قبلنا . فأما فى شرعنا فقد ثبت فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » ، يحذر ما فعلوا . وأما قوله : « وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها) ـ فمعنى أعثرنا ـ أطلعنا على أمرهم الناس . قال كثير من المفسرين : ليعلم الناس أن المعاد حق ، وأن الساعة لا ريب فيها ، إذا علموا أن هؤلاء القوم رقدوا أزيد من ثلاثمائة سنة ثم قاموا كما كانوا من غير تغير منهم ؛ فإن من أبقاهم كما هم ـ قادر على إعادة الأبدان وإن أكلتها الديدان ، وعلى إحياء الأموات وإن صارت أجسامهم وعظامهم رفاتاً . وهذا مما لا يشك فيه المؤمنون (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون[1]) هذا ويحتمل عود الضمير فى قوله : (ليعلموا) إلى أصحاب الكهف ؛ إذ علمهم بذلك من أنفسهم أبلغ من علم غيرهم بهم ، ويحتمل أن يعود على الجميع ، والله أعلم .

ثم قال تعالى : (سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ، ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ، ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم) فذكر اختلاف الناس فى كميتهم ، فحكى ثلاثة أقوال وضعف الأولين ، وقرر الثالث ؛ فدل على أنه الحق ؛ إذ لو قيل غير ذلك لحكاه ، ولو لم يكن هذا الثالث هو الصحيح لوهاه ، فدل على ما قلناه ولما كان النزاع فى مثل هذا لاطائل تحته ، ولا جدوى عنده ـ أرشد نبيه ﷺ إلى الأدب فى مثل هذا الحال ـ إذا اختلف الناس فيه ـ أن يقول : الله أعلم . ولهذا قال : (قل ربى أعلم بعدتهم) ، وقوله (ما يعلمهم إلا قليل) أى من الناس (فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً) أى سهلاً ، ولا تتكلف أعمال الجدال فى مثل هذا الحال ، ولا تستفت فى أمرهم أحداً من الرجال . ولهذا أبهم الله تعالى عدتهم فى أول القصة فقال : (إنهم فتية آمنوا بربهم) ، ولو كان فى تعيين عدتهم كبير فائدة ـ لذكرها عالم الغيب والشهادة . وقوله تعالى : (ولاتقولن لشىء إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله ، واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشداً) ـ أدب عظيم أرشد الله تعالى إليه ، وحث خلقه عليه ؛ وهو ما إذا قال أحدهم إنى سأفعل فى المستقبل كذا ، فيشرع له أن

---

(١) آخر سورة يس .

يقول : إن شاء الله ؛ ليكون ذلك تحقيقاً لعزمه ؛ لأن العبد لا يعلم ما فى غد ، ولا يدرى أهذا الذى عزم عليه مقدر أم لا ؟ وليس هذا الاستثناء تعليقاً ، وإنما هو الحقيقى . ولهذا قال ابن عباس يصح إلى سنة ، ولـكن قد يكون فى بعض المحال لهذا ولهذا ؛ كما تقدم فى قصة سليمان عليه السلام حين قال : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تلد كل واحدة منهن غلاماً يقاتل فى سبيل الله ، فقيل له قل : إن شاء الله فلم يقل ، فطاف بهن فلم تلد منهن إلا امرأة واحدة نصف إنسان . قال رسول الله ﷺ : «والذى نفسى بيده لو قال إن شاء الله لم يحنث ـ وكان دركا لحاجته » .

وقوله : (واذكر ربك إذا نسيت) وذلك لأن النسيان قد يكون من الشيطان ، فذكر الله يطرده عن القلب فيذكر ما كان قد نسيه . وقوله : (وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشداً) أى إذا اشتبه أمر وأشكل حال ، والتبست أقوال الناس فى شىء ـ فارغب إلى الله ييسره لك ويسهله عليك . ثم قال : (ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً) . لما كان فى الإخبار بطول مدة لبثهم فائدة عظيمة ـ ذكرها تعالى ، وهذه التسع المزيدة بالقمرية ، وهى لتكميل ثلاثمائة شمسية؛ فإن كل مائة قمرية تنقص عن الشمسية ثلاث سنين ، (قل الله أعلم بما لبثوا) أى إذا سئلت عن مثل هذا ، وليس عندك فى ذلك نقل ـ فرد الأمر فى ذلك إلى الله عز وجل ، (له غيب السموات والأرض) أى هو العالم بالغيب فلا يطلع عليه إلا من شاء من خلقه (أبصر به وأسمع) يعنى أنه يضع الأشياء فى محالها لعلمه التام بخلقه وبما يستحقونه . ثم قال : (مالهم من دونه من ولى ولا يشرك فى حكمه أحداً) أى ربك المنفرد بالملك والمتصرف وحده لا شريك له .

قصة الرجلين : المؤمن والـكافر

قال الله تعالى فى سورة الـكهف بعد قصة أهل الـكهف : (واضرب لهم مثلا رجلين ؛ جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً * كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً ، وفجرنا خلالهما نهراً * وكان له ثمر ، فقال لصاحبه وهو يحاوره : أنا أكثر منك مالا وأعز نفراً * ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا * وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيراً منها منقلبا) إلى قوله (هنالك الولاية لله الحق هو خير ثواباً وخير عقبا[1]) . قال بعض الناس : هذا مثل مضروب ولا يلزم أن يـكون واقعاً ، والجمهور على أنه أمر قد وقع ، وقوله : (واضرب لهم مثلا) يعنى لـكفار قريش فى عدم اجتماعهم بالضعفاء والفقراء ، وازدرائهم بهم وافتخارهم عليهم ، كما قال تعالى: (واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون) كما قدمنا الكلام على قصتهم قبل قصة موسى عليه السلام .

---

[1] الآيات : ٣٢ ـ ٤٤

والمشهور أن هذين كانا رجلين مصطحبين ، وكان أحدهما مؤمناً والآخر كافراً . ويقال إنه كان لكل منهما مال ؛ فأنفق المؤمن ماله فى طاعة الله ومرضاته ابتغاء وجهه ، وأما الكافر فإنه اتخذ له بساتين — وهما الجنتان المذكورتان فى الآية على الصفة والنعت المذكور — فيهما أعناب ونخيل ، تحف تلك الأعناب الزروع فى ذلك ، والأنهار سارحة ههنا وههنا للسقى والتنزه ، وقد استوثقت فيهما الثمار واضطربت فيهما الأنهار ، وابتهجت الزروع والثمار ، وافتخر مالكهما على صاحبه المؤمن الفقير قائلا له : (أنا أكثر منك مالا وأعز نفراً) أى أوسع جناناً ، ومراده أنه خير منه . ومعناه : ماذا أغنى عنك إنفاقك ما كنت تملكه فى الوجه الذى صرفته فيه ؟ كان الأولى بك أن تفعل كما فعلت ؛ لتكون مثلى . فافتخر على صاحبه (ودخل جنته وهو ظالم لنفسه) أى وهو على غير طريقة مرضية ، قال : (ما أظن أن تبيد هذه أبداً) وذلك لما رأى من اتساع أرضها ، وكثرة مائها ، وحسن نبات أشجارها ، ولو قد بادت كل واحدة من هذه الأشجار — لاستخلف مكانها أحسن منها ، وزروعها دارّة لكثرة مياهها . ثم قال : (وما أظن الساعة قائمة) فوثق بزهرة الحياة الدنيا الفانية ، وكذب بوجود الآخرة الباقية الدائمة . ثم قال : (ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيراً منها منقلباً) أى ولئن كان ثم آخرة ومعاد — فلأجدن هناك خيراً من هذا . وذلك لأنه اغتر بدنياه ، واعتقد أن الله لم يعطه ذلك فيها إلا لحبه له وحظوته عنده ، كما قال العاص بن وائل فيما قص الله من خبره وخبر خباب بن الأرت فى قوله : (أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولداً ۞ أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً[1]) .

وقال تعالى إخباراً عن الإنسان إذا أنعم الله عليه : (ليقولن هذا لى ، وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى) قال الله تعالى : (فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ[2]) وقال قارون : (إنما أوتيته على علم عندى) أى لعلم الله بى أنى أستحقه . قال الله تعالى : (أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ، ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون[3]) . وقد قدمنا الكلام عن قصته فى أثناء قصة موسى . وقال تعالى : (وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً ، فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون[4]) ، وقال تعالى : (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين ۞ نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون[5]) .

ولما اغتر هذا الجاهل بما خول به فى الدنيا فجحد الآخرة ، وادعى أنها إن وجدت ليجدن عند ربه خيراً مما هو فيه ، وسمعه صاحبه يقول ذلك — قال له (وهو يحاوره) أى يجادله : (أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا ؟) أى أجحدت المعاد وأنت تعلم أن الله خلقك من تراب

---

(١) الآيتان : ٧٧ ، ٧٨ من سورة مريم (٢) الآية : ٥٠ من سورة فصلت (٣) الآية : ٧٨ من سورة القصص (٤) الآية : ٣٧ من سورة سبأ (٥) الآية : ٥٦ من سورة المؤمنون .

ثم من نطفة ، ثم صورك أطواراً حتى صرت رجلا سوياً سميعاً بصيراً ، تعلم وتبطش وتفهم ؟ فكيف أنكرت المعاد والله قادر على البداءة ! (لكنا هو الله ربى) أى لكن أنا أقول بخلاف ما قلت ، وأعتقد خلاف معتقدك (هو الله ربى ولا أشرك بربى أحداً) أى لا أعبد سواه ، وأعتقد أنه يبعث الأجساد بعد فنائها ، ويعيد الأموات ويجمع العظام الرفات . وأعلم أن الله لا شريك له فى خلقه ولا فى ملكه ، ولا إله غيره . ثم أرشده إلى ما كان الأولى به أن يسلكه عند دخول جنته فقال : (ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله) ولهذا يستحب لكل من أعجبه شىء من ماله أو أهله أو حاله ـ أن يقول كذلك ، وقد ورد فيه حديث مرفوع فى صحته نظر . قال أبو يعلى الموصلى : حدثنا جراح بن مخلد ، حدثنا عمرو بن يونس ، حدثنا عيسى بن عون ، حدثنا عبد الملك بن زرارة عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أنعم الله على عبد نعمة من أهل أو مال أو ولد فيقول ما شاء الله لا قوة إلا بالله فيرى فيه آفة دون الموت » . وكان يتأول هذه الآية : (ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله) قال الحافظ أبو الفتح الأزدى عيسى بن عون عن عبد الملك بن زرارة عن أنس ـ لا يصح حديثه ، ثم قال المؤمن للكافر : (فعسى ربى أن يؤتين خيراً من جنتك) أى فى الدار الآخرة (ويرسل عليها حسباناً من السماء) قال ابن عباس والضحاك وقتادة : أى عذاباً من السماء . والظاهر أنه المطر المزعج الباهر الذى يقتلع زروعها وأشجارها (فتصبح صعيداً زلقاً) وهو التراب الأملس الذى لا نبات فيه (أو يصبح ماؤها غوراً) وهو ضد المعين السارح ، (فلن تستطيع له طلباً) يعنى فلا تقدر على استرجاعه .

قال الله تعالى : (وأحيط بثمره) أى جاءه أمر أحاط بجميع حواصله ، وخرب جنته ودمرها (فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها) أى خربت بالكلية فلا عودة لها ، وذلك ضد ما كان عليه أمل ، حيث قال : (وما أظن أن تبيد هذه أبداً) وندم على ما كان سلف منه من القول الذى كفر بسببه بالله العظيم ، فهو يقول : (ياليتنى لم أشرك بربى أحداً) . قال الله تعالى : (ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً * هنالك) أى لم يكن أحد يتدارك ما فرط من أمره ، وما كان له قدرة فى نفسه على شىء من ذلك ؛ كما قال تعالى : (فما له من قوة ولا ناصر) وقوله : (الولاية لله الحق) . ومنهم من يبتدىء بقوله : (هنالك الولاية لله الحق) وهو حسن أيضاً لقوله : (الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً[1]) . فالحكم الذى لا يرد ولا يمانع ولا يغالب فى تلك الحال وفى كل حال — لله الحق . ومنهم من رفع الحق وجعله صفة للولاية وهما متلازمان ، وقوله : (هو خير ثواباً وخير عقبا) أى معاملته خير لصاحبها ثواباً وهو الجزاء ، وخير عقبا وهو العاقبة فى الدنيا والآخرة . وهذه القصة تضمنت أنه لا ينبغى لأحد أن يركن إلى الحياة الدنيا ،

---

(١) الآية : ٢٦ من سورة الفرقان .

ولا يغتر بها ولا يثق بها ، بل يجعل طاعة الله والتوكل عليه فى كل حال — نصب عينيه ، وليكن بما فى يد الله أوثق منه بما فى يديه . وفيها أن من قدم شيئاً على طاعة الله والإنفاق فى سبيله — عذب به ، وربما سلب منه معاملة له بنقيض قصده . وفيها أن الواجب قبول نصيحة الأخ المشفق ، وأن مخالفته وبال ودمار على من رد النصيحة الصحيحة . وفيها أن الندامة لا تنفع إذا حان القدر ونفذ الأمر الحتم ، وبالله المستعان وعليه التكلان .

قصة أصحاب الجنة

قال الله تعالى : (إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين * ولا يستثنون * فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون * فأصبحت كالصريم * فتنادوا مصبحين * أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين * فانطلقوا وهم يتخافتون * أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين * وغدوا على حرد قادرين * فلما رأوها قالوا إنا لضالون * بل نحن محرومون * قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون * قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين * فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون * قالوا ياويلنا إنا كنا طاغين * عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون * كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون[١]) . وهذا مثل ضربه الله لكفار قريش ، فيما أنعم به عليهم ؛ من إرسال الرسول العظيم الكريم إليهم ، فقابلوه بالتكذيب والمخالفة كما قال تعالى : (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار * جهنم يصلونها وبئس القرار[٢]) .

قال ابن عباس ، هم كفار قريش ؛ ضرب تعالى لهم مثلا بأصحاب الجنة ، المشتملة على أنواع الزروع والثمار ، التى قد انتهت واستحقت أن تجذ وهو الصرام[٣] ، ولهذا قال : (إذ أقسموا) فيما بينهم (ليصرمنها) أى ليجذنها وهو الاستغلال (مصبحين) أى وقت الصبح حيث لا يراهم فقير ولا محتاج ، فيعطوه شيئاً ، فحلفوا على ذلك ولم يستثنوا فى يمينهم ، فعجزهم الله وسلط عليها الآفة التى أحرقتها وهى السفعة[٤] التى اجتاحتها ولم تبق بها شيئاً ينتفع به . ولهذا قال : (فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون * فأصبحت كالصريم) أى كالليل الأسود المنصرم من الضياء ، وهذه معاملة بنقيض المقصود (فتنادوا مصبحين) أى فاستيقظوا من نومهم فنادى بعضهم بعضاً قائلين : (اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين) أى باكروا إلى بستانكم فاصرموه قبل أن يرتفع النهار ويكثر السؤال ، (فانطلقوا وهم يتخافتون) أى يتحدثون فيما بينهم خفية قائلين : (أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين) أى اتفقوا على هذا واشتوروا عليه (وغدوا على حرد قادرين) أى انطلقوا مجدين فى ذلك قادرين عليه ، مضمرين

---

(١) الآيات : ١٩ ـ ٣٣ من سورة ن . (٢) الآيتان : ٢٨ و ٢٩ من سورة إبراهيم .
(٣) هو جذاذ النخل (٤) السفعة : سواد مشرب بحمرة . والسوافع : لوافح السموم .

على هذه النية الفاسدة . وقال عكرمة والشعبي : (وغدوا على حرد) أى غضب على المساكين ، وأبعد السدى فى قوله : إن اسم حرثهم — « حرد » ، (فلما رأوها) أى وصلوا إليها ونظروا ماحل بها ، وماقد صارت إليه من الصفة المنكرة ، بعد تلك النضرة والحسن والبهجة ، فانقلبت بسبب النية الفاسدة فعند ذلك — (قالوا إنا لضالون) أى قد تهنا عنها وسلكنا غير طريقها ، ثم قالوا : (بل نحن محرومون) أى بل عوقبنا بسبب سوء قصدنا ، وحرمنا بركة حرثنا ، (قال أوسطهم) قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد — هو أعدلهم وخيرهم : (ألم أقل لكم لولا تسبحون) قيل : تستثنون ، قاله مجاهد والسدى وابن جرير ، وقيل : تقولون خيراً بدل ماقلتم من الشر ، (قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين * فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون * قالوا ياويلنا إنا كنا طاغين) ، فندموا حيث لاينفع الندم ، واعترفوا بالذنب بعد العقوبة وذلك حيث لا ينجع .

وقد قيل إن هؤلاء كانوا إخوة ، وقد ورثوا هذه الجنة من أبيهم ، وكان يتصدق منها كثيراً ، فلما صار أمرها إليهم استهجنوا أمر أبيهم ، وأرادوا استغلالها من غير أن يعطوا الفقراء شيئاً ، فعاقبهم الله أشد العقوبة . ولهذا أمر الله تعالى بالصدقة من الثمار ، وحث على ذلك فى يوم الجداد كما قال تعالى : (كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده [1]) ثم قيل كانوا من أهل اليمن من قرية يقال لها ضروان ، وقيل من أهل الحبشة ، والله أعلم . قال الله تعالى . (كذلك العذاب) أى هكذا نعذب من خالف أمرنا ولم يعطف على المحاويج من خلقنا (ولعذاب الآخرة أكبر) أى أعظم وأحكم من عذاب الدنيا (لو كانوا يعلمون) . وقصة هؤلاء شبيهة بقوله تعالى : (وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون * ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون [2]) قيل هذا مثل مضروب لأهل مكة ، وقيل هم أهل مكة أنفسهم ضربهم مثلا لأنفسهم ، ولا ينافى ذلك ، والله أعلم

قصة أصحاب أيلة الذين اعتدوا فى سبتهم

قال الله تعالى فى سورة الأعراف : (واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذ يعدون فى السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ، ويوم لا يسبتون لاتأتيهم ، كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون * وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً ، قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون * فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء ، وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون * فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين)[3] . وقال تعالى فى سورة البقرة :

---

(١) الآية : ٤١ من سورة الأنعام (٢) الآيتان : ١١٢ ، ١١٣ من سورة النحل .
(٣) الآيات : ١٦٣ — ١٦٦ .

(ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين * فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين)[١] . وقال تعالى فى سورة النساء : (أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا)[٢] . قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة والسدى وغيرهم : هم أهل أيلة ، زاد ابن عباس – بين مدين والطور . قالوا وكانوا متمسكين بدين التوراة فى تحريم السبت فى ذلك الزمان ، فكانت الحيتان قد ألفت منهم السكينة فى مثل هذا اليوم . وذلك أنه كان يحرم عليهم الاصطياد فيه وكذلك جميع الصنائع والتجارات والمكاسب . فكانت الحيتان فى مثل يوم السبت يكثر غشيانها لمحلتهم من البحر ، فتأتى من ههنا وههنا ظاهرة آمنة مسترسلة ، فلا يهيجونها ولا يذعرونها ، (ويوم لا يسبتون لا تأتيهم) وذلك لأنهم كانوا يصطادونها فيما عدا السبت ، قال الله تعالى : (كذلك نبلوهم) أى نختبرهم بكثرة الحيتان فى يوم السبت (بما كانوا يفسقون) أى بسبب فسقهم المتقدم .

فلما رأوا ذلك احتالوا على اصطيادها فى يوم السبت بأن نصبوا الحبال والشباك والشصوص ، وحفروا الحفر التى يجرى معها الماء إلى مصانع قد أعدوها ، إذا دخلها السمك لا يستطيع أن يخرج منها . ففعلوا ذلك فى يوم الجمعة ، فإذا جاءت الحيتان مسترسلة يوم السبت علقت بهذه المصايد ، فإذا خرج سبتهم أخذوها ، فغضب الله عليهم ولعنهم لما احتالوا على خلاف أمره ، وانتهكوا محارمه بالحيل التى هى ظاهرة للناظر وهى فى الباطن مخالفة محضة . فلما فعل ذلك طائفة منهم افترق الذين لم يفعلوا فرقتين : فرقة أنكروا عليهم صنيعهم هذا واحتيالهم على مخالفة الله وشرعه فى ذلك الزمان ، وفرقة أخرى لم يفعلوا ولم ينهوا بل أنكروا على الذين نهوا وقالوا : (لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً ؟) ، يقولون ماالفائدة فى نهيكم هؤلاء وقد استحقوا العقوبة لا محالة ؟ فأجابتهم الطائفة المنكرة بأن قالوا : (معذرة إلى ربكم) أى فيما أمرنا به من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فنقوم به خوفاً من عذابه ، (ولعلهم يتقون) أى ولعل هؤلاء يتركون ماهم عليه من هذا الصنيع ، فيقيهم الله عذابه ويعفو عنهم إذا هم رجعوا واستمعوا . قال الله تعالى : (فلما نسوا ما ذكروا به) أى لم يلتفتوا إلى من نهاهم عن هذا الصنيع الشنيع الفظيع – (أنجينا الذين ينهون عن السوء) وهم الفرقة الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر (وأخذنا الذين ظلموا) وهم المرتكبون الفاحشة (بعذاب بئيس) وهو الشديد المؤلم الموجع (بما كانوا يفسقون) . ثم فسر العذاب الذى أصابهم بقوله : (فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين) . وسنذكر ماورد من الآيات فى ذلك .

والمقصود هنا أن الله أخبر أنه أهلك الظالمين ، ونجى المؤمنين المنكرين ، وسكت عن الساكتين . وقد اختلف فيهم العلماء على قولين : فقيل إنهم من الناجين ، وقيل إنهم من الهالكين ، والصحيح

---

(١) الآيتان : ٦٥ ، ٦٦   (٢) من الآية : ٤٧ .

الأول عند المحققين ، وهو الذى رجع إليه ابن عباس إمام المفسرين ، وذلك عند مناظرة مولاه عكرمة ، فكساه من أجل ذلك حلة سنية تكرمة .

قلت : وإنما لم يذكروا مع الناجين ؛ لأنهم وإن كرهوا ببواطنهم تلك الفاحشة ـ إلا أنهم كان ينبغى لهم أن يجملوا ظواهرهم بالعمل المأمور به ؛ من الإنكار القولى الذى هو أوسط المراتب الثلاث ؛ التى أعلاها الإنكار باليد ذات البنان ، وبعدها الإنكار القولى باللسان ، وثالثها الإنكار بالجنان . فلما لم يذكروا نجوا مع الناجين ؛ إذ لم يفعلوا الفاحشة بل أنكروها .

وقد روى عبد الرزاق عن ابن جريج عن رجل عن عكرمة عن ابن عباس ، وحكى مالك عن ابن رومان وشيبان عن قتادة وعطاء الخرسانى مامضمونه : أن الذين ارتكبوا هذا الصنيع اعتزلهم بقية أهل البلد ، ونهاهم من نهاهم منهم فلم يقبلوا ، فكانوا يبيتون وحدهم ويغلقون بينهم وبينهم أبواباً حاجزة ؛ لما كانوا يترقبون من هلاكهم . فأصبحوا ذات يوم وأبواب ناحيتهم مغلقة لم يفتحوها ، وارتفع النهار واشتد الضحاء ، فأمر بقية أهل البلد رجلا أن يصعد على سلالم ويشرف عليهم من فوقهم ، فلما أشرف عليهم إذ هم قردة لها أذناب ، يتعاوون ويتعادون ، ففتحوا عليهم الأبواب فجعلت القردة تعرف قراباتهم ، ولا يعرفهم قراباتهم . فجعلوا يلوذون بهم ، ويقول لهم الناهون : ألم ننهكم عن صنيعكم ؟ فتشير القردة برءوسها ـ أن نعم . ثم بكى عبد الله بن عباس وقال : إنا لنرى منكرات كثيرة ولا ننكرها ، ولا نقول فيها شيئاً . وقال العوفى عن ابن عباس : صار شباب القرية قردة ، وشيوخها خنازير . وروى ابن أبى حاتم من طريق مجاهد عن ابن عباس : أنهم لم يعيشوا إلا فُوَاقاً[1] ثم هلكوا ما كان لهم نسل . وقال الضحاك عن ابن عباس : إنه لم يعش مسخ قط فوق ثلاثة أيام ، ولم يأكل هؤلاء ولم يشربوا ولم ينسلوا . وقد استقصينا الآثار فى ذلك فى تفسير سورة البقرة والأعراف . ولله الحمد والمنة .

وقد روى ابن أبى حاتم وابن جرير من طريق ابن أبى نجيح عن مجاهد أنه قال : مسخت قلوبهم ، ولم يمسخوا قردة وخنازير . وإنما هو مثل ضربه الله (كمثل الحمار يحمل أسفارا) ، وهذا صحيح إليه وغريب منه جداً ، ومخالف لظاهر القرآن ، ولما نص عليه غير واحد من السلف والخلف ، والله أعلم .

و [قصة أصحاب القرية] (إذ جاءها المرسلون) ـ تقدم ذكرها قبل قصة موسى عليه السلام .

و [قصة سبأ] ـ سيأتى ذكرها فى أيام العرب إن شاء الله تعالى وبه الثقة .

و [قصة قارون ، وقصة بلعام] تقدمتا فى قصة موسى . وهكذا : [قصة الخضر] و [قصة فرعون والسحرة] كلها فى ضمن قصة موسى . و [قصة البقرة] ـ تقدمت فى قصة موسى .

---

(١) الفواق : الذى يأخذ المحتضر عند النزع .

وقصة [الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت] – فى قصة حزقيال .

وقصة [الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى] – فى قصة شمويل . وقصة [الذى مرَّ على قرية] فى قصة عزير .

قصة لقمان

قال تعالى : (ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ، ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غنى حميد * وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه : يابنى لاتشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم * ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن ، وفصاله فى عامين أنِ اشكر لى ولوالديك إلى المصير * وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً ، واتبع سبيل من أناب إلىَّ ، ثم إلىَّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون * يابنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله ، إن الله لطيف خبير * يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك ، إن ذلك من عزم الأمور * ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحاً ، إن الله لايحب كل مختار فخور * واقصد فى مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير[١]) .

هو لقمان بن عنقاء بن سدون ، ويقال لقمان بن ثاران ، حكاه السهيلى عن ابن جرير والقتيبى . قال السهيلى : وكان نوبياً من أهل أيلة ، قلت : وكان رجلا صالحاً ذا عبادة وعبارة وحكمة عظيمة . ويقال كان قاضياً فى زمن داود عليه السلام والله أعلم . وقال سفيان الثورى عن الأشعث عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان عبداً حبشياً نجاراً ، وقال قتادة عن عبد الله بن الزبير ، قات لجابر بن عبد الله : ما انتهى إليكم فى شأن لقمان ؟ قال كان قصيراً أفطس من النوبة . وقال يحيى بن سعيد الأنصارى عن سعيد بن المسيب : كان لقمان من سودان مصر ، ذو مشافر ، أعطاه الله الحكمة ومنعه النبوة . وقال الأوزاعى : حدثنى عبد الرحمن بن حرملة قال : جاء أسود إلى سعيد بن المسيب يسأله ، فقال له سعيد : لاتحزن من أجل أنك أسود ؛ فإنه كان من أخير الناس ثلاثة من السودان : بلال ، ومهجع مولى عمر ، ولقمان الحكيم ، كان أسود نوبياً ذا مشافر . وقال الأعمش عن مجاهد : كان لقمان عبداً أسود عظيم الشفتين مشقق القدمين – وفى رواية مصفح القدمين . وقال عمر بن قيس : كان عبداً أسود غليظ الشفتين مصفح القدمين ، فأتاه رجل وهو فى مجلس أناس يحدثهم فقال له : ألست الذى

---

(١) الآيات : ١٢ – ١٩ من سورة لقمان .

كنت ترعى معى الغنم فى مكان كذا كذا ؟ قال : نعم . قال فما بلغ بك ماأرى ؟ قال : صدق الحديث ، والصمت عما لايعنينى ، رواه ابن جرير عن ابن حميد عن الحكم عنه .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا صفوان ، حدثنا الوليد ، حدثنا عبد الرحمن بن أبى يزيد بن جابر قال : إن الله رفع لقمان الحكيم لحكمته ، فرآه رجل كان يعرفه قبل ذلك ، فقال ألست عبد بن فلان الذى كنت ترعى غنمى بالأمس ؟ قال : بلى . قال : فما بلغ بك ماأرى ؟ قال : قدر الله ، وأداء الأمانة ، وصدق الحديث ، وترك مالايعنينى . وقال ابن وهب : أخبرنى عبد الله بن عياش الفتيانى عن عمر مولى عفرة قال : وقف رجل على لقمان الحكيم فقال : أنت لقمان ؟ أنت عبد بنى النحاس ؟ قال نعم : قال فأنت راعى الغنم الأسود ؟ قال : أما سوادى فظاهر ، فما الذى يعجبك من أمرى ؟ قال : وطء الناس بساطك ، وغشيهم بابك ، ورضاهم بقولك . قال ياابن أخى ! إن صنعت ماأقول لك كنت كذلك ، قال ماهو ؟ قال لقمان : غضى بصرى ، وكفى لسانى ، وعفة مطعمى ، وحفظى فرجى ، وقيامى بعدتى ، ووفائى بعهدى ، وتكرمتى ضيفى ، وحفظى جارى ، وتركى مالايعنينى ، فذاك الذى صيرنى كما ترى .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا ابن فضيل ، حدثنا عمرو بن واقد عن عبدة بن رباح عن ربيعة عن أبى الدرداء ، أنه قال يوماً وذكر لقمان الحكيم فقال : ماأوتى ماأوتى عن أهل ولا مال ولا حسب ولا خصال ، ولكنه كان رجلا صمصامة سكيتاً ، طويل التفكير عميق النظر . لم ينم نهاراً قط ، ولم يره أحد يبزق ولا يتنحنح ، ولا يبول ولا يتغوط ولا يغتسل ، ولا يعبث ولا يضحك ، وكان لا يعيد منطقاً نطقه ـ إلا أن يقول حكمة يستعيدها إياه أحد ، وكان قد تزوج وولد له أولاد فماتوا فلم يبك عليهم ، وكان يغشى السلطان ويأتى الحكام لينظر ويتفكر ويعتبر ، فبذلك أوتى ماأوتى ومنهم من زعم أنه عرضت عليه النبوة فخاف أن لايقوم بأعبائها فاختار الحكمة ، لأنها أسهل عليه ، وفى هذا نظر والله أعلم . وهذا مروى عن قتادة كما سنذكره ، وروى ابن أبى حاتم وابن جرير من طريق وكيع عن إسرائيل عن جابر الجعفى عن عكرمة أنه قال : كان لقمان نبياً ، وهذا ضعيف لحال الجعفى .

والمشهور عن الجمهور أنه كان حكيماً ولياً ولم يكن نبياً ، وقد ذكره الله تعالى فى القرآن فأثنى عليه ، وحكى من كلامه فيما وعظ به ولده الذى هو أحب الخلق إليه ، وهو أشفق الناس عليه ، فكان من أول ماوعظ به أن قال : (يابنى لاتشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم) ، فنهاه عنه وحذره منه .

وقد قال البخارى : حدثنا قتيبة ، حدثنا جرير عن الأعمش عن إبراهيم ، عن علقمة عن عبد الله قال لما نزلت : (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) ـ شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ

وقالوا : أينا لم يلبس إيمانه بظلم ؟ فقال رسول الله ﷺ : إنه ليس بذاك ، ألم تسمع إلى قول لقمان : (يابنى لاتشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم) رواه مسلم من حديث سليمان بن مهران الأعمش به . ثم اعترض تعالى بالوصية بالوالدين ، وبيان حقهما على الولد ، وتأكده ، وأمر بالإحسان إليهما حتى ولو كانا مشركين ، ولكن لا يطاعان على الدخول فى دينهما ، إلى أن قال مخبراً عن لقمان فيما وعظ به ولده : (يابنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله ، إن الله لطيف خبير) .

ينهاه عن ظلم الناس ولو بحبة خردل ؛ فإن الله يسأل عنها ويحضرها حوزة[1] الحساب ، ويضعها فى الميزان ؛ كما قال تعالى : (إن الله لايظلم مثقال ذرة) ، وقال تعالى : (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين[2]) ، وأخبره أن هذا الظلم لو كان فى الحقارة كالخردلة[3] ، ولو كان فى جوف صخرة صماء لاباب لها ولا كوّة ، أو لو كانت ساقطة فى شىء من ظلمات الأرض أو السموات فى اتساعهما وامتداد أرجائهما ـ لعلم الله مكانها (إن الله لطيف خبير) أى علمه دقيق فلا يخفى عليه الذر مما ترآى للنواظر أو توارى ؛ كما قال تعالى : (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ، ولارطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين[4]) وقال : (وما من غائبة فى السماء والأرض إلا فى كتاب مبين[5]) وقال : (عالم الغيب لايعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين[6]) .

وقد زعم السدى فى خبره عن الصحابة : أن المراد بهذه الصخرة ـ الصخرة التى تحت الأرضين السبع ، وهكذا حكى عن عطية العوفى وأبى مالك والثورى والمنهال بن عمر وغيرهم ، وفى صحة هذا القول من أصله نظر . ثم فى أن هذا هو المراد نظر آخر ؛ فإن هذه الآية نكرة غير معرفة ، فلو كان المراد بها ماقالوه ـ لقال فتكن فى الصخرة . وإنما المراد : فتكن فى صخرة أى صخرة كانت ، كما قال الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ قال : « لو أن أحدكم يعمل فى صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لخرج عمله للناس كائناً ما كان » .

ثم قال : (يابنى أقم الصلاة) أى أدها بجميع واجباتها ؛ من حدودها وأوقاتها ، وركوعها وسجودها وطمأنينتها وخشوعها وماشرع فيها ، واجتنب مايُنهى عنه فيها . ثم قال : (وأمر بالمعروف

---

(١) الحوزة : الناحية . (٢) الآية : ٤٧ من سورة الأنبياء . (٣) الخردل : حب شجر معروف صغير جداً ، له فوائد طبية كثيرة ذكرها صاحب القاموس (٤) الآية : ٥٩ من سورة الأنعام .
(٥) الآية : ٧٥ من سورة النمل . (٦) الآية : ٣ من سورة سبأ .

وانه عن المنكر) أى بجهدك وطاقتك ، أى إن استطعت باليد فباليد ، وإلا فبلسانك ، فإن لم تستطع فبقلبك . ثم أمره بالصبر فقال : (واصبر على ماأصابك) وذلك أن الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر ـ فى مظنة أن يعادى وينال منه ، ولكن له العاقبة . ولهذا أمره بالصبر على ذلك ، ومعلوم أن عاقبة الصبر الفرج . وقوله : (إن ذلك من عزم الأمور) التى لابد منها ولا محيد عنها ، وقوله : (ولا تصعر خدك للناس) قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك ويزيد بن الأصم وأبو الجوزاء ، وغير واحد : معناه ـ لا تتكبر على الناس وتمل خدك حال كلامك لهم وكلامهم لك ؛ على وجه التكبر عليهم والازدراء لهم . قال أهل اللغة : وأصل الصعر ـ داء يأخذ الإبل فى أعناقها فتلتوى رءوسها ، فشبه به الرجل المتكبر الذى يميل وجهه إذا كلم الناس أو كلموه ـ على وجه التعظم عليهم .

قال أبو طالب فى شعره :

وكنا قديماً لا نقر ظلامة إذا ماثنوا صعر الخدود نقيمها

وقال عمرو بن حني التغلبى :

وكنا إذا الجبار صعر خده أقمنا له من ميله فتقوما

وقوله : (ولاتمش فى الأرض مرحاً إن الله لايحب كل مختال فخور) ، ينهاه عن التبختر فى المشية على وجه العظمة والفخر على الناس ، كما قال تعالى : (ولا تمش فى الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا[1]) . يعنى لست بسرعة مشيك تقطع البلاد فى مشيتك هذه ، ولست بدقك الأرض برجلك تخرق الأرض بوطئك عليها ، ولست بتشامخك وتعاظمك وترفعك تبلغ الجبال طولا ، فاتئد على نفسك فلست تعدو قدرك . وقد ثبت فى الحديث : « بينما رجل يمشى فى برديه يتبختر فيهما ، إذ خسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة » ، وفى الحديث الآخر : « إياك وإسبال الإزار فإنها من المخيلة لايحبها الله » ، كما قال فى هذه الآية : (إن الله لا يحب كل مختال فخور) .

ولما نهاه عن الاختيال فى المشى ـ أمره بالقصد فيه ، فإنه لابد له أن يمشى ؛ فنهاه عن الشر وأمره بالخير فقال : (واقصد فى مشيك) أى لاتتباطأ مفرطاً ، ولا تسرع إسراعاً مفرطاً ، ولكن بين ذلك قواماً ، كما قال تعالى : (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً[2]) . ثم قال : (واغضض من صوتك) يعنى إذا تكلمت لاتتكلف رفع صوتك ؛ فإن أرفع الأصوات وأنكرها صوت الحمير .

وقد ثبت فى الصحيحين الأمر بالاستعاذة عند سماع صوت الحمير بالليل ؛ فإنها رأت شيطاناً ، ولهذا

(١) الآية : ٣٧ من سورة الإسراء . (٢) الآية : ٦٣ من سورة الفرقان .

بهى عن رفع الصوت حيث لا حاجة إليه ، ولاسيما عند العطاس ، فيستحب خفض الصوت وتخمير الوجه[1] ، كما ثبت به الحديث من صنيع رسول الله ﷺ فأما رفع الصوت بالأذان ، وعند الدعاء إلى الفئة للقتال ، وعند الإهلاك ونحو ذلك ـ فذلك مشروع فهذا مما قصه الله تعالى عن لقمان عليه السلام فى القرآن ؛ من الحكم والوصايا النافعة الجامعة للخير ، المانعة من الشر ، وقد وردت آثار كثيرة فى أخباره ومواعظه ، وقد كان له كتاب يؤثر عنه يسمى بحكمة لقمان ، ونحن نذكر من ذلك ما تيسر إن شاء الله تعالى

قال الإمام أحمد : حدثنا على بن إسحاق ، أنبأنا ابن المبارك ، أنبأنا سفيان ، أخبرنى نهشل بن مجمع الضبى عن قزعة عن ابن عمر قال : أخبرنا رسول الله ﷺ قال : « إن لقمان الحكيم كان يقول : إن الله إذا استودع شيئاً حفظه » ، وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا عيسى بن يونس عن الأوزاعى عن موسى بن سليمان عن القاسم بن مخيمرة : أن رسول الله ﷺ قال : « قال لقمان لابنه وهو يعظه : يا بنى ! إياك والتقنع[2] فإنه مخوفة بالليل مذمة بالنهار » ، وقال أيضاً : حدثنا أبى حدثنا عمرو بن عثمان بن ضمرة ، حدثنا السرى بن يحيى قال : قال لقمان لابنه : « يا بنى إن الحكمة أجلست المساكين مجالس الملوك » وحدثنا أبى ، حدثنا عبدة بن سليمان ، أنبأنا ابن المبارك ، أنبأنا عبد الرحمن المسعودى عن عون بن عبد الله قال : قال لقمان لابنه : « يا بنى إذا أتيت نادى قوم فارمهم بسهم الإسلام ـ يعنى السلام ـ ثم اجلس بناحيتهم ، فلا تنطق حتى تراهم قد نطقوا ، فإن أفاضوا فى ذكر الله فأجل سهمك معهم ، وإن أفاضوا فى غير ذلك فتحول عنهم إلى غيرهم » .

وحدثنا أبى ، حدثنا عمرو بن عثمان ، حدثنا ضمرة عن حفص بن عمر قال : وضع لقمان جراباً من خردل إلى جانبه وجعل يعظ ابنه وعظة ويخرج خردلة حتى نفد الخردل ، فقال : « يا بنى لقد وعظتك موعظة لو وعظها جبل تفطر » ، قال : فتفطر ابنه .

وقال أبو القاسم الطبرانى : حدثنا يحيى بن عبدالباقى المصيصى ، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الخزاعى حدثنا عثمان بن عبدالرحمن الطرائفى ، عن ابن سفيان المقدسى عن خليفة بن سلام عن عطاء بن أبى رباح عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « اتخذوا السودان فإن ثلاثة منهم من سادات أهل الجنة : لقمان الحكيم ، والنجاشى ، و بلال المؤذن » . قال الطبرانى ـ يعنى الحبش ، وهذا حديث غريب منكر .

وقد ذكر له الإمام أحمد فى كتاب الزهد ترجمة ذكر فيها فوائد مهمة جمة . فقال : حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان عن رجل عن مجاهد : (ولقد آتينا لقمان الحكمة) قال : الفقه والإصابة فى غير نبوة ، وكذا روى عن وهب بن منبه . وحدثنا وكيع ، حدثنا سفيان عن أشعث عن عكرمة عن ابن عباس

---

(١) أي تغطيته . (٢) تقنع الرجل : تغشي بثوب .

قال : كان لقمان عبداً حبشياً . وحدثنا أسود ، حدثنا حماد عن على بن يزيد ، عن سعيد بن المسيب : أن لقمان كان خياطاً . وحدثنا سياد ، حدثنا جعفر ، حدثنا مالك — يعنى ابن دينار — قال : قال لقمان لابنه : « يابنى اتخذطاعة الله تجارة ، تأتك الأرباح من غير بضاعة » . وحدثنا يزيد ، حدثنا أبو الأشهب عن محمد بن واسع قال : كان لقمان يقول لابنه : « يا بنى اتق الله ولا ترى الناس أنك تخشى الله ليكرموك بذلك وقلبك فاجر » . وحدثنا يزيد بن هرون ووكيع قالا : حدثنا أبو الأشهب عن خالد الربعى قال : كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً ، فقال له سيده : اذبح لى شاة فذبح له شاة ، فقال ائتنى بأطيب مضغتين فيها ، فأتاه باللسان والقلب ، فقال : أما كان فيها شيء أطيب من هذين ؟ قال لا . قال فسكت عنه ما سكت ثم قال له : اذبح لى شاة ، فذبح له شاة ، فقال له : وألق أخبثها مضغتين ، فرمى باللسان والقلب . فقال : أمرتك أن تأتينى بأطيبها مضغتين فأتيتنى باللسان والقلب ، وأمرتك أن تلقى أخبثها مضغتين فألقيت اللسان والقلب . فقال له : إنه ليس شيء أطيب منهما إذا طابا ، ولا أخبث منهما إذا خبثا .

وحدثنا داود بن رشيد ، حدثنا ابن المبارك ، حدثنا معمر عن أبى عثمان — رجل من أهل البصرة يقال له الجعد أبو عثمان — قال : قال لقمان لابنه : « لا ترغب فى ود الجاهل فيرى أنك ترضى عن عمله ، ولا تهاون بمقت الحكيم فيزهده فيك » .

وحدثنا داود بن أسيد ، حدثنا إسماعيل بن عياش عن ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد الحضرمى عن عبد الله بن زيد قال : قال لقمان : « ألا إن يد الله على أفواه الحكماء ، لا يتكلم أحدهم إلا ما هيأ الله له » . وحدثنا عبد الرزاق قال سمعت ابن جريج قال : كنت أقنع رأسى بالليل ، فقال لى عمر : أما علمت أن لقمان قال : القناع بالنهار مذلة معذرة — أو قال — معجزة بالليل ، فلم تقنع رأسك بالليل ؟ قال : قلت له : إن لقمان لم يكن عليه دين . وحدثنى حسن بن الجنيد ، حدثنا سفيان قال : قال لقمان لابنه : « يابنى ما ندمت على السكوت قط ، وإن كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب » وحدثنا عبد الصمد ووكيع قالا : حدثنا أبو الأشهب عن قتادة أن لقمان قال لابنه : « يا بنى اعتزل الشر يعتزلك ، فإن الشر للشر خلق » . وحدثنا أبو معاوية ، حدثنا هشام بن عروة عن أبيه قال : مكتوب فى الحكمة يابنى إياك والرغب[1] ؛ فإن الرغب كل الرغب يبعد القريب من القريب ، ويزيل الحكم كما يزيل الطرب . يا بنى إياك وشدة الغضب ، فإن شدة الغضب ممحقة لفؤاد الحكيم .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدى ، حدثنا نافع بن عمر عن ابن أبى مليكة ، عن عبيد ابن عمير قال : قال لقمان لابنه وهو يعظه : « يا بنى اختر المجالس على عينك ، فإذا رأيت المجلس يذكر فيه الله عز وجل فاجلس معهم ؛ فإنك إن تك عالماً ينفعك علمك ، وإن تك غبياً يعلموك ، وإن يطلع الله عليهم برحمة تصيبك معهم . يا بنى لا تجلس فى المجلس الذى لا يذكر الله فيه ؛ فإنك إن تك عالماً

---

(١) رغب فيه : أراده . ورغب عنه : لم يرده . ورغب إليه : ابتهل وتضرع .

لا ينفعك علمك ، وإن تك غبياً يزيدوك غباء ، وإن يطلع الله إليهم بعد ذلك بسخط يصيبك معهم .
يا بنى لا تغبطوا امرأ رحب الذراعين يسفك دماء المؤمنين ؛ فإن له عند الله قاتلا لا يموت » .

وحدثنا أبو معاوية ، حدثنا هشام بن عروة عن أبيه قال : مكتوب فى الحكمة : بنى لتكن كلمتك طيبة ، وليكن وجهك بسطاً تكن أحب إلى الناس ممن يعطيهم العطاء . وقال : مكتوب فى الحكمة أو فى التوراة : الرفق رأس الحكمة . وقال مكتوب فى التوراة : كما ترحمون ترحمون . وقال مكتوب فى الحكمة : كما تزرعون تحصدون وقال مكتوب فى الحكمة : أحب خليلك وخليل أبيك . وحدثنا عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن أبى قلابة قال : قيل للقمان أى الناس أصبر ؟ قال صبر لا يتبعه أذى ، قيل فأى الناس أعلم ؟ قال من ازداد من علم الناس إلى علمه ، قيل فأى الناس خير ؟ قال الغنى ، قيل الغنى من المال ؟ قال لا ـ ولكن الغنى الذى إذا التمس عنده خير وجد ، وإلا أغنى نفسه عن الناس .

وحدثنا سفيان ـ هو ابن عيينة ـ قال : قيل للقمان أى الناس شر ؟ قال : الذى لا يبالى أن يراه الناس مسيئاً . وحدثنا أبو الصمد عن مالك بن دينار قال : وجدت فى بعض الحكمة : يبدد الله عظام الذين يتكلمون بأهواء الناس . ووجدت فيها : لا خير لك فى أن تعلم ما لم تعلم ، ولما تعمل بما قد علمت ؛ فإن مثل ذلك مثل رجل احتطب حطباً فحزم حزمة ، ثم ذهب يحملها فعجز عنها ، فضم إليه أخرى .

وقال عبد الله بن أحمد : حدثنا الحكم بن أبى زهير ـ وهو الحكم بن موسى ـ حدثنا الفرج بن فضالة عن أبى سعيد قال : قال لقمان لابنه : « يا بنى لا يأكل طعامك إلا الأتقياء ، وشاور فى أمرك العلماء » .
وهذا مجموع ما ذكره الإمام أحمد فى هذه المواضع ، وقد قدمنا من الآثار كثيراً لم يروها ، كما أنه ذكر أشياء ليست عندنا ، والله أعلم .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا العباس بن الوليد ، حدثنا زيد بن يحيى بن عبيد الخزاعى ، حدثنا سعيد بن بشير عن قتادة قال : خير الله لقمان الحكيم بين النبوة والحكمة ، فاختار الحكمة على النبوة ، قال : فأتاه جبريل وهو نائم فذر عليه الحكمة ، قال : فأصبح ينطق بها . قال سعد سمعت قتادة يقول : قيل للقمان كيف اخترت الحكمة على النبوة وقد خيرك ربك ؟ فقال : إنه لو أرسل إلى بالنبوة عزمة لرجوت فيه الفوز منه ، ولكنت أرجو أن أقوم بها . ولكن خيرنى فخفت أن أضعف عن النبوة ، فكانت الحكمة أحب إلى . وهذا فيه نظر ؛ لأن سعيد بن بشير عن قتادة قد تكلموا فيه . والذى رواه سعيد بن أبى عروبة عن قتادة فى قوله : (ولقد آتينا لقمان الحكمة) قال : يعنى الفقه والإسلام ، ولم يكن نبياً ولم يوح إليه . وهكذا نص على هذا غير واحد من السلف ، منهم مجاهد وسعيد بن المسيب وابن عباس . والله أعلم .

قصة أصحاب الأخدود

قال الله تعالى : (والسماء ذات البروج * واليوم الموعود * وشاهد ومشهود * قتل أصحاب الأخدود * النار ذات الوقود * إذ هم عليها قعود * وهم على مايفعلون بالمؤمنين شهود * ومانقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد * الذى له ملك السموات والأرض والله على كل شىء شهيد * إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق [(١)]) . قد تكلمنا على ذلك مستقصى فى تفسير هذه السورة ولله الحمد . وقد زعم محمد بن إسحاق : أنهم كانوا بعد مبعث المسيح ، وخالفه غيره فزعموا أنهم كانوا قبله . وقد ذكر غير واحد أن هذا الصنيع مكرر فى العالم مراراً فى حق المؤمنين من الجبارين الكافرين ، ولكن هؤلاء المذكورون فى القرآن قد ورد فيهم حديث مرفوع ، وأثر أورده ابن إسحاق وهما متعارضان . وها نحن نوردهما لتقف عليهما .

قال الإمام أحمد : حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن صهيب أن رسول الله ﷺ قال : « كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر ، فلما كبر الساحر قال للملك : إنى قد كبرت سنى وحضر أجلى ، فادفع إلى غلاماً لأعلمه السحر ، فدفع إليه غلاماً فكان يعلمه السحر . وكان بين الملك و بين الساحر راهب ، فأتى الغلام على الراهب فسمع من كلامه فأعجبه نحوه وكلامه ، وكان إذا أتى الساحر ضربه وقال : ما حبسك ؟ وإذا أتى أهله ضربوه وقالوا : ما حبسك ؟ فشكا ذلك إلى الراهب ، فقال : إذا أراد الساحر أن يضربك فقل حبسنى أهلى ، وإذا أراد أهلك أن يضربوك ، فقل حبسنى الساحر . قال فبينما هو ذات يوم إذ أتى على دابة فظيعة عظيمة ، قد حبست الناس فلا يستطيعون أن يجوزوا ، فقال : اليوم أعلم ؛ أمر الساحر أحب إلى الله ـ أم أمر الراهب؟ قال : فأخذ حجراً فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك وأرضى من أمر الساحر ـ فاقتل هذه الدابة حتى يجوز الناس ، ورماها فقتلها ومضى الناس . فأخبر الراهب بذلك فقال : أى بنى ! أنت أفضل منى ، وإنك ستبتلى فإن ابتليت فلا تدل على . فكان الغلام يبرىء الأكمه والأبرص وسائر الأدواء و يشفيهم الله على يديه . وكان للملك جليس فعمى ، فسمع به فأتاه بهدايا كثيرة فقال : اشفنى ولك ماههنا أجمع ، فقال : ما أنا أشفى أحداً ، إنما يشفى الله عز وجل ؛ فإن آمنت به ودعوت الله شفاك ، فآمن فدعا الله فشفاه . ثم أتى الملك فجلس منه نحو ما كان يجلس ، فقال له الملك : يا فلان من رد عليك بصرك ؟ فقال ربى . قال : أنا ؟ قال لا ـ ربى وربك الله . قال أو لك رب غيرى ؟ قال : نعم ـ ربى وربك الله . فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام ، فأتى به فقال : أى بنى ! بلغ من سحرك أن تبرىء الأكمه والأبرص وهذه الأدواء ؟ قال ما أشفى أنا أحداً ، إنما يشفى الله عز وجل . قال : أنا ؟ قال لا . قال : أو لك رب غيرى ؟

(١) سوره البروج : ١ ـ ١٠

قال : ربى وربك الله . قال فأخذه أيضاً بالعذاب ، ولم يزل به حتى دل على الراهب . فأتى بالراهب فقال ارجع عن دينك فأبى ، فوضع المنشار فى مفرق رأسه حتى وقع شقاه . وقال للأعمى : ارجع عن دينك فأبى ، فوضع المنشار فى مفرق رأسه حتى وقع شقاه . وقال للغلام ارجع عن دينك فأبى ، فبعث به مع نفر إلى جبل كذا وكذا ، وقال إذا بلغتم ذروته ؛ فإن رجع عن دينه وإلا فدهدهوه[1] . فذهبوا به فلما علوا الجبل قال : اللهم اكفنيهم بما شئت ، فرجف بهم الجبل فدهدهوا أجمعون .

وجاء الغلام يتلمس حتى دخل على الملك ، فقال ما فعل أصحابك ؟ فقال كفانيهم الله ، فبعث به مع نفر فى قُرقور[2] فقال إذا لججتم به البحر ؛ فإن رجع عن دينه وإلا فأغرقوه فى البحر ، فلجوا به البحر فقال الغلام : اللهم اكفنيهم بما شئت ، فغرقوا أجمعون . وجاء الغلام حتى دخل على الملك فقال ما فعل أصحابك ؟ فقال كفانيهم الله . ثم قال للملك : إنك لست بقاتلى حتى تفعل ما آمرك به ؛ فإن أنت فعلت ما آمرك به قتلتنى ، وإلا فإنك لا تستطيع قتلى . قال وما هو ؟ قال تجمع الناس فى صعيد واحد ، ثم تصلبنى على جذع وتأخذ سهماً من كنانتى . ثم قل : بسم الله رب الغلام ، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتنى . ففعل ووضع السهم فى كبد القوس ، ثم رماه وقال : بسم الله رب الغلام ، فوقع السهم فى صدغه ، فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات . فقال الناس : آمنا برب الغلام ؛ آمنا برب الغلام . فقيل للملك : أرأيت ما كنت تحذر ؟ فقد والله نزل بك ؛ قد آمن الناس كلهم . فأمر بأفواه السكك فحفر فيها الأخاديد وأضرمت فيها النيران ، وقال : من رجع عن دينه فدعوه ، وإلا فأقحموه فيها . قال : فكانوا يتعادون فيها ويتواقعون ، فجاءت امرأة بابن لها ترضعه ، فكأنها تقاعست أن تقع فى النار ، فقال الصبى : اصبرى يا أماه فإنك على الحق » . كذا رواه الإمام أحمد . ورواه مسلم والنسائى من حديث حماد بن سلمة . زاد النسائى وحماد بن زيد كلاهما عن ثابت به . ورواه الترمذى من طريق عبد الرزاق عن معمر عن ثابت بإسناده نحوه وجرد إيراده كما بسطنا ذلك فى التفسير .

وقد أورد محمد بن إسحاق هذه القصة على وجه آخر فقال : حدثنى يزيد بن زياد عن محمد بن كعب ، وحدثنى أيضاً بعض أهل نجران عن أهلها : أن أهل نجران كانوا أهل شرك يعبدون الأوثان . وكان فى قرية من قراها قريباً من نجران — ونجران هى القرية العظمى التى إليها جماع أهل تلك البلاد — ساحر يعلم غلمان أهل نجران السحر . فلما نزلها «فيمون» ولم يسموه لى بالاسم الذى سماه ابن منبه — قالوا : رجل نزلها فابتنى خيمة بين نجران وبين تلك القرية التى فيها الساحر ، وجعل أهل نجران يرسلون غلمانهم إلى ذلك الساحر يعلمهم السحر . فبعث التامر ابنه عبد الله بن التامر مع غلمان أهل نجران ، فكان إذا مر بصاحب الخيمة أعجبه ما يرى من عبادته وصلاته ، فجعل يجلس إليه ويسمع منه ، حتى أسلم .

---

(١) دهده الحجر — دحرجه ، والمراد : ارموه من ذروة الجبل (٢) القرقور كعصفور : السفينة العظيمة .

فوحد الله وعبده ، وجعل يسأله عن شرائع الإسلام ، حتى إذا فقه فيه جعل يسأله عن الاسم الأعظم ـ وكان يعلمه ـ فكتمه إياه وقال له : ياابن أخى إنك لن تحمله وأخشى ضعفك عنه . والتامر لايظن إلا أن ابنه عبد الله يختلف إلى الساحر كما يختلف الغلمان .

فلما رأى عبد الله أن صاحبه قد ضن به عنه ، وتخوف ضعفه فيه ـ عمد إلى أقداح فجمعها ، ثم لم يبق لله اسماً يعلمه إلا كتبه فى قدح لكل اسم قدح ، حتى إذا أحصاها أوقد ناراً ، ثم جعل يقذفها قدحاً قدحاً ، حتى إذا مر بالاسم الأعظم قذف فيها بقدحه ، فوثب القدح حتى خرج منها لم تضره شيئاً فأخذه ، ثم أتى به صاحبه فأخبره أنه قد علم الاسم الأعظم الذى قد كتمه ، فقال وما هو ؟ قال كذا وكذا ، قال وكيف علمته ؟ فأخبره بما صنع . قال : أى ابن أخى ! قد أصبته فأمسك على نفسك ، وما أظن أن تفعل ، فجعل عبد الله بن التامر إذا دخل نجران لم يلق أحداً به ضرّ إلا قال له : ياعبدالله ! أتوحد الله وتدخل فى دينى وأدعو الله لك فيعافيك مما أنت فيه من البلاء ؟ فيقول : نعم . فيوحد الله و يسلم فيدعو الله له فيشفى ، حتى لم يبق بنجران أحد به ضرّ إلا أتاه فاتبعه على أمره ودعا له فعوفى ، حتى رفع شأنه إلى ملك نجران فدعاه ، فقال له : أفسدت علىّ أهل قريتى ، وخالفت دينى ودين آبائى ، لأمثلن بك . قال : لاتقدر على ذلك . فجعل يرسل به إلى الجبل الطويل ، فيطرح على رأسه ، فيقع إلى الأرض مابه بأس . وجعل يبعث به إلى مياه بنجران بحور لايلقى فيها شىء إلا هلك ، فيلقى به فيها فيخرج ليس به بأس . فلما غلبه قال له عبد الله بن التامر : إنك والله لاتقدر على قتلى حتى توحد الله فتؤمن بما آمنت به ، فإنك إن فعلت سلطت علىّ فقتلتنى ، قال : فوحد الله ذلك الملك ، وشهد شهادة عبد الله بن التامر ، ثم ضربه بعصا فى يده فشجه شجة غير كبيرة فقتله ، وهلك الملك مكانه . واجتمع أهل نجران على دين عبد الله بن التامر ، وكان على ماجاء به عيسى بن مريم من الإنجيل وحكمه ، ثم أصابهم ماأصاب أهل دينهم ، من الأحداث ، فمن هنالك كان أصل دين النصرانية بنجران .

قال ابن إسحاق : فهذا حديث محمد بن كعب وبعض أهل نجران عن عبد الله بن التامر ، فالله أعلم أى ذلك كان . قال فسار إليهم ذو نواس بجنده ، فدعاهم إلى اليهودية ، وخيرهم بين ذلك أو القتل ـ فاختاروا القتل فخدوا الأخدود ، وحرق بالنار وقتل بالسيف ، ومثل بهم ، فقتل منهم قريباً من عشرين ألفاً . ففى ذى نواس وجنده أنزل الله على رسوله : (قتل أصحاب الأخدود * النار ذات الوقود ... الآيات) . وهذا يقتضى أن هـذه القصة غير ماوقع فى سياق مسلم . وقد زعم بعضهم : أن الأخدود وقع فى العالم كثيراً ؛ كما قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو اليمان ، أنبأنا صفوان عن عبد الرحمن بن جبير . قال : كانت الأخدود فى اليمن زمان تبع ، وفى القسطنطينية زمان قسطنطين حين صرف النصارى قبلتهم عن دين المسيح والتوحيد ، فاتخذ أتوناً وألقى فيه النصارى الذين كانوا على دين المسيح والتوحيد .

وفى العراق فى أرض بابل فى زمان بخت نصر ؛ حين صنع الصنم وأمر الناس أن يسجدوا له ، فامتنع دانيال وصاحباه عزريا وميشائيل ، فأوقد لهم أتوناً وألقى فيه الحطب والنار ، ثم ألقاهم فيه فجعلها الله عليهم برداً وسلاماً ، وأنقذهم منها ، وألقى فيها الذين بغوا عليه وهم تسعة رهط ، فأكلتهم النار . وقال أسباط عن السدى فى قوله : (قتل أصحاب الأخدود) قال : كانت الأخدود ثلاثة : خد بالشام ، وخد بالعراق ، وخد باليمن ، رواه ابن أبى حاتم . وقد استقصيت ذكر أصحاب الأخدود والكلام على تفسيرها فى سورة البروج ، ولله الحمد والمنة .

باب بيان الإذن فى الرواية والتحديث عن أخبار بنى إسرائيل

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا همام ، حدثنا زيد عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال : « حدثوا عنى ولا تكذبوا علىّ ، ومن كذب علىّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار ، وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج » . وقال أيضاً : حدثنا عفان ، حدثنا همام ، أنبأنا زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال : « لا تكتبوا عنى شيئاً غير القرآن ، فمن كتب عنى شيئاً غير القرآن فليمحه » ، وقال : « حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج حدثوا عنى ولا تكذبوا علىّ » ، قال : « ومن كذب علىّ ـ قال همام أحسبه قال ـ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » ، وهكذا رواه مسلم والنسائى من حديث همام ، ورواه أبو عوانة الإسفرايينى عن أبى داود السجستانى عن هدبة عن همام عن زيد بن أسلم به . ثم قال : قال أبو داود : أخطأ فيه همام ، وهو من قول أبى سعيد كذا قال . وقد رواه الترمذى عن سفيان عن وكيع عن سفيان بن عيينة عن زيد بن أسلم ببعضه مرفوعاً ، فالله أعلم . قال الإمام أحمد : حدثنا الوليد بن مسلم ، أنبأنا الأوزاعى ، حدثنا حسان بن عطية ، حدثنى أبو كبشة السلولى : أن عبد الله بن عمرو بن العاص حدثه ـ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « بلغوا عنى ولو آية ، وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب علىّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » ، ورواه أحمد أيضاً عن عبد الله بن نمير وعبد الرزاق ـ كلاهما عن الأوزاعى به . وكذا رواه الترمذى عن بندار عن أبى عاصم ، ثم رواه عن محمد بن يحيى الذهلى عن محمد بن يوسف العريانى عن عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان عن حسان بن عطية ، وقال : حسن صحيح .

وقال أبو بكر البزار : حدثنا محمد بن المثنى أبو موسى ، حدثنا هشام بن معاوية ، حدثنا أبى عن قتادة عن أبى حسان عن عبد الله بن عمرو قال : كان نبى الله ﷺ يحدثنا عامة ليلة عن بنى إسرائيل حتى نصبح ، ما نقوم فيها الا لمعظم صلاة ، ورواه أبو داود عن محمد بن المثنى ثم قال البزار : حدثنا محمد بن المثنى ، حدثنا عفان ، حدثنا أبو هلال عن قتادة عن أبى حسان عن عمران بن حصين قال : كان رسول

الله ﷺ يحدثنا عامة ليلة عن بنى إسرائيل ، لايقوم إلا لمعظم صلاة ، قال البزار : وهشام أحفظ من أبى هلال ، يعنى أن الصواب عن عبد الله بن عمرو ـ لا عن عمران بن حصين ، والله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى ـ هو القطان ـ عن محمد بن عمرو ، حدثنا أبو سلمة عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج » ، إسناد صحيح ولم يخرجوه . وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا أبو خيثمة ، حدثنا وكيع ، حدثنا ربيع بن سعد الجعفى عن عبد الرحمن بن سابط عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « حدثوا عن بنى إسرائيل فإنه قد كان فيهم الأعاجيب » . ثم أنشأ يحدث ﷺ قال : « خرجت طائفة من بنى إسرائيل حتى أتوا مقبرة من مقابرهم ، فقالوا : لو صلينا ركعتين ودعونا الله عز وجل ، فيخرج لنا رجلا قد مات نسائله يحدثنا عن الموت ، ففعلوا . فبينما هم كذلك إذ أطلع رجل رأسه من قبر من تلك القبور ، بين عينيه أثر السجود ، فقال : ياهؤلاء ! ماأردتم إلىّ ، فقدمت منذ مائة عام ، فما سكنت عنى حرارة الموت حتى الآن ، فادعوا الله أن يعيدنى كما كنت » . وهذا حديث غريب ، إذا تقرر جواز الرواية عنهم ـ فهو محمول على ما يمكن أن يكون صحيحاً . فأما مايعلم أو يظن بطلانه لمخالفته الحق الذى بأيدينا عن المعصوم ـ فذاك متروك مردود ، لايعرج عليه . ثم مع هذا كله لايلزم من جواز روايته ـ أن تعتقد صحته ؛ لما رواه البخارى قائلا : حدثنا محمد بن يسار ، حدثنا عثمان بن عمر ، حدثنا على بن المبارك عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال : كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : « لاتصدقو أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنا بالله وماأنزل إلينا وماأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون » : تفرد به البخارى من هذا الوجه .

وروى الإمام أحمد من طريق الزهرى عن أبى نملة الأنصارى عن أبيه ، أنه كان جالساً عند رسول الله ﷺ فقال إذ جاء رجل من اليهود فقال : يا محمد هل تتكلم هذه الجنازة ؟ فقال رسول الله ﷺ : « الله أعلم » ، فقال اليهودى أنا أشهد أنها تتكلم ، فقال رسول الله ﷺ : « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولاتكذبوهم ، وقولوا آمنا بالله وكتبه ورسله ، فإن كان حقاً لم تكذبوهم وإن كان باطلا لم تصدقوهم » ، تفرد به أحمد . وقال الإمام أحمد : حدثنا شريح بن النعمان ، حدثنا هشيم ، أنبأنا مجالد عن الشعبى عن جابر بن عبد الله : أن عمر بن الخطاب أتى النبى ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب ، فقرأه على النبى ﷺ ، قال فغضب وقال : « أمتهوّكون [1] فيها ياابن الخطاب ؟ والذى نفسى به لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لاتسألوهم عن شىء فيخبروكم بحق فتكذبوا به ، أو بباطل فتصدقوا به . والذى نفسى بيده ، لوأن موسى كان حياً ماوسعه إلا أن يتبعنى » . تفرد به أحمد

---

(١) المتهوك : المتحير ، والساقط فى هوة الردى . والتهوك : التهور ، والوقوع فى الشىء بدون مبالاة .

وإسناده على شرط مسلم . فهذه الأحاديث دليل على أنهم قد بدلوا ما بأيديهم من الكتب السماوية ، وحرفوها وأولوها ووضعوها على غير مواضعها ، ولا سيما ما يبدونه من المعربات التي لم يحيطوا بها علماً وهي بلغتهم ، فكيف يعبرون عنها بغيرها ؟ ولأجل هذا وقع في تعريبهم خطأ كبير ووهم كثير ، مع ما لهم من المقاصد الفاسدة والآراء الباردة ، وهذا يتحققه من نظر في كتبهم التي بأيديهم ، وتأمل ما فيها من سوء التعبير وقبيح التبديل والتغيير ، وبالله المستعان وهو نعم المولى ونعم النصير .

وهذه التوراة التي يبدونها ويخفون منها كثيراً فيما ذكروه ، فيها تحريف وتبديل وتغيير وسوء تعبير ؛ يعلم ذلك من نظر فيها وتأمل ما قالوه وما أبدوه وما أخفوه ، وكيف يصوغون عبارة فاسدة البناء والتركيب ، باطلة من حيث معناها وألفاظها . وهذا كعب الأحبار من أجود من ينقل عنهم ، وقد أسلم في زمن عمر وكان ينقل شيئاً عن أهل الكتاب ، فكان عمر رضي الله عنه يستحسن بعض ما ينقله لما يصدقه من الحق ، وتأليفاً لقلبه ، فتوسع كثير من الناس في أخذ ما عنده ، وبالغ أيضاً هو في نقل تلك الأشياء التي كثير منها لا يساوي مداده ، ومنها ما هو باطل لا محالة ، ومنها ما هو صحيح لما يشهد له الحق الذي بأيدينا . وقد قال البخاري : وقال أبو اليمان : حدثنا شعيب عن الزهري ، أخبرني حميد بن عبد الرحمن : أنه سمع معاوية يحدث رهطاً من قريش بالمدينة ، وذُكر كعب الأحبار فقال : إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب ، وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب ـ يعني من غير قصد منه . وروى البخاري من حديث الزهري ، عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس أنه قال : كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل الله على رسوله أحدث الكتب بالله ؟ تقرءونه محضاً لم يُشب . وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله وغيروه وكتبوا بأيديهم الكتاب ، وقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا . ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ؟ لا والله ما رأينا منهم رجلا يسألكم عن الذي أنزل عليكم . وروى ابن جرير عن عبد الله ابن مسعود أنه قال : لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء ؛ فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا ، إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل ، والله أعلم .

قصة جريج أحد عباد بني إسرائيل

قال الإمام أحمد : حدثنا وهب بن جرير ، حدثني أبي ، سمعت محمد بن سيرين يحدث عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة[1] : عيسى بن مريم . قال : وكان في بني

---

(١) ذكر الثلاثة قبل أن يعلم الزائد عليها ، وإلا فقد تكلم من الأطفال سبعة : منهم شاهد يوسف . وابن ماشطة آل فرعون ، والرضيع في قصة أصحاب الأخدود ، ويحيى عليه السلام .

إسرائيل رجل عابد يقال له جريج ، فابتنى صومعة وتعبد فيها ، قال : فذكر بنو إسرائيل عبادة جريج ، فقالت بغى منهم : لئن شئتم لأفتننه ، فقالوا قد شئنا ذاك . قال : فأتته فتعرضت له فلم يلتفت إليها ، فأمكنت نفسها من راع كان يؤوى غنمه إلى أصل صومعة جريج ، فحملت فولدت غلاماً . فقالوا : ممن ؟ قالت من جريج . فأتوه فاستنزلوه فشتموه وضربوه وهدموا صومعته . فقال ماشأنكم ؟ قالوا إنك زنيت بهذه البغى فولدت غلاماً ، فقال وأين هو ؟ قالوا هو هذا . قال : فصلى ودعا ، ثم انصرف إلى الغلام فطعنه بإصبعه ، فقال : بالله ياغلام من أبوك ؟ فقال أنا ابن الراعى ، فوثبوا إلى جريج فجعلوا يقبلونه ، وقالوا نبنى صومعتك من ذهب ، قال : لاحاجة لى فى ذلك ، ابنوها من طين كما كانت .

قال : وبينما امرأة فى حجرها ابن لها ترضعه ـ إذ مر بها راكب ذو شارة ، فقالت : اللهم اجعل ابنى مثل هذا . قال فترك ثديها وأقبل على الراكب فقال : اللهم لا تجعلنى مثله . قال : ثم عاد إلى ثديها فمصه ـ قال أبو هريرة : فكأنى أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكى صنيع الصبى ووضع إصبعه فى فيه يمصها . ثم مرت بأمة تضرب فقالت : اللهم لا تجعل ابنى مثلها ، قال فترك ثديها وأقبل على الأمة فقال : اللهم اجعلنى مثلها . قال : فذاك حين تراجعا الحديث فقالت : حَلْقَى مر الراكب ذو الشارة فقلتُ اللهم اجعل ابنى مثله ، فقلتَ : اللهم لا تجعلنى مثله . ومررت بهذه الأمة فقلتُ : اللهم لا تجعل ابنى مثلها فقلتَ : اللهم اجعلنى مثلها . فقال ياأماه ! إن الراكب ذو الشارة جبار من الجبابرة ، وإن هذه الأمة يقولون زنت ولم تزن وسرقت ولم تسرق ، وهى تقول حسبى الله » وهكذا رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء ، وفى المظالم عن مسلم بن إبراهيم ، ومسلم فى كتاب الأدب عن زهير بن حرب عن يزيد بن هرون ـ كلاهما عن جرير بن حازم به .

طريق أخرى ، وسياق آخر ـ قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا سليمان بن المغيرة . حدثنا حميد بن هلال عن أبى رافع عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « كان جريج يتعبد فى صومعته قال : فأتته أمه فقالت ياجريج ! أنا أمك فكلمنى ـ قال : وكان أبو هريرة يصف كيف كان رسول الله ﷺ وضع يده على حاجبه الأيمن ـ قال : وصادفته يصلى ، فقال : يا رب أمى وصلاتى ، فاختار صلاته فرجعت . ثم أتته فصادفته يصلى فقالت يا جريج ! أنا أمك فكلمنى ، فقال يارب أمى وصلاتى ، فاختار صلاته . فقالت : اللهم هذا جريج وإنه ابنى ، وإنى كلمته فأبى أن يكلمنى . اللهم فلا تمته حتى تريه المومسات . ولو دعت عليه أن يفتتن لافتتن . قال : وكان راع يأوى إلى ديره . فخرجت امرأة فوقع عليها الراعى فولدت غلاماً . فقيل ممن هذا ؟ فقالت : هو من صاحب الدير ، فأقبلوا بفؤسهم ومساحيهم . وأقبلوا إلى الدير فنادوه فلم يكلمهم ، فأقبلوا يهدمون ديره فنزل إليهم . فقالوا : سل هذه المرأة ، قال أراه تبسم ، قال ثم مسح رأس الصبى فقال من أبوك ؟ قال راعى الضأن . قالوا يا جريج نبنى ما هدمنا

من ديرك بالذهب والفضة ، قال : لا ، ولكن أعيدوه كما كان ففعلوا » ورواه مسلم فى الاستئذان عن شيبان بن فروخ عن سليمان بن المغيرة به .

سياق آخر ـ قال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد ، أنبأنا ثابت عن أبى رافع ، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « كان فى بنى إسرائيل رجل يقال له جريج ، كان يتعبد فى صومعته ، فأتته أمه ذات يوم فنادته فقالت أى جريج ! أى بنى ! أشرف علىّ أكلمك ، أنا أمك أشرف علىّ ، فقال : أى ربى ! صلاتى وأمى ، فأقبل على صلاته . ثم عادت فنادته مراراً فقالت : أى جريج ! أى بنىّ ! أشرف علىّ ، فقال أى رب ! صلاتى وأمى ، فأقبل على صلاته . فقالت : اللهم لا تمته حتى تريه المومسة » وكانت راعية ترعى غنما لأهلها ثم تأوى إلى ظل صومعته ، فأصابت فاحشة فحملت فأخذت ، وكان من زنى منهم قتل ، فقالوا ممن ؟ قالت : من جريج صاحب الصومعة ، فجاءوا بالفؤس والمرور ، فقالوا أى جريج ! أى مرائى ! انزل ، فأبى وأقبل على صلاته يصلى ، فأخذوا فى هدم صومعته ، فلما رأى ذلك نزل » فجعلوا فى عنقه وعنقها حبلا ، فجعلوا يطوفون بهما فى الناس ، فوضع إصبعه على بطنها فقال : أى غلام ! من أبوك ؟ فقال أبى فلان راعى الضأن ، فقبلوه ، وقالوا إن شئت بنينا لك صومعتك من ذهب وفضة ، قال أعيدوها كما كانت » . وهذا سياق غريب و إسناده على شرط مسلم ، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب من هذا الوجه .

فهؤلاء ثلاثة تكلموا فى المهد : عيسى بن مريم عليه السلام » وقد تقدم الكلام على قصته . وصاحب جريج ابن البغى من الراعى كما سمعت ، واسمه أبابوس كما ورد مصرحاً به فى صحيح البخارى . والثالث ابن المرأة التى كانت ترضعه فتمنت له أن يكون كصاحب الشارة الحسنة ، فتمنى أن يكون كتلك الأمة المتهومة بما هى بريئة منه ، وهى تقول حسبى الله ونعم الوكيل ؛ كما تقدم فى رواية محمد بن سيرين عن أبى هريرة مرفوعاً . وقد رواه الإمام أحمد عن هوذة عن عوف الأعرابى عن خلاس عن أبى هريرة عن النبى ﷺ بقصة هذا الغلام الرضيع ، وهو إسناد حسن .

وقال البخارى : حدثنا أبو اليمان ، حدثنا شعيب ، حدثنا أبو الزناد » عن عبد الرحمن الأعرج ، حدثه أنه سمع أبا هريرة ، أنه سمع رسول الله ﷺ قال : « بينما امرأة ترضع ابنها إذ مر بها راكب وهى ترضعه ، فقالت : اللهم لا تمت ابنى حتى يكون مثل هذا ، فقال : اللهم لا تجعلنى مثله ؛ ثم رجع فى الثدى ومُر بامرأة تُجرر ويُلعب بها ، فقالت : اللهم لاتجعل ابنى مثل هذه ، فقال : اللهم اجعلنى مثلها ، فقال : أما الراكب فإنه كافر » وأما المرأة فإنهم يقولون إنها تزنى وتقول حسبى الله ، ويقولون تسرق وتقول حسبى الله . وقد ورد فى من تكلم فى المهد أيضاً : شاهد يوسف كما تقدم ، وابن ماشطة آل فرعون » والله أعلم .

قصة برصيصا

وهى عكس قصة جريج ؛ فإن جريجاً عصم ، وذلك فتن . قال ابن جرير : حدثنى يحيى بن إبراهيم المسعودى ، أنبأنا أبى عن أبيه عن جده عن الأعمش ، عن عمارة عن عبد الرحمن بن يزيد ، عن عبد الله بن مسعود فى هذه الآية : (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر ، فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين * فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين[1]) .

قال ابن مسعود : كانت امرأة ترعى الغنم ، وكان لها إخوة أربعة ، وكانت تأوى بالليل إلى صومعة راهب قال : فنزل الراهب ففجر بها ، فحملت ، فأتاه الشيطان فقال له : اقتلها ثم ادفنها ؛ فإنك رجل مصدق و يسمع قولك ، فقتلها ثم دفنها قال : فأتى الشيطان إخوتها فى المنام فقال لهم : إن الراهب صاحب الصومعة فجر بأختكم ، فلما أحبلها قتلها ثم دفنها فى مكان كذا وكذا . فلما أصبحوا قال رجل منهم : والله لقد رأيت البارحة رؤيا ما أدرى أقصها عليكم أم أترك ؟ قالوا : لا ــ بل قصها علينا ، قال : فقصها ، فقال الآخر : وأنا والله لقد رأيت ذلك ، فقال الآخر : وأنا والله لقد رأيت ذلك . قالوا : فوالله ما هذا إلا لشىء ، فانطلقوا فاستعدوا ملكهم على ذلك الراهب ، فأتوه فأنزلوه . ثم انطلقوا به . فأتاه الشيطان فقال : إنى أنا الذى أوقعتك فى هذا ، ولن ينجيك منه غيرى ، فاسجد لى سجدة واحدة وأنجيك مما أوقعتك فيه ، قال : فسجد له ، فلما أتوا به ملكهم تبرأ منه وأخذ فقتل : وهكذا روى عن ابن عباس وطاوس ومقاتل بن حيان نحو ذلك .

وقد روى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه بسياق آخر ؛ فقال ابن جرير : حدثنا خلاد بن أسلم ، حدثنا النضر بن شميل ، أنبأنا شعبة عن أبى إسحاق : سمعت عبد الله بن نهيك ، سمعت علياً يقول : إن راهباً تعبد ستين سنة ، وإن الشيطان أراده فأعياه ، فعمد إلى امرأة فأجنها . ولها إخوة ، فقال لإخوتها : عليكم بهذا القس فيداويها قال : فجاءوا بها إليه فداواها ، وكانت عنده . فبينما هو يوماً عندها إذ أعجبته ، فأتاها فحملت ، فعمد إليها فقتلها ، فجاء إخوتها ، فقال الشيطان للراهب : أنا صاحبك ، إنك أعييتنى ، أنا صنعت هذا بك فأطعنى أنجك مما صنعت بك ، فاسجد لى سجدة ، فسجد له ، فلما سجد له قال : إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين . فذلك قوله : (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر ، فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين) .

---

(١) الآيتان : ١٦ ، ١٧ من سورة الحشر .

قصة الثلاثة الذين آووا إلى الغار فانطبق عليهم فتوسلوا إلى الله تعالى بصالح أعمالهم ففرج عنهم

قال الإمام البخارى : حدثنا إسماعيل بن خليل ، أخبرنا على بن مُسْهِر ، عن عبيد الله بن عمر عن نافع ، عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « بينما ثلاثة نفر ممن كان قبلكم ، يمشون إذ أصابهم مطر ، فأووا إلى غار فانطبق عليهم . فقال بعضهم لبعض : إنه والله ياهؤلاء لاينجيكم إلا الصدق ، فليدع كل رجل منكم بما يعلم أنه قد صدق فيه . فقال واحد منهم : اللهم إن كنت تَعلم أنه كان لى أجير عمِل لى على فَرْق[(١)] من أرز ، فذهب وتركه ، وأنى عَمَدت إلى ذلك الفرق فزرعته ، فصار من أمره أنى اشتريت منه بقراً ، وأنه أتانى يطلب أجره فقلت : اعمِد إلى تلك البقر فسقها ، فقال لى : إنما لى عندك فرق من أرز ، فقلت له اعمد إلى تلك البقر فإنها من ذلك الفرق ، فساقها . فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك من خشيتك ففرّج عنا . فانساحَت[(٢)] عنهم الصخرة . فقال الآخر : اللهم إن كنت تعلم أنه كان لى أبوان شيخان كبيران ، وكنت آتيهما كل ليلة بلبن غنم لى ، فأبطأت عليهما ليلة فجئت وقد رقدا ، وأهلى وعيالى يتضاغَون[(٣)] من الجوع ، وكنت لاأسقيهم حتى يشرب أبواى ، فكرهت أن أوقظهما وكرهت أن أدعَهما فيستكِنّا لشَربتهما[(٤)] ، فلم أزل أنتظر حتى طلع الفجر . فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك من خشيتك — ففرج عنا . فانساحَت عنهم الصخرة حتى نظروا إلى السماء . فقال الآخر : اللهم إن كنت تعلم أنه كانت لى ابنة عم من أحب الناس إلىّ ، وأنى راودتها عن نفسها فأبت إلا أن آتيها بمائة دينار ، فطلبتُها حتى قدَرت فأتيتها بها فدفعتها إليها ، فأمكنتنى من نفسها . فلما قعدت بين رِجليها ، قالت : اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه ، فقمت وتركت المائة الدينار . فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك من خشيتكَ ففرج عنا ، ففرج الله عنهم فخرجوا» .

رواه مسلم عن سويد بن سعيد عن على بن مسهر به . وقد رواه الإمام أحمد منفرداً به — عن مروان ابن معاوية عن عمرو بن حمزة بن عبد الله بن عمر عن سالم عن أبيه عن النبى ﷺ بنحوه . ورواه الإمام أحمد من حديث وهب بن منبه عن النعمان بن بشير عن النبى ﷺ بنحو من هذا السياق ، وفيه زيادات . ورواه البزار من طريق أبى إسحاق عن رجل عن بجيلة عن النعمان بن بشير مرفوعاً مثله ، ورواه البزار فى مسنده من حديث أبى حنش عن على بن أبى طالب عن النبى ﷺ بنحوه .

---

(١) الفرق — بسكون الراء وقد تحرك : مكيال معروف بالمدينة يسع ستة عشر رطلا ، والجمع فرقان .

(٢) أى اتسعت ، ومنه ساحة الدار . (٣) يتصايحون ، والضغاء : الصياح . (٤) أى يضعفا لعدم شربتهما .

خبر الثلاثة : الأعمى ، والأبرص ، والأقرع

روى البخارى ومسلم من غير وجه ، عن همام بن يحيى عن إسحاق بن عبد الله بن أبى طلحة : حدثنى عبد الرحمن بن أبى عمرة : أن أبا هريرة حدثه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن ثلاثة فى بنى إسرائيل ؛ أبرص وأعمى وأقرع ، بدا لله أن يبتليهم ، فبعث الله إليهم ملكا فأتى الأبرص فقال له : أى شىء أحب إليك ؟ فقال : لون حسن ، وجلد حسن ، قد قذرنى[1] الناس ، قال : فمسحه فذهب عنه ، فأعطى لوناً حسناً وجلداً حسناً . فقال : أى المال أحب إليك ؟ قال الإبل ، أوقال البقر ـ هو شك فى ذلك ، إن الأبرص والأقرع قال أحدهما الإبل وقال الآخر البقر ـ فأعطى ناقة عُشَراء فقال يبارك لك فيها . قال : وأتى الأقرع فقال له : أى شىء أحب إليك ؟ قال شعر حَسن ، ويذهب عنى هذا ، قد قذرنى الناس ، قال فمسحه فذهب وأعطى شعراً حسناً ، قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال البقر ، فأعطاه بقرة حاملاً ، وقال يُبارك لك فيها . قال وأتى الأعمى فقال له : أى شىء أحب إليك ؟ قال يرد الله إلىّ بصرى ، فأبصر به الناس ، قال : فمسحه فرد الله إليه بصره ، قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال الغنم ، فأعطاه شاة والداً فأنتج هذان وولّد هذا[2] فكان لهذا وادٍ من الإبل ، ولهذا وادٍ من البقر ، ولهذا وادٍ من الغنم .

ثم إنه أتى الأبرص فى صورته وهيئته ، فقال : رجل مسكين تقطعت بى الحبال[3] فى سفرى ، فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال ـ بعيراً أتبلّغ[4] عليه فى سفرى ، فقال له : إن الحقوق كثيرة ، فقال له كأنى أعرفك ، ألم تكن أبرص يقذرُك الناس ، فقيراً فأعطاك الله عزّ وجل ؟ فقال : لقد ورثت لكابر عن كابر ، فقال : إن كنتَ كاذباً فصيّرك الله إلى ما كنت . وأتى الأقرع فى صورته وهيئته فقال له مثل ماقال لهذا ، فرد عليه مثل مارد عليه هذا ، فقال إن كنت كاذباً فصيّرك الله إلى ما كنت . وأتى الأعمى فى صورته فقال : رجل مسكين وابن سبيل ، وتقطعت بى الحبال فى سفرى ، فلا بلاغ اليوم إلى بالله ثم بك . أسألك بالذى ردّ عليك بصرك ـ شاة أتبلّغ بها فى سفرى ، فقال : قد كنت أعمى فرد الله إلى بصرى ، وفقيراً فقد أغنانى . فخذ ماشئت ، فوالله لاأجهدُك[5] اليوم بشىء أخذتَه لله عز وجل . فقال أمسك مالك فإنما ابتليتم ، فقد رضى الله عنك وسَخِط على صاحبيك » ، هذا لفظ البخارى فى أحاديث بنى إسرائيل .

---

(١) استقذرونى وكرهونى . (٢) أنتج صاحبا الإبل والبقر ، وولد صاحب الشاة . (٣) أسباب الرزق.
(٤) من البلغة بضم الباء ـ وهى الكفاية (٥) أى لاأشق عليك فى رد شىء تطلبه منى .

حديث الذى استسلف من صاحبه ألف دينار فأداها

قال الإمام أحمد : حدثنا يونس بن محمد ، حدثنا ليث عن جعفر بن ربيعة عن عبد الرحمن بن هرمز عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ : أنه ذكر : أن رجلا من بنى إسرائيل سأل بعض بنى إسرائيل أن يسلفه ألف دينار . فقال : ائتنى بشهداء أشهدهم ، فقال كفى بالله شهيداً . قال : فائتنى بكفيل قال : كفى بالله كفيلا ، قال صدقت . فدفعها إليه إلى أجل مسمى ، فخرج فى البحر فقضى حاجته ، ثم التمس مركباً يقدَم عليه للأجل الذى أجله فلم يجد مركباً ، فأخذ خشبة فنقرها وأدخل فيها ألف دينار وصحيفة معها إلى صاحبه ، ثم زجج[1] موضعها ثم أتى بها إلى البحر . ثم قال : اللهم إنك قد علمت أنى استسلفت من فلان ألف دينار ، فسألنى كفيلا فقلت كفى بالله كفيلا ، فرضى بك . وسألنى شهيداً فقلت كفى بالله شهيداً ، فرضى بك . وأنى قد جهدت أن أجد مركباً أبعث إليه بالذى أعطانى فلم أجد مركباً . وإنى أستودعكها . فرمى بها فى البحر حتى ولجت فيه . ثم انصرف ، وهو فى ذلك يطلب مركبا إلى بلده . فخرج الرجل الذى كان أسلفه ينظر لعل مركباً يجيئه بماله ، فإذا بالخشبة التى فيها المال فأخذها لأهله حطباً ، فلما كسرها وجد المال والصحيفة . ثم قدم الرجل الذى كان تسلف منه فأتاه بألف دينار وقال : والله ما زلت جاهداً فى طلب مركب لآتيك بمالك ، فما وجدت مركباً قبل الذى أتيت فيه . قال : هل كنت بعثت إلىّ بشىء ؟ قال ألم أخبرك أنى لم أجد مركباً قبل هذا الذى جئت فيه ؟ قال فإن الله قد أدى عنك الذى بعثت به فى الخشبة ، فانصرِف بالألف الدينار راشداً[2] . هكذا رواه الإمام أحمد مسنداً . وقد علقه البخارى فى غير موضع من صحيحه بصيغة الجزم عن الليث بن سعد ، وأسنده فى بعضها عن عبد الله بن صالح كاتب الليث عنه . والعجب من الحافظ أبى بكر البزار كيف رواه فى مسنده عن الحسن بن مدرك ، عن يحيى بن حماد عن أبى عوانة عن عمر بن سلمة عن أبيه عن أبى هريره عن النبى ﷺ بنحوه . ثم قال : لايروى إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد .

قصة أخرى شبيهة بهذه القصة فى الصدق والأمانة

قال البخارى : حدثنا إسحاق بن نصر ، أخبرنا عبد الرزاق عن معمر عن همام بن منبه ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « اشترى رجل من رجل عقاراً له ، فوجد الرجل الذى اشترى العقار — فى عقاره جرةً[3] فيها ذهب ، فقال له الذى اشترى العقار : خذ ذهبك منى ، إنما اشتريت منك الأرض ولم أبتع منك الذهب . وقال الذى له الأرض : إنما بعتك الأرض وما فيها . فتحاكما إلى رجل ، فقال

---

(١) أى جعل لها زجاً ، والزج : الحديدة فى أسفل الرمح . (٢) ذكر البخارى هذا الحديث فى باب الكفالة .
(٣) هى الإناء الذى يصنع من الفخار ، وهو معروف .

الذى تحاكما إليه : ألكما ولد ؟ قال أحدهما : لى غلام ، وقال الآخر : لى جارية . قال : أنكحوا الغلام الجارية وأنفقوا على أنفسهما منه وتصدقا » ، هكذا روى البخارى هذا الحديث فى أخبار بنى إسرائيل ، وأخرجه مسلم عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق به . وقد روى أن هذه القصة وقعت فى زمن ذى القرنين وقد كان قبل بنى إسرائيل بدهور متطاولة ، والله أعلم .

قال إسحاق بن بشر فى كتابه ـ [المبتدأ] : عن سعد بن أبى عروبة ، عن قتادة عن الحسن : إن ذا القرنين كان يتفقد أمور ملكه وعماله بنفسه ، وكان لا يطلع على أحد منهم خيانة إلا أنكر ذلك عليه ، وكان لا يقبل ذلك حتى يطلع هو بنفسه . قال : فبينما هو يسير متنكراً فى بعض المدائن ، فجلس إلى قاض من قضاتهم أياماً لا يختلف إليه أحد فى خصومة ، فلما أن طال ذلك بذى القرنين ، ولم يطلع على شيء من أمر ذلك القاضى ، وهم بالانصراف ـ إذا هو برجلين قد اختصما إليه ، فادعى أحدهما فقال : أيها القاضى ! إنى اشتريت من هذا داراً عمرتها ووجدت فيها كنزاً ، وإنى دعوته إلى أخذه فأبى علىّ . فقال له القاضى : ما تقول ؟ قال ما دفنت وما علمت به فليس هو لى ولا أقبضه منه . قال المدعى : أيها القاضى ! مر من يقبضه فتضعه حيث أحببت . فقال القاضى : تفر من الشر وتدخلنى فيه ؟ ما أنصفتنى ، وما أظن هذا فى قضاء الملك . فقال القاضى : هل لكما أمر أنصف مما دعوتمانى إليه ؟ قالا ـ نعم . قال للمدعى : ألك ابن ؟ قال ـ نعم . وقال للآخر : ألك ابنة ؟ قال ـ نعم . قال اذهبا فزوج ابنتك من ابن هذا ، وجهزاهما من هذا المال ، وادفعا فضل ما بقى إليهما يعيشان به ملياً ، فتكونا بخيره وشره . فعجب ذو القرنين حين سمع ذلك ، ثم قال للقاضى : ماظننت أن فى الأرض أحداً يفعل مثل هذا ، أو قاضٍ يقضى بمثل هذا . فقال القاضى ـ وهو لا يعرفه : وهل أحد يفعل غير هذا ؟ قال ذو القرنين : نعم . قال القاضى : فهل يمطرون فى بلادهم ؟ فعجب ذو القرنين من ذلك وقال : بمثل هذا قامت السموات والأرض .

قصة أخرى

قال البخارى : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا محمد بن أبى عدى ، عن شعبة عن قتادة عن أبى الصديق الناجى عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال : « كان فى بنى إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين إنساناً ، ثم خرج يسأل . فأتى راهباً فسأله فقال له : هل من توبة ؟ قال : لا ـ فقتله ، فجعل يسأل فقال له رجل : ائت قرية كذا وكذا ، فأدركه الموت فناء بصدره نحوها . فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب . فأوحى الله إلى هذه أن تقربى ، وأوحى الله إلى هذه أن تباعدى . وقال : قيسوا ما بينهما ، فوجد إلى هذه أقرب بشبر فغفر له » . هكذا رواه ههنا مختصراً ، وقد رواه مسلم عن بندار به ، ومن حديث شعبة ومن وجه آخر عن قتادة به مطولا .

[حديث آخر] — قال البخارى : حدثنا على بن عبدالله ، حدثنا سفيان ، حدثنا أبوالزناد عن الأعرج عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال : صلى رسول الله ﷺ صلاة الصبح ، ثم أقبل على الناس فقال : « بينما رجل يسوق بقرة إذ ركبها فضربها فقالت إنا لم نخلق لهذا — إنما خلقنا للحرث . فقال الناس : سبحان الله ! بقرة تكلم ؟ فقال فإنى أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر » وماهما ثمّ[(١)] قال : وبينما رجل فى غنمه إذ عدا الذئب فذهب منها بشاة ، فطلب حتى كأنه استنقذها منه ، فقال له الذئب : هذا[(٢)] استنقذتها منى » فمن لها يوم السبُع يوم لا راعى لها غيرى ؟ فقال الناس : سبحان الله ! ذئب يتكلم ؟ قال فإنى أؤمن بهذا أنا وأبو بكر وعمر — وما هما ثم » . قال : وحدثنا على قال : حدثنا سفيان عن مِسعر عن سعد بن إبراهيم عن أبى سلمة عن أبى هريرة عن النبى ﷺ بمثله وقد أسنده البخارى فى المزارعة عن على بن المدينى » ومسلم عن محمد بن عباد — كلاهما عن سفيان بن عيينة . وأخرجاه من طريق شعبة — كلاهما عن مسعر به . وقال الترمذى حسن صحيح ، وأخرج مسلم الطريق الأول من حديث سفيان بن عيينة وسفيان الثورى — كلاهما عن أبى الزناد .

[حديث آخر] — قال البخارى : حدثنا عبدالعزيز بن عبدالله ، حدثنا إبراهيم عن سعد عن أبيه عن أبى سلمة عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « إنه قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم محدَّثون[(٣)] وإنه إن كان فى أمتى هذه منهم — فإنه عمر بن الخطاب » » لم يخرجه مسلم من هـذا الوجه » وقد روى عن إبراهيم بن سعد عن أبى سلمة عن عائشة رضى الله عنها .

[حديث آخر] — قال البخارى : حدثنا عبد الله بن مسلمة عن مالك ، عن ابن شهاب عن حميد ابن عبد الرحمن : أنه سمع معاوية بن أبى سفيان عام حَجّ على المنبر ، فتناول قُصّةً[(٤)] من شعر كانت فى يدى حَرَسىّ[(٥)] ، فقال يا أهل المدينة ! أين علماؤكم ؟ سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن مثل هذه ويقول : إنما هلكت بنو إسرائيل حين اتخذها نساؤهم » . وهكذا رواه مسلم وأبو داود من حديث مالك ، وكذا رواه معمر ويونس وسفيان بن عيينة عن الزهرى بنحوه » وقال الترمذى حديث صحيح . وقال البخارى : حدثنا آدم ، حدثنا شعبة ، حدثنا عمرو بن مرة ، قال سمعت سعيد بن المسيب ، قال : قدم معاوية بن أبى سـفيان المدينة ، آخر قَدْمة قدمها ، فخطبنا فأخرج من كمه كُبّة من شعر وقال : ما كنت أرى أنَّ أحداً يفعل هذا غيرَ اليهود ، وإن النبى ﷺ سماه الزُّور — يعنى الوصال فى الشعر . تابعه غُنْدر عن شعبة ، والعجب أن مسلماً رواه من غير وجه عن غندر عن شعبة ، ومن حديث قتادة عن سعيد بن المسيب به .

---

(١) أى لم يكن أبو بكر وعمر حاضرين هناك (٢) هذا : أى ياهذا (٣) المحدث : الملهم الذى يلقى الشىء فى روعه . (٤) القصة : شعر الناصية من الرأس ، والمراد — القطعة (٥) نسبة إلى الحرس وهو واحد الحراس .

[حديث آخر] ـ قال البخارى : حدثنا سعيد بن تَلِيد ، حدثنا ابن وهب قال : أخبرنى جرير ابن حازم عن أيوب عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « بينما كلب يُطيف[1] بركِيّة كاد يقتله العطش ، إذ رأته بغى من بغايا بنى إسرائيل ، فنزعت مُوقها[2] فسقته فغفر لها به » . ورواه مسلم عن أبى الطاهر بن السرح عن وهب به .

[حديث آخر] ـ قال البخارى : حدثنا عبد الله بن أسماء ، حدثنا جويرية ، عن نافع عن عبدالله ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « عذبت امرأة فى هرة سجنتها حتى ماتت ، فدخلت فيها النار ، فلا هى أطعمتها ولا سقتها إذ حبستها ، ولا هى تركتها تأكل من خَشاش الأرض » . وكذا رواه مسلم عن عبد الله بن محمد بن أسماء به .

[حديث آخر] ـ قال الإمام أحمد : حدثنا عثمان بن عمر ، حدثنا المستمر بن الريان ، حدثنا أبو نضرة عن أبى سعيد أن رسول الله ﷺ قال : « كان فى بنى إسرائيل امرأة قصيرة فصنعت رجلين من خشب ، فكانت تمشى بين امرأتين قصيرتين ، واتخذت خاتماً من ذهب ، وحشت تحت فصه أطيب الطيب والمسك ، فكانت إذا مرت بالمجلس حركته فنفح ريحه » . رواه مسلم من حديث المستمر وخليد بن جعفر ـ كلاهما عن أبى نضرة عن أبى سعيد مرفوعاً قريباً منه ، وقال الترمذى حديث صحيح .

[حديث آخر] ـ قال البخارى : حدثنا آدم ، حدثنا شعبة عن منصور سمعت رِبعى بن حِراش يحدث عن ابن مسعود قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : إن مما أدركَ الناسُ من كلام النبوة الأولى ـ إذا لم تستحِ فاصنع ماشئت » . تفرد به البخارى دون مسلم ، وقد رواه بعضهم عن ربعى بن حراش عن حذيفة مرفوعاً وموقوفاً أيضاً ، والله أعلم .

[حديث آخر] ـ قال الإمام أحمد : حدثناهاشم بن القسم ، حدثنا عبدالحميد ـ يعنى ابن بهرام ـ حدثنا شهر بن حوشب قال : قال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ : « بينما رجل وامرأة له فى السلف الخالى لايقدران على شىء ، فجاء الرجل من سفره ، فدخل على امرأته جائعاً قد أصابته سغبة شديدة ، فقال لامرأته : أعندك شىء ؟ قالت ـ نعم . أبشر أتاك رزق الله ، فاستحثها فقال : ويحك ابتغى إن كان عندك شىء ، قالت ـ نعم . هُنَيَة[3] ترجو رحمة الله . حتى إذا طال عليه المطال ، قال : ويحك ! قومى فابتغى إن كان عندك شىء فأتينى به ، فإنى قد بلغت الجهد وجهدت . فقالت : نعم ؛ الآن ينضج التنور

---

(١) يطيف ويطوف : أى يدور (٢) الموق : خف غليظ يلبس فوق الخف .

(٣) هو تصغير هنة ، وأصلها هنوة : أى شىء يسير .

فلا تعجل . فلما أن سكت عنها ساعة وتحينت أيضاً أن يقول لها ، قالت من عند نفسها : لو قمت فنظرت إلى تنورى ! فقامت فوجدت تنورها ملآن من جنوب الغنم ، ورحاها تطحن . فقامت إلى الرحى فنفضتها واستخرجت مافى تنورها من جنوب الغنم . قال أبو هريرة : فوالذى نفس أبى القاسم بيده عن قول محمد ﷺ لو أخذت مافى رحييها ولم تنفضها لطحنت إلى يوم القيامة » . وقال أحمد : حدثنا أبو عامر ، حدثنا أبو بكر عن هشام عن محمد عن أبى هريرة قال : دخل رجل على أهله ، فلما رأى مابهم من الحاجة خرج إلى البرية . فلما رأت امرأته مالقى — قامت إلى الرحى فوضعتها ، و إلى التنور فسجرته[1] ثم قالت : اللهم ارزقنا ، فنظرت فإذا الجفنة قد امتلأت ، قال : وذهبت إلى التنور فوجدته ممتلئاً ، قال : فرجع الزوج فقال أصبتم بعد شيئاً ؟ قالت امرأته : نعم من ربنا ، ثم قامت إلى الرحى فرفعتها ، فذكر ذلك للنبى ﷺ فقال : « أما إنه لو لم ترفعها لم تزل تدور إلى يوم القيامة » . قال شهدت النبى ﷺ وهو يقول : « والله لأن يأتى أحدكم بحزمة حطب ثم يحمله فيبيعه فيستعفف منه — خير له من أن يأتى رجلا فيسأله » .

قصة الملكين التائبين

قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا المسعودى عن سماك بن حرب عن عبد الرحمن ابن عبد الله بن مسعود عن أبيه قال : بينما رجل فيمن كان قبلكم كان فى مملكته ، ففكر فعلم أن ذلك منقطع عنه ، وأن ما هو فيه قد شغله عن عبادة ربه . فانساب ذات ليلة من قصره وأصبح فى مملكة غيره ، وأتى ساحل البحر فكان به ؛ يضرب اللبن بالآجر فيأكل ويتصدق بالفضل . ولم يزل كذلك حتى رقى أمره إلى ملكهم . فأرسل إليه فأبى أن يأتيه . فركب إليه الملك فلما رآه ولى هارباً ، فركض فى أثره فلم يدركه . فناداه يا عبد الله ! إنه ليس عليك منى بأس ، فقام حتى أدركه فقال له : من أنت رحمك الله ؟ فقال أنا فلان بن فلان صاحب مملكة كذا وكذا ؛ فكرت فى أمرى فعلمت أن ما أنا فيه منقطع ، وأنه قد شغلنى عن عبادة ربى عز وجل . فتركته وجئت ههنا أعبد ربى . فقال له : ما أنت بأحوج لما صنعت منى . قال : فنزل عن دابته فسيبها وتبعه ، فكانا جميعاً يعبدان الله عز وجل ، فدعوا الله أن يميتهما جميعاً فماتا . قال عبد الله : فلو كنت برملة مصر لأريتكم قبورهما بالنعت الذى نعت لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

[حديث آخر] — قال البخارى : حدثنا أبو الوليد حدثنا أبو عوانة عن قتادة عن عقبة بن عبد الغافر ، عن أبى سعيد عن النبى ﷺ : أن رجلا كان قبلكم رغسه الله[2] مالا ، فقال لبنيه لما حضر : أىَّ أب

(١) سجر التنور : أحماه وأوقده . (٢) أى أكثر له وبارك له فيه ، والرغس : النعمة والخير والبركة .

كنت لكم ؟ قالوا خير أب . قال : فإنى لم أعمل خيراً قط ، فإذا مت فأحرقونى ثم اسحقونى ثم ذرونى فى يوم عاصف ، ففعلوا . فجمعه الله عز وجل ، فقال : ما حملك ؟ فقال : مخافتُك ، فتلقاه برحمته » .

ورواه فى مواضع أخر ، ومسلم من طرق عن قتادة به . ثم رواه البخارى ومسلم من حديث ربعى بن حراش عن حذيفة عن النبى ﷺ بنحوه . ومن حديث الزهرى عن حميد بن عبد الرحمن عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم — بنحوه .

[حديث آخر] — قال البخارى : حدثنا عبد العزيز بن عبد الله ، حدثنا إبراهيم بن سعد عن ابن شهاب ، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « كان رجل يداين الناس فكان يقول لفتاه : إذا أتيتَ معسراً فتجاوز عنه لعل الله أن يتجاوز عنا ، قال : فلقى الله فتجاوز عنه » ، وقد رواه فى مواضع أخر ، ومسلم من طريق الزهرى به .

[حديث آخر] — قال البخارى : حدثنا عبد العزيز بن عبدالله ، حدثنى مالك عن محمد بن المنكدر عن أبى النضر مولى عمر بن عبيد الله ، عن عامر بن سعد بن أبى وقاص ، عن أبيه ؛ أنه سمعه يسأل أسامة ابن زيد : ماذا سمعت من رسول الله ﷺ فى الطاعون ؟ قال أسامة : قال رسول الله ﷺ : « الطاعون رجس[1] أرسل على طائفة من بنى إسرائيل وعلى من كان قبلكم ، فإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا فِراراً منه » . قال أبو النضر : لا يخرجكم إلا فِراراً منه . ورواه مسلم من حديث مالك ومن طرق أخر عن عامر بن سعد به : حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا داود بن أبى الفرات ، حدثنا عبد الله بن بُريدة عن يحيى بن يعمَر ، عن عائشة قالت : سألت رسول الله ﷺ عن الطاعون فأخبرنى أنه عذاب يبعثه الله على من يشاء من عباده ، وأن الله جعله رحمة للمؤمنين ، ليس من أحد يقع الطاعون فيمكث فى بلده صابراً محتسباً ، يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له — إلا كان له مثل أجر شهيد » . تفرد به البخارى عن مسلم من هذا الوجه .

[حديث آخر] — قال البخارى : حدثنا قتيبة ، حدثنا ليث عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة : أن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التى سرقت ، فقالوا : ومن يكلم فيها رسول الله ﷺ ؟ فقالوا ومن يجترىء عليه إلا أسامة بن زيد حِبّ رسول الله ﷺ ؟ فكلمه أسامة ، فقال رسول الله ﷺ : أتشفع فى حد من حدود الله ؟ ثم قام فخطب ثم قال : إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد . وأيْمُ[2] الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » . وأخرجه بقية الجماعة من طرق عن الليث بن سعد به .

---

(١) أى عذاب وغضب . (٢) اسم وضع للقسم ، والتقدير : أيم الله قسمى . ومثله : أيمن الله . وهيم الله .

[حديث آخر] ـ وقال البخارى : حدثنا آدم ، حدثنا شعبة ، حدثنا عبد الملك بن ميسرة قال : سمعت النزّال بن سبرة الهلالى ، عن ابن مسعود قال : سمعت رجلا قرأ[1] ، وسمعت رسول الله ﷺ يقرأ خلافها ، فجئت به إلى رسول الله ﷺ فأخبرته ، فعرفتُ فى وجهه الكراهية وقال : « كلا كما محسن ، ولا تختلفوا ؛ فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا » . تفرد به البخارى دون مسلم .

[حديث آخر] : قال البخارى : حدثنا عبد العزيز بن عبدالله ، حدثنا إبراهيم عن صالح عن ابن شهاب قال : قال أبو سلمة بن عبد الرحمن إن أبا هريرة قال : إن رسول الله ﷺ قال : « إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم » . تفرد به دون مسلم ، وفى سنن أبى داود : صلوا فى نعالكم خالفوا اليهود .

[حديث آخر] ـ قال البخارى . حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا سفيان عن عمرو عن طاووس عن ابن عباس قال : سمعت عمر يقول : قاتل الله فلاناً ، ألم يعلم أن رسول الله ﷺ قال : « لعن الله اليهود ، حرمت عليهم الشحوم فجَمَلوها[2] فباعوها » . رواه مسلم من حديث ابن عيينة . ومن حديث عمرو بن دينار به . ثم قال البخارى تابعه جابر وأبو هريرة عن النبى ﷺ . ولهذا الحديث طرق كثيرة ، وسيأتى فى باب الحيل من كتاب الأحكام إن شاء الله ، وبه الثقة .

[حديث آخر] قال البخارى : حدثنا عمران بن ميسرة ، حدثنا عبد الوارث ، حدثنا خالد عن أبى قلابة عن أنس بن مالك قال : ذكروا النار والناقوس ، فذكروا اليهود والنصارى ، فأمِر بلال أن يشفع الأذان وأن يوتر الإقامة ، وأخرجه بقية الجماعة من حديث أبى قلابة عبد الله بن زيد الجرمى به . والمقصود من هذا مخالفة أهل الكتاب فى جميع شعارهم ؛ فإن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة كان المسلمون يتحينون[3] وقت الصلاة بغير دعوة إليها . ثم أمر من ينادى فيهم وقت الصلاة : « الصلاة جامعة » ، ثم أرادوا أن يدعوا إليها بشىء يعرفه الناس ، فقال قائلون : نضرب بالناقوس ، وقال آخر : نورى ناراً[4] ، فكرهوا ذلك لمشابهة أهل الكتاب . فأرى عبدالله بن زيد بن عبد ربه الأنصارى فى منامه الأذان ، فقصها على رسول الله ﷺ فأمر بلالا فنادى . كما هو مبسوط فى موضعه من باب الأذان فى كتاب الأحكام .

[حديث آخر] ـ قال البخارى : حدثنا بشر بن محمد ، أنبأنا عبد الله ، أنبأنا معمر ويونس عن الزهرى ، أخبرنى عبيد الله بن عبد الله : أن عائشة وابن عباس قالا : لما نُزِل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصةً[5] على وجهه فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه ، فقال وهو كذلك : « لعنة الله على اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » ، يحذر ماصنعوا .

وهكذا رواه فى غير موضع ، ومسلم من طرق عن الزهرى به .

---

(١) عند أبى ذر : آية (٢) أى أذابوها (٣) يقدرون حينها ليدركوها فى وقتها الشرعى
(٤) أى نوقد ونشعل . (٥) الخميصة : كساء أسود مربع له علمان .

[حديث آخر] ـ قال البخارى : حدثنا سعيد بن أبى مريم ، حدثنا أبو غسان ، قال : حدثنى زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد أن النبى ﷺ قال : « لتتبعن سَنَن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع ، حتى لوسلكوا جُحر ضب لسلكتموه » . فقلنا يارسول الله : اليهود والنصارى ؟ قال النبى ﷺ فمن ؟[1] ، وهكذا رواه مسلم من حديث زيد بن أسلم به والمقصود من هذا الإخبار عما يقع من الأقوال والأفعال المنهى عنها شرعاً ، مما يشابه أهل الكتاب قبلنا . إن الله ورسوله ينهيان عن مشابهتهم فى أقوالهم وأفعالهم ، حتى ولو كان قصد المؤمن خيراً ، ولكنه تشبّه ففعله فى الظاهر فعلهم ، كما نهى عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها ؛ لئلا نشابه المشركين الذين يسجدون للشمس حينئذ ، وإن كان المؤمن لايخطر بباله شىء من ذلك بالكلية .

وهكذا قوله تعالى : (يأيها الذين آمنوا لاتقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم[2]) . فكان الكفار يقولون للنبى ﷺ فى كلامهم معه : راعنا ـ أى انظر إلينا ببصرك واسمع كلامنا ، ويقصدون بقولهم راعنا من الرعونة ، فنهى المؤمنين أن يقولوا ذلك ، وإن كان لايخطر ببال أحد منهم هـذا أبداً . فقد روى الإمام أحمد والترمذى من حديث عبد الله بن عمر عن النبى ﷺ أنه قال : « بعثت بالسيف بين يدى الساعة حتى يعبد الله وحده لاشريك له ، وجعل رزقى تحت ظل رمحى ، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمرى ، ومن تشبه بقوم فهو منهم » ، فليس للمسلم أن يتشبه بهم لافى أعيادهم ولا مواسمهم ولا فى عباداتهم ؛ لأن الله تعالى شرف هـذه الأمة بخاتم الأنبياء ، الذى شرع له الدين العظيم القويم الشامل الكامل ؛ الذى لوكان موسى بن عمران الذى أنزلت عليه التوراة ، وعيسى بن مريم الذى أنزل عليه الإنجيل ـ حين لم يكن لهما شرع متبع ، بل لو كانا موجودين ، بل وكل الأنبياء ـ لما ساغ لواحد منهم أن يكون على غير هذه الشريعة المطهرة المشرفة المكرمة المعظمة . فإذا كان الله تعالى قد منّ علينا بأن جعلنا من أتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، فكيف يليق بنا أن نتشبه بقوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ؟ قد بدلوا دينهم وحرفوه وأولوه ، حتى صار كأنه غير ماشرع لهم أولا . ثم هو بعد ذلك كله منسوخ ، والتمسك بالمنسوخ حرام ؛ لايقبل الله منه قليلا ولا كثيراً ، ولا فرق بينه وبين الذى لم يشرع بالكلية ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

[حديث آخر] ـ قال البخارى : حدثنا قتيبة ، حدثنا الليث عن نافع عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال : « إنما أجَلُكم فى أجل من خلا من قبلكم من الأمم ـ كما بين صلاة العصر إلى مغرب الشمس ، وإنما مثلكم ومثل اليهود والنصارى ـ كرجل استعمل عمالا ، فقال : من يعمل لى إلى نصف

---

(١) هو استفهام إنكارى ، أى فمن هم غير أولئك ؟ (٢) الآية : ١٠٤ من سورة البقرة .

النهار على قيراط قيراط ؟ فعملت اليهود إلى نصف النهار على قيراط قيراط ، ثم قال : من يعمل لى من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط ؟ فعملت النصارى من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط ، ثم قال : من يعمل لى من صلاة العصر إلى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين ؟ ألاَ فأنتم الذين يعملون من صلاة العصر إلى المغرب على قيراطين قيراطين . ألا لكم الأجر مرتين . فغضبت اليهود والنصارى فقالوا : نحن أكثر عملا وأقل عطاء . قال الله تعالى : هل ظلمتكم من حقكم شيئاً ؟ فقالوا ـ لا . قال : فإنه فضلى أوتيه من أشاء » .

وهذا الحديث فيه دليل على أن مدة هـذه الأمة قصيرة بالنسبة إلى مامضى من مدد الأمم قبلها ، لقوله : إنما أجلكم فى أجل من خلا من الأمم قبلكم كما بين صلاة العصر إلى مغرب الشمس ؛ فالماضى لايعلمه إلا الله ، كما أن الآتى لا يعلمه إلا هو ، ولكنه قصير بالنسبة إلى ماسبق . ولا اطلاع لأحد على تحديد مابقى إلا الله عز وجل ، كما قال الله تعالى : (لايجليها لوقتها إلا هو[1]) ، وقال : (يسألونك عن الساعة أيان مرساها * فيم أنت من ذكراها * إلى ربك منتهاها[2]) .

وما يذكره بعض الناس ـ من الحديث المشهور عند العامة ـ من أنه عليه السلام : لايؤلف تحت الأرض ـ فليس له أصل فى كتب الحديث . وورد فيه حديث : أن الدنيا جمعة من جمع الآخرة ، وفى صحته نظر . والمراد من هـذا التشبيه بالعمال ـ تفاوت أجورهم ، وأن ذلك ليس منوطاً بكثرة العمل وقلته ، بل بأمور أخر معتبرة عند الله تعالى ، وكم من عمل قليل أجدى مالايجديه العمل الكثير ؛ هـذه ليلة القدر ـ العمل فيها أفضل من عبادة ألف شهر سواها . وهؤلاء أصحاب محمد ﷺ أنفقوا فى أوقات لو أنفق غيرهم من الذهب مثل أحد ـ مابلغ مدّ أحدهم ولا نَصيفه من تمر . وهذا رسول الله ﷺ بعثه الله على رأس أربعين سنة من عمره ، وقبضه وهو ابن ثلاث وستين على المشهور . وقد برز فى هذه المدة التى هى ثلاث وعشرون سنة فى العلوم النافعة والأعمال الصالحة ـ على سائر الأنبياء قبله ، حتى على نوح الذى لبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ؛ يدعوهم إلى عبادة الله وحده لاشريك له ، ويعمل بطاعة الله ليلا ونهاراً صباحاً ومساء . صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء أجمعين .

فهذه الأمة إنما شرفت وتضاعف ثوابها ـ ببركة سيادة نبيها وشرفه وعظمته ؛ كما قال تعالى : (ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ، ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم * لئلا يعلم أهل الكتاب أن لايقدرون على شىء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم[3]) .

(١) الآية : ١٨٧ من سورة الأعراف (٢) الآيات : ٤٢ ـ ٤٤ من آخر سورة النازعات .
(٣) الآيتان : آخر سورة الحديد .

فصـــل

وأخبار بنى إسرائيل كثيرة جداً فى الكتاب والسنة النبوية ، ولو ذهبنا نتقصى ذلك لطال الكتاب ، ولكن ذكرنا ما ذكره الإمام أبو عبدالله البخارى فى هذا الكتاب ، ففيه مقنع وكفاية وهو تذكرة وأنموذج لهذا الباب والله أعلم . وأما الأخبار الإسرائيلية فيما يذكره كثير من المفسرين والمؤرخين ـ فكثيرة جداً ، ومنها ما هو صحيح موافق لما وقع ، وكثير منها بل أكثرها مما يذكره القصاص ـ مكذوب مفترى ، وضعه زنادقتهم وضلالهم . وهى ثلاثة أقسام : منها ما هو صحيح لموافقته ما قصه الله فى كتابه أو أخبر به رسول الله ﷺ ، ومنها ما هو معلوم البطلان لمخالفته كتاب الله وسنة رسوله ، ومنها ما يحتمل الصدق والكذب . فهذا الذى أمرنا بالتوقف فيه فلا نصدقه ولا نكذبه ؛ كما ثبت فى الصحيح : « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم » . وتجوز روايته مع هذا الحديث المتقدم : « وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج » .

ذكر تحريف أهل الكتاب وتبديلهم أديانهم

أما اليهود فقد أنزل الله عليهم التوراة على يدى موسى بن عمران عليه السلام . وكانت كما قال الله تعالى : (ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذى أحسن وتفصيلا لكل شىء[١]) ، وقال تعالى : (قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً[٢]) وقال تعالى : (ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياء وذكرى للمتقين[٣]) ، وقال تعالى : (وآتيناهما الكتاب المستبين * وهديناهما الصراط المستقيم[٤]) ، وقال تعالى : (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ، فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون[٥]) فكانوا يحكمون بها وهم متمسكون بها برهة من الزمان ، ثم شرعوا فى تحريفها وتبديلها وتغييرها وتأويلها وإبداء ما ليس منها ؛ كما قال الله تعالى : (وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ، ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون[٦]) فأخبر تعالى أنهم يفسرونها ويتأولونها ويضعونها على غير مواضعها . وهذا ما لا خلاف فيه بين العلماء ؛ وهو أنهم يتصرفون فى معانيها ويحملونها على غير المراد ، كما بدلوا حكم

---

(١) الآية : ١٥٤ من سورة الأنعام
(٢) الآية : ٩١ من سورة الأنعام
(٣) الآية : ٤٨ من سورة الأنبياء .
(٤) الآيتان : ١١٧ ، ١١٨ من سورة الصافات
(٥) الآية : ٤٤ من سورة المائدة
(٦) الآية : ٧٨ من سورة آل عمران .

الرجم بالجلد والتحميم[1] مع بقاء لفظ الرجم فيها . وكما أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، مع أنهم مأمورون بإقامة الحد والقطع على الشريف والوضيع .

فأما تبديل ألفاظها فقال قائلون بأنها جميعها بدلت ، وقال آخرون لم تبدل واحتجوا بقوله تعالى : (وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله) ، وقوله : (الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات . . . الآية) ، وبقوله : (قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين) ، وبقصة الرجم ؛ فإنهم كما ثبت فى الصحيحين عن ابن عمر ، وفى صحيح مسلم عن البراء بن عازب وجابر بن عبد الله ، وفى السنن عن أبى هريرة وغيره ، لما تحاكموا إلى رسول الله ﷺ فى قصة اليهودى واليهودية اللذين زنيا فقال لهم : «ما تجدون فى التوراة فى شأن الرجم ؟» فقالوا نفضحهم ويجلدون . فأمرهم رسول الله ﷺ بإحضار التوراة ، فلما جاؤا بها جعلوا يقرءونها ويكتمون آية الرجم التى فيها ، ووضع عبد الله بن صور يا يده على آية الرجم ، وقرأ ما قبلها وما بعدها ، فقال له رسول الله ﷺ : « ارفع يدك يا أعور » ، فرفع يده فإذا فيها آية الرجم ، فأمر رسول الله ﷺ برجمهما وقال : « اللهم إنى أول من أحيا أمرك إذ أماتوه » . وعند أبى داود أنهم لما جاؤا بها نزع الوسادة من تحته فوضعها تحتها ، وقال : آمنت بك وبمن أنزلك . وذكر بعضهم : أنه قام لها ، ولم أقف على إسناده والله أعلم .

وهذا كله يشكل على ما يقوله كثير من المتكلمين وغيرهم : أن التوراة انقطع تواترها فى زمن بخت نصر ولم يبق من يحفظها إلا العزير . ثم العزير إن كان نبياً فهو معصوم ، والتواتر إلى المعصوم يكفى ، اللهم إلا أن يقال إنها لم تتواتر إليه . لكن بعده زكريا ويحيى وعيسى ، وكلهم كانوا متمسكين بالتوراة . فلو تكن صحيحة معمولا بها — لما اعتمدوا عليها وهم أنبياء معصومون . ثم قد قال الله تعالى فيما أنزل على رسوله محمد خاتم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع الأنبياء ، منكراً على اليهود فى قصدهم الفاسد إذ عدلوا عما يعتقدون صحته عندهم ، وأنهم مأمورون به حتما — إلى التحاكم إلى رسول الله ﷺ وهم يعاندون ما جاء به ، لكن لما كان فى زعمهم ما قد يوافقهم على ما ابتدعوه من الجلد والتحميم المصادم لما أمر الله به حتما ، وقالوا إن حكم لكم بالجلد والتحميم فاقبلوه ، وتكونون قد اعتذرتم بحكم نبى لكم عند الله يوم القيامة ، وإن لم يحكم لكم بهذا بل بالرجم — فاحذروا أن تقبلوا منه ، فأنكر الله تعالى عليهم فى هذا القصد الفاسد ، الذى إنما حملهم عليه الغرض الفاسد وموافقة الهوى لا الدين الحق فقال : (وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين * إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا

---

(١) هو تسويد الوجوه بالحمم بضم الحاء وفتح الميم — وهو الفحم ، قيل كانا يحملان على دابة بالتخالف فى الركوب .

من كتاب الله . . . الآية[1]) . ولهذا حكم بالرجم ، وقال : « اللهم إنى أول من أحيا أمرك إذ أماتوه » . وسألهم : ما حملهم على هذا ، ولم تركوا أمر الله الذى بأيديهم ؟ فقالوا : إن الزنا قد كثر فى أشرافنا ، ولم يمكنا أن نقيمه عليهم ، وكنا نرجم من زنى من ضعفائنا ، فقلنا تعالوا إلى أمر نصف نفعله مع الشريف والوضيع ، فاصطلحنا على الجلد والتحميم . فهذا من جملة تحريفهم وتبديلهم وتغييرهم وتأويلهم الباطل . وهذا إنما فعلوه فى المعانى مع بقاء لفظ الرجم فى كتابهم ، كما دل عليه الحديث المتفق عليه . فلهذا قال من قال هذا من الناس ـ إنه لم يقع تبديلهم إلا فى المعانى ، وإن الألفاظ باقية وهى حجة عليهم ؛ إذ لو أقاموا ما فى كتابهم جميعه ـ لقادهم ذلك إلى اتباع الحق ، ومتابعة الرسول محمد ﷺ . كما قال الله تعالى : (الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم . . . الآية[2]) ، وقال تعالى : (ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وماأنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، منهم أمة مقتصدة . . . الآية[3]) ، وقال تعالى : (قل يا أهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم . . . الآية[4]) . وهذا المذهب وهو القول بأن التبديل إنما وقع فى معانيها لا فى ألفاظها ـ حكاه البخارى عن ابن عباس فى آخر كتابه الصحيح وقرر عليه ولم يرده . وحكاه العلامة فخر الدين الرازى فى تفسيره عن أكثر المتكلمين .

ليس للجنب لمس التوراة :

ذهب فقهاء الحنفية إلى أنه لا يجوز للجنب مس التوراة وهو محدث ، وحكاه الحناطى فى فتاويه عن بعض أصحاب الشافعى وهو غريب جداً . وذهب آخرون من العلماء إلى التوسط فى هذين القولين منهم شيخنا الإمام العلامة أبو العباس بن تيمية رحمه الله ، فقال : أما من ذهب إلى أنها كلها مبدلة من أولها إلى آخرها ، ولم يبق منها حرف إلا بدلوه ـ فهذا بعيد ، وكذا من قال لم يبدل شىء منها بالكلية بعيد أيضاً . والحق أنه دخلها تبديل وتغيير ، وتصرفوا فى بعض ألفاظها بالزيادة والنقص ، كما تصرفوا فى معانيها . وهذا معلوم عند التأمل ، ولبسطه موضع آخر والله أعلم . كما فى قوله فى قصة الذبيح : اذبح ابنك وحيدك ـ وفى نسخة بكرك ـ إسحاق ، فلفظة إسحاق مقحمة مزيدة بلا مرية ؛ لأن الوحيد وهو البكر إسماعيل ؛ لأنه ولد قبل إسحاق بأربع عشرة سنة ، فكيف يكون الوحيد البكر إسحاق ؟ وإنما حملهم على ذلك حسد العرب أن يكون إسماعيل هو الذبيح ، فأرادوا أن يذهبوا بهذه الفضيلة لهم ، فزادوا ذلك فى كتاب الله افتراء على الله وعلى رسوله ﷺ وقد اغتر بهذه الزيادة خلق كثير من السلف

---

(١) الآيتان : ٤٣ ، ٤٤ من سورة المائدة (٢) الآية : ١٥٧ من سورة الأعراف .
(٣) الآية : ٦٦ من سورة المائدة : (٤) الآية : ١١ من سورة المائدة .

والخلف » ووافقوهم على أن الذبيح إسحاق ، والصحيح أن الذبيح إسماعيل كما قدمنا والله أعلم . وهكذا في توراة السامرة في العشر الكلمات زيادة الأمر بالتوجه إلى الطور في الصلاة » وليس ذلك في سائر نسخ اليهود والنصارى .

وهكذا يوجد في الزبور المأثور عن داود عليه السلام مختلفاً كثيراً ، وفيه أشياء مزيدة ملحقة فيه وليست منه ، والله أعلم . قلت : وأما ما بأيديهم من التوراة المعربة فلا يشك عاقل في تبديلها وتحريف كثير من ألفاظها ، وتغيير القصص والألفاظ والزيادات والنقص البين الواضح ، وفيها من الكذب البين والخطأ الفاحش شيء كثير جداً ، فأما ما يتلونه بلسانهم ويكتبونه بأقلامهم ـ فلا اطلاع لنا عليه ، والمظنون بهم أنهم كذبة خونة ، يكثرون الفرية على الله ورسله وكتبه .

وأما النصارى فأناجيلهم الأربعة من طريق مرقس ولوقا ومتى ويوحنا ـ أشد اختلافاً ، وأكثر زيادة ونقصاً ، وأفحش تفاوتاً من التوراة . وقد خالفوا أحكام التوراة والإنجيل في غير ما شيء قد شرعوه لأنفسهم ؛ فمن ذلك صلاتهم إلى الشرق ، وليست منصوصاً عليها ولا مأموراً بها في شيء من الأناجيل الأربعة . وهكذا تصويرهم كنائسهم ، وتركهم الختان ، ونقلهم صيامهم إلى زمن الربيع ، وزيادته إلى خمسين يوماً ، وأكلهم الخنزير ، ووضعهم الأمانة الكبيرة وإنما هي الخيانة الحقيرة ، والرهبانية وهي ترك التزويج لمن أراد التعبد وتحريمه عليه ، وكتبهم القوانين التي وضعتها لهم الأساقفة الثلاثمائة والثمانية عشر . فكل هذه الأشياء ابتدعوها ووضعوها في أيام قسطنطين بن قسطن باني القسطنطينية ، وكان زمنه بعد المسيح بثلاثمائة سنة ، وكان أبوه أحد ملوك الروم » وتزوج أمه هيلانة في بعض أسفاره للصيد من بلاد حران ، وكانت نصرانية على دين الرهابين المتقدمين ، فلما ولد لها منه قسطنطين المذكور ، تعلم الفلسفة وبهر فيها ، وصار فيه ميل بعض الشيء إلى النصرانية التي أمه عليها ، فعظم القائمين بها بعض الشيء وهو على اعتقاد الفلاسفة . فلما مات أبوه واستقل هو في المملكة ـ سار في رعيته سيرة عادلة ، فأحبه الناس وساد فيهم » وغلب على ملك الشام بأسره مع الجزيرة ، وعظم شأنه وكان أول القياصرة .

ثم اتفق اختلاف في زمانه بين النصارى ، ومنازعة بين بترك الإسكندرية اكصندروس ـ وبين رجل من علمائهم يقال له عبد الله بن أريوس ؛ فذهب اكصندروس إلى أن عيسى بن الله » تعالى الله عن قوله . وذهب ابن أريوس إلى أن عيسى عبد الله ورسوله ، واتبعه على هذا طائفة من النصارى . واتفق الأكثرون الأخسرون على قول بتركهم ، ومنع ابن أريوس من دخول الكنيسة هو وأصحابه ، فذهب يستعدي على اكصندروس وأصحابه الملك قسطنطين ، فسأله الملك عن مقالته » فعرض عليه عبد الله بن أريوس ما يقول في المسيح ؛ من أنه عبد الله ورسوله، واحتج على ذلك فمال إليه وجنح إلى

قوله . فقال له قائلون : ينبغى أن تبعث إلى خصمه فتسمع كلامه ، فأمر الملك بإحضاره . وطلب من سائر الأقاليم كل أسقف وكل من عنده فى دين النصرانية . وجمع البتاركة الأربعة من القدس وأنطاكية ورومية والإسكندرية . فيقال إنهم اجتمعوا فى مدة سنة وشهرين ما يزيد على ألفى أسقف . فجمعهم فى مجلس واحد ، وهو المجمع الأول من مجامعهم الثلاثة المشهورة ، وهم مختلفون اختلافاً متبايناً منتشراً جداً : فمنهم الشرذمة على المقالة التى لا يوافقهم أحد من الباقين عليها ؛ فهؤلاء خمسون على مقالة ، وهؤلاء ثمانون على مقالة أخرى ، وهؤلاء عشرة على مقالة ، وأربعون على أخرى ، ومائة على مقالة . ومائتان على مقالة . وطائفة على مقالة ابن أريوس ، وجماعة على مقالة أخرى .

فلما تفاقم أمرهم وانتشر اختلافهم حار فيهم الملك قسطنطين ، مع أنه سىء الظن بما عدا دين الصابئين من أسلافه اليونانيين . فعمد إلى أكثر جماعة منهم على مقالة من مقالتهم . فوجدهم ثلثمائة وثمانية عشر أسقفاً ، قد اجتمعوا على مقالة أكصندروس ، ولم يجد طائفة بلغت عدتهم ، فقال هؤلاء أولى بنصر قولهم ؛ لأنهم أكثر الفرق . فاجتمع بهم خصوصاً . ووضع سيفه وخاتمه إليهم . وقال إنى رأيتكم أكثر الفرق قد اجتمعتم على مقالتكم هذه ، فأنا أنصرها وذهب . فسجدوا له ، وطلب منهم أن يضعوا له كتاباً فى الأحكام ، وأن تكون الصلاة إلى الشرق ؛ لأنها مطلع الكواكب النيرة ، وأن يصوروا فى كنائسهم صوراً لها جثث . على أن تكون فى الحيطان . فلما توافقوا على ذلك أخذ فى نصرهم . وإظهار كلمتهم . وإقامة مقالتهم . وإبعاد من خالفهم وتضعيف رأيه وقوله . فظهر أصحابه بجاهه على مخالفيهم وانتصروا عليهم . وأمر ببناء الكنائس على دينهم ـ وهم الملكية نسبة إلى دين الملك . فبنى فى أيام قسطنطين بالشام وغيرها فى المدائن والقرى ـ أزيد من اثنتى عشرة ألف كنيسة ، واعتنى الملك ببناء بيت لحم ـ يعنى على مكان مولد المسيح ، وبنت أمه هيلانة قمامة[1] بيت المقدس على مكان المصلوب الذى زعمت اليهود والنصارى — بجهلهم وقلة علمهم — أنه المسيح عليه الصلاة والسلام ، ويقال إنه قتل من أعداء أولئك ، وخد لهم الأخاديد فى الأرض . وأجج فيها النار وأحرقهم بها ، كما ذكرنا فى سورة البروج .

وعظم دين النصرانية وظهر أمره جداً بسبب الملك قسطنطين ، وقد أفسده عليهم فساداً لا إصلاح له ولا نجاح معه ولا فلاح عنده ، وكثرت أعيادهم بسبب عظمائهم وكثرت كنائسهم على أسماء عبادهم ، وتفاقم كفرهم وغلظت مصيبتهم وتخلد ضلالهم وعظم وبالهم ، ولم يهد الله قلوبهم ولا أصلح بالهم بل صرف قلوبهم عن الحق وأمال نفوسهم عن الاستقامة. ثم اجتمعوا بعد ذلك مجمعين فى قضية النسطورية واليعقوبية وكل فرقة من هؤلاء تكفر الأخرى وتعتقد تخليدهم فى نار جهنم ولا يرى مجامعتهم فى المعابد والكنائس، وكلهم يقول بالأقانيم الثلاثة : أقنوم الأب ، وأقنوم الابن . وأقنوم الكلمة . ولكن بينهم اختلاف

(١) القمامة : الدير . قال فى القاموس : القمامة ـ نصرانية بنت ديراً بالقدس فسمى باسمها .

فى الحلول والاتحاد فيما بين اللاهوت والناسوت ، هل تدرعه أو حل فيه أو اتحد به ، واختلافهم فى ذلك شديد ، وكفرهم بسببه غليظ ، وكلهم على الباطل إلا من قال من الأريوسية — أصحاب عبد الله بن أريوس : إن المسيح عبد الله ورسوله ، وابن أمته ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، كما يقول المسلمون فيه سواء. ولكن لما استقر أمر الأريوسية على هذه المقالة تسلطت عليهم الفرق الثلاثة بالإبعاد والطرد حتى قلوا ، فلا يعرف اليوم منهم أحد فيما يعلم ، والله أعلم .

كتاب الجامع لأخبار الأنبياء المتقدمين

قال الله تعالى : (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ، منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس . . . الآية) (١) وقال تعالى : (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً ۝ ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما ۝ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً (٢)) .

وقد روى ابن حبان فى صحيحه ، وابن مردويه فى تفسيره ، وغيرهما من طريق إبراهيم بن هشام عن يحيى بن محمد الغسانى الشامى — وقد تكلموا فيه — حدثنى أبى عن جدى عن أبى إدريس عن أبى ذر قال : قلت يا رسول الله ! كم الأنبياء ؟ قال : مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً ، قلت : يارسول الله ! كم الرسل منهم ؟ قال : ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير ، قلت : يارسول الله ! من كان أولهم ؟ قال : آدم ، قلت : يارسول الله نبى مرسل ؟ قال: نعم ، خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ثم سواه قبلا — ثم قال : ياأبا ذر ! أربعة سريانيون : آدم وشيث ونوح وخنوخ — وهو إدريس — وهو أول من خط بالقلم ، وأربعة من العرب : هود وصالح وشعيب ونبيك ياأباذر ، وأول نبى من بنى إسرائيل — موسى ، وآخرهم عيسى ، وأول النبيين آدم وآخرهم نبيك » .

وقد أورد هذا الحديث أبو الفرج بن الجوزى فى الموضوعات ، وقد رواه ابن أبى حاتم من وجه آخر فقال : حدثنا محمد بن عوف ، حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا معان بن رفاعة عن على بن زيد عن القاسم عن أبى أمامة قال : قلت يا رسول الله ! كم الأنبياء ؟ قال : « مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً ، الرسل من ذلك ثلثمائة وخمسة عشر جماً غفيراً » ، وهذا أيضاً من هذا الوجه ضعيف ، فيه ثلاثة من الضعفاء : معان وشيخه وشيخ شيخه . وقد قال الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا أحمد بن إسحاق أبو عبد الله الجوهرى البصرى ، حدثنا مكى بن إبراهيم ، حدثنا موسى بن عبيدة اليزيدى عن يزيد الرقاشي عن أنس

---

(١) الآية : ٢٥٣ من سورة البقرة . (٢) الآيات : ١٦٣ — ١٦٥ من سورة النساء

ابن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « بعث الله ثمانية آلاف نبي ؛ أربعة آلاف إلى بنى إسرائيل ، وأربعة آلاف إلى سائر الناس » ، موسى وشيخه ضيعفان أيضاً وقال أبو يعلى أيضاً : حدثنا أبو الربيع حدثنا محمد بن ثابت العبدى ، حدثنا معبد بن خالد الأنصارى عن يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ : « كان فيمن خلا من إخوانى من الأنبياء ثمانية آلاف نبي ، ثم كان عيسى ، ثم كنت أنا » . يزيد الرقاشي ضعيف . وقد رواه الحافظ أبو بكر الإسماعيلي عن محمد بن عثمان بن أبى شيبة ، حدثنا أحمد بن طارق ، حدثنا مسلم بن خالد ، حدثنا زياد بن سعد عن محمد بن المنكدر عن صفوان ابن سليم عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « بعثت على أثر ثمانية آلاف نبي ، منهم أربعة آلاف من بنى إسرائيل » ، وهـــذا إسناد لا بأس به لـكنى لا أعرف حال أحمد بن طارق هذا ، والله أعلم

[حديث آخر] — قال عبد الله بن الإمام أحمد : وجدت فى كتاب أبى بخطه حدثنى عبد المتعالى بن عبد الوهاب ، حدثنا يحيى بن سعيد الأموى ، حدثنا مجالد عن أبى الوداك قال قال أبو سعيد : هل تقر الخوارج بالدجال ؟ قال — قلت لا . فقال قال رسول الله ﷺ : « إنى خاتم ألف نبي أو أكثر ، وما بعث الله نبياً يتبع إلا وحذر أمته منه ، وإنى قد بين لى فيه مالم يبين لأحد منهم ، وإنه أعور وإن ربكم ليس بأعور ، وعينه اليمنى عوراء جاحظة لا تخفى ؛ كأنها نخامة فى حائط مجصص ، وعينه اليسرى كأنها كوكب درى ، معه من كل لسان ، ومعه صورة الجنة خضراء يجرى فيها الماء ، وصورة النار سوداء تدخن » . وهذا حديث غريب وقد روى عن جابر بن عبد الله فقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا عمرو بن على ، حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا مجالد عن الشعبي عن جابر قال قال رسول الله ﷺ : « إنى لخاتم ألف نبي أو أكثر ، وإنه ليس منهم نبى إلا وقد أنذر قومه الدجال ، وإنه قد تبين لى فيه ما لم يتبين لأحد منهم ، وإنه أعور وإن ربكم ليس بأعور » . وهذا إسناد حسن ، وهو محمول على ذكر عدد من أنذر قومه الدجال من الأنبياء ، لـكن فى الحديث الآخر : « مامن نبى إلا وقد أنذر أمته الدجال » ، فالله أعلم .

وقال البخارى : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن فرات قال : سمعت أبا حازم قال ، قاعدت أبا هريرة خمس سنين فسمعته يحدث عن النبى ﷺ قال : « كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء ، كلما هلك نبى خلفه نبى ، وإنه لا نبى بعدى ، وسيكون خلفاء فيكثرون » . قالوا فما تأمرنا يارسول الله ؟ قال : « فوا ببيعة الأول فالأول أعطوهم حقهم ، فإن الله سائلهم عما استرعاهم » . وكذا رواه مسلم عن بندار ، ومن وجه آخر عن فرات به نحوه .

وقال البخارى : حدثنا عمرو بن حفص ، حدثنا أبى حدثنى الأعمش ، حدثنى شقيق قال : قال عبد الله — هو ابن مسعود — كأنى أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكى نبياً من الأنبياء ضربه قومه فأدموه وهو

يمسح الدم عن وجهه ويقول : اللهم اغفر لقومى فإنهم لايعلمون . رواه مسلم من حديث الأعمش به نحوه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن زيد بن أسلم عن رجل عن أبى سعيد الخدرى قال : وضع رجل يده اليمنى على النبى ﷺ فقال : والله ما أطيق أن أضع يدى عليك من شدة حماك ، فقال النبى ﷺ : « إنا معشر الأنبياء يضاعف لنا البلاء كما يضاعف لنا الأجر ، إن كان النبى من الأنبياء ليبتلى بالقمل حتى يقتله ، وإن كان النبى من الأنبياء ليبتلى بالفقر حتى يأخذ العباء فيجو بها[١] ، وإن كانوا ليفرحون بالبلاء كما يفرحون بالرخاء » . هكذا رواه الإمام أحمد من طريق زيد بن أسلم عن رجل عن أبى سعيد .وقد رواه ابن ماجة عن دحيم عن ابن أبى فديك ، عن هشام بن سعد عن زيد ابن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد فذكره .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان بن عاصم بن أبى النجود عن مصعب بن سعد عن أبيه قال : قلت يا رسول الله ، أى الناس أشد بلاء ؟ قال : « الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل من الناس ؛ يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه ، وإن كان فى دينه رقة خفف عليه ، ولا يزال البلاء بالعبد حتى يمشى على الأرض وما عليه خطيئة » .

ورواه الترمذى والنسائى وابن ماجة من حديث عاصم بن أبى النجود . وقال الترمذى حسن صحيح وتقدم فى الحديث: «نحن معشر الأنبياء أولاد علات؛ ديننا واحد وأمهاتنا شتى» . والمعنى أن شرائعهم وإن اختلفت فى الفروع ونسخ بعضها بعضاً حتى انتهى الجميع إلى ما شرع الله لمحمد ﷺ وعليهم أجمعين ــ إلا أن كل نبى بعثه الله فإنما دينه الإسلام وهو التوحيد ، أن يعبد الله وحده لا شريك له كما قال الله تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نُوحى إليه أنه لا إلّه إلا أنا فاعبدون[٢]) . وقال تعالى : (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا ، أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون[٣] ؟) وقال تعالى : (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ، فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة . الآية[٤]) . فأولاد العلات أن يكون الأب واحداً والأمهات متفرقات ؛ فالأب بمنزلة الدين وهو التوحيد ، والأمهات بمنزلة الشرائع فى اختلاف أحكامها . قال تعالى : (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً) ، وقال : (لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه[٥]) وقال : (ولكل وجهة هو موليها[٦]) على أحد القولين فى تفسيرها .

---

(١) أى يعمل لها حيباً كأنها قيص (٢) الآية : ٢٥ من سورة الأنبياء (٣) الآية : ٤٥ من سورة الزخرف
(٤) الآية : ٣٦ من سورة النحل . (٥) الآية : ٦٧ من سورة الحج (٦) الآية : ١٤٨ سورة البقرة .

والمقصود أن الشرائع وإن تنوعت فى أوقاتها ـ إلا أن الجميع آمرة بعبادة الله وحده لا شريك له ، وهو دين الإسلام الذى شرعه الله لجميع الأنبياء ، وهو الدين الذى لا يقبل الله غيره يوم القيامة ، كما قال تعالى : (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين[١]) ، وقال تعالى : (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ، ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين * إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين * ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون[٢]) وقال تعالى : (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا . . . الآية[٣]) . فدين الإسلام هو عبادة الله وحده لا شريك له ، وهو الإخلاص له وحده دون ماسواه . والإحسان أن يكون على الوجه المشروع فى ذلك الوقت المأمور به . ولهذا لايقبل الله من أحد عملا بعد أن بعث محمداً ﷺ على ماشرعه له ، كما قال تعالى : (قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً[٤]) وقال تعالى : (وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ[٥]) ، وقال تعالى : (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده) . وقال رسول الله ﷺ : « بعثت إلى الأحمر والأسود» . قيل أراد العرب والعجم ، وقيل الإنس والجن . وقال ﷺ : « والذى نفسى بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتمونى لضللتم » . والأحاديث فى هذا كثيرة جداً .

والمقصود : أن إخوة العلات ـ أن يكونوا من أب واحد وأمهاتهم شتى ؛ مأخوذ من شرب العلل بعد النهل . وأما إخوة الأخياف فعكس هذا : أن تكون أمهم واحدة من آباء شتى . وإخوة الأعيان هم الأشقاء من أب واحد وأم واحدة ، والله سبحانه وتعالى أعلم . وفى الحديث الآخر : « نحن معاشر الأنبياء لانورث ماتركنا فهو صدقة » ، وهذا من خصائص الأنبياء ؛ أنهم لا يورثون ، وما ذاك إلا لأن الدنيا أحقر عندهم من أن تكون مخلفة عنهم ، ولأن توكلهم على الله عز وجل فى ذراريهم أعظم وأشد وآكد من أن يحتاجوا معه إلى أن يتركوا لورثتهم من بعدهم مالاً يستأثرون به عن الناس ، بل يكون جميع ما تركوه صدقة لفقراء الناس ومحاويجهم وذو خلتهم .

وسنذكر جميع ما يختص بالأنبياء عليهم السلام مع خصائص نبينا ﷺ وعليهم أجمعين — فى أول كتاب النكاح من كتاب الأحكام الكبير ؛ حيث ذكره الأئمة من المصنفين اقتداء بالإمام أبى عبد الله الشافعى ، رحمة الله عليه وعليهم أجمعين .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبومعاوية عن الأعمش عن زيد بن وهب عن عبد الرحمن : أن عبد رب الكعبة قال : انتهيت إلى عبد الله بن عمرو وهو جالس فى ظل الكعبة فسمعته يقول : بينما نحن مع رسول

(١) الآية : ٨٥ من سورة آل عمران (٢) الآيات : ١٣٠ ـ ١٣٢ من سورة البقرة
(٣) الآية : ٤٤ من سورة المائدة (٤) الآية : ١٥٨ من سورة الأعراف (٥) الآية : ١٩ من سورة الأنعام

الله ﷺ فى سفر إذ نزل منزلا فمنا من يضرب خباءه ومنا من هو فى جَشره[1] ، ومنا من ينتضل[2] ؛ إذ نادى مناديه : الصلاة جامعة ، قال : فاجتمعنا قال فقام رسول الله ﷺ فخطبنا فقال : « إنه لم يكن نبى قبلى إلا دل أمته على خير مايعلمه لهم ، وحذرهم مايعلمه شراً لهم . وإن أمتكم هذه جعلت عافيتها فى أولها ، وإن آخرها سيصيبها بلاء شديد وأمور ينكرونها ، تجىء فتن يريق بعضها بعضاً ، تجىء الفتنة فيقول المؤمن هذه مهلكتى ، ثم تنكشف . ثم تجىء الفتنة فيقول المؤمن هذه ، ثم تنكشف . فمن سره منكم أن يزحزح عن النار ، وأن يدخل الجنة ـ فلتدركه موتته وهو مؤمن بالله واليوم الآخر ، وليأت إلى الناس الذى يحب أن يؤتى إليه ، ومن بايع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه ـ فليطعه ماستطاع ، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر » . قال فأدخلت رأسى من بين الناس فقلت أنشدك بالله ! أنت سمعت هـذا من رسول الله ﷺ ؟ قال فأشار بيده إلى أذنيه وقال : سمعته أذناى ووعاه قلبى ، قال فقلت : هـذا ابن عمك ـ يعنى معاوية ـ يأمرنا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل ، وأن نقتل أنفسنا . وقد قال الله تعالى : (يأيها الذين آمنوا لاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل[3]) . قال فجمع يديه فوضعهما على جبهته ثم نكس هنيهة ، ثم رفع رأسه فقال : أطعه فى طاعة الله واعصه فى معصية الله . ورواه أحمد أيضاً عن وكيع عن الأعمش به ، وقال فيه : « أيها الناس إنه لم يكن نبى قبلى إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على مايعلمه خيراً لهم ، وينذره مايعلمه شراً لهم » ، وذكر تمامه بنحوه . وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجة من طرق عن الأعمش به ، ورواه مسلم أيضاً من حديث الشعبى عن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة عن عبد الله بن عمر عن النبى ﷺ بنحوه .

ذكر أخبار العرب

قيل إن جميع العرب ينتسبون إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام والتحية والإكرام . والصحيح المشهور : أن العرب العاربة قبل إسماعيل ، وقد قدمنا أن العرب العاربة منهم عاد وثمود وطسم وجديس وأميم وجُرهم والعماليق وأمم آخرون لايعلمهم إلا الله ـ كانوا قبل الخليل عليه الصلاة والسلام ، وفى زمانه أيضاً . فأما العرب المستعربة ـ وهم عرب الحجاز ـ فمن ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام وأما عرب اليمن ـ وهم حمير ـ فالمشهور أنهم من قحطان ، واسمه مهزم قاله ابن ماكولا ، وذكروا أنهم كانوا أربعة إخوة : قحطان وقاحط ومقحط وفالغ ، وقحطان بن هود ، وقيل هو هود ، وقيل هود أخوه ، وقيل من ذريته ، وقيل إن قحطان من سلالة إسماعيل . حكاه ابن إسحاق وغيره ؛ فقال بعضهم هو قحطان بن تيمن ابن قيدر بن إسماعيل ، وقيل غير ذلك فى نسبه إلى إسماعيل ، والله أعلم .

---

(١) الجشر : إخراج الدواب للرعى (٢) انتضل القوم : تفاخروا (٣) الآية : ٢٩ من سورة النساء .

وقد ترجم البخارى فى صحيحه على ذلك فقال : [باب نسبة اليمن إلى إسماعيل عليه السلام] ـ حدثنا مسدد ، حدثنا يحيى عن يزيد بن أبى عبيد ، حدثنا سلمة رضى الله عنه قال : خرج رسول الله ﷺ على قوم من أسلم يتناضلون[1] بالسيوف فقال : « ارموا بنى إسماعيل وأنا مع بنى فلان ـ لأحد الفريقين ـ فأمسكوا بأيديهم فقال : مالكم ؟ قالوا وكيف نرمى وأنت مع بنى فلان ؟ فقال ارموا وأنا معكم كلكم » . انفرد به البخارى ، وفى بعض ألفاظه « ارموا بنى إسماعيل فإن أباكم كان رامياً ، ارموا وأنا مع ابن الأدرع[2] ، فأمسك القوم ، فقال ارموا وأنا معكم كلكم » . قال البخارى : وأسلم بن أفصى ابن حارثة بن عمرو بن عامر ـ من خزاعة ، يعنى وخزاعة فرقة ممن كان تمزق من قبائل سبأ ، حين أرسل الله عليهم سيل العرم كما سيأتى بيانه ، وكانت الأوس والخزرج منهم ، وقد قال لهم ﷺ : ارموا بنى إسماعيل فدل على أنهم من سلالته . وتأوله آخرون على أن المراد بذلك جنس العرب ، لكنه تأويل بعيد ؛ إذ هو خلاف الظاهر بلا دليل . لكن الجمهور على أن العرب القحطانية من عرب اليمن ، وغيرهم ليسوا من سلالة إسماعيل . وعندهم أن جميع العرب ينقسمون إلى قسمين : قحطانية وعدنانية ؛ فالقحطانية شعبان : سبأ وحضرموت ، والعدنانية شعبان أيضاً : ربيعة ومضر ابنا نزار بن معد بن عدنان .

والشعب الخامس ـ وهم قضاعة ـ مختلف فيهم ؛ فقيل إنهم عدنانيون ، قال ابن عبد البر وعليه الأكثرون ، ويروى هذا عن ابن عباس وابن عمر وجبير بن مطعم ، وهو اختيار الزبير بن بكار وعمه مصعب الزبيرى وابن هشام . وقد ورد فى حديث قضاعة بن معد ولكنه لا يصح وقاله ابن عبد البر وغيره . ويقال إنهم لن يزالوا فى جاهليتهم وصدر من الإسلام ينتسبون إلى عدنان ، فلما كان فى زمن خالد بن يزيد بن معاوية ـ وكانوا أخواله ـ انتسبوا إلى قحطان ، فقال فى ذلك أعشى بن ثعلبة فى قصيدة له :

أبلغ قضاعة فى القرطاس أنهم ... لولا خلائف آل الله ماعتقوا
قالت قضاعة إنا من ذوى يمن ... والله يعلم ماتروا وما صدقوا
قد ادعوا والداً مانال أمهم ... قد يعلمون ولكن ذلك الفرق

وقد ذكر أبو عمرو السهيلى أيضاً من شعر العرب ـ مافيه إبداع فى تفسير قضاعة فى انتسابهم إلى اليمن ، والله أعلم . والقول الثانى : أنهم من قحطان ، وهو قول ابن إسحاق والكلبى وطائفة

---

(١) يتبارون ويترامون ، والتناضل : الترامى للسبق .
(٢) الأدرع ـ لقبه . واسمه : محجن وهو صحابى معروف .

من أهل النسب . قال ابن إسحاق : وهو قضاعة بن مالك بن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وقد قال بعض شعرائهم — وهو عمرو بن مرة صحابى له حديثان :

يأيها الداعى ادعنا وأبشر وكن قضاعياً ولا تنزّر
نحن بنو الشيخ الهجان الأزهر قضاعة بن مالك بن حمير
النسب المعروف غير المنكر فى الحجر المنقوش تحت المنبر

قال بعض أهل النسب : هو قضاعة بن مالك بن عمر بن مرة بن زيد بن حمير ، وقال ابن لهيعة عن معروف بن سويد عن أبى عشانة حى ابن يومن عن عقبة بن عامر قال : قلت يا رسول الله ! أما نحن من معد ؟ قال — لا . قلت فممن نحن ؟ قال « أنتم قضاعة بن مالك بن حمير » قال أبو عمر بن عبد البر : ولا يختلفون أن جهينة بن زيد بن أسود بن أسلم بن عمران بن إلحاف بن قضاعة — قبيلة عقبة بن عامر الجهنى ، فعلى هذا قضاعة فى اليمن فى حمير بن سبأ . وقد جمع بعضهم بين هذين القولين بما ذكره الزبير ابن بكار وغيره ؛ من أن قضاعة امرأة من جرهم ، تزوجها مالك بن حمير فولدت له قضاعة ، ثم خلف عليها معد بن عدنان وابنها صغير . وزعم بعضهم أنه كان حملا فنسب إلى زوج أمه ، كما كانت عادة كثير منهم ؛ ينسبون الرجل إلى زوج أمه ، والله أعلم .

وقال محمد بن سلام البصرى النسابة : العرب ثلاثة جرائيم : العدنانية والقحطانية وقضاعة . قيل له فأيهما أكثر ؟ العدنانية أو القحطانية ؟ فقال : ماشاءت قضاعة أن تيامنت فالقحطانية أكثر ، وإن تمددت فالعدنانية أكثر . وهذا يدل على أنهم يتلومون فى نسبهم . فإن صح حديث ابن لهيعة المقدم فهو دليل على أنهم من القحطانية والله أعلم . وقد قال الله تعالى : (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم[1]) .

قال علماء النسب — يقال : شعوب ، ثم قبائل ، ثم عمائر ، ثم بطون ، ثم أفخاذ ، ثم فصائل ، ثم عشائر . والعشيرة أقرب الناس إلى الرجل وليس بعدها شىء . ولنبدأ أولا بذكر القحطانية ، ثم نذكر بعدهم عرب الحجاز وهم العدنانية ، وما كان من أمر الجاهلية ؛ ليكون ذلك متصلا بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة .

وقد قال البخارى : [باب ذكر قحطان] حدثنا عبد العزيز بن عبد الله ، حدثنا سليمان بن بلال عن ثور بن زيد عن أبى المغيث عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « لاتقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه » وكذا رواه مسلم عن قتيبة عن الدراوردى عن ثور بن زيد به .

---

(١) الآية : ١٣ من سورة الحجرات .

قال السهيلي : وقحطان أول من قيل له : أبيت اللعن ، وأول من قيل له : أنعم صباحاً .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو المغيرة عن جرير ، حدثني راشد بن سعد المقرائي عن أبي حي عن ذي فجر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كان هـذا الأمر في حمير فنزعه الله منهم فجعله في قريش ، و س ى ع و د إل ى هـ م » . قال عبد الله : كان هذا في كتاب أبي ، وحيث حدثنا به تكلم به على الاستواء ، يعني : وسيعود إليهم .

قصة سبأ

قال الله تعالى : (لقد كان لسبإ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور * فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم ، و بدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل * ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور * وجعلنا بينهم و بين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة ، وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين * فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق ، إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور[1]) .

قال علماء النسب ومنهم محمد بن إسحق : اسم سبأ ــ عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، قالوا وكان أول من سبى من العرب فسمى سبأ لذلك ، وكان يقال له الرائش ؛ لأنه كان يعطي الناس الأموال من متاعه[2] . قال السهيلي : ويقال إنه أول من تتوج ، وذكر بعضهم أنه كان مسلماً وكان له شعر بشر فيه بوجود رسول الله ﷺ ، فمن ذلك قوله :

سيملك بعدنا ملكا عظيماً ... نبي لا يرخص في الحرام
ويملك بعده منهم ملوك ... يدينون العباد بغير ذام
ويملك بعدهم منا ملوك ... يصير الملك فينا باقتسام
ويملك بعد قحطان نبي ... تقي مخبت خير الأنام
يسمى « أحمداً » ياليت أني ... أعمر بعد مبعثه بعام
فأعضده وأحبوه بنصري ... بكل مدجج وبكل رام
متى يظهر فكونوا ناصريه ... ومن يلقاه يبلغه سلامي

حكاه ابن دحية في كتابه : [التنوير في مولد البشير النذير] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا ابن لهيعة عن عبد الله بن وعلة قال : سمعت عبد الله بن العباس يقول : إن رجلا سأل النبي ﷺ عن سبأ ماهو ؟ أرجل أم امرأة أم أرض ؟ قال :

(١) الآيات : ١٥ ــ ١٩ من سورة سبأ (٢) في القاموس . راش الصديق: أطعمه وكساه وأصلح حاله .

« بل هو رجل ولد له عشرة[1] فسكن اليمن منهم ستة ، و بالشام منهم أربعة ؛ فأما اليمانيون : فمذحج وكندة ، والأزد ، والأشعريون ، وأنمار ، وحمير . وأما الشامية : فلخم ، وجذام ، وعاملة ، وغسان » .

وقد ذكرنا فى التفسير أن فروة بن مسيك الغطيفى هو السائل عن ذلك ، كما استقصينا طرق هذا الحديث وألفاظه هناك ، ولله الحمد .

والمقصود : أن سبأ يجمع هذه القبائل كلها وقد كان فيهم التبابعة بأرض اليمن ـ واحدهم تبع ، وكان لملوكهم تيجان يلبسونها وقت الحكم ، كما كانت الأكاسرة ملوك الفرس يفعلون ذلك . وكانت العرب تسمى كل من ملك اليمن مع الشحر وحضرموت ـ تُبعاً ؛ كما يسمون من ملك الشام مع الجزيرة ـ قيصر ، ومن ملك الفرس ـ كسرى ، ومن ملك مصر ـ فرعون ، ومن ملك الحبشة ـ النجاشى ، ومن ملك الهند ـ بطليموس . وقد كان من جملة ملوك حمير بأرض اليمن ـ بلقيس ، وقد قدمنا قصتها مع سليمان عليه السلام ، وقد كانوا فى غبطة عظيمة وأرزاق دارة ، وثمار وزروع كثيرة . وكانوا مع ذلك على الاستقامة والسداد وطريق الرشاد ، فلما بدلوا نعمة الله كفراً ـ أحلوا قومهم دار البوار .

قال محمد بن إسحاق عن وهب بن منبه : أرسل الله إليهم ثلاثة عشر نبياً ، وزعم السدى أنه أرسل إليهم اثنى عشر ألف نبى ، فالله أعلم . والمقصود أنهم لما عدلوا عن الهدى إلى الضلال ، وسجدوا للشمس من دون الله ، وكان ذلك فى زمان بلقيس وقبلها أيضاً ، واستمر ذلك فيهم ـ أرسل الله عليهم سيل العرم ، كما قال تعالى : (فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم و بدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدرٍ قليل * ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور) .

ذكر غير واحد من علماء السلف والخلف من المفسرين وغيرهم : أن سد مأرب كان صنعته ـ أن المياه كانت تجرى من بين جبلين ، فعمدوا فى قديم الزمان فسدوا مابينهما ببناء محكم جداً ، حتى ارتفع الماء ، فحكم على أعالى الجبلين ، وغرسوا فيهما البساتين والأشجار المثمرة الأنيقة ، وزرعوا الزروع الكثيرة . ويقال كان أول من بناه ـ سبأ بن يعرب ، وسلط إليه سبعين وادياً تفد إليه ، وجعل له ثلاثين فرضة[2] يخرج منها الماء ، ومات ولم يكمل بناؤه فكملته حمير بعده ، وكان اتساعه فرسخاً فى فرسخ ، وكانوا فى غبطة عظيمة وعيش رغيد وأيام طيبة ؛ حتى ذكر قتادة وغيره : أن المرأة كانت تمر بالمكتل على رأسها فيمتلىء من الثمار ، مما يتساقط فيه من نضجه وكثرته . وذكروا أنه لم يكن فى بلادهم شىء من البراغيث ولا الدواب المؤذية ؛ لصحة هوائهم وطيب فنائهم ، كما قال تعالى : (لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان

---

(١) المراد : كان من نسله هؤلاء العشرة الذين يرجع إليهم أصول القبائل من عرب اليمن لا أنهم ولدوا من صلبه .

(٢) أى ثلمة وفتحة .

عن يمين وشمال، كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور) ، وكما قال تعالى : (وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنـكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد [١]) .

فلما عبدوا غير الله و بطروا نعمته ، وسألوا بعد تقارب ما بين قراهم ، وطيب ما بينها من البساتين ، وأمن الطرقات ـ سألوا أن يباعد بين أسفارهم ، وأن يكون سفرهم فى مشاق وتعب . وطلبوا أن يبدلوا بالخير شراً ، كما سأل بنو إسرائيل بدل المن والسلوى ـ البقول والقثاء والفوم والعدس والبصل ، فسلبوا تلك النعمة العظيمة والحسنة العميمة ؛ بتخريب البلاد والشتات على وجوه العباد ؛ كما قال تعالى : (فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم) . قال غير واحد : أرسل الله على أصل السد الفأر ـ وهو الجرذ ، ويقال الخُلد [٢] . فلما فطنوا لذلك أرصدوا عندها السنانير فلم تغن شيئاً إذ قد حُمَّ القدر ولم ينفع الحذر ، كلا لا وزر . فلما تحكم فى أصله الفساد سقط وانهار ، فسلك الماء القرار ، فقطعت تلك الجداول والأنهار ، وانقطعت تلك الثمار ، ومادت تلك الزروع والأشجار ، وتبدلوا بعدها بردىء الأشجار والأثمار ، كما قال العزيز الجبار : (وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل) . قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد : هو الأراك وثمره البرير ، وأثل وهو الطرفاء ، وقيل يشبهه ـ وهو حطب لا ثمر له (وشىء من سدر قليل) وذلك لأنه لما كان يثمر النبق كان قليلا ، مع أنه ذو شوك كثير وثمره بالنسبة إليه ، كما يقال فى المثل : لحم جمل غث على رأس جبل وعر ، لاسهل فيرتقى ، ولا سمين فينتقى . ولهذا قال تعالى : (ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور) أى إنما نعاقب هذه العقوبة الشديدة من كفر بنا ، وكذب رسلنا وخالف أمرنا وانتهك محارمنا . وقال تعالى : (فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق) ، وذلك أنهم لما هلكت أموالهم وخربت بلادهم ـ احتاجوا أن يرتحلوا منها و ينتقلوا عنها ، فتفرقوا فى غَور البلاد ونجدها أيدى سبأ شذَر مذَر [٣] ، فنزلت طوائف منهم الحجاز ؛ ومنهم خزاعة نزلوا ظاهر مكة ، وكان من أمرهم ما سنذكره . ومنهم أهل المدينة المنورة اليوم فكانوا أول من سكنها ، ثم نزلت عندهم ثلاث قبائل من اليهود : بنو قينقاع ، و بنو قريظة ، و بنو النضير ، فحالفوا الأوس والخزرج وأقاموا عندهم ، وكان من أمرهم ما سنذكره . ونزلت طائفة أخرى منهم الشام ، وهم الذين تنصروا فيما بعد ؛ وهم غسان ، وعاملة ، و بهراء ، ولخم ، وجذام ، وتنوخ ، وتغلب ، وغيرهم . وسنذكرهم عند ذكر فتوح الشام فى زمن الشيخين رضى الله عنهما .

قال محمد بن إسحاق : حدثنى أبو عبيدة قال : قال أعشى بنى قيس بن ثعلبة ـ وهو ميمون ابن قيس ،

---

(١) الآية : ٧ من سورة إبراهيم . (٢) الخلد : ضرب من القيرة ، وضرب من الجرذ أعمى .

(٣) أى تفرقوا وذهبوا فى كل وجه ، ومذر ـ اتباع لشذر .

وفى ذاك للمؤتسى أسوة ومأرب عفى عليها العرم
رخام بنته لهم حمير إذا جاء مواره[1] لم يرم
فأروى الزروع وأعنابها على سعة ماؤهم إذ قسم
فصاروا أيادى لا يقدرو ن على شرب طفل إذا مافطم

وقد ذكر محمد بن إسحاق فى كتاب السيرة : أن أول من خرج من اليمن قبل سيل العرم ـ عمرو بن عامر اللخمى ، ولخم هو ابن عدى بن الحارث بن مرة بن أزد بن زيد بن مهع بن عمرو بن عريب بن يشجب بن زيد بن كهلان بن سبأ . ويقال لخم بن عدى بن عمرو بن سبأ ، قاله ابن هشام . قال ابن إسحاق : وكان سبب خروجه من اليمن فيما حدثنى به أبو زيد الأنصارى ـ أنه رأى جرذاً يحفر فى سد مأرب الذى كان يحبس عليهم الماء ، فيصرفونه حيث شاءوا من أرضهم ، فعلم أنه لابقاء للسد على ذلك ، فاعتزم على النقلة عن اليمن ، فكاد قومه ؛ فأمر أصغر ولده إذا أغلظ عليه ولطمه ـ أن يقوم إليه فيلطمه ، ففعل ابنه ماأمره به ، فقال عمرو : لاأقيم ببلد لطم وجهى فيه أصغر ولدى ، وعرض أمواله ، فقال أشراف من أشراف اليمن : اغتنموا غضبة عمرو فاشتروا منه أمواله ، وانتقل فى ولده وولد ولده . وقالت الأزد : لانتخلف عن عمرو بن عامر ، فباعوا أموالهم وخرجوا معه ، فساروا حتى نزلوا بلاد « عك » مجتازين يرتادون البلدان ، فحاربتهم عك فكانت حربهم سجالا . ففى ذلك قال عباس بن مرداس :

وعك بن عدنان الذين تلعبوا بغسان حتى طردوا كل مطرد[2]

قال فارتحلوا عنهم ، فتفرقوا فى البلاد ، فنزل آل جفنة بن عمرو بن عامر ـ الشام ، ونزل الأوس والخزرج ـ يثرب ، ونزلت خزاعة ـ مراً ، ونزلت أزد السراة ـ السراة ، ونزلت أزد عمان ـ عمان . ثم أرسل الله تعالى على السد السيل فهدمه ، وفى ذلك أنزل الله هذه الآيات . وقد روى عن السدى قريب من هذا . وعن محمد بن إسحاق فى روايته : أن عمرو بن عامر كان كاهناً ، وقال غيره كانت امرأته طريفة بنت الخير الحميرية كاهنة ، فأخبرت بقرب هلاك بلادهم ، وكأنهم رأوا شاهد ذلك فى الفأر الذى سلط على سدهم ففعلوا مافعلوا ، والله أعلم . وقد ذكرت قصته مطولة عن عكرمة فيما رواه ابن أبى حاتم ـ فى التفسير .

---

(١) المراد : إذا سال ماؤه — لم يسله السد حتى يأخذوا منه ما يحتاجون إليه .
(٢) هذا البيت من قصيدة له يفخر بعك .

فصـــل

وليس جميع سبأ خرجوا من اليمن لما أصيبوا بسيل العرم ، بل أقام أكثرهم بها ، وذهب أهل مأرب الذين كان لهم السد ، فتفرقوا فى البلاد . وهو مقتضى الحديث المتقدم عن ابن عباس : أن جميع قبائل سبأ لم يخرجوا من اليمن ، بل إنما تشاءم منهم أربعة ، وبقى باليمن ستة ، وهم : مذحج وكندة وأنمار والأشعريون . وأنمار هو أبو خثعم وبجيلة وحمير ، فهؤلاء ست قبائل من سبأ أقاموا باليمن ، واستمر فيهم الملك والتبابعة ، حتى سلبهم ذلك ملك الحبشة بالجيش الذى بعثه صحبة أميريه ـ أبرهة وأرباط ـ نحواً من سبعين سنة ثم استرجعه سيف بن ذى يزن الحميرى ، وكان ذلك قبل مولد رسول الله ﷺ بقليل كما سنذكره مفصلا قريباً إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة وعليه التكلان .

ثم أرسل رسول الله ﷺ إلى أهل اليمن ـ علياً وخالد بن الوليد ، ثم أبا موسى الأشعرى ومعاذ بن جبل ، وكانوا يدعون إلى الله تعالى ويبينون لهم الحجج ، ثم تغلب على اليمن الأسود العنسى وأخرج نواب رسول الله ﷺ منها ، فلما قتل الأسود استقرت اليد الإسلامية عليها فى أيام أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، كما سنبين ذلك بعد البعثة إن شاء الله تعالى .

قصة ربيعة بن نصر بن أبى حارثة بن عمرو بن عامر

هو المتقدم ذكره اللخمى ، كذا ذكره ابن إسحاق . وقال السهيلى : ونساب اليمن تقول : نصر بن ربيعة بن نصر بن الحارث بن نمارة بن لخم ، وقال الزبير بن بكار : ربيعة بن نصر بن مالك بن شعوذ بن مالك بن عجم بن عمرو بن نمارة بن لخم . ولخم أخو جُذام ، وسمى لخما ؛ لأنه لخم أخاه ـ أى لطمه فعضه الآخر فى يده فجذمها فسمى جذاماً . وكان ربيعة أحد ملوك حمير التبابعة ، وخبره مع شِق وسطيح الكاهنين ، وإنذارهما بوجود رسول الله ﷺ ـ معروف . أما سطيح : فاسمه ربيع بن ربيعة بن مسعود بن مازن بن ذئب بن عدى بن مازن بن غسان ، وأما شق : فهو ابن صعب بن يشكر بن رهم بن أفرك بن قيس بن عبقر بن أنمار بن نزار . ومنهم من يقول : أنمار بن أراش بن لحيان بن عمرو ابن الغوث بن نابت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ . ويقال إن سطيحاً كان لا أعضاء له ، وإنما كان مثل السطيحة[1] ووجهه فى صدره ، وكان إذا غضب انتفخ وجلس . وكان شق نصف إنسان ، ويقال إن خالد بن عبد الله القسرى كان سلالته . وذكر السهيلى أنهما ولدا فى يوم واحد ، وكان ذلك يوم ماتت طريفة بنت الخير الحميرية ، ويقال إنها تفلت فى فم كل منهما فورث الكهانة عنها ، وهى امرأة عمرو بن عامر المتقدم ذكره ، والله أعلم .

---

(١) السطيحة : المزادة .

قال محمد بن إسحاق : وكان ربيعة بن نصر ملك اليمن بين أضعاف ملوك التبابعة ، فرأى رؤيا هائلة هالته وفَظِع بها ، فلم يدع كاهناً ولا ساحراً ولا عائفاً ولا منجماً من أهل مملكته - إلا جمعه إليه ، فقال لهم : إنى قد رأيت رؤيا هالتنى وفظعت بها فأخبرونى بها وبتأويلها ، فقالوا اقصصها علينا نخبرك بتأويلها ، فقال : إنى إن أخبرتكم بها لم أطمئن إلى خبركم بتأويلها ؛ لأنه لايعرف تأويلها إلا من عرفها قبل أن أخبره بها ، فقال له رجل منهم : فإن كان الملك يريد هذا فليبعث إلى شِق وسَطيح ، فإنه ليس أحد أعلم منهما فهما يخبرانك بما سألت عنه . فبعث إليهما ، فقدم إليه سطيح قبل شق فقال له : إنى قد رأيت رؤيا هالتنى وفظعت بها فأخبرنى بها ، فإنك إن أصبتها أصبت تأويلها ، فقال أفعل . رأيت حُمَمة[١] خرجت من ظلمة ، فوقعت بأرض تَهَمة[٢] ، فأكلت منها كل ذات جمجمة . فقال له الملك ماأخطأت منها شيئاً ياسطيح ؛ فما عندك فى تأويلها ؟ قال : أحلف بما بين الحرين من حنش ، لتهبطن أرضكم الحبش ، فليملكن مابين أَبينَ إلى جُرَش[٣] فقال له الملك : ياسطيح إن هذا لنا لغائظ موجع فمتى هو كائن ؟ أفى زمانى أم بعده ؟ فقال لا وأبيك بل بعده بحين ، أكثر من ستين أو سبعين ، يمضين من السنين . قال أفيدوم ذلك من سلطانهم أم ينقطع ؟ قال بل ينقطع لبضع وسبعين من السنين ثم يقتلون ويخرجون منها هاربين . قال ومن يلى ذلك من قتلهم وإخراجهم ؟ قال يليه إرم ذى يَزَن ، يخرج عليهم من عَدَن ، فلا يترك منهم أحداً باليمن . قال أفيدوم ذلك من سلطانه أم ينقطع ؟ قال بل ينقطع ، قال ومن يقطعه ؟ قال نبى زكى ، يأتيه الوحى من قبل العلى . قال وممن هذا النبى ؟ قال رجل من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر ، يكون الملك فى قومه إلى آخر الدهر . قال وهل للدهر يا سطيح من آخر ؟ قال : نعم يوم يُجمع فيه الأولون والآخرون ، ويسعد فيه المحسنون ويشقى فيه المسيئون . قال أحقٌّ ما تخبرنى ؟ قال نعم . والشفق والغسق ، والفلق إذا اتسق ، إن ما أنبأتك به لحق .

قال : ثم قدم عليه شق فقال له كقوله لسطيح ، وكتمه ما قال سطيح لينظر أيتفقان أم يختلفان ؟ قال : نعم ، رأيت حممة خرجت من ظلمة ، فوقعت بين روضة وأكمة ، فأكلت منها كل ذات نَسَمة ، فلما قال له ذلك عرف أنهما قد اتفقا وأن قولهما واحد ؛ إلا أن سطيحاً قال : وقعت بأرض تهمة فأكلت منها كل ذات جمجمة ، وقال شق : وقعت بين روضة وأكمة ، فأكلت منها كل ذات نسمة . فقال له الملك : ماأخطأت ياشق منها شيئاً فما عندك فى تأويلها ؟ فقال أحلف بما بين الحرتين من إنسان ، لينزلن أرضكم السودان ، فليغلبنّ على كل طفلة البنان ، وليملكن ما بين أَبينَ إلى نجران . فقال له الملك :

---

(١) قال فى اللسان : الحمم : الفحم والرماد وكل ما احترق من النار ، الواحدة حممة .
(٢) التهمة — بالتحريك : الأرض المتصوبة إلى البحر المنخفضة . وبتسكين الهاء — لغة فى تهامة .
(٣) فى القاموس — جرش بالتحريك : بلد بالأردن ، وكزفر - مخلاف باليمن .

وأبيك ياشق إن هذا لنا لغائظ موجع فمتى هو كائن ؟ أفى زمانى أم بعده ؟ قال لا ـ بل بعده بزمان ، ثم يستنقذكم منهم عظيم ذو شان ، ويذيقهم أشد الهوان . قال : ومن هذا العظيم الشان ؟ قال غلام ليس بدنى ولا مُدَن[1] ، يخرج عليهم من بيت ذى يَزَن . قال أفيدوم سلطانه أم ينقطع ؟ قال بل ينقطع برسول مرسَل يأتى بالحق والعدل ، من أهل الدين والفضل ، يكون الملك فى قومه إلى يوم الفصل . قال وما يوم الفصل ؟ قال يوم يجزى فيه الولاة ، يدعى فيه من السماء بدعوات ، تسمع منها الأحياء والأموات ، ويُجمع الناس فيه للميقات . يكون فيه لمن اتّقى الفوز والخيرات قال أحق ماتقول ؟ قال : إى ورب السماء والأرض ، وما بينهما من رفع وخفض ، إن ما أنبأتك به لحق ما فيه أمْض[2] .

قال ابن إسحق : فوقع فى نفس ربيعة بن نصر ما قالا ، فجهز بنيه وأهل بيته إلى العراق وكتب لهم إلى ملك من ملوك فارس يقال له سابور بن خرّزاذ ، فأسكنهم الحيرة . قال ابن إسحق : فمن بقية ولد ربيعة بن نصر النعمان بن المنذر بن النعمان بن المنذر بن عمرو بن عدى ، بن ربيعة بن نصر ـ يعنى الذى كان نائباً على الحيرة لملوك الأكاسرة ، وكانت العرب تفد إليه وتمتدحه . وهذا الذى قاله محمد بن إسحاق من أن النعمان بن المنذر من سلالة ربيعة بن نصر قاله أكثر الناس . وقد روى ابن إسحاق أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لما جىء بسيف النعمان بن المنذر سأل جبير بن مطعم عنه ممن كان ؟ فقال من أشلاء قنص بن معد بن عدنان . قال ابن إسحاق : فالله أعلم أى ذلك كان .

قصة تبع أبى كرب تبان أسعد ملك اليمن مع أهل المدينة وكيف أراد غزو البيت الحرام ؛ ثم شرفه وعظمه وكساه الحلل ، فكان أول من كساه

قال ابن إسحاق : فلما هلك ربيعة بن نصر رجع ملك اليمن كله إلى حسان بن « تُبان أسعد[3] » أبى كرب ، وتُبَّان أسعد تبع الآخر ابن مَلْكيكَرِب بن زيد ، وزيد تبع الأول ابن عمرو ذى الأذعار ابن أبرهة ذى المنار بن الرائش بن عدى بن صيفى بن سبأ الأصغر بن كعب كهف الظلم بن زيد بن سَهل ابن عمرو بن قيس بن معاوية بن جُشَم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن قطن بن عَريب بن زهير ابن أيمن بن الهَمَيسع بن العرنجج ، والعرنجج ـ هو حمير بن سبأ الأكبر بن يعربُ بن يَشجُب بن قحطان . قال عبد الملك بن هشام : سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان . قال ابن إسحاق : وتبان أسعد أبو كرب هو الذى قدم المدينة وساق الحبْرَين من اليهود إلى اليمن ، وعمر البيت الحرام وكساه ، وكان ملكه قبل ملك ربيعة بن نصر ، وكان قد جعل طريقه حين رجع من غزوة بلاد المشرق على المدينة ، وكان قد مر بها فى بدأته فلم يَهِج أهلها ، وخلف بين أظهرهم ابناً له فقتل غيلة ، فقدمها وهو مُجمع لإخرابها

---

(١) المدن : المقصر فى الأمر (٢) أى باطل ، أوشك ـ بلغة حمير . (٣) تبان أسعد : اسمن جعل اسماً واحداً .

واستئصال أهلها وقطع نخلها ، فجمع له هذا الحى من الأنصار ورئيسهم عمرو بن طلّة أحد بنى النجار ، ثم أحد بنى عمرو بن مبذول ــ واسم مبذول عامر بن مالك بن النجار ، واسم النجار تيم الله بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج بن حارثة بن ثعلبة عمرو بن عامر . وقال ابن هشام : عمرو بن طلّة ــ هو عمرو بن معاوية بن عمرو بن عامر بن مالك بن النجار ، وطلّة أمه وهى بنت عامر بن زريق الخزرجية .

قال ابن إسحاق : وقد كان رجل من بنى عدى بن النجار يقال له أحمر ، عدا على رجل من أصحاب تبع وجده يجد عذقاً له فضربه بمنجله فقتله ، وقال إنما التمر لمن أبّره[1] ، فزاد ذلك تبعاً حنقاً عليهم فاقتتلوا . فتزعم الأنصار أنهم كانوا يقاتلونه بالنهار ويقرونه بالليل ، فيعجبه ذلك منهم ويقول : والله إن قومنا لكرام . وحكى ابن إسحاق عن الأنصار أن تُبعاً إنما كان حنقه على اليهود أنهم منعوهم منه . قال السهيلى : ويقال إنه إنما جاء لنصرة الأنصار أبناء عمه ، على اليهود الذين نزلوا عندهم فى المدينة على شروط ، فلم يفوا بها ، واستطالوا عليهم ، والله أعلم .

قال ابن إسحاق : فبينما تبع على ذلك من قتالهم إذ جاءه حبران[2] من أحبار اليهود من بنى قريظة ، عالمان راسخان حين سمعا بما يريد من إهلاك المدينة وأهلها فقالا له : أيها الملك لا تفعل ؛ فإنك إن أبيت إلا ما تريد حيل بينك وبينها ، ولم نأمن عليك عاجل العقوبة . فقال لهما : ولم ذلك ؟ قالا هى مهاجر نبى يخرج من هذا الحرم من قريش فى آخر الزمان ، تكون داره وقراره ، فتناهى ورأى أن لهما علماً وأعجبه ما سمع منهما ، فانصرف عن المدينة واتبعهما على دينهما . قال ابن إسحاق : وكان تبع وقومه أصحاب أوثان يعبدونها ، فتوجه إلى مكة وهى طريقه إلى اليمن ، حتى إذا كان بين عُسفان وأمج ، أتاه نفر من هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، فقالوا له : أيها الملك ! ألا ندلك على بيت مال داثر أغفلته الملوك قبلك ، فيه اللؤلؤ والزبرجد والياقوت والذهب والفضة ؟ قال : بلى . قالوا بيت بمكة يعبده أهله ويصلون عنده ، وإنما أراد الهذليون هلاكه بذلك ؛ لما عرفوا من هلاك من أراده من الملوك وبغى عنده . فلما أجمع لما قالوا ، أرسل إلى الحبرين فسألهما عن ذلك ، فقالا له : ما أراد القومُ إلا هلاكك وهلاك جُندك ، ما نعلم بيتاً لله عز وجل اتخذه فى الأرض لنفسه غيره ، ولئن فعلت ما دعوك إليه لتهلكن وليهلكن من معك جميعاً ، قال فماذا تأمرانني أن أصنع إذا أنا قدمت عليه ؟ قالا تصنع عنده ما يصنع أهله ؛ تطوف به وتعظمه وتكرمه وتحلق رأسك عنده ، وتتذلل له حتى تخرج من عنده . قال فما يمنعكما أنتما من ذلك ؟ قالا : أما والله إنه لبيت أبينا إبراهيم عليه السلام ، وإنه لكما أخبرناك ، ولكن أهله حالوا بيننا وبينه بالأوثان التى نصبوها حوله ، وبالدماء التى يهريقون عنده ، وهم نجس أهل شرك ــ أو كما قالا له ــ فعرف نصحهما ، وصدق حديثهما ،

---

(١) أبر النخل : لقحه وأصلحه . (٢) قيل كان اسمهما : كعبا وأسدا ، وكانا ابنى عمه .

وقرب النفر من هذيل فقطع أيديهم وأرجلهم . ثم مضى حتى قدم مكة فطاف بالبيت ونحر عنده . وحلق رأسه ، وأقام بمكة ستة أيام فيما يذكرون ؛ ينحر بها للناس ويطعم أهلها ويسقيهم العسل وأرى فى المنام أن يكسو البيت فكساه الخصف [١] ، ثم أرى فى المنام أن يكسوه أحسن من ذلك ، فكساه المعافر [٢] ثم أرى أن يكسوه أحسن من ذلك فكساه الملاء والوصائل [٣] . وكان تبع فيما يزعمون أول من كسا البيت ، وأوصى به ولاته من جرهم ، وأمرهم بتطهيره وألا يقربوه دماً ولا ميتة ولا مثلاثاً وهى المحائض [٤] ، وجعل له باباً ومفتاحاً . ففى ذلك قالت سبيعة بنت الأجب تذكر ابنها خالد بن عبد مناف بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب ، وتنهاه عن البغى بمكة . وتذكر له ما كان من أمر تبع فيها :

ابنى لا تظلم بمكـ * ـكة لا الصغير ولا الكبير	واحفظ محارمها بنـ * ـى ولا يغرنك الغرور
أبنى من يظلم بمكـ * ـكة يلق أطراف الشرور	أبنى يضرب وجهه * و يلج بخديه السعير
أبنى قد جربتها * فوجدت ظالمها يبور	الله آمنها وما * بنيت بعرصتها قصور
والله آمن طيرها * والعصم تأمن فى ثبير	ولقد غزاها تبع * فكسا بنيتها الحبير
وأذل ربى ملكه * فيها فأوفى بالنـذور	يمشى إليها حافياً * بفنائها ألفا بعير
ويظل يطعم أهلها * لحم المهارى والجزور	يسقيهم العسل المصفـ * ـى والرحيض من الشعير
والفيل أهلك جيشه * يرمون فيها بالصخور	والملك فى أقصى البلا * د وفى الأعاجم والخزور
فاسمع إذا حدثت وافـ * ـهم	كيف عاقبة الأمور

قال ابن إسحاق : ثم خرج تبع متوجهاً إلى اليمن بمن معه من الجنود وبالحبرين ، حتى إذا دخل اليمن دعا قومه إلى الدخول فيما دخل فيه ، فأبوا عليه حتى يحاكموه إلى النار التى كانت باليمن . قال ابن إسحاق : حدثنى أبو مالك بن ثعلبة بن أبى مالك القرظى قال : سمعت إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله يحدث : أن تبعاً لما دنا من اليمن ليدخلها ، حالت حمير بينه وبين ذلك ، وقالوا : لا تدخلها علينا وقد فارقت ديننا . فدعاهم إلى دينه وقال : إنه خير من دينكم قالوا : فحاكمنا إلى النار ، قال : نعم . وكانت باليمن — فيما يزعم أهل اليمن — نار تحكم بينهم فيما يختلفون فيه ، تأخذ الظالم ولا تضر المظلوم ، فخرج قومه بأوثانهم وما يتقربون به فى دينهم ، وخرج الحبران بمصاحفهما فى أعناقهما متقلديها ، حتى قعدوا للنار عند مخرجها الذى تخرج منه ، فخرجت النار إليهم ، فلما أقبلت نحوهم حادوا عنها وهابوها ، فزمرهم من حضرهم من الناس . وأمروهم بالصبر لها فصبروا ، حتى غشيتهم وأكلت الأوثان وما قربوا

---

(١) جمع خصفة : وهى ثوب غليظ ينسج من الخوص والليف (٢) نوع من الثياب اليمانية تعرف بالمعافرية نسبة إلى معافر ، حى من همدان باليمن (٣) ثياب موصلة جيدة من ثياب باليمن . (٤) جمع محيضة : وهى خرقة المحيض .

معها ، ومن حمل ذلك من رجال حمير . وخرج الحبران بمصاحفهما فى أعناقهما تعرق جباههما ، ولم تضرهما ، فأصفقت عند ذلك حمير على دينهما ، فمن هنالك كان أصل اليهودية باليمن .

قال ابن إسحاق : وقد حدثنى محدث أن الحبرين ومن خرج من حمير ، إنما اتبعوا النار ليردوها ، وقالوا : من ردها فهو أولى بالحق . فدنا منها رجال من حمير بأوثانهم ليردوها ، فدنت منهم لتأكلهم ، فحادوا عنها ولم يستطيعوا ردها . فدنا منها الحبران بعد ذلك ، وجعلا يتلوان التوراة وهى تنكص عنهما حتى رداها إلى مخرجها الذى خرجت منه ، فأصفقت عند ذلك حمير على دينهما ، والله أعلم أى ذلك كان .

قال ابن إسحاق : وكان رئام بيتاً لهم يعظمونه وينحرون عنده ، ويكلمون فيه إذ كانوا على شركهم ، فقال الحبران لتبع : إنما هو شيطان يفتنهم بذلك ، فخل بيننا وبينه . قال : فشأنكما به ؛ فاستخرجا منه — فيما يزعم أهل اليمن — كلباً أسود فذبحاه ، ثم هدما ذلك البيت ، فبقاياه اليوم — كما ذكر لى — بها آثار الدماء التى كانت تهراق عليه (١) . وقد ذكرنا فى التفسير الحديث الذى ورد عن النبى ﷺ : « لا تسبوا تبعاً فإنه قد كان أسلم » ، قال السهيلى : وروى معمر عن همام بن منبه عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لا تسبوا أسعد الحميرى فإنه أول من كسى الكعبة » قال السهيلى : وقد قال تبع حين أخبره الحبران عن رسول الله ﷺ شعراً :

شهدت على أحمد أنه	رسول من الله بارى النسم
فلو مد عمرى إلى عمره	لكنت وزيراً له وابن عم
وجاهدت بالسيف أعداءه	وفرجت عن صدره كل هم

قال : ولم يزل هذا الشعر تتوارثه الأنصار ويحفظونه بينهم ، وكان عند أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه وأرضاه . قال السهيلى : وذكر ابن أبى الدنيا فى كتاب القبور : أن قبراً حفر بصنعاء ، فوجد فيه امرأتان معهما لوح من فضة مكتوب بالذهب ، وفيه : هذا قبر لميس وحبى ابنتى تبع ، ماتا وهما تشهدان أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وعلى ذلك مات الصالحون قبلهما .

ثم صار الملك فيما بعد إلى حسان بن تبان أسعد ، وهو أخو اليمامة الزرقاء ، التى صلبت على باب مدينة جو ، فسميت من يومئذ اليمامة . قال ابن إسحاق : فلما ملك ابنه حسان بن أبى كرب تبان أسعد — سار بأهل اليمن يريد أن يطأ بهم أرض العرب وأرض الأعاجم ، حتى إذا كانوا ببعض أرض العراق كرهت حمير وقبائل اليمن السير معه ، وأرادوا الرجعة إلى بلادهم وأهليهم ، فكلموا أخاً له يقال له عمرو ، وكان معه فى جيشه ، فقالوا له : اقتل أخاك حسان ونملكك علينا وترجع بنا إلى بلادنا

---

(١) يزعمون أنه كان ببيت رئام شيطان ، وكانوا يملؤن له حياضاً من دماء القربان فيخرج فيصيب منها .

فأجابهم فاجتمعوا على ذلك ، إلا ذَارُعَين الحميرى ، فإنه نهى عمراً عن ذلك فلم يقبل منه ، فكتب ذو رُعين رقعة فيها هذان البيتان :

ألا مَن يَشترى سَهراً بنوم ٍ سَعيدٌ مَن يبيت قريرَ عين ِ

فإما حِمير غدرت وخانت فمعذرةُ الإلَه لذى رُعَين

ثم استودعها عمراً . فلما قتل عمرو أخاه حسان ورجع إلى اليمن — منع منه النوم ، وسلط عليه السهر ، فسأل الأطباء والحذاق من الكهان والعرافين عما به ، فقيل له : إنه والله ماقتل رجل أخاه قط أو ذا رحم بغياً — إلا ذهب نومه ، وسلط عليه السهر . فعند ذلك جعل يقتل كل من أمره بقتل أخيه ، فلما خلص إلى ذى رُعَين قال له : إن لى عندك براءة ، قال وماهى ؟ قال الكتاب الذى دفعته إليك ، فأخرجه فإذا فيه البيتان فتركه ، ورأى أنه قد نصحه ، وهلك عمرو فمرج أمر حمير عند ذلك وتفرقوا .

وثوب لخنيعة ذى شناتر على ملك اليمن وقد ملكها سبعاً وعشرين سنة

قال ابن إسحاق : فوثب عليهم رجل من حمير لم يكن من بيوت الملك ، يقال له لخنيعة ينوف ذو شناتر[1] فقتل خيارهم وعبث ببيوت أهل المملكة منهم ، وكان مع ذلك امرأ فاسقاً يعمل عمل قوم لوط ، فكان يرسل إلى الغلام من أبناء الملوك ، فيقع عليه فى مَشرَبة له قد صنعها لذلك لئلا يملك بعد ذلك ، ثم يطلع من مشربته تلك إلى حرسه ، ومن حضر من جنده ، وقد أخذ مسواكاً فجعله فى فيه ليعلمهم أنه قد فرغ منه . حتى بعث إلى زُرعة ذى نواس بن تُبان أسعد أخى حسان ، وكان صبياً صغيراً حين قتل أخوه حسان ، ثم شب غلاماً جميلا وسيما ذا هيئة وعقل ، فلما أتاه رسوله عرف مايريد منه ، فأخذ سكيناً حديداً لطيفاً ، فخبأه بين قدمه ونعله ، ثم أتاه فلما خلا معه وثب إليه ، فواثبه ذو نواس فوجأه حتى قتله ، ثم حز رأسه فوضعه فى الكوة التى كان يشرف منها ، ووضع مسواكه فى فيه ، ثم خرج على الناس فقالوا له : ذانواس ، أرطب أم يباس ؟ فقال : سل نخماس[2] استرطبان ذو نواس ، استرطبان ذو نواس ؛ لاباس[3] . فنظروا إلى الكوة فإذا رأس لخنيعة مقطوع ، فخرجوا فى أثر ذى نواس حتى أدركوه ، فقالوا : ماينبغى أن يملكنا غيرك إذ أرحتنا من هذا الخبيث ، فملكوه عليهم . واجتمعت عليه حمير وقبائل اليمن فكان آخر ملوك حمير ، وتسمى « يوسف » ، فأقام فى ملكه

---

(١) الشناتر : الأصابع بلغة حمير (٢) النخماس فى لغة اليمن : الرأس .

(٣) قيل معنى استرطبان : أخذته النار — بالفارسية . وفى الأغانى قال : كان الغلام إذا خرج من عند لخنيعة وقد لاط به قطعوا مشافر ناقته وذنبها وصاحوا به : أرطب أم يباس ، فلما خرج ذو نواس من عنده وركب ناقة له يقال لها السراب ، قالوا : ذنواس ! أرطب أم يباس ؟ فقال ستعلم الأحراس : إست ذى نواس ؛ إست رطب أم يباس .

زماناً ، و بنجران بقايا من أهل دين عيسى بن مريم عليه السلام على الإنجيل ؛ أهل فضل واستقامة من أهل دينهم ، لهم رأس يقال له عبد الله بن الثامر .

ثم ذكر ابن إسحاق سبب دخول أهل نجران فى دين النصارى ، وأن ذلك كان على يدى رجل يقال له « فيميون » ، كان من عباد النصارى بأطراف الشام ، وكان مجاب الدعوة . وصحبه رجل يقال له « صالح » فكانا يتعبدان يوم الأحد ، و يعمل «فيميون» بقية الجمعة فى البناء . وكان يدعو للمرضى والزمنى وأهل العاهات فيشفون . ثم استأسره وصاحبه بعض الأعراب فباعوهما بنجران ، فكان الذى اشترى « فيميون» — يراه إذا قام فى مصلاه بالبيت الذى هو فيه فى الليل يمتلىء عليه البيت نوراً ، فأعجبه ذلك من أمره . وكان أهل نجران يعبدون نخلة طويلة يعلقون عليها حلىّ نسائهم و يعكفون عندها ، فقال فيميون لسيده : أرأيت إن دعوت الله على هذه الشجرة فهلكت ، أتعلمون أن الذى أنتم عليه باطل ؟ قال : نعم . فجمع له أهل نجران ، وقام فيميون إلى مصلاه ، فدعا الله عليها فأرسل الله عليها قاصفاً ، فجعفها[1] من أصلها ورماها إلى الأرض ، فاتبعه أهل نجران على دين النصرانية ، وحملهم على شريعة الإنجيل ، حتى حدثت فيهم الأحداث التى دخلت على أهل دينهم بكل أرض . فمن هنالك كانت النصرانية بنجران من أرض العرب . ثم ذكر ابن إسحاق قصة عبد الله بن الثامر ؛ حين تنصر على يدى « فيميون » ، وكيف قتله وأصحابه ذونواس وخد لهم الأخدود . وقال ابن هشام : وهو الحفر المستطيل فى الأرض مثل الخندق ، وأجج فيه النار وحرقهم بها ، وقتل آخرين ، حتى قتل قريباً من عشرين ألفاً كما قدمنا ذلك مبسوطاً فى أخبار بنى إسرائيل ، وكما هو مستقصى فى تفسير سورة (والسماء ذات البروج) من كتابنا التفسير ، ولله الحمد .

ذكر خروج الملك باليمن من حمير وصيرورته إلى الحبشة السودان

« كما أخبر بذلك شق وسطيح الكاهنان »

وذلك أنه لم ينج من أهل نجران إلا رجل واحد يقال له « دَوس ذو ثُعْلُبان »[2] على فرس له ، فسلك الرمل فأعجزهم ، فمضى على وجهه ذلك حتى أتى قيصر ملك الروم ، فاستنصره على ذى نواس وجنوده ، وأخبره بما بلغ منهم ، وذلك لأنه نصرانى على دينهم . فقال له : بَعُدت بلادك منا ، ولكنى سأكتب لك إلى ملك الحبشة فإنه على هذا الدين ، وهو أقرب إلى بلادك منا . فكتب إليه بأمره بنصره والطلب بثأره ، فقدم دَوس على النجاشى بكتاب قيصر ، فبعث معه سبعين ألفاً من الحبشة ، وأمّر عليهم رجلا منهم يقال له « أرباط » ومعه فى جنده أبرهة الأشرم ، فركب أرباط البحر حتى نزل بساحل

---

(١) أى قلعها وأسقطها . (٢) هو رجل من سبأ .

اليمن ، ومعه دوس ، وسار إليه ذو نُواس فى حمير ومن أطاعه من قبائل اليمن . فلما التقوا انهزم ذو نُواس وأصحابه . فلما رأى ذو نواس مانزل به وبقومه ـ وجه فرسه إلى البحر ، ثم ضربه فدخل فيه فخاض به ضحضاح[1] البحر . حتى أفضى به إلى غَمرة فأدخله فيها فـكان آخر العهد به ، ودخل أرياط اليمن وملـكها . وقد ذكر ابن إسحاق هاهنا أشعاراً للعرب فيما وقع من هذه الـكائنة الغريبة ، وفيها فصاحة وحلاوة ، وبلاغة وطلاوة ، ولـكن تركنا إيرادها خشية الإطالة وخوف الملالة ، وبالله المستعان .

ذكر خروج أبرهة الأشرم على أرياط واختلافهما واقتتالهما
وصيرورة ملك اليمن إلى أبرهة بعد قتله أرياط

قال ابن إسحاق : فأقام أرياط بأرض اليمن سنين فى سلطانه ذلك . ثم نازعه أبرهة ؛ حتى تفرقت الحبشة عليهما . فانحاز إلى كل واحد منهما طائفة منهم ، ثم سار أحدهما إلى الآخر . فلما تقارب الناس أرسل أبرهة إلى أرياط ـ إنك لن تصنع بأن تلقى الحبشة بعضها ببعض حتى تفنيها شيئاً فشيئاً ، فابرز لى وأبرز لك . فأينا أصاب صاحبه انصرف إليه جنده ، فأرسل إليه أرياط ـ أنصفت ، فخرج إليه أبرهة ، وكان رجلا قصيراً لحيماً ، وكان ذا دين فى النصرانية وخرج إليه أرياط وكان رجلا جميلا عظيماً طويلا ، وفى يده حربة له ، وخلف أبرهة غلام يقال له عَتَوْدة يمنع ظهره . فرفع أرياط الحربة فضرب أبرهة يريد يافوخه[2] . فوقعت الحربة على جبهة أبرهة فشرمت حاجبه وعينه وأنفه وشفته ، فبذلك سمى أَبرهة الأَشرم . وحمل عَتودة على أرياط من خلف أَبرهة فقتله ، وانصرف جند أرياط إلى أبرهة ، فاجتمعت عليه الحبشة باليمن ووَدى[3] أبرهة أرياط . فلما بلغ ذلك النجاشى ملك الحبشة الذى بعثهم إلى اليمن ، غضب غضباً شديداً على أبرهة وقال : عدا على أميرى فقتله بغير أمرى . ثم حلف لايدع أبرهة حتى يطأ بلاده ويجز ناصيته ، فحلق أبرهة رأسه . وملأ جراباً من تراب اليمن . ثم بعث به إلى النجاشى ، ثم كتب إليه : أيها الملك إنما كان أرياط عبدك وأنا عبدك ، فاختلفنا فى أمرك ، وكل طاعته لك . إلا أنى كنت أقوى على أمر الحبشة وأضبط لها وأسوس منه ، وقد حلقت رأسى كله حين بلغنى قسم الملك ، وبعثت إليه بجراب تراب من أرضى ، ليضعه تحت قدمه فيبر قسمه فىَّ . فلما انتهى ذلك إلى النجاشى رضى عنه ، وكتب إليه : أن اثبت بأرض اليمن حتى يأتيك أمرى ، فأقام أبرهة باليمن .

---

(١) الضحضاح من الماء : الذى يظهر منه القعر .
(٢) اليافوخ . وسط الرأس .
(٣) ودى القتيل : أعطى ديته .

ذكر سبب قصد أبرهة بالفيل مكة ليخرب الكعبة فأهلكه الله عاجلا غير آجل

قال الله تعالى : (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل * ألم يجعل كيدهم فى تضليل * وأرسل عليهم طيراً أبابيل * ترميهم بحجارة من سجيل * فجعلهم كعصف مأكول) .

قيل أول من ذلل الفيلة إفريدون بن أثفيان الذى قتل الضحاك ، قاله الطبرى . وهو أول من اتخذ للخيل السرج . وأما أول من سخر الخيل وركبها فطهمورث ، وهو الملك الثالث من ملوك الدنيا ، ويقال إن أول من ركبها إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام : ويحتمل أنه أول من ركبها من العرب والله تعالى أعلم .

ويقال إن الفيل مع عظمة خلقه يفرق من الهر ، وقد احتال بعض أمراء الحروب فى قتال الهنود ـ بإحضار سنانير إلى حومة الوغى فنفرت الفيلة .

قال ابن إسحاق : ثم إن أبرهة بنى القُلَّيس بصنعاء ، فبنى كنيسة لم ير مثلها فى زمانها بشىء من الأرض ، وكتب إلى النجاشى إنى قد بنيت لك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك ، ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب[1] . فذكر السهيلى : أن أبرهة استذل أهل اليمن فى بناء هذه الكنيسة الخسيسة ، وسخرهم فيها أنواعاً من السخر ، وكان من تأخر عن العمل حتى تطلع الشمس يقطع يده لامحالة . وجعل ينقل إليها من قصر بلقيس رخاماً وأحجاراً وأمتعة عظيمة ، وركب فيها صلباناً من من ذهب وفضة ، وجعل فيها منابر من عاج وأبنوس ، وجعل ارتفاعها عظيماً جداً واتساعها باهراً . فلما هلك بعد ذلك أبرهة وتفرقت الحبشة ، كان من يتعرض لأخذ شىء من بنائها وأمتعتها ـ أصابته الجن بسوء ؛ وذلك لأنها كانت مبنية على اسم صنمين : كعيب وامرأته . وكان طول كل منهما ستون ذراعاً . فتركها أهل اليمن على حالها ، فلم تزل كذلك إلى زمن السفاح ، أول خلفاء بنى العباس ، فبعث إليها جماعة من أهل العزم والحزم والعلم ، فنقضوها حجراً حجراً ودرست آثارها إلى يومنا هذا .

قال ابن إسحاق : فلما تحدثت العرب بكتاب أبرهة إلى النجاشى ، غضب رجل من النَّسأة[2] من كنانة الذين ينسئون شهر الحرام إلى الحل بمكة أيام الموسم كما قررنا ذلك عندقوله :(إنما النسىء زيادة فى الكفر ... الآية[3]). قال ابن إسحاق : فخرج الكنانى حتى أتى القليس فقعد فيها ـ أى أحدث ـ حيث لايراه أحد ، ثم خرج فلحق بأرضه ، فأخبر أبرهة بذلك ، فقال : من صنع هذا ؟ فقيل له : صنعه

(١) قال السهيلى : سميت هذه الكنيسة القليس ؛ لارتفاع بنائها وعلوها .

(٢) هم الذين كانوا يؤخرون حرمة شهر المحرم إلى صفر لحاجتهم إلى شن الغارات ، وطلب الثارات .

(٣) الآية : ٣٧ من سورة التوبة .

رجل من أهل هذا البيت الذى تحج إليه العرب بمكة ؛ لما سمع بقولك إنك تريد أن تصرف حج العرب إلى بيتك هذا ، فغضب فجاء فقعد فيها ؛ أى أنها ليست لذلك بأهل . فغضب أبرهة عند ذلك وحلف ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه .

ثم أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت ثم سار وخرج معه بالفيل ، وسمعت بذلك العرب فأعظموه وفظعوا به ، ورأوا جهاده حقاً عليهم ، حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة – بيت الله الحرام . فخرج إليه رجل كان من أشراف أهل اليمن وملوكهم – يقال له ذو نَفْر ، فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله الحرام ، وما يريده من هدمه وإخرابه ، فأجابه من أجابه إلى ذلك . ثم عرض له فقاتله ، فهزم ذو نَفر وأصحابه ، وأُخذ له ذو نفر فأتى به أسيراً . فلما أراد قتله قال له ذو نفر : يا أيها الملك لا تقتلنى ؛ فإنه عسى أن يكون بقائى معك خيراً لك من القتل ، فتركه من القتل وحبسه عنده فى وَثاق ، وكان أبرهة رجلا حليما . ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك يريد ما خرج له ، حتى إذا كان بأرض خثعم عرض له نُفَيل بن حبيب الخثعمى فى قبيلتى خثعم – وهما شهران وناهس – ومن تبعه من قبائل العرب ، فقاتله فهزمه أبرهة وأخذ له نفيل أسيراً فأتى به . فلما هم بقتله قال له نفيل : أيها الملك لا تقتلنى فإنى دليلك بأرض العرب ، وهاتان يداى لك على قبيلتى خثعم – شهران وناهس – بالسمع والطاعة ، فخلى سبيله وخرج به معه يدله . حتى إذا مر بالطائف خرج إليه مسعود بن معتِّب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف – فى رجال ثقيف ، فقالوا له : أيها الملك ! إنما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون ، ليس عندنا لك خلاف ، وليس بيتنا هذا بالبيت الذى تريد – يعنون اللات – إنما تريد البيت الذى بمكة ، ونحن نبعث معك من يدلك عليه ، فتجاوز عنهم .

قال ابن إسحاق : واللات بيت لهم بالطائف كانوا يعظمونه نحو تعظيم الكعبة ، قال : فبعثوا معه أبا رِغال يدله على الطريق إلى مكة ، فخرج أبرهة ومعه أبو رغال حتى أنزله بالمغمَّس [1] ، فلما أنزله به مات أبو رغال هنالك ، فرجمت قبره العرب ، فهو القبر الذى يرجم الناس بالمغمَّس . وقد تقدم فى قصة ثمود أن أبا رغال كان رجلا منهم وكان يمتنع بالحرم ، فلما خرج منه أصابه حجر فقتله ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : « وآية ذلك أنه دفن معه غصنان من ذهب » ، فحفروا فوجدوهما ، قال : وهو أبو ثقيف .

قلت : والجمع بين هذا وبين ما ذكر ابن إسحاق : أن أبا رغال هذا المتأخر – وافق اسمه اسم جده الأعلى ، ورجمه الناس كما رجموا قبر الأول أيضاً . والله أعلم . وقد قال جرير :

إذا مات الفرزدق فارجموه ... كرجمكم لقبر أبى رغال

---

(١) موضع بطريق الطائف على ثلثى فرسخ من مكة ، به قبر أبى رغال .

الظاهر أنه الثانى . قال ابن إسحاق : فلما نزل أبرهة بالمغمس ، بعث رجلا من الحبشة يقال له الأسود بن مقصود على خيل له ، حتى انتهى إلى مكة ، فساق إليه أموال تهامة من قريش وغيرهم ، وأصاب فيها مائتى بعير لعبد المطلب بن هاشم — وهو يومئذ كبير قريش وسيدها — فهمت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم . بقتاله ، ثم عرفوا أنه لا طاقة لهم به فتركوا ذلك . وبعث أبرهة ، حُناطة الحميرى إلى مكة ، وقال له : سل عن سيد أهل هذا البلد وشريفهم ، ثم قل له : إن الملك يقول إنى لم آت لحربكم ، إنما جئت لهدم هذا البيت ، فإن لم تعرضوا لنا دونه بحرب — فلا حاجة لى بدمائكم فإن هو لم يرد حربى فائتنى به .

فلما دخل حناطة مكة سأل عن سيد قريش وشريفها ، فقيل له : عبد المطلب بن هاشم ، فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة . فقال له عبد المطلب : والله ما نريد حربه ، ومالنا بذلك من طاقة ، هذا بيت الله الحرام ، وبيت خليله إبراهيم عليه السلام — أو كما قال — فإن يمنعه منه فهو حرمه وبيته ، وإن يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه . فقال له حناطة : فانطلق معى إليه ؛ فإنه قد أمرنى أن آتيه بك . فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه ، حتى أتى العسكر فسأل عن ذى نفر — وكان له صديقاً — حتى دخل عليه وهو فى محبسه ، فقال له : ياذا نفر ! هل عندك من غَناء فيما نزل بنا ؟ فقال له ذو نفر : ما غَناء رجل أسير بيدى ملك ينتظر أن يقتله غدواً أو عشيًّا ؟ ما عندى غناء فى شىء مما نزل بك ، إلا أن أنيساً سائس الفيل صديق لى ، فسأرسل إليه وأوصيه بك ، وأعظّم عليه حقك ، وأسأله أن يستأذن لك على الملك فتكلمه بما بدا لك ، ويشفع لك عنده بخير إن قدر على ذلك ، فقال حسبى .

فبعث ذو نفر إلى أنيس فقال له : إن عبد المطلب سيد قريش ، وصاحب عين مكة ، يطعم الناس بالسهل والوحوش فى رءوس الجبال ، وقد أصاب له الملك مائتى بعير ، فاستأذن له عليه وانفعه عنده بما استطعت . قال أفعل . فكلم أنيس أبرهة ، فقال له : أيها الملك ! هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك ، وهو صاحب عين مكة ، وهو الذى يطعم الناس بالسهل والوحوش فى رءوس الجبال ، فأْذن له عليك فليكلمك فى حاجته ، فأذن له أبرهة . قال : وكان عبد المطلب أوسم الناس وأعظمهم وأجملهم . فلما رآه أبرهة أجله وأكرمه عن أن يجلسه تحته ، وكره أن تراه الحبشة يجلسه معه على سرير ملكه . فنزل أبرهة عن سريره ، فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جانبه ، ثم قال لترجمانه : قل له ماحاجتك ؟ فقال له ذلك الترجمان ، فقال : حاجتى أن يرد على الملك مائتى بعير أصابها لى ، فلما قال له ذلك — قال أبرهة لترجمانه : قل له ، لقد كنت أعجبتنى حين رأيتك ، ثم قد زهدت فيك حين كلمتنى ، أتكلمنى فى مائتى بعير أصبتها لك ، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لأهدمه لا تكلمنى فيه ؟ فقال له

عبد المطلب : إنى أنا رب الإبل وإن للبيت رباً سيمنعه ، فقال ما كان ليمتنع منى ، قال أنت وذاك ، فرد على عبد المطلب إبله .

قال ابن إسحاق : ويقال إنه كان قد دخل مع عبد المطلب على أبرهة ــ يعمر بن نفاثة بن عدى ابن الدُّئل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة ــ سيد بنى بكر يومئذ ، وخويلد بن واثلة ــ وهو يومئذ سيد هذيل ، فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عنهم ولا يهدم البيت ، فأبى عليهم ذلك . فالله أعلم ؛ أكان ذلك أم لا ؟

فلما انصرفوا عنه انصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر ، وأمرهم بالخروج من مكة والتحرّز فى رءوس الجبال والشعاب . ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة ، وقام معه نفر من قريش يدعون الله و يستنصرونه على أبرهة وجنده . وقال عبد المطلب ــ وهو آخذ بحلقة باب الكعبة ــ :

لا هُمّ إنّ العبد يـ ... ـمنع رَحله فامنع رحالك[١]

لا يغلبــن صليبهم ... ومحالُهم غدواً[٢] محالك

إن كنت تاركهم وقبـ ... ـلتنا فأمرٌ ما بدالك

قال ابن هشام هذا ماصح له منها . وقال ابن إسحاق : ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة ، وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شعف الجبال ، يتحرزون فيها ينتظرون ما أبرهة فاعل . فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة ، وهيأ فيله وعبّى جيشه ، وكان اسم الفيل « محموداً » . فلما وجهوا الفيل إلى مكة ، أقبل نفيل بن حبيب حتى قام إلى جنب الفيل ، ثم أخذ بأذنه فقال : أبرك محمود ، وارجع راشداً من حيث أتيت ؛ فإنك فى بلد الله الحرام ، وأرسل أذنه فبرك الفيل ، قال السهيلى : أى سقط إلى الأرض ، وليس من شأن الفيلة أن تبرك ، وقد قيل إن منها مايبرك كالبعير ، فالله أعلم .

وخرج نفيل بن حبيب يشتد حتى أصعد فى الجبل ، وضربوا الفيل ليقوم فأبى ، فضربوا رأسه بالطبرزين[٢] ليقوم فأبى ، فأدخلوا محاجن لهن فى مراقه فبزعوه[٣] بها ليقوم فأبى ، فوجهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول ، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى مكة فبرك . وأرسل الله عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف[٤] والبلشون ، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها ؛ حجر فى منقاره وحجران فى رجليه أمثال الحمص والعدس ، لا تصيب منهم أحداً إلا هلك ، وليس كلهم أصابت .

---

(١) فى رواية : فامنع حلالك . والحلال : القوم والجماعة يحلون فى المكان .

(٢) أى غدا ، ولم يستعمل تاما إلا فى الشعر . والمحال : الكيد والمكر والقدرة ، وليس المراد الغد بعينه . وإنما المراد ــ القرب من الزمان (٣) الطبرزين : فأس السرج ، فارسى معرب . (٣) بزغوه : أدموه ومنه المبزغ : وهو المشرط للحجام ونحوه (٤) الخطاطيف . جمع خطاف ، وهو طائر أسود . إذا رأى ظله فى الماء أقبل إليه ليخطفه .

وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق التي منها جاءوا ، ويسألون عن نفيل بن حبيب ؛ ليدلهم على الطريق إلى اليمن ، فقال نفيل فى ذلك :

ألا حُيّيت عنا يارُدَينا نَعِمنا كم مع الإصباح عَيْنا

رُدينة لو رأيتِ فلا تريه لدى جَنب المحصَّب ما رأينا

إذاً لعذَرْتِنى وحمدتِ أمرى ولم تأسَى على ما فات بَينا

حمدتُ الله إذ أبصرتُ طيراً وخفتُ حجارة تُلقى علينا

وكل القوم يسأل عن نُفيل كأنّ على للحُبشان دَينا !

قال ابن إسحاق : فخرجوا يتساقطون بكل طريق ، ويهلكون بكل مهلك على كل منهل . وأصيب أبرهة فى جسده ، وخرجوا به معهم يسقط أُنملة أُنملة ، كلما سقطت أنملة اتبعتها منه مِدة تَمُث[1] قيحا ودما ، حتى قدموا به صنعاء ، وهو مثل فرخ الطائر . فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه — فيما يزعمون .

قال ابن إسحاق : حدثنى يعقوب بن عتبة ، أنه حدث أن أول ما رُوِيت الحصبة والجدرى بأرض العرب ذلك العام ، وأنه أول ماروُى بها مرائر الشجر : الحرمل والحنظل والعُشَر ـ ذلك العام .

قال ابن إسحاق : فلما بعث الله محمداً ﷺ كان مما يعدد الله على قريش من نعمته عليهم وفضله ـ مارد عنهم من أمر الحبشة ؛ لبقاء أمرهم ومدتهم فقال تعالى : (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ✲ ألم يجعل كيدهم فى تضليل ✲ وأرسل عليهم طيراً أبابيل ✲ ترميهم بحجارة من سجيل ✲ فجعلهم كعصف مأكول) .

ثم شرع ابن إسحاق وابن هشام يتكلمان على تفسير هذه السورة والتى بعدها . وقد بسطنا القول فى ذلك فى كتابنا التفسير بما فيه كفاية إن شاء الله تعالى ، وله الحمد والمنة .

قال ابن هشام : الأبابيل ـ الجماعات ، ولم تتكلم لها العرب بواحد علمناه . قال : وأما السجيل ـ فأخبرنى يونس النحوى وأبو عبيدة : أنه عند العرب ـ الشديد الصلب . قال وزعم بعض المفسرين : أنهما كلمتان بالفارسية جعلتهما العرب كلمة واحدة ، وأنهما : سنج وجل[2] ؛ فالسنج ـ الحجر ، والجل ـ الطين ؛ يقول : الحجارة من هذين الجنسين ـ الحجر والطين قال : والعصف ـ ورق الزرع الذى لم يقصب . وقال الكسائى : سمعت بعض النحويين يقول: واحد الأبابيل ـ إبِّيل ، وقال كثيرون من السلف : الأبابيل ـ الفرق من الطير التى يتبع بعضها بعضا من هَهنا وهَهنا وعن ابن عباس : كان لها خراطيم كخراطيم

(١) مث الجرح : نتى عنه غثيثته . (٢) والأصل : « سنك وكل » وقد ركبا ، وأبدلت الكاف جيما .

الطير ، وأكف كأكف الكلاب . وعن عكرمة كانت رءوسها كرءوس السباع ، خرجت عليهم من البحر وكانت خضراً . وقال عبيد بن عمير : كانت طيوراً سوداً بحرية ، فى مناقيرها وأكفها الحجارة ، وعن ابن عباس : كانت أشكالها كعنقاء مغرب[١] ، وعن ابن عباس كان أصغر حجر منها كرأس الإنسان ومنها ما هو كالإبل . وهكذا ذكره يونس بن بكير عن ابن إسحاق . وقيل كانت صفاراً ، والله أعلم .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا محمد بن عبد الله بن أبى شيبة ، حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبى سفيان عن عبيد بن عمير قال : لما أراد الله أن يهلك أصحاب الفيل بعث عليهم طيراً أنشئت من البحر أمثال الخطاطيف ؛ كل طير منها يحمل ثلاثة أحجار : حجرين فى رجليه وحجراً فى منقاره ، قال فجاءت حتى صفت على رءوسهم ثم صاحت وألقت مافى رجليها ومناقيرها . فما يقع حجر على رأس رجل إلا خرج من دبره ، ولا يقع على شىء من جسده إلا خرج من الجانب الآخر . وبعث الله ريحاً شديدة فضربت الحجارة فزادتها شدة فأهلكوا جميعاً .

وقد تقدم أن ابن إسحاق قال : وليس كلهم أصابته الحجارة ، يعنى بل رجع منهم راجعون إلى اليمن ، حتى أخبروا أهلهم بما حل بقومهم من النكال . وذكروا أن أبرهة رجع وهو يتساقط أنملة أنملة ، فلما وصل إلى اليمن انصدع صدره فمات لعنه الله . وروى ابن إسحاق قال : حدثنى عبد الله بن أبى بكر عن عمرة عن عائشة قالت : لقد رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان وتقدم أن سائس الفيل كان اسمه « أنيساً » فأما قائده فلم يسم ، والله أعلم .

وذكر النقاش فى تفسيره : أن السيل احتمل جثثهم فألقاها فى البحر . قال السهيلى : وكانت قصة الفيل أول المحرم من سنة ست وثمانين وثمانمائة[٢] من تاريخ ذى القرنين . قلت وفى عامها ولد رسول الله ﷺ على المشهور . وقيل كان قبل مولده بسنين كما سنذكر إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة .

ثم ذكر ابن إسحاق ماقالته العرب من الأشعار فى هذه الكائنة العظيمة ، التى نصر الله فيها بيته الحرام الذى يريد أن يشرفه ويعظمه ويطهره ويوقره ببعثة محمد ﷺ ، وما يشرع له من الدين القويم الذى أحد أركانه الصلاة ، بل عماد دينه ، وسيجعل قبلته إلى هذه الكعبة المطهرة . ولم يكن مافعله بأصحاب الفيل نصرة لقريش إذ ذاك على النصارى الذين هم الحبشة ؛ فإن الحبشة إذ ذاك كانوا أقرب لها من مشركى قريش ، وإنما كان النصر للبيت الحرام ، وإرهاصاً وتوطئة لبعثة محمد ﷺ . فمن ذلك ماقاله عبد الله بن الزبعرى السهمى .

وتنكبوا[٣] عن بطن مكة إنها ... كانت قديماً لايرام حريمها

لم تخلق الشعرى ليالى حرمت ... إذ لاعزيز من الأنام يرومها

---

(١) طائر معروف يبعد فى طيرانه (٢) الذى فى السهيلى : سنة اثنتين وثمانين الخ .

(٣) ارجعوا وانصرفوا خوفاً ورهبة منها .

سائل أمير الحبش عنها مارأى   فلسوف يُنبى الجاهلين عليمها
ستون ألفاً لم يئوبوا أرضهم   بل لم يعش بعد الإياب سقيمها
كانت بها عاد وجرهم قبلهم   والله من فوق العباد يقيمها

ومن ذلك قول أبى قيس بن الأسلت الأنصارى المدنى :

ومن صنعه يوم فيل الحبو * ش إذ كلما بعثوه رزم   محاجنهم تحت أقرابه * وقد شرّموا أنفه فانخرم
وقد جعلوا سوطه مِغولا * إذا يمموه قفاه كُلِم   فولى وأدبر أدراجه * وقد باء بالظلم من كان ثَم
فأرسل من فوقهم حاصباً * فلفهم مثل لف القَزم   تحض على الصبر أحبارهم * وقد ثأجوا كثؤاج الغنم

ومن ذلك قول أبى الصلت ربيعة بن أبى ربيعة وهب بن علاج الثقفى . قال ابن هشام : ويروى لأمية بن أبى الصلت :

إن آيات ربنا ثاقبات * مايمارى فيهن إلا الكفور   خلق الليل والنهار فكل * مستبين حسابه مقدور
ثم يجلو النهار رب رحيم * بمهاة شعاعها منشور   حَبس الفيل بالمغمّس حتى * صار يحبو كأنه معقور
لازماً حلقة الجران كما قـ * ـد من صخر كبكب محدور   حوله من ملوك كندة أبطا * ل ملاويث فى الحروب صقور
خلفوه ثم ابذعروا جميعاً * كلهم عظم ساقه مكسور   كل دين يوم القيامة عند الله * إلا دين الحنيفة بور

ومن ذلك قول أبى قيس بن الأسلت أيضاً :

فقوموا فصلوا ربكم وتمسحوا   بأركان هذا البيت بين الأخاشب
فعندكم منه بلاء مصدق   غداة أبى يكسوم هادى الكتائب
كتيبته بالسهل تمشى ورجله   على القاذفات فى رءوس المناقب
فلما أتاكم نصر ذى العرش ردهم   جنود المليك بين ساف وحاصب
فولوا سراعاً هاربين ولم يؤب   إلى أهله مِلْحبش غير عصائب

ومن ذلك قول عبيد الله بن قيس الرقيات فى عظمة البيت وحمايته ، بهلاك من أراده بسوء :

كاده الأشرم الذى جاء بالفيـ   ـل فولّى وجيشه مهزوم
واستهلت عليهم الطير بالجنـ   ـدل حتى كأنه مرجوم
ذاك من يغزه من الناس يرْ   جع وهو فل من الجيوش ذميم

قال ابن إسحاق وغيره : فلما هلك أبرهة ، ملك الحبشة بعده ابنهُ يكسوم . ثم من بعده أخوه مسروق بن أبرهة وهو آخر ملوكهم . وهو الذى انتزع سيفُ بن ذى يزن الحميرى ـ الملك من يده ، بالجيش الذى قدم به من عند كسرى أنو شروان ، كما سيأتى بيانه .

وكانت قصة الفيل فى المحرم سنة ست وثمانين وثمانمائة من تاريخ ذى القرنين ، وهو اسكندر الثانى ابن فلبيس المقدونى ، الذى يؤرخ له الروم . ولما هلك أبرهة وابناه ، وزال ملك الحبشة عن اليمن — هجر القليس الذى كان بناه أبرهة ، وأراد صرف حج العرب إليه ؛ لجهله وقلة عقله ، وأصبح يباباً لا أنيس به وكان قد بناه على صنمين ؛ وهما كعيب وامرأته ، وكانا من خشب طول كل منهما ستون ذراعاً فى السماء وكانا مصحوبين من الجان ، ولهذا كان لا يتعرض أحد إلى أخذ شىء من بناء القليس وأمتعته — إلا أصابوه بسوء ، فلم يزل كذلك إلى أيام السفاح ، أول خلفاء بنى العباس . فذكر له أمره وما فيه من الأمتعة والرخام الذى كان أبرهة نقله إليه من صرح بلقيس الذى كان باليمن ، فبعث إليه من خربه حجراً حجراً ، وأخذ جميع ما فيه من الأمتعة والحواصل . هكذا ذكره السهيلى ، والله أعلم .

ذكر خروج الملك عن الحبشة ورجوعه إلى سيف بن ذى يزن الحميرى

كما أخبر بذلك الكاهنان لربيعة بن نصر اللخمى

قال محمد بن إسحاق رحمه الله : فلما هلك أبرهة ، مَلَك الحبشة يكسوم بن أبرهة — و به كان يكنى — فلما هلك يكسوم — ملك اليمن من الحبشة أخوه مسروق بن أبرهة . قال : فلما طال البلاء على أهل اليمن خرج سيف بن ذى يزن الحميرى ، وهو سيف بن ذى يزن بن ذى أصبح بن مالك بن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن قطن بن عريب بن زهير بن أيمن بن الهميسع بن العرنجج ، وهو حمير بن سبأ — وكان سيف يكنى أبا مُرّة — حتى قدم على قيصر ملك الروم ، فشكا إليه ماهو فيه ، وسأله أن يخرجهم عنه ، و يليهم هو ، و يخرج إليهم من شاء من الروم فيكون له ملك اليمن فلم يشكه . فخرج حتى أتى النعمان بن المنذر — وهو عامل كسرى على الحيرة وما يليها من أرض العراق — فشكا إليه أمر الحبشة ، فقال له النعمان : إن لى على كسرى وفادةً فى كل عام ، فأقم عندى حتى يكون ذلك — ففعل ثم خرج معه فأدخله على كسرى ، وكان يجلس فى إيوان مجلسه الذى فيه تاجه ، وكان تاجه مثل القَنْقَل[1] العظيم — فيما يزعمون ، يضرب فيه الياقوت والزبرجد واللؤلؤ والذهب والفضة ، معلقاً بسلسلة من ذهب فى رأس طاق فى مجلسه ذلك ، وكانت عنقه لاتحمل تاجه ، إنما يُستر عليه بالثياب حتى يجلس فى مجلسه ذلك ، ثم يدخل رأسه فى تاجه فإذا استوى فى مجلسه كشفت عنه الثياب ، فلا يراه أحد لم يره قبل ذلك إلا برك هيبةً له ، فلما دخل عليه سيف بن ذى يزن طأطأ رأسه ، فقال الملك : إن هذا الأحمق يدخل على من هذا الباب الطويل ثم يطأطىء رأسه ! فقيل ذلك لسيف فقال : إنما فعلت هذا لهمى ؛ لأنه يضيق عنه كل شىء ، ثم قال : أيها الملك ! غلبتنا على

---

(١) القنقل : مكيال يسع ثلاثة وثلاثين مناً ، والمن : وزن رطلين .

بلادنا الأغربة ، قال كسرى : أى الأغربة ؟ الحبشة أم السند ؟ قال : بل الحبشة ، فجئتك لتنصرنى ويكون ملك بلادى لك . فقال له كسرى : بعدت بلادك مع قلة خيرها ، فلم أكن لأورط جيشاً من فارس بأرض العرب ، لاحاجة لى بذلك . ثم أجازه بعشرة آلاف درهم وافٍ ، وكساه كسوة حسنة .

فلما قبض ذلك منه سيف ، خرج فجعل ينثر تلك الورِق للناس ، فبلغ ذلك الملك فقال : إن لهذا لشأناً ، ثم بعث إليه فقال له : عمدت إلى حباء الملك تنثره للناس ! قال وما أصنع بحباك ؟ ما جبال أرضى التى جئت منها إلا ذهب وفضة — يرغّبه فيها . فجمع كسرى مرازبته فقال : ماترون فى أمر هذا الرجل وما جاء له ؟ فقال قائل : أيها الملك ! إن فى سجونك رجالا قد حَبَسْتهم للقتل ، فلو أنك بعثتهم معه ؛ فإن يهلكوا كان ذلك الذى أردت بهم ، وإن ظفروا كان ملكا ازددته ؛ فبعث معه كسرى من كان فى سجونه ، وكانوا ثمانمائة رجل ، واستعمل عليهم «وهْرِز» ، وكان ذا سن فيهم وأفضلهم حسباً وبيتاً ، فخرجوا فى ثمان سفائن ؛ فغرقت سفينتان ووصل إلى ساحل عدن ست سفائن ، فجمع سيف إلى «وهرز» من استطاع من قومه ، وقال له : رجلى ورجلك حتى نموت جميعاً أو نظفر جميعاً ، فقال له وهرز : أنصفت ، وخرج إليه مسروق بن أبرهة ملك اليمن ، وجمع إليه جنده . فأرسل إليهم وهرز ابناً له ليقاتلهم فيختبر قتالهم ، فقتل ابن « وهرز » ، فزاده ذلك حنقاً عليهم . فلما تواقف الناس على مصافهم قال وهرز : أرونى ملكهم ، فقالوا له أترى رجلا على الفيل عاقداً تاجه على رأسه بين عينيه ياقوتة حمراء ؟ قال : نعم . قالوا ذلك ملكهم ، فقال اتركوه . قال فوقفوا طويلا ثم قال : علام هو ؟ قالوا قد تحول على الفرس . قال اتركوه ، فتركوه طويلا ثم قال علام هو ؟ قالوا على البغلة قال وهرز : بنت الحمار ! ذل وذل ملكه ، إنى سأرميه ؛ فإن رأيتم أصحابه لم يتحركوا فاثبتوا حتى أوذنكم ، فإنى قد أخطأت الرجل ، وإن رأيتم القوم قد استداروا به ولاذوا فقد أصبت الرجل ، فاحملوا عليهم . ثم أوتر قوسه — وكانت فيما يزعمون لا يوترها غيره من شدتها — وأمر بحاجبيه فعُصِّبا له ، ثم رماه فصك الياقوتة التى بين عينيه ، وتغلغلت النشابة فى رأسه حتى خرجت من قفاه ، وتنكس عن دابته ، واستدارت الحبشة ولاذت به ، وحملت عليهم الفرس فانهزموا ، فقتلوا وهربوا فى كل وجه ، وأقبل «وهرز» ليدخل صنعاء ، حتى إذا أتى بابها قال : لا تدخل رايتى منكسة أبداً ، اهدموا هذا الباب — فهدم ، ثم دخلها ناصباً رايته ، فقال سيف بن ذى يزن الحميرى :

يظن الناس بالملكـ ✻ ـين أنهما قد التأما ... ومن يسمع بلأمهما ✻ فإن الخطب قد فقُما

قتلنا القيل مسروقاً ✻ وروينا الكثيب دما ... وإن القيل قيل النـ ✻ ـاس وهرز مقسم قسما

يذوق مشعشعاً حتى ... يفىء السبى والنعما

ووفدت العرب من الحجاز وغيرها على سيف يهنئونه بعود الملك إليه وامتدحوه . فكان من جملة من وفد ـ قريش وفيهم عبد المطلب بن هاشم ، فبشره سيف برسول الله ﷺ ، وأخبره بما يعلم من أمره . وسيأتى ذلك مفصلا فى باب البشارات به ، عليه الصلاة والسلام .

قال ابن إسحاق : وقال أبو الصلت بن أبى ربيعة الثقفى ، قال ابن هشام : ويروى لأمية بن أبى الصلت :

ليطلب الوتر أمثال ابن ذى يزن ريَّم[1] فى البحر للأعداء أحوالا
يمم قيصراً لما حان رحلته فلم يجد عنده بعض الذى سالا
ثم انثنى نحو كسرى بعد عاشرة من السنين يهين النفس والمالا
حتى أتى ببنى الأحرار يحملهم إنك عمرى لقد أسرعت قلقالا[2]
لله درهم من عصبة خرجوا ما إن أرى لهمُ فى الناس أمثالا
غلباً مرازبة بيضاً أساورة أسداً تربّب فى الغيضات أشبالا
يرمون عن شدُف كأنها غُبُط بزمخرٍ يُعجل المرمِىّ إعجالا[3]
أرسلت أُسداً على سود الكلاب فقد أضحى شريدهم فى الأرض فُلَّالا
فاشرب هنيئاً عليك التاج مرتفقاً فى رأس غُمدان داراً منك مِحلالا
واشرب هنيئاً فقد شالت نعامتهم[4] وأسبل اليوم فى برديك إسبالا
تلك المكارم لا قَعبانِ من لبن شِيباً بماء فعادا بعدُ أبوالا[5]

يقال : إن غمدان ـ قصر باليمن بناه يعرب بن قحطان ، وملكه بعده واحتله وائلة بن حمير بن سبأ . ويقال كان ارتفاعه عشرين طبقة ، فالله أعلم .

قال ابن إسحاق : وقال عدى بن زيد الحميرى وكان أحد بنى تميم :

ما بعد صنعاء كان يعمرها ولاة مُلك جزل مواهبها
رفعها من بنى لدى قزع الـ مزن وتندى مسكاً محاربها
محفوفة بالجبال دون عرى الـ ـكائد ما تُرتقى غواربها
يأنس فيها صوت النهام إذا جاوبها بالعشى قاصبها[6]
ساقت إليها الأسباب جند بنى الـ أحرار فرسانها مواكبها

---

(١) أى أقام (٢) عمرى : أصله لعمرى حذفت اللام للضرورة ، والقلقال : شدة الحركة ، . وبنى الأحرار : الفرس . (٣) الشدف : جمع شدفاء . وهى القسى الفارسية ، والغبط : الهوادج ، شبه بها القسى لعلوها . والزمخر : القصب الفارسى ، والسهم الدقيق (٤) شالت نعامتهم : أى هلكوا ، وأصل النعامة : باطن القدم (٥) روى هذا البيت للنابغة الجعدى فى قصيدة (٦) النهام كغراب : طائر ، أو ذكر البوم . والقاصب : الذى يزمر فى القصب .

وفوّزت بالبغال توسق بالـــحتف ونسعى بها توالبها[١]

حتى يراها الأقوال من طرف المنقل[٢] مخضرة كتائبها

يوم ينادون آل بربر واليكـ سوم لا يفلحنّ هاربها

فكان يوماً باقى الحديث وزا لت أمة ثابت مراتبها

وبدل الهيج بالزرافة والأ يام جون جم عجائبهـــا

بعد بنى تبع نخاورة[٣] قد اطمأنت بها مرازبها

قال ابن هشام : وهذا الذى عنى سطيح بقوله : يليه إرم ذى يزن ، يخرج عليهم من عدن ، فلا يترك منهم أحداً باليمن . والذى عنى شق بقوله : غلام ليس بدنى ولا مدنّ ، يخرج من بيت ذى يزن .

قال ابن إسحاق : وأقام وهرز والفرس باليمن ، فمن بقية ذلك الجيش من الفرس ـ الأبناء الذين باليمن اليوم . وكان ملك الحبشة باليمن فيما بين أن دخلها أرياط ، إلى أن قتلت الفرس مسروق بن أبرهة ، وأخرجت الحبشة — اثنتين وسبعين سنة ، توارث ذلك منهم أربعة : أرياط ، ثم أبرهة ، ثم يكسوم بن أبرهة ، ثم مسروق بن أبرهة .

ذكر ما آل إليه أمر الفرس باليمن

قال ابن هشام : ثم مات وهرز ، فأمر كسرى ابنه المرزبان بن وهرز على اليمن ، ثم مات المرزبان فأمر كسرى ابنه التينُجان ، ثم مات فأمر ابن التينجان ، ثم عزله عن اليمن وأمرعليها باذان ، وفى زمنه بعث رسول الله ﷺ . قال ابن هشام : فبلغنى عن الزهرى أنه قال : كتب كسرى إلى باذان : إنه بلغنى أن رجلا من قريش خرج بمكة يزعم أنه نبى ، فسر إليه فاستتبه ، فإن تاب وإلا فابعث إلىّ برأسه ، فبعث باذان بكتاب كسرى إلى رسول الله ﷺ ، فكتب إليه رسول الله ﷺ : « إن الله قد وعدنى أن يقتل كسرى فى يوم كذا وكذا من شهر كذا » ، فلما أتى باذان الكتاب وقف لينتظر ، وقال : إن كان نبياً فسيكون ماقال ، فقتل الله كسرى فى اليوم الذى قال رسول الله ﷺ — قال ابن هشام — على يدى ابنه شيرَويه . قلت : وقال بعضهم بنوه تمالئوا على قتله . وكسرى هذا هو ابرويز ابن هرمز بن أنو شروان بن قباذ ، وهو الذى غلب الروم فى قوله تعالى : (الٓمٓ * غلبت الروم فى أدنى الأرض[٣]) كما سيأتى بيانه . قال السهيلى : وكان قتله ليلة الثلاثاء لعشر خلون من جمادى الأولى سنة تسع من الهجرة . وكان — والله أعلم — لما كتب إليه رسول الله ﷺ يدعوه إلى الإسلام غضب ومزق كتابه ، وكتب إلى نائبه باليمن يقول له ما قال . وفى بعض الروايات : أن رسول الله ﷺ قال لرسول

(١) التوالب : جمع تولب ، وهو الجحش (٢) المنقل كمقعد : الطريق فى الجبل ، والمراد من أعالى حصونها .

(٣) نخاورة : شرفاء ـ جمع نخوار ، وهو الشريف (٣) أول سورة الروم .

باذان : « إن ربى قد قتل الليلة ربك » ، فكان كما قال رسول الله ﷺ ، قتل تلك الليلة بعينها ، قتله بنوه لظلمه ـ بعد عدله ـ بعد ما خلعوه ، وولوا ابنه شيرويه فلم يعش بعد قتله أباه إلا ستة أشهر أو دونها . وفى هذا يقول خالد بن حق الشيبانى :

وكسرى إذ تقسمه بنوه　　بأسياف كما اقتُسم اللحام

تمخضت المنون له بيوم　　ألا ولكل حاملة تمام

قال الزهرى : فلما بلغ ذلك باذان بعث بإسلامه وإسلام من معه من الفرس إلى رسول الله ﷺ فقالت الرسل : إلى من نحن يارسول الله ؟ قال : « أنتم منا وإلينا أهل البيت » . قال الزهرى : ومن ثم قال رسول الله ﷺ : « سلمان منا أهل البيت » قلت والظاهر أن هذا كان بعد ما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ، ولهذا بعث الأمراء إلى اليمن لتعليم الناس الخير ودعوتهم إلى الله عز وجل ؛ فبعث أولاً خالد بن الوليد وعلى بن أبى طالب ، ثم أتبعهما أبا موسى الأشعرى ومعاذ بن جبل ، ودانت اليمن وأهلها للإسلام ، ومات باذان فقام بعده ولده شهر بن باذان ، وهو الذى قتله الأسود العنسى حين تنبأ وأخذ زوجته كما سيأتى بيانه . وأجلى عن اليمن نواب رسول الله ﷺ ، فلما قتل الأسود عادت اليد الإسلامية عليها . وقال ابن هشام : وهذا هو الذى عنى سطيح بقوله : نبى زكى ، يأتيه الوحى من قبل العلى . والذى عنى شق بقوله : بل ينقطع برسول مرسل ، يأتى بالحق والعدل ، بين أهل الدين والفضل ، يكون الملك فى قومه إلى يوم الفصل . قال ابن إسحاق : وكان فى حجر باليمن ـ فيما يزعمون ـ كتاب الزبور كتب فى الزمان الأول : «لمن ملك ذَمار ؟ لحمير الأخيار ، لمن ملك ذَمار ؟ للحبشة الأشرار ، لمن ملك ذَمار ؟ لفارس الأحرار ، لمن ملك ذَمار ؟ لقريش التجار » . وقد نظم بعض الشعراء هذا المعنى فيما ذكره المسعودى :

حين شدت ذمار قيل لمن أنـ　　ـت ؟ فقالت لحمير الأخيار

ثم سيلت من بعد ذاك فقا　　لت : أنا للحبش أخبث لأشرار

ثم قالوا من بعد ذاك لمن أنـ　　ـت ؟ فقالت لفارس الأحرار

ثم قالوا من بعد ذاك لمن أنـ　　ـت ؟ فقالت إلى قريش التجار

ويقال إن هذا الكلام الذى ذكره محمد بن إسحاق ، وجد مكتوباً عند قبر هود عليه السلام ، حين كشفت الريح عن قبره بأرض اليمن ، وذلك قبل زمن بلقيس بيسير ؛ فى أيام مالك بن ذى المنار أخى عمرو ذى الأذعار بن ذى المنار . ويقال كان مكتوباً على قبر هود أيضاً ، وهو من كلامه عليه السلام ، حكاه السهيلى ، والله أعلم .

قصة الساطرون صاحب الحضر

وقد ذكر قصته هاهنا عبد الملك بن هشام ؛ لأجل ما قاله بعض علماء النسب : إن النعمان بن المنذر الذى تقدم ذكره فى ورود سيف بن ذى يزن عليه ، وسؤاله فى مساعدته فى رد ملك اليمن إليه — إنه من سلالة الساطرون صاحب الحضر . وقد قدمنا عن ابن إسحاق : أن النعمان بن المنذر من ذرية ربيعة ابن نصر ، وأنه روى عن جبير بن مطعم أنه من أشلاء قيصر بن معد بن عدنان . فهذه ثلاثة أقوال فى نسبه فاستطرد ابن هشام فى ذكر صاحب الحضر . والحضر حصن عظيم بناه هذا الملك — وهو الساطرون — على حافة الفرات ، وهو منيف مرتفع البناء ، واسع الرحبة والفناء ، دوره بقدر مدينة عظيمة ، وهو فى غاية الإحكام والبهاء ، والحسن والسناء ، وإليه يجبى ماحوله من الأقطار والأرجاء . واسم الساطرون : الضيزن بن معاوية بن عبيد بن أجرم من بنى سليح بن حلوان بن الحاف بن قضاعة ؛ كذا نسبه ابن الكلبى . وقال غيره كان من الجرامقة ، وكان أحد ملوك الطوائف ، وكان يقدمهم إذا اجتمعوا لحرب عدو من غيرهم ، وكان حصنه بين دجلة والفرات .

قال ابن هشام : وكان كسرى سابور ذو الأكتاف — غزا الساطرون ملك الحضر ، وقال غير ابن هشام : إنما الذى غزا صاحب الحضر — سابور بن أردشير بن بابك أول ملوك بنى ساسان ؛ أذل ملوك الطوائف ، ورد الملك إلى الأكاسرة . وأما سابور ذو الأكتاف بن هرمز فبعد ذلك بدهر طويل والله أعلم ، ذكره السهيلى . قال ابن هشام : فحصره سنتين ، وقال غيره أربع سنين ؛ وذلك لأنه كان أغار على بلاد سابور فى غيبته بأرض العراق ، فأشرفت بنت الساطرون — وكان اسمها النضيرة — فنظرت إلى سابور ، وعليه ثياب ديباج ، وعلى رأسه تاج من ذهب مكلل بالزبرجد والياقوت واللؤلؤ . وكان جميلا ، فدست إليه : أتتزوجنى إن فتحت لك باب الحضر ؟ فقال : نعم ! فلما أمسى ساطرون شرب حتى سكر ، وكان لايبيت إلا سكران ، فأخذت مفاتيح باب الحضر من تحت رأسه ، وبعثت بها مع مولى لها ففتح الباب . ويقال : بل دلتهم على نهر يدخل منه الماء متسع ، فولجوا منه إلى الحضر . ويقال بل دلتهم على طلسم كان فى الحضر ؛ وكان فى علمهم أنه لا يفتح حتى تؤخذ حمامة ورقاء ، وتخضب رجلاها بحيض جارية بكر زرقاء ثم ترسل ، فإذا وقعت على سور الحضر — سقط ذلك الطلسم . فيفتح الباب ، ففعل ذلك فانفتح الباب ، فدخل سابور فقتل ساطرون واستباح الحضر وخربه ، وسار بها معه فتزوجها . فبينا هى نائمة على فراشها ليلا إذ جعلت تململ لا تنام ، فدعا لها بالشمع ، ففتش فراشها فوجد عليه ورقة آس ؛ فقال لها سابور : أهذا الذى أسهرك ؟ قالت نعم ! قال فما كان أبوك يصنع بك؟ قالت : كان يفرش لى الديباج ويلبسنى الحرير ، ويطعمنى المخ ويسقينى الخمر . قال : أفكان جزاء

أبيك ما صنعت به ؟ أنت إلى بذلك أسرع ، ثم أمر بها فربطت قرون رأسها بذنب فرس ، ثم ركض الفرس حتى قتلها . ففيه يقول أعشى بن قيس بن ثعلبة :

ألم تر للحَضْر إذ أهله ... بنعمى وهل خالد من نَعِم[1] ؟
أقام به شاهبور الجنو ... د حولين تضرب فيه القُدُم[2]
فلما دعا ربه دعوة ... أناب إليه فلم ينتقم
فهل زاده ربه قوة ... ومثل مجاوره لم يقم
وكان دعا قومه دعوة ... هلموا إلى أمركم قد صرم
فموتوا كراماً بأسيافكم ... أرى الموت يجشمه من جشم

وقال عدى بن زيد فى ذلك :

والحضر صابت عليه داهية ... من فوقه أيد مناكبها
ربيّة[3] لم توق والدها ... لحينها إذ أضاع راقبها
إذ غبقته صهباء صافيةً ... والخمر وهل يهيم شاربها
فأسلمت أهلها بليلتها ... تظن أن الرئيس خاطبها
فكان حظ العروس إذ جشر الصّـ ... ـبح دماء تجرى سبائبها[4]
وخُرّب الحضر واستبيح وقد ... أحرق فى خدرها مشاجبها[5]

وقال عدى بن زيد أيضاً :

أيها الشامت المعير بالده ... ر أأنت المبرء الموفور
أم لديك العهد الوثيق من الأ ... يام بل أنت جاهل مغرور
من رأيت المنون خلدن أم ... من ذا عليه من أن يضام خفير
أين كسرى كسرى الملوك أنو ... شروان أم أين قبله سابور
وبنو الأصفر الكرام ملوك ال ... روم لم يبق منهم مذكور
وأخو الحضر إذ بناه وإذ د ... لة تجبى إليه والخابور
شاده مرمراً وجلله كلـ ... ـساً فللطير فى ذراه وكور
لم يهبه ريب المنون فبا ... ن الملك عنه فبابه مهجور

---

(١) فى رواية من سلم (٢) جمع قدوم وهو معروف .
(٣) أصله : ربيئة ، وسهلت الهمز فصارت ياء (٤) جمع سبيبة : وهى كالعمامة ونحوها .
(٥) جمع مشجب ، وهو ما يعلق عليه الثياب .

وتذكررب الخورنق إذ أشرف يوماً وللهدى تفكير
سره ماله وكثرة ما يـ ـلك والبحر معرضاً والسدير
فارعوى قلبه وقال وما غبـ ـطة حى إلى الممات يصير
ثم أضحوا كأنهم ورق جـ ـف فألوت به الصبا والدبور

قلت : ورب الخورنق الذى ذكره فى شعره ـ رجل من الملوك المتقدمين . وعظه بعض علماء زمانه فى أمره الذى كان قد أسرف فيه . وعتا وتمرد فيه ، وأتبع نفسه هواها ، ولم يراقب فيها مولاها ؛ فوعظه بمن سلف قبله من الملوك والدول . وكيف بادوا ولم يبق منهم أحد ، وأنه ماصار إليه عن غيره . إلا وهو منتقل عنه إلى من بعده . فأخذته موعظته وبلغت منه كل مبلغ فارعوى لنفسه ، وفكر فى يومه وأمسه . وخاف من ضيق رمسه ، فتاب وأناب ، ونزع عما كان فيه . وترك الملك ولبس زى الفقراء ، وساح فى الفلوات وحظى بالخلوات . وخرج عما كان الناس فيه من اتباع الشهوات . وعصيان رب السموات . وقد ذكر قصته مبسوطة الشيخ الإمام ؛ موفق بن قدامة المقدسى رحمه الله فى كتاب التوابين . وكذلك أوردها بإسناد متين : الحافظ أبو القاسم السهيلى فى كتاب الروض الأنف : المرتب أحسن ترتيب وأوضح تبيين .

خـــبر ملوك الطوائف

وأما صاحب الحضر ـ وهو ساطرون ؛ فقد تقدم أنه كان مقدماً على سائر ملوك الطوائف ، وكان من زمن إسكندر بن فلبيس المقدونى اليونانى . وذلك لأنه لما غلب على ملك الفرس دارا بن دارا . وأذل مملكته وخرب بلاده . واستباح بيضة قومه ونهب حواصله ، ومزق شمل الفرس شذر مذر ـ عزم أن لايجتمع لهم بعد ذلك شمل . ولا يلتئم لهم أمر ، فجعل يقر كل ملك على طائفة من الناس فى إقليم من أقاليم الأرض ، ما بين عربها وأعاجمها . فاستمر كل ملك منهم يحمى حوزته ، ويحفظ حصته ، ويستغل محلته . فإذا هلك قام ولده من بعده أو أحد قومه فاستمر الأمر كذلك قريباً من خمسمائة سنة ، حتى كان أزدشير بن بابك من بنى ساسان بن بهمن بن أسفنديار بن بشتاسب بن لهراسب . فأعاد ملكهم إلى ما كان عليه ، ورجعت الممالك برمتها إليه . وأزال ممالك ملوك الطوائف . ولم يبق منهم تالد ولا طارف . وكان تأخر عليه حصار صاحب الحضر الذى كان أكبرهم وأشدهم وأعظمهم ؛ إذ كان رئيسهم ومقدمهم . فلما مات أزدشير تصدى له ولده سابور ، فحاصره حتى أخذه كما تقدم ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

باب ذكر بنى إسماعيل وهم عرب الحجاز
وما كان من أمور الجاهلية إلى زمان البعثة

تقدم ذكر إسماعيل نفسه ـ عليه السلام ـ مع ذكر الأنبياء ، وكيف كان من أمره حين احتمله أبوه إبراهيم الخليل ـ عليه الصلاة والسلام ـ مع أمه هاجر ، فأسكنها بوادى مكة بين جبال فاران ، حيث لا أنيس به ولا حسيس ، وكان إسماعيل رضيعاً . ثم ذهب وتركهما هنالك عن أمر الله بذلك ، ليس عند أمه سوى جراب فيه تمر ، ووكاء فيه ماء . فلما نفد ذلك أنبع الله لهاجر زمزم ، التى هى طعام طعم وشفاء سقم ، كما تقدم بيانه فى حديث ابن عباس الطويل الذى رواه البخارى رحمه الله . ثم نزلت جرهم ـ وهم طائفة من العرب العاربة من أمم العرب الأقدمين ـ عند هاجر بمكة ؛ على أن ليس لهم فى الماء شىء إلا ما يشربون منه وينتفعون به ، فاستأنست هاجر بهم ، وجعل الخليل عليه السلام يطالع أمرهم فى كل حين ؛ يقال إنه كان يركب البراق من بلاد بيت المقدس فى ذهابه وإيابه . ثم لما ترعرع الغلام وشب وبلغ مع أبيه السعى ـ كانت قصة الذبح كما تقدم بيان أن الذبيح هو إسماعيل على الصحيح . ثم لما كبر تزوج من جُرهم امرأة ، ثم فارقها وتزوج غيرها ، وتزوج بالسيدة بنت مُضاض بن عمرو الجرهمى ، وجاءته بالبنين الاثنى عشر كما تقدم ذكرهم ؛ وهم : نابت ، وقيدر ، وأدبيل ، وميشا ، ومسمع ، وماس ، ودما ، وأدد ، ووطور ، ونفيس ، وطما ، وقيدمان . هكذا ذكره محمد بن إسحاق وغيره عن كتب أهل الكتاب[1] ، وله ابنة واحدة اسمها نسمة ، وهى التى زوجها من ابن أخيه العيصو بن إسحاق بن إبراهيم ، فولد له منها الروم وفارس والأشبان أيضاً ـ فى أحد القولين .

ثم جميع عرب الحجاز على اختلاف قبائلها يرجعون فى أنسابهم إلى ولديه : نابت وقَيدَر ، وكان الرئيس بعده والقائم بالأمور ، الحاكم فى مكة والناظر فى أمر البيت وزمزم ـ نابت بن إسماعيل ، وهو ابن أخت الجرهميين . ثم تغلبت جرهم على البيت طمعاً فى بنى أختهم ، فحكموا بمكة وما والاها عوضاً عن بنى إسماعيل مدة طويلة ، فكان أول من صار إليه أمر البيت بعد نابت ـ مضاض بن عمرو بن سعد بن الرقيب بن عيبر بن نبت بن جرهم . وجرهم بن قحطان ، ويقال : جرهم بن يقطن بن عيبر بن شالخ بن أرنخشذ بن سام بن نوح الجرهمى ، وكان نازلا بأعلى مكة بقُعيقعان[2] . وكان السميدع سيد قطوراء نازلا بقومه فى أسفل مكة ، وكل منهما يعشر من مر به مجتازاً إلى مكة . ثم وقع بين جرهم

---

(١) قال ابن جرير ، وقد ينطق أسماء أولاد إسماعيل بغير الألفاظ التى ذكرت عن ابن إسحاق ، وأسماؤهم فى سفر التكوين : ينايوت ، وقيدار ، وأذبيل ، ومبسام ، ومشماع ، ودومة ، ومسا ، وحدار ، وتيما ، ويطور ، ونافيس ، وقدمة . (٢) فى القاموس ؛ قعيقعان : زرع على اثنى عشر ميلا من مكة .

وقطوراء نزاع فاقتتلوا ، فقتل السميدع ، واستوثق الأمر لمضاض وهو الحاكم بمكة والبيت ، لاينازعه فى ذلك ولد إسماعيل مع كثرتهم وشرفهم وانتشارهم بمكة وغيرها ؛ وذلك لخئولتهم له ولعظمة البيت الحرام . ثم صار الملك بعده إلى ابنه الحارث ثم إلى عمرو بن الحارث . ثم بغت جرهم بمكة وأكثرت فيها الفساد ، وألحدوا بالمسجد الحرام ؛ حتى ذكر أن رجلا منهم يقال له إساف بن بغى ، وامرأة يقال لها نائلة بنت وائل ـ اجتمعا فى الكعبة ، فكان منه إليها الفاحشة ، فمسخهما الله حجرين فنصبهما الناس قريباً من البيت ليعتبروا بهما . فلما طال المطال بعد ذلك بمدد ـ عُبدا من دون الله فى زمن خزاعة ، كما سيأتى بيانه فى موضعه ، فكانا صنمين منصوبين يقال لهما : إساف ونائلة . فلما أكثرت جرهم البغى بالبلد الحرام تمالأت عليهم خزاعة ، الذين كانوا نزلوا حول الحرم ، وكانوا من ذرية عمرو بن عامر الذى خرج من اليمن لأجل ما توقع من سيل العرم كما تقدم . وقيل إن خزاعة من بنى إسماعيل فالله أعلم .

والمقصود أنهم اجتمعوا لحربهم وآذنوهم بالحرب واقتتلوا ، واعتزل بنو إسماعيل كلا الفريقين فغلبت خزاعة وهم بنو بكر بن عبد مناة وغبشان وأجلوهم عن البيت ، فعمد عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمى ـ وهو سيدهم ـ إلى غزالى الكعبة وهما من ذهب ، وحجر الركن وهو الحجر الأسود ، وإلى سيوف محلاة وأشياء أخر فدفنها فى زمزم ، وعلم زمزم وارتحل بقومه فرجعوا إلى اليمن . وفى ذلك يقول عمرو بن الحارث بن مضاض :

وقائلة والدمع سكب مبادر ... وقد شَرِقت بالدمع منها المحاجر

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنيس ولم يَسمر بمكة سامر

فقلت لها والقلب منى كأنما ... يُلجلجه بين الجناحين طائر

بلى نحن كنا أهلها فأزالنا ... صروف الليالى والجدود العواثر

وكنا ولاة البيت من بعد نابت ... نطوف بذاك البيت والخير ظاهر

ونحن ولينا البيت من بعد نابت ... بعزّ فما يحظى لدينا المكاثر

ملكنا فعززنا فأعظم بملكنا ... فليس لحى غيرنا ثمّ فاخر

ألم تُنكحوا من خير شخص علمته ... فأبناؤه منا ونحن الأصاهر

فإن تنثنى الدنيا علينا بحالها ... فإن لها حالاً وفيها التشاجر

فأخرجنا منها المليك بقدرة ... كذلك باللناس تجرى المقادر

أقول إذا نام الخلى ولم أنم ... أذا العرش لايبعد سهيل وعامر

وبدلت منها أوجهاً لا أحبها ... قبائل منها حمير ويحابر

وصرنا أحاديثاً وكنا بغبطة بذلك عضتنا السنون الغوابر
فسحت دموع العين تبكى لبلدة بها حرم أمن وفيها المشاعر
وتبكى لبيت ليس يؤذى حمامه يظل به أمناً وفيـــه العصافر
وفيـه وحوش لا ترام أنيسة إذا خرجت منه فليست تغادر

قال ابن إسحاق : وقال عمرو بن الحارث بن مضاض أيضاً ـ يذكر بنى بكر وغُبشان الذين خلفوا بعدهم بمكة :

يا أيها الناس سيروا إن قَصرکم أن تصبحوا ذات يوم لاتسيرونا
حثوا المطى وأرخوا من أزمتها قبـل الممات وقضوا ما تقضونا
كنا أناساً كما كنتم فغيرنا دهر فأنتم كما صرنا تصيرونا

قال ابن هشام : هذا ما صح له منها . وحدثنى بعض أهل العلم بالشعر أن هذه الأبيات أول شعر قيل فى العرب ، وأنها وجدت مكتوبة فى حجر باليمن ولم يسم قائلها . وذكر السهيلى لهذه الأبيات إخوة ، وحكى عندها حكاية معجبة وإنشادات مغربة . قال : وزاد أبو الوليد الأزرقى فى كتابه فضائل مكة على هذه الأبيات المذكورة المنسوبة إلى عمرو بن الحارث بن مضاض :

قد مال دهر علينا ثم أهلكنا بالبغى فينا وبز الناس ناسونا
فاستخبروا فى صنيع الناس قبلكم كما استبان طريق عنـده الهونا
كنا زماناً ملوك الناس قبلكم بمسكن فى حرام الله مسكونا

قصة خزاعة ، وخبر عمرو بن لحى وعبادة الأصنام بأرض العرب

قال ابن إسحاق : ثم إن غبشان من خزاعة وليت البيت دون بنى بكر بن عبد مناة ، وكان الذى يليه منهم عمرو بن الحارث الغبشانى ، وقريش إذ ذاك حُلول وصِرم ، وبيوتات متفرقون فى قومهم من بنى كنانة . قالوا : وإنما سميت خزاعة ؛ لأنهم تخزعوا[1] من ولد عمرو بن عامر حين أقبلوا من اليمن يريدون الشام ، فنزلوا بمر الظهران فأقاموا به . قال عون بن أيوب الأنصارى ثم الخزرجى فى ذلك :

فلما هبطنا بطن مر تخزعت خزاعة منا فى حلول كراكر
حمت كل واد من تهامة واحتمت بصم القنا والمرهفات البواتر

وقال أبو المطهر إسماعيل بن رافع الأنصارى الأوسى :

فلما هبطنا بطن مكة أحمدت خزاعة دار الآكل المتحامل

(١) أى تخلفوا . والخزاعة : القطعة تقتطع من الشىء .

فحلت أكاريساً وشتت قنابلا على كل حي بين نجد وساحل
نفوا جرهماً عن بطن مكة واحتبوا بعز خزاعى شديد الكواهل

فوليت خزاعة البيت ، يتوارثون ذلك كابراً عن كابر ، حتى كان آخرهم حليل بن حبشية بن سلول ابن كعب بن عمرو بن ربيعة الخزاعى ، الذى تزوج قصى بن كلاب ابنته حبى ، فولدت له بنيه الأربعة : عبد الدار ، وعبد مناف ، وعبد العزى ، وعبدا ، ثم صار أمر البيت إليه كما سيأتى بيانه وتفصيله فى موضعه إن شاء الله تعالى وبه الثقة . واستمرت خزاعة على ولاية البيت نحواً من ثلاثمائة سنة ، وقيل خمسمائة سنة والله أعلم . وكانوا قوم سوء فى ولايتهم ، وذلك لأنه فى زمانهم كان أول عبادة الأوثان بالحجاز ، وذلك بسبب رئيسهم عمرو بن لحى لعنه الله ؛ فإنه أول من دعاهم إلى ذلك ، وكان ذا مال جزيل جداً ؛ يقال : إنه فقأ أعين عشرين بعيراً ، وذلك عبارة عن أنه ملك عشرين ألف بعير . وكان من عادة العرب أن من ملك ألف بعير فقأ عين واحد منها ؛ لأنه يدفع بذلك العين عنها ، وممن ذكر ذلك الأزرقى . وذكر السهيلى : أنه ربما ذبح أيام الحجيج عشرة آلاف بدنة ، وكسى عشرة آلاف حلة فى كل سنة ، يطعم العرب ويحيس لهم الحيس بالسمن والعسل ويلت لهم السويق . قالوا : وكان قوله وفعله فيهم كالشرع المتبع ؛ لشرفه فيهم ومحلته عندهم وكرمه عليهم .

قال ابن هشام : حدثنى بعض أهل العلم أن عمرو بن لحى خرج من مكة إلى الشام فى بعض أموره ، فلما قدم مآب من أرض البلقاء وبها يومئذ العماليق ، وهم ولد عملاق — ويقال ولد عمليق بن لاوذ بن سام ابن نوح — رآهم يعبدون الأصنام ، فقال لهم ما هذه الأصنام التى أراكم تعبدون ؟ قالوا له : هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا ونستنصرها فتنصرنا ، فقال لهم : ألا تعطوننى منها صنما فأسير به إلى أرض العرب فيعبدونه ؟ فأعطوه صنما يقال له « هُبَل » ، فقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه .

قال ابن إسحاق : ويزعمون أن أول ما كانت عبادة الحجارة فى بنى إسماعيل عليه السلام : أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم ، حين ضاقت عليهم والتمسوا الفُسَح[1] فى البلاد — إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم ، فحيثما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالكعبة حتى سلخ ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة وأعجبهم ، حتى خلفت الخلوف ونسوا ما كانوا عليه .

وفى الصحيح عن أبى رجاء العطاردى ، قال : كنا فى الجاهلية إذا لم نجد حجراً جمعنا حَثْية من التراب ، وجئنا بالشاة فحلبناها عليه ثم طفنا بها .

قال ابن إسحاق : واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام غيره ؛ فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضلالات ، وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم عليه السلام

(١) الفسح : جمع فسحة — كغرفة ، وهى السعة .

يتمسكون بها ؛ من تعظيم البيت والطواف به ، والحج والعمرة ، والوقوف على عرفات والمزدلفة ، وهدى البدن والإهلال بالحج والعمرة ، مع إدخالهم فيه ما ليس منه ؛ فكانت كنانة وقريش إذا أهلوا قالوا : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك ، إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك » فيوحدونه بالتلبية ثم يدخلون معه أصنامهم ويجعلون ملكها بيده . يقول الله تعالى لمحمد ﷺ : (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون[1]) ، أى ما يوحدوننى لمعرفة حقى إلا جعلوا معى شريكا من خلقى .

وقد ذكر السهيلى وغيره » أن أول من لبى هذه التلبية عمرو بن لحى » وأن إبليس تبدى له فى صورة شيخ ، فجعل يلقنه ذلك فيسمع منه ويقول كما يقول ، واتبعه العرب فى ذلك .

وثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ كان إذا سمعهم يقولون لبيك لاشريك لك ـ يقول : « قَدْ قَدْ » أى حسب حسب . وقد قال البخارى : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا يحيى بن آدم حدثنا إسرائيل عن أبى حصين عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « إن أول من سيب السوائب[2] وعبد الأصنام ، أبو خزاعة عمرو بن عامر ، وإنى رأيته يجر أمعاءه فى النار » . تفرد به أحمد من هذا الوجه ، وهذا يقتضى أن عمرو ابن لحى هو أبو خزاعة الذى تنسب إليه القبيلة بكمالها ، كما زعمه بعضهم من أهل النسب فيما حكاه ابن إسحاق وغيره . ولو تركنا مجرد هذا لكان ظاهراً فى ذلك بل كالنص ، ولكن قد جاء ما يخالفه من بعض الوجوه ؛ فقال البخارى : وقال أبو اليمانى : أخبرنا شعيب عن الزهرى » قال سمعت سعيد بن المسيب قال : البحيرة[3] التى يمنع درها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس » والسائبة التى كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شىء . قال وقال أبو هريرة . قال النبى ﷺ : « رأيت عمرو بن عامر الخزاعى يجر قُصْبه[4] فى النار ، كان أول من سيب السوائب » . وهكذا رواه البخارى أيضاً ومسلم من حديث صالح ابن كيسان عن الزهرى عن سعيد عن أبى هريرة به . ثم قال البخارى . ورواه ابن الهاد عن الزهرى » قال الحاكم : أراد البخارى رواه ابن الهاد عن عبد الوهاب بن بخت عن الزهرى كذا قال .

وقد رواه أحمد عن عمرو بن سلمة الخزاعى عن الليث بن سعد عن يزيد بن الهاد عن الزهرى عن سعيد عن أبى هريرة سمعت رسول الله ﷺ يقول : « رأيت عمرو بن عامر يجر قُصْبه فى النار ؛ كان أول من سيب السوائب وبحر البحيرة » . ولم يذكر بينهما عبد الوهاب بن بخت كما قال الحاكم فالله أعلم .

وقال أحمد أيضاً : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر عن الزهرى عن أبى هريرة قال » قال رسول الله ﷺ : « رأيت عمرو بن عامر الخزاعى يجر قصبه فى النار » وهو أول من سيب السوائب » . وهذا

---

(١) الآية : ١٠٦ من سورة يوسف . (٢) السائبة الناقة كانت تسيب فى الجاهلية لنذر أو غيره فلا تمنع عن ماء ولا كلأ ، ولاتركب ولا يحمل عليها . (٣) قال فى القاموس : البحر : شق الأذن ومنه البحيرة » كانوا إذا نتجت الناقة أو الشاة عشرة أبطن ـ بحروها وتركوها ترعى ، وحرموا لحمها إذا ماتت على نسائهم وأكلها الرجال .
(٤) القصب : المصر والمعى .

منقطع من هذا الوجه . والصحيح الزهرى عن سعيد عنه كما تقدم . وقوله فى هذا الحديث والذى قبله — الخزاعى — يدل على أنه ليس والد القبيلة ، بل منتسب إليها ، وما وقع فى الرواية من قوله أبو خزاعة — تصحيف من الراوى ، من أخو خزاعة ، أو أنه كان يكنى بأبى خزاعة ، ولا يكون ذلك من باب الإخبار بأنه أبو خزاعة كلهم . والله أعلم .

وقال محمد بن إسحاق : حدثنى محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمى أن أبا صالح السمان حدثه أنه سمع أبا هريرة يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول لأكثم بن الجون الخزاعى : « يا أكثم ! رأيت عمرو ابن لحى بن قمعة بن خندف يجر قصبه فى النار ، فما رأيت رجلا أشبه برجل منك به ، ولا بك منه » . فقال أكثم : عسى أن يضرنى شبهه يارسول الله ! قال : « لا — إنك مؤمن وهو كافر ؛ إنه كان أول من غير دين إسماعيل فنصب الأوثان وبحر البحيرة ، وسيب السائبة ووصل الوصيلة وحمى الحامى » . ليس فى الكتب من هذا الوجه . وقد رواه ابن جرير عن هناد بن عبدة عن محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة عن النبى ﷺ بنحوه أو مثله ، وليس فى الكتب أيضاً . وقال البخارى : حدثنى محمد بن أبى يعقوب أبو عبد الله الكرمانى ، حدثنا حسان بن إبراهيم ، حدثنا يونس عن الزهرى عن عروة عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « رأيت جهنم يحطم بعضها بعضاً ، ورأيت عمراً يجر قصبه ، وهو أول من سيب السوائب » . تفرد به البخارى . وروى الطبرانى من طريق صالح عن ابن عباس مرفوعاً فى ذلك .

والمقصود أن عمرو بن لحى لعنه الله كان قد ابتدع لهم أشياء فى الدين ؛ غير بها دين الخليل ، فاتبعه العرب فى ذلك فضلوا بذلك ضلالا بعيداً بيناً فظيعاً شنيعاً . وقد أنكر الله تعالى عليهم فى كتابه العزيز فى غير ما آية منه فقال تعالى : (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب . . . الآية[1]) ، وقال تعالى : (ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون[2]) وقد تكلمنا على هذا كله مبسوطاً ، وبينا اختلاف السلف فى تفسير ذلك ؛ فمن أراده فليأخذه من ثم ولله الحمد والمنة . وقال تعالى : (ويجعلون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقناهم تالله لتسئلن عما كنتم تفترون[3]) . وقال تعالى : (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون ☆ وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ، ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون ☆ وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم ، وأنعام حرمت ظهورها ، وأنعام لا يذكرون اسم الله

---

(١) الآية : ١١٦ من سورة النحل (٢) الآية : ١٠٣ من سورة المائدة .

(٣) الآية : ٥٦ من سورة النحل .

عليها افتراء عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون * وقالوا مافى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ، وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء ، سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم * قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرموا مارزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين[١]) .

باب جهل العرب

قال البخارى فى صحيحه : حدثنا أبو النعمان ، حدثنا أبوعوانة عن أبى بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة فى سورة الأنعام : (قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين) . وقد ذكرنا تفسير هذه الآية ، وما كانوا ابتدعوه من الشرائع الباطلة الفاسدة التى ظنها كبيرهم عمرو بن لحى ـ قبحه الله ـ مصلحة ورحمة بالدواب والبهائم ، وهو كاذب مفتر فى ذلك ، ومع هذا الجهل والضلال اتبعه هؤلاء الجهلة الطغام فيه ، بل قد تابعوه فيما هو أطم من ذلك وأعظم بكثير؛ وهو عبادة الأوثان مع الله عز وجل . وبدلوا ما كان الله بعث به إبراهيم خليله من الدين القويم والصراط المستقيم ؛ من توحيد عبادة الله وحده لا شريك له ، وتحريم الشرك . وغيروا شعائر الحج ومعالم الدين بغير علم ولا برهان ، ولا دليل صحيح ولا ضعيف . واتبعوا فى ذلك من كان قبلهم من الأمم المشركين ، وشابهوا قوم نوح . وكانوا أول من أشرك بالله وعبد الأصنام ؛ ولهذا بعث الله إليهم نوحاً ، وكان أول رسول بعث ونهى عن عبادة الأصنام كما تقدم بيانه فى قصة نوح : (وقالوا لاتذرن آلهتكم ولاتذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً * وقد أضلوا كثيراً . . . الآية) قال ابن عباس : كان هؤلاء قوماً صالحين فى قوم نوح ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ، فلما طال عليهم الأمد عبدوهم : وقد بينا كيفية ما كان من أمرهم فى عبادتهم بما أغنى عن إعادته ههنا .

قال ابن إسحاق وغيره : ثم صارت هذه الأصنام فى العرب بعد تبديلهم دين إسماعيل ؛ فكان « ود » لبنى كلب بن مرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة ، وكان منصوباً بدومة الجندل[٢] . وكان « سواع » لبنى هذيل بن إلياس بن مدركة بن مضر ، وكان منصوباً بمكان يقال له رهاط[٣] . وكان « يغوث » لبنى أنعُم من طىء ولأهل جُرَش[٤] من مذحج ، وكان منصوباً بجرش . وكان « يعوق » منصوباً بأرض همدان من اليمن لبنى خيوان بطن من همدان . وكان « نسر » منصوباً بأرض حمير لقبيلة يقال لهم : ذو الكلاع .

(١) الآيات : ١٣٦ ـ ١٤٠ من سورة الأنعام .
(٢) دومة الجندل ـ بفتح الدال وضمها : بلدة فى وادى القرى فى الشمال الشرقى من المدينة المنورة قريبة منها .
(٣) رهاط ـ كغراب : موضع على ثلاث ليال من مكة . (٤) جرش ـ كزفر : مخلاف باليمن .

قال ابن إسحاق: وكان لخولان بأرضهم صنم يقال له «عم أنس»[1] يقسمون له من أنعامهم وحروثهم قسما بينه وبين الله - فيما يزعمون ، فما دخل فى حق «عم أنس» من حق الله الذى قسموه له - تركوه له ، وما دخل فى حق الله من حق «عم أنس» - ردوه عليه . وفيهم أنزل الله : (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً) . قال : وكان لبنى مِلكان بن كنانة بن خزيمة بن مدركة صنم يقال له «سعد» : صخرة بفلاة من أرضهم طويلة ، فأقبل رجل منهم بإبل له مؤبَّلة[2] ليقفها عليه التماس بركته - فيما يزعم ، فلما رأته الإبل وكانت مرعية لا تركب ، وكان الصنم يهراق عليه الدماء - نفرت منه ، فذهبت فى كل وجه ، فغضب ربها وأخذ حجراً فرماه به ، ثم قال : لا بارك الله فيك ، نفرت علىّ إبلى . ثم خرج فى طلبها فلما اجتمعت له قال :

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا ... فشتتنا سعد فلا نحن من سعد
وهل سعد إلا صخرة بتنوفة[3] ... من الأرض لا يدعو لغى ولا رشد ؟

قال ابن إسحاق : وكان فى دوس صنم لعمرو بن حممة الدوسى . قال : وكانت قريش قد اتخذت صنما على بئر فى جوف الكعبة يقال له « هُبَل » وقد تقدم فيما ذكره ابن هشام : أنه أول صنم نصبه عمرو بن لحى ، لعنه الله .

قال ابن إسحاق : واتخذوا « إسافًا » و « نائلة » على موضع زمزم ينحرون عندها ، ثم ذكر أنهما كانا رجلا وامرأة ، فوقع عليها فى الكعبة فمسخهما الله حجرين . ثم قال : حدثنى عبد الله بن أبى بكر ابن محمد بن عمرو بن حزم عن عمرة أنها قالت : سمعت عائشة تقول : ما زلنا نسمع أن إسافًا ونائلة كانا رجلا وامرأة من جرهم أحدثا[4] فى الكعبة فمسخهما الله عز وجل حجرين ، والله أعلم . وقد قيل : إن الله لم يمهلهما حتى فجرا فيها ، بل مسخهما قبل ذلك ، فعند ذلك نصبا عند الصفا والمروة ، فلما كان عمرو بن لحى نقلهما فوضعهما على زمزم ، وطاف الناس بهما . وفى ذلك يقول أبو طالب :

وحيث ينيخ الأشعرون ركابهم ... بمفضى السيول من إساف ونائل[5]

وقد ذكر الواقدى : أن رسول الله ﷺ لما أمر بكسر نائلة يوم الفتح ، خرجت منها سوداء شمطاء تخمش وجهها وتدعو بالويل والثبور . وقد ذكر السهيلى : أن « أجا » و« سلمى » — وهما جبلان بأرض الحجاز — إنما سميا باسم رجل اسمه «أجا» بن عبد الحى ، فجر بسلمى بنت حام ، فصلبا فى هذين الجبلين فعرفا بهما . قال : وكان بين أجا وسلمى صنم لطى يقال له : « فِلْس » .

---

(١) وقيل : « عميانس » (٢) مؤبلة - كمعظة : متخذة للقنية (٣) أى مفازة . (٤) أى فجرا وزنيا .
(٥) هذا البيت من قصيدة طويلة تزيد أبياتها على التسعين ، قالها أبو طالب يتودد فيها أشراف قومه ومطلعها :

ولما رأيت القوم لا ود فيهم ... وقد قطعوا كل العرى والوسائل

قال ابن إسحاق : واتخذ أهل كل دار فى دارهم صنما يعبدونه ، فإذا أراد الرجل منهم سفراً تمسح به حين يركب ، فكان ذلك آخر ما يصنع حين يتوجه إلى سفره . وإذا قدم من سفره تمسح به ، فكان ذلك أول ما يبدأ به قبل أن يدخل على أهله . قال فلما بعث الله محمداً ﷺ بالتوحيد ـ قالت قريش : (أجَعَلَ الآلهة إلهـاً واحداً إن هذا لشىء عجاب) « الآية : ٥ من سورة ص » .

قال ابن إسحاق : وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت ـ وهى بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة ؛ لها سدنة وحجاب ، وتهدى لها كما تهدى للكعبة ، وتطوف بها كطوافها بها وتنحر عندها . وهى مع ذلك تعرف فضل الكعبة عليها ؛ لأنها بناء إبراهيم الخليل عليه السلام ومسجده . وكانت لقريش وبنى كنانة ـ « العزى » بنخلة ، وكانت سدنتها وحجابها بنى شيبان من سليم حلفاء بنى هاشم ، وقد خربها خالد بن الوليد زمن الفتح كما سيأتى . قال ، وكانت « اللاّت » لثقيف بالطائف ، وكانت سدنتها وحجابها بنى معتّب من ثقيف ، وخربها أبو سفيان والمغيرة بن شعبة بعد مجىء أهل الطائف كما سيأتى . قال : وكانت « مَناة » للأوس والخزرج ومن دان بدينهم من أهل المدينة على ساحل البحر من ناحية المشلّل بقديد ، وقد خربها أبو سفيان أيضاً ، وقيل على بن أبى طالب كما سيأتى . قال : وكان « ذو الخلصة[1] » لدوس وخثعم وبجيلة ، ومن كان ببلادهم من العرب بتبالة ، وكان يقال له الكعبة اليمانية ، ولبيت مكة الكعبة الشامية ، وقد خربه جرير بن عبد الله البجلى كما سيأتى . قال : وكان « فِلْس » لطيىء ومن يليها بجبلى طيىء بين أجا وسلمى ، وهما جبلان مشهوران كما تقدم . قال : وكان « رِآم » بيتاً لحمير وأهل اليمن كما تقدم ذكره فى قصة تبع أحد ملوك حمير ، وقصة الحبرين حين خرباه وقتلا منه كلباً أسود . قال : وكانت « رُضاً » بيتاً لبنى ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم ، ولها يقول المستوغر ـ واسمه كعب بن ربيعة بن كعب :

ولقد شددت على رُضاء شدة ... فتركتها قفراً بقاع أسحما
وأعان عبد الله فى مكروهها ... وبمثل عبد الله أغشى المحرما

ويقال إن المستوغر هذا عاش ثلاثمائة سنة وثلاثين سنة وكان أطول مضر كلها عمراً وهو الذى يقول :

ولقد سئمت من الحياة وطولها ... وعمرت من عدد السنين مئينا
مائة حدتها بعدها مائتان لى ... وازددت من عدد الشهور سنينا
هـل ما بقى إلا كما قد فاتنا ... يوم يمر وليـلة تحـدونا

قال ابن هشام : وتروى هذه الأبيات لزهير بن جناب بن هبل . قال السهيلى : ومن المعمرين

---

(١) ذو الخلصة ـ محركة وبضمتين : بيت كان يدعى الكعبة اليمانية ، وكان فيه صنم يسمى : الخلصة .

الذين جازوا المائتين والثلاثمائة ــ زهير هذا ، وعبيد بن شربة ، ودغفل بن حنظلة النسابة ، والربيع بن ضبع الفزارى ، وذو الأصبع العدوانى ، ونصر بن دهمان بن أشجع بن ريث بن غطفان ــ وكان قد اسود شعره بعد ابيضاضه وتقوم ظهره بعد اعوجاجه . قال : وكان « ذو الكعبات[1] » لبكر وتغلب ابن وائل وإياد بسنداد ، وله يقول أعشى بن قيس بن ثعلبة :

بين الخورنق والسدير وبارق ... والبيت ذو الشرفات من سنداد

وأول هذه القصيدة :

ولقد علمت وإن تطاول بى المدى ... أن السبيل سبيل ذى الأعواد
ماذا أؤمل بعد آل محرق ... تركوا منازلهم وبعد إياد
نزلوا بأنقرة يسيل عليهم ... ماء الفرات يجىء من أطواد
أرض الخورنق والسدير وبارق ... والبيت ذو الكعبات من سنداد
جرت الرياح على محل ديارهم ... فكأنما كانوا على ميعاد
وأرى النعيم وكلما يلهى به ... يوماً يصير إلى بلًى ونفاد

قال السهيلى : الخورنق : قصر بناه النعمان الأكبر لسابور ليكون ولده فيه عنده ، وبناه رجل يقال له سنمّار فى عشرين سنة ، ولم يُر بناء أعجب منه ، فخشى النعمان أن يبنى لغيره مثله ، فألقاه من أعلاه فقتله ، ففى ذلك يقول الشاعر :

جزانى جزاه الله شر جزائه ... جزاء سنمار وما كان ذا ذنب
سوى رضفه البنيان عشرين حِجة ... يعد عليه بالقرامد والسكب[2]
فلما انتهى البنيان يوماً تمامه ... وآض كمثل الطَّود والباذخ الصعب
رمى بسنمار على حق رأسه ... وذاك لعمر الله من أقبح الخطب

قال السهيلى : أنشده الجاحظ فى كتاب الحيوان ، والسنمار من أسماء القمر . والمقصود أن هذه البيوت كلها هدمت ؛ لما جاء الإسلام جهز رسول الله ﷺ إلى كل بيت من هذه ــ سرايا تخربه ، وإلى تلك الأصنام من كسرها ؛ حتى لم يبق للكعبة ما يضاهيها ، وعبد الله وحده لا شريك له كما سيأتى بيانه وتفصيله فى مواضعه إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة .

---

(١) بيت كانوا يطوفون به . (٢) القرامد — جمع قرمد . قال صاحب القاموس : القرمد : حجارة لها خروق تنضج ويبنى بها ، والخزف المطبوخ ، والآجر — كالقرميد . والسكب : النحاس أو الرصاص .

خبر عدنان جد عرب الحجاز

وهو الذى ينتهى إليه نسب النبى صلى الله عليه وسلم

لا خلاف أن عدنان من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام . واختلفوا فى عدة الآباء بينه وبين إسماعيل على أقوال كثيرة ؛ فأكثر ماقيل أربعون أباً وهو الموجود عند أهل الكتاب ؛ أخذوه من كتاب رخيا كاتب إرميا بن حلقيا على ماسنذكره ، وقيل بينهما ثلاثون ، وقيل عشرون ، وقيل خمسة عشر ، وقيل عشرة ، وقيل تسعة ، وقيل سبعة ، وقيل إن أقل ما قيل فى ذلك أربعة ؛ لما رواه موسى بن يعقوب عن عبد الله بن وهب بن زمعة الزمعى عن عمته عن أم سلمة عن النبى ﷺ أنه قال : « معد بن عدنان بن أدد بن زند بن يَرَى بن أعراق الثرى » . قالت أم سلمة : فزند هو الهميسع ، ويَرَى هو نبت ، وأعراق الثرى هو إسماعيل ؛ لأنه ابن إبراهيم ، وإبراهيم لم تأكله النار ، كما أن النار لا تأكل الثرى . قال الدارقطنى : لانعرف زنداً إلا فى هذا الحديث ، وزند بن الجون وهو أبو دلامة الشاعر .

قال الحافظ أبو القاسم السهيلى وغيره من الأئمة : مدة ما بين عدنان إلى زمن إسماعيل ـ أكثر من أن يكون بينهما أربعة أباء أو عشرة أو عشرون ؛ وذلك أن معد بن عدنان كان عمره زمن بخت نصر اثنتى عشرة سنة . وقد ذكر أبو جعفر الطبرى وغيره : أن الله تعالى أوحى فى ذلك الزمان إلى إرمياء ابن حلقيا : أن اذهب إلى بخت نصر ، فأعلمه أنى قد سلطته على العرب . وأمر الله إرميا أن يحمل معه معد بن عدنان على البراق ؛ كى لا تصيبه النقمة فيهم ؛ فإنى مستخرج من صلبه نبياً كريماً أختم به الرسل . ففعل إرميا ذلك ، واحتمل معدا على البراق إلى أرض الشام ، فنشأ مع بنى إسرائيل ممن بقى منهم بعد خراب بيت المقدس ، وتزوج هناك امرأة اسمها « معانة » بنت جوشن من بنى دب بن جرهم ، قبل أن يرجع إلى بلاده . ثم عاد بعد أن هدأت الفتن وتمحضت جزيرة العرب ، وكان رخيا كاتب إرمياء قد كتب نسبه فى كتاب عنده ؛ ليكون فى خزانة إرمياء فيحفظ نسب معد كذلك ، والله أعلم . ولهذا كره مالك رحمه الله رفع النسب إلى مابعد عدنان .

قال السهيلى : وإنما تكلمنا فى رفع هذه الأنساب على مذهب من يرى ذلك ولم يكرهه ؛ كابن إسحاق والبخارى والزبير بن بكار والطبرى وغيرهم من العلماء . وأما مالك رحمه الله فقد سئل عن الرجل يرفع نسبه إلى آدم فكره ذلك ، وقال : من أين له علم ذلك ؟ فقيل له فإلى إسماعيل ، فأنكر ذلك أيضاً وقال : ومن يخبره به ؟ وكره أيضاً أن يرفع فى نسب الأنبياء ، مثل أن يقال : إبراهيم بن فلان بن فلان ، هكذا ذكره المعيطى فى كتابه .

قال : وقول مالك هذا ـ نحو ما روى عن عروة بن الزبير أنه قال : ما وجدنا أحداً يعرف ما بين

عدنان وإسماعيل . وعن ابن عباس أنه قال : بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أباً لا يعرفون . وروى عن ابن عباس أيضاً أنه كان إذا بلغ عدنان يقول : كذب النسابون مرتين أو ثلاثاً ، والأصح عن ابن مسعود مثله . وقال عمر بن الخطاب : إنما تنسب إلى عدنان . وقال أبو عمر بن عبد البر فى كتابه [الإنباه فى معرفة قبائل الرواه] : روى ابن لهيعة عن أبى الأسود ، أنه سمع عروة بن الزبير يقول : ماوجدنا أحداً يعرف ما وراء عدنان ولا ما وراء قحطان إلا تخرصاً . وقال أبو الأسود : سمعت أبا بكر بن سليمان بن ابن أبى خيثمة ـ وكان من أعلم قريش بأشعارهم وأنسابهم ـ يقول : ماوجدنا أحداً يعرف ما وراء معد ابن عدنان فى شعر شاعر ولا علم عالم .

قال أبو عمر : وكان قوم من السلف ؛ منهم عبد الله بن مسعود ، وعمرو بن ميمون الأزدى ومحمد ابن كعب القرظى إذا تلوا : (والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله[1]) ـ قالوا : كذب النسابون .

قال أبو عمر رحمه الله : والمعنى عندنا فى هذا غير ماذهبوا ـ والمراد أن من ادعى إحصاء بنى آدم ؛ فإنهم لايعلمهم إلا الله الذى خلقهم . وأما أنساب العرب فإن أهل العلم بأيامها وأنسابها ـ قد وعوا وحفظوا جماهيرها وأمهات قبائلها ، واختلفوا فى بعض فروع ذلك .

قال أبو عمر : والذى عليه أئمة هـذا الشأن فى نسب عدنان قالوا : عدنان بن أدد بن مقوم بن ناحور بن تيرح بن يعرب بن يشجب بن نابت بن إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام ، وهكذا ذكره محمد بن إسحاق بن يسار فى السيرة .

قال ابن هشام : ويقال عدنان بن أد ـ يعنى عدنان بن أد بن أدد . ثم ساق أبو عمر بقية النسب إلى آدم كما قدمناه فى قصة الخليل عليه السلام . وأما الأنساب إلى عدنان من سائر قبائل العرب فمحفوظة شهيرة جداً ، لايتمارى فيها اثنان . والنسب النبوى إليه أظهر وأوضح من فلق الصبح ، وقد ورد حديث مرفوع بالنص عليه ، كما سنورده فى موضعه بعد الكلام على قبائل العرب وذكر أنسابها ، وانتظامها فى سلك النسب الشريف . والأصل المنيف إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة وعليه التكلان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم . وما أحسن مانظم النسب النبوى الإمام أبو العباس عبد الله بن محمد الناشىء فى قصيدته المشهورة المنسوبة إليه وهى قوله :

مدحت رسول الله أبغى بمدحه	وفور حظوظى من كريم المآرب
مدحت امرأً فاق المديح موحداً	بأوصافه عن مبعد ومقارب
نبياً تسامى فى المشارق نوره	فلاحت هواديه[2] لأهل المغارب

---

(١) من الآية : ٩ من سورة إبراهيم . (٢) جمع هدى وهو : الطريقة والسيرة .

أتتنا به الأنباء قبل مجيئه — وشاعت به الأخبار فى كل جانب
وأصبحت الكهان تهتف باسمه — وتنفى به رجم الظنون الكواذب
وأنطقت الأصنام نطقاً تبرأت — إلى الله فيه من مقال الأكاذب
وقالت لأهل الكفر قولاً مبيناً — أتاك نبى من لؤى بن غالب
ورام استراق السمع جن فزيلت — مقاعدهم منها رجوم الكواكب
هدانا إلى مالم نكن نهتدى له — لطول العمى من واضحات المذاهب
وجاء بآيات تبين أنها — دلائل جبار مثيب معاقب
فمنها انشقاق البدر حين تممت — شعوب الضيا منه رءوس الأخاشب[1]
ومنها نبوع الماء بين بنانه — وقد عدم الورَّاد قرب المشارب
فروى به جماً غفيراً وأسهلت — بأعناقه طوعاً أكف المذانب[2]
وبئر طغت بالماء من مس سهمه — ومن قبل لم تسمح بمذقة شارب
وضرع مرَاه[3] فاستدر ولم يكن — به درة تصغى إلى كف حالب
ونطق فصيح من ذراع مبينة — لكيد عدو للعداوة ناصب
وإخباره بالأمر من قبل كونه — وعند بواديه بما فى العواقب
ومن تلكم الآيات وحى أتى به — قريب المآتى مستجم العجائب
تقاصرت الأفكار عنه فلم يطع — بليغاً ولم يخطر على قلب خاطب
حوى كل علم واحتوى كل حكمة — وفات مرام المستمر الموارب
أتانا به لا عن روية مرتئ — ولا صحف مستمل ولا وصف كاتب
يواتيه طوراً فى إجابة سائل — وإفتاء مستفت ووعظ مخاطب
وإتيان برهان وفرض شرائع — وقص أحاديث ونص مآرب
وتصريف أمثال وتثبيت حجة — وتعريف ذى جحد وتوقيف كاذب
وفى مجمع النادى وفى حومة الوغى — وعند حدوث المعضلات الغرائب
فيأتى على ماشئت من طرقاته — قويم المعانى مستدر الضرائب
يصدق منه البعض بعضاً كأنما — يلاحظ معناه بعين المراقب
وعجز الورى عن أن يجيئوا بمثل ما — وصفناه معلوم بطول التجارب

---

(١) الأخشب : الجبل الخشن العظيم ، والأخاشب : جبال الصمان .
(٢) المذانب من الإبل : الذي يكون فى آخرا لإبل . (٣) مري الناقة : مسح ضرعها فدر لبنها .

تأبى بعبد الله أكرم والد تبلج منه عن كريم المناسب
وشيبة ذى الحمد الذى فخرت به قريش على أهل العلى والمناصب
ومن كان يستسقى الغمام بوجهه ويصدر عن آرائه فى النوائب
وهاشم البانى مشيد افتخاره بغر المساعى وامتنان المواهب
وعبد مناف وهو علّم قومه اشـ تطاط الأمانى واحتكام الرغائب
وإن قُصيًّا من كريم غراسه لفى منهل لم يدن من كف قاضب
به جمع الله القبائل بعدما تقسمها نهب الأكف السوالب
وحل كلاب من ذرى المجد معقلا تقاصر عنه كل دان وغائب
ومرة لم يحلل مريرة عزمه سفاه سفيه أو محوبة حائب
وكعب علا عن طالب المجد كعبه فنال بأدنى السعى أعلا المراتب
وألوى لؤى بالعداة فطوعت له همم الشم الأنوف الأغالب
وفى غالب بأس أبى البأس دونهم يدافع عنهم كل قرن مغالب
وكانت لفهر فى قريش خطابة يعوذ بها عند اشتجار المخاطب
وما زال منهم مالك خير مالك وأكرم مصحوب وأكرم صاحب
وللنضر طول يقصر الطرف دونه بحيث التقى ضوء النجوم الثواقب
لعمرى لقد أبدى كنانة قبله محاسن تأبى أن تطوع لغالب
ومن قبله أبقى خزيمة حمده تليد تراث عن حميد الأقارب
ومدركة لم يدرك الناس مثله أعف وأعلى عن دنى المكاسب
وإلياس كان اليأس منه مقارنًا لأعدائه قبل اعتداد الكتائب
وفى مضر يستجمع الفخر كله إذا اعتركت يومًا زحوف المقانب
وحل نزار من رياسة أهله محلا تسامى عن عيون الرواقب
وكان معدٌّ عدة لوليه إذا خاف من كيد العدو المحارب
وما زال عدنان إذا عد فضله توحد فيه عن قرين وصاحب
وأد تأدى الفضل منه بغاية وإرث حواه عن قروم أشايب
وفى أدد حلم تزين بالحجا إذا الحلم أزهاه قطوب الحواجب
وما زال يستعلى هميسع بالعلى ويتبع آمال البعيد المراغب
ونبت بنبته دوحة العز وابتنى معاقله فى مشمخر الأهاضب

وحيزت لقيذار سماحة حاتم — وحكمة لقمان وهمة حاجب
هموا نسل إسماعيل صادق وعده — فما بعده فى الفخر مسعى لذاهب
وكان خليل الله أكرم من عنت — له الأرض من ماش عليها وراكب
وتارح ما زالت له أريحية — تبين منه عن حميد المضارب
وناحور نحار العدى حفظت له — مآثر لما يحصها عد حاسب
وأشرع فى الهجاء ضيغم غابة — يقد الطلى بالمرهفات القواضب
وأرغو ناب فى الحروف محكم — ضنين على نفس المشح المغالب
وما فالغ فى فضله تلو قومه — ولا عابر من دونهم فى المراتب
وشالخ وأرنخشذ وسام سمت بهم — سجايا حمتهم كل زار وعائب
ومازال نوح عندذى العرش فاضلا — يعدده فى المصطفين الأطايب
ولمك أبوه كان فى الروع رائعاً — جريئاً على نفس الكمى المضارب
ومن قبل لمك لم يزل متوشلخ — يذود العدى بالذائدات الشوازب
وكانت لإدريس النبى منازل — من الله لم تقرن بهمة راغب
ويارد بحر عند آل سراته — أبى الخزايا مستدق المآرب
وكانت لمهلاييل فهم فضائل — مهذبة من فاحشات المثالب
وقينان من قبل اقتنى مجد قومه — وفاد بشأو الفضل وخد الركائب
وكان أنوش ناش للمجد نفسه — ونزهها عن مرديات المطالب
وما زال شيث بالفضائل فاضلا — شريفاً بريئاً من ذميم المعائب
وكلهم من نور آدم اقتبسوا — وعن عوده أجنوا ثمار المناقب
وكان رسول الله أكرم منجب — جرى فى ظهور الطيبين المناجب
مقابلة آباؤه أمهاته — مبرأة من فاضحات المثالب
عليه سلام الله فى كل شارق — ألاح لنا ضوءاً وفى كل غارب

هكذا أورد القصيدة الشيخ أبو عمر بن عبد البر ، وشيخنا الحافظ أبو الحجاج المزى فى تهذيبه ، من شعر الأستاذ أبى العباس عبد الله بن محمد الناشىء المعروف بابن شرشير . أصله من الأنبار ، ورد بغداد ثم ارتحل إلى مصر فأقام بها حتى مات سنة ثلاث وتسعين ومائتين ، وكان متكلماً معتزلياً يحكى عنه الشيخ أبو الحسن الأشعرى ، فى كتابه المقالات فيما يحكى عن المعتزلة ، وكان شاعراً مطبقاً حتى إن من

جملة اقتداره على الشعر كان يعاكس الشعراء فى المعانى ، فينظم فى مخالفتهم ويبتكر مالا يطيقونه من المعانى البديعة ، والألفاظ البليغة ، حتى نسبه بعضهم إلى التهوس والاختلاط . وذكر الخطيب البغدادى أن له قصيدة على قافية واحدة قريباً من أربعة آلاف بيت ، ذكرها الناجم وأرخ وفاته كما ذكرنا .

قلت : وهـذه القصيدة تدل على فضيلته وبراعته ، وفصاحته وبلاغته وعلمه وفهمه ، وحفظه وحسن لفظه ، واطلاعه واضطلاعه ، واقتداره على نظم هذا النسب الشريف فى سلك شعره ، وغوصه على هذه المعانى التى هى جواهر نفيسة من قاموس بحره ، فرحمه الله وأثابه ، وأحسن مصيره وإيابه .

ذكر أصول أنساب قبائل عرب الحجاز إلى عدنان

وذلك لأن عدنان ولد له ولدان : معد ، وعك . قال السهيلى : ولعدنان أيضاً ابن اسمه الحارث ، وآخر يقال له المذهب ، قال : وقد ذكر أيضاً فى بنيه ـ الضحاك . وقيل إن الضحاك ابن لمعد لا ابن عدنان . قال وقيل : إن عدن الذى تعرف به مدينة عدن ، وكذلك أبين ـ كانا ابنين لعدنان ، حكاه الطبرى . فتزوج عك فى الأشعريين وسكن فى بلادهم من اليمن ، فصارت لغتهم واحدة ، فزعم بعض أهل اليمن أنهم منهم ، فيقولون : عك بن عدنان بن عبد الله بن الأزد بن يغوث ، ويقال عك بن عدنان بن الذيب بن عبد الله بن الأسد ، ويقال الديث بدل الذيب ، والصحيح ماذكرنا من أنهم من عدنان . قال عباس بن مرداس :

وعك بن عدنان الذين تلقبوا بغسان حتى طردوا كل مطرد(١)

وأما معد ، فولد له أربعة : نزار وقضاعة وقُنص وإياد ، وكان قضاعة بكره ، وبه كان يكنى ، وقد قدمنا الخلاف فى قضاعة ، ولكن هذا هو الصحيح عند ابن إسحاق وغيره ، والله أعلم .

وأما قنص ، فيقال إنهم هلكوا ولم يبق لهم بقية ، إلا أن النعمان بن المنذر الذى كان نائباً لكسرى على الحيرة ـ كان من سلالته ، على قول طائفة من السلف ، وقيل بل كان من حمير كما تقدم ، والله أعلم .

وأما نزار ؛ فولد له ربيعة ومضر وأنمار ، قال ابن هشام : وإياد بن نزار كما قال الشاعر :

وفُتوّ حسن أوجههم من إياد بن نزار بن معد

قال : وإياد ومضر شقيقان ، أمهما سَودة بنت عكّ بن عدنان ، وأم ربيعة وأنمار شقيقة بنت عك ابن عدنان(٢) ، ويقال جمعة بنت عك بن عدنان ، قال ابن إسحاق : فأما أنمار فهو والد خثعم وبجيلة قبيلة جرير بن عبد الله البجلى ، قال : وقد تيامنت فلحقت باليمن قال ابن هشام : وأهل اليمن يقولون

---

(١) هذا البيت من قصيدة له يفخر فيها بعك . (٢) قال الطبرى : اسمها ـ جداله بنت وعلان من جرهم .

أنمار بن أراش بن لحيان بن عمرو بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ . قلت والحديث المتقدم فى ذكر سبأ يدل على هذا ، والله أعلم .

قالوا : وكان مضر أول من حدا ؛ وذلك لأنه كان حسن الصوت فسقط يوماً عن بعيره ، فوثبت يده فجعل يقول وايدياه ! وايدياه ! فأعنقت الإبل لذلك . قال ابن إسحاق : فولد مضر بن نزار رجلين : إلياس وعيلان . وولد لإلياس مدركة وطابخة وقَمَعَة ، وأمهم خِندف بنت عمران بن الحاف بن قضاعة .

قال ابن إسحاق : وكان اسم مدركة ـ عامراً ، واسم طابخة ـ عمراً ، ولكن اصطادا صيداً ، فبينماهما يطبخانه إذ نفرت الإبل ، فذهب عامر فى طلبها حتى أدركها . وجلس الآخر يطبخ . فلما راحا على أبيهما ذكرا له ذلك ، فقال لعامر : أنت مدركة ، وقال لعمرو : أنت طابخة . قال : وأما قمعة فيزعم نساب مضر أن خزاعة من ولد عمرو بن لحى بن قمعة بن إلياس ، قلت والأظهر أنه منهم لاوالدهم ، وأنهم من حمير كما تقدم ، والله أعلم .

قال ابن إسحاق : فولد مدكة خزيمة وهذيل ، وأمهما امرأة من قضاعة . وولد خزيمة كنانة وأسداً وأسدة والهُون . قال فولد كنانة بن خزيمة أربعة : النضر ومالك وعبد مناة وملكان ، وزاد أبو جعفر الطبرى فى أبنـــاء كنانة على هؤلاء الأربعة ـ عامراً والحارث وغنماً وسعداً وعوفاً وجَرولا والُحدال وغَزوان[1] .

الـكلام على قريش نسباً واشتقاقاً وفضلا وهم بنو النضر بن كنانة

قال ابن إسحاق : وأم النضر بَرّة بنت مُرّ بن أدّ بن طابخة ، وسائر بنيه لامرأة أخرى ، وخالفه ابن هشام ؛ فجعل بَرّة بنت مرّ ـ أم النضر ومالك وملكان ، وأم عبد مناة ـ هالة بنت سويد بن الغطريف من أزد شنوءة . قال ابن هشام : النضر هو قريش ؛ فمن كان من ولده فهو قرشى ، ومن لم يكن من ولده فليس بقرشى . وقال : ويقال فهر بن مالك هو قريش ؛ فمن كان من ولده فهو قرشى ، ومن لم يكن من ولده فليس بقرشى . وهذان القولان قد حكاهما غير واحد من أئمة النسب ؛ كالشيخ أبى عمر ابن عبد البر والزبير بن بـكار ومصعب وغير واحد . قال أبو عبيد وابن عبد البر : والذى عليه الأكثرون أنه النضر بن كنانة ؛ لحديث الأسعد بن قيس ، قلت : وهو الذى نص عليه هشام بن محمد ابن السائب الـكلبى وأبو عبيدة معمر بن المثنى ، وهو جادة مذهب الشافعى رضى الله عنه . ثم اختار أبو عمر أنه فهر بن مالك ، واحتج بأنه ليس أحد اليوم ممن ينتسب إلى قريش إلا وهو يرجع فى نسبه إلى فهر بن مالك ، ثم حكى اختيار هذا القول عن الزهير بن بكار ومصعب الزبيرى وعلى بن كيسان .

---

(١) وكذلك زاد الطبرى : مخرمة وعمرو ، وهؤلاء إخوة النضر لأبيه وأمه ـ ماعدا عبد مناة فإنه أخوهم من أبيهم .

قال وإليهم المرجع فى هذا الشأن : وقد قال الزبير بن بكار : وقد أجمع نساب قريش وغيرهم على أن قريشاً إنما تفرقت من فهر بن مالك . والذى عليه من أدركت من نساب قريش : أن ولد فهر بن مالك قرشى ، وأن من جاوز فهر بن مالك بنسبه فليس من قريش ، ثم نصر هذا القول نصراً عزيزاً وتحامى له بأنه ونحوه أعلم بأنساب قومهم وأحفظ لمآثرهم . وقد روى البخارى من حديث كليب بن وائل قال : قلت لربيبة النبى ﷺ – يعنى زينب – فى حديث ذكره : أخبرينى عن النبى ﷺ أكان من مضر ؟ قالت فممن كان إلا من مضر من بنى النضر بن كنانة ؟ . وقال الطبرانى : حدثنا إبراهيم بن نائلة الأصبهانى ، حدثنا إسماعيل بن عمرو البجلى ، ثنا الحسن بن صالح عن أبيه عن جفشيش الكندى قال : جاء قوم من كندة إلى رسول الله ﷺ فقالوا أنت منا وادعوه ، فقالا : « لا – نحن بنو النضر بن كنانة ، لا نقفو أمنا ولا ننتفى من أبينا » .

وقال الإمام أبو عثمان سعيد بن يحيى بن سعيد : حدثنا أبى ثنا الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال جاء رجل من كندة يقال له جفشيش إلى النبى ﷺ فقال يا رسول الله ! إنا نزعم أن عبد مناف منا ، فأعرض عنه ، ثم عاد فقال مثل ذلك ، فأعرض عنه ، ثم عاد فقال مثل ذلك ، فقال النبى ﷺ : « نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفو أمنا ولا ننتفى من أبينا » ، فقال الأشعث : ألا كنت سكت من المرة الأولى ؟ فأبطل ذلك قولهم على لسان نبيه ﷺ ، وهذا غريب أيضاً من هذا الوجه – والكلبى ضعيف – والله أعلم .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا بهز وعفان قالا : ثنا حماد بن سلمة ، قال حدثنى عقيل بن أبى طلحة وقال عفان عقيل بن طلحة السلمى عن مسلم بن الهيصم عن الأشعث بن قيس ، أنه قال : أتيت رسول الله ﷺ فى وفد كندة – قال عفان – لا يرونى أفضلهم ، قال : فقلت يارسول الله ! إنا نزعم أنكم منا ، قال : فقال رسول الله ﷺ : « نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفو أمنا ولا ننتفى من أبينا » . قال فقال الأشعث بن قيس : فوالله لا أسمع أحداً نفى قريشاً من النضر بن كنانة إلا جلدته الحد . وهكذا رواه ابن ماجة من طرق عن حماد بن سلمة به ، وهذا إسناد جيد قوى ، وهو فيصل فى هذه المسألة فلا التفات إلى قول من خالفه والله أعلم ولله الحمد والمنة . وقد قال جرير بن عطية التميمى يمدح هشام بن عبد الملك بن مروان :

فما الأم التى ولدت قريشاً ... بمُقْرِفَة النجار[1] ولا عقيم

وما قرم بأنجب من أبيكم ... ولا خال بأكرم من تميم

قال ابن هشام : يعنى أم النضر بن كنانة ، وهى بَرّة بنت مرة أخت تميم بن مر .

---

(١) المقرف : الذى أمه عربية وأبوه ليس بعربى ، والنجار : الأصل — كالنجر .

وأما اشتقاق قريش فقيل من التقرش وهو التجمع بعد التفرق ، وذلك فى زمن قصى بن كلاب ، فإنهم كانوا متفرقين فجمعهم بالحرم كما سيأتى بيانه . وقد قال حُذافة بن غانم العدوى :

أبوكم قصى كان يُدعى مُجمِّعاً　　به جمع الله القبائل من فِهر

وقال بعضهم : كان قصى يقال له قريش ؛ قيل من التجمع ، والتقرش التجمع ، كما قال أبو خلدة اليشكرى :

إخوة قرشوا الذنوب علينا　　فى حديث من دهرنا وقديم

وقيل سميت قريش ؛ من التقرش وهو التكسب والتجارة ، حكاه ابن هشام رحمه الله .

وقال الجوهرى : القرش ـ الكسب والجمع ، وقد قرش يقرش ، قال الفراء : و به سميت قريش وهى قبيلة وأبوهم النضر بن كنانة ، فكل من كان من ولده فهو قرشى دون ولد كنانة فما فوقه . وقيل من التقريش ؛ قال هشام بن الكلبى : كان النضر بن كنانة يُسمى قريشاً ؛ لأنه كان يقرش عن خَلة الناس وحاجتهم فيسدها بماله ، والتقريش هو التفتيش ، وكان بنوه يقرشون أهل الموسم عن الحاجة فيرفدونهم بما يبلغهم بلادهم ، فسموا بذلك من فعلهم وقرشهم ـ قريشاً ، وقد قال الحارث بن حِلزة فى بيان أن التقرش ـ التفتيش :

أيها الناطق المقرِّش عنا　　عند عمرو فهل له إبقاء[1] ؟

حكى ذلك الزبير بن بكار ، وقيل قريش تصغير قرش ، وهو دابة فى البحر . قال بعض الشعراء :

وقريش هى التى تسكن البحـ　　ـر بها سميت قريش قُرَيشا

قال البيهقى : أخبرنا أبو نصر بن قتادة ، أنبأنا أبو الحسن على بن عيسى المالينى ، حدثنا محمد بن الحسن ابن الخليل النسوى ـ أن أبا كريب حدثهم ، حدثنا وكيع بن الجراح عن هشام بن عروة عن أبيه عن أبى ركانة العامرى ، أن معاوية قال لابن عباس : فلم سميت قريش قريشاً ؟ فقال : لدابة تكون فى البحر هى أعظم دوابه ، يقال لها القرش ؛ لاتمر بشىء من الغث والسمين إلا أكلته ، قال فأنشدنى فى ذلك شيئاً ، فأنشده شعر الجمحى إذ يقول :

وقريش هى التى تسكن البحـ　　ـر بها سميت قريش قريشا

تأكل الغث والسمين ولا　　تتركنْ لذى الجناحين ريشا

هكذا فى البلاد حىّ قريش　　يأكلون البلاد أكلا كميشا[2]

ولهم آخر الزمان نبى　　يكثر القتل فيهم والخموشا

وقيل سموا بقريش بن الحارث بن مخلد بن النضر بن كنانة ، وكان دليل بنى النضر وصاحب

---

(١) قال فى اللسان : عداه بعن ؛ لأن فيه معنى الناقل عنا .　　(٢) أى سريعاً .

ميرثهم ، فكانت العرب تقول قد جاءت عير قريش ، قالوا : وابن بدر بن قريش — هو الذى حفر البئر المنسوبة إليه ، التى كانت عندها الوقعة العظمى يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ، والله أعلم .

ويقال فى النسبة إلى قريش قرشى وقريشى ، قال الجوهرى وهو القياس . قال الشاعر :

لكل قريشى عليه مهابة سريع إلى داعى الندا والتكرم

قال : فإذا أردت بقريش الحى صرفته ، وإن أردت القبيلة منعته ، قال الشاعر فى ترك الصرف :

وكفى قُريشَ المعضلاتِ وسادها(١)

وقد روى مسلم فى صحيحه من حديث أبى عمر والأوزاعى قال : حدثنى شداد أبو عمار ، حدثنى واثلة بن الأسقع قال قال رسول الله ﷺ : « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى هشماً من قريش ، واصطفانى من بنى هاشم » . قال أبو عمر بن عبد البر ، يقال : بنو عبد المطلب فصيلة رسول الله ﷺ ، وبنو هاشم فخذه ، وبنو عبد مناف بطنه ، وقريش عمارته ، وبنو كنانة قبيلته ، ومضر شعبه ، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين . ثم قال ابن إسحاق : فولد النضر بن كنانة — مالكا ومخلداً ، قال ابن هشام : والصلت ، وأمهم جميعاً بنت سعد بن الظرب العدوانى . قال كثير بن عبد الرحمن — وهو كُثير عزّة — أحد بنى مُلَيح بن عمرو من خزاعة :

أليس أبى بالصلت أم ليس إخوتى لكل هجان من بنى النضر أزهرا

رأيت ثياب العَصب مختلط السدى بنا وبهم والحضرمى المخصرا(٢)

فإن تكونوا من بنى النضر فاتركوا أراكاً بأذناب الفوائج أخضرا

قال ابن هشام ، وبنو مليح بن عمرو — يعزون إلى الصلت بن النضر .

قال ابن إسحاق : فولد مالك بن النضر — فهر بن مالك ، وأمه جندلة بنت الحارث بن مضاض الأصغر . وولد فهر — غالباً ومحارباً والحارث وأسداً ، وأمهم ليلى بنت سعد بن هذيل بن مدركة .

قال ابن هشام : وأختهم لأبيهم جندلة بنت فهر . قال ابن إسحاق : فولد غالب بن فهر — لؤى بن غالب وتيم بن غالب ، وهم الذين يقال لهم بنو الأدرم ، وأمهما سلمى بنت عمرو الخزاعى . قال ابن هشام : وقيس بن غالب ، وأمه سلمى بنت كعب بن عمرو الخزاعى ، وهى أم لؤى وتيم بن غالب . قال ابن إسحاق : فولد لؤى بن غالب أربعة نفر ؛ كعباً وعامراً وسامة وعوفاً . قال ابن هشام : ويقال — والحارث ، وهم جشم بن الحارث فى هزان من ربيعة ، وسعد بن لؤى وهم : بنانة فى شيبان بن ثعلبة ، وبنانة حاضنة لهم ، وخزيمة بن لؤى وهم عائذة فى شيبان بن ثعلبة .

---

(١) البيت لعدى بن الرقاع يمدح الوليد بن عبد الملك وأوله : غلب المساميح الوليد سماحة .

(٢) العصب : نوع من البرود اليمانية ، والمراد بالحضرمى المخصرا : النعال الضيقة من جانبيها .

ثم ذكر ابن إسحاق خبر سامة بن لؤى ، وأنه خرج إلى عمان فكان بها وذلك لشنآن كان بينه وبين أخيه عامر ، فأخافه عامر فخرج عنه هارباً إلى عمان ، وأنه مات بها غريباً ، وذلك أنه كان يرعى ناقته فعلقت حية بمشفرها فوقعت لشقها ، ثم نهشت الحية سامة حتى قتلته فيقال إنه كتب بأصبعه على الأرض :

عين فابكى لسامة بن لؤى ... علِقَتْ مابسامة العلّاقه[1]

لا أرى مثل سامة بن لؤى ... يوم حلّوا به قتيلا لناقه

بلغا عامراً وكعباً رسولا ... أن نفسى إليهما مشتاقه

إن تكن فى عُمان دارى فإنى ... غالبىّ خرجت من غير فاقه

رب كأس هرقت يا بن لؤى ... حذر الموت لم تكن مهراقه

رمت دفع الحتوف يا بن لؤى ... مالمن رام ذاك بالحتف طاقه

وخروس السرى تركت رذياً ... بعد جدّ وحدة ورشاقه

قال ابن هشام : وبلغنى أن بعض ولده أتى رسول الله ﷺ فانتسب إلى سامة بن لؤى ، فقال له رسول الله ﷺ : « آلشاعر » ؟ فقال له بعض أصحابه : كأنك يارسول الله أردت قوله :

ربّ كأس هرقت يا بن لؤى ... حذر الموت لم تكن مهراقة

فقال : « أجل » وذكر السهيلى عن بعضهم أنه لم يعقب . وقال الزبير : ولد أسامة بن لؤى — غالباً والنبيت والحارث ، قالوا وكانت ذرية بالعراق يبغضون علياً ، ومنهم على بن الجعد ؛ كان يشتم أباه لكونه سماه علياً . ومن بنى سامة بن لؤى — محمد بن عرعرة بن البزيد شيخ البخارى .

وقال ابن إسحاق : وأما عوف بن لؤى فإنه خرج — فيما يزعمون — فى ركب من قريش ، حتى إذا كان بأرض غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان أُبطىء به ، فانطلق من كان معه من قومه ، فأتاه ثعلبة بن سعد — وهو أخوه فى نسب بنى ذبيان — فحبسه وزوجه والتاطه[2] وآخاه ، فشاع نسبه فى بنى ذبيان . وثعلبة — فيما يزعمون — الذى يقول لعوف حِين أُبطى به فتركه قومه .

احبس علىّ ابن لؤى جَملكْ ... تركَكَ القومُ ولا مَنزِلَ لكْ

قال ابن إسحاق : وحدثنى محمد بن جعفر بن الزبير — أو محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الحصين — أن عمر بن الخطاب قال : لو كنت مدعياً حياً من العرب ، أو ملحقهم بنا — لادعيت بنى مرة بن عوف ؛ إنا لنعرف منهم الأشباه ، مع مانعرف من موقع ذلك الرجل حيث وقع — يعنى عوف بن لؤى .

قال ابن إسحاق : حدثنى من لا أتهم : أن عمر بن الخطاب قال لرجال منهم من بنى مرة : إن شئتم أن ترجعوا إلى نسبكم فارجعوا إليه . قال ابن إسحاق : وكان القوم أشرافاً فى غطفان ؛ هم سادتهم

(١) فى نسخة : ساق سامة — بدل : مابسامة (٢) التاطه : ادعاه ولداً وليس له .

وقادتهم ، قوم لهم صيت فى غطفان وقيس كلها ، فأقاموا على نسبهم . قالوا وكانوا يقولون إذا ذكر لهم نسبهم : ما ننكره وما نجحده ، وإنه لأحب النسب إلينا ، ثم ذكر أشعارهم فى انتمائهم إلى لؤى .

قال ابن إسحاق : وفيهم كان البَسْل ؛ وهو تحريم ثمانية أشهر لهم من كل سنة من بين العرب ، وكانت العرب تعرف لهم ذلك ويأمنونهم فيها ويؤمنونهم أيضاً . قلت : وكانت ربيعة ومضر إنما يحرمون أربعة أشهر من السنة وهى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، واختلفت ربيعة ومضر فى الرابع وهو رجب ؛ فقالت مضر : هو الذى بين جمادى وشعبان ، وقالت ربيعة : هو الذى بين شعبان وشوال . وقد ثبت فى الصحيحين عن أبى بكرة أن رسول الله ﷺ قال فى خطبة حجة الوداع : « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهراً ؛ منها أربعة حرم ، ثلاث متواليات : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان » ، فنص على ترجيح قول مضر لا ربيعة . وقد قال الله عز وجل : (إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض ، منها أربعة حرم[1]) . فهذا رد على بنى عوف بن لؤى فى جعلهم الأشهر الحرم ثمانية ؛ فزادوا على حكم الله وأدخلوا فيه ما ليس منه . وقوله فى الحديث : ثلاث متواليات – رد على أهل النسىء ، الذين كانوا يؤخرون تحريم المحرم إلى صفر . وقوله فيه : ورجب مضر – رد على ربيعة .

قال ابن إسحاق : فولد كعب بن لؤى ثلاثة : مرة ، وعدياً ، وهصيصاً . وولد مرة ثلاثة أيضاً : كلاب ابن مرة ، وتيم بن مرة ، ويقظة بن مرة من أمهات ثلاث . قال وولد كلاب رجلين : قصى بن كلاب ، وزهرة بن كلاب ، وأمهما فاطمة بنت سعد بن سيل – أحد الجَدَرَة من خثعمة[2] الأسد من اليمن ، حلفاء بنى الدِّيل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة . وفى أبيها يقول الشاعر :

ماترى فى الناس شخصاً واحداً   من علمناه كسعد بن سيل
فارساً أضبط[3] فيه عسرة   وإذا ماواقف القرن نزل
فارساً يستدرج الخيل كما اسـ   ـتدرج الحر القطامى الحجل

قال السهيلى : سيل – اسمه خير بن جمالة ، وهو أول من طليت له السيوف بالذهب والفضة .

قال ابن إسحاق : وإنما سموا الجدرة ؛ لأن عامر بن عمرو بن خزيمة بن خثعمة تزوج بنت الحارث ابن مضاض الجرهمى ، وكانت جرهم إذ ذاك ولاة البيت ، فبنى للكعبة جداراً فسمى عامر بذلك الجادر ، فقيل لولده الجدرة لذلك .

---

(١) الآية ٣٦ من سورة التوبة . (٢) وقيل : جعثمة.
(٣) الأضبط : الذى يعمل بكلتا يديه ؛ يعمل بيساره كما يعمل بيمينه ، ويقال له أيضاً : « أعسر يسر » .

خبر قصى بن كلاب، وما كان من أمره فى ارتجاعه ولاية البيت إلى قريش وانتزاعه ذلك من خزاعة، واجتماع قريش إلى الحرم الذى جعله الله أمناً للعباد بعد تفرقها فى البلاد، وتمزقها فى الجبال والمهاد

وذلك أنه لما مات أبوه كلاب تزوج أمه ربيعةُ بن حرام من عذرة، وخرج بها وبه إلى بلاده، ثم قدم قصى مكة وهو شاب فتزوج حُبَّى ابنة رئيس خزاعة حُلَيل بن حُبشِيَّة. فأما خزاعة فتزعم أن حليلاً أوصى إلى قصى بولاية البيت؛ لما رأى من كثرة نسله من ابنته، وقال أنت أحق بذلك منى. قال ابن إسحاق: ولم نسمع ذلك إلا منهم. وأما غيرهم فإنهم يزعمون أنه استغاث بإخوته من أمه، وكان رئيسهم رزاح بن ربيعة وأخوته وبنى كنانة وقضاعة ومن حول مكة من قريش وغيرهم، فأجلاهم عن البيت واستقل هو بولاية البيت[1]، لأن إجازة[2] الحجيج كانت إلى صوفة، وهم بنو الغوث بن مر بن أدّ بن طابخة بن إلياس بن مضر فكان الناس لا يرمون الجمار حتى يرموا، ولا ينفرون من منى حتى ينفروا، فلم يزل كذلك فيهم حتى انقرضوا فورثهم ذلك بالقُعْدَد بنو سعد بن زيد مناة بن تميم، فكان أولهم صفوان بن الحارث بن شِجنة بن عطارد بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم. وكان ذلك فى بيته حتى قام على آخرهم الإسلام — وهو كَرِب بن صفوان. وكانت الإجازة من المزدلفة فى عَدوان، حتى قام الإسلام على آخرهم — وهو أبو سيارة عُميلة بن الأعزل، وقيل اسمه العاص واسم الأعزل خالد، وكان يجيز بالناس على أتان له عوراء، مكث يدفع عليها فى الموقف أربعين سنة، وهو أول من جعل الدية مائة، وأول من كان يقول: أشرق ثبير كيما نغير؛ حكاه السهيلى.

وكان عامر بن الظرب العدوانى لا يكون بين العرب نائرة إلا تحاكموا إليه فيرضون بما يقضى به، فتحاكموا إليه مرة فى ميراث خنثى، فبات ليلته ساهراً يتروى ماذا يحكم به، فرأته جارية له كانت ترعى عليه غنمه اسمها «سُخيلة»، فقالت له مالك — لا أبالك — الليلة ساهراً؟ فذكر لها ماهو مفكر فيه، وقال: لعلها يكون عندها فى ذلك شيء فقالت: أتبع القضاء المبَال[3] فقال فرجتها والله ياسخيلة، وحكم بذلك.

قال السهيلى: وهذا الحكم من باب الاستدلال بالأمارات والعلامات. وله أصل فى الشرع، قال الله تعالى: (وجاءوا على قميصه بدم كذب) حيث لا أثر لأنياب الذئب فيه، وقال تعالى: (إن كان قميصه

---

(١) ذكر الطبرى عن ابن إسحاق: أنه لما انتشر ولد قصى وكثر ماله وعظم شرفه، وهلك حليل — رأى قصى أنه أولى بالكعبة وبأمر مكة من خزاعة وبنى بكر. فكلم رجالا من قريش وبنى كنانة، ودعاهم إلى مناصرته، وإخراج خزاعة وبنى بكر من مكة، فأجابوه إلى ماطلب، كما أجابه إلى ذلك أخوه من أمه رزاح، وإخوته لأبيه.

(٢) أى الإفاضة بهم من عرفات، وكان أحدهم يقوم فيقول: أجيزى صوفة، فإذا أجازت أذن للناس كلهم فى الإجازة.

(٣) أى اجعله تابعاً له؛ فإن بال من حيث يبول الرجل فهو رجل، وإن بال من حيث تبول المرأة فهى امرأة.

قد من قبل فصدقت وهو من الـكاذبين * وإن كان قميصه قد من دبر فـكذبت وهو من الصادقين) وفى الحديث : ـ «أنظروها فإن جاءت به أورق[١] جعداً جمالياً فهو الذى رميت به» . قال ابن إسحاق : وكان النسىء فى بنى فقيم بن عدى بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر .

قال ابن إسحاق : وكان أول من نسأ الشهور على العرب القلمّس ، وهو حذيفة بن عبد بن فُقيم بن عدى ، ثم قام بعده ابنه عباد ، ثم قلع بن عباد ، ثم أمية بن قلع ، ثم عوف بن أمية ، ثم كان آخرهم أبو ثمامة جنادة بن عوف بن قلع بن عباد بن حذيفة ـ وهو القلمّس ، فعلى أبى ثمامة قام الإسلام ، وكانت العرب إذا فرغت من حجها اجتمعت إليه فخطبهم فحرم الأشهر الحرم ، فإذا أراد أن يحل منها شيئاً أحل المحرم وجعل مكانه صفر ؛ ليواطئوا عدة ماحرم الله ، فيقول : اللهم إنى أحللت أحد الصفرين : الصفر الأول وأنسأت الآخر للعام المقبل فتتبعه العرب فى ذلك . ففى ذلك يقول عمير بن قيس أحد بنى فراس بن غنيم بن مالك بن كنانة ، ويعرف عمير بن قيس هذا ـ بجَذْل الطعان :

لقد علمت معدّ أن قومى كرامُ الناس أن لهم كرام
فأى الناس فاتونا بوتر وأى الناس لم نعلُك لجاما
ألسنا الناسئين على معد شهور الحل نجعلها حراما ؟

وكان قصى فى قومه سيداً رئيساً مطاعاً معظماً . والمقصود أنه جمع قريشاً من متفرقات مواضعهم من جزيرة العرب ، واستعان بمن أطاعه من أحياء العرب على حرب خزاعة وإجلائهم عن البيت ، وتسليمه إلى قصى ، فكان بينهم قتال كثير ، ودماء غزيرة . ثم تداعوا إلى التحكيم ، فتحا كموا إلى يعمر ابن عوف بن كعب بن عامر بن ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة ، فحكم بأن قصياً أولى بالبيت من خزاعة ، وأن كل دم أصابه قصى من خزاعة وبنى بكر موضوع ـ يشدخه تحت قدميه ، وأن ما أصابته خزاعة وبنو بكر من قريش وكنانة وقضاعة ـ ففيه الدية مؤداة ، وأن يخلى بين قصى وبين مكة والكعبة ، فسمى يعمر يومئذ : الشدّاخ[٢] .

قال ابن إسحاق : فولى قصى البيت وأمر مكة ، وجمع قومه من منازلهم إلى مكة ، وتملك على قومه وأهل مكة فملكوه ، إلا أنه أقر العرب على ما كانوا عليه ؛ لأنه كان يرى ذلك ديناً فى نفسه لاينبغى تغييره ، فأقر آل صفوان وعدوان والنسأة ومرة بن عوف ـ على ما كانوا عليه . حتى جاء الإسلام فهدم الله به ذلك كله . قال : فكان قصى أول بنى كعب أصاب ملكا أطاع له به قومه ، وكانت إليه الحجابة

(١) الأورق من الإبل : ماف لونه بياض إلى سواد ، والرماد .
(٢) وذلك لما شدخ من الدماء ـ أى أبطل ووضع منها .

والسقاية والرفادة والندوة واللواء ، لحاز شرف مكة كله ، وقطع مكة رباعاً بين قومه ، فأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة .

قلت ، فرجع الحق إلى نصابه ، ورد شارد العدل بعد إيابه ، واستقرت بقريش الدار ، وقضت من خزاعة المراد والأوطار ، وتسلمت بيتهم العتيق القديم ؛ لكن بما أحدثت خزاعة من عبادة الأوثان ونصبها إياها حول الكعبة ، ونحرهم لها وتضرعهم عندها ، واستنصارهم بها وطلبهم الرزق منها . وأنزل قصى قبائل قريش أباطح مكة ، وأنزل طائفة منهم ظواهرها ؛ فكان يقال : قريش البطاح ، وقريش الظواهر . فكانت لقصى بن كلاب جميع الرئاسة ؛ من حجابة البيت وسدانته ، واللواء . وبنى داراً لإزاحة الظلمات وفصل الخصومات ـ سماها دار الندوة ؛ إذا أعضلت قضية اجتمع الرؤساء من كل قبيلة فاشتوروا فيها وفصلوها . ولا يعقد عقد لواء ولا عقد نكاح إلا بها ، ولا تبلغ جارية أن تَدّرع[1] فتدرع إلا بها ، وكان باب هذه الدار إلى المسجد الحرام ، ثم صارت هذه الدار فيما بعد إلى حكيم بن حزام بعد بنى عبد الدار ، فباعها فى زمن معاوية بمائة ألف درهم ، فلامه على بيعها معاوية وقال : بعت شرف قومك بمائة ألف ؟ فقال إنما الشرف اليوم بالتقوى ، والله لقد ابتعتها فى الجاهلية بزق خمر ، وها أنا قد بعتها بمائة ألف ، وأشهدكم أن ثمنها صدقة فى سبيل الله ، فأينا المغبون ؟ ذكره الدارقطنى فى أسماء رجال الموطأ . وكانت إليه سقاية الحجيج ؛ فلا يشربون إلا من ماء حياضه ، وكانت زمزم إذ ذاك مطموسة من زمن جرهم ، قد تناسوا أمرها من تقادم عهدها ، ولا يهتدون إلى موضعها . قال الواقدى : وكان قصى أول من أحدث وقيد النار بالمزدلفة ؛ ليهتدى إليها من يأتى من عرفات . والرفادة ـ وهى إطعام الحجيج أيام الموسم إلى أن يخرجوا راجعين إلى بلادهم .

قال ابن إسحاق : وذلك أن قصياً فرضه عليهم فقال لهم : يا معشر قريش ! إنكم جيران الله وأهل مكة وأهل الحرم ، وإن الحجاج ضيف الله وزوار بيته ، وهم أحق بالضيافة ، فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج حتى يصدروا عنكم ـ ففعلوا ؛ فكانوا يخرجون لذلك فى كل عام من أموالهم خَرْجاً فيدفعونه إليه ، فيصنعه طعاماً للناس أيام مِنًى ، فجرى ذلك من أمره فى الجاهلية ، حتى قام الإسلام . ثم جرى فى الإسلام إلى يومك هذا ؛ فهو الطعام الذى يصنعه السلطان كل عام بمنًى للناس حتى ينقضى الحج .

قلت : ثم انقطع هذا بعد ابن إسحاق . ثم أمر بإخراج طائفة من بيت المال فيصرف فى حمل زاد وماء لأبناء السبيل القاصدين إلى الحج ، وهذا صنيع حسن من وجوه يطول ذكرها . ولكن الواجب أن يكون ذلك من خالص بيت المال من أحل ما فيه ، والأولى أن يكون من جوالى الذمة ؛ لأنهم لا يحجون البيت العتيق . وقد جاء فى الحديث : « من استطاع الحج فلم يحج فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً » . وقال قائلهم فى مدح قصى وشرفه فى قومه :

(١) ادرعت الجارية : لبست الدرع . ودرع المرأة : قميصها ، مذكر والجمع أدراع .

قصى لعمرى كان يدعى مجمعاً　　به جمع الله القبائل من فهر
هموا ملؤا البطحاء مجداً وسؤدداً　　وهم طردوا عنا غواة بنى بكر

قال ابن إسحاق : ولما فرغ قصى من حربه ، انصرف أخوه رزاح بن ربيعة إلى بلاده بمن معه وإخوته من أبيه الثلاثة ؛ وهم : حُنّ ومحمود وجُلْهمة . قال رزاح فى إجابته قصياً :

ولما أتى من قصى رسول　　فقال الرسول : أجيبوا الخليلا
نهضنا إليه نقود الجيا　　د ونطرح عنا الملول الثقيلا
نسير بها الليل حتى الصبا　　ح ونَكمى[1] النهار لئلا نزولا
فهن سراع كورد القطا　　يجبن بنا من قصى رسولا
جمعنا من السر من أشمذَين[2]　　ومن كل حى جمعنا قبيلا
فيالك حلبةَ ما ليلة　　تزيد على الألف سيباً رسيلا
فلما مررن على عسجر[3]　　وأسهلن من مستناخ سبيلا
وجاوزن بالركن من ورِقان　　وجاوزن بالعرج حياً حلولا
مررن على الحَلى ما ذقنه　　وعالجن من مرّ ليلاً طويلا
ندنى من العُوذ[4] أفلاءها　　إرادة أن يسترقن الصهيلا
فلما انتهينا إلى مكة　　أبحنا الرجال قبيلا قبيلا
نعاورهم[5] ثَمّ حد السيوف　　وفى كل أوب خلسنا العقولا
نخبّزهم[6] بصلاب النسو　　ر خَبز القوى العزيز الذليلا
قتلنا خزاعة فى دارها　　وبكراً قتلنا وجيلا فجيلا
نفيناهم من بلاد المليـ　　ـك كما لايَحُلون أرضاً سهولا
فأصبح سبيهم فى الحديد　　ومن كل حى شفينا الغليلا

قال ابن إسحاق : فلما رجع رزاح إلى بلاده نشره الله ونشر حُنّاً ، فهما قبيلا عذرة إلى اليوم .

قال ابن إسحاق : وقال قصى بن كلاب فى ذلك :

أنا ابن العاصمين بنى لؤى　　بمكة منزلى وبها ربيت
إلى البطحاء قد علمت معد　　ومَروتها رضيت بها رضيت

---

(١) نكمى : نكمن ونستتر . يقال : كمى نفسه ـ سترها بالدرع (٢) اسم لجبلين : وقيل : اسم قبيلتين .
(٣) اسم موضع (٤) العوذ : الحديثات النتاج ـ جمع عائذ . والأفلاء جمع فلو ، وهو المهر العظيم ، والبالغ سنة .
(٥) نتعاون عليهم بالضرب واحداً بعد واحد . (٦) نسوقهم سوقاً شديداً .

فلست لغالب إن لم تأثّل　　بها أولاد قيذر والنبيت

رزاح ناصرى وبه أسامى　　فلست أخاف ضيما ماحييت

وقد ذكر الأموى عن الأشرم عن أبى عبيدة عن محمد بن حفص : أن رزاحاً إنما قدم بعد مانفى قصى خزاعة ، والله أعلم .

فصـــل

ثم لما كبر قصى فوض أمر هذه الوظائف التى كانت إليه ؛ من رئاسات قريش وشرفها ؛ من الرفادة والسقاية والحجابة واللواء والندوة ــ إلى ابنه عبد الدار ، وكان أكبر ولده ، وإنما خصصه بها كلها لأن بقية إخوته : عبد مناف وعبد الشمس وعبدا ــ كانوا قد شرفوا فى زمن أبيهم ، وبلغوا فى قوتهم شرفاً كبيراً ، فأحب قصى أن يلحق بهم عبد الدار فى السؤدد فخصصه بذلك ، فكان إخوته لاينازعونه فى ذلك . فلما انقرضوا تشاجر أبناؤهم فى ذلك ، وقالوا إنما خصص قصى عبد الدار بذلك ليلحقه بإخوته فنحن نستحق ما كان آباؤنا يستحقونه . وقال بنو عبد الدار هذا أمر جعله لنا قصى ، فنحن أحق به ، واختلفوا اختلافاً كثيراً . وانقسمت بطون قريش فرقتين ؛ ففرقة بايعت عبد الدار وحالفتهم ، وفرقة بايعت بنى عبد مناف وحالفوهم على ذلك ، ووضعوا أيديهم عند الحلف فى جفنة فيها طيب ، ثم لما قاموا مسحوا أيديهم بأركان الكعبة فسموا حلف المطيَّبين [١] وكان منهم من قبائل قريش ، بنو أسد بن عبد العزى بن قصى ، وبنو زهرة ، وبنو تيم ، وبنو الحارث بن فهر . وكان مع بنى عبد الدار : بنو مخزوم وبنو سهم ، وبنو جمح ، وبنو عدى . واعتزلت بنو عامر بن لؤى ومحارب بن فهر الجميع ، فلم يكونوا مع واحد منهما . ثم اصطلحوا واتفقوا على أن تكون الرفادة والسقاية لبنى عبد مناف ، وأن تستقر الحجابة واللواء والندوة فى بنى عبد الدار ، فانبرم الأمر على ذلك واستمر .

وحكى الأموى عن الأشرم عن أبى عبيدة قال : وزعم قوم من خزاعة أن قصياً لما تزوج حبى بنت حليل ، ونقل حليل عن ولاية البيت ــ جعلها إلى ابنته حبى ، واستناب عنها أبا غُبشان سليم بن عمرو بن لؤى بن ملكان بن قصى بن حارثة بن عمرو بن عامر ، فاشترى قصى ولاية البيت منه بزق خمر وبعَود [٢] ؟ فكان يقال : أخسر من صفقة أبى غبشان . ولما رأت خزاعة ذلك اشتدوا على قصى فاستنصر أخاه فقدم بمن معه وكان ما كان . ثم فوض قصى هذه الجهات التى كانت إليه ؛ من السدانة والحجابة واللواء والندوة والرفادة والسقاية ــ إلى ابنه عبد الدار كما سيأتى تفصيله وإيضاحه . وأقر الإجازة

---

(١) وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم من المطيبين .　　(٢) العود : المسن من الإبل .

من مزدلفة فى بنى عدوان ، وأقر النسىء فى فُقيم ، وأقر الإجازة — وهى النَّفْر — فى صوفة ، كما تقدم بيان ذلك كله مما كان بأيديهم قبل ذلك .

قال ابن إسحاق : فولد قصى أربعة نفر وامرأتين : عبد مناف ، وعبد الدار ، وعبد العزى ، وعبدا ، وتخمر ، وبرة وأمهم كلهم حُبّى بنت حُليل بن حُبْشِيّة بن سلول بن كعب بن عمرو الخزاعى ، وهو آخر من ولى البيت من خزاعة ، ومن يده أخذ البيت قصى كلاب . قال ابن هشام : فولد عبد مناف بن قصى أربعة نفر : هاشماً ، وعبد شمس ، والمطلب — وأمهم عاتكة بنت مرة بن هلال ، ونوفل بن عبد مناف — وأمه واقدة بنت عمرو المازنية . قال ابن هشام : وولد لعبد مناف أيضاً : أبو عمرو ، وتماضر ، وقلابة ، وحية ، وريطة ، وأم الأخثم ، وأم سفيان .

قال ابن هشام : وولد هاشم بن عبد مناف أربعة نفر وخمس نسوة : عبد المطلب وأسداً وأبا صيفى ونضلة ، والشفا وخالدة وضعيفة ورقية وحية . فأم عبد المطلب ورقية — سلمى بنت عمرو بن زيد ابن لبيد بن خداش بن عامر بن غنم بن عدى بن النجار من المدينة ، وذكر أمهات الباقين . قال : وولد عبد المطلب عشرة نفر وست نسوة ، وهم : العباس وحمزة وعبد الله وأبو طالب — واسمه عبد مناف لا عمران ، والزبير والحارث — وكان بكر أبيه وبه كان يكنى ، وجحل — ومنهم من يقول حجل — وكان يلقب بالغيداق لكثرة خيره ، والمقوم وضرار وأبو لهب — واسمه عبد العزى ، وصفية وأم حكيم البيضاء وعاتكة وأميمة وأروى وبرة . وذكر أمهاتهم إلى أن قال : وأم عبد الله وأبى طالب والزبير وجميع النساء — إلا صفية — فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس ابن مضر بن نزار بن معد بن عدنان . قال : فولد عبد الله محمداً رسول الله ﷺ سيد ولد آدم ، وأمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى ، ثم ذكر أمهاتها فأغرق — إلى أن قال : فهو أشرف ولد آدم حسباً وأفضلهم نسباً من قبل أبيه وأمه ، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين .

وقد تقدم حديث الأوزاعى عن شداد أبى عمار عن واثلة بن الأسقع قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى هاشماً من قريش ، واصطفانى من بنى هاشم » ، رواه مسلم . وسيأتى بيان مولده الكريم وما ورد فيه من الأخبار والآثار ، وسنورد عند سرد النسب الشريف فوائد أخر ليست هاهنا إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة وعليه التكلان .

ذكر جمل من الأحداث الواقعة فى زمن الجاهلية

قد تقدم ما كان من أخذ جرهم ولاية البيت من بنى إسماعيل ؛ طمعوا فيهم لأنهم أبناء بناتهم . وما كان من توثب خزاعة على جرهم وانتزاعهم ولاية البيت منهم . ثم ما كان من رجوع ذلك إلى قصى وبنيه ، واستمرار ذلك فى أيديهم إلى أن بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم ، فأقر تلك الوظائف على ما كانت عليه .

باب ذكر جماعة مشهورين كانوا فى الجاهلية

خبر خالد بن سنان العبسى الذى كان فى زمن الفترة وقد زعم بعضهم أنه كان نبياً ، والله أعلم

قال الحافظ أبو القاسم الطبرانى : حدثنا أحمد بن زهير التسترى . حدثنا يحيى بن المعلى بن منصور الرازى ، حدثنا محمد بن الصلت ، حدثنا قيس بن الربيع عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : جاءت بنت خالد بن سنان إلى النبى ﷺ فبسط لها ثوبه وقال : « بنت نبى ضيعه قومه » . وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار عن يحيى بن المعلى بن منصور عن محمد بن الصلت عن قيس عن سالم عن سعيد عن ابن عباس قال : ذكر خالد بن سنان عند رسول الله ﷺ فقال : « ذاك نبى ضيعه قومه » . ثم قال : ولا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه . وكان قيس بن الربيع ثقة فى نفسه ، إلا أنه كان ردىء الحفظ . وكان له ابن يدخل فى أحاديثه ما ليس منها ، والله أعلم .

قال البزار : وقد رواه الثورى عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير مرسلا . وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا المعلى بن مهدى الموصلى قال : حدثنا أبو عوانة عن أبى يونس عن عكرمة عن ابن عباس : أن رجلا من عبس يقال له خالد بن سنان قال لقومه : إنى أطفىء عنكم نار الحرتين . فقال له رجل من قومه[1] والله يا خالد ما قلت لنا قط إلا حقاً ، فما شأنك وشأن نار الحرتين تزعم أنك تطفئها ؟ فخرج خالد ومعه أناس من قومه[2] فيهم عمارة بن زياد فأتوها ، فإذا هى تخرج من شق جبل ، فخط لهم خالد خطة فأجلسهم فيها ، فقال إن أبطأت عليكم فلا تدعونى باسمى . فخرجت كأنها خيل شقر يتبع بعضها بعضاً . فاستقبلها خالد فجعل يضربها بعصاه وهو يقول : بدا بدا بدا كل هدى ، زعم ابن راعية المعزى أنى لا أخرج منها وثيابى بيدى ، حتى دخل معها الشق فأبطأ عليهم . فقال لهم عمارة بن زياد : والله إن صاحبكم لو كان حياً لقد خرج إليكم بعد . قالوا : فادعوه باسمه ، قال : فقالوا إنه قد نهانا أن ندعوه باسمه . فدعوه باسمه فخرج وهو آخذ برأسه ، فقال : ألم أنهكم أن تدعونى باسمى ؟ فقد والله قتلتمونى فادفنونى . فإذا مرت بكم الحمر فيها حمار أبتر فانبشونى . فإنكم تجدونى حياً . فدفنوه فمرت بهم الحمر

---

(١) هو عمارة بن زياد كما صرح به فى بعض المصادر (٢) قيل كان عدتهم ثلاثين .

فيها حمار أبتر » فقلنا انبشوه فإنه أمرنا أن ننبشه . فقال لهم عمارة لا تنبشوه ، لا والله! لاتحدث مضر أنا ننبش موتانا . وقد كان قال لهم خالد : إن فى عكن امرأته لوحين « فإن أشكل عليكم أمر فانظروا فيهما ، فإنكم ستجدون ما تسألون عنه . قال ولا يمسهما حائض . فلما رجعوا إلى امرأته سألوها عنهما « فأخرجتهما إليهم وهى حائض ، فذهب ما كان فيهما من علم .

قال أبو يونس: قال سماك بن حرب : سئل عنه النبى ﷺ فقال : « ذاك نبى أضاعه قومه » . قال أبو يونس : قال سماك بن حرب: إن ابن خالد بن سنان أتى النبى ﷺ فقال : مرحباً بابن أخى . فهذا السياق موقوف على ابن عباس ، وليس فيه أنه كان نبياً . والمرسلات التى فيها أنه نبى لايحتج بها هاهنا ، والأشبه أنه كان رجلا صالحاً له أحوال وكرامات ؛ فإنه إن كان فى زمن الفترة فقد ثبت فى صحيح البخارى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن أولى الناس بعيسى بن مريم أنا ؛ لأنه ليس بينى و بينه نبى » . وإن كان قبلها فلا يمكن أن يكون نبياً ؛ لأن الله تعالى قال : (لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك) ، وقد قال غير واحد من العلماء : إن الله تعالى لم يبعث بعد إسماعيل نبياً فى العرب إلا محمداً ﷺ خاتم الأنبياء « الذى دعا به إبراهيم الخليل بانى الكعبة المكرمة التى جعلها الله قبلة لأهل الأرض شرعاً « وبشرت به الأنبياء لقومهم ، حتى كان آخر من بشر به عيسى بن مريم عليه السلام .

وبهذا المسلك بعينه يردّ ماذكره السهيلى وغيره ؛ من إرسال نبى من العرب يقال له : شعيب بن ذى مهذم بن شعيب بن صفوان صاحب مدين ، وأنه بعث إلى العرب أيضاً حنظلة بن صفوان فكذبوهما ، فسلط الله على العرب بخت نصر ، فنال منهم من القتل والسبى نحو مانال من بنى إسرائيل « وذلك فى زمن معد بن عدنان . والظاهر أن هؤلاء كانوا قوماً صالحين يدعون إلى الخير والله أعلم . وقد تقدم ذكر عمرو بن لحى بن قمعة بن خندف فى أخبار خزاعة بعد جرهم .

ذكر حاتم الطائى أحد أجواد الجاهلية

وهو حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج بن امرىء القيس بن عدى بن أحزم بن أبى أحزم ـ واسمه هرومة بن ربيعة بن جرول بن ثعل بن عمرو بن الغوث بن طيء ، أبو سفّانة الطائى ، والد عدى ابن حاتم الصحابى . كان جواداً ممدوحاً فى الجاهلية ، وكذلك كان ابنه فى الإسلام . وكانت لحاتم مآثر وأمور عجيبة ، وأخبار مستغربة فى كرمه يطول ذكرها ، ولكن لم يكن يقصد بها وجه الله والدار الآخرة ، وإنما كان قصده السمعة والذكر ؛ قال الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده : حدثنا محمد بن معمر ، حدثنا عبيد بن واقد القيسى ، حدثنا أبو نصر ـ هو الناجى ، عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال : ذكر حاتم عند النبى ﷺ فقال « ذاك أراد أمراً فأدركه » ، حديث غريب . قال الدارقطني : تفرد به عبيد بن واقد عن أبى نصر الناجي ـ ويقال إن اسمه حماد .

قال ابن عساكر : وقد فرق أبو أحمد الحاكم بين أبى نصر الناجى و بين أبى نصر حماد ولم يسم الناجى ، ووقع فى بعض روايات الحافظ بن عساكر عن أبى نصر شيبة الناجى ، والله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن إسماعيل ، حدثنا سفيان عن سماك بن حرب عن مرى بن قطرى عن عدى بن حاتم قال : قلت لرسول الله ﷺ : إن أبى كان يصل الرحم ويفعل ويفعل ، فهل له فى ذلك ؟ يعنى من أجر . قال : « إن أباك طلب شيئاً فأصابه » ، وهكذا رواه أبو يعلى عن القواريرى عن غندر عن شعبة عن سماك به . وقال : « إن أباك أراد أمراً فأدركه » — يعنى الذكر . وهكذا رواه أبو القاسم البغوى عن على بن الجعد عن شعبة به سواء . وقد ثبت فى الصحيح فى الثلاثة الذين تسعر بهم جهنم ؛ منهم الرجل الذى ينفق ليقال إنه كريم ، فيكون جزاؤه أن يقال ذلك فى الدنيا ، وكذا فى العالم والمجاهد . وفى الحديث الآخر فى الصحيح ، أنهم سألوا رسول الله ﷺ عن عبد الله بن جدعان ابن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة ، فقالوا له : كان يقرى الضيف و يعتق ويتصدق فهل ينفعه ذلك ؟ فقال : «إنه لم يقل يوماً من الدهر : رب اغفرلى خطيئتى يوم الدين» هذا وقد كان من الأجواد المشهورين أيضاً ، المطعمين فى السنين الممحلة والأوقات المرملة .

وقال الحافظ أبو بكر البيهقى : أنبأنا أبو عبدالله الحافظ ، حدثنى أبو بكر محمد بن عبدالله بن يوسف العمانى ، حدثنا أبو سعيد عبيد بن كثير بن عبد الله الكوفى ، حدثنا ضرار بن صرد ، حدثنا عاصم بن حميد عن أبى حمزة الثمالى ، عن عبد الرحمن بن جندب ، عن كميل بن زياد النخعى قال: قال على بن أبى طالب : ياسبحان الله! ما أزهد كثيراً من الناس فى خير ! عجباً لرجل يجيئه أخوه المسلم فى حاجة فلا يرى نفسه للخير أهلاً ؛ فلو كان لايرجو ثواباً ولايخشى عقاباً — لكان ينبغى له أن يسارع فى مكارم الأخلاق ؛ فإنها تدل على سبيل النجاح . فقام إليه رجل وقال : فداك أبى وأمى يا أمير المؤمنين ! أسمعته من رسول الله ﷺ ؟ قال نعم ! وما هو خير منه . لما أتى بسبايا طيء وقعت جارية حمراء لعساء زلفاء عيطاء[1] ، شماء الأنف معتدلة القامة والهامة ، درماء[2] الكعبين خدلجة الساقين ، لفاء الفخذين خميصة الخصرين ، ضامرة الكشحين مصقولة المتنين . قال فلما رأيتها أعجبت بها ، وقلت لأطلبن إلى رسول الله ﷺ فيجعلها فى فيئى ، فلما تكلمت أنسيت جمالها لما رأيت من فصاحتها ، فقالت : يامحمد ! إن رأيت أن تخلى عنى ولاتشمت بى أحياء العرب ؛ فإنى ابنة سيد قومى ، وإن أبى كان يحمى الذمار ويفك العانى ويشبع الجائع ويكسى العارى ويقرى الضيف ويطعم الطعام ويفشى السلام ، ولم يرد طالب حاجة قط ، وأنا ابنة حاتم طيء . فقال النبى ﷺ : « ياجارية هذه صفة المؤمنين حقاً ، لو كان أبوك مؤمناً لترحمنا عليه ، خلوا عنها ، فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق ، والله تعالى يحب مكارم الأخلاق » . فقام

(١) أى طويلة العنق (٢) أى لاتستبين كعوبها من اللحم ، يقال درم الكعب : واراه اللحم حتى لم يظهر له حجم.

أبو بردة بن ينار فقال يارسول الله ! والله يحب مكارم الأخلاق ؟ فقال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده لايدخل الجنة أحد إلا بحسن الخلق » .

وقال أبو بكر بن أبى الدنيا : حدثنى عمر بن بكر عن أبى عبد الرحمن الطائى — هو القاسم بن عدى — عن عثمان عن عركى بن حليس الطائى عن أبيه عن جده — وكان أخا عدى بن حاتم لأمه ، قال : قيل لنوار امرأة حاتم : حدثينا عن حاتم ، قالت كل أمره كان عجباً ؛ أصابتنا سنة حصت كل شىء ، فاقشعرت لها الأرض واغبرت لها السماء ، وضنت المراضع عن أولادها ، وراحت الإبل حَدباً حدابير[1] ماتَبِضّ بقطرة ، وحلقت المال . وإنا لفى ليلة صِنَّبرة بعيدة مابين الطرفين ، إذ تَضاغى الأصبية من الجوع ؛ عبد الله وعدى وسفانة ، فوالله إن وجدنا شيئاً نعللهم به . فقام إلى أحد الصبيان فحمله ، وقمت إلى الصبيّة فعللتها ، فوالله إن سكتا إلا بعد هدأة من الليل . ثم عدنا إلى الصبى الآخر فعللناه حتى سكت ، وما كاد ؛ ثم افترشنا قطيفة لنا شامية ذات خمل ، فأضجعنا الصبيان عليها ونمت أنا وهو فى حجرة والصبيان بيننا ، ثم أقبل علىّ يعللنى لأنام ، وعرفت مايريد فتناومت ، فقال مالك أنمت ؟ فسكت ، فقال ما أراها إلا قد نامت ، ومابى نومٌ . فلما ادلهمّ الليل وتهورت النجوم ، وهدأت الأصوات وسكنت الرجل — إذ جانب البيت قد رفع فقال من هذا ؟ فولى حتى قلت إذاً قد أسحرنا أو كدنا . ثم عاد فقال من هذا ؟ قالت جارتك فلانة يا أبا عدى ، ما وجدت على أحد معولاً غيرك ، أتيتك من عند أصبية يتعاوون عواء الذئاب من الجوع ، قال : أعجليهم على ، قالت النوار : فوثبت فقلت ماذا صنعت ؟ اضطجع ؛ والله لقد تضاغى أصبيتك فما وجدت ماتعللهم فكيف بهذه وبولدها ؟ فقال اسكتى ؛ فوالله لأشبعنك إن شاء الله ، قالت : فأقبلت تحمل اثنين وتمشى جنبتيها أربعة ، كأنها نعامة حولها رئالها ، فقام إلى فرسه فوجأ بحربته فى لبته ، ثم قدح زنده وأورى ناره ، ثم جاء بمدية فكشط عن جلده ، ثم دفع المدية إلى المرأة ثم قال دونك ، ثم قال ابعثى صبيانك فبعثتهم . ثم قال : سوأة أتأكلون شيئاً دون أهل الصرم ؟ فجعل يطوف فيهم حتى هبوا وأقبلوا عليه ، والتفع فى ثوبه ، ثم اضطجع ناحية ينظر إلينا ، والله ماذاق مُزعة ، وإنه لأحوجهم إليه ، فأصبحنا وماعلى الأرض منه إلا عظم وحافر .

وقال الدارقطنى : حدثنى القاضى أبو عبد الله المحاملى ، حدثنا عبد الله بن أبى سعد ، وحدثنا عثيم ابن ثوابة بن حاتم الطائى عن أبيه عن جده قال : قالت امرأة حاتم لحاتم : ياأبا سفانة ! أشتهى أن آكل أنا وأنت طعاماً وحدنا ليس عليه أحد ، فأمرها فحولت خيمتها من الجماعة على فرسخ ، وأمر بالطعام فهيىء وهى مرخاة ستورها عليه وعليها ، فلما قارب نضج الطعام كشف عن رأسه ثم قال :

---

(١) الحدباء : الدابة التى بدت حراقفها من الهزال . والحدباء : الناقة الضامرة والتى ذهب سنامها والجمع حدابير .

فلا تطبخي قدري وسترك دونها عليَّ إذن ماتطبخين حرام

ولكن بهذاك اليفاع فأوقدي بجزل إذا أوقدت لابضرام

قال ثم كشف الستور، وقدم الطعام ودعى النار فأكل وأكلوا. فقالت ما أتممت لى ماقلت. فأجابها فإنى لاتطاوعنى نفسى، ونفسى أكرم عليَّ من أن يثنى على هذا وقد سبق لى السخاء، ثم أنشأ يقول:

أمارس نفسى البخل حتى أعزها وأترك نفس الجود ماأستثيرها

ولا تشتكينى جارتى غير أنها إذا غاب عنها بعلها لا أزورها

سيبلغها خيرى ويرجع بعلها إليها ولم تقصر عليها ستورها

ومن شعر حاتم: إذا مابت أشرب فوق رى لسكر فى الشراب فلا رويت

إذا مابت أختل عرس جارى ليخفينى الظلام فلا خفيت

أأفضح جارتى وأخون جارى؟ فلا والله أفعل ماحييت

ومن شعره أيضاً: ماضر جاراً لى أجاوره أن لا يكون لبابه ستر

أغضى إذا ماجارتى برزت حتى يوارى جارتى الخدر

ومن شعر حاتم أيضاً: وما من شيمتى شتم ابن عمى وما أنا مخلف من يرتجينى

وكلمة حاسد من غير جرم سمعت وقلت مرى فانقذينى

وعابوها علىّ فلم تعبنى ولم يعرق لها يوماً جبينى

وذى وجهين يلقانى طليقاً وليس إذا تغيب يأتسينى

ظفرت بعيبه فكففت عنه محافظة على حبى ودينى

ومن شعره: سلى البائس المقرور يا أم مالك إذا ماأتانى بين نارى ومجزرى؟

أأبسط وجهى إنه أول القرى وأبذل معروفى له دون منكرى

وقال أيضاً: وإنك إن أعطيت بطنك سؤله وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا

وقال القاضى أبو الفرج المعافى بن زكرياء الجريرى: حدثنا الحسين بن القاسم الكوكبى، حدثنا أبو العباس المبرد، أخبرنى الثورى عن أبى عبيدة قال: لما بلغ حاتم طيء قول المتلمس:

قليل المال تصلحه فيبقى ولا يبقى الكثير على الفساد

وحفظ المال خير من فناه وعسف فى البلاد بغير زاد

ـ قال : ماله ؟ قطع الله لسانه ؛ حمل الناس على البخل ، فهلا قال :

فلا الجود يفنى المال قبل فنائه ولا البخل فى مال الشحيح يزيد
فلا تلتمس مالاً بعيش مقتر لكل غد رزق يعود جديد
ألم تر أن المال غاد ورائح وأن الذى يعطيك غير بعيد

قال القاضى أبو الفرج : ولقد أحسن فى قوله : وأن الذى يعطيك غير بعيد ، ولو كان مسلماً لرجى له الخير فى معاده ، وقد قال الله فى كتابه : (واسألوا الله من فضله[١]) . وقال تعالى : (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان[٢]) .

وعن الوضاح بن معبد الطائى قال : وفد حاتم الطائى على النعمان بن المنذر فأكرمه وأدناه ، ثم زوده عند انصرافه جملين ذهباً وورقاً ـ غير ما أعطاه من طرائف بلده فرحل ، فلما أشرف على أهله تلقته أعاريب طيىء ، فقالت : ياحاتم أتيت من عند الملك وأتينا من عند أهالينا بالفقر ، فقال حاتم : هلم ! فخذوا مابين يدى فتوزعوه ، فوثبوا إلى ما بين يديه من حباء النعمان فاقتسموه ؛ فخرجت إلى حاتم طريفة جاريته ، فقالت له : اتق الله وأبق على نفسك فما يدع هؤلاء ديناراً ولا درهماً ولا شاة ولا بعيراً . فأنشأ يقول :

قالت طريفة ماتبقى دراهمنا وما بنا سرف فيها ولا خرق
إن يفن ما عندنا فالله يرزقنا ممن سوانا ولسنا نحن نرتزق
ما يألف الدرهم الكارى خرقتنا إلا يمر عليها ثم ينطلق
إنا إذا اجتمعت يوماً دراهمنا ظلت إلى سبل المعروف تستبق

وقال أبو بكر بن عياش : قيل لحاتم هل فى العرب أجود منك ؟ فقال : كل العرب أجود منى ، ثم أنشأ يحدث . قال : نزلت على غلام من العرب يتيم ذات ليلة ، وكانت له مائة من الغنم ، فذبح لى شاة منها وأتانى بها ، فلما قرب إلى دماغها قلت : ماأطيب هذا الدماغ ! قال فذهب فلم يزل يأتينى منه حتى قلت قد اكتفيت ، فلما أصبحت إذا هو قد ذبح المائة شاة وبقى لاشىء له ، فقيل فما صنعت به ؟ فقال : ومتى أبلغ شكره ولو صنعت به كل شىء ؟ قال : على كل حال ـ أعطيته مائة ناقة من خيار إبلى . وقال محمد بن جعفر الخرائطى فى كتاب مكارم الأخلاق : حدثنا العباس بن الفضل الربعى : حدثنا إسحاق بن إبراهيم : حدثنى حماد الراوية ومشيخة من مشيخة طيىء : قالوا : كانت غنية بنت عفيف بن عمرو بن امرىء القيس ـ أم حاتم طيىء ، لاتمسك شيئاً سخاء وجوداً ، وكان إخوتها يمنعونها فتأبى . وكانت امرأة موسرة ، فحبسوها فى بيت سنة يطعمونها قوتها لعلها تكف عما تصنع . ثم

(١) الآية : ٣٢ من سورة النساء . (٢) الآية : ١٨٦ من سورة البقرة .

أخرجوها بعد سنة وقد ظنوا أنها قد تركت ذلك الخلق . فدفعوا إليها صِرمة[1] من مالها ، وقالوا استمتعي بها ، فأتتها امرأة من هوازن ـ وكانت تغشاها ـ فسألتها فقالت : دونك هذه الصِّرمة ، فقد والله مسني من الجوع ما آليت ألا أمنع سائلا ، ثم أنشأت تقول :

لعمري لقدماً عضني الجوع عضة ... فآليت أن لا أمنع الدهر جائعاً

فقولا لهذا اللائمي اليوم أعفني ... وإن أنت لم تفعل فعض الأصابعا

فماذا عساكم أن تقولوا لأختكم ... سوى عذلكم أوعذل من كان مانعا

وماذا ترون اليوم إلا طبيعة ... فكيف بتركي يا ابن أمي الطبائعا

وقال الهيثم بن عدى : عن ملحان بن عركى بن عدى بن حاتم عن أبيه عن جده ، قال : شهدت حاتماً يكيد بنفسه ، فقال لى : أى بنى ! إنى أعهد من نفسى ثلاث خصال : والله ماخاتلت جارة لريبة قط ، ولا أوتمنت على أمانة إلا أديتها ، ولا أوتى أحد من قبلى بسوء . وقال أبو بكر الخرائطى : حدثنا على بن حرب ، حدثنا عبد الرحمن بن يحيى العدوى ، حدثنا هشام بن محمد بن السائب الكلبى عن أبى مسكين — يعنى جعفر بن المحرر بن الوليد — عن المحرر مولى أبى هريرة قال : مرَّ نفر من عبدالقيس بقبر حاتم طيء . فنزلوا قريباً منه ، فقام إليه بعضهم ـ يقال له أبو الخيبرى ـ فجعل يركض قبره برجله . ويقول : ياأبا جعد أقرنا ، فقال له بعض أصحابه : ماتخاطب من رمة وقد بليت . وأجنهم الليل ، فناموا فقام صاحب القول فزعاً يقول ياقوم ! عليكم بمطيكم ؛ فإن حاتماً أتانى فى النوم وأنشدنى شعراً وقد حفظته يقول :

أبا الخيبرى وأنت امرؤ ... ظلوم العشيرة شتَّامُها

أتيت بصحبك تبغى القرى ... لدى حفرة قد صدت هامها

أتبغى لى الذنب عند المبيـ ... ـت وحولك طيء وأنعامها

وإنا لنشبع أضيافنا ... وتأتى المطى فنعتامها

قال وإذا ناقة صاحب القول تكون عقيراً فنحروها ، وقاموا يشتوون ويأكلون . وقالوا والله لقد أضافنا حاتم حياً وميتاً . قال : وأصبح القوم وأردفوا صاحبهم وساروا ، فإذا رجل ينوه بهم راكباً جملا ويقود آخر . فقال : أيكم أبو الخيبرى ؟ قال أنا ، قال إن حاتماً أتانى فى النوم فأخبرنى أنه قرى أصحابك ناقتك ، وأمرنى أن أحملك ، وهذا بعير فخذه ودفعه إليه .

---

(١) هي القطعة من الإبل مابين العشرين إلى الثلاثين أو إلى الخمسين .

ذكر شيء من أخبار عبد الله بن جدعان

هو عبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة — سيد بنى تيم، وهو ابن عم والد أبي بكر الصديق رضى الله عنه. وكان من الكرماء الأجواد فى الجاهلية المطعمين للمسنتين. وكان فى بدء أمره فقيراً مملقاً، وكان شريراً يكثر من الجنايات حتى أبغضه قومه وعشيرته، وأهله وقبيلته وأبغضوه حتى أبوه، فخرج ذات يوم فى شعاب مكة حائراً بائراً، فرأى شقاً فى جبل فظن أن يكون به شيء يؤذى، فقصده لعله يموت فيستريح مما هو فيه. فلما اقترب منه إذا ثعبان يخرج إليه ويثب عليه، فجعل يحيد عنه ويثب فلا يغنى شيئاً، فلما دنا منه إذا هو من ذهب وله عينان هما ياقوتتان، فكسره وأخذه ودخل الغار، فإذا فيه قبور لرجال من ملوك جرهم، ومنهم الحارث بن مضاض الذى طالت غيبته فلا يدرى أين ذهب. ووجد عند رءوسهم لوحاً من ذهب فيه تاريخ وفاتهم ومدد ولايتهم، وإذا عندهم من الجواهر واللآلىء والذهب والفضة شيء كثير، فأخذ منه حاجته ثم خرج وعلم باب الغار. ثم انصرف إلى قومه فأعطاهم حتى أحبوه، وسادهم وجعل يطعم الناس. وكلما قل مافى يده ذهب إلى ذلك الغار فأخذ حاجته ثم رجع. فممن ذكر هذا — عبد الملك بن هشام فى كتاب: [التيجان]، وذكره أحمد بن عمار فى كتاب: [رى العاطش وأنس الواحش]. وكانت له جفنة يأكل منها الراكب على بعيره، ووقع فيها صغير فغرق. وذكر ابن قتيبة وغيره — أن رسول الله ﷺ قال: «لقد كنت أستظل بظل جفنة عبد الله بن جدعان صكة عُمَيٍّ[1]» — أى وقت الظهيرة. وفى حديث مقتل أبى جهل، أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «تطلبوه بين القتلى وتعرفوه بشجة فى ركبته؛ فإنى تزاحمت أنا وهو على مأدبة لابن جدعان، فدفعته فسقط على ركبته فانهشمت، فأثرها باق فى ركبته»، فوجدوه كذلك

وذكروا أنه كان يطعم التمر والسويق ويسقى اللبن حتى سمع قول أمية بن أبى الصلت:

ولقد رأيت الفاعلين وفعلهم ... فرأيت أكرمهم بنى الديان

البر يلبك بالشهاد طعامهم ... لا ما يعللنا بنو جدعان

فأرسل ابن جدعان إلى الشام ألفى بعير تحمل البر والشهد والسمن، وجعل منادياً ينادى كل ليلة على ظهر الكعبة: أن هلموا إلى جفنة ابن جدعان. فقال أمية فى ذلك:

له داع بمكة مشمعل ... وآخر فوق كعبتها ينادى

إلى ردح من الشيزى ملاء ... لباب البر يلبك بالشهاد

ومع هذا كله فقد ثبت فى الصحيح لمسلم أن عائشة قالت: «يارسول الله! إن ابن جدعان كان يطعم الطعام ويقرى الضيف، فهل ينفعه ذلك يوم القيامة؟ فقال: «لا — إنه لم يقل يوماً: رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين».

(١) الصكة: شدة الهاجرة، وتضاف إلى عمى، رجل من العمالقة أغار على قوم فى ظهيرة فاجتاحهم.

ذكرى امرىء القيس بن حجر الكندى صاحب إحدى المعلقات

وهى أنخرهن ، وأشهرهن التى أولها : * قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل *

قال الإمام أحمد : حدثنا هشام ، حدثنا أبو الجهم عن الزهرى عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «امرؤ القيس صاحب لواء الشعراء إلى النار» . وقد روى هذا الحديث عن هشام جماعة كثيرون ؛ منهم بشر بن الحكم ، والحسن بن عرفة ، وعبد الله بن هارون ـ أمير المؤمنين ـ المأمون أخو الأمين ، ويحيى بن معين ، وأخرجه ابن عدى من طريق عبدالرزاق عن الزهرى به ، وهذا منقطع وردىء من وجه آخر عن أبى هريرة ، ولا يصح من غير هذا الوجه .

وقال الحافظ بن عساكر : هو امرؤ القيس بن حُجر بن الحارث بن عمرو بن حُجر ـ آكل المرار ابن عمرو بن معاوية بن الحارث بن يعرب بن ثور بن مرتع بن معاوية بن كندة ـ أبو يزيد ، ويقال أبو وهب ، ويقال أبو الحارث الكندى ، كان بأعمال دمشق ، وقد ذكر مواضع منها فى شعره ؛ فمن ذلك قوله :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ... بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فتوضِح فالمقراة لم يعف رسمها ... لما نسجتها من جنوب وشمأل

قال : وهذه مواضع معروفة بحوران . ثم روى من طريق هشام بن محمد بن السائب الكلبى : حدثنى فروة بن سعيد بن عفيف بن معدى كرب عن أبيه عن جده ، قال : بينا نحن عند رسول الله ﷺ إذ أقبل وفد من اليمن ، فقالوا : يارسول الله ! لقد أحيانا الله ببيتين من شعر امرىء القيس ، قال : وكيف ذاك ؟ قالوا أقبلنا نريدك ، حتى إذا كنا ببعض الطريق أخطأنا الطريق ، فمكثنا ثلاثاً لانقدر على الماء ، فتفرقنا إلى أصول طلح وسمر ؛ ليموت كل رجل منا فى ظل شجرة ، فبينا نحن بآخر رمق إذا راكب يوضع[1] على بعير ، فلما رآه بعضنا قال ـ والراكب يسمع :

ولما رأت أن الشريعةَ همُّها ... وأن البياض من فرائضها دامى

تيَمَّمَت العينَ التى عند ضارج ... يفىء عليها الظل عَرْمَضُها[2] طامى

فقال الراكب : ومن يقول هذا الشعر ؟ وقد رأى مابنا من الجهد ، قال قلنا امرؤ القيس بن حُجر ، قال والله ما كذب ـ هذا ضارج عندكم ، فنظرنا فإذا بيننا وبين الماء نحو خمسين ذراعاً ، فحبونا إليه على الركب فإذا هو كما قال امرؤ القيس ؛ عليه العرمض يفىء عليه الظل ، فقال رسول الله ﷺ: « ذاك

---

(١) أى يسرع (٢) العرمض كجعفر : الطحلب ، وصغار السدر والأراك

رجل مذكور فى الدنيا منسى فى الآخرة ، شريف فى الدنيا خامل فى الآخرة . بيده لواء الشعراء يقودهم إلى النار » .

وذكر الكلبى : أن امرأ القيس أقبل براياته يريد قتال بنى أسد حين قتلوا أباه ، فمر بتَبالة[1] وبها ذو الخُلُصة[2] — وهو صنم ، وكانت العرب تستقسم عنده ، فاستقسم فخرج القدح الناهى . ثم الثانية ثم الثالثة كذلك ، فكسر القداح وضرب بها وجه ذى الخلصة وقال : عضضت بأير أبيك . لو كان أبوك المقتول لما عوقتنى . ثم أغار على بنى أسد فقتلهم قتلا ذريعاً . قال ابن الكلبى : فلم يستقسم عند ذى الخلصة حتى جاء الإسلام . وذكر بعضهم أنه امتدح قيصر ملك الروم يستنجده فى بعض الحروب ويسترفده . فلم يجد ما يؤمله عنده ، فهجاه بعد ذلك . فيقال إنه سقاه سماً فقتله ، فألجأه الموت إلى جنب قبر امرأة ، عند جبل يقال له عسيب ، فكتب هنالك :

أجارتنا إن المزار قريب ... وإنى مقيم ما أقام عسيب

أجارتنا إنا غريبان ههنا ... وكل غريب للغريب نسيب

وذكروا أن المعلقات السبع كانت معلقة بالكعبة ، وذلك أن العرب كانوا إذا عمل أحدهم قصيدة عرضها على قريش ؛ فإن أجازوها علقوها على الكعبة تعظيما لشأنها . فاجتمع من ذلك هذه المعلقات السبع . فالأولى — لامرىء القيس بن حجر الكندى كما تقدم . وأولها :

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل ... بسقط اللوى بين الدخول فحومل

والثانية — للنابغة[3] الذبيانى : واسمه زياد بن معاوية . ويقال زياد بن عمرو بن معاوية بن ضِباب بن جابر بن يَربوع بن غَيظ بن مُرّة بن عَوف بن سعد بن ذَبيان بن بَغيض ، وأولها :

يا دار مَيّة بالعلياء فالسند ... أقوت وطال عليها سالف الأبد

والثالثة — لزهير بن أبى سُلمى — ربيعة بن رِياح المزنى ، وأولها :

أمن أمّ أوفى دِمنة لم تكلم ... بحومانة الدّراج فالمُتَثَلَّم

والرابعة — لطَرَفَة بن العبد بن سفيان بن سعد بن مالك بن ضُبَيعة بن قيس بن ثعلبة بن عُكَابة ابن صَعب بن على بن بكر بن وائل ، وأولها :

لخولةَ أطلالٌ ببُرقة ثَهمَدِ ... تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد

والخامسة — لعنترة بن شداد بن معاوية بن قُراد بن مخزوم بن ربيعة بن مالك بن غالب بن قُطَيعة ابن عبس العبسى وأولها :

---

(١) بلد باليمن . (٢) الخلصة — بالتحريك وبضمتين : بيت كان يدعى الكعبة اليمانية لخثعم . كان فيه صنم اسمه الخلصة . (٣) لقب بذلك لأنه كان أحسن الشعراء ديباجة شعر وأجزلهم بيتاً . ومعلقته هذه قالها للنعمان بن المنذر يعتذر عن وشاية بلغته عنه ويتنصل منها .

هل غادر الشعراء من مُتردَّمِ　　　أم هل عَرَفْتَ الدار بعد توهم ؟

والسادسة ـ لعلقمة بن عبدة بن النعمان بن قيس أحد بنى تميم ، وأولها :

طحابك قلب فى الحسان طروب　　　بُعَيد الشباب عَصرَ حان مشيب

والسابعة — ومنهم من لا يثبتها فى المعلقات وهو قول الأصمعى وغيره — وهى للبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صَعصَعَة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور ابن عِكرمة بن خَصَفة بن قيس بن عَيلان بن مضر ، وأولها :

عفت الديار محلُّها فمُقَامُها　　　بمِنًى تأبدَ غَولها فرِجامُها

فأما القصيدة التى لا يعرف قائلها ـ فيما ذكره أبو عبيدة والأصمعى والمبرد وغيرهم ـ فهى قوله :

هل بالطلول لسائل ردّ　　　أم هل لها بتكلم عهد ؟

وهى مطولة وفيها معانى حسنة كثيرة [1] .

ذكر شىء من أخبار أمية بن أبى الصلت الثقفى

كان من شعراء الجاهلية وقد أدرك زمن الإسلام

قال الحافظ بن عساكر : هو أمية بن أبى الصلت عبد الله بن أبى ربيعة بن عوف بن عقدة بن عنزة بن عوف بن ثقيف بن منبه بن بكر بن هوازن أبو عثمان ـ ويقال أبو الحكم الثقفى ـ شاعر جاهلى ، قدم دمشق قبل الإسلام ، وقيل إنه كان مستقيما ، وأنه كان فى أول أمره على الإيمان ، ثم زاغ عنه . وإنه هو الذى أراده الله تعالى بقوله : (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين [2]) .

قال الزبير بن بكار : فولدت رقية بنت عبد شمس بن عبد مناف ـ أمية الشاعر ابن أبى الصلت ، واسم أبى الصلت : ربيعة بن وهب بن علاج بن أبى سلمة بن ثقيف . وقال غيره : كان أبوه من الشعراء المشهورين بالطائف وكان أمية أشعرهم ، وقال عبد الرزاق قال الثورى : أخبرنى حبيب بن أبى ثابت ،

---

(١) المشهور أن المعلقات السبع هى : لامرىء القيس ، وزهير بن أبى سلمى ، وطرفة بن العبد ، ولبيد بن ربيعة وعنترة بن شداد .

والسادسة — لعمرو بن كلثوم ومطلعها : ألا هبى بصحنك فاصبحينا　　ولا تبقى خمور الأندرينا

والسابعة — للحارث بن حلزة اليشكرى ومطلعها : آذنتنا ببينها أسماء　　رب ثاو يمل منه الثواء

وزاد بعضهم معلقة للنابغة الذبيانى ومطلعها : عوجوا فحيوا لنعم دمنة الدار　　ماذا تحيون من نعم وأحجار

وأخرى لأعشى بكر ؛ ميمون بن قيس ومطلعها : ما بكاء الكبير بالأطلال　　وسؤالى وماترد سؤالى ؟

(٢) الآية : ١٧٥ من سورة الأعراف .

أن عبد الله بن عمرو قال فى قوله تعالى : (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين) ـ هو أمية بن أبى الصلت . وكذا رواه أبو بكر بن مردويه عن أبى بكر الشافعى عن معاذ بن المثنى عن مسدد عن أبى عوانة عن عبد الملك بن عمير عن نافع بن عاصم بن مسعود ، قال : إنى لفى حلقة فيها عبد الله بن عمرو ، فقرأ رجل من القوم الآية التى فى الأعراف : (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها) ـ فقال هل تدرون من هو ؟ فقال بعضهم : هو صيفى بن الراهب ، وقال آخر : بل هو بلعم رجل من بنى إسرائيل ، فقال : لا ! قال فمن ؟ قال هو أمية بن أبى الصلت . وهكذا قال أبو صالح الكلبى ، وحكاه قتادة عن بعضهم .

وقال الطبرانى : حدثنا على بن عبد العزيز ، حدثنا عبد الله بن شبيب الربعى ، حدثنا محمد بن مسلمة ابن هشام المخزومى ، حدثنا إسماعيل بن الطريح بن إسماعيل الثقفى ، حدثنى أبى عن أبيه عن مروان بن الحكم عن معاوية بن أبى سفيان عن أبيه ، قال : خرجت أنا وأمية بن أبى الصلت الثقفى تجاراً إلى الشام ، فكلما نزلنا منزلا أخذ أمية سِفراً له يقرؤه علينا ، فكنا كذلك حتى نزلنا قرية من قرى النصارى ، فجاءوه وأكرموه وأهدوا له ، وذهب معهم إلى بيوتهم ، ثم رجع فى وسط النهار فطرح ثوبيه وأخذ ثوبين له أسودين فلبسهما ، وقال لى : هل لك يا أبا سفيان فى عالم من علماء النصارى ، إليه يتناهى علم الكتاب نسأله ؟ قلت : لا إرب لى فيه ، والله لئن حدثنى بما أحب لا أثق به ، ولئن حدثنى بما أكره لأجدنّ منه . قال : فذهب وخالفه شيخ من النصارى ، فدخل على فقال ما يمنعك أن تذهب إلى هذا الشيخ ؟ قلت لست على دينه ، قال وإن ؛ فإنك تسمع منه عجباً وتراه . ثم قال لى : أثقفى أنت ؟ قلت لا ـ ولكن قرشى . قال فما يمنعك من الشيخ ؟ فوالله إنه ليحبكم ويوصى بكم . قال : فخرج من عندنا ومكث أمية عندهم حتى جاءنا بعد هدأة من الليل ، فطرح ثوبيه ثم انجدل على فراشه . فوالله ما نام ولا قام حتى أصبح كئيباً حزيناً ، ساقطاً غبوقه على صبوحه ، ما يكلمنا ولا نكلمه . ثم قال : ألا ترحل ؟ قلت وهل بك من رحيل ؟ قال نعم ! فرحلنا فسرنا بذلك ليلتين ، ثم قال فى الليلة الثالثة : ألا تحدث يا أبا سفيان ؟ قلت وهل بك من حديث ؟ والله ما رأيت مثل الذى رجعت به من عند صاحبك ، قال : أما إن ذلك لشىء لست فيه ؛ إنما ذلك لشىء وجلت منه من منقلبى . قلت وهل لك من منقلب ؟ قال : إى والله لأموتن ثم لأحيين . قلت : هل أنت قابل أمانتى ؟ قال على ماذا ؟ قلت على أنك لا تبعث ولا تحاسب . قال فضحك ثم قال : بلى ! والله يا أبا سفيان لنبعثن ثم لنحاسبن ، وليدخلن فريق فى الجنة وفريق فى النار . قلت : ففى أيهما أنت أخبرك صاحبك ؟ قال لا علم لصاحبى بذلك لا فىّ ولا فى نفسه . قال فكنا فى ذلك ليلتين يعجب منى وأضحك منه ، حتى قدمنا غوطة دمشق فبعنا متاعنا وأقمنا بها شهرين ، ثم ارتحلنا حتى نزلنا قرية من قرى النصارى ، فلما رأوه جاءوه وأهدوا له وذهب معهم إلى بيعتهم ، فما جاء إلا بعد

منتصف النهار . فلبس ثوبيه وذهب إليهم حتى جاء بعد هدأة من الليل ، فطرح ثوبيه ورمى بنفسه على فراشه ، فوالله مانام ولا قام، وأصبح حزيناً كئيباً لا يكلمنا ولا نكلمه . ثم قال : ألا ترحل ؟ قلت بلى إن شئت ! فرحلنا كذلك وهو فى بثه وحزنه ليالى . ثم قال لى : ياأبا سفيان ! هل لك فى المسير لنتقدم أصحابنا ؟ قلت هل لك فيه ؟ قال نعم ! فسرنا حتى برزنا من أصحابنا ساعة ثم قال : هيا صخر [1] . فقلت : ما تشاء ؟ قال : حدثنى عن عتبة بن ربيعة ! أيجتنب المظالم والمحارم ؟ قلت : إى والله . قال : ويصل الرحم و يأمر بصلتها ؟ قلت : إى والله ! قال وكريم الطرفين وسط فى العشيرة ؟ قلت نعم ! قال فهل تعلم قريشاً أشرف منه ؟ قلت ـ لا والله لا أعلم ، قال أمحوج هو ؟ قلت لا ـ بل هو ذو مال كثير . قال وكم أتى عليه من السن ؟ فقلت قد زاد على المائة ، قال فالشرف والسن والمال أزرين به ؟ قلت ولم ذاك يزرى به ؟ لا ـ والله بل يزيده خيراً ، قال هو ذاك . هل لك فى المبيت ؟ قلت لى فيه ، قال فاضطجعنا حتى مر الثقل [2] قال فسرنا حتى نزلنا فى المنزل وبتنا به ، ثم ارتحلنا منه . فلما كان الليل قال لى يا أبا سفيان ! قلت ماتشاء ؟ قال هل لك فى مثل البارحة ؟ قلت هل لك فيه ؟ قال : نعم . فسرنا على ناقتين بختيتين حتى إذا برزنا قال : هيا صخر ، هيه عن عتبة بن ربيعة . قال قلت هيهاً فيه ، قال أيجتنب المحارم والمظالم ويصل الرحم ويأمر بصلتها؟ قلت : إى والله إنه ليفعل . قال وذو مال ؟ قلت وذو مال ، قال أتعلم قرشياً أسود منه ؟ قلت : لا ـ والله ما أعلم . قال كم أتى له من السن ؟ قلت قد زاد على المائة ، قال فإن السن والشرف والمال أزرين به ؟ قلت كلا ـ والله ما أزرى به ذلك ، وأنت قائل شيئاً فقله . قال لا تذكر حديثى يأتى منه ماهو آت . ثم قال : فإن الذى رأيت أصابنى أنى جئت هذا العالم فسألته عن أشياء ، ثم قلت أخبرنى عن هذا النبى الذى ينتظر ، قال هو رجل من العرب . قلت قد علمت أنه من العرب فمن أى العرب هو ؟ قال من أهل بيت تحجه العرب . قلت وفينا بيت تحجه العرب ، قال هو من إخوانكم من قريش . فأصابنى والله شىء ما أصابنى مثله قط ، وخرج من يدى فوز الدنيا والآخرة ، وكنت أرجو أن أكون إياه . قلت فإذا كان ما كان فصفه لى . قال رجل شاب حين دخل فى الكهولة ؛ بدُوّ أمره ، يجتنب المظالم والمحارم . ويصل الرحم و يأمر بصلتها ، وهو محوج كريم الطرفين متوسط فى العشيرة ، أكثر جنده من الملائكة . قلت وما آية ذلك ؟ قال قد رجفت الشام منذ هلك عيسى بن مريم عليه السلام ثمانين رجفة ، كلها فيها مصيبة ، وبقيت رجفة عامة فيها مصائب .

قال أبو سفيان : فقلت هذا والله الباطل ، لئن بعث الله رسولا لايأخذه إلا مسناً شريفاً . قال أمية : والذى حلفت به ! إن هذا لهكذا ياأبا سفيان ، تقول إن قول النصرانى حق . هل لك فى المبيت ؟ قلت نعم لى فيه . قال فبتنا حتى جاءنا الثقل . ثم خرجنا . حتى إذا كان بيننا وبين مكة مرحلتان

---

(١) أى نتحدث جهاراً ليس معنا أحد (٢) الثقل ـ محركة : متاع المسافر وحشمه .

ليلتان أدركنا راكب من خلفنا ، فسألناه فإذا هو يقول : أصابت أهل الشام بعدكم رجفة دمرت أهلها وأصابتهم فيها مصائب عظيمة . قال أبو سفيان : فأقبل على أمية فقال : كيف ترى قول النصرانى يا أبا سفيان ؟ قلت أرى وأظن والله أن ماحدثك به صاحبك حق . قال أبو سفيان فقدمنا مكة فقضيت ما كان معى ، ثم انطلقت حتى جئت اليمن تاجراً فكنت بها خمسة أشهر ، ثم قدمت مكة فبينما أنا فى منزلى جاءنى الناس يسلمون على ويسألون عن بضائعهم ، حتى جاءنى محمد بن عبد الله وهند عندى تلاعب صبيانها ، فسلم علىّ ورحب بى وسألنى عن سفرى ومقامى ، ولم يسألنى عن بضاعته ، ثم قام . فقلت لهند : والله إن هذا ليعجبنى ، مامن أحد من قريش له معى بضاعة إلا وقد سألنى عنها ، وماسألنى هذا عن بضاعته فقالت لى هند : أو ماعلمت شأنه ؟ فقلت وأنا فزع : ماشأنه ؟ قالت يزعم أنه رسول الله ، فوقذتنى وتذكرت قول النصرانى ، فرجفت حتى قالت لى هند مالك ؟ فانتبهت فقلت إن هذا لهو الباطل ، لهو أعقل من أن يقول هذا . قالت : بلى والله إنه ليقولن ذلك ويدعو إليه ، وإن له لصحابة على دينه ، قلت هذا هو الباطل . قال: وخرجت فبينما أنا أطوف بالبيت إذ بى قد لقيته ، فقلت له إن بضاعتك قد بلغت كذا وكذا ، وكان فيها خير فأرسل من يأخذها ولست آخذ منك فيها ما آخذ من قومى ، فأبى علىّ ، وقال : إذن لا آخذها ، قلت فأرسل فخذها وأنا آخذ منك مثل ما آخذ من قومى ، فأرسل إلى بضاعته فأخذها ، وأخذت منه ما كنت آخذ من غيره .

قال أبو سفيان : فلم أنشب أن خرجت إلى اليمن ، ثم قدمت الطائف فنزلت على أمية بن أبى الصلت ، فقال لى ياأبا سفيان ماتشاء ؟ هل تذكر قول النصرانى ؟ فقلت أذكره وقد كان . فقال:ومن؟ قلت محمد بن عبد الله ، قال ابن عبد المطلب ؟ قلت ابن عبدالمطلب ثم قصصت عليه خبر هند ، قال فالله يعلم. وأخذ يتصبب عرقاً ثم قال : والله ياأبا سفيان لعله ؛ إن صفته لهى . ولئن ظهر وأنا حى لأطلبن من الله عزوجل فى نصره عذراً . قال : ومضيت إلى اليمن فلم أنشب أن جاءنى هنالك استهلاله ، وأقبلت حتى نزلت على أمية بن أبى الصلت بالطائف ، فقلت ياأبا عثمان ! قد كان من أمر الرجل ماقد بلغك وسمعته ، فقال قد كان لعمرى . قلت فأين أنت منه يا أبا عثمان ؟ فقال والله ما كنت لأومن برسول من غير ثقيف أبداً . قال أبو سفيان : وأقبلت إلى مكة ، فوالله ماأنا ببعيد حتى جئت مكة فوجدت أصحابه يضربون ويُحقرون . قال أبو سفيان : فجعلت أقول فأين جنده من الملائكة ؟ قال فدخلنى مايدخل الناس من النفاسة .

وقد رواه الحافظ البيهقى فى كتاب الدلائل من حديث إسماعيل بن طريح به ، ولكن سياق الطبرانى الذى أوردناه أتم وأطول ، والله أعلم .

وقال الطبرانى : حدثنا بكر بن أحمد بن نفيل ، حدثنا عبد الله بن شبيب ، حدثنا يعقوب بن محمد

الزهرى، حدثنا مجاشع بن عمرو الأسدى، حدثنا ليث بن سعد عن أبى الأسود محمد بن عبد الرحمن عن عروة بن الزبير عن معاوية بن أبى سفيان عن أبى سفيان بن حرب : أن أمية بن أبى الصلت كان بغزة أو بإيلياء ،فلما قفلنا قال لى أمية : ياأبا سفيان هل لك أن نتقدم على الرفقة فنتحدث ؟ قلت نعم ! قال ففعلنا ، فقال لى ياأبا سفيان إيه عن عتبة بن ربيعة ، قلت : كريم الطرفين ويجتنب المحارم والمظالم ، قال وشريف مسن ؟ قلت وشريف مسن . قال السن والشرف أزريا به ، فقلت له كذبت؛ ماازداد سناً إلا ازداد شرفاً . قال ياأبا سفيان: إنها كلمة ماسمعت أحداً يقولها لى منذ تبصرت ، فلا تعجل على حتى أخبرك . قال قلت هات ، قال إنى كنت أجد فى كتبى نبياً يبعث من حرتنا هذه ، فكنت أظن – بل كنت لاأشك – أنى أنا هو ، فلما دارست أهل العلم إذا هو من بنى عبد مناف فنظرت فى بنى عبد مناف فلم أجد أحداً يصلح لهذا الأمر غير عتبة بن ربيعة . فلما أخبرتنى بسنه عرفت أنه ليس به ؛حين جاوز الأربعين ولم يوح إليه . قال أبو سفيان :فضرب الدهر ضربته فأوحى إلى رسول الله ﷺ ، وخرجت فى ركب من قريش أريد اليمن فى تجارة ، فمررت بأمية فقلت له كالمستهزىء به : يا أمية ، قد خرج النبى الذى كنت تنعته ، قال أما إنه حق فاتبعه ، قلت ما يمنعك من اتباعه ؟ قال ما يمنعنى إلا الاستحياء من نساء ثقيف ؛ إنى كنت أحدثهن أنى هو ، ثم يريننى تابعاً لغلام من بنى عبد مناف . ثم قال أمية : كأنى بك يا أبا سفيان قد خالفته ، ثم قد ربطت كما يربط الجدى حتى يؤتى بك إليه فيحكم فيك بما يريد .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن الكلبى قال : بينا أمية راقد ومعه ابنتان له ، إذ فزعت إحداهما فصاحت عليه ، فقال لها ما شأنك ؟ قالت رأيت نسرين كشطا سقف البيت ، فنزل أحدهما إليك فشق بطنك ، والآخر واقف على ظهر البيت ، فناداه فقال أوَعَى ؟ قال نعم : قال أزَكَى ؟ قال لا . فقال ذاك خير أريد بأبيكما فلم يفعله . وقد روى من وجه آخر بسياق آخر ؛ فقال إسحاق بن بشر عن محمد بن إسحاق عن الزهرى عن سعيد بن المسيب وعثمان بن عبد الرحمن عن الزهرى عن سعيد بن المسيب قال : قدمت الفارعة –أخت أمية بن أبى الصلت – على رسول ﷺ بعد فتح الطائف ، وكانت ذات لب وعقل وجمال ، وكان رسول الله ﷺ بها معجباً ، فقال لها ذات يوم : يا فارعة ! هل تحفظين من شعر أخيك شيئاً ؟ فقالت نعم ، وأعجب من ذلك ما قد رأيت . قالت : كان أخى فى سفر ، فلما انصرف بدأنى فدخل علىّ ، فرقد على سريرى وأنا أحلق أديماً فى يدى ، إذ أقبل طائران أبيضان أو كالطيرين أبيضين ، فوقع أحدهما على الكوة ودخل الآخر فوقع عليه ، فشق الواقع عليه ما بين قصه إلى عانته ، ثم أدخل يده فى جوفه فأخرج قلبه فوضعه فى كفه ثم شمه ، فقال له الطائر الآخر : أوَعَى ؟ قال وعَى ، قال أزَكَى ! قال أبى ، ثم رد القلب إلى مكانه فالتأم الجرح أسرع من طرفة عين ، ثم ذهبا . فلما رأيت ذلك دنوت منه فحركته ، فقلت هل تجد شيئاً ؟ قال : لا ، إلا توهيناً فى جسدى –

وقد كنت ارتعبت مما رأيت ـ فقال مالي أراكِ مرتاعة ؟ قالت فأخبرته الخبر ، فقال خير أريد بي ، ثم صرف عني . ثم أنشأ يقول :

باتت همومي تسرى طوارقها	أكف عيني والدمع سابقها
مما أتاني من اليقين ولم	أوت براة يقص ناطقها
أم من تلظى عليه واقدة النـ	ـار محيط بهم سرادقها
أم أسكن الجنة التي وعد الـ	أبرار مصفوفة نمارقها
لايستوى المنزلان ثم ولا الـ	أعمال لانستوى طرائقها
هما فريقان فرقة تدخل الجـ	ـنة حفت بهم حدائقها
وفرقة منهم قد أدخلت النـ	ـار فساءتهم مرافقها
تعاهدت هذه القلوب إذا	همت بخير عاقت عوائقها
وصدها للشقاء عن طلب الـ	ـجنة دنيا الله ماحقها
عبد دعا نفسه فعاتبها	يعلم أن البصير رامقها
مارغّب النفس في الحياة وإن	تحيا قليلا فالموت لاحقها
يوشك من فر من منيته	يوماً على غرة يوافقها
إن لم تمت غبطة تمت هرماً	للموت كأس والمرء ذائقها

قالت : ثم انصرف إلى رحله ، فلم يلبس إلا يسيراً حتى طعن في حيازته ، فأتاني الخبر فانصرفت إليه فوجدته منعوشاً قد سجى عليه ، فدنوت منه فشهق شهقة وشق بصره ، ونظر نحو السقف ورفع صوته وقال : لبيكما لبيكما ، هاأنا ذا لديكما ؛ لاذو مال فيفديني ، ولا ذو أهل فيحميني . ثم أغمى عليه إذ شهق شهقة فقلت قد هلك الرجل ، فشق بصره نحو السقف فرفع صوته فقال : لبيكما لبيكما ، ها أنا ذا لديكما ؛ لا ذو براءة فأعتذر ، ولا ذو عشيرة فأنتصر . ثم أغمى عليه إذ شهق شهقة وشق بصره ونظر نحو السقف فقال : لبيكما لبيكما ، ها أنا ذا لديكما ؛ بالنعم محفود وبالذنب محصود . ثم أغمى عليه إذ شهق شهقة فقال : لبيكما لبيكما ، ها أنا ذا لديكما . إن تغفر اللهم تغفر جما وأى عبد لك لا ألمّا

ثم أغمى عليه إذ شهق شهقة فقال :

كل عيش وإن تطاول دهراً	صائر مرة إلى أن يزولا
ليتني كنت قبل ماقد بدا لي	في قلال الجبال أرعى الوعولا

قالت ثم مات فقال رسول الله ﷺ : « يافارعة إن مثل أخيك كمثل الذي آتاه الله آياته فانسلخ ،

منها . . . [1] » الآية . وقد تكلم الخطابى على غريب هذا الحديث ، وروى الحافظ بن عساكر عن الزهرى أنه قال : قال أمية بن أبى الصلت :

ألا رسول لنا منا يخبرنا ما بعد غايتنا من رأس مجرانا ؟

قال: ثم خرج أمية بن أبى الصلت إلى البحرين ، وتنبأ رسول الله ﷺ، وأقام أمية بالبحرين ثمانى سنين ثم قدم الطائف فقال لهم : ما يقول محمد بن عبد الله ؟ قالوا يزعم أنه نبى وهو الذى كنت تتمنى . قال : فخرج حتى قدم عليه مكة فلقيه . فقال : يا ابن عبد المطلب ، ما هذا الذى تقول ؟ قال أقول : إنى رسول الله وأن لا إله إلا هو . قال : إنى أريد أن أكلمك فعدنى غداً ، قال فموعدك غداً . قال فتحب أن آتيك وحدى أو فى جماعة من أصحابى ؟ وتأتينى وحدك أو فى جماعة من أصحابك ؟ فقال رسول الله ﷺ «أى ذلك شئت» : قال فإنى آتيك فى جماعة . فأت فى جماعة . قال فلما كان الغد غدا أمية فى جماعة من قريش ، قال وغدا رسول الله ﷺ معه نفر من أصحابه حتى جلسوا فى ظل الكعبة . قال : فبدأ أمية فخطب ثم سجع ثم أنشد الشعر . حتى إذا فرغ الشعر، قال أجبنى يا ابن عبد المطلب . فقال رسول الله ﷺ : (بسم الله الرحمن الرحيم * يس * والقرآن الحكيم) ، حتى إذا فرغ منها وثب أمية يجر رجليه . قال فتبعته قريش يقولون ما تقول يا أمية ؟ قال أشهد أنه على الحق . فقالوا : هل تتبعه ؟ قال حتى أنظر فى أمره . قال : ثم خرج أمية إلى الشام وقدم رسول الله ﷺ المدينة ، فلما قتل أهل بدر قدم أمية من الشام حتى نزل بدراً ، ثم ترجل يريد رسول الله ﷺ ، فقال قائل : يا أبا الصلت ماتريد ؟ قال أريد محمداً ، قال وما تصنع ؟ قال أومن به وألقى إليه مقاليد هذا الأمر ، قال : أتدرى من فى القليب ؟ قال لا . قال : فيه عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وهما ابنا خالك — وأمه ربيعة بنت عبد شمس — قال : فجدع أذنى ناقته وقطع ذنبها ثم وقف على القليب يقول :

ماذا ببــــدر فالعقنـــقل من مرازبة جحاجح ؟ [2]

القصيدة إلى آخرها كما سيأتى ذكرها بتمامها فى قصة بدر إن شاء الله . ثم رجع إلى مكة والطائف وترك الإسلام . ثم ذكر قصة الطيرين وقصة وفاته كما تقدم ، وأنشد شعره عند الوفاة .

كل عيش وإن تطاول دهراً صائر مرة إلى أن يزولا
ليتنى كنت قبل ما قد بدا لى فى قلال الجبال أرعى الوعولا
فاجعل الموت نصب عينيك واحذر غولة الدهر إن للدهر غولا
نائلا ظفرها القساور والصد عان والطفل فى المنار الشكيلا

(١) الآية : ١٧٥ من سورة الأعراف . (٢) العقنقل : الوادى العظيم المتسع ، والكثيب المتراكم . والجحاجح — جمع جحجح : وهو السيد .

وبغاث النياف واليعفر النا فر والعوهج البرام الضئيلا

فقوله : القساور — جمع قسورة وهو الأسد ، والصدعان : ثيران الوحش — واحدها صدع ، والطفل الشكل : ما فيه حمرة العين ، والبغاث : الرخم ، والنياف : الجبال ، واليعفر : الظبى ، والعوهج : ولد النعامة . يعنى أن الموت لا ينجو منه الوحوش فى البرارى ، ولا الرخم الساكنة فى رءوس الجبال ، ولا يترك صغيراً لصغره ولا كبيراً لكبره . وقد تكلم الخطابى وغيره على غريب هذه الأحاديث .

وقد ذكر السهيلى فى كتابه [التعريف والأعلام] : أن أمية بن أبى الصلت أول من قال باسمك اللهم ، وذكر عند ذلك قصة غريبة ؛ وهى أنهم خرجوا فى جماعة من قريش فى سفر ، فيهم حرب بن أمية والد أبى سفيان ، قال فمروا فى مسيرهم بحية فقتلوها ، فلما أمسوا جاءتهم امرأة من الجان فعاتبتهم فى قتل تلك الحية ، ومعها قضيب فضربت به الأرض ضربة نفرت الإبل عن آخرها ، فذهبت وشردت كل مذهب ، وقاموا فلم يزالوا فى طلبها حتى ردوها . فلما اجتمعوا جاءتهم أيضاً فضربت الأرض بقضيبها فنفرت الإبل ، فذهبوا فى طلبها ، فلما أعياهم ذلك قالوا والله هل عندك لما نحن فيه من مخرج ؟ فقال : لا — والله ولكن سأنظر فى ذلك . قال فساروا فى تلك المحلة لعلهم يجدون أحداً يسألونه عما قد حل بهم من العناء ، إذا نار تلوح على بعد . فجاءوها فإذا شيخ على باب خيمة يوقد ناراً ، وإذا هو من الجان فى غاية الضآلة والدمامة ، فسلموا عليه ، فسألهم عما هم فيه ، فقال إذا جاءتكم فقولوا باسمك اللهم فإنها تهرب ، فلما اجتمعوا وجاءتهم الثالثة أو الرابعة قال فى وجهها أمية : باسمك اللهم ، فشردت ولم يقر لها قرار . لكن عدت الجن على حرب بن أمية فقتلوه بتلك الحية ، فقبره أصحابه هنالك حيث لا جار ولا دار . ففى ذلك يقول الجان :

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر

وذكر بعضهم : أنه كان يتفرس فى بعض الأحيان فى لغات الحيوانات ؛ فكان يمر فى السفر على الطير فيقول لأصحابه : إن هذا يقول كذا وكذا ، فيقولون لا نعلم صدق ما تقول ، حتى مروا على قطيع قد انقطعت منه شاة ومعها ولدها ، فالتفتت إليه فثغت كأنها تستحثه ، فقال : أتدرون ما تقول له ؟ قالوا لا . قال إنها تقول أسرع بنا لا يجىء الذئب فيأ كلك كما أكل الذئب أخاك عام أول ، فأسرعوا حتى سألوا الراعى : هل أكل له الذئب عام أول حملا بتلك البقعة ؟ فقال نعم . قال : ومر يوماً على بعير عليه امرأة راكبة وهو يرفع رأسه إليها ويرغو ، فقال : إنه يقول لها إنك رحلتينى وفى الحداجة مخيط ، فأنزلوا تلك المرأة وحلوا ذلك الرحل فإذا فيه مخيط كما قال .

وذكر ابن السكيت : أن أمية بن أبى الصلت بينما هو يشرب يوماً إذ نعب غراب ، فقال له : بفيك التراب — مرتين ، فقيل له ما يقول ؟ فقال : إنه يقول إنك تشرب هذا الكأس الذى فى يدك ثم تموت ،

ثم نعب الغراب فقال إنه يقول : وآية ذلك أنى أنزل على هذه المزبلة فآكل منها فيعلق عظم فى حلقى فأموت . ثم نزل الغراب على تلك المزبلة فأكل شيئاً فعلق فى حلقه عظم فمات . فقال أمية : أما هذا فقد صدق فى نفسه ، ولـكن سأنظر هل صدق فىّ أم لا ؟ ثم شرب ذلك الـكأس الذى فى يده ثم اتـكأ فمات . وقد ثبت فى الصحيح من حديث ابن مهدى عن الثورى عن عبد الملك بن عمير عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أصدق كلمة قالها شاعر ، كلمة لبيد :

* ألا كل شىء ماخلا الله باطل * وكاد أمية بن أبى الصلت أن يسلم » .

قال الإمام أحمد : حدثنا روح ، حدثنا زكرياء بن إسحاق ، حدثنا إبراهيم بن ميسرة ـ أنه سمع عمرو ابن الشريد يقول : قال الشريد كنت ردفاً لرسول الله ﷺ فقال لى : « أمعك من شعر أمية بن أبى الصلت شىء ؟ قلت نعم ! قال فأنشدنى » ، فأنشدته بيتاً ،فلم يزل يقول لى كلما أنشدته بيتاً ـ إيه ،حتى أنشدته مائة بيت قال ثم سكت النبى ﷺ وسكت » . وهكذا رواه مسلم من حديث سفيان بن عيينة عن أبى تميم بن ميسرة به . ومن غير وجه عن عمرو بن الشريد عن أبيه الشريد بن سويد الثقفى عن النبى ﷺ . وفى بعض الروايات ـ فقال رسول الله : « إن كاد يسلم » .

وقال يحيى بن محمد بن صاعد : حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهرى ، حدثنا أبو أسامة ، حدثنا حاتم بن أبى صفرة عن سماك بن حرب عن عمرو بن نافع ، عن الشريد الهمدانى وأخواله ثقيف قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ فى حجة الوداع ، فبينا أنا أمشى ذات يوم إذا وقع ناقة خلفى ، فإذا رسول الله ﷺ فقال : « الشريد ؟ فقلت نعم ، قال ألا أحملك : قلت بلى . ومابى من إعياء ، ولـكنى أردت البركة فى ركوبى مع رسول الله ﷺ . فأناخ فحملنى فقال : أمعك من شعر أمية بن أبى الصلت ؟ قلت نعم ! قال هات ، فأنشدته ـ قال أظنه قال ـ مائة بيت ، فقال عند الله علم أمية بن أبى الصلت » . ثم قال ابن صاعد هذا حديث غريب . فأما الذى يروى أن رسول الله ﷺ قال فى أمية : « آمن شعره وكفر قلبه » ـ فلا أعرفه ، والله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الله بن محمد ـ هو أبو بكر بن أبى شيبة ـ حدثنا عبدة بن سليمان عن محمد بن إسحاق عن يعقوب بن عتبة عن عكرمة عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ صدق أمية فى شىء من شعره قال :

رجل وثورٌ تحت رِجل يمينه ... والنّسر للأخرى وليث مُرصدُ

والشمس تبدو كل آخر ليلة ... حمراء يصبح لونها يتورد

تأبى فما تطلع لنا فى رسلها ... إلا مُعذّبة وإلا تُجلَد

فقال رسول الله ﷺ : صدق . وفى رواية أبى بكر الهذلى عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال « إن الشمس لا تطلع حتى ينخسها سبعون ألف ملك ، يقول لها اطلعى اطلعى ، فتقول لا أطلع على قوم يعبدوننى من دون الله ، فإذا همت بالطلوع أتاها شيطان يريد أن يثبطها ، فتطلع بين قرنيه وتحرقه . فإذا تضيفت للغروب عزمت لله عز وجل ، فيأتيها شيطان يريد أن يثبطها عن السجود ، فتغرب من قرنيه وتحرقه . أورده ابن عساكر مطولا . ومن شعره فى حملة العرش :

فمن حامل إحدى قوائم عرشه ... ولولا إله الخلق كلوا وأبلدوا

قيام على الأقدام عانون تحته ... فرائصهم من شدة الخوف ترعد

رواه ابن عساكر . وروى عن الأصمعى أنه كان ينشد من شعر أمية :

مجدوا الله فهو للمجد أهل ... ربنا فى السماء أمسى كبيرا

بالبناء الأعلى الذى سبق النـ ... ـاس وسوى فوق السماء سريرا

شَرجعاً ينـاله بصر العيـ ... ـن ترى دونه الملائك صورا

ثم يقول الأصمعى : الملائك — جمع ملك ، والصور — جمع أصور ، وهو المائل العنق . وهؤلاء حملة العرش . ومن شعر أمية بن أبى الصلت يمدح عبد الله بن جدعان التيمى :

أأذكر حاجتى أم قد كفانى ... حياؤك إن شيمتك الحياء

وعلمك بالحقوق وأنت فرع ... لك الحسب المهذب والسناء

كريم لا يغيره صباح ... عن الخلق الجميل ولا مساء

يبارى الريح مكرمة وجوداً ... إذا ما الكلب أجحره الشتاء

وأرضك أرض مكرمة بنتها ... بنوتيم وأنت لها سماء

إذا أثنى عليك المرء يوماً ... كفاه من تعرضه الثناء

وله فيه مدائح أخر . وقد كان عبد الله بن جدعان هذا من الكرماء الأجواد الممدَّحين المشهورين ، وكان له جفنة يأكل الراكب منها وهو على بعيره ؛ من عرض حافتها وكثرة طعامها . وكان يملؤها باب البر يلبك بالشهد والسمن ، وكان يعتق الرقاب ويعين على النوائب . وقد سألت عائشة النبى ﷺ أينفعه ذلك ؟ فقال : « إنه لم يقل يوماً من الدهر : رب اغفرلى خطيئتى يوم الدين » ومن شعر أمية البديع :

لا ينكثون الأرض عند سؤالهم ... كتطلب العلات بالعيدان

بل يسفرون وجوههم فترى لها ... عند السؤال كأحسن الألوان

وإذا اللقل أقام وسط رحالهم ردوه رب صواهل وقيان

وإذا دعوتهم لكل ملمة سدوا شعاع الشمس بالفرسان

بحيرا الواهب

هو الذى توسم فى رسول الله صلى الله عليه وسلم النبوة، وهو مع عمه أبى طالب حين قدم الشام فى تجار من أهل مكة ، وعمره إذ ذاك اثنتا عشرة سنة ؛ فرأى الغمامة تظله من بينهم ، فصنع لهم طعاماً ضيافة واستدعاهم كما سيأتى بيان ذلك فى السيرة . وقد روى الترمذى فى ذلك حديثاً بسطنا الكلام عليه هنالك ، وقد أورد له الحافظ بن عساكر شواهد وسائغات فى ترجمة بحيرا . ولم يورد ما رواه الترمذى وهذا عجب .

وذكر ابن عساكر أن بحيرا كان يسكن قرية يقال لها الكفر[1] بينها وبين بصرى ستة أميال ، وهى التى يقال لها : « دير بحيرا » . قال ويقال : إنه كان يسكن قرية يقال لها « منفعة » بالبلقاء وراء زيرا ، والله أعلم .

ذكر قس بن ساعدة الإيادى

قال الحافظ أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل الخرائطى — فى كتاب هواتف الجان : حدثنا داود القنطرى ، حدثنا عبد الله بن صالح ، حدثنى أبو عبد الله المشرق عن أبى الحارث الوراق عن ثور بن يزيد عن مورق العجلى عن عبادة بن الصامت ، قال : لما قدم وفد إياد على النبى ﷺ قال : « يامعشر وفد إياد ! مافعل قس بن ساعدة الإيادى » ؟ قالوا : هلك يارسول الله . قال : « لقد شهدته يوماً بسوق عكاظ على جمل أحمر يتكلم بكلام معجب مونق لا أجدنى أحفظه » . فقام إليه أعرابى من أقاصى القوم فقال : أنا أحفظه يارسول الله . قال : فسر النبى ﷺ بذلك ، قال : فكان بسوق عكاظ على جمل أحمر وهو يقول : يا معشر الناس اجتمعوا ، فكل من فات فات ، وكل شىء آت آت ، ليل داج ، وسماء ذات أبراج ، وبحر عجاج . نجوم تزهر ، وجبال مرسية ، وأنهار مجرية . إن فى السماء لخبرا ، وإن فى الأرض لعبرا . مالى أرى الناس يذهبون فلا يرجعون ؟ أرضوا بالإقامة فأقاموا ؟ أم . تركوا فناموا؟ أقسم قس بالله قسما لاريب فيه ؛ إن لله ديناً هو أرضى من دينكم هذا . ثم أنشأ يقول :

فى الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر

لما رأيت موارداً للموت ليس لها مصادر

(١) فى القاموس — كفرية كطيبرية : بلد بالشام .

ورأيت قومى نحـوها   يمضى الأصاغر والأكابر
لا من مضى يأتى إليـ   ـك ولا من الباقين غابر
أيقنت أنى لا محا   لة حيث صار القوم صائر

وهذا إسناد غريب من هذا الوجه . وقد رواه الطبرانى من وجه آخر ، فقال فى كتابه المعجم الكبير : حدثنا محمد بن السرى بن مهران بن الناقد البغدادى ، حدثنا محمد بن حسان السهمى ، حدثنا محمد ابن الحجاج ، عن مجالد عن الشعبي عن ابن عباس . قال : قدم وفد عبد القيس على النبى ﷺ فقال : « أيكم يعرف قس بن ساعدة الأيادى ؟ » قالوا كلنا يعرفه يارسول الله . قال « فما فعل » ؟ قالوا هلك قال : « فما أنساه بعكاظ فى الشهر الحرام وهو على جمل أحمر ، وهو يخطب الناس وهو يقول : يا أيها الناس : اجتمعوا واستمعوا وعوا ، من عاش مات ومن مات فات ، وكل ما هوآت آت . إن فى السماء لخبرا ، وإن فى الأرض لعبرا . مهاد موضوع ، وسقف مرفوع ، ونجوم تمور ، وبحار لا تغور . وأقسم قس قسما حقاً ؛ لئن كان فى الأمر رضى ليكون بعده سخط . إن لله لديناً هو أحب إليه من دينكم الذى أنتم عليه . مالى أرى الناس يذهبون ولا يرجعون ؟ أرضوا بالمقام فأقاموا ؟ أم تركوا فناموا ؟» . ثم قال رسول الله ﷺ : أفيكم من يروى شعره ؟ فأنشده بعضهم :

فى الذاهبين الأوليـ   ـن من القرون لنا بصائر
لما رأيت مـوارداً   للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومى نحوها   يسعى الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضى إلـ   ـى ولا من الباقين غابر
أيقنت أنى لا محا   لة حيث صار القوم صائر

وهكذا أورده الحافظ البيهقى فى كتابه دلائل النبوة ؛ من طريق محمد بن حسان السلمى به وهكذا رويناه فى الجزء الذى جمعه الأستاذ أبو محمد عبد الله بن جعفر بن درستوريه فى أخبار قس . قال : حدثنا عبد الكريم بن الهيثم الديرعا قولى عن سعيد بن شبيب عن محمد بن الحجاج عن إبراهيم الواسطى نزيل بغداد — ويعرف بصاحب الهريسة ، وقد كذبه يحيى بن معين ، وأبو حاتم الرازى والدارقطنى ، واتهمه غير واحد ؛ منهم ابن عدى — بوضع الحديث. وقد رواه البزار وأبو نعيم من حديث محمد بن الحجاج . هذا ورواه ابن درستوريه وأبو نعيم من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس . وهذه الطريق أمثل من التى قبلها ، وفيه أن أبا بكر هو الذى أورد القصة بكمالها نظمها ونثرها بين يدى رسول الله ﷺ . ورواه الحافظ أبو نعيم من حديث أحمد بن موسى بن إسحاق الحطمي ، حدثنا علي بن الحسين بن محمد

المخزومى ، حدثنا أبو حاتم السجستانى ، حدثنا وهب بن جرير عن محمد بن إسحاق عن الزهرى عن سعيد ابن المسيب عن ابن عباس ، قال : قدم وفد بكر بن وائل على رسول الله ﷺ فقال لهم : « ما فعل حليف لكم يقال له قس بن ساعدة الأيادى ؟ » ، وذكر القصة مطولة .

وأخبرنا الشيخ المسند الرحلة أحمد بن أبى طالب الحجار إجازة إن لم يكن سماعاً قال : أجاز لنا جعفر بن على الهمدانى قال : أخبرنا الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السلفى سماعاً ، وقرأت على شيخنا الحافظ أبى عبد الله الذهبى ، أخبرنا أبو على الحسن بن على بن أبى بكر الخلال سماعاً قال : ثنا جعفر بن على سماعاً ، قال ثنا السلفى سماعاً ، ثنا أبو عبد الله محمد بن أحمد إبراهيم الرازى ، ثنا أبو الفضل محمد بن أحمد بن عيسى السعدى ، ثنا أبو القاسم عبيدالله ابن أحمد بن على المقرىء ، حدثنا أبو محمد عبد الله بن جعفر بن دستورية النحوى قال : حدثنا إسماعيل ابن إبراهيم بن أحمد السعدى — قاضى فارس — حدثنا أبو داود سليمان بن سيف بن يحيى بن درهم الطائى من أهل حران ، حدثنا أبو عمرو سعيد بن ربيع عن محمد بن إسحاق حدثنى بعض أصحابنا من أهل العلم عن الحسن بن أبى الحسن البصرى أنه قال : كان الجارود بن المعلى حنش بن معلى العبدى نصرانياً حسن المعرفة بتفسير الكتب وتأويلها ، عالماً بسير الفرس وأقاويلها ، بصيراً بالفلسفة والطب ، ظاهر الدهاء والأدب ، كامل الجمال ، ذا ثروة ومال . وإنه قدم على النبى صلى الله عليه وسلم وافداً فى رجال من عبد القيس ذوى آراء وأسنان ، وفصاحة وبيان ، وحجج وبرهان . فلما قدم على النبى ﷺ وقف بين يديه وأشار إليه وأنشأ يقول :

يا نبى الهدى أتتك رجال … قطعت فدفداً وآلاً فآلا
وطوت نحوك الصحاصح تهوى … لا تعد الكلال فيك كلالا
كل بهماء قصر الطرف عنها … أرقلتها قلاصنا إرقالا
وطوتها العتاق يجمح فيها … بكماة كأنجم تتلالا
تبتغى دفع بأس يوم عظيم … هائل أوجع القلوب وهالا
ومزاداً لمحشر الخلق طراً … وفراقاً لمن تمادى ضلالا
نحو نور من الإله وبرها … ن وبر ونعمة أن تنالا
خصك الله يا ابن آمنة الخـ … ير بها إذ أتت سجالا سجالا
فاجعل الحظ منك يا حجة الله … ه جزيلا لا حظ خلف أحالا

قال فأدناه النبى ﷺ وقرب مجلسه ، وقال له : « يا جارود لقد تأخر الموعود بك وبقومك » .

فقال الجارود : فداك أبي وأمي . أما من تأخر عنك فقد فاته حظه ، وتلك أعظم حوبة وأغلظ عقوبة . وما كنت فيمن رآك أو سمع بك فعداك واتبع سواك ، وإني الآن على دين قد علمت به قد جئتك وأنا تاركه لدينك ، أفذلك مما يمحص الذنوب ، والمآثم والحوب ؟ ويرضى الرب عن المربوب ؟ فقال له رسول الله ﷺ : « أنا ضامن لك ذلك ، وأخلص الآن لله بالوحدانية ودع عنك دين النصرانية » . فقال الجارود : فداك أبي وأمي! مد يدك، فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأشهد أنك محمد عبده ورسوله . قال : فأسلم وأسلم معه أناس من قومه . فسر النبي ﷺ بإسلامهم ، وأظهر من إكرامهم ماسروا به وابتهجوا به . ثم أقبل عليهم رسول الله ﷺ فقال : « أفيكم من يعرف قس بن ساعدة الإيادي ؟ فقال الجارود : فداك أبي وأمي ! كلنا نعرفه ، وإني من بينهم لعالم بخبره ، واقف على أمره . كان قس يارسول سبطاً من أسباط العرب ، عمر ستمائة سنة تقفر منها خمسة أعمار في البراري والقفار . يضج بالتسبيح على مثال المسيح ، لايقره قرار ولا تكنه دار ، ولا يستمتع به جار . كان يلبس الأمساح ويفوق السياح ، ولا يفتر من رهبانيته ؛ يتحسى في سياحته بيض النعام ، ويأنس بالهوام ، ويستمتع بالظلام . يبصر فيعتبر ، ويفكر فيختبر ، فصار لذلك واحداً تضرب بحكمته الأمثال ، وتكشف به الأهوال . أدرك رأس الحواريين سمعان ، وهو أول رجل تأله من العرب ووحّد ، وأقر وتعبد ، وأيقن بالبعث والحساب ، وحذر سوء المآب . وأمر بالعمل قبل الفوت ، ووعظ بالموت ، وسلم بالقضا على السخط والرضا ، وزار القبور ، وذكر النشور ، وندب بالأشعار ، وفكر في الأقدار . وأنبأ عن السماء والنماء ، وذكر النجوم وكشف الماء . ووصف البحار وعرف الآثار . وخطب راكباً ، ووعظ دائباً . وحذر من الكرب ، ومن شدة الغضب . ورسَّل الرسائل ، وذكر كل هائل . وأرغم في خطبه ، وبين في كتبه . وخوف الدهر ، وحذر الأزر ، وعظم الأمر ، وجنب الكفر . وشوق إلى الحنيفية ، ودعا إلى اللاهوتية .

وهو القائل في يوم عكاظ : شرق وغرب ، ويتم وحزب ، وسلم وحرب ، ويابس ورطب ، وأجاج وعذب . وشموس وأقمار ، ورياح وأمطار ، وليل ونهار . وإناث وذكور ، وبرار وبحور : وحب ونبات وآباء وأمهات ، وجمع وأشتات ، وآيات في إثرها آيات . ونور وظلام ، ويسر وإعدام ، ورب وأصنام — لقد ضل الأنام . نشوّ مولود ، ووأد مفقود ، وتربية محصود وفقير وغني ، ومحسن ومسيء . تباً لأرباب الغفلة ؛ ليصلحن العامل عمله ، وليفقدن الآمل أمله . كلا بل هو إله واحد ، ليس بمولود ولا والد ؛ أعاد وأبدى ، وأمات وأحيا ، وخلق الذكر والأنثى ، رب الآخرة والأولى . أما بعد فيامعشر إياد ! أين ثمود وعاد ؟ وأين الآباء والأجداد ؟ وأين العليل والعواد ؟ كل له معاد . يقسم قس برب العباد ، وساطح المهاد — لتحشرن على الانفراد ، في يوم التناد ؛ إذا نفخ في الصور ، ونقر في الناقور ، وأشرقت الأرض ، ووعظ الواعظ ، فانتبذ القانط وأبصر اللاحظ . فويل لمن صدف عن الحق الأشهر

والنور الأزهر، والعرض الأكبر، فى يوم الفصل، وميزان العدل - إذا حكم القدير، وشهد النذير، وبعد النصير، وظهر التقصير، ففريق فى الجنة وفريق فى السعير. وهو القائل:

ذكر القلب من جواه ادكار ... وليال خلالهن نهار
وسجال هواطل من غمام ... ثرن ماء وفى جواهن نار
ضوؤها يطمس العيون وأرعا ... د شداد فى الخافقين تطار
وقصور مشيدة حوت الخ ... ير وأخرى خلت بهن قفار
وجبال شوامخ راسيات ... وبحار مياههن غزار
ونجوم تلوح فى ظلم اللي ... ل نراها فى كل يوم تدار
ثم شمس يحثها قمر اللي ... ل وكل متابع موّار
وصغير وأشمط وكبير ... كلهم فى الصعيد يوماً مزار
وكبير مما يقصر عنه ... حدسه الخاطر الذى لا يحار
فالذى قد ذكرت دل على الل ... ه نفوساً لها هدًى واعتبار

قال: فقال رسول الله ﷺ: «مهما نسيت فلست أنساه بسوق عكاظ، واقفاً على جمل أحمر يخطب الناس: اجتمعوا فاسمعوا، وإذا سمعتم فعوا، وإذا وعيتم فانتفعوا. وقولوا وإذا قلتم فاصدقوا؛ من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، مطر ونبات، وأحياء وأموات، ليل داج، وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهر، وبحار تزخر، وضوء وظلام، وليل وأيام، وبر وآثام. إن فى السماء خبراً، وإن فى الأرض عبراً، يحار فيهن البصرا. مهاد موضوع، وسقف مرفوع، ونجوم تغور، وبحار لا تفور. ومنايا دوان، ودهر خوان، كحد النسطاس، ووزن القسطاس. أقسم قس قسما. لا كاذباً فيه ولا آثماً؛ لئن كان فى هذا الأمر رضى - ليكونن سخط. ثم قال: أيها الناس! إن لله ديناً هو أحب إليه من دينكم هذا الذى أنتم عليه وهذا زمانه وأوانه. ثم قال: مالى أرى الناس يذهبون فلا يرجعون؟ أرضوا بالمقام فأقاموا؟ أم تركوا فناموا؟» والتفت رسول الله ﷺ إلى بعض أصحابه فقال: «أيكم يروى شعره لنا»؟ فقال أبو بكر الصديق: فداك أبى وأمى! أنا شاهد له فى ذلك اليوم حيث يقول:

فى الذاهبين الأولي * ن من القرون لنا بصائر ... لما رأيت مواردا * للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومى نحوها * يمضى الأصاغر والأكابر ... لا يرجع الماضى إلـ * ـى ولا من الباقين غابر
أيقنت أنى لا محا ... لة حيث صار القوم صائر

قال : فقام إلى رسول الله ﷺ شيخ من عبد القيس ؛ عظيم الهامة ، طويل القامة ، بعيد مابين المنكبين فقال : فداك أبي وأمي ! وأنا رأيت من قس عجباً . فقال له رسول الله ﷺ : « ما الذى رأيت يا أخا بنى عبد القيس ؟ » . فقال : خرجت فى شبيبتى أربع بعيراً لى ندعنى ، أقفو أثره فى تنائف قفاف[1] ذات ضغابيس[2] ، وعرصات جثجاث[3] بين صدور جذعان ، وغمير حَوذان[4] ، ومهمه ظلمان ، ورصيع أيهقان[5] ، فبينا أنا فى تلك الفلوات أجول بسبسبها ، وأرنق فدفدها ـ إذا أنا بهضبة فى نشزاتها أراك كباث مخضوضلة ، وأغصانها متهدلة ، كأن بريرها حب الفلفل وبواسق أقحوان ، وإذا بعين خرارة وروضة مدهامة ، وشجرة عارمة ، وإذا أنا بقس بن ساعدة فى أصل تلك الشجرة وبيده قضيب . فدنوت منه وقلت له : أنعم صباحاً ! فقال : وأنت فنعم صباحك . وقد وردت العين سباع كثيرة ، فكان كلما ذهب سبع منها يشرب من العين قبل صاحبه ـ ضربه قس بالقضيب الذى بيده . وقال : اصبر حتى يشرب الذى قبلك ، فذعرت من ذلك ذعراً شديداً ، ونظر إلىّ فقال لا تخف . وإذا بقبرين بينهما مسجد ، فقلت ماهذان القبران ؟ قال قبرا أخوين كانا يعبدان الله عز وجل بهذا الموضع ، فأنا مقيم بين قبريهما أعبد الله حتى ألحق بهما . فقلت له : أفلا تلحق بقومك فتكون معهم فى خيرهم وتباينهم على شرهم ؟ فقال لى : ثكلتك أمك ، أوماعلمت أن ولد إسماعيل تركوا دين أبيهم واتبعوا الأضداد وعظموا الأنداد ؟ ثم أقبل على القبرين وأنشأ يقول :

خليلى هبّا طالما قد رقدتما ... أجداكما لا تقضيان كراكما
أرى النوم بين الجلد والعظم منكما ... كأن الذى يسقى العقار سقاكما
أمن طول نوم لا تجيبان داعياً ؟ ... كأن الذى يسقى العقار سقاكما
ألم تعلما أنى بنجران مفرداً ... ومالى فيه من حبيب سواكما ؟
مقيم على قبريكما لست بارحاً ... إياب الليالى أو يجيب صداكما
أبكيكما طول الحياة وما الذى ... يرد على ذى لوعة أن بكاكما
فلو جعلت نفس لنفس امرئ فدى ... لجدت بنفسى أن تكون فداكما
كأنكما والموت أقرب غاية ... بروحى فى قبريكما قد أتاكما

قال : فقال رسول الله ﷺ : « رحم الله قساً ، أما إنه سيبعث يوم القيامة أمة وحده » . وهذا

---

(١) أى مفازات ذات أحجار لاتخالطها سهولة . (٢) أى حشائش وأشواك ، جمع ضغبوس .

(٣) الجثجاث : نبات ينبت فى السهول فى الربيع فإذا جاء الصيف جف ، والإبل تأكله إذا لم تجد غيره .

(٤) جذعان الجبل : صغارها . والحوذان : نبت .

(٥) عشب يطول ، عريض الورق يؤكل ، وقيل هو الجرجير البرى .

الحديث غريب جداً من هذا الوجه ، وهو مرسل – إلا أن يكون الحسن سمعه من الجارود ، والله أعلم .

وقد رواه البيهقي والحافظ أبو القاسم بن عساكر من وجه آخر ، من حديث محمد بن عيسى بن محمد بن سعيد القرشي الإخباري ، ثنا أبي ، ثنا علي بن سليمان بن علي عن علي بن عبد الله عن عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما قال : قدم الجارود بن المعلى ، فذكر مثله أو نحوه مطولا بزيادات كثيرة في نظمه ونثره ، وفيه ما ذكره عن الذي ضل بعيره فذهب في طلبه قال : فبت في واد لا آمن فيه حتفي ، ولا أركن إلى غير سيفي ، أرقب الكوكب ، وأرمق الغيهب ، حتى إذا الليل عسعس ، وكاد الصبح أن يتنفس ، هتف بي هاتف يقول :

يا أيها الراقد في الليل الأجم ... قد بعث الله نبياً في الحرم
من هاشم أهل الوفاء والكرم ... يجلو دجيات الدياجي والبهم

قال فأدرت طرفي فما رأيت له شخصاً ولا سمعت له فحصاً ، قال فأنشأت أقول :

يا أيها الهاتف في داجي الظلم ... أهلا وسهلا بك من طيف ألم
بيّن هداك الله في لحن الكلم ... ماذا الذي تدعو إليه يغتنم

قال : فإذا أنا بنحنحة وقائل يقول : ظهر النور ، و بطل الزور ، وبعث الله محمداً بالحبور ، صاحب النجيب الأحمر ، والتاج والمغفر ، والوجه الأزهر ، والحاجب الأقمر ، والطرف الأحور صاحب قول شهادة أن لا إله إلا الله . وذلك محمد المبعوث إلى الأسود والأبيض ، أهل المدر والوبر . ثم أنشأ يقول :

الحمد لله الذي ... لم يخلق الخلق عبث
لم يخلنا يوماً سدًى ... من بعد عيسى واكترث
أرسل فينا أحمداً ... خير نبي قد بعث
صلى عليه الله ما ... حج له ركب وحث

وفيه من إنشاء قس بن ساعدة :

يا ناعي الموت والملحود في جدث ... عليهم من بقايا قولهم خرق
دعهم فإن لهم يوماً يصاح بهم ... فهم إذا انتبهوا من نومهم أرقوا
حتى يعودوا بحال غير حالهم ... خلقاً جديداً كما من قبله خلقوا
منهم عراة ومنهم في ثيابهم ... منها الجديد ومنها المنهج الخلق

ثم رواه البيهقي عن محمد بن عبد الله بن يوسف بن أحمد الأصبهاني ، حدثنا أبو بكر أحمد بن سعيد بن فرضخ الأخميمي بمكة . حدثنا القاسم بن عبد الله بن مهدي ، ثنا أبو عبيد الله سعيد بن عبد الرحمن

المخزومى ، ثنــا سفيان بن عيينة عن أبى حمزة الثمالى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، فذكر القصة وذكر الإلشاد . قال : فوجدوا عند رأسه صحيفة فيها :

ياناعى الموت والأموات فى جدث   عليهم من بقايا نومهم خرق

دعهم فإن لهم يوماً يصاح بهم   كما تنبه من نوماته الصعق

منهم عراة وموتى فى ثيابهم   منها الجديد ومنها الأزرق الخلق

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذى بعثنى بالحق لقد آمن قس بالبعث » وأصله مشهور ، وهذه الطرق على ضعفها كالمتعاضدة على إثبات أصل القصة . وقد تكلم أبو محمد بن درستويه على غريب ما وقع فى هذا الحديث ، وأكثره ظاهر إن شاء الله تعالى ، وما كان فيه غرابة شديدة نبهنا عليه فى الحواشى .

وقال البيهقى : أنا أبو سعيد بن محمد بن أحمد الشعيثى ، ثنا أبو عمرو بن أبى طاهر المحمد آباذى لفظاً ، ثنا أبو لبابة محمد بن المهدى الأموردى ، ثنا أبى ، ثنا سعيد بن هبيرة ، ثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه عن أنس بن مالك قال : قدم وفد إياد على النبى ﷺ فقال : « ما فعل قس بن ساعدة » ؟ قالوا هلك . قال : « أما إنى سمعت منه كلاماً أرى أنى أحفظه » ، فقال بعض القوم : نحن نحفظه يارسول الله ، قال هاتوا : فقال قائلهم : إنى واقف بسوق عكاظ فقال : يا أيها الناس استمعوا واسمعوا وعوا ، كل من عاش مات ، وكل من مات فات ، وكل ماهو آت آت ، ليل داج ، وسماء ذات أبراج ، ونجوم تزهر ، وبحار تزخر ، وجبال مرسية ، وأنهار مجرية ، إن فى السماء لخبرا ، وإن فى الأرض لعبرا ، أرى الناس يموتون ولا يرجعون . أرضوا بالإقامة فأقاموا ؟ أم تركوا فناموا ؟ أقسم قس قسما بالله لا آثم فيه ، إن لله ديناً هو أرضى مما أنتم عليه ، ثم أنشأ يقول :

فى الذاهبين الأولـ   ين من القرون لنا بصائر

لما رأيت مصارعاً   للقوم ليس لها مصادر

ورأيت قومى نحوها   يمضى الأكابر والأصاغر

أيقنت أنى لا محا   لة حيث صار القوم صائر

ثم ساقه البيهقى من طرق أخر قد نبهنا عليها فيما تقدم ، ثم قال بعد ذلك كله : وقد روى هذا الحديث عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس بزيادة ونقصان . وروى من وجه آخر عن الحسن البصرى منقطعاً ، وروى مختصراً من حديث سعد بن أبى وقاص وأبى هريرة . قلت : وعبادة بن الصامت

كما تقدم وعبد الله بن مسعود كما رواه أبو نعيم فى كتاب الدلائل عن عبد الله بن محمد بن عثمان الواسطى عن أبى الوليد طريف بن عبيد الله مولى على بن أبى طالب بالموصل ، عن يحيى بن عبد الحميد الحمانى عن أبى معاوية عن الأعمش عن أبى الضحى عن مسروق عن ابن مسعود فذكره . وروى أبو نعيم أيضاً حديث عبادة المتقدم وسعد بن أبى وقاص . ثم قال البيهقى : وإذا روى الحديث من أوجه أخر — وإن كان بعضها ضعيفاً — دل على أن للحديث أصلا ، والله أعلم .

ذكر زيد بن عمرو بن نفيل رضى الله عنه

هو زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب بن لؤى القرشى العدوى . وكان الخطاب والد عمر بن الخطاب عمه وأخاه لأمه ؛ وذلك لأن عمرو ابن نفيل كان قد خلف على امرأة أبيه بعد أبيه ، وكان لها من نفيل أخوه الخطاب ، قاله الزبير بن بكار ومحمد بن إسحاق وكان زيد بن عمرو قد ترك عبادة الأوثان وفارق دينهم ، وكان لا يأكل إلا ما ذبح على اسم الله وحده . قال يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق : حدثنى هشام بن عروة عن أبيه عن أسماء بنت أبى بكر قالت : لقد رأيت زيدَ بن عمرو بن نفيل مسنداً ظهره إلى الكعبة يقول : يامعشر قريش ! والذى نفس زيد بيده ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيرى ، ثم يقول : اللهم إنى لو أعلم أى الوجوه أحب إليك عبدتك به ، ولكنى لا أعلم ، ثم يسجد على راحلته وكذا رواه أبو أسامة عن هشام به ، وزاد : وكان يصلى إلى الكعبة ويقول : إلهى إله إبراهيم ، ودينى دين إبراهيم . وكان يحيى الموءودة ، ويقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته : لا تقتلها ؛ ادفعها إلى أكفلها ، فإذا ترعرعت فإن شئت فخذها وإن شئت فادفعها . أخرجه النسائى من طريق أبى أسامة وعلقه البخارى فقال : وقال الليث : كتب إلى هشام بن عروة عن أبيه به . وقال يونس ابن بكير عن محمد بن إسحاق : وقد كان نفر من قريش ؛ زيد بن عمرو بن نفيل ، وورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ، وعثمان بن الحويرث ابن أسد بن عبد العزى ، وعبد الله بن جحش بن رياب بن يعمر بن صبرة بن مرة بن كبير بن غنم ابن داودان بن أسعد بن أسد بن خزيمة . وأمه أميمة بنت عبد المطلب ، وأخته زينب بنت جحش التى تزوجها رسول الله ﷺ بعد مولاه زيد بن حارثة كما سيأتى بيانه — حضروا قريشاً عند وثن لهم كانوا يذبحون عنده لعيد من أعيادهم ، فلما اجتمعوا خلا بعض أولئك النفر إلى بعض وقالوا : تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض . فقال قائلهم : تعلمنّ والله ما قومكم على شىء ، لقد أخطئوا دين إبراهيم وخالفوه ، ما وثن يعبد لا يضر ولا ينفع ؟ فابتغوا لأنفسكم ، فخرجوا يطلبون ويسيرون فى الأرض يلتمسون أهل كتاب من اليهود والنصارى والملل كلها ليهتدوا إلى الحنيفية دين إبراهيم .

فأما ورقة بن نوفل فتنصر واستحكم فى النصرانية ، وابتغى الكتب من أهلها حتى علم علماً كثيراً من أهل الكتاب ، ولم يكن فيهم أعدل أمراً وأعدل ثباتاً من زيد بن عمرو بن نفيل ، اعتزل الأوثان وفارق الأديان من اليهود والنصارى والملل كلها ، إلا دين الحنيفية دين إبراهيم ؛ يوحد الله ويخلع من دونه ، ولا يأكل ذبائح قومه . فأذاهم بالفراق لما هم فيه . قال : وكان الخطاب قد آذاه أذى كثيراً حتى خرج منه إلى أعلى مكة ، ووكل به الخطاب شباباً من قريش وسفهاء من سفهائهم ، فقال لهم لاتتركوه يدخل مكة ، فكان لايدخلها إلا سراً منهم . فإذا علموا به أخرجوه وآذوه كراهية أن يفسد عليهم دينهم ، أو يتابعه أحد إلى ماهو عليه . وقال موسى بن عقبة : سمعت من أرضى يحدث عن زيد بن عمرو بن نفيل ، كان يعيب على قريش ذبائحهم ، ويقول : الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء ماء وأنبت لها من الأرض ؛ لم تذبحوها على غير اسم الله ؟ إنكاراً لذلك وإعظاماً له .

وقال يونس عن ابن إسحاق : وقد كان زيد بن عمرو بن نفيل ، قد عزم على الخروج من مكة ، فضرب فى الأرض يطلب الحنيفية دين إبراهيم ، وكانت امرأته صفية بنت الحضرمى كلما أبصرته قد نهض للخروج وأراده — آذنت الخطاب بن نفيل . فخرج زيد إلى الشام يلتمس ويطلب فى أهل الكتاب الأول دين إبراهيم ويسأل عنه ، ولم يزل فى ذلك — فيما يزعمون — حتى أتى الموصل والجزيرة كلها ، ثم أقبل حتى أتى الشام فجال فيها ، حتى أتى راهباً ببيعة من أرض البلقاء كان ينتهى إليه علم النصرانية — فيما يزعمون — فسأله عن الحنيفية دين إبراهيم ، فقال له الراهب : إنك لتسأل عن دين ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم ؛ لقد درس من علمه وذهب من كان يعرفه ، ولكنه قد أظل خروج نبى وهذا زمانه . وقد كان شامَ اليهودية والنصرانية فلم يرض شيئاً منهما ، فخرج سريعاً — حين قال له الراهب ما قال — يريد مكة ، حتى إذا كان بأرض لخم — عدوا عليه فقتلوه ، فقال ورقة يرثيه :

رشدتَ وأنعمت ابن عمرو وإنما ... تجنبت تنوراً من النار حاميا

بدينك رباً ليس ربٌّ كمثله ... وتركك أوثان الطواغى كما هيا

وقد تدرك الإنسان رحمة ربه ... ولو كان تحت الأرض سبعين واديا

وقال محمد بن عثمان بن أبى شيبة : حدثنا أحمد بن طارق الوابشى ، ثنا عمرو بن عطية عن أبيه عن ابن عمر عن زيد بن عمرو بن نفيل ، أنه كان يتأله فى الجاهلية ، فانطلق حتى أتى رجلا من اليهود ، فقال له : أحب أن تدخلنى معك فى دينك ، فقال له اليهودى : لا أدخلك فى دينى حتى تبوء بنصيبك من غضب الله ، فقال من غضب الله أفر ؟ فانطلق حتى أتى نصرانياً فقال له أحب أن تدخلنى معك فى دينك ، فقال : لست أدخلك فى دينى حتى تبوء بنصيبك من الضلالة ، فقال من الضلالة أفر ؟ قال له النصرانى

فإنى أدلك على دين إن تبعته اهتديت ، قال أى دين؟ قال دين إبراهيم . قال : فقال اللهم إنى أشهدك أنى على دين إبراهيم ! عليه أحيا وعليه أموت . قال فذكر شأنه للنبى ﷺ فقال : « هو أمة وحده يوم القيامة » .

وقد روى موسى بن عقبة عن سالم عن ابن عمر نحو هـذا . وقال محمد بن سعد : حدثنا على بن محمد ابن عبد الله بن سيف القرشى عن إسماعيل عن مجالد عن الشعبى عن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب قال : قال زيد بن عمرو بن نفيل : شاممت اليهودية والنصرانية فكرهتهما . فكنت بالشام وما والاها ، حتى أتيت راهباً فى صومعة ، فذكرت له اغترابى عن قومى وكراهتى عبادة الأوثان واليهودية والنصرانية فقال لى : أراك تريد دين إبراهيم ، ياأخا أهل مكة ! إنك لتطلب ديناً مايوجد اليوم أحـد يدين به ، وهو دين أبيك إبراهيم ؛ كان حنيفاً ، لم يـكن يهودياً ولا نصرانياً ، كان يصلى ويسجد إلى هذا البيت الذى ببلادك ، فالحق ببلدك فإن الله يبعث من قومك فى بلدك من يأتى بدين إبراهيم الحنيفية ، وهو أكرم الخلق على الله . وقال يونس عن ابن إسحاق : حدثنى بعض آل زيد بن عمرو بن نفيل : أن زيداً كان إذا دخل الـكعبة قال : لبيك حقاً حقـا ، تعبداً ورقا .

عُذت بما عاذ به إبراهيم ْ مستقبل القبـلة وهو قائم

إذ قال : إلَهى أنفى لك عانٍ راغمْ مهما تجشمنى فإنى جاشمْ

البـر أبغى لا الخـال ليس مهجرٌ كمن قال[1]

وقال أبو داود الطيالسى : حدثنا المسعودى عن نفيل بن هشام بن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل العدوى عن أبيه عن جده : أن زيد بن عمرو وورقة بن نوفل خرجا يلتمسان الدين حتى انتهيا إلى راهب بالموصل ، فقال لزيد بن عمرو : من أين أقبلت ياصاحب البعير ؟ فقال من بنية إبراهيم ، فقال وما تلتمس ؟ قال ألتمس الدين . قال ارجع فإنه يوشك أن يظهر فى أرضك . قال : فأما ورقة فتنصر ، وأما أنا فعزمت على النصرانية فلم يوافقنى فرجع وهو يقول :

لبيك حقاً حقا ، تعبداً ورقا البر أبغى لا الخال ، فهل مهجّر كمن قال

آمنت بمـا آمن به إبراهيم وهو يقول : أنفى لك عان راغم ، مهما تجشمنى فإنى جاشم ، ثم يخر فيسجد . قال : وجاء ابنه — يعنى سعيد بن زيد — أحد العشرة رضى الله عنه فقال : يارسول الله : إن أبى كما رأيت وكما بلغك فاستغفر له . قال : « نعم — فإنه يبعث يوم القيامة أمة وحده » . قال وأتى زيد بن عمرو ابن زيد على رسول الله ﷺ ومعه زيد بن حارثة وهما يأكلان من سفرة لهما ، فدعواه لطعامهما . فقال زيد بن عمرو : يابن أخى ! أنا لا آكل مما ذبح على النصب . وقال محمد بن سـعد : حدثنا محمد بن عمرو

---

(١) الخال : الخيلاء والـكبر . والمهجر — من الهجر : وهو أشد الحر . وقال : من القيلولة .

حدثنى أبو بكر بن أبى سبرة عن موسى بن ميسرة عن ابن أبى مليكة عن حجر بن أبى أهاب ، قال : رأيت زيد بن عمرو وأنا عند صنم بُوَانه[1] بعد مارجع من الشام وهو يراقب الشمس ، فإذا زالت استقبل الكعبة فصلى ركعة سجدتين ثم يقول : هذه قبلة إبراهيم و إسماعيل ، لاأعبد حجراً ولا أصلى له ، ولا آكل ماذبح له ولا أستقسم بالأزلام ، و إنما أصلى لهذا البيت حتى أموت . وكان يحج فيقف بعرفة ، وكان يلبى فيقول : لبيك لاشريك لك ولا ند لك ، ثم يدفع من عرفة ماشياً وهو يقول : لبيك متعبداً مرقوقاً .

وقال الواقدى : حدثنى على بن عيسى الحكمى عن أبيه عن عامر بن ربيعة قال : سمعت زيد بن عمرو بن نفيل يقول : أنا أنتظر نبياً من ولد إسماعيل ثم من بنى عبد المطلب ، ولا أرانى أدركه وأنا أؤمن به وأصدقه وأشهد أنه نبى ، فإن طالت بك مدة فرأيته فأقرئه منى السلام ، وسأخبرك مانعتهُ حتى لايخفى عليك . قلت : هلم ! قال : هو رجل ليس بالطويل ولا بالقصير ، ولا بكثير الشعر ولا بقليله ، وليست تفارق عينه حمرة ، وخاتم النبوة بين كتفيه واسمه أحمد ، وهذا البلد مولده ومبعثه ، ثم يخرجه قومه منها ، و يكرهون ماجاء به ، حتى يهاجر إلى يثرب فيظهر أمره . فإياك أن تخدع عنه ، فإنى طفت البلاد كلها أطلب دين إبراهيم فكان من أسأل من اليهود والنصارى والمجوس يقولون : هذا الدين وراءك وينعتونه مثل مانعته لك ، و يقولون لم يبق نبى غيره . قال عامر بن ربيعة : فلما أسلمت أخبرت رسول الله ﷺ قول زيد بن عمرو و إقراءه منه السلام ، فرد عليه السلام وترحم عليه وقال : « قد رأيته فى الجنة يسحب ذيولا » . وقال البخارى فى صحيحه : [ذكر زيد بن عمرو بن نفيل] حدثنا محمد بن أبى بكر ، حدثنا فُضيل بن سليمان ، حدثنا موسى بن عقبة ، حدثنى سالم عن عبد الله بن عمر أن النبى ﷺ لقى زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بَلْدَح[2] قبل أن ينزل على النبى ﷺ الوحى ، فَقَدَّمت إلى النبى ﷺ سُفرة فأبى أن يأكل منها ، ثم قال زيد : إنى لستُ آكل مما تذبحون على أنصابكم ، ولا آكل إلا ماذكر اسم الله عليه ، وأن زيد بن عمرو كان يعيب على قريش ذبائحهم ويقول : الشاةُ خلقها الله وأنزل لها من السماء ماء ، وأنبت لها من الأرض ، ثم تذبحونها على غير اسم الله ؟ إنكاراً لذلك وإعظاماً له . قال موسى بن عقبة : حدثنى سالم بن عبد الله — ولا أعلمه إلا يحدث به عن ابن عمر — أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشأم يسأل عن الدين ويتْبَعه ، فلقى عالماً من اليهود فسأله عن دينهم فقال : إنى لعلّى أن أدين دينكم فأخبرنى ، فقال إنك لاتكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله ، قال زيد : ماأفر إلا من غضب الله تعالى ، ولا أحمل من غضب الله شيئاً أبداً

---

(١) بوانة : هضبة وراء ينبع ، وماء لبني عقيل . (٢) واد غربى مكة لبنى فزارة .

وأنى أستطيعه ؟ فهل تدلنى على غيره ؟ قال ماأعلمه إلا أن يكون حنيفاً ، قال زيد : وما الحنيف ؟ قال دين إبراهيم عليه السلام ؛ لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولا يعبد إلا الله . فخرج زيد فلقى عالماً من النصارى ، فذكر مثله ، فقال لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله ، قال ماأفر إلا من لعنة الله ولا أحمل من لعنة الله ولا من غضبه شيئاً أبداً ، وأنى أستطيع ؟ فهل تدلنى على غيره ؟ قال ماأعلمه إلا أن تكون حنيفاً ، قال وما الحنيف ؟ قال دين إبراهيم ؛ لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولا يعبد إلا الله . فلما رأى زيد قولهم فى إبراهيم خرج ، فلما برز رفع يديه فقال : اللهم إنى أشهدك أنى على دين إبراهيم . قال : وقال الليث : كتب إلىّ هشام ابن عروة عن أبيه عن أسماء بنت أبى بكر قالت : رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائماً مسنداً ظهره إلى الكعبة يقول : يامعشر قريش ! والله مامنكم على دين إبراهيم غيرى . وكان يحيى الموءودة ويقول الرجل إذا أراد أن يقتل ابنته : لاتقتلها أنا أكفيك مؤنتها فيأخذها ، فإذا ترعرعت قال لأبيها : إن شئت دفعتها إليك ، وإن شئت كفيتك مؤنتها . انتهى ما ذكره البخارى .

وهذا الحديث الأخير قد أسنده الحافظ ابن عساكر من طريق أبى بكر بن أبى داود عن عيسى ابن حماد عن الليث عن هشام عن أبيه عن أسماء ، فذكر نحوه . وقال عبدالرحمن بن أبى الزناد عن هشام ابن عروة عن أبيه عن أسماء ، قالت : سمعت زيد بن عمرو بن نفيل وهو مسند ظهره إلى الكعبة يقول: يامعشر قريش : إياكم والزنا فإنه يورث الفقر . وقد ساق ابن عساكر هاهنا أحاديث غريبة جداً وفى بعضها نكارة شديدة . ثم أورد من طرق متعددة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يبعث يوم القيامة أمة وحده » . فمن ذلك مارواه محمد بن عثمان بن أبى شيبة ، حدثنا يوسف بن يعقوب الصفار ، حدثنا يحيى بن سعيد الأموى عن مجالد عن الشعبى عن جابر قال : سئل رسول الله ﷺ عن زيد بن عمرو بن نفيل — أنه كان يستقبل القبلة فى الجاهلية ، ويقول : إلهى إله إبراهيم ودينى دين إبراهيم ويسجد . فقال رسول الله ﷺ : « يحشر ذاك أمة وحده بينى وبين عيسى بن مريم » ، إسناده جيد حسن .

وقال الواقدى : حدثنى موسى بن شيبة عن خارجة بن عبدالله بن كعب بن مالك قال : سمعت سعيد ابن المسيب يذكر زيد بن عمرو بن نفيل ، فقال : توفى وقريش تبنى الكعبة قبل أن ينزل الوحى على رسول الله ﷺ بخمس سنين ، ولقد نزل به وإنه ليقول : أنا على دين إبراهيم ، فأسلم ابنه سعيد بن زيد واتبع رسول الله ﷺ . وأتى عمر بن الخطاب وسعيد بن زيد رسول الله ﷺ ، فسألاه عن زيد بن عمرو بن نفيل فقال : « غفر الله له ورحمه فإنه مات على دين إبراهيم » ، قال فكان المسلمون بعد ذلك اليوم لايذكره ذاكر منهم إلا ترحم عليه واستغفر له ، ثم يقول سعيد بن المسيب : رحمه الله وغفر له .

وقال محمد بن سعد عن الواقدى : حدثنى زكريا بن يحيى السعدى عن أبيه قال : مات زيد بن عمرو بن نفيل بمكة ودفن بأصل حراء ، وقد تقدم أنه مات بأرض البلقاء من الشام لما عدا عليه قوم من بنى لخم فقتلوه بمكان يقال له « مَيفعة » ، والله أعلم .

وقال الباغندى عن أبى سعيد الأشج عن أبى معاوية عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « دخلت الجنة فرأيت لزيد بن عمرو بن نفيل درجتين » : وهذا إسناد جيد وليس هو فى شىء من الكتب . ومن شعر زيد بن عمرو بن نفيل رحمه الله ــ ما قدمناه فى بدء الخلق من تلك القصيدة :

إلى الله أهدى مدحتى وثنائيا ... وقولاً رضيًّا لا يبنى الدهر باقيا

إلى الملك الأعلى الذى ليس فوقه ... إلّه ولا رب يكون مدانيا

وقد قيل إنها لأمية بن أبى الصلت[1] والله أعلم . ومن شعره فى التوحيد ما حكاه محمد بن إسحاق والزبير بن بكار وغيرهما :

وأسلمت وجهى لمن أسلمت ... له الأرض تحمل صخراً ثقالا

دحاها فلما استوت شدها ... سواء وأرسى عليها الجبالا

وأسلمت وجهى لمن أسلمت ... له المزن تحمل عذباً زُلالا

إذا هى سيقت إلى بلدة ... أطاعت فصبَّت عليها سجالا

وأسلمت وجهى لمن أسلمت ... له الريح تصرف حالا فحالا

وقال محمد بن إسحاق : حدثنى هشام بن عروة قال : روى أبى أن زيد بن عمرو قال :

أرب واحد أم ألف رب ... أدين إذا تقسمت الأمور

عزلت اللات والعزى جميعاً ... كذلك يفعل الجلد الصبور

فلا العزى أدين ولا ابنتيها ... ولا صنمى بنى عمرو أزور

ولا غُنما[2] أدين وكان رباً ... لنا فى الدهر إذ حلمى يسير

عجبت وفى الليالى معجبات ... وفى الأيام يعرفها البصير

بأن الله قد أفنى رجالا ... كثيراً كان شأنهم الفجور

وأبقى آخرين ببر قوم ... فيربل[3] منهم الطفل الصغير

وبينا المرء يعثر ثاب يوماً ... كما يتروح الغصن النضير

---

(١) ذكر ذلك ابن هشام وأتى على القصيدة (٢) فى نسخة : ولا هبلا

(٣) فيشب ويكبر ، وفى رواية : فيربو كما سيأتى .

ولكن أعبد الرحمن ربي ليغفر ذنبي الرب الغفور
فتقوى الله ربكم احفظوها متى ماتحفظوها لاتبوروا
ترى الأبرار دارهم جنان وللكفار حامية سعير
وخزى فى الحياة وإن يموتوا يلاقوا ماتضيق به الصدور

هذا تمام ما ذكره محمد بن إسحاق من هذه القصيدة وقد رواه أبو القاسم البغوى عن مصعب بن عبد الله عن الضحاك بن عثمان عن عبد الرحمن بن أبى الزناد قال : قال هشام بن عروة عن أبيه عن أسماء بنت أبى بكر قالت : قال زيد بن عمرو بن نفيل :

عزلت الجن والجنان عنى كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا العزى أدين ولا ابنتيها ولا صنمى بنى طسم أدير
ولا غنما أدين وكان ربا لنا فى الدهر إذ حلمى صغير
أربا واحداً أم ألف رب أدين إذا تقسمت الأمور
ألم تعلم بأن الله أفنى رجالا كان شأنهم الفجور
وأبقى آخرين ببرّ قوم فيربو منهم الطفل الصغير
وبينا المرء يعثر ثاب يوماً كما يتروح الغصن النضير

قالت : فقال ورقة بن نوفل :

رشدت وأنعمت ابن عمرو وإنما تجنبت تنوراً من النار حاميا
لدينك رباً ليس رباً كمثله وتركك جنان الجبال كما هيا
أقول إذا أهبطت أرضاً مخوفة حنانيك لاتظهر على الأعاديا
حنانيك إن الجن كانت رجاءهم وأنت إلهى ربنا ورجائيا
لتدركن المرء رحمة ربه وإن كان تحت الأرض سبعين واديا
أدين لرب يستجيب ولا أرى أدين لمن لايسمع الدهر واعيا
أقول إذا صليت فى كل بيعة تباركت قد أكثرت باسمك داعيا

تقدم أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام ، هو وورقة بن نوفل ، وعثمان بن الحويرث ، وعبيد الله بن جحش ـ فتنصروا ، إلا زيداً فإنه لم يدخل فى شىء من الأديان ، بل بقى على فطرته من عبادة الله وحده لاشريك له ؛ متبعاً ما أمكنه من دين إبراهيم على ماذكرناه . وأما ورقة بن نوفل فسيأتى خبره فى أول المبعث . وأما عثمان بن الحويرث فأقام بالشام حتى مات فيها عند قيصر . وله خبر عجيب

كره الأموى ؛ ومختصره أنه لما قدم على قيصر فشكى إليه مالقى من قومه ، كتب له إلى ابن جفنة ملك عرب الشام ليجهز معه جيشاً لحرب قريش ، فعزم على ذلك ، فكتبت إليه الأعراب تنهاه عن ذلك ، لما رأوا من عظمة مكة وكيف فعل الله بأصحاب الفيل ، فكساه ابن جفنة قميصاً مصبوغاً مسموماً فمات من سمه ، فرثاه زيد بن عمرو بن نفيل بشعر ذكره الأموى ، تركناه اختصاراً . وكانت وفاته قبل المبعث بثلاث سنين أو نحوها ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

ذكر شيء مما وقع من الحوادث فى زمن الفترة

فمن ذلك : بنيان الكعبة . وقد قيل : إن أول من بناه آدم ، وجاء فى ذلك حديث مرفوع عن عبد الله بن عمرو — وفى سنده ابن لهيعة وهو ضعيف . وأقوى الأقوال أن أول من بناه الخليل عليه السلام كما تقدم ، وكذلك رواه سماك بن حرب عن خالد بن عرعرة عن على بن أبى طالب قال : ثم تهدم فبنته العمالقة ، ثم تهدم فبنته جرهم ، ثم تهدم فبنته قريش . قلت : وسيأتى بناء قريش له ، وذلك قبل المبعث بخمس سنين ، وقيل بخمس عشرة سنة ، وقال الزهرى : كان رسول الله ﷺ قد بلغ الحلم . وسيأتى ذلك كله فى موضعه إن شاء الله ، وبه الثقة .

ذكر كعب بن لؤى

روى أبو نعيم من طريق محمد بن الحسن بن زبالة ، عن محمد بن طلحة التيمى ، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث عن أبى سلمة ، قال : كان كعب بن لؤى يجمع قومه يوم الجمعة ، وكانت قريش تسميه العروبة فيخطبهم فيقول : أما بعد فاسمعوا وتعلموا ، وافهموا واعلموا ، ليل ساج ، ونهار ضاح ، والأرض مهاد ، والسماء بناء ، والجبال أوتاد ، والنجوم أعلام ، والأولون كالآخرين ، والأنثى والذكر ، والروح وما يهيج إلى بلًى ، فصلوا أرحامكم ، واحفظوا أصهاركم ، وثمروا أموالكم . فهل رأيتم من هالك رجع ؟ أو ميت نشر ؟ الدار أمامكم ، والظن غير ماتقولون ، حرمكم زينوه وعظموه ، وتمسكوا به فسيأتى له نبأ عظيم ، وسيخرج منه نبى كريم ، ثم يقول :

نهار وليل كل يوم بحادث ... سواء علينا ليلها ونهارها
يؤوبان بالأحداث حتى تأوبا ... وبالنعم الضافى علينا ستورها
على غفلة يأتى النبى محمد ... فيخبر أخباراً صدوقاً خبيرها

ثم يقول: والله لو كنت فيها ذا سمع وبصر ، ويد ورجل لتنصبت[1] فيها تنصب الجمل ، ولأرقلت بها إرقال العجل . ثم يقول :

---

(١) تنصبت : وقفت وجدت مرفوع الرأس . وأرقلت : أسرعت .

ياليتني شاهداً نجواء دعوته حين العشيرة تبغي الحق خذلانا

قال : وكان بين موت كعب بن لؤى ومبعث رسول الله ﷺ ـ ستون سنة .

ذكر تجديد حفر زمزم على يدى عبد المطلب بن هاشم

وكان قد درس رسمها بعد طم جرهم لها إلى زمانه

قال محمد بن إسحق : ثم إن عبد المطلب بينما هو نائم فى الحجر ، إذ أتى فأمر بحفر زمزم . وكان أول ما ابتدىء به عبد المطلب من حفرها ـ كما حدثنى يزيد بن أبى حبيب المصرى عن مرثد بن عبد الله المزنى عن عبد الله بن رزين الغافقى ـ أنه سمع على بن أبى طالب يحدث حديث زمزم ، حين أمر عبد المطلب بحفرها . قال : قال عبد المطلب : إنى لنائم فى الحجر إذ أتانى آت فقال لى احفر طيبة . قال : قلت وماطيبة ؟ قال ثم ذهب عنى ، قال: فلما كان الغد رجعت إلى مضجعى فنمت فيه ، فجاءنى فقال احفر برّة[1] . قال : قلت ومابرّة ؟ قال ثم ذهب عنى ، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعى فنمت فيه ، فجاءنى فقال احفر المضنونة . قال : قلت وما المضنونة ؟ قال ثم ذهب عنى . فلما كان الغد رجعت إلى مضجعى فنمت فيه ، فجاءنى فقال احفر زمزم . قال : قلت وما زمزم ؟ قال : لا تُنزف[2] أبداً ولا تذم[3] ، تسقى الحجيج الأعظم ، وهى بين الفرث والدم ، عند نقرة الغراب الأعصم ، عند قرية النمل .

قال : فلما بين لى شأنها ودل على موضعها وعرف أنه قد صدق ـ غدا بمعوله ومعه ابنه الحارث بن عبد المطلب ـ وليس له يومئذ ولد غيره ، فحفر فيها . فلما بدا لعبد المطلب الطمى كبّر ، فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجته . فقاموا إليه فقالوا : ياعبد المطلب ! إنها بئر أبينا إسماعيل ، وإن لنا فيها حقاً فأشركنا معك فيها . قال : ما أنا بفاعل ؛ إن هذا الأمر قد خصصت به دونكم ، وأعطيته من بينكم ، قالوا له فأنصفنا فإنا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها . قال : فاجعلوا بينى وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه ، قالوا : كاهنة بنى سعد بن هذيم ، قال : نعم ، وكانت بأشراف الشام ، فركب عبد المطلب ومعه نفر من بنى أمية[4] وركب من كل قبيلة من قريش نفر ، فخرجوا والأرض إذ ذاك مفاوز ، حتى إذا كانوا ببعضها نفد ماء عبد المطلب وأصحابه ، فعطشوا حتى استيقنوا بالهلكة ، فاستسقوا من معهم فأبوا عليهم ، وقالوا إنا بمفازة وإنا نخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم . فلما رأى عبد المطلب ماصنع القوم قال لأصحابه : ماذا ترون؟ قالوا رأينا تبع لرأيك فمرنا بما شئت . فقال عبد المطلب : إنى أرى أن يحفر كل رجل منكم حفرته

---

(١) قيل : سميت طيبة ؛ لأنها للطيبين والطيبات من ولد إبراهيم . وبرة ، لأنها فاضت على الأبرار . ومضمونة ؛ لأنه ضن بها على غير المؤمنين . (٢) أى لايفرغ ماؤها ولاتنزح . (٣) أى لايقل ماؤها . من قولهم : بئر ذمة وذميم وذميمة — قليلة الماء . (٤) فى ابن هشام : من بنى أبيه من بنى عبد مناف .

لنفسه بما لكم الآن من القوة ، فكلما مات رجل دفعه أصحابه فى حفرته ثم واروه ، حتى يكون آخركم رجلا واحداً ؛ فضيعة رجل واحد أيسر من ضيعة ركب جميعه . فقالوا : نعم ما أمرت به . فحفر كل رجل لنفسه حفرة ، ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشى . ثم إن عبد المطلب قال لأصحابه : والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت لاتضرب فى الأرض ولا نبتغى لأنفسنا — لعجز ، فعسى أن يرزقنا الله ماء ببعض البلاد . فارتحلوا حتى إذا بعث عبد المطلب راحلته ـ انفجرت من تحت خفها عين ماء عذب ، فكبّر عبد المطلب وكبر أصحابه . ثم نزل فشرب وشرب أصحابه ، واستسقوا حتى ملؤا أسقيتهم ، ثم دعا قبائل قريش ـ وهم ينظرون إليهم فى جميع هذه الأحوال ـ فقال هلموا إلى الماء ، فقد سقانا الله ، فجاءوا فشربوا واستقوا كلهم ، ثم قالوا قد والله قضى لك علينا ، والله مانخاصمك فى زمزم أبداً . إن الذى سقاك هذا الماء بهذه الفلاة — هو الذى سقاك زمزم ، فارجع إلى سقايتك راشداً ، فرجع ورجعوا معه ولم يصلوا إلى الكاهنة ، وخلوا بينه و بين زمزم .

قال ابن إسحاق فهذا مابلغنى من حديث على بن أبى طالب فى زمزم . قال ابن إسحاق : وقد سمعت من يحدث عن عبد المطلب أنه قيل له حين أمر بحفر زمزم :

ثم ادع بالماء الرِّوَى غير الكدر ✻ يسقى حجيج الله فى كل مبر

ليس يُخاف منه شىء ما عمرَ

فقال : فخرج عبد المطلب حين قيل له ذلك إلى قريش ، فقال : تعلموا أنى قد أمرت أن أحفر زمزم ، قالوا فهل بُيِّن لك أين هى ؟ قال : لا ! قالوا فارجع إلى مضجعك الذى رأيت فيه مارأيت ، فإن يك حقاً من الله يبين لك ، وإن يك من الشيطان فلن يعود إليك . فرجع ونام فأُتى فقيل له : احفر زمزم ؛ إنك إن حفرتها لن تندم ، وهى من تراث أبيك الأعظم ، لاتنزف أبداً ولا تذم . تسقى الحجيج الأعظم مثل نعام جافل لم يقسم ، ينذر فيها ناذر لمُنعِم ، تكون ميراثاً وعقداً محكم ، ليست كبعض ما قد تعلم ، وهى بين الفرث والدم .

قال ابن إسحاق : فزعموا أن عبد المطلب حين قيل له ذلك ـ قال وأين هى ؟ قيل له عند قرية النمل حيث ينقر الغراب غدا ، فالله أعلم أى ذلك كان ؟ قال فغدا عبد المطلب ومعه ابنه الحارث ، وليس له يومئذ ولد غيره — زاد الأموى — ومولاه أصرم ، فوجد قرية النمل ووجد الغراب ينقر عندها بين الوثنين : إساف ونائلة ـ اللذين كانت قريش تنحر عندهما ذبائحها ، فجاء بالمعول وقام ليحفر حيث أمر ، فقامت إليه قريش وقالت : والله لا نتركك تحفر بين وثنينا اللذين ننحر عندهما ، فقال عبد المطلب لابنه الحارث : ذُدْ عنى حتى أحفر ، والله لأمضين لما أمرت به. فلما عرفوا أنه غير نازع ـ خلوا بينه وبين الحفر

وكفوا عنه ، فلم يحفر إلا يسيراً حتى بدا له الطمى ، فكبر وعرف أنه قد صدق . فلما تمادى به الحفر وجد فيها غزالتين من ذهب ، وهما اللتان كانت جرهم قد دفنتهما ، ووجد فيها أسيافاً قلعية وأدرعا . فقالت له قريش : يا عبد المطلب ! لنا معك فى هذا شرك وحق ، قال : لا . ولكن هلم إلى أمر نصَف بينى وبينكم ؛ نضرب عليها بالقداح . قالوا وكيف نصنع ؟ قال أجعل للكعبة قدحين ولى قدحين ولكم قدحين ، فمن خرج قدحاه على شىء كان له ، ومن تخلف قدحاه فلا شىء له . قالوا : أنصفت . فجعل للكعبة قدحين أصفرين ، وله أسودين ، ولهم أبيضين . ثم أعطوا القداح الذى يضرب عند هبل ، وهبل أكبر أصنامهم . ولهذا قال أبو سفيان يوم أحد : أعْلِ هبل[1] — يعنى هذا الصنم . وقام عبد المطلب يدعو الله . وذكر يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق أن عبد المطلب جعل يقول :

لاهم أنت الملك المحمود ... ربى أنت المبدىء المعيد
وممسك الراسية الجلمود ... من عندك الطارف والتليد
إن شئت ألهمت كما تريد ... لموضع الحلية والحديد
فبين اليوم لما تريد ... إنى نذرت العاهد المعهود

احمله رب لى فلا أعود

قال وضرب صاحب القداح[2] ، فخرج الأصفران على الغزالين للكعبة ، وخرج الأسودان على الأسياف والأدرع لعبد المطلب ، وتخلف قدحا قريش . فضرب عبد المطلب الأسياف باباً للكعبة ، وضرب فى الباب الغزالين من ذهب . فكان أول ذهب حلية للكعبة — فيما يزعمون . ثم إن عبد المطلب أقام سقاية زمزم للحاج . وذكر ابن إسحاق وغيره أن مكة كان فيها أبيار كثيرة قبل ظهور زمزم فى زمن عبد المطلب ، ثم عددها ابن إسحاق وسماها ، وذكر أماكنها من مكة وحافريها — إلى أن قال : فعفت زمزم على البئار كلها ، وانصرف الناس كلهم إليها لمكانها من المسجد الحرام ، ولفضلها على ما سواها من المياه ، ولأنها بئر إسماعيل بن إبراهيم . وافتخرت بها بنو عبد مناف على قريش كلها وعلى سائر العرب . وقد ثبت فى صحيح مسلم فى حديث إسلام أبى ذر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى زمزم : « إنها لطعام طُعْم[3] وشفاء سقم » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبدالله بن الوليد عن عبدالله بن المؤمل عن أبى الزبير عن جابر بن عبدالله قال : قال رسول الله ﷺ : « ماء زمزم لما شُرب منه » . وقد رواه ابن ماجة من حديث عبد الله بن

(١) أى أظهر دينك (٢) جمع قدح بكسر القاف وسكون الدال — وهو السهم الذي كانوا يستقسمون به .
(٣) أي طعام مشبع جيد .

المؤمل ، وقد تكلموا فيه ولفظه : «ماء زمزم لما شرب له» . ورواه سويد بن سعيد عن عبدالله بن المبارك عن عبد الرحمن بن أبى الموالى عن محمد بن المنكدر عن جابر عن النبى ﷺ قال : « ماء زمزم لما شرب له» . ولكن سويد بن سعيد ضعيف ، والمحفوظ عن ابن المبارك عن عبدالله بن المؤمل كما تقدم . وقد رواه الحاكم عن ابن عباس مرفوعاً : « ماء زمزم لما شرب له » ، وفيه نظر ، والله أعلم .

وهكذا روى ابن ماجة أيضاً والحاكم عن ابن عباس أنه قال لرجل : إذا شربت من زمزم فاستقبل الكعبة ، واذكر اسم الله وتنفس ثلاثاً وتضلع منها ، فإذا فرغت فاحمدالله ؛ فإن رسول الله ﷺ قال : « إن آية مابيننا وبين المنافقين لايتضلعون من ماء زمزم » . وقد ذكر عن عبد المطلب أنه قال : اللهم إنى لا أحلها لمغتسل وهى لشارب حلّ وبلّ[1] . وقد ذكره بعض الفقهاء عن العباس بن عبد المطلب ، والصحيح أنه عن عبد المطلب نفسه ؛ فإنه هو الذى جدد حفر زمزم كما قدمنا والله أعلم . وقد قال الأموى فى مغازيه : حدثنا أبو عبيد أخبرنى يحيى بن سعيد عن عبد الرحمن بن حرملة ، سمعت سعيد بن المسيب يحدث : أن عبد المطلب بن هاشم حين احتفر زمزم ، قال : لا أحلها لمغتسل وهى لشارب حل وبلّ . وذلك أنه جعل لها حوضين : حوضاً للشرب ، وحوضاً للوضوء . فعند ذلك قال : لا أحلها لمغتسل ؛ لينزه المسجد عن أن يغتسل فيه . قال أبو عبيد قال الأصمعى : قوله : وبلّ – إتباع ، قال أبو عبيد والإتباع لايكون بواو العطف ، وإنما هو كما قال معتمر بن سليمان : إن «بل» بلغة حمير – مباح ، ثم قال أبو عبيد : حدثنا أبو بكر بن عياش عن عاصم بن أبى النجود – أنه سمع ذراً أنه سمع العباس يقول : لا أحلها لمغتسل وهى لشارب حل وبل : وحدثنا عبد الرحمن بن مهدى ، حدثنا سفيان عن عبد الرحمن ابن علقمة أنه سمع ابن عباس يقول ذلك ، وهذا صحيح إليهما ، وكأنهما يقولان ذلك فى أيامهما على سبيل التبليغ والإعلام ، بما اشترطه عبد المطلب عند حفره لها ؛ فلا ينافى ما تقدم ، والله أعلم .

وقد كانت السقاية إلى عبد المطلب أيام حياته ، ثم صارت إلى ابنه أبى طالب مدة . ثم اتفق أنه أملق فى بعض السنين فاستدان من أخيه العباس عشرة آلاف إلى الموسم الآخر ، وصرفها أبو طالب فى الحجيج فى عامه فيما يتعلق بالسقاية ، فلما كان العام المقبل لم يكن مع أبى طالب شىء ، فقال لأخيه العباس : أسلفنى أربعة عشر ألفاً أيضاً إلى العام المقبل أعطك جميع مالك ، فقال له العباس : بشرط إن لم تعطنى تترك السقاية لى أكفيكها ، فقال : نعم . فلما جاء العام الآخر لم يكن مع أبى طالب مايعطى العباس ، فترك له السقاية فصارت إليه ، ثم من بعده صارت إلى عبد الله ولده ، ثم إلى على بن عبد الله ابن عباس ، ثم إلى داود بن على ، ثم إلى سليمان بن على ، ثم إلى عيسى بن على ثم أخذها المنصور واستناب عليها مولاه أبا رزين ذكره الأموى .

---

(١) فى القاموس : والبل بالكسر : الشفاء والمباح ، ويقال : حل وبل ، أو هو إتباع .

ذكر نذر عبد المطلب ذبح أحد ولده

قال ابن إسحق : وكان عبد المطلب فيما يزعمون نذر ـ حين لقى من قريش مالقى عند حفر زمزم ـ لئن ولد له عشرة نفر ، ثم بلغوا معه حتى يمنعوه ـ ليذبحن أحدهم لله عند الكعبة . فلما تكامل بنوه عشرة وعرف أنهم سيمنعونه وهم : الحارث ، والزبير ، وحجل ، وضرار ، والمقوم ، وأبو لهب ، والعباس ، وحمزة ، وأبو طالب ، وعبد الله — جمعهم ثم أخبرهم بنذره ، ودعاهم إلى الوفاء لله عز وجل بذلك فأطاعوه ، وقالوا كيف نصنع ؟ قال ليأخذ كل رجل منكم قِدحاً ، ثم يكتب فيه اسمه ثم ائتونى ، ففعلوا ثم أتوه ، فدخل بهم على هبل وكان على بئر فى جوف الكعبة ، وكانت تلك البئر هى التى يجمع فيها مايهدى للكعبة ، وكان عند هبل قداح سبعة ؛ وهى الأزلام التى يتحاكمون إليها . إذا أعضل عليهم أمر ؛ من عقل أو نسب أو أمر من الأمور ـ جاءوه فاستقسموا بها ، فما أمرتهم به أو نهتهم عنه ـ امتثلوه .

والمقصود أن عبد المطلب لما جاء يستقسم بالقداح عند هبل ، خرج القدح على ابنه عبد الله ، وكان أصغر ولده وأحبهم إليه ، فأخذ عبد المطلب بيد ابنه عبد الله ، وأخذ الشفرة ثم أقبل به إلى إساف ونائلة ليذبحه ، فقامت إليه قريش من أنديتها فقالوا : ماتريد ياعبد المطلب ؟ قال : أذبحه ، فقالت له قريش وبنوه إخوة عبد الله : والله لا تذبحه أبداً حتى تُعذِر فيه . لئن فعلت هذا لايزال الرجل يجىء بابنه حتى يذبحه ، فما بقاء الناس على هذا ؟ ، وذكر يونس بن بكير عن ابن إسحاق : أن العباس هو الذى اجتذب عبد الله من تحت رجل أبيه حين وضعها عليه ليذبحه ، فيقال إنه شج وجهه شجًّا لم يزل فى وجهه إلى أن مات . ثم أشارت قريش على عبد المطلب أن يذهب إلى الحجاز ؛ فإن بها عرافة لها تابع فيسألها عن ذلك ، ثم أنت على رأس أمرك ؛ إن أمرتك بذبحه فاذبحه ، وإن أمرتك بأمر لك وله فيه مخرج قبلته . فانطلقوا حتى أتوا المدينة ، فوجدوا العرافة وهى سَجاح ـ فيما ذكره يونس عن بكير بن ابن إسحاق — بخيبر ، فركبوا حتى جاءوها فسألوها ، وقص عليها عبد المطلب خبره وخبر ابنه ، فقالت لهم ارجعوا عنى اليوم حتى يأتينى تابعى فأسأله ؛ فرجعوا من عندها . فلما خرجوا قام عبد المطلب يدعو الله ثم غدوا عليها ، فقالت لهم قد جاءنى الخبر ، كم الدية فيكم ؟ قالوا عشر من الإبل ـ وكانت كذلك ـ قالت فارجعوا إلى بلادكم ثم قربوا صاحبكم وقربوا عشراً من الإبل ، ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح ؛ فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم ، وإن خرجت على الإبل فانحروها عنه فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم ، فخرجوا حتى قدموا مكة ، فلما أجمعوا على ذلك الأمر — قام عبد المطلب يدعو الله ، ثم قربوا عبد الله وعشراً من الإبل ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله ، فزادوا عشراً ثم ضربوا فخرج القدح

على عبد الله فزادوا عشراً ، فلم يزالوا يزيدون عشراً عشراً ويخرج القدح على عبد الله ـ حتى بلغت الإبل مائة . ثم ضربوا فخرج القدح على الإبل فقالت عند ذلك قريش لعبد المطلب — وهو قائم عند هبل يدعو الله : قد انتهى رضى ربك ياعبد المطلب .

فعندها زعموا أنه قال : لا ـ حتى أضرب عليها بالقداح ثلاث مرات ، فضربوا ثلاثاً و يقع القدح فيها على الإبل فنحرت ، ثم تركت لايصد عنها إنسان ولا يمنع . قال ابن هشام : و يقال ولاسبع . وقد روى أنه لما بلغت الإبل مائة ، خرج على عبد الله أيضاً فزادوا مائة أخرى حتى بلغت مائتين ، فخرج القدح على عبد الله فزادوا مائة أخرى فصارت الإبل ثلاثمائة ، ثم ضربوا فخرج القدح على الإبل فنحرها عند ذلك عبد المطلب . والصحيح الأول ، والله أعلم . وقد روى ابن جرير عن يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب عن يونس بن يزيد عن الزهرى عن قبيصة بن ذؤيب : أن ابن عباس سألته امرأة أنها نذرت ذبح ولدها عند الكعبة ، فأمرها بذبح مائة من الإبل ، وذكر لها هذه القصة عن عبد المطلب . وسألت عبد الله بن عمر فلم يفتها بشىء بل توقف ، فبلغ ذلك مروان بن الحكم ـ وهو أمير على المدينة ـ فقال إنهما لم يصيبا الفتيا ، ثم أمر المرأة أن تعمل ما استطاعت من خير ، ونهاها عن ذبح ولدها ولم يأمرها بذبح الإبل ، وأخذ الناس بقول مروان بذلك ، والله أعلم .

ذكر تزويج عبد المطلب ابنه عبد الله من آمنة بنت وهب الزهرية

قال ابن إسحاق : ثم انصرف عبد المطلب آخذاً بيد ابنه عبدالله ، فمر به ـ فيما يزعمون ـ على امرأة من بنى أسد بن عبد العزى بن قصى ، وهى أم قَتّال أخت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصى ـ وهى عند الكعبة ، فنظرت إلى وجهه فقالت أين تذهب ياعبدالله ؟ قال مع أبى . قالت : لك مثل الإبل التى نحرت عنك وقَعْ على الآن . قال أنا مع أبى ولا أستطيع خلافه ولا فراقه ، فخرج به عبد المطلب حتى أتى وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب ابن فهر ـ وهو يومئذ سيد بنى زهرة نسباً وشرفاً ـ فزوجه ابنته آمنة بنت وهب ، وهى يومئذ سيدة نساء قومها ، فزعموا أنه دخل عليها حين أَمْلـكها مكانه فوقع عليها ، فحملت منه برسول الله ﷺ . ثم خرج من عندها فأتى المرأة التى عرضت عليه ماعَرضت ، فقال لها : مالك لاتعرضين على اليوم ما كنت عرضت بالأمس ؟ قالت له : فارقك النور الذى كان معك بالأمس ، فليس لى بك اليوم حاجة . وكانت تسمع من أخيها ، ورقة بن نوفل ـ وكان قد تنصر واتبع الكتب ـ أنه كائن فى هذه الأمة نبى ، فطمعت أن يكون منها ، فجعله الله تعالى فى أشرف عنصر وأكرم محتد وأطيب أصل ، كما قال تعالى : (الله أعلم حيث يجعل رسالته[1]) وسنذكر المولد مفصلا .

---

(١) من الآية : ١٢٤ من سورة الأنعام .

ومما قالت أم قتال بنت نوفل من الشعر تتأسف على مافاتها من الأمر الذى رامته ـ وذلك فيما رواه البيهقى من طريق يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق رحمه الله :

عليك بآل زهرة حيث كانوا وآمنة التى حملت غلاما
ترى المهدى حين نزا عليها ونوراً قد تقدمه أماما

إلى أن قالت : فكل الخلق يرجوه جميعاً يسود الناس مهتدياً إماما
براه الله من نور صفاه فأذهب نوره عنا الظلاما
وذلك صنع ربك إذ حباه إذا ماسار يوماً أو أقاما
فيهدى أهل مكة بعد كفر ويفرض بعد ذلكم الصياما

وقال أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل الخرائطى : حدثنا على بن حرب ، حدثنا محمد بن عمارة القرشى ، حدثنا مسلم بن خالد الزنجى ، حدثنا ابن جريج عن عطاء بن أبى رباح عن ابن عباس قال : لما انطلق عبد المطلب بابنه عبد الله ليزوجه ، مر به على كاهنة من أهل تبالة متهودة قد قرأت الكتب ؛ يقال لها فاطمة بنت مر الخثعمية ، فرأت نور النبوة فى وجه عبدالله فقالت : يافتى ! هل لك أن تقع على الآن وأعطيك مائة من الإبل ؟ فقال عبد الله :

أما الحرام فالممات دونه والحل لاحلّ فأستبينهْ
فكيف بالأمر الذى تبغينه ؟ يحمى الكريم عرضه ودينهْ

ثم مضى مع أبيه فزوجه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة ، فأقام عندها ثلاثاً . ثم إن نفسه دعته إلى مادعته إليه الكاهنة ، فأتاها فقالت : ماصنعت بعدى ؟ فأخبرها ، فقالت : والله ماأنا بصاحبة ريبة ، ولكنى رأيت فى وجهك نوراً ، فأردت أن يكون فىّ . وأبى الله إلا أن يجعله حيث أراد . ثم أنشأت فاطمة تقول :

إنى رأيت مخيلة لمعت فتلألأت بحناتم[1] القطر
فلمأتها[2] نوراً يضىء له ماحوله كإضاءة البدر
ورجوتها فخراً أبوء به ماكل قادح زنده يورى
لله ما زهرية سلبت ثوبيك ماساستلبت وما تدرى !

---

(١) الحناتم : السحائب السود (٢) لمأتها : أبصرتها ولمحتها .

وقالت فاطمة أيضاً :

بنى هاشم قد غادرت من أخيكم	أمينةُ إذ للباه تعتركان
كما غادر المصباح عند خموده	فتائل قد مِيثت له بدهان
وما كل مايحوى الفتى من تلاده	بحزم ولا مافاته لِتوانى
فأجمل إذا طالبت أمراً فإنه	سيكفيكه جدّان يعتلجان
سيكفيكه إما يد مُقفعِلة[1]	وإما يد مبسوطة ببنان
ولما حوت منه أمينة ماحوت	حوت منه فخراً مالذلك ثان

وروى الإمام أبو نعيم الحافظ فى كتاب : [دلائل النبوة] من طريق يعقوب بن محمد الزهرى عن عبد العزيز بن عمران عن عبد الله بن جعفر عن ابن عون عن المسور بن مخرمة عن ابن عباس قال : إن عبدالمطلب قدم اليمن فى رحلة الشتاء ، فنزل على حبر من اليهود ، قال : فقال لى رجل من أهل الديور — يعنى أهل الكتاب — ياعبد المطلب ! أتأذن لى أن أنظر إلى بعضك ؟ قال : نعم — إذا لم يكن عورة . قال ففتح إحدى منخرى فنظر فيه ، ثم نظر فى الآخر فقال : أشهد أن فى إحدى يديك ملكاً وفى الأخرى نبوة ، وإنا نجد ذلك فى بنى زهرة ، فكيف ذلك ؟ قلت لاأدرى ، قال هل لك من شاعة ؟ قلت وما الشاعة ؟ قال زوجة[2] . قلت أما اليوم فلا ، قال فإذا رجعت فتزوج فيهم . فرجع عبد المطلب فتزوج هالة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة ، فولدت حمزة وصفية ، ثم تزوج عبد الله بن عبد المطلب آمنة بنت وهب ، فولدت رسول الله ﷺ ، فقالت قريش حين تزوج عبد الله بآمنة : فَلَج[3] — أى فاز وغلب — عبد الله على أبيه عبد المطلب .

(١) قفعلت يده : تشنجت وتقبضت (٢) فى القاموس — الشاعة : الزوجة لمشايعتها الزوج .
(٣) الفلج بسكون اللام : الظفر والفوز .

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم

﴿ وذكر أيامه وغزواته وسراياه والوفود إليه وشمائله وفضائله ودلائله الدالة عليه ﴾

باب ذكر نسبه الشريف وطيب أصله المنيف

قال الله تعالى : (الله أعلم حيث يجعل رسالته) ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان تلك الأسئلة عن صفاته عليه الصلاة والسلام قال : كيف نسبه فيكم ؟ قال هو فينا ذو نسب ، قال : كذلك الرسل تبعث فى أنساب قومها – يعنى فى أكرمها أحساباً وأكثرها قبيلة ، صلوات الله عليهم أجمعين .

فهو سيد ولد آدم وفخرهم فى الدنيا والآخرة : أبو القاسم ، وأبو إبراهيم ، محمد ، وأحمد ، والماحى الذى يمحىٰ به الكفر ، والعاقب الذى مابعده نبى ، والحاشر الذى يحشر الناس على قدميه ، والمقفى ، ونبى الرحمة ، ونبى التوبة ، ونبى الملحمة ، وخاتم النبيين ، والفاتح ، وطه ، ويس ، وعبد الله .

قال البيهقى : وزاد بعض العلماء فقال : سماه الله فى القرآن رسولا ، نبياً ، أميناً ، شاهداً ، مبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، ورءوفاً رحيما ، ومذكراً ، وجعله رحمة ونعمة وهادياً .

وسنورد الأحاديث المروية فى أسمائه عليه الصلاة والسلام فى باب نعقده بعد فراغ السيرة ؛ فإنه قد وردت أحاديث كثيرة فى ذلك ، اعتنى بجمعها الحافظان الكبيران : أبو بكر البيهقى وأبو القاسم بن عساكر . وأفرد الناس فى ذلك مؤلفات ، حتى رام بعضهم أن يجمع له – عليه الصلاة والسلام – ألف اسم . وأما الفقيه الكبير أبو بكر بن العربى المالكى شارح الترمذى بكتابه الذى سماه الأحوذى ؛ فإنه ذكر من ذلك أربعة وستين اسما ، والله أعلم .

وهو ابن عبد الله ، وكان أصغر ولد أبيه عبد المطلب ، وهو الذبيح الثانى المفدى بمائة من الإبل كما تقدم . قال الزهرى : وكان أجمل رجال قريش ، وهو أخو الحارث والزبير وحمزة وضرار وأبى طالب – واسمه عبد مناف ، وأبى لهب – واسمه عبد العزى ، والمقوم – واسمه عبد الكعبة ، وقيل هما اثنان ، وحجل – واسمه المغيرة ، والغيداق وهو كبير الجود – واسمه نوفل ، ويقال إنه حجل . فهؤلاء أعمامه عليه الصلاة والسلام . وعماته ست وهن : أروى ، وبرة ، وأميمة ، وصفية ، وعاتكة ، وأم حكيم – وهى البيضاء . وسنتكلم على كل منهم فيما بعد إن شاء الله تعالى . كلهم أولاد عبد المطلب – واسمه شيبة ؛ يقال لشيبة كانت فى رأسه ، ويقال له شيبة الحمد لجوده . وإنما قيل له عبد المطلب لأن أباه هاشماً لما مر بالمدينة فى تجارته إلى الشام ، نزل على عمرو بن زيد بن لبيد بن حرام بن خداش بن جندب بن عدى

ابن النجار الخزرجي النجاري ـ وكان سيد قومه ـ فأعجبته ابنته سلمى ، فخطبها إلى أبيها فزوجها منه ، واشترط عليه مقامها عنده ، وقيل بل اشترط عليه أن لا تلد إلا عنده بالمدينة . فلما رجع من الشام بنى بها وأخذها معه إلى مكة ، فلما خرج فى تجارة أخذها معه وهى حبلى فتركها بالمدينة . ودخل الشام فمات بغزة ، ووضعت سلمى ولدها فسمته شيبة . فأقام عند أخواله بنى عدى بن النجار سبع سنين ، ثم جاء عمه المطلب بن عبد مناف ، فأخذه خفية من أمه فذهب به إلى مكة . فلما رآه الناس ورأوه على الراحلة ،قالوا من هذا معك ؟ فقال عبدى. ثم جاءوا فهنئوه به وجعلوا يقولون له عبد المطلب لذلك فغلب عليه ، وساد فى قريش سيادة عظيمة وذهب بشرفهم ورآستهم ، فكان جماع أمرهم عليه .

وكانت إليه السقاية والرفادة[1] بعد المطلب ، وهو الذى جدد حفر زمزم بعد ما كانت مطمومة من عهد جرهم ، وهو أول من طلى الكعبة بذهب فى أبوابها ، من تينك الغزالتين من ذهب اللتين وجدهما فى زمزم مع تلك الأسياف القلعية . قال ابن هشام : وعبد المطلب أخو أسد ونضلة وأبى صيفى وحية وخالدة ورقية والشفاء وضعيفة ، كلهم أولاد هاشم ـ واسمه عمرو . وإنما سمى هاشماً لهشمه الثريد مع اللحم لقومه فى سنى المحل ، كما قال مطرود بن كعب الخزاعى فى قصيدته ، وقيل للزبعرى والد عبد الله ،

عمرو الذى هَشم الثريد لقومه ... ورجال مكة مسنتون[2] عجاف

سنت إليه الرحلتان كلاهما ... سفر الشتاء ورحلة الأصياف

وذلك لأنه أول من سن رحلتى الشتاء والصيف ، وكان أكبر ولد أبيه. وحكى ابن جرير أنه كان توأم أخيه عبد شمس، وأن هاشماً خرج ورجله ملتصقة برأس عبد شمس ، فما تخلصت حتى سال بينهما دم ، فقال الناس بذلك يكون بين أولادهما حروب ، فكانت وقعة بنى العباس مع بنى أمية بن عبد شمس سنة ثلاث وثلاثين ومائة من الهجرة . وشقيقهم الثالث المطلب ، وكان المطلب أصغر ولد أبيه ـ وأمهم عاتكة بنت مرة بن هلال . ورابعهم نوفل من أم أخرى ـ وهى واقدة بنت عمرو المازنية ، وكانوا قد سادوا قومهم بعد أبيهم وصارت إليهم الرياسة ، وكان يقال لهم المجَبِّرون ، وذلك لأنهم أخذوا لقومهم قريش الأمان من ملوك الأقاليم ، ليدخلوا فى التجارات إلى بلادهم ؛ فكان هاشم قد أخذ أماناً من ملوك الشام والروم وغسان ، وأخذ لهم عبد شمس من النجاشى الأكبر ملك الحبشة ، وأخذ لهم نوفل من الأكاسرة ، وأخذ لهم المطلب أماناً من ملوك حمير . ولهم يقول الشاعر :

يأيها الرجل المحول رحله ... ألا نزلت بآل عبد مناف ؟

وكان إلى هاشم السقاية والرفادة بعد أبيه ، وإليه وإلى أخيه المطلب نسب ذوى القربى ، وقد كانوا

(١) إطعام الحجيج (٢) المسنتون :الذين أصابتهم السنة المجدبة الشديدة . وأسنتوا ـ أجدبوا . وأرض سنتة ومسنتة ـ لم تنبت .

شيئاً واحداً فى حالتى الجاهلية والإسلام لم يفترقوا ، ودخلوا معهم فى الشعب وانخذل عنهم بنو عبد شمس ونوفل . ولهذا يقول أبو طالب فى قصيدته :

جزى الله عنا عبد شمس ونوفلا عقوبة شرّ عاجلا غير آجل

ولا يعرف بنو أب تباينوا فى الوفاة مثلهم ؛ فإن هاشماً مات بغزة من أرض الشام ، وعبد شمس مات بمكة ، ونوفل مات بسلمان من أرض العراق ، ومات المطلب — وكان يقال له القمر لحسنه — بردمان من طريق اليمن . فهؤلاء الإخوة الأربعة المشاهير وهم : هاشم ، وعبد شمس ، ونوفل ، والمطلب . ولهم أخ خامس ليس بمشهور وهو أبو عمرو — واسمه عبد ، وأصل اسمه عبد قصى . فقال الناس عبد ابن قصى دَرَج ولا عقب له ، قاله الزبير بن بكار وغيره . وأخوات ست وهن : تماضر ، وحية ، وريطة وقلابة ، وأم الأخثم ، وأم سفيان — كل هؤلاء أولاد عبد مناف — ومناف اسم صنم ، وأصل اسم عبد مناف — المغيرة . وكان قد رأس فى زمن والده ، وذهب به الشرف كل مذهب ، وهو أخو عبدالدار الذى كان أكبر ولد أبيه و إليه أوصى بالمناصب كما تقدم ، وعبد العزى وعبد قصى ، وبرة وتخمر — وأمهم كلهم حُبّى بنت حُليل بن حُبشية بن سلول بن كعب بن عمرو الخزاعى ، وأبوها آخر ملوك خزاعة وولاة البيت منهم ، وكلهم أولاد قصى — واسمه زيد . وإنما سمى بذلك لأن أمه تزوجت بعد أبيه بربيعة بن حرام بن عذرة فسافر بها إلى بلاده وابنها صغير فسمى قصياً لذلك . ثم عاد إلى مكة وهو كبير ولم شعث قريش وجمعها من متفرقات البلاد ، وأزاح يد خزاعة عن البيت ، وأجلاهم عن مكة ورجع الحق إلى نصابه ، وصار رئيس قريش على الإطلاق . وكانت إليه الرفادة والسقاية — وهو سنها — والسدانة[1] والحجابة واللواء ، وداره دار الندوة كما تقدم بسط ذلك كله ؛ ولهذا قال الشاعر :

قصى ، لعمرى كان يدعى مجمعاً به جمع الله القبائل من فهر

وهو أخو زهرة ، كلاهما ابنا كلاب أخى تَيم ، ويقظة أبى مخزوم ، ثلاثتهم أبناء مرة أخى عدى ، وهُصَيص — وهم أبناء كعب ، وهو الذى كان يخطب قومه كل جمعة ، ويبشرهم بمبعث رسول الله ﷺ وينشد فى ذلك أشعاراً كما قدمنا ، وهو أخو عامر وسامة وخزيمة وسعد والحارث وعوف — سبعتهم أبناء لؤى أخى تَيم الأدرم[2] ، وهما أبناء غالب أخى الحارث ومحارب — ثلاثتهم أبناء فهر ، وهو أخو الحارث ، وكلاهما ابن مالك . وهو أخو الصلت ويَخلُد ، وهم بنو النّضر الذى إليه جماع قريش على الصحيح كما قدمنا الدليل عليه ، وهو أخو مالك وملكان وعبد مناة وغيرهم — كلهم أولاد كنانة ، أخى أسَد وأسَدة والهُون — أولاد خزيمة ، وهو أخو هُذيل وهما ابنا مدركة — واسمه عامر ، وأخو طابخة — واسمه

(١) خدمة الكعبة (٢) الدرم : نقصان فى الذقن . قيل سمى بذلك لأنه كان ناقص اللحى .

عمرو ، وقمعة[1] وثلاثتهم أبناء إلياس ، وأخو إلياس هو عَيلان والد قيس كلهاوهما ولدامضر أخى رُبيعة ، ويقال لهما الصريحان من ولدا إسماعيل . وأخواهما أنمار و إياد تيامنا ـ أربعتهم أبناء نزار أخى قضاعة ؛ فى قول طائفة ممن ذهب إلى أن قضاعة حجازية عدنانية ، وقد تقدم بيانه ، كلاهما أبناء معد بن عدنان .

وهذا النسب بهذه الصفة لاخلاف فيه بين العلماء ، فجميع قبائل عرب الحجاز ينتهون إلى هـذا النسب ، ولهذا قال ابن عباس وغيره فى قوله تعالى : (قل لاأسألـكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى[2]) لم يكن بطن من بطون قريش إلا ولرسول الله ﷺ نسب يتصل بهم ، وصدق ابن عباس رضى الله عنه فيما قال وأزيد مما قال ؛ وذلك أن جميع قبائل العرب العدنانية تنتهى إليه بالآباء ، وكثيرمنهم بالأمهات أيضاً . كما ذكره محمد بن إسحاق وغيره فى أمهاته وأمهات آبائه وأمهاتهم مما يطول ذكره . وقد حرره ابن إسحاق رحمه الله والحافظ ابن عساكر . وقد ذكرنا فى ترجمة عدنان نسبه وماقيل فيه ، وأنه من ولد إسماعيل لامحالة . و إن اختلف فى كم بينهما أبا ؟ على أقوال قد بسطناها فيما تقدم ، والله أعلم .

وقد ذكرنا بقية النسب من عدنان إلى آدم ، وأوردنا قصيدة أبى العباس الناشىء المتضمنة ذلك ، كل ذلك فى أخبار عرب الحجاز ، ولله الحمد .

وقد تكلم الإمام أبو جعفر بن جرير رحمـه الله فى أول تاريخه على ذلك كلاماً مبسوطـاً جيداً محرراً نافعاً . وقد ورد حديث فى انتسابه عليه السلام إلى عدنان وهو على المنبر ، ولـكن الله أعلم بصحته . كما قال الحافظ أبو بـكر البيهقى : أنبأنا أبو الحسن على بن أحمد بن عمر بن حفص المقرىء ـ ببغداد ـ حدثنا أبو عيسى بكار بن أحمد بن بكار ، حدثنا أبو جعفر أحمد بن موسى بن سـعد ـ إملاء ، سـنة ست وتسعين ومائتين ـ حدثنا أبو جعفر محمد بن أبان القلانسى ، حدثنا أبو محمـد عبد الله بن محمد بن ربيعة القدامى . حدثنا مالك بن أنس عن الزهرى ، عن أنس وعن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث ابن هشام ، قال : بلغ النبى ﷺ أن رجالا من كندة يزعمون أنهم منه وأنه منهم، فقال : « إنما كان يقول ذلك العباس وأبو سفيان بن حرب فيأمنا بذلك ، و إنا لن ننتفى من آبائنا ، نحن بنو النضر بن كنانة » . قال : وخطب النبى ﷺ فقال : « أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة ابن إلياس بن مضر بن نزار ، وما افترق الناس فرقتين إلا جعلنى الله فى خيرهما ، فأخرجت من بين أبوى فلم يصبنى شىء من عَهر[3] الجاهلية . وخرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم حتى انتهيت إلى أبى وأمى . فأنا خيركم نفساً ، وخيركم أباً » . وهـذا حديث غريب جـداً من حديث مالك ، تفرد به القدامى وهو ضعيف .

---

(١) سمى بذلك لأنه انقمع فى الخباء فلم يخرج (٢) من الآية : ٢٣ من سورة الشورى . (٣) أى فجور وفسق .

ولـكن سنذكر له شواهد من وجوه أخر ؛ فمن ذلك قوله : «خرجت من نكاح لامن سفاح» .
قال عبد الرزاق : أخبرنا ابن عيينة عن جعفر بن محمد عن أبيه أبي جعفر الباقر فى قوله تعالى : (لقد جاءكم رسول من أنفسكم)[1] ـ قال لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية ، قال : وقال رسول الله ﷺ : «إنى خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح» ، وهـذا مرسل جيد . وهكذا رواه البيهقى عن الحاكم عن الأصم عن محمد بن إسحاق الصنعانى عن يحيى بن أبى بكير عن عبد الغفار بن القاسم عن جعفر بن محمد عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله أخرجنى من النكاح ولم يخرجنى من السفاح» . وقد رواه ابن عدى موصولا فقال : حدثنا أحمد بن حفص ، حدثنا محمد بن أبى عمرو المدنى المكى ، حدثنا محمد ابن جعفر بن محمد بن على بن الحسين قال : أشهد على أبى حدثنى عن أبيه عن جده عن على بن أبى طالب أن النبى ﷺ قال : «خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدنى أبى وأمى ، ولم يصبنى من سفاح الجاهلية شيء» ، هذا غريب من هذا الوجه ولا يـكاد يصح . وقال هشيم : حدثنا المدينى عن أبى الحويرث عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ : «ماولدنى من نكاح أهل الجاهلية شيء ، ماولدنى إلا نكاح كنكاح الإسلام» . وهذا أيضاً غريب أورده الحافظ بن عساكر ، ثم أسنده من حديث أبى هريرة ، وفى إسناده ضعف والله أعلم . وقال محمد بن سعد : أخبرنا محمد بن عمر ؛ حدثنى محمد ابن عبد الله بن مسلم عن عمه الزهرى عن عروة عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : «ولدت من نكاح غير سـفاح» ، ثم أورد ابن عساكر من حديث أبى عاصم عن شبيب عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله تعالى : (وتقلبك فى الساجدين)[2] قال من نبى إلى نبى حتى أخرجت نبياً ، ورواه عن عطاء .

وقال محمد بن سعد : أخبرنا هشام بن محمد الـكلبى عن أبيه قال : كتبت للنبى ﷺ خمسمائة أم فما وجدت فيهن سفاحاً ولا شيئاً مما كان من أمر الجاهلية . وثبت فى صحيح البخارى من حديث عمرو بن أبى عمرو عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «بعثت من خير قرون بنى آدم قرنـاً فقرنـاً حتى بعثت من القرن الذى كنت فيه» ، وفى صحيح مسلم من حديث الأوزاعى عن شداد أبى عمار عن واثلة بن الأسقع أن رسول الله ﷺ قال : «ن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من بنى إسماعيل بنى كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم»

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو نعيم عن سفيان عن يزيد بن أبى زياد عن عبد الله بن الحارث بن نوفل عن المطلب بن أبى وداعة قال : قال العباس : بلغه صلى الله عليه وسلم بعض مايقول الناس ، فصعد المنبر فقال : «من أنا ؟» قالوا أنت رسول الله ، قال : «أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، إن الله خلق الخلق فجعلنى فى خير خلقه ، وجعلهم فرقتين فجعلنى فى خير فرقة ، وخلق القبائل فجعلنى فى خير

---

(١) من الآية : ١٢٨ من آخر سورة التوبة (٢) الآية : ٢١٩ من سورة الشعراء .

قبيلة ، وجعلهم بيوتاً فجعلنى فى خيرهم بيتاً . فأنا خير بيتاً وخيركم نفساً » ، صلوات الله وسلامه عليه دائماً أبداً إلى يوم الدين . وقال يعقوب بن سفيان : حدثنا عبيد الله بن موسى عن إسماعيل بن أبى خالد عن يزيد بن أبى زياد عن عبد الله بن الحارث بن نوفل ، عن العباس بن عبد المطلب قال : قلت يارسول : إن قريشاً إذا التقوا لقى بعضهم بعضاً بالبشاشة ، وإذا لقونا لقونا بوجوه لانعرفها . فغضب رسول الله ﷺ عند ذلك غضباً شديداً ثم قال : « والذى نفس محمد بيده لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحبكم لله ولرسوله » ، فقلت يا رسول الله : إن قريشاً جلسوا فتذاكروا أحسابهم ، فجعلوا مثلك كمثل نخلة فى كَبوة[1] من الأرض . فقال رسول ﷺ : « إن الله يوم خلق الخلق جعلنى فى خيرهم ، ثم لما فرقهم قبائل جعلنى فى خيرهم قبيلة ، ثم حين جعل البيوت جعلنى فى خير بيوتهم ، فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً » . ورواه أبو بكر بن أبى شيبة عن ابن فضيل عن يزيد بن أبى زياد عن عبد الله بن الحارث عن ربيعة بن الحارث قال : بلغ النبى ﷺ فذكره بنحو ما تقدم ولم يذكر العباس .

وقال يعقوب بن سفيان : حدثنى يحيى بن عبد الحميد ، حدثنى قيس بن عبد الله عن الأعمش عن عليلة بن ربعى عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله قسم الخلق قسمين فجعلنى فى خيرهما قسماً ، فذلك قوله : (وأصحاب اليمين ـ وأصحاب الشمال) ، فأنا من أصحاب اليمين وأنا خير أصحاب اليمين . ثم جعل القسمين أثلاثاً فجعلنى فى خيرها ثلثاً ، فذلك قوله : (وأصحاب الميمنة ـ والسابقون السابقون)[2] فأنا من السابقين ، وأنا خير السابقين . ثم جعل الأثلاث قبائل فجعلنى فى خيرها قبيلة ، فذلك قوله : (وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير)[3] ، وأنا أتقى ولد آدم وأكرمهم على الله ولا فخر . ثم جعل القبائل بيوتاً فجعلنى فى خيرها بيتاً ، وذلك قوله : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً)[4] فأنا وأهل بيتى مطهرون من الذنوب » . وهذا الحديث فيه غرابة ونكارة .

وروى الحاكم والبيهقى من حديث محمد بن ذكوان ـ خال ولد حماد بن زيد ـ عن عمرو بن دينار عن ابن عمر قال : إنا لقعود بفناء النبى ﷺ إذ مرت به امرأة ، فقال بعض القوم هذه ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال أبو سفيان : مثل محمد فى بنى هاشم مثل الريحانة فى وسط النتن ، فانطلقت المرأة فأخبرت النبى صلى الله عليه وسلم فجاء رسول الله ﷺ يعرف فى وجهه الغضب ، فقال : «ما بال أقوال تبلغنى عن أقوام ! إن الله خلق السماوات سبعاً فاختار العلياء منها فأسكنها من شاء من خلقه ، ثم خلق الخلق فاختار من الخلق بنى آدم ، واختار من بنى آدم العرب ، واختار من العرب مضر ، واختار من

---

(١) قال فى القاموس : الكبوة بالفتح : الوقفة منك لرجل عند الشىء تكرهه ، وبالضم : الجمرة ، وهى مايوضع فيه الجمر (٢) سورة الواقعة (٣) الآية : ١٣ من سورة الحجرات (٤) الآية : ٣٣ من سورة الأحزاب.

مضر قريشاً ، واختار من قريش بنى هاشم ، واختارنى من بنى هاشم . فأنا خيار من خيار ، فمن أحب العرب فبحبى أحبهم ، ومن أبغض العرب فببغضى أبغضهم » . هذا أيضاً حديث غريب .

وثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر » ، وروى الحاكم والبيهقى أيضاً من حديث موسى بن عبيدة ، حدثنا عمرو بن عبد الله بن نوفل عن الزهرى عن أبى أسامة أو أبى سلمة ، عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « قال لى جبريل قلبت الأرض من مشارقها ومغاربها فلم أجد رجلا أفضل من محمد ، وقلبت الأرض مشارقها ومغاربها فلم أجد بنى أب أفضل من بنى هاشم » ، قال الحافظ البيهقى : وهذه الأحاديث وإن كان فى رواتها من لا يحتج به - فبعضها يؤكد بعضاً ، ومعنى جميعها يرجع إلى حديث واثلة بن الأسقع ، والله أعلم .

قلت وفى هذا المعنى يقول أبو طالب يمتدح النبى ﷺ :

إذا اجتمعت يوماً قريش لمَفْخر ... فعبد مناف سرّها وصميمها
وإن حُصّلت أشراف عبد منافها ... ففى هاشم أشرافها وقديمها
وإن فخرت يوماً فإن محمداً ... هو المصطفى من سرِّها وكريمها
تداعت قريش غثها وسمينها ... علينا فلم تظفر وطاشت حلومها
وكنا قديماً لا نُقِر ظلامةً ... إذا ما ثنوا صعر الخدود نقيمها
ونحمى حماها كل يوم كريهة ... ونضرب عن أحجارها من يرومها
بنا انتعش العود الذَّواء وإنما ... بأكنافنا تَنْدَى وتنمى أرومها

وقال أبو السكن - زكريا بن يحيى الطائى فى الجزء المنسوب إليه المشهور : حدثنى عمر بن أبى زحر ابن حصين عن جده حميد بن منهب قال : قال جدى خريم بن أوس : هاجرت إلى رسول الله ﷺ فقدمت عليه عند منصرفه من تبوك ، فأسلمت فسمعت العباس بن عبد المطلب يقول : يارسول الله ، إنى أريد أن أمتدحك ، فقال رسول الله ﷺ : « قل لا يفضض الله فاك » ، فأنشأ يقول :

قبلها طبت فى الظلال وفى ... مستودع حيث يخصف الورق
ثم هبطت البلاد لابشر أنـ ... ـت ولا مضغة ولا علق
بل نطفة تركب السفين وقد ... ألجم نسراً وأهله الغرق
تنقل من صالب إلى رحم ... إذا مضى عالم بدا طبق
حتى احتوى بيتك المهيمن من ... خندف علياء تحتها النطق
وأنت لما ولدت أشرقت الأ ... رض وضاءت بنورك الأفق
فنحن فى ذلك الضياء وفى النـ ... ـور وسبل الرشاد نخترق

وقد روى هذا الشعر لحسان بن ثابت ؛ فروى الحافظ أبو القاسم بن عساكر من طريق أبى الحسن ابن أبى الحديد ، أخبرنا محمد بن أبى نصر ، ثنا عبد السلام بن محمد بن أحمد القرشى ، حدثنا أبو حصين محمد ابن إسماعيل بن محمد التميمى ، حدثنا محمد بن عبد الله الزاهد الخراسانى ، حدثنى إسحاق بن إبراهيم بن سنان ، حدثنا سلام بن سليمان أبو العباس المكفوف المدائنى ، حدثنا ورقاء بن عمر عن ابن أبى نجيح عن عطاء ومجاهد عن ابن عباس قال سألت رسول الله ﷺ فقلت : فداك أبى وأمى ! أين كنت وآدم فى الجنة ؟ قال : فتبسم حتى بدت نواجذه ثم قال « كنت فى : صلبه وركب بى السفينة فى صلب أبى نوح وقذف بى فى صلب أبى إبراهيم ، لم يلتق أبواى على سفاح قط ، لم يزل الله ينقلنى من الأصلاب الحسيبة إلى الأرحام الطاهرة ، صفتى مهدى ، لا ينشعب شعبتان إلا كنت فى خيرهما ، وقد أخذ الله بالنبوة ميثاقى ، وبالإسلام عهدى ، ونشر فى التوراة والإنجيل ذكرى ، و بين كل نبى صفتى ، تشرق الأرض بنورى والغمام بوجهى ، وعلمنى كتابه ، وزادنى شرفاً فى سمائه ، وشق لى اسماً من أسمائه ، فذو العرش محمود وأنا محمد وأحمد ، ووعدنى أن يحبونى بالحوض والكوثر ، وأن يجعلنى أول شافع وأول مشفع ، ثم أخرجنى من خير قرن لأمتى ، وهم الحمادون ؛ يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » . قال ابن عباس : فقال حسان بن ثابت فى النبى ﷺ :

قبلها طبت فى الظلال وفى ... مستودع يوم يخصف الورق

ثم سكنت البلاد لا بشر أنـ ... ـت ولا نطفة ولا علق

مطهر تركب السفين وقد ... ألجم نسراً وأهله الغرق

تنقل من صلب إلى رحم ... إذا مضى طبق بدا طبق

فقال النبى ﷺ : « يرحم الله حساناً » ، فقال على بن أبى طالب : وجبت الجنة لحسان ورب الكعبة . ثم قال الحافظ بن عساكر : هذا حديث غريب جداً . قلت : بل منكر جداً ، والمحفوظ أن هذه الأبيات للعباس رضى الله عنه ، ثم أوردها من حديث أبى السكن ــ زكريا بن يحيى الطائى كما تقدم . قلت : ومن الناس من يزعم أنها للعباس بن مرداس السلمى ، فالله أعلم .

تنبيه : قال القاضى عياض — فى كتابه الشفاء — وأما أحمد الذى أتى فى الكتب وبشرت به الأنبياء ، فمنع الله بحكمته أن يسمى به أحد غيره ، ولا يدعى به مدعو قبله ؛ حتى لا يدخل لبس على ضعيف القلب أوشك . وكذلك محمد ؛ لم يسم به أحد من العرب ولا غيرهم ، إلى أن شاع قبيل وجوده وميلاده أن نبياً يبعث اسمه محمد ؛ فسمى قوم قليل من العرب أبناءهم بذلك ؛ رجاء أن يكون أحدهم هوَ و (الله أعلم حيث يجعل رسالته) وهم : محمد بن أحيحة بن الجلاح الأوسى ، ومحمد بن سلمة الأنصارى ، ومحمد بن البراء الكندى ، ومحمد بن سفيان بن مجاشع ، ومحمد بن حمران الجعفى ، ومحمد بن خزاعة السلمى ــ لا سابع

لهم ويقال : إن أول من سمى محمداً ـ محمد بن سفيان بن مجاشع . واليمن تقول : بل محمد بن ليحمد من الأزد . ثم إن الله حمى كل من تسمى به أن يدعى النبوة أو يدعيها له أحد ، أو يظهر عليه سبب يشكل أحداً فى أمره ، حتى تحققت الشيمتان له ﷺ لم ينازع فيهما . هذا لفظه .

باب مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولد ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ يوم الاثنين ؛ لما رواه مسلم فى صحيحه من حديث غيلان بن جرير ابن عبد الله بن معبد الزمانى عن أبى قتادة : أن أعرابياً قال يارسول الله ، ماتقول فى صوم يوم الاثنين ؟ فقال : « ذاك يوم ولدت فيه وأنزل علىّ فيه » . وقال الإمام أحمد : حدثنا موسى بن داود ، حدثنا ابن لهيعة عن خالد بن أبى عمران عن حنش الصنعانى عن ابن عباس قال : ولد رسول الله ﷺ يوم الاثنين ، واستنبىء يوم الاثنين ، وخرج مهاجراً من مكة إلى المدينة يوم الاثنين ، وقدم المدينة يوم الاثنين ، وتوفى يوم الاثنين ، ورفع الحجر الأسود يوم الاثنين . تفرد به أحمد ، ورواه عمرو بن بكير عن ابن لهيعة وزاد : ونزلت سورة المائدة يوم الاثنين : (اليوم أكملت لكم دينكم) . وهكذا رواه بعضهم عن موسى بن داود به ، وزاد أيضاً : وكانت وقعة بدر يوم الاثنين . وممن قال هذا ـ يزيد بن حبيب ، وهذا منكر جداً . قال ابن عساكر : والمحفوظ أن بدراً ونزول (اليوم أكملت لكم دينكم) ـ يوم الجمعة ، وصدق ابن عساكر . وروى عبد الله بن عمر عن كريب عن ابن عباس : ولد رسول الله ﷺ يوم الاثنين وتوفى يوم الاثنين ، وهكذا روى من غير هذا الوجه عن ابن عباس ـ أنه ولد يوم الاثنين ، وهذا مالا خلاف فيه أنه ولد ﷺ يوم الاثنين . وأبعد بل أخطأ من قال : ولد يوم الجمعة لسبع عشرة خلت من ربيع الأول ، نقله الحافظ ابن دحية فيما قرأه فى كتاب [أعلام الروى بأعلام الهدى] لبعض الشيعة . ثم شرع ابن دحية فى تضعيفه ، وهو جدير بالتضعيف إذ هو خلاف النص .

ثم الجمهور على أن ذلك كان فى شهر ربيع الأول ؛ فقيل لليلتين خلتا منه ، قاله ابن عبد البر فى الاستيعاب ، ورواه الواقدى عن أبى معشر نجيح بن عبد الرحمن المدنى . وقيل لثمان خلون منه ؛ حكاه الحميدى عن ابن حزم ، ورواه مالك وعقيل ويونس بن يزيد وغيرهم عن الزهرى عن محمد بن جبير بن مطعم ، ونقل ابن عبد البر عن أصحاب التاريخ أنهم صححوه ، وقطع به الحافظ الكبير محمد بن موسى الخوارزمى ، ورجحه الحافظ أبو الخطاب بن دحية فى كتابه : [التنوير فى مولد البشير النذير] . وقيل لعشر خلون منه ، نقله ابن دحية فى كتابه ، ورواه ابن عساكر عن أبى جعفر الباقر ، ورواه مجالد عن الشعبى كما مر . وقيل لثنتى عشرة خلت منه ، نص عليه ابن إسحاق ، ورواه ابن أبى شيبة فى مصنفه عن عفان عن سعيد بن مينا عن جابر وابن عباس أنهما قالا : ولد رسول الله ﷺ عام الفيل يوم الاثنين الثانى عشر من شهر ربيع الأول ، وفيه بعث ، وفيه عرج به إلى السماء ، وفيه هاجر ، وفيه مات .

وهذا هو المشهور عند الجمهور والله أعلم . وقيل لسبعة عشر خلت منه ؛ كما نقله ابن دحية عن بعض الشيعة . وقيل لثمان بقين منه ، نقله ابن دحية من خط الوزير أبى رافع بن الحافظ أبى محمد بن حزم عن أبيه . والصحيح عن ابن حزم الأول ــ أنه لثمان مضين منه كما نقله عن الحميدى وهو أثبت .

والقول الثانى : أنه ولد فى رمضان ، نقله ابن عبد البر عن الزبير بن بكار وهو قول غريب جداً ، وكان مستنده أنه عليه الصلاة والسلام أوحى إليه فى رمضان بلا خلاف ، وذلك على رأس أربعين سنة من عمره ، فيكون مولده فى رمضان ، وهذا فيه نظر والله أعلم . وقد روى خيثمة بن سليمان الحافظ عن خلف بن محمد كردوس الواسطى ، عن المعلى بن عبد الرحمن ، عن عبد الحميد بن جعفر عن الزهرى ، عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال: ولد رسول الله ﷺ يوم الاثنين فى ربيع الأول ، وأنزلت عليه النبوة يوم الاثنين فى أول شهر ربيع الأول ، وأنزلت عليه البقرة يوم الاثنين فى ربيع الأول . وهذا غريب جداً ، رواه ابن عساكر . قال الزبير بن بكار: حملت به أمه فى أيام التشريق فى شعب أبى طالب عند الجمرة الوسطى ، وولد بمكة بالدار المعروفة بمحمد بن يوسف أخى الحجاج بن يوسف ــ لثنتى عشرة ليلة خلت من شهر رمضان . ورواه الحافظ بن عساكر من طريق محمد بن عثمان بن عقبة بن مكرم عن المسيب بن شريك عن شعيب بن شعيب عن أبيه عن جده قال : حمل برسول الله ﷺ فى يوم عاشوراء فى المحرم ، وولد يوم الاثنين لثنتى عشرة ليلة خلت من شهر رمضان سنة ثلاث وعشرين من غزوة أصحاب الفيل . وذكر غيره أن الخيزران ــ وهى أم هارون الرشيد ــ لما حجت أمرت ببناء هذه الدار مسجداً ، فهو يعرف بها اليوم . وذكر السهيلى أن مولده عليه الصلاة والسلام كان فى العشرين من نيسان ، وهذا أعدل الزمان والفصول ، وذلك لسنة اثنتين وثمانين وثمانمائة لذى القرنين ــ فيما ذكره أصحاب الزيج .

وزعموا أن الطالع كان لعشرين درجة من الجدى ، وكان المشترى وزحل مقترنين فى ثلاث درج من العقرب ــ وهى درجة وسط السماء ، وكان موافقاً من البروج الحمل ، وكان ذلك عند طلوع القمر أول الليل . نقله كله ابن دحية ، والله أعلم .

قال ابن إسحاق : وكان مولده عليه الصلاة والسلام عام الفيل. وهذا هو المشهور عن الجمهور . قال إبراهيم بن المنذر الحزامى ــ وهو الذى لا يشك فيه أحد من علمائنا ــ إنه عليه الصلاة والسلام ولد عام الفيل ، وبعث على رأس أربعين سنة من الفيل . وقد رواه البيهقى من حديث أبى إسحاق السبيعى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : ولد رسول الله ﷺ عام الفيل . وقال محمد بن إسحاق : حدثنى المطلب بن عبد الله بن قيس بن مخرمة عن أبيه عن جده قيس بن مخرمة قال: ولدت أنا ورسول الله ﷺ عام الفيل ، فنحن لدتان[1] قال: وسأل عثمان رضى الله عنه قُباث بن أشيم أخا بنى يعمر بن ليث: أنت أكبر أم رسول الله ﷺ ؟ فقال : رسول الله ﷺ أكبر منى وأنا أقدم منه فى الميلاد . ورأيت خَذْق[2]

(١) مثنى لدة ، واللدة : الترب ــ وهو من ولد معك . (٢) الخذق : الروث .

الفيل أخضر محيلا . ورواه الترمذى والحاكم من حديث محمد بن إسحاق به . قال ابن إسحاق : وكان رسول الله ﷺ عام عكاظ ابن عشرين سنة . وقال ابن إسحاق : كان الفجار بعد الفيل بعشرين سنة ، وكان بناء الكعبة بعد الفجار بخمس عشرة سنة ، والمبعث بعد بنائها بخمس سنين . وقال محمد بن جبير ابن مطعم : كانت عكاظ بعد الفيل بخمس عشرة سنة ، وبناء الكعبة بعد عكاظ بعشر سنين ، والمبعث بعد بنائها بخمس عشرة سنة . وروى الحافظ البيهقى من حديث عبد العزيز بن أبى ثابت المدينى ، حدثنا الزبير بن موسى عن أبى الحويرث قال : سمعت عبد الملك بن مروان يقول لقباث بن أشيم الكنانى ثم الليثى : ياقباث أنت أكبر أم رسول الله ﷺ ؟ قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم أكبر منى ، وأنا أسن ؛ ولد رسول الله ﷺ عام الفيل ، ووقفت بى أمى على روث الفيل محيلا أعقله ، وتنبأ رسول الله ﷺ على رأس أربعين سنة . وقال يعقوب بن سفيان : حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير ، حدثنا نعيم – يعنى ابن ميسرة – عن بعضهم عن سويد بن غفلة أنه قال : أنا لِدة رسول الله ﷺ ؛ ولدت عام الفيل . قال البيهقى : وقد روى عن سويد بن غفلة أنه قال : أنا أصغر من رسول الله صلى الله عليه وسلم بسنتين . قال يعقوب : وحدثنا إبراهيم بن المنذر ، حدثنا عبد العزيز بن أبى ثابت ، حدثنى عبد الله بن عثمان بن أبى سليمان النوفلى عن أبيه عن محمد بن جبير بن مطعم ، قال : ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفيل ، وكانت بعده عكاظ بخمس عشرة سنة ، وبنى البيت على رأس خمس وعشرين سنة من الفيل ، وتنبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأس أربعين سنة من الفيل .

والمقصود أن رسول الله ﷺ ولد عام الفيل على قول الجمهور ؛ فقيل بعده بشهر ، وقيل بأربعين يوماً ، وقيل بخمسين يوماً وهو أشهر . وعن أبى جعفر الباقر : كان قدوم الفيل للنصف من المحرم ، ومولد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعده بخمس وخمسين ليلة . وقال آخرون بل كان عام الفيل قبل مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعشر سنين ، قاله ابن أبزى . وقيل بثلاث وعشرين سنة ، رواه شعيب بن شعيب عن أبيه عن جده كما تقدم ، وقيل بعد الفيل بثلاثين سنة ، قاله موسى بن عقبة عن الزهرى رحمه الله ، واختاره موسى بن عقبة أيضاً رحمه الله . وقال أبو زكريا العجلانى : بعد الفيل بأربعين عاماً ، رواه ابن عساكر وهذا غريب جداً ، وأغرب منه ما قال خليفة بن خياط : حدثنى شعيب بن حبان عن عبد الواحد بن أبى عمرو عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس ، قال : ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الفيل بخمس عشرة سنة ، وهذا حديث غريب ومنكر وضعيف أيضاً . قال خليفة بن خياط : والمجتمع عليه أنه عليه السلام ولد عام الفيل .

صفة مولده الشريف عليه الصلاة السلام

قد تقدم أن عبد المطلب لما ذبح تلك الإبل المائة عن ولده عبد الله ، حين كان نذر ذبحه فسلمه الله تعالى ؛ لما كان قدر فى الأزل من ظهور النبى الأمى ﷺ خاتم الرسل وسيد ولد آدم من صلبه . فذهب كما تقدم فزوجه أشرف عقيلة فى قريش - آمنه - بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة الزهرية ، فحين دخل بها وأفضى إليها حملت برسول الله ﷺ ، وقد كانت أم قتال - رقيقة بنت نوفل - أخت ورقة بن نوفل ، توسمت ما كان بين عينى عبد الله - قبل أن يجامع آمنة - من النور ، فودت أن يكون ذلك متصلا بها لما كانت تسمع من أخيها من البشارات بوجود محمد ﷺ ، وأنه قد أزف زمانه . فعرضت نفسها عليه . قال بعضهم : ليتزوجها ، وهو أظهر والله أعلم ، فامتنع عليها . فلما انتقل ذلك النور الباهر إلى آمنة بمواقعته إياها ، كأنه تندم على ما كانت عرضت عليه ، فتعرض لها لتعاوده ، فقالت لا حاجة لى فيك وتأسفت على مافاتها من ذلك وأنشدت فى ذلك ماقدمناه من الشعر الفصيح البليغ . وهذه الصيانة لعبدالله ليست له وإنما هى لرسول الله ﷺ ، فإنه كما قال تعالى : (الله أعلم حيث يجعل رسالته)[1] وقد تقدم الحديث المروى من طريق جيد - أنه عليه الصلاة والسلام قال : « ولدت من نكاح لا من سفاح » .

والمقصود أن أمه حين حملت به توفى أبوه عبد الله وهو حمل فى بطن أمه على المشهور . قال محمد ابن سعد : حدثنا محمد بن عمر - هو الواقدى - حدثنا موسى بن عبيدة اليزيدى ، حدثنا سعيد بن أبى زيد عن أيوب بن عبد الرحمن بن أبى صعصعة . قال : خرج عبد الله بن عبد المطلب إلى الشام إلى غزة فى عير من عيران قريش يحملون تجارات ، ففرغوا من تجاراتهم ، ثم انصرفوا فمروا بالمدينة ، وعبد الله ابن عبد المطلب يومئذ مريض ، فقال أتخلف عند أخوالى بنى عدى بن النجار ، فأقام عندهم مريضاً شهراً ، ومضى أصحابه فقدموا مكة ، فسألهم عبد المطلب عن ابنه عبد الله ، فقالوا خلفناه عند أخواله بنى عدى بن النجار وهو مريض . فبعث إليه عبد المطلب أكبر ولده الحارث ، فوجده قد توفى ودفن فى دار النابغة[2] فرجع إلى أبيه فأخبره . فوجد عليه عبدالمطلب وإخوته وأخواته وجداً شديداً ، ورسول الله ﷺ يومئذ حمل . ولعبد الله بن عبد المطلب يوم توفى خمس وعشرون سنة .

قال الواقدى : هذا هو أثبت الأقاويل فى وفاة عبد الله وسنه عندنا . قال الواقدى : وحدثنى معمر عن الزهرى أن عبد المطلب بعث عبد الله إلى المدينة يمتار لهم تمراً فمات . قال محمد بن سعد : وقد أنبأنا هشام بن محمد بن السائب الكلبى عن أبيه وعن عوانة بن الحكم - قالا : توفى عبد الله بن عبد المطلب بعد ما أتى على رسول الله ﷺ ثمانية وعشرون شهراً ، وقيل سبعة أشهر . وقال محمد بن سعد :

---

(١) من الآية ١٢٤ من سورة الأنعام (٢) النابغة بالغين : أما دار التابعة فهى بمكة وهى التى ولد بها النبى عليه السلام .

والأول أثبت وهو أنه توفى ورسول الله ﷺ حمل . وقال الزبير بن بكار : حدثنى محمد بن حسن عن عبدالسلام عن ابن خربوذ ، قال : توفى عبد الله بالمدينة ورسول الله ﷺ ابن شهرين ، وماتت أمه وهو ابن أربع سنين ، ومات جده وهو ابن ثمان سنين ، فأوصى به إلى عمه أبى طالب . والذى رجحه الواقدى وكاتبه الحافظ محمد بن سعد أنه عليه الصلاة والسلام توفى أبوه وهو جنين فى بطن أمه ، وهذا أبلغ اليتم وأعلى مراتبه . وقد تقدم فى الحديث : « ورؤيا أمى التى رأت حين حملت بى كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام » . وقال محمد بن إسحاق : فكانت آمنة بنت وهب أم رسول الله ﷺ تحدث أنها أتيت حين حملت برسول الله ﷺ ، فقيل لها إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ، فإذا وقع إلى الأرض فقولى : أعيذه بالواحد ، من شر كل حاسد ، [وكل عبد رائد ، يذود عنى ذائد ، فإنه عند الحميد الماجد ، حتى أراه قد أتى المشاهد][1] وآية ذلك أنه يخرج معه نور يملأ قصور بصرى من أرض الشام ، فإذا وقع فسميه محمداً ؛ فإن اسمه فى التوراة أحمد، يحمده أهل السماء وأهل الأرض ، واسمه فى الإنجيل أحمد ؛ يحمده أهل السماء وأهل الأرض ، واسمه فى القرآن محمد . وهذا وذاك يقتضى أنها رأت حين حملت به عليه السلام كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام . ثم لما وضعته رأت عياناً تأويل ذلك ، كما رأته قبل ذلك هاهنا ، والله أعلم .

وقال محمد بن سعد : أنبأنا محمد بن عمر — هو الواقدى — حدثنا محمد بن عبد الله بن مسلم عن الزهرى . وقال الواقدى : حدثنا موسى بن عبدة عن أخيه ومحمد بن كعب القرظى ، وحدثنى عبد الله ابن جعفر الزهرى عن عمته أم بكر بنت المسور عن أبيها ، وحدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم المزنى وزياد ابن حشرج عن أبى وجزة ، وحدثنا معمر عن أبى نجيح عن مجاهد ، وحدثنا طلحة بن عمرو عن عطاء عن ابن عباس ـ دخل حديث بعضهم فى حديث بعض : أن آمنة بنت وهب قالت : لقد علقت به ـ تعنى رسول الله ﷺ ـ فما وجدت له مشقة حتى وضعته ، فلما فصل منى خرج معه نور أضاء له ما بين المشرق إلى المغرب ، ثم وقع إلى الأرض معتمداً على يديه ، ثم أخذ قبضة من التراب فقبضها ورفع رأسه إلى السماء ، وقال بعضهم : وقع جاثياً على ركبتيه ، وخرج معه نور أضاءت له قصور الشام وأسواقها حتى رؤيت أعناق الإبل ببصرى ، رافعاً رأسه إلى السماء .

وقال الحافظ أبو بكر البيهقى : أنبأنا محمد بن عبد الله الحافظ ، أنبأنا محمد بن إسماعيل ، أنبأنا محمد بن إسحاق ، حدثنا يونس بن مبشر بن الحسن ، حدثنا يعقوب بن محمد الزهرى ، حدثنا عبد العزيز بن عمران ، حدثنا عبد الله بن عثمان بن أبى سليمان بن جبير بن مطعم عن أبيه عن ابن أبى سويد الثقفى عن عثمان بن أبى العاص ، قال : حدثتنى أمى : أنها شهدت ولادة آمنة بنت وهب أم رسول الله ﷺ ليلة ولدته ، قالت فما شىء أنظره فى البيت إلا نور ، وإنى لأنظر

(١) [ ] مابين هذين القوسين غير مثبت فى رواية الطبرى عن ابن إسحاق ولم يذكره ابن هشام كذلك .

إلى النجوم تدنو حتى إنى لأقول لتقعن على[1] .

وذكر القاضى عياض عن الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف ـ أنها كانت قابلته ، وأنها أخبرت به حين سقط على يديها واستهل ، وأنها سمعت قائلا يقول يرحمك الله ، وإنه سطع منه نور رؤيت منه قصور الروم .

قال محمد بن إسحاق : فلما وضعته بعثت إلى عبد المطلب جاريتها ـ وقد هلك أبوه وهى حبلى ، ويقال إن عبد الله هلك والنبى ﷺ ابن ثمانية وعشرين شهراً ، فالله أعلم أى ذلك كان ـ فقالت قد ولد لك غلام فأته فانظر إليه ، فلما جاءها أخبرته وحدثته بما كانت رأت حين حملت به ، وما قيل لها فيه وما أمرت أن تسميه . فأخذه عبد المطلب فأدخله على هُبَل فى جوف الكعبة . فقام عبد المطلب يدعو ويشكر الله عز وجل ويقول :

الحمد لله الذى أعطانى ... هذا الغلام الطيب الأردان
قد ساد فى المهد على الغلمان ... أعيذه بالبيت ذى الأركان
حتى يكون بلغة الفتيان ... حتى أراه بالغ البنيان
أعيذه من كل ذى شنآن ... من حاسد مضطرب العنان
ذى همة ليس له عينان ... حتى أراه رافع اللسان[2]
أنت الذى سميت فى القرآن ... فى كتب ثابتة المثانى

* أحمد مكتوب على اللسان *

وقال البيهقى : أنبأنا أبو عبد الله الحافظ ، أنبأنا أبو بكر محمد بن أحمد بن حاتم الدراوردى ـ بمرو ـ حدثنا أبو عبد الله البوشنجى ، حدثنا أبو أيوب سليمان بن سلمة الخبائرى ، حدثنا يونس بن عطاء بن عثمان بن ربيعة بن زياد بن الحارث الصدائى ـ بمصر ـ حدثنا الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس عن أبيه العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه ، قال : ولد رسول الله ﷺ مختوناً مسروراً . قال فأعجب ذلك جده عبد المطب وحظى عنده . وقال : ليكونن لابنى هذا شأن ، فكان له شأن . وهذا الحديث فى صحته نظر . وقد رواه الحافظ بن عساكر من حديث سفيان بن محمد المصيصى عن هشيم عن يونس بن عبيد عن الحسن عن أنس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من كرامتى على الله أنى ولدت مختوناً ولم ير سوأتى أحد » . ثم أورده من طريق الحسن بن عرفة عن هشيم به . ثم أورده من طريق محمد بن محمد ابن سليمان ـ هو الباغندى ـ حدثنا عبد الرحمن بن أيوب الحمصى ، حدثنا موسى بن أبى موسى المقدسى .

---

(١) ذكر ابن جرير : أن النبى ولد فى الدار التى تعرف بدار ابن يوسف وكان الرسول وهبها لعقيل بن أبى طالب فلما توفى باعها ولده من محمد بن يوسف أخى الحجاج بن يوسف . (٢) فى نسخة رافع السان . قيل ولعلها :

* حتى أرى منه رفيع الشأن *

حدثنى خالد بن سلمة عن نافع عن ابن عمر قال : ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم مسروراً مختوناً .
وقال أبو نعيم : حدثنا أبو أحمد محمد بن أحمد الغطريفى ، حدثنا الحسين بن أحمد بن عبد الله المالكى ، حدثنا سليمان بن سلمة الخبائرى ، حدثنا يونس بن عطاء ، حدثنا الحكم بن أبان ، حدثنا عكرمة عن ابن عباس عن أبيه العباس قال : ولد رسول الله ﷺ مختوناً مسروراً ، فأعجب ذلك جده عبد المطلب وحظى عنده ، وقال ليكونن لابنى هذا شأن ، فكان له شأن . وقد ادعى بعضهم صحته لما ورد له من الطرق ، حتى زعم بعضهم أنه متواتر ، وفى هذا كله نظر . ومعنى مختوناً : أى مقطوع الختان ، ومسروراً : أى مقطوع السرة من بطن أمه . وقد روى الحافظ بن عساكر عن طريق عبد الرحمن بن عيينة البصرى ، حدثنا على بن محمد المدائنى السلمى ، حدثنا سلمة بن محارب بن مسلم بن زياد عن أبيه عن أبى بكرة — أن جبريل ختن النبى صلى الله عليه وسلم حين طهر قلبه ، وهذا غريب جداً . وقد روى أن جده عبد المطلب ختنه وعمل له دعوة جمع قريشاً عليها ، والله أعلم .

وقال البيهقى : أنبأنا أبو عبد الله الحافظ ، أنبأنى محمد بن كامل القاضى — شفاهاً — أن محمد بن إسماعيل حدثه — يعنى السلمى — حدثنا أبو صالح عبد الله بن صالح ، حدثنى معاوية بن صالح عن أبى الحكم التنوخى قال : كان المولود إذا ولد فى قريش دفعوه إلى نسوة من قريش إلى الصبح يكفأن عليه برمة ، فلما ولد رسول الله ﷺ دفعه عبد المطلب إلى نسوة فكفأن عليه برمة ، فلما أصبحن أتين فوجدن البرمة قد انفلقت عنه باثنتين ، ووجدنه مفتوح العينين شاخصاً ببصره إلى السماء ، فأتاهن عبد المطلب فقلن له : مارأينا مولوداً مثله ؛ وجدناه قد انفلقت عنه البرمة ، ووجدناه مفتوحاً عينيه شاخصاً ببصره إلى السماء . فقال احفظنه فإنى أرجو أن يكون له شأن ، أو أن يصيب خيراً . فلما كان اليوم السابع ذبح عنه ودعا له قريشاً ، فلما أكلوا قالوا ياعبد المطلب ، أرأيت ابنك هذا الذى أكرمتنا على وجهه ؟ ماسميته ؟ قال سميته محمداً ، قالوا فلم رغبت به عن أسماء أهل بيته ؟ قال أردت أن يحمده الله فى السماء وخلقه فى الأرض . قال أهل اللغة : كل جامع لصفات الخير يسمى محمداً ، كما قال بعضهم :

إليك — أبيت اللعن — أعملت ناقتى   إلى الماجد القرم الكريم المحمد

وقال بعض العلماء ، ألهمهم الله عز وجل أن سموه محمداً لما فيه من الصفات الحميدة ؛ ليلتقى الاسم والفعل ، ويتطابق الاسم والمسمى فى الصورة والمعنى ؛ كما قال عمه أبو طالب ، ويروى لحسان :

وشق له من اسمه ليجله   فذو العرش محمود وهذا محمد

وسنذكر أسماءه عليه الصلاة والسلام وشمائله — وهى صفاته الظاهرة وأخلاقه الطاهرة — ودلائل نبوته ، وفضائل منزلته — فى آخر السيرة إن شاء الله .

قال الحافظ أبو بكر البيهقى : أنبأنا أبو عبد الله الحافظ ، حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب ، حدثنا أحمد بن شيبان الرملى ، حدثنا أحمد بن إبراهيم الحبلى ، حدثنا الهيثم بن جميل ، حدثنا زهير عن محارب ابن دثار عن عمرو بن يثربى عن العباس بن عبد المطلب قال : قلت : يارسول الله ! دعانى إلى الدخول فى دينك أمارة لنبوتك ؛ رأيتك فى المهد تناغى القمر وتشير إليه بأصبعك ، فحيث أشرت إليه مال . قال : « إنى كنت أحدثه و يحدثنى ويلهينى عن البكاء ، وأسمع وجبيه حين يسجد تحت العرش » . ثم قال : تفرد به الليثى ، وهو مجهول .

« فصل » فيما وقع من الآيات ليلة مولده عليه الصلاة والسلام

قد ذكرنا فى باب هواتف الجان ماتقدم من خرور كثير من الأصنام ليلتئذ ـ لوجوهها ، وسقوطها عن أماكنها ، ومارآه النجاشى ملك الحبشة ، وظهور النور معه حتى أضاءت له قصور الشام حين ولد ، وما كان من سقوطه جاثياً رافعاً رأسه إلى السماء ، وانفلاق تلك البرمة عن وجهه الكريم ، وما شوهد من النور فى المنزل الذى ولد فيه ، ودنو النجوم منهم وغير ذلك .

حكى السهيلى عن تفسير بقى بن مخلد الحافظ ـ أن إبليس رن أربع رنات : حين لعن ، وحين أهبط ، وحين ولد رسول الله ﷺ ، وحين أنزلت الفاتحة . قال محمد بن إسحاق : وكان هشام بن عروة يحدث عن أبيه عن عائشة قالت : كان يهودى قد سكن مكة يتجر بها ، فلما كانت الليلة التى ولد فيها رسول الله ﷺ قال فى مجلس من قريش : يامعشر قريش ! هل ولد فيكم الليلة مولود ؟ فقال القوم والله مانعلمه ، فقال : الله أكبر ! أما إذا أخطأكم فلا بأس ، انظروا واحفظوا ما أقول لكم : ولد هذه الليلة نبى هذه الأمة الأخيرة ، بين كتفيه علامة فيها شعرات متواترات كأنهن عرف فرس ، لايرضع ليلتين ، وذلك أن عفريتاً من الجن أدخل أصبعه فى فمه فمنعه الرضاع . فتصدع القوم من مجالسهم وهم يتعجبون من قوله وحديثه ، فلما صاروا إلى منازلهم أخبر كل إنسان منهم أهله ، فقالوا : قد والله ولد لعبد الله بن عبد المطلب غلام سموه محمداً . فالتقى القوم فقالوا هل سمعتم حديث اليهودى ؟ وهل بلغكم مولد هذا الغلام ؟ فانطلقوا حتى جاءوا اليهودى فأخبروه الخبر . قال فاذهبوا معى حتى أنظر إليه ، فخرجوا به حتى أدخلوه على آمنة ، فقالوا : أخرجى إلينا ابنك ، فأخرجته وكشفوا له عن ظهره ، فرأى تلك الشامة ، فوقع اليهودى مغشياً عليه . فلما أفاق قالوا له : مالك ويلك ؟ قال قد ذهبت والله النبوة من بنى إسرائيل فرحتم بها يامعشر قريش ، والله ليسطون بكم سطوة يخرج خبرها من المشرق والمغرب .

وقال محمد بن إسحاق : حدثنى صالح بن إبراهيم عن يحيى بن عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة قال : حدثنى من شئت من رجال قومى ـ ممن لا أتهم ، عن حسان بن ثابت قال : إنى لغلام يفعة ابن سبع سنين ـ

أو ثمان سنين ـ أعقل ما رأيت وسمعت ، إذا بيهودى فى يثرب يصرخ ذات غداة : يامعشر يهود ! فاجتمعوا إليه ـ وأنا أسمع ـ فقالوا و يلك مالك ؟ قال قد طلع نجم أحمد الذى يولد به فى هذه الليلة .

وروى الحافظ أبو نعيم فى كتاب : [دلائل النبوة] ـ من حديث أبى بكر بن عبد الله العامرى ، عن سليمان ابن سحيم وذريح بن عبدالرحمن ـ كلاهما عن عبد الرحمن بن أبى سعيد عن أبيه قال : سمعت أبى مالك ابن سنان يقول : جئت بنى عبد الأشهل يوماً لأتحدث فيهم ، ونحن يومئذ فى هدنة من الحرب ، فسمعت يوشع اليهودى يقول : أظل خروج نبى يقال له : « أحمد » ، يخرج من الحرم . فقال له خليفة بن ثعلبة الأشهلى ـ كالمستهزىء به ـ ماصفته ؟ فقال رجل ليس بالقصير ولا بالطويل ، فى عينيه حمرة ، يلبس الشملة و يركب الحمار ، سيفه على عاتقه وهذا البلد مهاجره . قال فرجعت إلى قومى بنى خدرة وأنا يومئذ أتعجب ممايقول يوشع ؛ فأسمع رجلا منا يقول : و يوشع يقول هذا وحده ؟ كل يهود يثرب يقولون هذا . قال أبى مالك بن سنان ، فخرجت حتى جئت بنى قريظة فأجد جمعاً ، فتذاكروا النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال الزبير بن باطا : قد طلع الكوكب الأحمر الذى لم يطلع إلا لخروج نبى أو ظهوره ، ولم يبق أحد إلا «أحمد» وهذا مهاجره . قال أبو سعيد : فلما قدم النبى ﷺ أخبره أبى هذا الخبر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو أسلم الزبير لأسلم ذووه من رؤساء اليهود إنما هم له تبع » .

وقال أبو نعيم : حدثنا عمر بن محمد ، حدثنا إبراهيم بن السندى ، حدثنا النضر بن سلمة ، حدثنا إسماعيل بن قيس بن سليمان بن زيد بن ثابت عن أم سعد بنت سعد بن الربيع ، سمعت زيد بن ثابت يقول : كان أحبار يهود بنى قريظة والنضير يذكرون صفة النبى ﷺ ، فلما طلع الكوكب الأحمر أخبروا أنه نبى، وأنه لانبى بعده، واسمه «أحمد» ومهاجره إلى يثرب . فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ـ أنكروا وحسدوا وكفروا . وقد أورد هذه القصة الحافظ أبو نعيم فى كتابه من طرق أخرى ، ولله الحمد .

وقال أبو نعيم ومحمد بن حبان : حدثنا أبو بكر بن أبى عاصم ، حدثنا وهب بن بقية ، حدثنا خالد عن محمد بن عمرو عن أبى سلمة و يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب عن أسامة بن زيد ، قال : قال زيد ابن عمرو بن نفيل : قال لى حبر من أحبار الشام : قد خرج فى بلدك نبى ـ أو هو خارج ، قد خرج نجمه فارجع فصدقه واتبعه .

ذكر ارتجاس الإيوان

وسقوط الشرفات وخمود النيران ورؤيا الموبذان وغير ذلك من الدلالات

قال الحافظ أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل الخرائطى فى كتاب [هواتف الجان] : حدثنا على بن حرب : حدثنا أبو أيوب يعلى بن عمران ـ من آل جرير بن عبد الله البجلى ـ حدثنى مخزوم بن هانى المخزومى عن أبيه ـ وأتت عليه خمسون ومائة سنة ـ قال : لما كانت الليلة التى ولد فيها رسول الله ﷺ ارتجس[1] إيوان كسرى وسقطت منه أربع عشرة شرفة . وخمدت نار فارس ، ولم تخمد قبل ذلك مائة عام ، وغاضت بحيرة ساوة . ورأى الموبذان[2] إبلا صعاباً تقود خيلا عِراباً ، قد قطعت دجلة وانتشرت فى بلادها . فلما أصبح كسرى أفزعه ذلك فتصبر عليه تشجعاً ، ثم رأى أنه لايدخر ذلك عن مرازبته ؛ فجمعهم ولبس تاجه وجلس على سريره ، ثم بعث إليهم . فلما اجتمعوا عنده قال : أتدرون فيم بعثت إليكم ؟ قالوا ـ لا ، إلا أن يخبرنا الملك ، فبينما هم كذلك إذ ورد عليهم كتاب بخمود النيران ، فازداد غماً إلى غمه ، ثم أخبرهم بما رأى وما هاله : فقال الموبذان : وأنا ـ أصلح الله الملك ـ قد رأيت فى هذه الليلة رؤيا ، ثم قص عليه رؤياه فى الإبل : فقال : أى شىء يكون هذا ياموبذان ؟ قال : حدث يكون فى ناحية العرب ـ وكان أعلمهم من أنفسهم ـ فكتب عند ذلك : من كسرى ملك الملوك إلى النعمان بن المنذر ، أما بعد ؛ فوجه إلىّ برجل عالم بما أريد أن أسأله عنه . فوجه إليه بعبد المسيح بن عمرو بن حَيَّان بن بُقيلة الغسانى ، فلما ورد عليه قال له : ألك علم بما أريد أن أسألك عنه ؟ فقال ليخبرنى أو ليسألنى الملك عما أحب ؛ فإن كان عندى منه علم و إلا أخبرته بمن يعلم فأخبره بالذى وجه به إليه فيه ، فقال : علم ذلك عند خال لى يسكن مشارف الشام يقال له سَطيح ، قال فائته فاسأله عما سألتك عنه ثم ائتنى بتفسيره . فخرج عبد المسيح حتى انتهى إلى سطيح وقد أشفى على الضريح فسلم عليه وكلمه فلم يرد إليه سطيح جواباً ، فأنشأ يقول :

أصمُّ أم يسمعُ غِطريف اليمن ؟	أم فاد فازلَمّ به شأوُ العنَن[3] ؟
يا فاصل الخطة أعيت مَن ومَن	أتاك شيخ الحى من آل سَنَن
وأمّه من آل ذئب بن حَجَن	أزرق نهم الناب صَرّار الأُذُن
أبيض فضفاض الرداء والبدن	رسول قَيْل العجم يَسرِى للوسن

(١) أى رجف وزلزل (٢) الموبذان : فقيه الفرس وحاكم المجوس . وفى اللسان : هو كقاضى القضاة للمسلمين .
(٣) فاد : مات . ازلم : ولى .

يجوب بى الأرض عَلَنداة شزَن[١] لا يرهب الرعد ولا ريب الزمن
ترفعنى وَجْن وتهوى بى وجَن[٢] حتى أتى عارى الجآجى والقطن
تلفــه فى الريح بَوغاء الدِّمن كأنما حُثحِثَ من حِضَنَى ثَكَن[٣]

قال فلما سمع سطيح شعره رفع رأسه يقول : عبد المسيح ، على جمل مشيح ، أتى سطيح ، وقد أوفى على الضريح ، بعثك ملك بنى ساسان ؛ لارتجاس الإيوان ، وخمود النيران ، ورؤيا الموبذان ؛ رأى إبلا صعاباً ، تقود خيلا عراباً ، قد قطعت دجلة ، وانتشرت فى بلادها . يا عبد المسيح ! إذا كثرت التلاوة ، وظهر صاحب الهراوة ، وفاض وادى السماوة ، وغاضت بحيرة ساوة ، وخمدت نار فارس ، فليس الشام لسطيح شاماً . يملك منهم ملوك وملـكات ، على عدد الشرفات ، وكل ما هو آت آت . ثم قضى سطيح مكانه ، فنهض عبد المسيح إلى راحلته وهو يقول :

شمِّرْ فإنك ماضى العزم شِمِّير لا يفزِعنك تفريق وتغيير
إن يُمس ملك بنى ساسان أفرطهم فإن ذا الدهر أطوار دهارير
فربما ربمــا أضحَوا بمنزلة تخاف صولهم الأُسد المهاصير
منهم أخو الصرح بَهرام وإخوته والهرمُزان وسـابور وسابور
والناس أولاد عَلاّت فمن علموا أن قد أقلّ فمحقور ومهجور
ورب قوم لهم صحبان ذى أذن بدت تلهيهم فيه المزامـــير
وهم بنو الأم لمّا أن رأوا نشباً فذاك بالغيب محفوظ ومنصور
والخير والشر مقرونان فى قَرَن فالخير متَّبَع والشر محذور

قال : فلما قدم عبد المسيح على كسرى أخبره بما قال له سطيـح ، فقال كسرى : إلى أن يملك منا أربعة عشر ملـكا تـكون أمور وأمور ، فملك منهم عشرة فى أربع سـنين ، وملك الباقون إلى خلافة عثمان رضى الله عنه . ورواه البيهقى من حديث عبد الرحمن بن محمد بن إدريس عن على بن حرب الموصلى بنحوه .

قلت : كان آخر ملوكهم - الذى سلب منه الملك - يزدجرد بن شهريار بن أبرويز بن هرمز بن أنوشروان ، وهو الذى انشق الإيوان فى زمانه . وكان لأسلافه فى الملك ثلاثة آلاف سنة ومائة وأربعة وستون سنة . وكان أول ملوكهم خيومرت بن أميم بن لاوذ بن سام بن نوح .

---

(١) العلندى : الشديد والتاء للمبالغة . والشزن : النشيط (٢) الوجن - بفتح فسكون وبفتحتين : الغليظ الصلب من الأرض (٣) البوغاء : دقاق التراب . الدمن - جمع دمنة : ماتدمس أى تجمع وتلبد ، حثحث : حث وأسرع . ثكن : اسم جبل .

[(١)أما سطيح هذا فقال الحافظ بن عساكر فى تاريخه :هو الربيع بن ربيعة بن مسعود بن مازن بن ذئب بن عدى بن مازن بن الأزد . ويقال الربيع بن مسعود ،وأمه ردعا بنت سعد بن الحارث الحجورى . وذكر غير ذلك فى نسبه . قال: وكان يسكن الجابية . ثم روى عن أبى حاتم السجستانى، قال : سمعت المشيخة ــ منهم أبو عبيدة وغيره ــ قالوا : وكان من بعد لقمان بن عاد ، ولد فى زمن سيل العرم ، وعاش إلى ملك ذى نواس وذلك نحو من ثلاثين قرناً ، وكان مسكنه البحرين ، وزعمت عبد القيس أنه منهم . وتزعم الأزد أنه منهم . وأكثر المحدثين يقولون هو من الأزد ، ولا ندرى ممن هو؟ غير أن ولده يقولون إنه من الأزد . وروى عن ابن عباس أنه قال : لم يكن شىء من بنى آدم يشبه سطيحاً ؛ إنما كان لحماً على وضم، ليس فيه عظم ولا عصب إلا فى رأسه وعينيه وكفيه ، وكان يطوى كما يطوى الثوب من رجليه إلى عنقه ، ولم يكن فيه شىء يتحرك إلا لسانه . وقال غيره : إنه كان إذا غضب انتفخ وجلس .

ثم ذكر ابن عباس أنه قدم مكة فتلقاه جماعة من رؤسائهم ؛ منهم عبد شمس وعبد مناف أبناء قصى ، فامتحنوه فى أشياء فأجابهم فيها بالصدق ، فسألوه عما يكون فى آخر الزمان فقال : خذوا منى ومن إلهام الله إياى : أنتم الآن يامعشر العرب فى زمان الهرم، سواء بصائركم و بصائر العجم ، لاعلم عندكم ولا فهم . و ينشو من عقبكم ذوو فهم . يطلبون أنواع العلم؛ فيكسرون الصنم ، و يتبعون الردم . و يقتلون العجم ، يطلبون الغنم . ثم قال : والباقى الأبد ، والبالغ الأمد، ليخرجن من ذى البلد ، نبى مهتد ،يهدى إلى الرشد ، يرفض يغوث والفند ، يبرأ عن عبادة الضدد ، يعبد رباً انفرد ، ثم يتوفاه الله بخير دار محموداً من الأرض مفقوداً ، وفى السماء مشهوداً . ثم يلى أمره الصديق إذا قضى صدق ، وفى رد الحقوق لاخرق ولا نزق . ثم يلى أمره الحنيف . مجرب غطريف ، قد أضاف المضيف . وأحكم التحنيف .

ثم ذكر عثمان ومقتله ، وما يكون بعد ذلك من أيام بنى أمية ثم بنى العباس ، وما بعد ذلك من الفتن والملاحم. ساقه ابن عساكر بسنده عن ابن عباس بطوله . وقد قدمنا قوله لربيعة بن نصر ملك اليمن حين أخبره برؤياه قبل أن يخبره بها . ثم مايكون فى بلاد اليمن من الفتن وتغيير الدول ، حتى يعود إلى سيف ابن ذى يزن . فقال له : أفيدوم ذلك من سلطانه أم ينقطع ؟ قال بل ينقطع ، قال ومن يقطعه ؟ قال نبى زكى، يأتيه الوحى من قبل العلى . قال وممن هذا النبى ؟ قال من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر يكون الملك فى قومه إلى آخر الدهر . قال وهل للدهر من آخر ؟ قال نعم . يوم يجمع فيه الأولون والآخرون ، يسعد فيه المحسنون و يشقى فيه المسيئون قال أحق ماتخبرنى ؟ قال : نعم ، والشفق والغسق والقمر إذا اتسق ، إن ماأنبأتك عليه لحق . ووافقه على ذلك شق سواء بسواء، بعبارة أخرى كما تقدم .

ومن شعر سطيح قوله :

---

(١) من هنا إلى آخر القوس فى صفحة ٢٩٥ — غير مثبت فى بعض النسخ .

عليكم بتقوى الله فى السر والجهر ... ولا تلبسوا صدق الأمانة بالغدر
وكونوا لجار الجنب حصناً وجنة ... إذا ماعرته النائبات من الدهر

وروى ذلك الحافظ بن عساكر ، ثم أورد ذلك المعافى بن زكريا الجريرى فقال : وأخبار سطيح كثيرة، وقد جمعها غير واحد من أهل العلم . والمشهور أنه كان كاهناً ، وقد أخبر عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن نعته ومبعثه . وروى لنا بإسناد — الله به أعلم — أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن سطيح فقال : « نبى ضيعه قومه » .

قلت : أما هذا الحديث فلا أصل له فى شىء من كتب الإسلام المعهودة ، ولم أره بإسناد أصلاً . ويروى مثله فى خبر خالد بن سنان العبسى ولا يصح أيضاً . وظاهر هذه العبارات تدل على علم جيد لسطيح ، وفيها روائح التصديق ، لكنه لم يدرك الإسلام كما قال الجريرى ؛ فإنه قد ذكر فى هذا الأثر أنه قال لابن أخته : ياعبد المسيح إذا كثرت التلاوة ، وظهر صاحب الهراوة ، وفاض وادى السماوة وغاضت بحيرة ساوة ، وخمدت نار فارس — فليس الشام لسطيح شاماً ، يملك منهم ملوك وملكات ، على عدد الشرفات ، وكل ماهو آت آت . ثم قضى سطيح مكانه وكان ذلك بعد مولد رسول الله ﷺ بشهر أو شية — أى أقل منه ، وكانت وفاته بأطراف الشام مما يلى أرض العراق ، فالله أعلم بأمره وما صار إليه . وذكر المعافى بن زكريا الجريرى أنه عاش سبعمائة سنة ، وقال غيره خمسمائة سنة ، وقيل ثلاثمائة سنة والله أعلم .

وقد روى ابن عساكر أن ملكا سأل سطيحاً عن نسب غلام اختلف فيه ، فأخبره على الجلية فى كلام طويل مليح فصيح . فقال له الملك : ياسطيح ! ألا تخبرنى عن علمك هذا ؟ فقال إن علمى هذا ليس منى ولا بجزم ولا بظن ، ولكن أخذته عن أخ لى قد سمع الوحى بطور سيناء . فقال له : أرأيت أخاك هذا الجنى ؟ أهو معك لايفارقك ؟ فقال إنه ليزول حيث أزول ، ولا أنطق إلا بما يقول .

وتقدم أنه ولد هو وشق بن مصعب بن يشكر بن رهم بن بسر بن عقبة الكاهن الآخر — ولدا فى يوم واحد ، فحملا إلى الكاهنة طريفة بنت الحسين الحميدية ، فتفلت فى أفواههما فورثا منها الكهانة وماتت من يومها . وكان نصف إنسان ، ويقال إن خالد بن عبد الله القسرى من سلالته ، وقد مات شق قبل سطيح بدهر .

وأما عبد المسيح بن عمرو بن قيس بن حيان بن بقيلة الغسانى النصرانى فكان من المعمرين . وقد ترجمه الحافظ بن عساكر فى تاريخه وقال: هو الذى صالح خالد بن الوليد على[1] . وذكر له معه

(١) كذا فى الأصل بياض . والذى نعلمه أن عمرو بن عبد المسيح الملقب ببقيلة هو وآخرين من نقباء الحيرة، لما حاصرهم خالد بن الوليد ورأوا ألا طاقة لهم به — صالحوه على ١٩٠ ألف درهم وأهدوا له هدايا ، فاعتدها من الجزية بأمر أبى بكر رضى الله عنه ، وكان أول من طلب الصلح عمرو بن عبد المسيح .

قصة طويلة ، وأنه أكل من يده سم ساعة فلم يصبه سوء ؛ لأنه لما أخذه قال : بسم الله وبالله ، رب الأرض والسماء ، الذى لايضر مع اسمه أذى . ثم أكله فعلته غشية فضرب بيديه على صدره ثم عرق وأفاق رضى الله عنه . وذكر لعبد المسيح أشعاراً غير ماتقدم] .

وقال أبو نعيم : حدثنا محمد بن أحمد بن الحسن ، حدثنا محمد بن عثمان بن أبى شيبة ، حدثنا عقبة ابن مكرم ، حدثنا المسيب بن شريك ، حدثنا محمد بن شريك عن شعيب بن شعيب عن أبيه عن جده قال : كان بمر الظهران راهب من الرهبان يدعى « عيصا » من أهل الشام ، وكان متخفراً[1] بالعاص بن وائل ، وكان الله قد آتاه علماً كثيراً ، وجعل فيه منافع كثيرة لأهل مكة ؛ من طيب ورفق وعلم ، وكان يلزم صومعة له ويدخل مكة فى كل سنة ، فيلقى الناس ويقول إنه يوشك أن يولد فيكم مولود ياأهل مكة ، يدين له العرب ويملك العجم هذا زمانه ، ومن أدركه واتبعه أصاب حاجته ، ومن أدركه نخالفه أخطأ حاجته . وبالله ماتركت أرض الخمر والخمير والأمن ، ولا حللت بأرض الجوع والبؤس والخوف — إلا فى طلبه . وكان لا يولد بمكة مولود إلا يسأل عنه فيقول ماجاء بعد ، فيقال له فصفه فيقول — لا . ويكتم ذلك للذى قد علم أنه لاق من قومه ، مخافة على نفسه أن يكون ذلك داعية إلى أدنى ما يكون إليه من الأذى يوماً . ولما كان صبيحة اليوم الذى ولد فيه رسول الله ﷺ خرج عبدالله ابن عبد المطلب ، حتى أتى « عيصا » فوقف فى أصل صومعته ، ثم نادى : ياعيصاه افناداه من هذا ؟ فقال : أنا عبد الله ، فأشرف عليه فقال كن أباه ، فقد ولد المولود الذى كنت أحدثكم عنه يوم الاثنين ، ويبعث يوم الاثنين ، ويموت يوم الاثنين . قال فإنه قد ولد لى مع الصبح مولود ، قال فما سميته ؟ قال محمداً ، قال والله لقد كنت أشتهى أن يكون هذا المولود فيكم أهل البيت لثلاث خصال نعرفه بها ؛ منها أن نجمه طلع البارحة ، وأنه ولد اليوم ، وأن اسمه محمد . انطلق إليه فإن الذى كنت أخبركم عنه ابنك . قال فما يدريك أنه ابنى ؟ ولعله أن يولد فى هذا اليوم مولود غيره ؟ قال قد وافق ابنك الاسم ، ولم يكن الله ليشبه علمه على العلماء فإنه حجة . وآية ذلك أنه الآن به وجع فيشتكى أياماً ثلاثة ، فيظهر به الجوع ثلاثاً ثم يعافى . فاحفظ لسانك فإنه لم يحسد أحد حسده قط ، ولم يبغ على أحد كما يبغى عليه . إن تعش حتى يبدو مقاله ثم يدعو — لظهر لك من قومك مالا تحتمله إلا على صبر وعلى ذل ، فاحفظ لسانك ودار عنه . قال فما عمره ؟ قال : إن طال عمره وإن قصر لم يبلغ السبعين ، يموت فى وتر دونها من الستين ، فى إحدى وستين أو ثلاث وستين فى أعمار جل أمته . قال وحمل برسول الله ﷺ فى عاشر المحرم ، وولد يوم الاثنين لثنتى عشرة خلت من رمضان سنة ثلاث وعشرين من غزوة أصحاب الفيل . هكذا رواه أبو نعيم وفيه غرابة .

---

(١) أى مستجيراً ، يقال خفره وتخفر به : أجاره ومنعه ، والاسم الخفرة بالضم

ذكر حواضنه ومراضعه عليه الصلاة والسلام

كانت أم أيمن – واسمها بركة – تحضنه ، وكان قد ورثها عليه الصلاة والسلام من أبيه ، فلما كبر أعتقها وزوجها مولاه زيد بن حارثة ، فولدت له أسامة بن زيد رضى الله عنهم . وأرضعته مع أمه عليه الصلاة والسلام– مولاة عمه أبى لهب ؛ثويبة قبل حليمة السعدية . أخرج البخارى ومسلم فى صحيحهما من حديث الزهرى عن عروة بن الزبير عن زينب بنت أم سلمة عن أم حبيبة بنت أبى سفيان قالت : يا رسول الله ! أنكح أختى بنتَ أبى سفيان – ولمسلم عزة بنت أبى سفيان – فقال رسول الله ﷺ : « أو تحبين ذلك ؟ » قلت نعم ! لست لك بمخلية[1] ، وأحبُّ مَن شاركنى فى خير أختى ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « فإن ذلك لايحل لى » ، قلت: فإنا نُحدَّث أنك تريد أن تنكح بنت أبى سلمة – وفى رواية درة بنت أبى سلمة – قال : « بنت أم سلمة ؟ » قلت نعم ، قال : « إنها لو لم تكن ربيبتى فى حجرى ماحَلّت لى ، إنها لابنة أخى من الرضاعة ، أرضعتنى وأبا سلمة – ثُوَيبة ، فلا تعرِضْن علىّ بناتكن ولا أخواتكن » . زاد البخارى : قال عروة : وثُويبة مولاة لأبى لهب، كان أبو لهب أعتقها فأرضعت رسول الله ﷺ، فلما مات أبو لهب أُرِيَه بعضُ أهله بشر حِيبة[2]. فقال له ماذا لقيت ؟ فقال أبو لهب : لم ألق بعدكم خيراً ، غير أنى سقيت فى هذه بعتاقتى[3] ثويبة – وأشار إلى النقرة التى بين الإبهام والتى تليها من الأصابع .

وذكر السهيلى وغيره : أن الرائى له هو أخوه العباس . وكان ذلك بعد سنة من وفاة أبى لهب بعد وقعة بدر . وفيه أن أبا لهب قال للعباس : إنه ليخفف علىّ فى مثل يوم الاثنين ، قالوا لأنه لما بشرته ثويبة بميلاد ابن أخيه محمد بن عبد الله – أعتقها من ساعته ، فجوزى بذلك لذلك .

ذكر رضاعه عليه الصلاة والسلام من حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية وما ظهر عليه من البركة وآيات النبوة

قال محمد بن إسحاق : فاسترضع له عليه الصلاة والسلام من حليمة بنت أبى ذؤيب ، واسمه عبد الله ابن الحارث بن شِجْنة بن جابر بن رِزام بن ناصرة بن سعد بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة ابن خَصَفَة بن قيس عيلان بن مضر . قال : واسم أبى رسول الله ﷺ الذى أرضعه – يعنى زوج حليمة – الحارث بن عبد العزى بن رفاعة بن مِلاّن بن ناصرة بن سعد بن بكر بن هوازن . وإخوته عليه الصلاة والسلام – يعنى من الرضاعة – عبد الله بن الحارث وأنيسة بنت الحارث وحُذافة[4] بنت

---

(١) أى لست بمنفردة بك حتى أغار منها فإن لى ضرائر (٢) معناه : بسوء حال ، والحيبة : الهم والحاجة والحالة .
(٣) أى بعتقى لها . (٤) فى الطبرى ، خدامة بكسر الخاء المنقوطة .

الحارث وهى الشيماء ، وذكروا أنها كانت تحضن رسول الله ﷺ مع أمه إذ كان عندهم .

قال ابن إسحاق : حدثني جهم بن أبي جهم مولى لامرأة من بنى تميم كانت عند الحارث بن حاطب ، ويقال له مولى الحارث بن حاطب ، قال : حدثني من سمع عبد الله بن جعفر بن أبي طالب قال : حدثت عن حليمة بنت الحارث أنها قالت : قدمت مكة فى نسوة — وذكر الواقدى بإسناده أنهن كن عشرة نسوة من بنى سعد بن بكر يلتمسن بها الرضعاء — من بنى سعد نلتمس بها الرضعاء[1] فى سنة شهباء، فقدمت على أتان لى قمراء كانت أذمّت[2] بالركب ، ومعى صبى لنا وشارف[3] لنا والله ماتبضّ بقطرة، وما ننام ليلنا ذلك أجمع من صبينا ذاك ، ما نجد فى ثديى ما يغنيه ولا فى شارفنا ما يغذيه ، ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج . فخرجت على أتانى تلك ، فلقد أذمت بالركب حتى شق ذلك عليهم ضعفاً وعجفاً ، فقدمنا مكة فوالله ما علمت منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه ، إذا قيل إنه يتيم تركناه وقلنا ماذا عسى أن تصنع إلينا أمه ؟ إنما نرجو المعروف من أبى الولد ، فأما أمه فماذا عسى أن تصنع إلينا ؟ فو الله ما بقى من صواحبى امرأة إلا أخذت رضيعاً — غيرى . فلما لم نجد غيره وأجمعنا الانطلاق — قلت لزوجى الحارث بن عبد العزى : والله إنى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ليس معى رضيع ، لأنطلقن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه . فقال : لا عليك أن تفعلى ، فعسى أن يجعل الله لنا فيه بركة . فذهبت فأخذته ، فوالله ما أخذته إلا أنى لم أجد غيره ، فما هو إلا أن أخذته فجئت به رحلى ، فأقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن ، فشرب حتى رَوِى وشرب أخوه حتى رَوِى . وقام صاحبى إلى شارفنا تلك فإذا إنها لحافل ، فحلب منها ماشرب وشربت حتى روينا ، فبتنا بخير ليلة فقال صاحبى حين أصبحنا : يا حليمة ! والله إنى لأراك قد أخذت نسمة مباركة ، ألم ترى مابتنا به الليلة من الخير والبركة حين أخذناه ؟ فلم يزل الله عز وجل يزيدنا خيراً .

ثم خرجنا راجعين إلى بلادنا ، فوالله لقطعت أتانى بنا الركب حتى مايتعلق بها حمار ، حتى إن صواحبى ليقلن : ويلك يابنت أبى ذؤيب ! أهذه أتانك التى خرجت عليها معنا ؟ فأقول نعم والله إنها لهى ، فقلن والله إن لها لشأناً . حتى قدمنا أرض بنى سعد ، وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها ؛ فإن كانت غنمى لتسرح ثم تروح شباعاً لُبّناً فنحلب ماشئنا ، وما حوالينا أو حولنا أحد تبض له شاة بقطرة لبن ، وإن أغنامهم لتروح جياعاً حتى إنهم ليقولون لرعاتهم — أو لرعيانهم — ويحكم ! انظروا حيث تسرح غنم بنت أبى ذؤيب فاسرحوا معهم ، فيسرحون مع غنمى حيث تسرح ، فتروح أغنامهم جياعاً مافيها قطرة لبن ، وتروح أغنامى شباعاً لبناً تحلب ماشئنا . فلم يزل الله يرينا البركة نتعرفها حتى بلغ سنتين ،

---

(١) فى ابن هشام : المراضع، وهو واضح ؛ لأن المراضع جمع مرضع . أما الرضعاء فجمع رضيع . ولعله أريد ذوات الرضعاء على حذف مضاف، أو أنه متى وجدت له مرضعة فقد وجد الرضيع الذى يرضع معه (٢) أتت بما يذم عليه من تخلف وتمهل ، والقمراء : لون إلى الخضرة، أو بياض فيه كدرة . (٣) الشارف من النوق : المسنة الهرمة .

فكان يشب شباباً لاتشبه الغلمان . فوالله مابلغ السنتين حتى كان غلاماً جفراً[1] فقدمنا به على أمه ونحن أضن شيء به مما رأينا فيه من البركة ، فلما رأته أمه قلت لها دعينا نرجع بابننا هذه السنة الأخرى ، فإنا نخشى عليه وباء مكة ، فوالله مازلنا بها حتى قالت نعم . فسرحته معنا فأقمنا به شهرين أو ثلاثة ، فبينما هو خلف بيوتنا مع أخ له من الرضاعة فى بَهم[2] لنا — جاء أخوه ذلك يشتد ، فقال ذاك أخى القرشى جاءه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقا بطنه ، فخرجت أنا وأبوه نشتد نحوه فنجده قائماً منتقعاً لونه ، فاعتنقه أبوه وقال يابنى ماشأنك ؟ قال جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض ، أضجعانى وشقا بطنى ثم استخرجا منه شيئاً فطرحاه ثم رداه كما كان ، فرجعنا به معنا .

فقال أبوه ياحليمة ! لقد خشيت أن يكون ابنى قد أصيب ، فانطلقى بنا نرده إلى أهله قبل أن يظهر به ما نتخوف . قالت حليمة : فاحتملناه فلم ترع أمه إلا به ، فقدمنا به عليها ، فقالت ماردكما به ياظئر فقد كنتما عليه حريصين ؟ فقالا : لا والله ؛ إلا أن الله قد أدى عنا وقضينا الذى علينا ، وقلنا نخشى الإتلاف والأحداث نرده إلى أهله . فقالت ماذاك بكما ؟ فأصدقانى شأنكما . فلم تدعنا حتى أخبرناها خبره ، فقالت أخشيتما عليه الشيطان ؟ كلا والله ما للشيطان عليه من سبيل . والله إنه لكائن لابنى هذا شأن ، ألا أخبركما خبره ؟ قلنا بلى ! قالت : حملت به فما حملت حملا قط أخف منه ، فأريت فى النوم حين حملت به — كأنه خرج منى نور أضاءت له قصور الشام ، ثم وقع حين ولدته وقوعاً مايقعه المولود ؛ معتمداً على يديه رافعاً رأسه إلى السماء ، فدعاه عنكما . وهذا الحديث قد روى من طرق أخر ، وهو من الأحاديث المشهورة المتداولة بين أهل السير والمغازى .

وقال الواقدى : حدثنى معاذ بن محمد عن عطاء بن أبى رباح عن ابن عباس قال : خرجت حليمة تطلب النبى صلى الله عليه وسلم وقد وجدت البهم تقيل ، فوجدته مع أخته ، فقالت فى هذا الحر ؟ فقالت أخته : ياأمه ! ماوجد أخى حراً ؛ رأيت غمامة تظلل عليه ، إذا وقف وقفت ، وإذا سار سارت حتى انتهى إلى هذا الموضع .

وقال ابن إسحاق : حدثنى ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا له : أخبرنا عن نفسك . قال : « نعم أنا دعوة أبى إبراهيم وبشرى عيسى عليهما السلام ، ورأت أمى حين حملت بى أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام ، واستُرضعت فى بنى سعد بن بكر ، فبينما أنا فى بَهم لنا أتانى رجلان عليهما ثياب بيض ، معهما طست من ذهب مملوءة ثلجاً ، فأضجعانى فشقا بطنى ثم استخرجا قلبى فشقاه فأخرجا منه علقة سوداء فألقياها ، ثم غسلا قلبى وبطنى بذلك الثلج ،

---

(١) أى شديداً ، يقال جفر الصبى واستجفر : انتفخ لحمه وقوى على الأكل .

(٢) جمع بهمة ، وهى أولاد الضأن والمعز والبقر . ولعل المراد هنا — صغار الغنم

حتى إذا أنقياه رداه كما كان . ثم قال أحدهما لصاحبه : زنه بعشرة من أمته ، فوزنني بعشرة فوزنتهم ، ثم قال : زنه بمائة من أمته ، فوزنني بمائة فوزنتهم . ثم قال زنه بألف من أمته فوزنني بألف فوزنتهم ، فقال دعه عنك فلو وزنته بأمته لوزنهم » . وهذا إسناد جيد قوى .

وقد روى أبو نعيم الحافظ فى الدلائل من طريق عمر بن الصبح ـ وهو أبو نعيم ـ عن ثور بن يزيد عن مكحول عن شداد بن أوس هـذه القصة مطولة جداً ، ولـكن عمر بن الصبح هـذا متروك كذاب متهم بالوضع فلهذا لم نذكر لفظ الحديث إذ لايفرح به . ثم قال : وحدثنا أبو عمرو بن حمدان حدثنا الحسن بن نفير ، حدثنا عمرو بن عثمان ، حدثنا بقية بن الوليد عن بحير بن سعيد عن خالد بن معدان عن عبد الرحمن بن عمرو السلمى عن عتبة بن عبد الله ـ أنه حدثه أن رجلا سأل النبى ﷺ فقال : كيف كان أول شأنك يارسول الله ؟ قال : « كانت حاضنتى من بنى سعد بن بـكر ، فانطلقت أنا وابن لها فى بَهم لنا ولم نأخذ معنا زاداً ، فقلت يا أخى اذهب فائتنا بزاد من عند أمنا ، فانطلق أخى ومكثت عند البهم ، فأقبل طائران أبيضان كأنهما نسران ، فقال أحدهما لصاحبه : أهو هو ؟ فقال نعم ! فأقبلا يبتدرانى ، فأخذانى فبطحانى للقفا فشقا بطنى ، ثم استخرجا قلبى فشقاه ، فأخرجا منه علقتين سوداوين ، فقال أحدهما لصاحبه : ائتنى بماء ثلج فغسلا به جوفى ، ثم قال : ائتنى بماء برد فغسلا به قلبى ، ثم قال : ائتنى بالسكينة فذرها فى قلبى ، ثم قال أحدهما لصاحبه : خطه فخاطه ، وختم على قلبى بخاتم النبوة ، فقال أحدهما لصاحبه : اجعله فى كفة واجعل ألفاً من أمته فى كفة ، فإذا أنا أنظر إلى الألف فوقى أشفق أن يخر على بعضهم ، فقال لو أن أمته وزنت به لمال بهم . ثم انطلقا فتركانى وفرقت فرقاً شديداً ، ثم انطلقت إلى أمى فأخبرتها بالذى لقيت ، فأشفقت أن يكون قد لبس بى ، فقالت أعيذك بالله ، فرحلت بعيراً لها وحملتنى على الرحل وركبت خلفى حتى بلغنا إلى أمى ، فقالت أديت أمانتى وذمتى ، وحدثتها بالذى لقيت فلم يرعها ، وقالت إنى رأيت حين حملت به ـ أنه خرج منى نور أضاءت منه قصور الشام » .

ورواه أحمد من حديث بقية بن الوليد به . وهكذا رواه عبد الله بن المبارك وغيره عن بقية بن الوليد به . وقد رواه ابن عساكر من طريق أبى داود الطيالسى : حدثنا جعفر بن عبد الله بن عثمان القرشى ، أخبرنى عمير بن عمر بن عروة بن الزبير قال : سمعت عروة بن الزبير يحدث عن أبى ذر الغفارى قال : قلت يارسول الله ! كيف علمت أنك نبى حين علمت ذلك واستيقنت أنك نبى ؟ قال : « ياأبا ذر ! أتانى ملـكان وأنا ببعض بطحاء مكة فوقع أحدهما على الأرض ، وكان الآخر بين السماء والأرض ، فقال أحدهما لصاحبه : أهو هو ؟ قال هو هو قال زنه برجل ، فوزننى برجل فرجحته » ، وذكر تمامه ، وذكر شق صدره وخياطته ، وجعل الخاتم بين كتفيه ، قال : « فما هو إلا أن وليا عنى فـكأنما أعاين

الأمر معاينة » . ثم أورد ابن عساكر عن أبي بن كعب بنحو ذلك . ومن حديث شداد بن أوس بأبسط من ذلك .

وثبت فى صحيح مسلم من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك : أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان ، فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب ، واستخرج منه علقة سوداء فقال هذا حظ الشيطان ، ثم غسله فى طشت من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه ، ثم أعاده فى مكانه ، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه — يعنى ظائره — فقالوا إن محمداً قد قتل ، فاستقبلوه وهو منتقع اللون . قال أنس : وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط فى صدره . وقد رواه ابن عساكر من طريق ابن وهب عن عمرو بن الحارث عن عبد ربه بن سعيد عن ثابت البنانى عن أنس : أن الصلاة فرضت بالمدينة ، وأن ملكين أتيا رسول الله ﷺ ، فذهبا إلى زمزم فشقا بطنه ، فأخرجا حشوته فى طشت من ذهب فغسلاه بماء زمزم ، ثم لبسا جوفه حكمة وعلماً . ومن طريق ابن وهب أيضاً عن يعقوب بن عبد الرحمن الزهرى عن أبيه عن عبد الرحمن بن عامر بن عتبة بن أبى وقاص عن أنس ، قال : أتى رسول الله ﷺ ثلاث ليال[1] قال خذوا خيرهم وسيدهم ، فأخذوا رسول الله ﷺ فعمد به إلى زمزم فشق جوفه ، ثم أتى بتور[2] من ذهب فغسل جوفه ثم ملىء حكمة و إيماناً . وثبت من رواية سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس ، وفى الصحيحين من طريق شريك بن أبى نمر عن أنس ، وعن الزهرى عن أنس عن أبى ذر وقتادة عن أنس ، وعن مالك بن صعصعة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث الإسراء كما سيأتى قصة شرح الصدر ليلتئذ ، و إنه غسل بماء زمزم . ولا منافاة لاحتمال وقوع ذلك مرتين ، مرة وهو صغير ، ومرة ليلة الإسراء ليتأهب للوفود إلى الملأ الأعلى ، ولمناجاة الرب عز وجل والمثول بين يديه تبارك وتعالى .

وقال ابن إسحاق : وكان رسول الله ﷺ يقول لأصحابه : « أنا أعربكم ، أنا قرشى واسترضعت فى بنى سعد بن بكر » وذكر ابن إسحاق : أن حليمة لما أرجعته إلى أمه بعد فطامه — مرت به على ركب من النصارى ، فقاموا إليه عليه الصلاة والسلام فقبلوه ، وقالوا إنا سنذهب بهذا الغلام إلى ملكنا فإنه كائن له شأن ، فلم تكد تنفلت منهم إلا بعد جهد . وذكر أنها لما ردته حين تخوفت عليه أن يكون أصابه عارض ، فلما قربت من مكة افتقدته فلم تجده ، فجاءت جده عبد المطلب فخرج هو وجماعة فى طلبه ، فوجده ورقة بن نوفل ورجل آخر من قريش فأتيا به جده ، فأخذه على عاتقه وذهب فطاف به يعوذه ويدعو له ، ثم رده إلى أمه آمنة .

وذكر الأموى من طريق عثمان بن عبد الرحمن الوقاصى — وهو ضعيف — عن الزهرى عن سعيد

---

(١) هكذا بالأصل . ولعله ثلاثة رجال فقال أحدهم خذوا خيرهم . . الخ . ويعضده ما أنبأ به النبى صلى الله عليه وسلم عن نفسه قال : بينما أنا ذات يوم مع أتراب لى إذ أتانا رهط ثلاثة . . الخ . (٢) التور : إناء يشرب فيه .

ابن المسيب قصة مولده عليه الصلاة والسلام ، ورضاعه من حليمة — على غير سياق محمد بن إسحاق وذكر أن عبد المطلب أمر ابنه عبد الله أن يأخذه فيطوف به فى أحياء العرب ليتخذ له مرضعة ، فطاف حتى استأجر حليمة على رضاعه . وذكر أنه أقام عندها ست سنين تزيره جده فى كل عام ، فلما كان من شق صدره عندهم ما كان — ردته إليهم ، فأقام عند أمه حتى إذا كان عمره ثمانى سنين ماتت ، فكفله جده عبد المطلب ، فمات وله عليه الصلاة والسلام عشر سنين ، فكفله عماه شقيقا أبيه : الزبير وأبو طالب . فلما كان له بضع عشرة سنة خرج مع عمه الزبير إلى اليمن . فذكر أنهم رأوا منه آيات فى تلك السفرة ؛ منها أن فحلاً من الإبل كان قد قطع بعض الطريق فى واد ممرهم عليه ، فلما رأى رسول الله ﷺ برك حتى حك بكلكله الأرض فركبه عليه الصلاة والسلام . ومنها أنه خاض بهم سيلا عرماً فأيبسه الله تعالى حتى جاوزوه . ثم مات عمه الزبير وله أربع عشرة سنة ، فانفرد به أبو طالب .

والمقصود أن بركته عليه الصلاة والسلام حلت على حليمة السعدية وأهلها وهو صغير ، ثم عادت على هوازن بكمالهم فواضله حين أسرهم بعد وقعتهم ، وذلك بعد فتح مكة بشهر ، فمتوا إليه برضاعه فأعتقهم وتحنن عليهم وأحسن إليهم ؛ كما سيأتى مفصلا فى موضعه إن شاء الله تعالى .

قال محمد بن إسحاق — فى وقعة هوازن — عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، قال : كنا مع رسول الله ﷺ بحنين فلما أصاب من أموالهم وسباياهم أدركه وفد هوازن بالجِعْرانة[1] وقد أسلموا ، فقالوا يارسول الله ! إنا أهل وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء مالم يخف عليك ، فامنن علينا منَّ الله عليك . فقام خطيبهم زهير بن صرد فقال : يارسول الله ! إن مافى الحظائر[2] من السبايا خالاتك وحواضنك اللاتى كن يكفلنك[3] ، فلو أنا ماحنا[4] ابن أبى شمر ، أو النعمان بن المنذر ثم أصابنا منهما مثل الذى أصابنا منك — رجونا عائدتهما وعطفهما ، وأنت خير المكفولين . ثم أنشد :

امنن علينا رسول الله فى كرم ... فإنك المرء نرجوه وندخر

امنن على بيضة قد عاقها قدَر ... ممزق شملها فى دهرها غير

أبقت لنا الدهر هتافاً على حزن ... على قلوبهم الغماء والغمر

إن لم تداركها نعماء تنشرها ... ياأرجح الناس حلماً حين يختبر

امنن على نسوة قد كنت ترضعها ... إذ فوك يملؤه من محضها درر

امنن على نسوة قد كنت ترضعها ... وإذ يزينك ما تأتى وما تذر

---

(١) موضع بين مكة والطائف .

(٢) جمع حظيرة ، وهى الزرب الذى يصنع للابل والغنم ، وكان السبى فى حظائر مثلها .

(٣) فقد كانت حاضنته عليه السلام من بنى سعد بن بكر .

(٤) أى أرضعنا . والملح هنا : الرضاع . وابن أبى شمر هو الحارث الغسانى .

لا تجعلنا كمن شالت نعامته ... واستبق منّا فإنا معشر زهر
إنا لنشكر للنعمى وإن كفرت ... وعندنا بعد هذا اليوم مدخر

وقد رويت هذه القصة من طريق عبيد الله بن رماحس الكلبي الرملي عن زياد بن طارق الجشمي عن أبي صرد زهير بن جرول ـ وكان رئيس قومه ـ قال : لما أسرنا رسول الله ﷺ يوم حنين ، فبينا هو يميز بين الرجال والنساء ـ وثبتُ حتى قعدت بين يديه وأسمعته شعراً ، أذكره حين شب ونشأ في هوازن حيث أرضعوه :

امنن علينا رسول الله في دعة ... فإنك المرء نرجوه وننتظر
امنن على بيضة قد عاقها قدر ... ممزق شملها في دهرها غير
أبقت لنا الحرب هتافاً على حزن ... على قلوبهم الغمـــاء والغمر
إن لم تداركها نعماء تنشرها ... يا أرجح الناس حلماً حين يختبر
امنن على نسوة قد كنت ترضعها ... إذ فوك تملؤه من محضها الدرر
إذا أنت طفل صغير كنت ترضعها ... وإذ يزينك ما تأتى وما تذر
لا تجعلنا كمن شالت نعامته ... واستبق منا فإنا معشر زهر
إنا لنشكر للنعمى وإن كفرت ... وعندنا بعد هذا اليوم مدخر
فألبس العفو من قد كنت ترضعه ... من أمهاتك إن العفو مشتهر
إنا نؤمـــل عفواً منك تلبسه ... هذى البرية إذ تعفو وتنتصر
فاغفر عفا الله عما أنت راهبه ... يوم القيامة إذ يهدى لك الظفر

قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لله ولكم » ، فقالت الأنصار : وما كان لنا فهو لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم . وسيأتي أنه عليه الصلاة والسلام أطلق لهم الذرية وكانت ستة آلاف ما بين صبي وامرأة ، وأعطاهم أنعاماً وأناسى كثيراً ، حتى قال أبو الحسين ابن فارس : فكان قيمة ما أطلق لهم يومئذ خمسمائة ألف ألف درهم . فهذا كله من بركته العاجلة في الدنيا ، فكيف ببركته على من اتبعه في الدار الآخرة ؟

« فصل » (في وفاة أمه عليه السلام وزيارة قبرها وحزنه عليها)

قال ابن إسحاق ـ بعد ذكر رجوعه عليه الصلاة والسلام إلى أمه آمنة بعد رضاعة حليمة له ـ فكان رسول الله ﷺ مع أمه آمنة بنت وهب ، وجده عبد المطلب في كلاءة الله وحفظه ، ينبته الله نباتاً حسناً ؛ لما يريد به من كرامته ، فلما بلغ ست سنين توفيت أمه آمنة بنت وهب .

قال ابن إسحاق : حدثنى عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم : أن أم رسول الله ﷺ آمنة توفيت وهو ابن ست سنين بالأبواء بين مكة والمدينة ، وكانت قد قدمت به على أخواله من بنى عدى بن النجار تزيره إياهم ، فماتت وهى راجعة به إلى مكة . وذكر الواقدى بأسانيده أن النبى ﷺ خرجت به أمه إلى المدينة ومعها أم أيمن وله ست سنين ، فزارت أخواله . قالت أم أيمن : فجاءنى ذات يوم رجلان من يهود المدينة فقالا لى : أخرجى إلينا أحمد ننظر إليه ، فنظرا إليه وقلباه ، فقال أحدهما لصاحبه : هذا نبى هـذه الأمة وهذه دار هجرته ، وسيكون بها من القتل والسبى أمر عظيم . فلما سمعت أمه خافت وانصرفت به ، فماتت بالأبواء وهى راجعة . وقد قال الإمام أحمد : حدثنا حسين بن محمد ، حدثنا أيوب بن جابر عن سماك عن القاسم بن عبد الرحمن عن ابن بريدة عن أبيه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كنا بِوَدَّان قال : « مكانـكم حتى آتيكم » ، فانطلق ثم جاءنا وهو ثقيل ، فقال : « إنى أتيت قبر أم محمد فسألت ربى الشفاعة ـ يعنى لها ـ فمنعنيها ، وإنى كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ، وكنت نهيتكم عن لحوم الأضاحى بعد ثلاثة أيام فـكلوا وأمسكوا مابدا لـكم ، ونهيتكم عن الأشربة فى هذه الأوعية فاشربوا ما بدا لـكم » .

وقد رواه البيهقى من طريق سفيان الثورى عن علقمة بن يزيد عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال : انتهى النبى ﷺ إلى رسم قبر ، فجلس وجلس الناس حوله ، فجعل يحرك رأسه كالمخاطب ثم بـكى ، فاستقبله عمر فقال ما يبـكيك يارسول الله ؟ قال : « هذا قبر آمنة بنت وهب استأذنت ربى فى أن أزور قبرها فأذن لى ، واستأذنته فى الاستغفار لها فأبى على ، وأدركتنى رقتها فبكيت » . قال فما رؤيت ساعة أكثر باكياً من تلك الساعة . تابعه محارب بن دثار عن بريدة عن أبيه . ثم روى البيهقى عن الحاكم عن الأصم عن بحر بن نصر عن عبد الله بن وهب : حدثنا ابن جريج عن أيوب بن هانى عن مسروق بن الأجدع عن عبد الله بن مسعود قال : خرج رسول الله ﷺ ينظر فى المقابر ، وخرجنا معه ، فأمرنا فجلسنا ، ثم تخطى القبور حتى انتهى إلى قبر منها ـ فناجاه طويلا ، ثم ارتفع نحيب رسول الله ﷺ باكياً ، فبـكينا لبـكاء رسول الله ﷺ . ثم إن رسول الله ﷺ أقبل علينا فتلقاه عمر بن الخطاب فقال يارسول الله ، ما الذى أبكاك ؟ لقد أبكانا وأفزعنا . فجاء فجلس إلينا فقال : « أفزعكم بكائى ؟ » قلنا نعم ! قال : « إن القبر الذى رأيتمونى أناجى ـ قبر آمنة بنت وهب ، وإنى استأذنت ربى فى زيارتها فأذن لى ، واستأذنت ربى فى الاستغفار لها فلم يأذن لى فيه ، ونزل علىّ : (ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم * وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم) [1] فأخذنى ما يأخذ الولد للوالدة من الرقة ، فذلك الذى أبكانى » . غريب ولم يخرجوه .

(١) الآيتان : ١١٣ ، ١١٤ من سورة التوبة .

وروى مسلم عن أبى بكر بن أبى شيبة عن محمد بن عبيد عن يزيد بن كيسان عن أبى حازم عن أبى هريرة قال : زار النبى ﷺ قبر أمه فبكى وأبكى من حوله، ثم قال: « استأذنت ربى فى زيارة قبر أمى فأذن لى ، واستأذنته فى الاستغفار لها فلم يأذن لى ، فزوروا القبور تذكركم الموت » . وروى مسلم عن أبى بكر بن أبى شيبة عن عفان عن حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس أن رجلا قال : يارسول الله أين أبى ؟ قال : « فى النار » ، فلما قفا دعاه فقال : « إن أبى وأباك فى النار » . وقد روى البيهقى من حديث أبى نعيم الفضل بن دكين عن إبراهيم بن سعد عن الزهرى عن عامر بن سعد عن أبيه قال : جاء أعرابى إلى النبى ﷺ فقال : إن أبى كان يصل الرحم ، وكان وكان ، فأين هو ؟ قال : « فى النار » قال . فكأن الأعرابى وجد من ذلك ، فقال يا رسول الله أين أبوك ؟ قال : « حيثما مررت بقبر كافر فبشره بالنار » ، قال فأسلم الأعرابى بعد ذلك ، فقال : لقد كلفنى رسول الله ﷺ تعبا ، ما مررت بقبر كافر إلا بشرته بالنار . غريب ولم يخرجوه من هذا الوجه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا سعيد ــ هو ابن أبى أيوب ــ حدثنا ربيعة بن سيف المعافرى عن أبى عبد الرحمن الحبلى عن عبد الله بن عمرو قال : بينما نحن نمشى مع رسول الله ﷺ إذ بصر بامرأة لا يظن أنه عرفها ، فلما توسط الطريق وقف حتى انتهت إليه ، فإذا فاطمة بنت رسول الله ﷺ فقال : « ما أخرجك من بيتك يافاطمة ؟ » فقالت أتيت أهل هذا البيت فترحمت إليهم ميتهم وعزيتهم . قال : « لعلك بلغت معهم الكدى[1] » قالت: معاذ الله أن أكون بلغتها معهم وقد سمعتك تذكر فى ذلك ماتذكر[2] » ، قال : « لو بلغتيها معهم ما رأيت الجنة حتى يراها جد أبيك » . ثم رواه أحمد وأبو داود والنسائى والبيهقى من حديث ربيعة بن سيف بن مانع المعافرى الصنمى الإسكندرى ، وقد قال البخارى عنده مناكير ، وقال النسائى ليس به بأس ، وقال مرة صدوق ، وفى نسخة ضعيف . وذكره ابن حبان فى الثقات وقال : كان يخطىء كثيرا ، وقال الدارقطنى صالح ، وقال ابن يونس فى تاريخ مصر : فى حديثه مناكير . توفى قريبا من سنة عشرين ومائة . والمراد بالكدى : القبور ــ وقيل النوح .

والمقصود أن عبد المطلب مات على ما كان عليه من دين الجاهلية ، خلافا لفرقة الشيعة فيه وفى ابنه أبى طالب على ما سيأتى فى وفاة أبى طالب ، وقد قال البيهقى ــ بعد روايته هذه الأحاديث فى كتابه دلائل النبوة : وكيف لا يكون أبواه وجده عليه الصلاة والسلام بهذه الصفة فى الآخرة ؟ وقد كانوا يعبدون الوثن ، حتى ماتوا ولم يدينوا بدين عيسى بن مريم عليه السلام ، وكفرهم لايقدح فى نسبه عليه الصلاة والسلام ؛ لأن أنكحة الكفار صحيحة . ألا تراهم يسلمون مع زوجاتهم فلا يلزمهم تجديد العقد

(١) جمع كدية وهى القطعة الغليظة من الأرض — يريد المقابر ، وكانت مقابرهم فيها .

(٢) تشير إلى قوله عليه السلام : « لعن الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج » .

ولا مفارقتهن ؟ إذا كان مثله يجوز فى الإسلام وبالله التوفيق ، انتهى كلامه .

قلت : وإخباره ﷺ عن أبويه وجده عبد المطلب بأنهم من أهل النار ـ لا ينافى الحديث الوارد عنه من طرق متعددة : أن أهل الفترة والأطفال المجانين والصم يمتحنون فى العرصات يوم القيامة ، كما بسطناه سنداً ومتناً فى تفسيرنا عند قوله تعالى : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) ، فيكون منهم من يجيب ومنهم من لا يجيب ، فيكون هؤلاء من جملة من لا يجيب ، فلا منافاة ولله الحمد والمنة .

وأما الحديث الذى ذكره السهيلى ـ وذكر أن فى إسناده مجهولين ـ إلى ابن أبى الزناد ، عن عروة عن عائشة رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ سأل ربه أن يحيى أبويه ، فأحياهما وآمنا به ـ فإنه حديث منكر جداً ، وإن كان ممكناً بالنظر إلى قدرة الله تعالى . لكن الذى ثبت فى الصحيح يعارضه ، والله أعلم .

فصل [فى عناية جده عبد المطلب وعمه أبى طالب به عليه السلام]

قال ابن إسحاق : وكان رسول الله ﷺ مع جده عبد المطلب بن هاشم ـ يعنى بعد موت أمه آمنة بنت وهب ـ فكان يوضع لعبد المطلب فراش فى ظل الكعبة ، وكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه ، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له . قال: فكان رسول الله ﷺ يأتى وهو غلام جَفْر حتى يجلس عليه ، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه ، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم : دعوا ابنى فوالله إن له لشأناً ، ثم يجلسه معه على فراشه ويمسح ظهره بيده ، ويسره ما يراه يصنع . وقال الواقدى : حدثنى محمد بن عبد الله عن الزهرى ، وحدثنا عبد الله بن جعفر عن عبد الواحد بن حمزة بن عبد الله ، وحدثنا هاشم بن عاصم الأسلمى عن المنذر بن جهم ، وحدثنا معمر عن ابن أبى نجيح عن مجاهد ، وحدثنا عبد الرحمن بن عبد العزيز عن أبى الحويرث ، وحدثنا ابن أبى سبرة عن سليمان بن سحيم عن نافع عن ابن جبير ـ دخل حديث بعضهم فى بعض ـ قالوا : كان رسول الله ﷺ يكون مع أمه آمنة بنت وهب ، فلما توفيت قبضه إليه جده عبد المطلب وضمه ورقّ عليه رِقّةً لم يرقها على ولده ، وكان يقربه منه ويدنيه ويدخل عليه إذا خلا وإذا نام . وكان يجلس على فراشه فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك : دعوا بنى إنه يؤنس ملكاً .

وقال قوم من بنى مدلج لعبد المطلب : احتفظ به فإنا لم نر قدماً أشبه بالقدم الذى فى المقام منه ، فقال عبد المطلب لأبى طالب : اسمع ما يقول هؤلاء ! فكان أبو طالب يحتفظ به . وقال عبد المطلب لأم أيمن[1] ـ وكان تحضنه ـ يا بركة ! لا تغفلى عن ابنى ، فإنى وجدته مع غلمان قريب من السدرة ، وإن أهل الكتاب يزعمون أن ابنى نبى هذه الأمة . وكان عبد المطلب لا يأكل طعاماً إلا يقول : على بابنى

(١) أمة حبشية كانت لأبيه عبد الله ، وكانت حاضنته بعد وفاة أمه السيدة آمنة ، وكان عليه السلام يعزها كثيراً ويقول لها : أنت أمى بعد أمى .

فيؤتى به إليه . فلما حضرت عبد المطلب الوفاة أوصى أبا طالب بحفظ رسول الله ﷺ وحياطته ، ثم مات عبد المطلب ودفن بالحجون .

وقال ابن إسحاق : فلما بلغ رسول الله ﷺ ثمانى سنين هلك جدّه عبدُ المطلب بن هاشم . ثم ذكر جمعه بناته وأمره إياهن أن يرثينه ؛ وهن : أروى ، وأميمة ، وبرة ، وصفية ، وعاتكة ، وأم حكيم البيضاء . وذكر أشعارهن وما قلن فى رثاء أبيهن وهو يسمع قبل موته وهذا أبلغ النوح ، وبسط القول فى ذلك . وقد قال ابن هشام : ولم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرف هذا الشعر .

قال ابن إسحاق: فلما هلك عبد المطلب بن هاشم ولِي السقايةَ وزمزم بعده ـ ابنُه العباس ، وهو من أحدث إخوته سناً ، فلم تزل إليه حتى قام الإسلام فأقرها فى يده رسول الله ﷺ . وكان رسول الله ﷺ بعد جده عبد المطلب ـ مع عمه أبى طالب لوصية عبد المطلب له به ، ولأنه كان شقيق أبيه عبد الله ، أمهما فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عبد بن عمران بن مخزوم . قال فكان أبو طالب هو الذى يلى أمر رسول الله ﷺ وكان إليه ومعه . وقال الواقدى : أخبرنا معمر عن ابن نجيح عن مجاهد ، وحدثنا معاذ بن محمد الأنصارى عن عطاء عن ابن عباس ، وحدثنا محمد بن صالح وعبد الله بن جعفر وإبراهيم بن إسماعيل بن أبى حبيبة ـ دخل حديث بعضهم فى حديث بعض ـ قالوا : لما توفى عبد المطلب قبض أبو طالب رسول الله ﷺ فكان يكون معه ، وكان أبو طالب لا مال له، وكان يحبه حباً شديداً لا يحبه ولده ، وكان لا ينام إلا إلى جنبه ، ويخرج فيخرج معه ، وصب[(١)] به أبو طالب صبابة لم يصب مثلها بشىء قط . وكان يخصه بالطعام . وكان إذا أكل عيال أبى طالب جميعاً أوفرادى لم يشبعوا ، وإذا أكل معهم رسول الله ﷺ شبعوا ؛ فكان إذا أراد أن يغديهم قال : كما أنتم حتى يأتى ولدى . فيأتى رسول الله ﷺ فيأكل معهم فكانوا يفضلون من طعامهم ، وإن لم يكن معهم لم يشبعوا فيقول أبو طالب : إنك لمبارك . وكان الصبيان يصبحون رمصاً[(٢)] شعثاً ، ويصبح رسول الله ﷺ دهيناً كحيلاً .

وقال الحسن بن عرفة : حدثنا على بن ثابت عن طلحة بن عمرو ، سمعت عطاء بن أبى رباح ، سمعت ابن عباس يقول : كان بنو أبى طالب يصبحون رمصاً عمصاً ، و يصبح رسول الله ﷺ صقيلا دهيناً . وكان أبوطالب يقرب إلى الصبيان صفحتهم أو البكرة ، فيجلسون و ينتهبون ، و يكف رسول الله صلى الله عليه وسلم يده فلا ينتهب معهم ، فلما رأى ذلك عمه عزل له طعامه على حدة .

وقال ابن إسحاق ، حدثنى يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير — أن أباه حدثه : أن رجلا من لهب

---

(١) المراد: أحبه حباً شديداً ، والصبابة بالفتح : حرارة الشوق ورقته .

(٢) الرمص — بفتحين : وسخ يجتمع فى موق العين ، وقد رمصت عينه من باب طرب ، فإن سال فهو غمص .

كان عائفاً[1] فكان إذا قدم مكة أتاه رجال من قريش بغلمانهم ينظر إليهم و يعتاف لهم فيهم . قال فأتى أبو طالب برسول الله ﷺ وهو غلام مع من يأتيه . قال فنظر إلى رسول الله ﷺ ثم شغله عنه شيء . فلما فرغ قال : أين الغلام ؟ عليَّ به . فلما رأى أبو طالب حرصه عليه غيبه عنه فجعل يقول : ويلكم ! ردوا على الغلام الذى رأيته آنفاً ، فو الله ليكونن له شأن . قال : فانطلق به أبو طالب .

فصـــل

فى خروجه عليه الصلاة والسلام مع عمه أبى طالب إلى الشام وقصته مع بحيرى الراهب

قال ابن إسحاق : ثم إن أبا طالب خرج فى ركب تاجراً إلى الشام . فلما تهيأ للرحيل وأجمع المسير صَبَّ به رسول الله ﷺ - فيما يزعمون - فرق له أبو طالب ، وقال : والله لأخرجن به معى ولا أفارقه ولا يفارقنى أبداً — أو كما قال - فخرج به معه ، فلما نزل الركب بُصرَى من أرض الشام و بها راهب يقال له بحيرى فى صومعة له . وكان إليه عِلم أهل النصرانية ، ولم يزل فى تلك الصومعة منذ قطّ راهب ، إليه يصير علمهم عن كتاب فيها - فيما يزعمون - يتوارثونه كابراً عن كابر ، فلما نزلوا ذلك العام ببَحِيرى - وكانوا كثيراً مايمرون به فلا يكلمهم ولا يعرض لهم - حتى كان ذلك العام . فلما نزلوا قريباً من صومعته صنع لهم طعاماً كثيراً ، وذلك - فيما يزعمون - عن شيء رآه وهو فى صومعته ؛ يزعمون أنه رأى رسول الله ﷺ فى الركب حين أقبل وغمامة تظلله من بين القوم . ثم أقبلوا فنزلوا فى ظل شجرة قريباً منه ، فنظر إلى الغمامة حين أظلت الشجرة ، وانهصرت[2] أغصان الشجرة على رسول الله ﷺ حتى استظل تحتها . فلما رأى ذلك بَحيرى نزل من صومعته وقد أمر بطعام فصنع . ثم أرسل إليهم فقال: إنى صنعت لكم طعاماً يامعشر قريش ، فأنا أحب أن تحضروا كلكم ؛ كبيركم وصغيركم ، وعبدكم وحركم . فقال له رجل منهم : والله يابَحيرى إن لك لشأناً اليوم ! . ما كنت تصنع هذا بنا وقد كنا نمر بك كثيراً ، فما شأنك اليوم ؟ قال له بَحيرى : صدقت ، قد كان ماتقول ، ولكنكم ضَيفٌ وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاماً فتأكلون منه كلكم . فاجتمعوا إليه وتخلف رسول الله ﷺ من بين القوم لحداثة سنه - فى رحال القوم تحت الشجرة ، فلما رآهم بَحيرى لم ير الصفة التى يعرف ويجدُ عنده ، فقال يامعشر قريش ! لايتخلفن أحد منكم عن طعامى ، قالوا يابَحيرى ماتخلف أحد ينبغى له أن يأتيك إلا غلام ، وهو أحدثنا سناً ، فتخلف فى رحالنا . قال: لا تفعلوا ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم .

قال: فقال رجل من قريش مع القوم : واللات والعزى ! إن كان للؤمٌ بنا أن يتخلف محمد بن عبد الله

---

(١) العائف : المتكهن بالطير أو غيرها ؛ بان يعتبر بأسمائها ومساقطها وأنوائها فيتسعد أو يتشاءم .

(٢) أى اندفعت ومالت .

ابن عبد المطلب عن طعام من بيننا ، ثم قام إليه فاحتضنه وأجلسه مع القوم ، فلما رآه بحيرى جعل يلحظه لحظاً شديداً ، و ينظر إلى أشياء من جسده ، قد كان يجدها عنده من صفته ، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا قام إليه بحيرى وقال له : ياغلام أسألك بحق اللات والعزى إلا أخبرتنى عما أسألك عنه ؛ و إنما قال له بحيرى ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما . فزعموا أن رسول الله ﷺ قال له : لاتسألنى باللات والعزى شيئاً ؛ فوالله ماأبغضت شيئاً قط بغضهما . فقال له بحيرى : فبالله إلا ماأخبرتنى عما أسألك عنه . فقال له سلنى عما بدا لك . فجعل يسأله عن أشياء؛ من حاله فى نومه وهيئته وأموره ؛ فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره ، فوافق ذلك ماعند بحيرى من صفته . ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التى عنده . فلما فرغ أقبل على عمه أبى طالب فقال له : ماهذا الغلام منك ؟ قال ابنى ، قال بحيرى ماهو بابنك ، وما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً . قال فإنه ابن أخى ، قال فما فعل أبوه ؟ قال مات وأمه حبلى به ، قال صدقت ؛ ارجع بابن أخيك إلى بلده ، واحذر عليه اليهود ؛ فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ماعرفت ليبغنّه شراً ؛ فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم ، فأسرع به إلى بلاده ؛ فخرج به عمه أبو طالب سريعاً حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام .

قال ابن إسحاق : فزعموا ــ فيما روى الناس ــ أن زُرَيراً ، وتَمّاما ، ودَريساً ــ وهم نفر من أهل الكتاب ــ قد كانوا رأوا رسول الله ﷺ مثلما رآه بحيرى فى ذلك السفر الذى كان فيه مع عمه أبى طالب ، فأرادوه فردّهم عنه بَحيرى وذكّرهم اللهَ وما يجدون فى الكتاب من ذكره وصفته ، وأنهم إن أجمعوا لما أرادوا به لم يخلصوا إليه، ولم يَزل بهم حتى عرفوا ماقال لهم وصدقوه بما قال ، فتركوه وانصرفوا عنه . وقد ذكر يونس بن بكير عن ابن إسحاق ، أن أبا طالب قال فى ذلك ثلاث قصائد . هكذا ذكر ابن إسحاق هذا السياق من غير إسناد منه . وقد ورد نحوه من طريق مسند مرفوع .

فقال الحافظ أبو بكر الخرائطى : حدثنا عباس بن محمد الدورى ، حدثنا قراد أبو نوح ، حدثنا يونس عن أبى إسحاق عن أبى بكر بن أبى موسى عن أبيه قال : خرج أبو طالب إلى الشام ومعه رسول الله ﷺ فى أشياخ من قريش . فلماأشرفوا على الراهب ــ يعنى بَحيرى ــ هبطوا فحلوا رحالهم ، فخرج إليهم الراهب ، وكانوا قبل ذلك يمرون به فلا يخرج ولا يلتفت إليهم ، قال : فنزل وهم يحلون رحالهم ، فجعل يتخللهم حتى جاء فأخذ بيد النبى ﷺ فقال : هذا سيد العالمين . وفى رواية البيهقى زيادة : هذا رسول رب العالمين ؛ بعثه الله رحمة للعالمين . فقال له أشياخ من قريش : وما علمك ؟ فقال إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا خر ساجداً ، ولا يسجدون إلا لنبى ، وإنى أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه . ثم رجع فصنع لهم طعاماً فلما أتاهم به ــ وكان هو فى رعية الإبل ــ

قال أرسلوا إليه ، فأقبل وغمامة تظله ، فلما دنا من القوم قال انظروا إليه عليه غمامة ، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فئ الشجرة ، فلما جلس مال فئ الشجرة عليه ، قال انظروا إلى فئ الشجرة مال عليه . قال : فبينما هو قائم عليهم وهو ينشدهم ألا يذهبوا به إلى الروم ، فإن الروم إن رأوه عرفوه بالصفة فقتلوه – التفت فإذا هو بسبعة نفر من الروم قد أقبلوا . قال : فاستقبلهم فقال ماجاء بكم ؟ قالوا جئنا لأن هذا النبي خارج فى هذا الشهر ، فلم يبق طريق إلا بعث إليه ناس ، وإنا أخبرنا خبره إلى طريقك هذه . قال فهل خلفكم أحد هو خير منكم ؟ قالوا – لا ، إنما أخبرنا خبره إلى طريقك هذه . قال : أفرأيتم أمراً أراد الله أن يقضيه ، هل يستطيع أحد من الناس رده ؟ فقالوا – لا . قال فبايعوه وأقاموا معه عنده .

قال : فقال الراهب : أنشدكم الله ! أيكم وليه ؟ قالوا أبو طالب . فلم يزل يناشده حتى رده وبعث معه أبو بكر بلالاً ، وزوده الراهب من الكعك والزيت .

هكذا رواه الترمذى عن أبى العباس الفضل بن سهل الأعرج عن قراد أبى نوح به ، والحاكم والبيهقى وابن عساكر من طريق أبى العباس محمد بن يعقوب الأصم عن عباس بن محمد الدورى به . وهكذا رواه غير واحد من الحفاظ من حديث أبى نوح عبد الرحمن بن غزوان الخزاعى مولاهم – ويقال له الضبى ويعرف بقراد – سكن بغداد ، وهو من الثقات الذين أخرج لهم البخارى ، ووثقه جماعة من الأئمة والحفاظ ، ولم أر أحداً جرحه ، ومع هـذا فى حديثه هذا غرابة ؛ قال الترمذى حسن غريب لانعرفه إلا من هـذا الوجه ، وقال عباس الدورى : ليس فى الدنيا أحد يحدث به غير قراد أبى نوح ، وقد سمعه منه أحمد بن حنبل رحمه الله ويحيى بن معين لغرابته وانفراده . حكاه البيهقى وابن عساكر .

قلت : فيه من الغرائب : أنه من مرسلات الصحابة ؛ فإن أبا موسى الأشعرى إنما قدم فى سنة خيبر سنة سبع من الهجرة ، ولا يلتفت إلى قول ابن إسحاق فى جعله له من المهاجرة إلى أرض الحبشة من مكة ، وعلى كل تقدير فهو مرسل ؛ فإن هـذه القصة كانت ولرسول الله ﷺ من العمر – فيما ذكره بعضهم – اثنتا عشرة سنة ، ولعل أبا موسى تلقاه من النبي ﷺ فيكون أبلغ ، أو من بعض كبار الصحابة رضى الله عنهم ، أو كان هذا مشهوراً مذكوراً أخذه من طريق الاستفاضة .

الثانى : أن الغمامة لم تذكر فى حديث أصح من هذا .

الثالث : أن قوله : وبعث معه أبو بكر بلالاً ؛ إن كان عمره عليه الصلاة والسلام إذ ذاك ثنتى عشرة سنة ، فقد كان عمر أبى بكر إذ ذاك تسع سنين أو عشرة ، وعمر بلال أقل من ذلك ، فأين كان أبو بكر إذ ذاك ؟ ثم أين كان بلال ؟ كلاهما غريبٌ ، اللهم إلا أن يقال إن هذا كان ورسول الله ﷺ كبيراً ؛ إما بأن يكون سفره بعد هـذا ، أو إن كان القول بأن عمره كان إذ ذاك ثنتي عشرة سنة غير

محفوظ – فإنه إنما ذكره مقيداً بهذا . وحكى السهيلى عن بعضهم ، أنه كان عمره عليه الصلاة والسلام إذ ذاك تسع سنين والله أعلم . قال الواقدى : حدثنى محمد بن صالح وعبد الله بن جعفر وإبراهيم بن إسماعيل بن أبى حبيبة عن داود بن الحصين قالوا : لما بلغ رسول الله ﷺ اثنتى عشرة سنة خرج به عمه أبو طالب إلى الشام فى العير التى خرج فيها للتجارة ، ونزلوا بالراهب بحيرى . فقال لأبى طالب بالسر ماقال ، وأمره أن يحتفظ به ، فرده معه أبو طالب إلى مكة .

وشب رسول الله ﷺ مع أبى طالب يكلؤه الله ويحفظه ، ويحوطه من أمور الجاهلية ومعائبها ، لما يريد من كرامته ، حتى بلغ أن كان رجلا أفضلَ قومه مروءةً ، وأحسنهم خلقاً ، وأكرمهم مخالطة ، وأحسنهم جواراً ، وأعظمهم حلماً وأمانة ، وأصدقهم حديثاً ، وأبعدهم من الفحش والأذى . مارؤى ملاحياً ولا ممارياً أحداً ، حتى سماه قومه الأمين ؛ لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة ، فكان أبو طالب يحفظه ويحوطه وينصره ويعضده حتى مات .

وقال محمد بن سعد : أخبرنا خالد بن معدان ، حدثنا معتمر بن سليمان ، سمعت أبى يحدث عن أبى مجلز : أن عبد المطلب – أو أبا طالب شك خالد – قال : لما مات عبد الله عطف على محمد ، فكان لايسافر سفراً إلا كان معه فيه ، وإنه توجه نحو الشام فنزل منزلاً فأتاه فيه راهب ، فقال إن فيكم رجلا صالحاً ، ثم قال : أين أبو هذا الغلام ؟ قال : فقال هاأنا ذا وليه – أو قيل هذا وليه – قال احتفظ بهذا الغلام ولا تذهب به إلى الشام ؛ إن اليهودُ حسد وإنى أخشاهم عليه . قال: ماأنت تقول ذلك ، ولكن الله يقوله ، فرده وقال : اللهم إنى أستودعك محمداً ، ثم إنه مات .

قصة بحيرى : حكى السهيلى عن سير الزهرى — أن بحيرى كان حبراً من أحبار اليهود .

قلت : والذى يظهر من سياق القصة : أنه كان راهباً نصرانياً والله أعلم . وعن المسعودى أنه كان من عبد القيس ، وكان اسمه جرجيس . وفى كتاب المعارف لابن قتيبة : سمع هاتف فى الجاهلية قبل الإسلام بقليل يهتف ويقول : ألا إن خير أهل الأرض ثلاثة : بحَيرى ، ورئاب بن البراء الشنى ، والثالث المنتظر . وكان الثالث المنتظر ، هو الرسول ﷺ . قال ابن قتيبة : وكان قبر رئاب الشنى وقبر ولده من بعده لايزال يرى عندهما طَشّ – وهو المطر الخفيف .

(فصل) فى منشئه عليه الصلاة والسلام ومرباه
وكفاية الله له ، وحياطته ، وكيف كان يتيما فآواه ، وعائلا فأغناه

قال محمد بن إسحاق : فشب رسول الله ﷺ يكلؤه الله ويحفظه ، ويحوطه من أقذار الجاهلية ؛ لما يريده من كرامته ورسالته ، حتى بلغ أن كان رجلا أفضلَ قومَه مروءةً ، وأحسنَهم خلقاً وأكرمهم

حسباً ، وأحسنهم جواراً ، وأعظمهم حلماً ، وأصدقهم حديثاً ، وأعظمهم أمانة ، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تُدنّس الرجال تنزهاً وتكرماً ، حتى ما اسمُه في قومه إلا الأمين ؛ لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة. وكان رسول الله ﷺ فيما ذكر لي- يحدّث عما كان الله يحفظه به في صغره وأمر جاهليته أنه قال : « لقد رأيتني في غِلمان من قريش ننقل الحجارة لبعض مايلعب الغِلمان ، كلّنا قد تعرّى ، وأخذ إزاره وجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة ؛ فإني لأُقبل معهم كذلك وأُدبِر ، إذ لكمني لا كِمٌ ماأراه - لكمةً وجيعة ، ثم قال:شدّ عليك إزارك . قال فأخذته فشددته علي ، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي وإزاري عليّ من بين أصحابي » . وهذه القصة شبيهة بما في الصحيح عند بناء الكعبة حين كان ينقل هو وعمه العباس ، فإن لم تكنها فهي متقدمة عليها كالتوطئة لها ، والله أعلم .

قال عبد الرزاق : أخبرنا ابن جريج ، أخبرني عمرو بن دينار : أنه سمع جابر بن عبد الله يقول : لما بنيت الكعبة ذهب رسول الله ﷺ ينقل الحجارة . فقال العباس لرسول الله ﷺ :اجعل إزارك على عاتقك من الحجارة ففعل ، فخر إلى الأرض وطمحت عيناه إلى السماء ، ثم قام فقال : « إزاري » فشد عليه إزاره . أخرجاه في الصحيحين من حديث عبد الرزاق ؛ وأخرجاه أيضاً من حديث روح بن عبادة عن زكرياء بن أبي إسحاق عن عمرو بن دينار عن جابر بنحوه .

وقال البيهقي : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ وأبو سعيد بن أبي عمرو قالا : أخبرنا أبو العباس محمد بن يعقوب ، حدثنا محمد بن إسحاق الصاغاني ، حدثنا محمد بن بكير الحضرمي ، حدثنا عبد الرحمن بن عبدالله الدشتكي ، حدثنا عمرو بن أبي قيس عن سماك عن عكرمة ، حدثني ابن عباس عن أبيه : أنه كان ينقل الحجارة إلى البيت حين بنت قريش البيت ، قال : وأفردت قريش رجلين رجلين ؛ الرجال ينقلون الحجارة ، وكانت النساء تنقل الشيد . قال فكنت أنا وابن أخي ، وكنا نحمل على رقابنا وأزرنا تحت الحجارة ، فإذا غشينا الناس ائتزرنا . فبينما أنا أمشي ومحمد أمامي - قال - فخر وانبطح على وجهه ، فجئت أسعى وألقيت حجري وهو ينظر إلى السماء ، فقلت ما شأنك ؟ فقام وأخذ إزاره وقال : « إني نهيت أن أمشي عرياناً » . قال وكنت أكتمها من الناس مخافة أن يقولوا مجنون . وروى البيهقي من حديث يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق ، حدثني محمد بن عبد الله بن قيس بن مخرمة عن الحسن ابن محمد بن علي بن أبي طالب عن أبيه عن جده علي بن أبي طالب ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ماهممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهمون به من النساء إلا ليلتين؛ كلتاهما عصمني الله عز وجل فيهما . قلت ليلة لبعض فتيان مكة - ونحن في رعاء غنم أهلها - فقلت لصاحبي : أبصر لي غنمي حتى أدخل مكة أسمر فيها كما يسمر الفتيان ، فقال : بلى. قال فدخلت حتى جئت أول دار من دور مكة ، فسمعت عَزفاً بالغرابيلِ والمزامير فقلتِ ماهذا ؟ قالوا تزوج فلان فلانة ، فجلست أنظر ، وضرب الله علي

أذنى ، فوالله ما أيقظنى إلا مس الشمس ، فرجعت إلى صاحبى ، فقال مافعلت ؟ فقلت مافعلت شيئاً ، ثم أخبرته بالذى رأيت . ثم قلت له ليلة أخرى : أبصر لى غنمى حتى أسمر ففعل ، فدخلت فلما جئت مكة سمعت مثل الذى سمعت تلك الليلة ، فسألت فقيل نكح فلان فلانة ، فجلست أنظر وضرب الله على أذنى ، فوالله ما أيقظنى إلا مس الشمس فرجعت إلى صاحبى فقال مافعلت ؟ فقلت لاشىء ، ثم أخبرته الخبر ، فوالله ماهممت ولا عدت بعدها لشىء من ذلك حتى أكرمنى الله عز وجل بنبوته » .

وهذا حديث غريب جداً ، وقد يكون عن على نفسه ، ويكون قوله فى آخره : « حتى أكرمنى الله عز وجل بنبوته » — مقحماً ، والله أعلم .

وشيخ ابن إسحاق هذا ذكره ابن حبان فى الثقات (وزعم) بعضهم أنه من رجال الصحيح . قال شيخنا فى تهذيبه ، ولم أقف على ذلك والله أعلم .

وقال الحافظ البيهقى : حدثنى أبو عبد الله الحافظ ، حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب ، حدثنا الحسن بن على بن عفان العامرى ، حدثنا أبو أسامة ، حدثنا محمد بن عمرو عن أبى سلمة ، ويحيى بن عبد الرحمن بن حاطب عن أسامة بن زيد عن زيد بن حارثة ، قال : كان صنم من نحاس يقال له إساف ونائلة ، يتمسح به المشركون إذا طافوا . فطاف رسول الله ﷺ وطفت معه ، فلما مررت مسحت به فقال رسول الله ﷺ : « لاتمسه » . قال زيد : فطفنا فقلت فى نفسى لأمسنه حتى أنظر ما يكون ، فمسحته فقال رسول الله ﷺ : « ألم تنه ؟ » ، قال البيهقى : زاد غيره عن محمد بن عمرو بإسناده — قال زيد : فوالذى أكرمه وأنزل عليه الكتاب ما استلم صنما قط حتى أكرمه الله تعالى بالذى أكرمه وأنزل عليه .

وتقدم قوله عليه الصلاة والسلام لبحيرى حين سأله باللات والعزى : « لاتسألنى بهما فوالله ما أبغضت شيئاً بغضهما » ، فأما الحديث الذى قاله الحافظ أبو بكر البيهقى : أخبرنا أبو سعد المالينى ، أنبأنا أبو أحمد بن عدى الحافظ ، حدثنا إبراهيم بن أسباط ، حدثنا عثمان بن أبى شيبة ، حدثنا جرير عن سفيان الثورى عن محمد بن عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : كان النبى ﷺ يشهد مع المشركين مشاهدهم ، قال : فسمع ملكين خلفه وأحدهما يقول لصاحبه : اذهب بنا حتى نقوم خلف رسول الله ﷺ ، قال كيف نقوم خلفه وإنما عهده باستلام الأصنام؟ . قال فلم يعد بعد ذلك أن يشهد مع المشركين مشاهدهم[1] — فهو حديث أنكره غيره واحد من الأئمة على عثمان بن أبى شيبة ، حتى قال الإمام أحمد فيه : لم يكن أخوه يتلفظ بشىء من هذا . وقد حكى البيهقى عن بعضهم — أن معناه أنه شهد مع من يستلم الأصنام ، وذلك قبل أن يوحى إليه ، والله أعلم .

---

(١) قوله : فهو حديث منكر — جواب قوله : فأما الحديث الذى قاله الحافظ .

وقد تقدم في حديث زيد بن حارثة أنه - اعتزل شهود مشاهد المشركين حتى أكرمه الله برسالته .
وثبت في الحديث أنه كان لا يقف بالمزدلفة ليلة عرفة ، بل كان يقف مع الناس بعرفات ، كما قال يونس ابن بكير عن محمد بن إسحاق : حدثني عبد الله بن أبي بكر عن عثمان بن أبي سليمان عن نافع بن جبير بن مطعم عن أبيه جبير . قال : لقد رأيت رسول الله ﷺ وهو على دين قومه ، وهو يقف على بعير له بعرفات من بين قومه حتى يدفع معهم ، توفيقاً من الله عز وجل له . قال البيهقي : معنى قوله : على دين قومه - ما كان بقي من إرث إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، ولم يشرك بالله قط صلوات الله وسلامه عليه دائماً .

قلت : ويفهم من قوله هذا أيضاً : أنه كان يقف بعرفات قبل أن يوحى إليه ، وهذا توفيق من الله له . ورواه الإمام أحمد عن يعقوب عن محمد بن إسحاق به . ولفظه : رأيت رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه ، وإنه لواقف على بعير له مع الناس بعرفات حتى يدفع معهم توفيقاً من الله . وقال الإمام أحمد : حدثنا سفيان عن عمرو عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال : أضللت بعيراً لي بعرفة ، فذهبت أطلبه فإذا النبي ﷺ واقف ، فقلت إن هذا من الحُمس[1] ما شأنه ههنا ؟ وأخرجاه من حديث سفيان ابن عيينة به .

ذكر شهوده عليه الصلاة والسلام حرب الفجار

قال ابن إسحاق : هاجت حرب الفجار ورسول الله ﷺ ابن عشرين سنة ، وإنما سمي يوم الفجار ؛ بما استحل هذان الحيان - كنانة وقيس عَيلان - فيه من المحارم بينهم . وكان قائدَ قريش وكنانة حربُ بن أمية بن عبد شمس . وكان الظفر في أول النهار لقَيس على كنانة ، حتى إذا كان وسط النهار كان الظفر لكنانة على قيس .

وقال ابن هشام : فلما بلغ رسول الله ﷺ أربع عشرة سنة ، أو خمس عشرة سنة - فيما حدثني به أبو عُبيدة النحوي عن أبي عمرو بن العلاء - هاجت حرب الفجار بين قريش ومن معها من كنانة ، وبين قيس عَيلان . وكان الذي هاجها : أن عُروة الرّحال بن عتبة بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر ابن صَعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن ، أجارَ لَطيمةً[2] - أي تجارة - للنعمان بن المنذر . فقال البرّاض بن قيس - أحد بني ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة : أتجيرُها على كنانة ؟ قال : نعم ، وعلى الخلق كله . فخرج فيها عروة الرّحال وخرج البرّاض يطلب غفلته . حتى إذا كان بتَيْمَن ذي طِلال[3]

(١) الحمس جمع أحمس . وهم قريش ومن ولدت ، وكنانة . وجديلة ، سموا حمساً . لأنهم تحمسوا في دينهم أي تشددوا . والحماسة - الشجاعة . كانوا يقفون في المزدلفة ، ويقولون : نحن أهل الله فلا نخرج من الحرم .

(٢) اللطيمة : الجمال التي تحمل البز والعطر .

(٣) ذو طلال ككتاب : ماء أو موضع ببلاد بني مرة .

بالعالية ، غفل عروة فوثب عليه البرّاض فقتله فى الشهر الحرام ، فلذلك سُمّى «الفجار» ، وقال البراض فى ذلك :

وداهيـةٍ تُهِمّ الناس قبـلى ... شددت لها بنى بكر ضلوعى

هدمت بهـا بيوتَ بنى كلاب ... وأرضعتُ الموالى بالضروع (١)

رفعت له بذى طلاّل كفّى (٢) ... فخرّ يميـدُ كالجِـذع الصريع

وقال لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب :

وأبلغ — إن عرضت — بنى كلاب ... وعامرَ ، والخطوبُ لها موالى

وبَلّغ — إن عرضت — بنى نُمـير ... وأخوالَ القتيل بنى هـلال

بأنّ الوافـد الرّحال أمسى ... مقيماً عند تيمَن ذى طِـلال

قال ابن هشام : فأتى آت قريشاً فقال : إن البرّاض قد قتل عُروة ، وهم فى الشهر الحرام بعكاظ . فارتحلوا وهوازنُ لا تشعر بهم . ثم بلغهم الخبر فأتبعوهم فأدركوهم قبل أن يدخلوا الحرم ، فاقتتلوا حتى جاء الليل، فدخلوا الحرم فأمسكت هوازن عنهم ، ثم التقوا بعد هذا اليوم أياماً ، والقوم متساندون على كل قَبيل من قريش وكنانة رئيسٌ منهم ، وعلى كل قبيل من قيس رئيس منهم . قال وشهد رسول الله ﷺ بعضَ أيامهم ، أخرجه أعمامُه معهم . وقال رسول الله ﷺ : «كنت أُنَبِّل على أعمامى» — أى أرد عليهم نَبل عدوهم إذا رموهم بها . قال ابن هشام : وحديث الفجار أطول مما ذكرت ، وإنما منعنى من استقصائه قطعهُ حديث سيرة رسول الله ﷺ .

وقال السهيلى : والفِجار بكسر الفاء على وزن قتال . وكانت الفجارات فى العرب أربعة ، ذكرهن المسعودى ، وآخرهن فجار البرّاض هذا . وكان القتال فيه فى أربعة أيام ؛ يوم شمطة ، ويوم العبلاء — وهما عند عكاظ ، ويوم الشرب — وهو أعظمها يوماً — وهو الذى حضره رسول الله ﷺ ،وفيه قيدا رئيس قريش وبنى كنانة — وهما حرب بن أمية وأخوه سفيان — أنفسهما لئلا يفروا ، وانهزمت يومئذ قيس إلا بنى نضر منهم فإنهم ثبتوا . ويوم الحريرة عند نخلة . ثم تواعدوا من العام المقبل إلى عكاظ ، فلما توافوا الموعد ركب عتبة بن ربيعة جمله (٣) ، ونادى : يامعشر مُضر ! علام تقاتلون ؟ فقالت له هوازن : ماتدعو إليه ؟ قال الصلح ، قالوا وكيف ؟ قال نَدِى قتلاكم ونرهنكم رهائن عليها ، ونعفو عن دمائنا . قالوا ومن لنا بذلك ؟ قال أنا ، قالوا ومن أنت ؟ قال عتبة بن ربيعة ، فوقع الصلح على ذلك ، وبعثوا

---

(١) ألحقت الموالى بمنزلتهم من اللؤم ورضاع الضروع ، وهتكت بيوت أشراف بنى كلاب .

(٢) روى : رفعت له يدى بذى طلال .

(٣) وكان عتبة يتيماً فى حجر حرب بن أمية رئيس قريش وكنانة ، وأشفق عليه من خروجه معه ، فخرج بغير إذنه وفعل ما ذكر .

إليهم أربعين رجلا ، فيهم حكيم بن حزام . فلما رأت بنو عامر بن صعصعة لرهنَ فى أيديهم عفوا عن دِمائهم ، وانقضت حرب الفجار . وقد ذكر الأموى حروب الفجار وأيامها واستقصاها مطولا فيما رواه عن الأثرم – وهو المغيرة بن على – عن أبى عبيدة معمر بن المثنى ، فذكر ذلك .

(فصل) فى شهوده عليه الصلاة والسلام حلف الفضول

قال الحافظ البيهقى : أخبرنا أبو سعد المالينى ، أنبأنا أبو أحمد بن عدى الحافظ ، حدثنا يحيى بن على ابن هاشم الخفاف ، حدثنا أبو عبد الرحمن الأزدى ، حدثنا إسماعيل بن علية عن عبد الرحمن بن إسحاق عن الزهرى عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « شهدت مع عمومتى حلف المطيِّبين فما أحب أن أنكثه – أو كلمة نحوها – وأن لى حمر النعم » . قال وكذلك رواه بشر ابن المفضل عن عبد الرحمن ، قال : وأخبرنا أبو نصر بن قتادة ، حدثنا أبو عمرو بن مطر ، حدثنا أبو بكر بن أحمد بن داود السمنانى ، حدثنا معلى بن مهدى ، حدثنا أبو عوانة عن عمر بن أبى سلمة عن أبيه عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ماشهدتُ حلِفاً لقريش إلا حلِف المُطيِّبين ، وما أحب أن لى حمر النعم وأنى كنت نقضتهُ » . قال : والمطيبون : هاشم ، وأُمية ، وزهرة ، ومخزوم . قال البيهقى : كذا روى هذا التفسير مدرجاً فى الحديث ولا أدرى قائله ، وزعم بعض أهل السير أنه أراد حلف الفضول ؛ فإن النبى ﷺ لم يدرك حلف المُطيِّبين .

قلت : هذا لاشك فيه ؛ وذلك أن قريشاً تحالفوا بعد موت قصىّ ، وتنازعوا فى الذى كان جعله قصىّ لابنه عبد الدار ؛ من السقاية ، والرفادة ، واللواء ، والندوة ، والحجابة ، ونازعهم فيه بنو عبد مناف . وقامت مع كلّ طائفة قبائل من قريش ، وتحالفوا على النصرة لحزبهم ؛ فأحضر أصحاب بنى عبد مناف جَفنةً فيها طيب فوضعوا أيديهم فيها وتحالفوا ، فلما قاموا مسحوا أيديهم بأركان البيت ، فسموا المطيِّبين كما تقدم وكان هذا قديماً ، ولكن المراد بهذا الحلف حلف الفضول ، وكان فى دار عبد الله ابن جُدعان ، كما رواه الحميدى عن سفيان بن عيينة عن عبد الله عن محمد وعبد الرحمن ابنى أبى بكر قالا: قال رسول الله ﷺ : « لقد شهدت فى دار عبد الله بن جُدعان حِلفاً لو دُعيت به فى الإسلام لأجبت؛ تحالفوا أن يردوا الفضول على أهلها وألا يعد ظالم مظلوماً » . قالوا : وكان حلف الفضول قبل البعث بعشرين سنة فى شهر ذى القعدة ، وكان بعد حرب الفجار بأربعة أشهر ؛ وذلك لأن الفجار كان فى شعبان من هذه السنة ، وكان حلف الفضول أكرم حِلف سمع به وأشرفه فى العرب ، وكان أول من تكلم به ودعا إليه – الزّبير بن عبد المطلب . وكان سببه أن رجلا من زَبيد[1] قدم مكة ببضاعة

(١) بلد باليمن ، منه موسى بن طارق .

فاشتراها منه العاص بن وائل فحبس عنه حقه ، فاستعدى عليه الزّبيدى الأحلاف : عبد الدار ومخزوماً وجمحاً وسهماً وعدى بن كعب ، فأبوا أن يعينوا على العاص بن وائل ، وزَبَروه – أى انتهروه ، فلما رأى الزبيدى الشر ، أوفى على أبى قبيس عند طلوع الشمس – وقريش فى أنديتهم حول الكعبة – فنادى بأعلى صوته :

يا آل فِهر لمظلوم بضاعته ... ببطن مكة نائى الدار والنفِر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته ... ياللرجال وبين الِحجر والحجر
إنَّ الحرام لمن تمت كرامته ... ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

فقام فى ذلك الزبير بن عبد المطلب وقال : ما لهذا مترك ، فاجتمعت هاشم وزهرة وتيم بن مرة فى دار عبد الله بن جُدعان ، فصنع لهم طعاماً وتحالفوا فى ذى القعدة فى شهر حرام ، فتعاقدوا وتعاهدوا بالله ليكونُنّ يداً واحدة مع المظلوم على الظالم ، حتى يؤدى إليه حقه ؛ ما بَلّ بحر صوفة ، ومارسى ثبير وحراء مكانهما ، وعلى التأسى فى المعاش . فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول[1] ، وقالوا لقد دخل هؤلاء فى فضل من الأمر . ثم مشوا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه سلعة الزبيدى فدفعوها إليه . وقال الزبير بن عبد المطلب فى ذلك :

حلفت لنعقدن حلفاً عليهم ... وإن كنا جميعاً أهل دار
نسميه الفضول إذا عقدنا ... يعزبه الغريب لذى الجوار
ويعلم من حوال البيت أنا ... أباة الضيم نمنع كل عار

وقال الزبير أيضاً :

إن الفضول تعاقدوا وتحالفوا ... ألا يقيم ببطن مكة ظالم
أمر عليه تعاقدوا وتواثقوا ... فالجار والمعترُّ فيهم سالم

وذكر قاسم بن ثابت – فى غريب الحديث – : أن رجلا من خثعم قدم مكة حاجاً – أو معتمراً – ومعه ابنة له يقال لها القتول ، من أوضأ نساء العالمين ، فاغتصبها منه نبيه بن الحجاج وغيبها عنه . فقال الخثعمى : من يعدينى على هذا الرجل ؟ فقيل له عليك بحلف الفضول . فوقف عند الكعبة ونادى يا آل حلف الفضول ! فإذا هم يَعنَقون إليه[2] من كل جانب ، وقد انتضوا أسيافهم يقولون : جاءك الغوث فما لك ؟ فقال إن نبيهاً ظلمنى فى بنتى وانتزعها منى قسراً ، فساروا معه حتى وقفوا على باب داره

(١) قيل ، إنما سمى حلف الفضول ؛ لأنهم تحالفوا على أن يردوا الفضول إلى أهلها .
(٢) أى يمشون إليه ويسرعون إلى نجدته .

تخرج إليهم، فقالوا له أخرج الجارية ويحك ، فقد علمت من نحن وما تعاقدنا عليه ، فقال أفعل ، ولكن متعونى بها الليلة ، فقالوا لا — والله ولا شُخب لقحة ، فأخرجها إليهم وهو يقول :

راح صحبي ولم أحيي القتولا ‏ ‏ لم أودعهم وداعاً جميلا

إذ أجد الفضول أن يمنعوها ‏ ‏ قد أرانى ولا أخاف الفضولا

لاتخالى أنى عشية راح الركـ ‏ ‏ ب هنتم علىّ أن لايزولا

وذكر أبياتاً أخر غيره . وقد قيل إنما سمى هذا حلف الفضول : لأنه أشبه حلفاً تحالفته جرهم على مثل هذا ؛ من نصر المظلوم على ظالمه . وكان الداعى إليه ثلاثة من أشرافهم ؛ اسم كل واحد منهم فضل وهم : الفضل بن فضالة ، والفضل بن وداعة ، والفضل بن الحارث ، هذا قول ابن قتيبة . وقال غيره : الفضل بن شراعة ، والفضل بن بضاعة[1] ، والفضل بن قضاعة . وقد أورد السهيلى هذا رحمه الله .

وقال محمد بن إسحاق بن يسار : وتداعت قبائل من قريش إلى حلف ، فاجتمعوا له فى دار عبدالله ابن جُدعان لشرفه وسنِّه . وكان حلفهم عنده بنو هاشم ، و بنو عبد المطلب و بنو أسد بن عبد العزى وزهرة بن كلاب ، وتيم بن مرة . فتعاهدوا وتعاقدوا على أن لايجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس — إلا كانوا معه ، وكانوا على من ظلمه حتى يرد عليه مظلمته ، فسمت قريش ذلك الحلفَ — حلفَ الفضول .

قال محمد بن إسحاق : فحدثنى محمد بن زيد بن المهاجر بن قُنفذ التيمى ، أنه سمع طلحة بن عبد الله بن عوف الزهرى يقول : قال رسول صلى الله عليه وسلم : « لقد شهدت فى دار عبد الله بن جُدعان حلفاً ما أُحب أنّ لى به حُمْر النعَم ولو أُدْعى به فى الإسلام لأجبت » .

قال ابن إسحاق : وحدثنى يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهادى الليثى ، أن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيّمى، حدثه أنه كان بين الحسين بن على بن أبى طالب ، و بين الوليد بن عُتبة بن أبى سفيان — والوليد يومئذ أمير المدينة ، أمّره عمهُ معاوية بن أبى سفيان — منازعة فى مال كان بينهما بذى المَروة ، فكأن الوليد تحامل على الحسين فى حقه لسلطانه ، فقال له الحسين : أحلف بالله لتنصفنّى من حقى ، أو لآخذنّ سيفى ثم لأقومنّ فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم لأدعوَنّ بحلف الفضول . قال : فقال عبد الله بن الزبير — وهو عند الوليد حين قال له الحسين ماقال — وأنا أحلف بالله لئن دعا به لآخذنّ سيفى ، ثم لأقومنّ معه حتى يُنصَف من حقه أو نموت جميعاً . قال: فبلغت المِسوَر بن مَخرمة بن نوفل الزهرى فقال مثل ذلك ، و بلغت عبد الرحمن بن عثمان بن عُبيد الله التيمى فقال مثل ذلك . فلما بلغ ذلك الوليدَ بن عتبة أنصف الحسينَ من حقه حتى رضى .

---

(١) فى بعض النسخ : والفضل بن وداعة .

فصل فى تزويجه ﷺ خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى

قال ابن إسحاق : وكانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال ، تستأجر الرجال على مالها مُضارَبة . فلما بلغها عن رسول الله ﷺ مابلغها ؛ من صدق حَديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج لها فى مال تاجراً إلى الشام ، وتُعطيه أفضل ماتعطى غيره من التجار — مع غلام لها يقال له مَيسرة ، فقبله رسول الله ﷺ منها ، وخرج فى مالها ذاك ، وخرج معه غلامُها مَيسرة حتى نزل الشام ، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ظِلّ شجرة قريباً من صومعة راهب من الرهبان ، فاطّلع الراهب إلى مَيسرة ، فقال له : من هذا الرجل الذى نزل تحت هذه الشجرة ؟ فقال ميسرة : هذا رجل من قريش من أهل الحرم ، فقال له الراهب : مانزل تحت هـذه الشجرة إلا نبىّ . ثم باع رسول الله ﷺ سلعته — يعنى تجارته — التى خرج بها واشترى ماأراد أن يشترى . ثم أقبل قافلاً إلى مكة ومعه مَيسرة ، فكان ميسرةُ — فيما يزعمون — إذا كانت الهاجرة واشتد الحر ، يرى ملَكين يُظلانه من الشمس ، وهو يسير على بعيره ، فلما قدم مكةَ على خديجة بمالها ، باعت ماجاء به فأضعف أو قريباً ، وحَدّثها مَيسرة عن قول الراهب ، وعما كان يرى من إظلال الملائكة إياه ، وكانت خديجة امرأةً حازمة شريفة لبيبةً ؛ مع ماأراد الله بها من كرامتها . فلما أخبرها مَيسرة بما أخبرها بعثت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت له — فيما يزعمون — يابن عم ! إنى قد رغبت فيك لقرابتك وسطتك[1] فى قومك ، وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك ، ثم عرضت نفسها عليه وكانت أوسط نساء قريش نسباً ، وأعظمهن شرفاً وأكثرهن مالا ؛ كل قومها كان حريصاً على ذلك منها لو يقدر عليه ، فلما قالت ذلك لرسول الله ﷺ ، ذكر ذلك لأعمامه ، فخرج معه عمه حَمزةُ حتى دخل على خويلد بن أسد ، فخطبها إليه فتزوجها عليه الصلاة والسلام[2] . قال ابن هشام : فأصدقها عشرين بكرة ، وكانت أول امرأة تزوجها ، ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت .

قال ابن إسحاق : فولدت لرسول الله ﷺ ولدَه كلَّهم إلا إبراهيم : القاسمَ — وكان به يكنى ، والطيّب ، والطاهر ، وزينب ، ورُقيّة ، وأم كُلثوم ، وفاطمة . قال ابن هشام . أكبر بنيه القاسم . ثم الطيب ، ثم الطاهر . وأكبر بناته رقية ، ثم زينب ، ثم أم كلثوم ، ثم فاطمة .

قال البيهقى عن الحاكم : قرأت بخط أبى بكر بن أبى خيثمة ، حدثنا مصعب بن عبد الله الزبيرى قال : أكبر ولده عليه الصلاة والسلام القاسم ، ثم زينب ، ثم عبد الله ، ثم أم كلثوم ، ثم فاطمة ، ثم رقية . وكان أول من مات من ولده القاسم ، ثم عبد الله . وبلغت خديجة خمساً وستين سنة ، ويقال خمسين وهو أصح . وقال غيره : بلغ القاسم أن يركب الدابة والنجيبة ، ثم مات بعد النبوة ، وقيل مات

---

(١) السلطة : قال السهيلى : هى من الوسط ؛ وهو من أوصاف المدح والتفضيل .

(٢) قيل إن الذى أنكح خديجة — عمها عمرو بن أسد ، والذى نهض مع رسول الله هو عمه أبو طالب .

وهو رضيع ، فقال رسول الله ﷺ : « إن له مرضعاً فى الجنة يستكمل رضاعه » ، والمعروف أن هذا فى حق إبراهيم . وقال يونس بن بكير : حدثنا إبراهيم بن عثمان عن القاسم عن ابن عباس قال : ولدت خديجة لرسول الله ﷺ غلامين وأربع نسوة : القاسم ، وعبد الله ، وفاطمة ، وأم كلثوم ، وزينب ، ورقية . وقال الزبير بن بكار : عبد الله — هو الطيب وهو الطاهر ؛ سمى بذلك لأنه ولد بعد النبوة . قال ابن إسحاق ، فأما القاسم والطيب والطاهر — فماتوا قبل البعثة . وأما بناته فأدركن البعثة ودخلن فى الإسلام وهاجرن معه ﷺ . قال ابن هشام : وأما إبراهيم فأمه مارية القبطية التى أهداها له المقوقس صاحب الإسكندرية من كورة أَنْصِنا[1] وسنتكلم على أزواجه وأولاده عليه الصلاة والسلام فى باب مفرد لذلك فى آخر السيرة إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة .

قال ابن هشام : وكان عمر رسول الله ﷺ حين تزوج خديجة خمساً وعشرين سنة فيما حدثنى غير واحد من أهل العلم ، منهم أبو عمرو المدنى . وقال يعقوب بن سفيان : كتبت عن إبراهيم بن المنذر ، حدثنى عمر بن أبى بكر المؤملى ، حدثنى غير واحد : أن عمرو بن أسد زَوّج خديجة من رسول الله ﷺ وعمره خمساً وعشرين سنة وقريش تبنى الكعبة . وهكذا نقل البيهقى عن الحاكم : أنه كان عمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حين تزوج خديجة خمساً وعشرين سنة ، وكان عمرها إذ ذاك خمساً وثلاثين ، وقيل خمساً وعشرين سنة .

وقال البيهقى : [باب ما كان يشتغل به رسول الله ﷺ قبل أن يتزوج خديجة] أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، أخبرنا أبو بكر بن عبدالله ، أخبرنا الحسن بن سفيان ، حدثنا سويد بن سعيد ، حدثنا عمرو ابن أبى يحيى بن سعيد القرشى عن جده سعيد عن أبى هريرة . قال : قال رسول الله ﷺ : « ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم » . فقال له أصحابه وأنت يارسول الله ؟ قال : «وأنا رعيتها لأهل مكة بالقراريط» . رواه البخارى عن أحمد بن محمد المكى عن عمرو بن يحيى به . ثم روى البيهقى من طريق الربيع بن بدر — وهو ضعيف — عن أبى الزبير عن جابر . قال : قال رسول الله ﷺ : «آجرت نفسى من خديجة سفرتين بقلوص . وروى البيهقى من طريق حماد بن سلمة عن على بن زيد عن عمار بن أبى عمار عن ابن عباس : أن أبا خديجة زوج رسول الله ﷺ وهو — أظنه قال — سكران . ثم قال البيهقى : أخبرنا أبو الحسين بن الفضل القطان أنا عبد الله بن جعفر ، حدثنا يعقوب بن سفيان ، قال حدثنى إبراهيم بن المنذر ، حدثنى عمر ابن أبى بكر المؤملى ، حدثنى عبد الله بن أبى عبيد بن محمد بن عمار بن ياسر عن أبيه عن مقسم بن أبى القاسم — مولى عبد الله بن الحارث بن نوفل — أن عبد الله بن الحارث حدثه أن عمار بن ياسر كان إذا سمع ما يتحدث به الناس عن تزويج رسول الله ﷺ خديجة وما يكثرون فيه يقول : أنا أعلم الناس

---

(١) مدينة أزلية من نواحى الصعيد بشرقى النيل .

بتزويجه إياها ؛ إنى كنت له تربا ، وكنت له إلفاً وخِدنا ، وإنى خرجت مع رسول الله ﷺ ذات يوم ، حتى إذا كنا بالحَزْورة [1] أجزنا على أخت خديجة وهى جالسة على أَدَم [2] تبيعها ، فنادتنى فانصرفت إليها ، ووقف لى رسول الله ﷺ فقالت أما بصاحبك هذا من حاجة فى تزويج خديجة ؟ قال عمار فرجعت إليه فأخبرته فقال : « بلى لعمرى » ، فذكرت لها قول رسول الله ﷺ فقالت : اغدوا علينا إذا أصبحنا ، فغدونا عليهم فوجدناهم قد ذبحوا بقرة وألبسوا أبا خديجة حلة ، وصفرت لحيته ، وكلمت أخاها فكلم أباه وقد سقى خمراً ، فذكر له رسول ﷺ ومكانته وسألته أن يزوجه فزوجه خديجة ، وصنعوا من البقرة طعاماً فأكلنا منه ، ونام أبوها ثم استيقظ صاحياً فقال : ماهذه الحلة ؟ وما هذه الصفرة وهذا الطعام ؟ فقالت له ابنته التى كانت قد كلمت عماراً : هذه حلة كسا كها محمد بن عبد الله ختنك ، وبقرة أهداها لك ، فذبحناها حين زوجته خديجة ، فأنكر أن يكون زوجه ، وخرج يصيح حتى جاء الحجر . وخرج بنو هاشم برسول الله ﷺ فجاءوه فكلموه ، فقال أين صاحبكم الذى تزعمون أنى زوجته خديجة ؟ فبرز له رسول الله ﷺ ، فلما نظر إليه قال : إنى كنت زوجته فسبيل ذاك ، وإن لم أكن فعلت فقد زوجته .

وقد ذكر الزهرى فى سيره : أن أباها زوجها منه وهو سكران ، وذكر نحو ما تقدم ، حكاه السهيلى . قال المؤملى : المجتمع عليه أن عمها عمرو بن أسد هو الذى زوجها منه ، وهذا هو الذى رجحه السهيلى ، وحكاه عن ابن عباس وعائشة . قالت : وكان خويلد مات قبل الفجار ، وهو الذى نازع تبعاً حين أراد أخذ الحجر الأسود إلى اليمن ، فقام فى ذلك خويلد وقام معه جماعة من قريش ، ثم رأى تبع فى منامه ماروعه ، فنزع عن ذلك وترك الحجر الأسود مكانه . وذكر ابن إسحاق فى آخر السيرة : أن أخاها عمرو بن خويلد هو الذى زوجها رسول الله ﷺ فالله أعلم .

فصل [فيما كان بين خديجة وابن عمها ورقة بن نوفل بشأنه عليه السلام]

قال ابن إسحاق : وقد كانت خديجة بنت خويلد ذكرت لوَرَقة بن نَوفل بن أَسَد بن عبد العزى ابن قصى ـ وكان ابن عمها ، وكان نصرانياً قد تَتَبّع الكتب وعَلِم من عِلم الناس ما ذكر لها غلامُها من قول الراهب ، وما كان يرى منه إذ كان الملكان يظلانه ؛ فقال ورَقة : لئن كان هذا حقاً ياخديجة إن محمداً لنبى هذه الأمة ، وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبىّ يُنتظر هذا زمانه ـ أو كما قال ، فجعل ورقة يستبطىء الأمر ويقول : حتى متى ؟ وقال فى ذلك :

لجِجت وكنت فى الذكرى لجوجا ... لِهمّ طالما بعث النَّشيجا
ووصفٍ من خديجة بعد وصف ... فقد طال انتظارى ياخديجا

(١) الحزورة ـ كقسورة : الرابية الصغيرة . (٢) الأدم ـ محركة : التمر البرنى .

ببطن المكّتين على رجائى حديثك أن أرى منه خروجا
بما خَبّرتِنا من قول قَسّ من الرهبانِ أكره أن يعوجا
بأنّ محمداً سيسود قوماً ويَخصِم من يكون له حجيجا
ويُظهر فى البلاد ضياء نور يُقيم به البرية أن تموجا
فَيلقى مَن يحاربه خَساراً ويَلقى من يُسالمه فُلوجا
فياليتى إذا ما كان ذاكم شهدت وكنتُ أولَهم ولوجا
وُلوجاً فى الذى كرهت قريش ولو عَجّت بمكتها عجيجا
أرَجّى بالذى كرهوا جميعاً إلى ذى العرش إن سَفَلوا عُروجا
وهل أمر السّفالة غيرُ كفر بمن يختار من سَمك البروجا
فإن يبقوا وأبقَ تكن أمور يضجُّ الكافرون لها ضجيجا
وإن أهلِكْ فكل فتى سيلقى من الأقدار مُتلِفةً خروجا

وقال ورقة أيضاً فيما رواه يونس بن بكير عن ابن إسحاق عنه :

أتُبكر أم أنت العشية رائح وفى الصدر من إضمارك الحزن قادح
لفُرقة قوم لا أحب فراقَهم كأنك عنهم بعد يومين نازح
وأخبار صدق خبّرت عن محمد يخبرها عنه إذا غاب ناصح
أتاك الذى وجهت ياخير حرة بغور وبالنجدين حيث الصحاصح
إلى سوق بُصرى فى الركاب التى غدت وهنّ من الأحمال قُعص دوالح[1]
فيخبرنا عن كل خير بعلمه وللحق أبواب لهن مفاتح
بأن ابن عبد الله أحمد مرسل إلى كل من ضمت عليه الأباطح
وظنى به أن سوف يبعث صادقاً كما أرسل العبدان هود وصالح
وموسى وإبراهيم حتى يرى له بهاء ومنشور من الذكر واضح
ويتبعه حيًّا لؤى وغالب شبابهم والأشيبون الجحاجح
فإن أبق حتى يدرك الناس دهره فإنى به مستبشر الود فارح
وإلا فإنى يا خديجة فاعلمى عن أرضك فى الأرض العريضة سائح

وزاد الأموى : فمتبع دين الذى أسس البنا وكان له فضل على الناس راجح

---

(١) القعوص : التى تضرب حالبها وتمنع الدرة . ودلح : مشى بحمله منقبض الخطو لثقله .

وأسس بنيانا بمكة ثابتاً تلألأ فيه بالظلام المصابح
مثاباً لأفناء القبائل كلها تخب إليه اليعملات الطلائح
حراجيج[1] أمثال القداح من السرى يعلق فى أرساغهن السرايح

ومن شعره فيما أورده أبو القاسم السهيلى فى روضه :

لقد نصحت لأقوام وقلت لهم أنا النذير فلا يغرركم أحد
لا تعبدن إلهاً غير خالقكم فإن دعوكم فقولوا بيننا حدد
سبحان ذى العرش سبحاناً يدوم له وقبلنا سبح الجودى والجمد
مسخر كل ما تحت السماء له لا ينبغى أن يناوى ملكه أحد
لا شىء مما نرى تبقى بشاشته يبقى الآله ويودى المال والولد
لم تغن عن هرمز يوماً خزائنه والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا
ولا سليمان إذ تجرى الرياح به والجن والإنس فيما بينها مرد
أين الملوك التى كانت لعزتها من كل أوب إليها وافد يفد ؟
حوض هنالك مورود بلا كذب لا بد من ورده يوماً كما وردوا

ثم قال : هكذا نسبه أبو الفرج إلى ورقة ، قال : وفيه أبيات تنسب إلى أمية بن أبى الصلت .

قلت : وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ أنه كان يستشهد فى بعض الأحيان بشىء من هذه الأبيات ، والله أعلم .

(فصل) فى تجديد قريش بناء الكعبة قبل المبعث بخمس سنين

ذكر البيهقى بناء الكعبة قبل تزويجه عليه الصلاة والسلام خديجة . والمشهور أن بناء قريش الكعبة كان بعد تزويج خديجة كما ذكرناه بعشر سنين . ثم شرع البيهقى فى ذكر بناء الكعبة فى زمن إبراهيم كما قدمناه فى قصته ، وأورد حديث ابن عباس المتقدم فى صحيح البخارى ، وذكر ما ورد من الإسرائيليات فى بنائه فى زمن آدم . ولا يصح ذلك ؛ فإن ظاهر القرآن يقتضى أن إبراهيم أول من بناه مبتدئاً وأول من أسسه ، وكانت بقعته معظمة قبل ذلك معتنى بها ، مشرفة فى سائر الأعصار والأوقات قال الله تعالى : (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين * فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ، ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا[2]) ، وثبت فى الصحيحين

(١) الحراجيج . جمع حرجيج ، وهى الناقة الطويلة .
(٢) الآيتان ، ٩٦ ، ٩٧ من سورة آل عمران .

عن أبي ذر قال : قلت يا رسول الله ، أى مسجد وضع أول ؟ قال : « المسجد الحرام » ، قلت ثم أى ؟ قال : « المسجد الأقصى » ، قلت كم بينهما ؟ قال : « أربعون سنة » . وقد تكلمنا على هذا فيما تقدم ، وأن المسجد الأقصى أسسه إسرائيل وهو يعقوب عليه السلام . وفى الصحيحين : « أن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامه » ، وقال البيهقى : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، حدثنا أبو عبد الله الصفار ، حدثنا أحمد بن مهران ، حدثنا عبيد الله ، حدثنا إسرائيل عن أبى يحيى عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو قال : كان البيت قبل الأرض بألفى سنة ، (وإذا الأرض مدت[1]) قال من تحته مدت . قال وقد تابعه منصور عن مجاهد .

قلت : وهذا غريب جداً ، وكأنه من الزاملتين اللتين أصابهما عبد الله بن عمرو يوم اليرموك ، وكان فيهما إسرائيليات يحدث منها ، وفيهما منكرات وغرائب .

ثم قال البيهقى : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، أخبرنا أبو جعفر محمد بن محمد بن عبد الله البغدادى ، حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح ، حدثنا أبو صالح الجهنى ، حدثنى ابن لهيعة عن يزيد بن أبى الخير عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : « بعث الله جبريل إلى آدم وحواء فقال لهما ابنيا لى بيتاً ، فخط لهما جبريل فجعل آدم يحفر وحواء تنقل ، حتى أجابه الماء ، فنودى من تحته حسبك ياآدم ، فلما بنياه أوحى الله تعالى إليه أن يطوف به ؛ وقيل له أنت أول الناس ، وهذا أول بيت ، ثم تناسخت القرون حتى حجه نوح ، ثم تناسخت القرون حتى رفع إبراهيم القواعد منه » . قال البيهقى : تفرد به ابن لهيعة هكذا مرفوعاً . قلت : وهو ضعيف ، ووقفه على عبد الله بن عمرو أقوى وأثبت ، والله أعلم .

وقال الربيع : أنبأنا الشافعى ، أنبأنا سفيان عن ابن أبى لبيد عن محمد بن كعب القرظى – أو غيره – قال ، حج آدم فلقيته الملائكة ، فقالوا بر نسكك يا آدم ؛ لقد حججنا قبلك بألفى عام . وقال يونس بن بكير عن ابن إسحاق ، حدثنى بقية – أو قال ثقة – من أهل المدينة ، عن عروة بن الزبير أنه قال ، ما من نبى إلا وقد حج البيت إلا ما كان من هود وصالح . قلت : وقد قدمنا حجهما إليه . والمقصود الحج إلى محله وبقعته وإن لم يكن ثم بناء ، والله أعلم . ثم أورد البيهقى حديث ابن عباس المتقدم فى قصة إبراهيم عليه السلام بطوله وتمامه وهو فى صحيح البخارى . ثم روى البيهقى من حديث سماك بن حرب عن خالد بن عرعرة قال : سأل رجل علياً عن قوله تعالى : (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكه مباركاً وهدى للعالمين) أهو أول بيت بنى فى الأرض ؟ قال لا – ولكنه أول بيت وضع فيه البركة للناس والهدى ومقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً . وإن شئت نبأتك كيف بناؤه ؛ إن الله تعالى أوحى إلى إبراهيم أن

---

(١) أول سورة الانشقاق .

ابن لى بيتاً فى الأرض ، فضاق به ذرعا ، فأرسل إليه السكينة وهى ريح خجوج لها رأسان ، فأتبع أحدهما صاحبه حتى انتهت إلى مكة ، ثم تطوقت[1] فى موضع البيت تطوق الحية ، فبنى إبراهيم حتى بلغ مكان الحجر ، فقال لابنه أبغنى حجراً ، فالتمس حجراً حتى أتاه به ، فوجد الحجر الأسود قد ركب فى مكانه ، فقال لأبيه : من أين لك هذا ؟ قال : جاء به من لا يتكل على بنائك ؛ جاء به جبريل من السماء فأتماه . قال : فمر عليه الدهر فانهدم فبنته العمالقة ، ثم انهدم فبنته جرهم ، ثم انهدم فبنته قريش ورسول الله ﷺ يومئذ رجل شاب .

فلما أرادوا أن يرفعوا الحجر الأسود اختصموا فيه ؛ فقالوا نحكم بيننا أول رجل يخرج من هذه السكة ، فكان رسول الله ﷺ أول من خرج عليهم ، فقضى بينهم أن يجعلوه فى مرط ثم ترفعه جميع القبائل كلهم . وقال أبوداود الطيالسى : حدثنا حماد بن سلمة وقيس وسلام ـ كلهم عن سماك بن حرب ـ عن خالد بن عرعرة عن على بن أبى طالب قال : لما انهدم البيت بعد جرهم بنته قريش ، فلما أرادوا وضع الحجر تشاجروا من يضعه ؟ فاتفقوا أن يضعه أول من يدخل من هذا الباب ، فدخل رسول الله ﷺ من باب بنى شيبة : فأمر بثوب فوضع الحجر فى وسطه ، وأمر كل فخذ أن يأخذوا بطائفة من الثوب فرفعوه ، وأخذه رسول الله ﷺ فوضعه . قال يعقوب بن سفيان : أخبرنى أصبغ بن فرج ، أخبرنى ابن وهب عن يونس عن ابن شهاب قال : لما بلغ رسول الله ﷺ الحلم جمرت امرأة الكعبة ، فطارت شرارة من مجمرها فى ثياب الكعبة فاحترقت فهدموها ، حتى إذا بنوها ، وبلغوا موضع الركن اختصمت قريش فى الركن ، أى القبائل تلى رفعه ؟ فقالوا : تعالوا نحكم أول من يطلع علينا ، فطلع عليهم رسول الله ﷺ وهو غلام عليه وشاح نمرة[2] فحكموه فأمر بالركن فوضع فى ثوب ، ثم أخرج سيد كل قبيلة فأعطاه ناحية من الثوب ، ثم ارتقى هو فرفعوا إليه الركن ، فكان هو يضعه . فكان لا يزداد على السن إلا رضى ، حتى دعوه الأمين قبل أن ينزل عليه الوحى ، فطفقوا لا ينحرون جزوراً إلا التمسوه فيدعولهم فيها . وهذا سياق حسن ، وهو من سير الزهرى ، وفيه من الغرابة قوله : فلما بلغ الحلم . والمشهور أن هذا كان ورسول الله ﷺ عمره خمس وثلاثون سنة ، وهو الذى نص عليه محمد بن إسحاق بن يسار رحمه الله .

وقال موسى بن عقبة : كان بناء الكعبة قبل المبعث بخمس عشرة سنة ، وهكذا قال مجاهد ، وعروة ، ومحمد بن جبير بن مطعم ، وغيرهم ، فالله أعلم . وقال موسى بن عقبة : كان بين الفجار وبين بناء الكعبة خمس عشرة سنة . قلت : وكان الفجار وحلف الفضول فى سنة واحدة ؛ إذ كان عمر رسول الله ﷺ عشرون سنة . وهذا يؤيد ماقاله محمد بن إسحاق ، والله أعلم .

قال موسى بن عقبة : وإنما حمل قريشاً على بنائها ـ أن السيول كانت تأتى من فوقها ؛ من فوق

(١) وروى : تطوت كتطوى الحية (٢) النمرة : شملة فيها خطوط بيض وسود .

الردم الذى وصفوه نخربه ، نخافوا أن يدخلها الماء . وكان رجل يقال له مليح سرق طيب الكعبة ، فأرادوا أن يشيدوا بنيانها وأن يرفعوا بابها حتى لايدخلها إلا من شاءوا ، فأعدا لذلك نفقة وعمالاً ، ثم غدوا إليها ليهدموها على شفق وحذر أن يمنعهم الذى أرادوا . فكان أول رجل طلعها وهدم منها شيئاً — الوليد بن المغيرة ، فلما رأوا الذى فعل الوليد تتابعوا فوضعوها فأعجبهم ذلك ، فلما أرادوا أن يأخذوا فى بنيانها أحضروا عمالهم ، فلم يقدر رجل منهم أن يمضى أمامه موضع قدم . فزعموا أنهم رأوا حية قد أحاطت بالبيت رأسها عند ذنبها ، فأشفقوا منها شفقة شديدة ، وخشوا أن يكونوا قد وقعوا مما عملوا فى هلكة . وكانت الكعبة حرزهم ومنعتهم من الناس وشرفاً لهم ، فلما سقط فى أيديهم والتبس عليهم أمرهم — قام فيهم المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ، فذكر ما كان من نصحه لهم ، وأمره إياهم أن لايتشاجروا ولا يتحاسدوا فى بنائها ، وأن يقتسموها أرباعاً ، وأن لا يدخلوا فى بنائها مالاً حراماً . وذكر أنهم لما عزموا على ذلك ذهبت الحية فى السماء وتغيبت عنهم ، ورأوا أن ذلك من الله عز وجل قال : ويقول بعض الناس إنه اختطفها طائر وألقاها نحو أجياد .

وقال محمد بن إسحاق بن يسار : فلما بلغ رسول الله ﷺ خمساً وثلاثين سنة اجتمعت قريش لبناء الكعبة ، وكانوا يهمون بذلك ليسقفوها ويهابون هدمها ، وإنما كانت رضماً فوق القامة ، فأرادوا رفعها وتَسقيفها ، وذلك أن نفراً سرقوا كنزاً للكعبة ، وإنما كان يكون فى بئر فى جوف الكعبة ، وكان الذى وُجد عنده الكنز دُويكاً مولى لبنى مَليح بن عمرو من خزاعة ، فقطعت قريش يده ، وتزعم قريش أن الذين سرقوه وضعوه عند دويك . وكان البحر قد رمى بسفينة إلى جُدّة لرجل من تجار الروم ، فتحطمت ، فأخذوا خشبها فأعدوه لتسقيفها . قال الأموى : كانت هذه السفينة لقيصر ملك الروم ، تحمل آلات البناء من الرخام والخشب والحديد ، سرحها قيصر مع باقوم الرومى إلى الكنيسة التى أحرقها الفرس للحبشة ، فلما بلغت مرساها من جدة بعث الله عليها ريحاً فحطمتها .

قال ابن إسحاق : وكان بمكة رجل قِبطى نجار ، فتهيأ لهم فى أنفسهم بعضُ مايصلحها . وكانت حَيّة تخرج من بئر الكعبة التى كان يطرح فيها مايهدى إليها كل يوم فتتشرق[1] على جدار الكعبة وكانت مما يهابون ، وذلك أنه كان لايدنو منها أحد إلا احزَألّت وكشت[2] وفتحت فاها ، فكانوا يهابونها ، فبينما هى يوماً تتشرق على جدار الكعبة كما كانت تصنع ، بعث الله عليها طائراً فاختطفها فذهب بها . فقالت قريش : إنا لنرجو أن يكون الله تعالى قد رضى ما أردنا ؛ عندنا عامل رقيق وعندنا خشب ، وقد كفانا الله الحية .

---

(١) أى تقعد عند الشروق فى موضع الشمس ، وروى : فتشرف .

(٢) احزألت : أى رفعت رأسها وانضمت واستوفزت للوثوب . وكشت : أى صوتت باحتكاك بعض جلدها ببعض .

وحكى السهيلى : عن رزين ـ أن سارقاً دخل الكعبة فى أيام جرهم ليسرق كنزها ، فانهار البئر عليه ، حتى جاءوا فأخرجوه وأخذوا منه ما كان أخذه . ثم سكنت هذا البئر حية رأسها كرأس الجدى ، و بطنها أبيض وظهرها أسود ، فأقامت فيها خمسمائة عام ، وهى التى ذكرها محمد بن إسحاق .

قال محمد بن إسحاق : فلما أجمعوا أمرهم فى هدمها وبنيانها ، قام أبو وهب بن عمرو بن عائذ بن عبد بن عمران بن مخزوم ـ وقال ابن هشام عائذ بن عمران بن مخزوم ـ فتناول من الكعبة حجراً فوثب من يده حتى رجع إلى موضعه ، فقال : يامعشر قريش ! لاتدخلوا فى بنيانها من كسبكم إلا طيباً . لايدخل فيها مهر بغى ولا بيع ربا ، ولا مظلمة أحد من الناس . والناس ينحلون هذا الكلام الوليد بن المغيرة ابن عبد الله بن عمر بن مخزوم . ثم رجح ابن إسحاق أن قائل ذلك أبو وهب بن عمرو ، قال : وكان خال أبى النبى ﷺ وكان شريفاً ممدحاً .

وقال ابن إسحاق : ثم إن قريشاً جزّأت[1] الكعبة ؛ فكان شق الباب لبنى عبد مناف وزُهرة. وما بين الركن الأسود والركن اليمانى لبنى مخزوم وقبائل من قريش انضموا إليهم . وكان ظهر الكعبة لبنى جُمح وَسهم وكان شق الحجر لبنى عبد الدار بن قصى ولبنى أسد بن عبد العزّى ، ولبنى عدى ابن كعب ـ وهو الحطيم . ثم إن الناس هابوا هدمها وفَرِقوا منه ؛ فقال الوليد بن المغيرة : أنا أبدؤكم فى هدمها ، فأخذ المعول ثم قام عليها وهو يقول : اللهم لم ترع ، اللهم إنا لانريد إلا الخير ، ثم هدم من ناحية الركنين . فتربص الناس تلك الليلة ، وقالوا : ننظر ؛ فإن أصيب لم نهدم منها شيئاً ورددناها كما كانت ، وإن لم يصبه شىء فقد رضى الله ماصنعنا من هدمها . فأصبح الوليد غادياً على عمله ، فهدَم وهدَم الناس معه ، حتى إذا انتهى الهدم بهم إلى الأساس ـ أساس إبراهيم عليه السلام ـ أفضَوا إلى حجارة خضر كالأسنمة[2] آخذ بعضُها بعضاً . ووقع فى صحيح البخارى عن يزيد بن رومان ـ كأسنمة الأبل ، قال السهيلى : وأرى رواية السيرة كالألسنة وهماً ، والله أعلم .

قال ابن إسحاق : فحدثنى بعض من يروى الحديث ، أن رجلا من قريش ممن كان يهدمها ، أدخل عَتلةً بين حجرين منها ليقلع بها أحدهما ، فلما تحرك الحجر انتفضت[3] مكة بأسرها ، فانتهوا عن ذلك الأساس . وقال موسى بن عقبة : وزعم عبد الله بن عباس أن أولية قريش كانوا يحدثون أن رجلا من قريش ، لما اجتمعوا لينزعوا الحجارة إلى تأسيس إبراهيم و إسماعيل عليهما السلام ـ عمد إلى حجر من الأساس الأول فرفعه ، وهو لايدرى أنه من الأساس الأول ، فأبصر القوم برقة تحت الحجر كادت تلتمع[4] بصر الرجل ، ونزا الحجر من يده فوقع فى موضعه ، وفزع الرجل والبناة . فلما ستر الحجر عنهم ماتحته إلى مكانه ، عادوا إلى بنيانهم وقالوا لاتحركوا هذا الحجر ولا شيئاً بحذائه .

(١) فى نسخة : تجزأت .

(٢) فى رواية : كالأسنة ـ جمع سنان (٣) يريد : اهتزت (٤) أى تخطفه وتذهب به

قال ابن إسحاق : وحدثت أن قريشاً وجدوا فى الركن كتاباً بالسريانية فلم يعرفوا ماهو، حتى قرأه لهم رجل من يهود ، فإذا هو « أنا الله ذو بكّة ، خلقتها يوم خلقت السموات والأرض ، وصورتُ الشمس والقمر ، وحففتها بسبعة أملاك حُنفاء ، لاتزول حتى يزول أخشباها — قال ابن هشام « يعنى جبلاها ــ مبارك لأهلها فى الماء واللبن .

قال ابن إسحاق : وحُدّثت أنهم وجدوا فى المقام كتاباً فيه : مكة بيت الله الحرام ، يأتيها رزقها من ثلاثة سبل ، لايُحلّها أولُ مِن أهلها . قال : وزعم ليث بن أبى سليم أنهم وجدوا حجراً فى الكعبة قبل مبعث النبى ﷺ بأربعين سنة ــ إن كان ماذكر حقاً ــ مكتوباً فيه : من يزرع خيراً يحصد غبطة « ومن يزرع شراً يحصد ندامة . تعملون السيئات وتجزون الحسنات ! أجل ، كما لايجتنى من الشوك العنب .

وقال سعيد بن يحيى الأموى : حدثنا المعتمر بن سليمان الرقى عن عبد الله بن بشر الزهرى — يرفع الحديث إلى النبى ﷺ ــ قال : « وجد فى المقام ثلاثة أصفح ؛ فى الصفح الأول « إنى أنا الله ذو بكّة ، صنعتها يوم صنعت الشمس والقمر وحففتها بسبعة أملاك حنفاء ، وباركت لأهلها فى اللحم واللبن . وفى الصفح الثانى : إنى أنا الله ذوبكّة ، خلقت الرحم وشققت لها من اسمى ؛ فمن وصلها وصلته ومن قطعها بتته . وفى الصفح الثالث : إنى أنا الله ذوبكه ، خلقت الخير والشر وقدرته ، فطوبى لمن أجريت الخير على يديه ، وويل لمن أجريت الشر على يديه .

قال ابن إسحاق : ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها ، كلّ قبيلة تجمع على حدة . ثم بَنوها حتى بلغ البناء موضع الرُّكن فاختصموا فيه ؛ كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى ، حتى تَحاوروا وتحالفوا وأعدوا للقتال ، فقرّبت بنو عبد الدار جفنة مملوءةً دماً ، ثم تعاقدوا هم وبنو عدى ابن كعب بن لُؤى على الموت ، وأدخلوا أيديهم فى ذلك الدم فى تلك الجفنة . فسموا « لعَقة الدم » . فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمساً ، ثم إنهم اجتمعوا فى المسجد « وتشاوروا وتناصفوا ؛ فزعم بعض أهل الرواية : أن أبا أميّة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ــ وكان عامئذ أسن قريش كلها ــ قال : يا معشر قريش ، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أوّلَ من يدخل من باب[1] هذا المسجد يقضى بينكم فيه ، ففعلوا . فكان أول داخل دخل رسول الله ﷺ . فلما رأوه قالوا : هذا الأمين رضيناه « هذا محمد . فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر، قال رسول الله ﷺ: « هلموا إلى ثوباً » ، فأتى به ، فأخذ الركن فوضعه فيه بيده ثم قال : « لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعاً ، ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده ﷺ ، ثم بنى عليه . وكانت قريش تسمى رسول الله ﷺ ــ الأمين .

(١) قيل هو : باب بنى شيبة ، وكان يقال له فى الجاهلية : باب بنى عبد شمس ، ويقال له الآن : باب السلام .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا ثابت - يعنى أبا يزيد - حدثنا هلال - يعنى ابن حبان - عن مجاهد عن مولاه - وهو السائب بن عبد الله ، أنه حدثه : أنه كان فيمن بنى الكعبة فى الجاهلية قال : وكان لى حجر ، أنا نحته أعبده من دون الله ، قال : وكنت أجيء باللبن الخاثر الذى آنفه على نفسى فأصبه عليه ، فيجيء الكلب فيلحسه ، ثم يشغر[1] فيبول عليه . قال : فبنينا حتى بلغنا موضع الحجر ولا يرى الحجر أحد ، فإذا هو وسط أحجارنا مثل رأس الرجل ، يكاد يتراءى منه وجه الرجل . فقال بطن من قريش : نحن نضعه ، وقال آخرون نحن نضعه . فقالوا اجعلوا بينكم حكما ، فقالوا أول رجل يطلع من الفج . فجاء رسول الله ﷺ فقالوا أتاكم الأمين ، فقالوا له : فوضعه فى ثوب ، ثم دعا بطونهم فرفعوا نواحيه فوضعه هو صلى الله عليه وسلم .

قال ابن إسحاق : وكانت الكعبة على عهد النبى ﷺ ثمانىَ عشرةَ ذراعاً . وكانت تُكسى القَباطِى[2] ، ثم كسيت بعد البرود . وأول من كساها الديباجَ الحجاج بن يوسف .

قلت : وقد كانوا أخرجوا منها الحجر - وهو ستة أذرع أو سبعة أذرع من ناحية الشام - حين قصرت بهم النفقة ، أى لم يتمكنوا أن يبنوه على قواعد إبراهيم . وجعلوا للكعبة بابا واحداً من ناحية الشرق ، وجعلوه مرتفعاً لئلا يدخل إليها كل أحد ، فيدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا . وقد ثبت فى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال لها : « ألم ترَىْ أن قومك قصرت بهم النفقة ، ولولا حِدثان قومك بكفر لنقضت الكعبة وجعلت لها باباً شرقياً غربياً ، وأدخلت فيها الحجر » . ولهذا لما تمكن ابن الزبير بناها على ما أشار إليه رسول الله ﷺ ، وجاءت فى غاية البهاء والحسن والسناء ؛ كاملة على قواعد الخليل ؛ لها بابان ملتصقان بالأرض شرقياً وغربياً ؛ يدخل الناس من هذا ويخرجون من الآخر . فلما قتل الحجاج ابن الزبير كتب إلى عبد الملك بن مروان - وهو الخليفة يومئذ - فيما صنعه ابن الزبير ، واعتقدوا أنه فعل ذلك من تلقاء نفسه ، فأمر بإعادتها إلى ما كانت عليه ؛ فعمدوا إلى الحائط الشامى فحصوه وأخرجوا منه الحجر ، ورصوا حجارته فى أرض الكعبة فارتفع باباها ، وسدوا الغربى . واستمر الشرقى على ما كان عليه . فلما كان فى زمن المهدى - أو ابنه المنصور - استشار مالكا فى إعادتها على ما كان صنعه ابن الزبير ، فقال مالك رحمه الله : إنى أكره أن يتخذها الملوك ملعبة ، فتركها على ما هى عليه ، فهى إلى الآن كذلك .

وأما المسجد الحرام : فأول من أخر البيوت من حول الكعبة - عمر بن الخطاب رضى الله عنه ؛ اشتراها من أهلها وهدمها . فلما كان عثمان اشترى دوراً وزادها فيه . فلما ولى ابن الزبير أحكم بنيانه

---

(١) قال فى القاموس : شغر الكلب : رفع إحدى رجليه بال أو لم يبل - أو فبال (٢) قال فى اللسان : القبطية ثياب كتان بيض رقاق تعمل بمصر . وهي منسوبة إلى القبط - وهم جيل بمصر - على غير قياس ، والجمع قباطي .

وحسن جدرانه وأكثر أبوابه ، ولم يوسعه شيئاً آخر . فلما استبد بالأمر عبد الملك بن مروان زاد فى ارتفاع جدرانه وأمر بالكعبة فكسيت الديباج . وكان الذى تولى ذلك بأمره ـ الحجاجُ بن يوسف . وقد ذكرنا قصة بناء البيت والأحاديث الواردة فى ذلك فى تفسير سورة البقرة عند قوله : (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل[1]) ، وذكرنا ذلك مطولا مستقصى ، فمن شاء كتبه هاهنا ، ولله الحمد والمنة .

قال ابن إسحاق : فلما فرغوا من البنيان و بنوها على ما أرادوا ـ قال الزُّبير بن عبد المطلب ، فيما كان من أمر الحية التى كانت قريش تهاب بنيان الكعبة لها :

عجبت لما تصوَّبت العُقاب ... إلى الثعبان وهى لها اضطراب
وقد كانت يكون لها كَشِيش ... وأَحياناً يكون لها وِثاب
إذا قمنا إلى التأسيس شَدّت ... تُهيِّبنا البناء وقد تهاب
فلما أن خشينا الرِّجز جاءت ... عُقاب تَتلئِب لها انصباب
فضمّتها إليها ثم خلّت ... لنا البنيان ليس له حجاب
فقمنا حاشدين إلى بناء ... لنا منه القواعد والتراب
غداةَ نُرفع التأسيس منه ... وليس على مسوّينا[2] ثياب
أعزّ به المليك بنى لُؤى ... فليس لأصله منهم ذهاب
وقد حَشدت هناك بنو عدى ... ومُرّة قد تقدمها كلاب
فبوّأنا المليكُ بذاك عزاً ... وعند الله يُلتمس الثواب

وقد قدمنا فى فصل ما كان الله يحوط به رسوله ﷺ من أقذار الجاهلية ، أنه كان هو والعباس عمه ينقلان الحجارة ، وأنه عليه الصلاة والسلام لما وضع إزاره تحت الحجارة على كتفه ، نهى عن خلع إزاره ، فأعاده إلى سيرته الأولى .

فصل [فى الحمس]

وذكر ابن إسحاق ما كانت قريش ابتدعوه فى تسميتهم الحُمْسْ ، وهو الشّدة فى الدين والصلابة ؛ وذلك لأنهم عظّموا الحرم تعظيماً زائداً ؛ بحيث التزموا بسببه أن لا يخرجوا منه ليلة عرفة . وكانوا يقولون : نحن أبناء الحرم وقُطّان بيت الله ، فكانوا لا يقفون بعرفات مع علمهم أنها من مشاعر إبراهيم عليه السلام ، حتى لا يخرجوا عن نظام ما كانوا قرروه من البدعة الفاسدة . وكانوا لا يدخرون من اللبن

(١) الآية : ١٢٧ من سورة البقرة . (٢) ويروى : على مساوينا ثياب .

أقِطًا (١) ولا سمناً ولا يسلون شحماً وهم حرم ولا يدخلون بيتاً من شعر ولا يستظلون ـ إن استظلوا ـ إلاّ ببيت من أدَم . وكانوا يمنعون الحجيج والعمّار ـ ما داموا محرمين ـ أن يأكلوا إلا من طعام قريش ، ولا يطوفوا إلا فى ثياب قريش ، فإن لم يجد أحد منهم ثوب أحد من الحُمس ـ وهم قريش وما ولدوا ومن دخل معهم من كنانة وخزاعة ـ طاف عرياناً ، ولو كانت امرأة ، ولهذا كانت المرأة إذا اتفق طوافها لذلك ـ وضعت يدها على فرجها وتقول :

اليومَ يبدو بَعضُه أو كُلّه وبعد هذا اليوم لا أُحلّه (٢)

فإن تكرّم أحد ممن يجد ثوب أحمسى ـ فطاف فى ثياب نفسه ـ فعليه إذا فرغ من الطواف أن يلقيها فلا ينتفع بها بعد ذلك ، وليس له ولا لغيره أن يمسها ، وكانت العرب تسمى تلك الثياب اللَّقى قال بعض الشعراء :

كفى حَزَنا كرّى عليه كأنه لقًى بين أيدى الطائفين حريم

قال ابن إسحاق : فكانوا كذلك حتى بعث الله محمداً ﷺ وأنزل عليه القرآن رداً عليهم فيما ابتدعوه ، فقال : (ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس) أى جمهور العرب من عرفات ، (واستغفروا الله إن الله غفور رحيم (٣)) . وقد قدمنا أن رسول الله ﷺ كان يقف بعرفات قبل أن ينزل عليه توفيقاً من الله له ، وأنزل الله عليه رداً عليهم فيما كانوا حرموا من اللباس والطعام على الناس : (يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ۞ قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق . . . الآية (٤)) . وقال زياد البكائى عن ابن إسحاق : ولا أدرى أكان ابتداعهم لذلك قبل الفيل أو بعده .

كتاب مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكر شىء من البشارات بذلك

قال محمد بن إسحاق رحمه الله : وكانت الأحبار من اليهود ، والكهان من النصارى ومن العرب ـ قد تحدثوا بأمر رسول الله ﷺ قبل مبعثه ؛ لما تقارب زمانه . أما الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى فعماً وجدوا فى كتبهم من صفته وصفة زمانه ، وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه . قال الله تعالى : (الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل . . . الآية (٥))

---

(١) قال فى اللسان : الأقط — مثلثة : شىء يتخذ من اللبن المخيض يطبخ ثم يترك حتى يمصل .

(٢) فى ابن هشام : وما بدا منه فلا أحله . (٣) الآية : ١٩٩ من سورة البقرة .

(٤) الآيتان : ٣١ ، ٣٢ من سورة الأعراف .

(٥) الآية : ١٥٧ من سورة الأعراف .

وقال الله تعالى : (وإذ قال عيسى بن مريم يابنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدى من التوراة ، ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد[1]) ،وقال الله تعالى : (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رُحماء بينهم تراهم ركعاً سُجداً يبتغون فضلا من الله ورضواناً ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة ، ومثلهم فى الإنجيل . . . الآية[2]) . وقال الله تعالى : (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى ؟ قالوا أقررنا، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين[3]) . وفى صحيح البخارى عن ابن عباس قال : « ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق ؛ لئن بعث محمد وهو حى ليؤمنن به ولينصرنه ، وأمره أن يأخذ على أمته الميثاق؛ لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه وليتبعنه » . يعلم من هذا أن جميع الأنبياء بشروا وأمروا باتباعه . وقد قال إبراهيم عليه السلام فيما دعا به لأهل مكة : (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك . . . الآية[4]) .

وقال الإمام أحمد . حدثنا أبو النضر،حدثنا الفرج بن فضالة ، حدثنا لقمان بن عامر،سمعت أبا أمامة قال : قلت يارسول الله ! ما كان بدء أمرك ؟ قال : « دعوة أبى إبراهيم ، وبشرى عيسى ، ورأت أمى أنه يخرج منها نور أضاءت له قصور الشام » . وقد روى محمد بن إسحاق عن ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ عنه مثله . ومعنى هذا أنه أراد بدء أمره بين الناس واشتهار ذكره وانتشاره ؛ فذكر دعوة إبراهيم الذى تنسب إليه العرب ، ثم بشرى عيسى الذى هو خاتم أنبياء بنى إسرائيل كما تقدم وهذا يدل على أن من بينهما من الأنبياء بشروا به أيضاً .

أما فى الملأ الأعلى فقد كان أمره مشهوراً مذكوراً معلوماً من قبل خلق آدم عليه الصلاة والسلام . كما قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدى ، حدثنا معاوية بن صالح عن سعيد بن سويد الكلبى، عن عبد الأعلى بن هلال السلمى عن العرباض بن سارية ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنى عبد الله خاتم النبيين ، و إن آدم لمنجدل فى طينته ، وسأنبئكم بأول ذلك ؛ دعوة أبى إبراهيم ، و بشارة عيسى بى، ورؤيا أمى التى رأت ، وكذلك أمهات المؤمنين » . وقد رواه الليث عن معاوية بن صالح وقال : إن أمه رأت حين وضعته نوراً أضاءت منه قصور الشام . وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا منصور بن سعد عن بديل بن ميسرة عن عبد الله بن شقيق عن ميسرة الفجر قال : قلت يارسول الله ، متى كنت نبياً ؟ قال : « وآدم بين الروح والجسد » . تفرد به أحمد .

---

(١) الآية : ٦ من سورة الصف . (٢) آخر سورة الفتح .

(٣) الآية : ٨١ من سورة آل عمران . (٤) الآية : ١٢٩ من سورة البقرة .

وقد رواه عمر بن أحمد بن شاهين فى كتاب دلائل النبوة من حديث أبى هريرة فقال : حدثنا عبد الله بن محمد بن عبد العزيز - يعنى أبا القاسم البغوى - حدثنا أبو همام الوليد بن مسلم عن الأوزاعى ، حدثنى يحيى عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم - متى وجبت لك النبوة ؟ قال : « بين خلق آدم ونفخ الروح فيه » . ورواه من وجه آخر عن الأوزاعى به » وقال : « وآدم منجدل فى طينته » . وروى عن البغوى أيضاً عن أحمد بن المقدام عن بقية بن سعيد بن بشير عن قتادة عن أبى هريرة - مرفوعاً - فى قول الله تعالى : (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح[1]) » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كنت أول النبيين فى الخلق وآخرهم فى البعث » . ومن حديث أبى مزاحم عن قيس بن الربيع عن جابر عن الشعبى عن ابن عباس » قيل : يارسول الله متى كنت نبياً ؟ قال : « وآدم بين الروح والجسد » .

وأما الكهان من العرب فأتتهم به الشياطين من الجن مما تسترق من السمع ؛ إذ كانت وهى لا تُحجَب عن ذلك بالقذف بالنجوم » وكان الكاهن والكاهنة لايزال يقع منهما ذكر بعض أموره ، ولا تُلقِى العرب لذلك فيه بالاً ، حتى بعثه الله تعالى ، ووقعت تلك الأمور التى كانوا يذكرون فعرفوها » فلما تقارَب أمرُ رسول الله ﷺ وحضر زمان مبعثه - حجبت الشياطين عن السمع » وحيل بينها وبين المقاعد التى كانت تقعد لاستراق السمع فيها ، فرُموا بالنجوم ، فعرفت الشياطين أن ذلك لأمرٍ حدَث من أمر الله عز وجل . قال : وفى ذلك أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم : (قل أوحى إلىَّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجباً ﴿ يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً[2]) إلى آخر السورة . وقد ذكرنا تفسير ذلك كله فى كتابنا التفسير ، وكذا قوله تعالى : (وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا أنصتوا ، فلما قضى ولّوا إلى قومهم منذرين ﴿ قالوا ياقومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم - الآيات[3]) ، وقد ذكرنا تفسير ذلك كله هناك .

قال محمد بن إسحاق : حدثنى يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس - أنه حدث : أن أول العرب فَزِع للرمى بالنجوم حين رمى بها - هذا الحى من ثقيف ، وأنهم جاءوا إلى رجل منهم يقال له عمرو ابن أمية - أحد بنى عِلاج ، وكان أدهى العرب وأمكرها ، فقالوا له : ياعمرو ! ألم تر ماحدث فى السماء من القذف بهذه النجوم ؟ قال بلى ؛ فانظروا فإن كانت معالم النجوم التى يهتدى بها فى البر والبحر ، وتعرف بها الأنواء من الصيف والشتاء ، لما يصلح الناس فى معايشهم - هى التى يرمى بها ، فهو والله طى

(١) الآية : ٧ من سورة الأحزاب (٢) الآيتان : من أول سورة الجن .
(٣) الآيتان : ٢٩ ، ٣٠ من سورة الأحقاف .

الدنيا ، وهلاك هـذا الخلق ، و إن كانت نجوماً غيرها وهى ثابتة على حالها ـ فهذا لأمرٍ أراد الله به هذا الخلق ، فما هو ؟ .

قال ابن إسحاق : وحدثنى بعض أهل العلم : أن امرأة من بنى سهم ـ يقال لها الغيطلة ـ كانت كاهنة فى الجاهلية ، جاءها صاحبها ليلةً من الليالى ، فانقض تحتها ، ثم قال : أَدْر ماأَدْر؛ يوم عَقْر ونَحر، فقالت قريش حين بلغها ذلك : مايريد ؟ ثم جاءها ليلة أخرى فانقض تحتها ثم قال : شُعوب ما شُعوب ، تُصرع فيه كَعب لجنوب . فلما بلغ ذلك قريشاً قالوا ماذا يريد؟ إن هذا لأمرٍ هو كائن ، فانظروا ماهو؟ فما عرفوه حتى كانت وقعة بدر وأُحُد بالشعب ، فعرفوا أنه كان الذى جاء به إلى صاحبته .

قال ابن إسحاق : وحدثنى على بن نافع الجرشى أن جَنْباً ـ بطناً من اليمين ـ كان لهم كاهن فى الجاهلية ، فلما ذكر أمر رسول الله ﷺ وانتشر فى العرب ، قالت له جَنْب : انظُر لنا فى أمر هذا الرجل ، واجتمعوا له فى أسفل جبله ، فنزل إليهم حين طلعت الشمس فوقف لهم قائماً متكئاً على قوس له ، فرفع رأسه إلى السماء طويلا ، ثم جعل ينزو ، ثم قال : أيها الناس ! إن الله أكرم محمداً واصطفاه ، وطهر قلبه وحشاه ، ومُكثه فيكم أيها الناس قليل . ثم اشتد فى جبله راجعاً من حيث جاء ، ثم ذكر ابن إسحاق قصة سواد بن قارب ، وقد أخرناها إلى هواتف الجان .

فصل [فى إنذار يهود برسول الله ، وقصة إسلام سلمان الفارسى]

قال ابن إسحاق : وحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة عن رجال من قومه قالوا : إن مما دعانا إلى الإسلام ـ مع رحمة الله تعالى وهداه لنا ـ أن كنا نسمع من رجال من يهود ، وكنّا أهلَ شرك أصحاب أوثان ، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا ، وكانت لاتزال بيننا و بينهم شرور ، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا : إنه قد تقارب زمان نبى يبعث الآن ، نقتلكم معه قَتلَ عاد وإرَم ، فكنا كثيراً مانسمع ذلك منهم ، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ أَجَبناه حين دعانا إلى الله ، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به . فبادرناهم إليه ، فآمنا به وكفروا به . ففينا وفيهم نزلت هذه الآية : (ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم ، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين[1]) .

وقال ورقاء عن ابن أبى نجيح عن على الأزدى : كانت اليهود تقول : اللهم ابعث لنا هذا النبى يحكم بيننا وبين الناس ، يستفتحون به ـ أى يستنصرون به ، رواه البيهقى . ثم روى من طريق عبد الملك بن هارون بن عنبرة عن أبيه عن جده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، قال : كانت اليهود

(١) الآية ، ٨٩ من سورة البقرة .

بخيبر تقاتل غطفان ، فكلما التقوا هزمت يهود خيبر ، فعاذت اليهود بهذا الدعاء فقالوا : اللهم نسألك بحق محمد النبي الأمي الذى وعدتنا أن تخرجه فى آخر الزمان — إلا انصرتنا عليهم ، قال : فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدعاء فهزموا غطفان . فلما بعث النبي ﷺ كفروا به ، فأنزل الله عز وجل : (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا . . . الآية) ،وروى عطية عن ابن عباس نحوه . وروى عن عكرمة من قوله نحو ذلك أيضاً .

وقال ابن إسحاق : وحدثنى صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ، عن محمود بن لَبيد عن سلَمة بن سلامة بن وَقش — وكان من أهل بدر ، قال : كان لنا جار من يهود فى بنى عبد الأشهل ، قال : فخرج علينا يوماً من بيته حتى وقف على بنى عبد الأشهل . قال سلمة : وأنا يومئذ من أحدث من فيه سنًّا على فروة[1] لى مضطجع فيها بفناء أهلى ، فذكر القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار . قال : فقال ذلك لقوم أهل شرك أصحاب أوثان ، لا يَرَون أنّ بعثاً كائن بعد الموت ، فقالوا له : ويحك يا فلان ! أو ترى هذا كائناً ؟ أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار ؛ يجزون فيها بأعمالهم ؟ قال — نعم ، والذى يُحلف به ، ولودّ أن له بحظه من تلك النار أعظَم تنور فى الدار ، يحمونه ثم يدخلونه إياه فيطبقونه عليه ، وأن ينجونّ من تلك النار غداً . فقالوا له ويحك يا فلان ! فما آية ذلك ؟ قال نبى مبعوث من نحو هذه البلاد ، وأشار بيده إلى نحو مكة واليمن . قالوا ومتى نراه ؟ قال : فنظر إلى وأنا من أحدثهم سناً — فقال ، إن يَستنفد هذا الغلامُ عمرَه يُدركه . قال سلمة ، فوالله ماذهب الليل والنهار حتى بعث الله رسوله ﷺ وهو حى بين أظهرنا ، فآمنا به وكفر به بغياً وحسداً . قال فقلنا له : ويحك يا فلان ! ألست بالذى قلت لنا فيه ما قلت ؟ قال بلى ، ولكن ليس به . رواه أحمد عن يعقوب عن أبيه عن ابن عباس ، ورواه البيهقى عن الحاكم بإسناده من طريق يونس بن بكير .

وروى أبو نعيم فى الدلائل عن عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد عن محمد بن سلمة قال : لم يكن فى بنى عبد الأشهل إلا يهودى واحد يقال له يوشع ، فسمعته يقول — وإنى لغلام فى إزار — قد أظلكم خروج نبى يبعث من نحو هذا البيت ، ثم أشار بيده إلى بيت الله ، فمن أدركه فليصدقه . فبعث رسول الله ﷺ فأسلمنا وهو بين أظهرنا ،ولم يُسلم حسداً وبغياً . وقد قدمنا حديث أبى سعيد عن أبيه فى أخبار يوشع هذا عن خروج رسول الله ﷺ وصفته ونعته . وأخبار الزبير بن باطا عن ظهور كوكب مولد رسول الله ﷺ . ورواه الحاكم عن البيهقى بإسناده من طريق يونس بن بكير عنه .

قال ابن إسحاق : حدثنى عاصم بن عُمر بن قَتادة عن شيخ من بنى قريظة قال : قال لى : هل تدرى عمّ كان إسلام ثَعلبة بن سَعية وأَسَيد بن سَعية ، وأسد بن عبيد — نفرٍ من بنى هدل ، إخوة بنى قريظة

(١) فى نسخة : على بردة .

كانوا معهم فى جاهليتهم ، ثم كانوا سادتهم فى الإسلام ؟ قال : قلت ـ لا ، قال : فإن رجلا من اليهود من أرض الشام يقال له « ابن الهيِّبان » قدم علينا قبيل الإسلام بسنين ، فحلَّ بين أظهرنا ، لا والله ما رأينا رجلا قطّ لا يصلّى الخمس أفضلَ منه ، فأقام عندنا ، فكنا إذا قَحط عنا المطر قلنا له : اخرج يابن الهيِّبان فاستسق لنا ، فيقول : لا والله حتى تقدِّموا بين يدى مخرجكم صدقة ، فنقول له كم ؟ فيقول صاعاً من تمر ، أو مدَّين من شعير . قال فنخرجها ، ثم يخرج بنا إلى ظاهر حرّتنا فيستسقى لنا ، فوالله مايبرح مجلسه حتى يمرّ السحاب ونسقى . قد فعل ذلك غير مرة ولا مرتين ولا ثلاث . قال ثم حضرته الوفاة عندنا : فلما عَرَف أنه ميت قال : يا معشر يهود ! ما ترونه أخرجنى من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع ؟ قال قلنا : أنت أعلم . قال فإنى إنما قدمت . هذه البلدة أتوكّف خروج نبى قد أظل زمانه ، وهذه البلدة مهاجره ، فكنت أرجو أن يبعث فأتبعه ، وقد أظلكم زمانه فلا تُسبقَنّ إليه . يامعشر يهود ؛ فإنه يبعث بسفك الدماء وسبى الذرارى والنساء ممّن خالفه ، فلا يمنعنكم ذلك منه . فلما بعث رسول الله ﷺ وحاصر بنى قريظة ، قال هؤلاء الفتية ـ وكانوا شباباً أحداثاً ـ : يا بنى قريظة ! والله إنه لَلنّبى الذى كان عهد إليكم فيه ابن الهيِّبان ، قالوا ليس به . قالوا بلى ، والله إنه لهو بصفته ، فنزلوا فأسلموا فأحرزوا دماءهم وأموالهم وأهليهم . قال ابن إسحاق : فهذا ما بلغنا عن أخبار يهود .

قلت : وقد قدمنا فى قدوم تبّع اليمانى وهو أبو كرب تبّان أسعد إلى المدينة ومحاصرته إياها ، وأنه خرج إليه ذانك الحبران من اليهود ، فقالا له : إنه لا سبيل لك عليها ؛ إنها مُهاجَر نبىّ يكون فى آخر الزمان ، فثناه ذلك عنها . وقد روى أبو نعيم فى الدلائل من طريق الوليد بن مسلم ، حدثنا محمد بن حمزة بن يوسف بن عبد الله بن سلام عن أبيه عن جده . قال : قال عبد الله بن سلام : إن الله لما أراد هدى زيد بن سعية ، قال زيد : لم يبق شىء من علامات النبوة إلا وقد عرفتها فى وجه محمد ﷺ حين نظرت إليه ـ إلا اثنتين لم أخبرهما منه : يسبق حلمه جهله ، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً . قال فكنت أتلطف له لأن أخالطه ، فأعرف حلمه وجهله ، فذكر قصة إسلافه للنبى ﷺ مالاً فى ثمرة ، قال فلما حلَّ الأجل أتيته ، فأخذت بمجامع قميصه وردائه ـ وهو فى جنازة مع أصحابه ـ ونظرت إليه بوجه غليظ ، وقلت : يا محمد ألا تقضينى حقى ؟ فوالله ما علمتكم بنى عبد المطلب لَمُطُل . قال فنظر إلىَّ عمر وعيناه يدوران فى وجهه كالفلك المستدير . ثم قال : يا عدو الله ! أتقول لرسول الله ﷺ ما أسمع ؟ وتفعل ما أرى ؟ فوالذى بعثه بالحق لولا ما أحاذر لومه لضربت بسيفى رأسك ، ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر فى سكون وتؤدة وتبسم . ثم قال : « أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا منك يا عمر ؛ أن تأمرنى بحسن الأداء ، وتأمره بحسن التِّباعة[1] ، اذهب به يا عمر فاقضه حقه ، وزده عشرين صاعاً من

(١) أى التتبع والتطلب ، والتبيع : الذى لك عليه مال . ومنه قوله تعالى : (ثم لاتجدوا لكم علينا به تبيعاً) أى ثائراً ولا مطالبا .

تر » . فأسلم زيد بن سعية رضى الله عنه . وشهد بقية المشاهد مع رسول الله ﷺ ، وتوفى عام تبوك رحمه الله .

ثم ذكر ابن إسحاق ـ رحمه الله ـ إسلام سلمان الفارسى رضى الله عنه وأرضاه فقال : حدثنى عاصم ابن عمر بن قتادة الأنصارى عن محمود بن لبيد ، عن عبدالله بن عباس ، قال : حدثنى سلمان الفارسى ـ وأنا أسمع من فيه ـ قال : كنت رجلا فارسياً من أهل أصبهان ، من أهل قرية يقال لها جىّ ، وكان أبى دُهقان[1] قريته ، وكنت أحبَّ خلق الله إليه ، فلم يزل حبّه إياى حتى حبسنى فى بيته كما تحبس الجارية ، واجتهدتُ فى المجوسية حتى كنت قاطِن النار[2] التى يوقدها ، لايتركها تخبو ساعة . قال : وكانت لأبى ضيعة عظيمة ، قال فشغل فى بنيان له يوماً فقال لى : يابنىّ ! إنى قد شُغلت فى بنيانى هذا اليوم عن ضيعتى فاذهب إليها فاطّلعها ، وأمرنى فيها ببعض مايريد . ثم قال لى : ولا تحتَبِس عنى فإنك إن احتبست عنى كنتَ أهمَّ إلى من ضيعتى ، وشغلتنى عن كل شىء من أمرى .

قال فخرجت أريد ضيعته التى بعثنى إليها ، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى ، فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون ، وكنت لا أدرى ما أمْرُ الناس ؛ لحبس أبى إياى فى بيته . فلما سمعت أصواتهم دخلت عليهم أنظر مايصنعون ، فلما رأيتهم أعجبتنى صلاتهم ورغبتُ فى أمرهم ، وقلت : هذا والله خير من الدين الذى نحن عليه . فوالله مابرحتهم حتى غربت الشمس ، وتركت ضيعة أبى فلم آتها . ثم قلت لهم : أين أصل هـذا الدين ؟ قالوا بالشام ، فرجعت إلى أبى وقد بعث فى طلبى وشغلته عن أمره كله . فلما جئت قال أى بنى ! أين كنت ؟ ألم أكن عهدت إليك ماعهدته ؟ قال : قلت يا أبت مررت بأناس يصلون فى كنيسة لهم فأعجبنى مارأيت من دينهم ، فوالله مازلت عندهم حتى غربت الشمس . قال أى بنى ! ليس فى ذلك الدين خير ، دينك ودين آبائك خير منه ؛ قال : قلت كلا والله ، إنه لخير من ديننا . قال : فخافنى فجعل فى رجلى قيداً ثم حبسنى فى بيته .

قال : و بعثت إلى النصارى فقلت لهم : إذا قَدِم عليكم ركب من الشام فأخبرونى بهم . قال : فقدم عليهم ركب من الشام ، فجاءونى النصارى فأخبرونى بهم . فقلت إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم فآذنونى . قال : فلما أرادوا الرّجعة إلى بلادهم أخبرونى بهم ، فألقيت الحديد من رجلى ، ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام . فلما قدمتُها قلت : من أفضل أهل هذا الدين علماً ؟ قالوا الأسقف فى الكنيسة . قال : فجئته فقلت له : إنى قد رغبت فى هذا الدين وأحببت أن أكون معك ، وأخدمك فى كنيستك وأتعلم منك فأصلى معك . قال : ادخُل ، فدخلت معه ، فكان رجُلَ سَوْء ؛ يأمرهم بالصدقة

---

(١) أى رئيسها . والدهقان : زعيم فلاحى العجم ورئيس الإقليم .

(٢) أى خادمها ، يقال : قطن فلاناً — خدمه فهو قاطن .

ويرغبهم فيها ، فإذا جمعوا له شيئاً كنزه لنفسه ولم يعطه المساكين ، حتى جمع سبعَ قِلال من ذهب ووِرق ، قال : وأبغضته بغضاً شديداً لما رأيته يضع . ثم مات واجتمعت له النصارى ليدفنوه ، فقلت لهم : إن هذا كان رجل سَوْء ، يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها ، فإذا جئتموه بها كنزها لنفسه ولم يعط المساكين منها شيئاً . قال : فقالوا لى وما علمك بذلك ؟ قال : فقلت لهم أنا أدلكم على كنزه ، قالوا فدلّنا . قال : فأريتهم موضعَه فاستخرجوا سَبع قِلال مملوءة ذهباً وورِقاً ، فلما رأوها قالوا لا ندفنه أبداً ، قال : فصلبوه ورجَموه بالحجارة . وجاءوا برجل آخر فوضعوه مكانه .

قال سلمان : فما رأيت رجلاً لايصلى الخمس أرَى أنه كان أفضل منه وأزهد فى الدنيا ، ولا أرغب فى الآخرة ولا أدأب ليلا ونهاراً منه . قال فأحببته حباً لم أحب شيئاً قبله مثله . قال : فأقمت معه زماناً . ثم حضرته الوفاة فقلت له : إنى قد كنت معك وأحببتك حباً لم أحبه شيئاً قبلك ، وقد حضرك ماترى من أمر الله تعالى ، فإلى من توصى ابى ؟ وبم تأمرنى به ؟ قال : أى بنى : والله ما أعلم اليوم أحداً على ما كنتُ عليه ، لقد هلك الناس وبدلوا ، وتركوا أكثر ما كانوا عليه ، إلا رجلا بالموَصل وهو فلان ، وهو على ما كنتُ عليه فالحق به .

قال : فلما مات وغُيّب لحقت بصاحب الموصل ؛ فقلت يافلان ! إن فلاناً أوصانى عند موته أن ألحق بك ، وأخبرنى أنك على أمره ، فقال لى أقم عندى ، فأقمت عنده فوجدته خيرَ رجل على أمر صاحبه ، فلم يلبث أن مات . فلما حضرته الوفاة قلت له يافلان ! إن فلاناً أوصى بى إليك ، وأمرنى باللحوق بك ، وقد حضرك من أمر الله ماترى ، فإلى من توصى بى ؟ وبم تأمرنى ؟ قال يابنى والله ماأعلم رجلاً على مثل ما كنا عليه إلا رجلا بنَصِيبين[1] ، وهو فلان فالحق به . فلما مات وغيب لحقت بصاحب نَصِيبين فأخبرته خبرى وماأمرنى به صاحباى . فقال أقم عندى ، فأقمت عنده . فوجدته على أمرِ صاحبيه ، فأقمت مع خير رجل ، فوالله مالبث أن نزل به الموتُ ، فلما حضر قلت له يافلانُ ! إن فلاناً كان أوصى بى إلى فلان ، ثم أوصى بى فلان إلى فلان ، ثم أوصى بى فلان إليك فإلى من توصى بى ؟ وبم تأمرنى ؟ قال : يابنى والله ما أعلمه بقى أحد على أمرنا آمرك أن تأتيه ، إلا رجل بعمُّورية من أرض الروم ، فإنه على مثل ما نحن عليه ، فإن أحببت فائته فإنه على أمرنا .

فلما مات وغُيّب لحقت بصاحب عمّورِيَة فأخبرته خبرى ، فقال أقم عندى . فأقمت عند خير رجل على هَدى أصحابه وأمرهم . قال : واكتسبت حتى كانت لى بقرات وغُنَيمة ، قال ثم نزل به أمر الله ، فلما حُضِر قلت له يافلان ! إنى كنت مع فلان فأوصى بى إلى فلان ، ثم أوصى بى فلان إلى فلان ، ثم أوصى بى فلان إلى فلان ، ثم أوصى بى فلان إليك ، فإلى من توصى بى ؟ وبم تأمرنى ؟ قال

(١) بلد كانت قاعدة ديار ربيعة ، والنسبة إليها — نصيبينى ونصيبى .

أى بنى ! والله ما أعلم أصبح أحد على مثل ما كنا عليه من الناس آمرك أن تأتيه ، ولكنه قد أظل زمان نبى مبعوث بدين إبراهيم ، يخرج بأرض العرب ، مُهاجَره إلى الأرض بين حَرّتين ، بينهما نخل ، به علامات لا تخفى ، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ، بين كتفيه خاتم النبوة ، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل : قال . ثم مات وغيب ، ومكثت بعمورية ماشاء الله أن أمكث .

ثم مر بى نفر من كلب تجار ، فقلت لهم احملونى إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتى هذه وغُنيمتى هذه ، قالوا نعم ، فأعطيتهموها وحملونى معهم ، حتى إذا بلغوا وادى القرى ظلمونى ، فباعونى من رجل يهودى عبداً ، فكنت عنده ورأيت النخل ، فرجوت أن يكون البلد الذى وصف لى صاحبى ، ولم يَحِقّ فى نفسى . فبينا أنا عنده إذ قدم عليه ابن عم له من بنى قُريظة من المدينة ، فابتاعنى منه فاحتملنى إلى المدينة ، فوالله ماهو إلا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبى لها فأقمت بها وبُعث رسول الله ﷺ فأقام بمكة ماأقام ؛ لا أسمع له بذكر مما أنا فيه من شغل الرِّق . ثم هاجر إلى المدينة ؛ فوالله إنى لفى رأس عَذق لسيدى أعمل فيه بعض العمل وسيدى جالس تحتى ، إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه فقال يافلان ! قاتل الله بَنى قَيلة ؛ والله إنهم لمجتمعون الآن بقباء على رجل قدم من مكة اليوم يزعمون أنه نبى .

قال سلمان : فلما سمعتها أخذتنى الرِّعدة حتى ظننت أنى ساقط على سيدى ، فنزلت عن النخلة فجعلت أقول لابن عمه ماذا تقول ؟ ماذا تقول ؟ قال : فغضب سيدى فلكمنى لكمةً شديدة ، ثم قال مالك ولهذا ؟ أقبل على عملك قال : فقلت لاشىء ، إنما أردت أن أستثبته عما قال . قال : وقد كان عندى شىء قد جمعته ، فلما أمسيت أخذته ، ثم ذهبت به إلى رسول الله ﷺ - وهو بقُباء - فدخلت عليه فقلت له : إنه قد بلغنى أنك رجل صالح ومعك أصحاب لك غُرباء ذو حاجة ، وهذا شىء كان عندى للصّدقة ، فرأيتكم أحقَّ به من غيركم . قال فقربته إليه ، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : « كلوا » ، وأمسك يده فلم يأكل ، فقلت فى نفسى : هذه واحدة . ثم انصرفت عنه فجمعت شيئاً وتحوّل رسول الله ﷺ إلى المدينة ، ثم جئته فقلت له إنى قد رأيتك لاتأكل الصدقة وهذه هديّةٌ أكرمتك بها ، قال فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم منها وأمر أصحابه فأكلوا معه ، قال : فقلت فى نفسى : هاتان ثنتان . قال : ثم جئت رسول الله ﷺ وهو ببقيع الغرقَد [1] قد تبع جنازة رجل من أصحابه وعليه شملتان وهو جالس فى أصحابه ، فسلمت عليه ، ثم استدبرته أنظر إلى ظهره ، هل أرى الخاتم الذى وصف لى صاحبى ؟ فلما رآنى رسول الله ﷺ استدبرته - عرف أنى أستثبت فى شىء وصف لى ، فألقى رداءه عن ظهره فنظرت إلى الخاتم فعرفته ، فأكببت عليه أقبّله وأبكى ، فقال لى رسول الله صلى الله عليه

(١) البقيع : الموضع فيه أروم الشجر من ضروب شتى ، والغرقد : شجر عظام . وبقيع الغرقد : مقبرة المدينة . سمى بذلك لأنه كان منبته .

وسلم : « تحوّل » فتحوّلت بين يديه ، فقصصت عليه حديثى كما حدثتك ياابن عباس ، فأعجب رسول الله ﷺ أن يسمع ذاك أصحابُه ، ثم شغل سلمانَ الرق حتى فاته مع رسول الله ﷺ بدرٌ وأحد .

قال سلمان : ثم قال لى رسول الله ﷺ : « كاتب ياسلمان » ، فكاتبت صاحبى على ثلاثمائة نخلة أحييها له بالفَقير[1] وأربعين أوقية . فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : « أعينوا أخاكم » ، فأعانونى فى النخل ؛ الرجل بثلاثين وَدِيَّةً ، والرجل بعشرين وديّة ، والرجل بخمس عشرة وديّة ، والرجل بعشرة ، يُعين الرجل بقدر ماعنده ، حتى اجتمعت لى ثلاثمائة ودية . فقال لى رسول الله ﷺ : « اذهب ياسلمان ففقّر لها ، فإذا فرغت فائتنى أكن أنا أضعُها بيدى » . قال : ففقّرت ، وأعاننى أصحابى ، حتى إذا فرغت جئته فأخبرتُه ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم معى إليها . فجعلنا نقرب إليه الودِيّ ، ويضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ، حتى فرغنا ، فوالذى نفس سلمان بيده ماماتت منها ودِيّةٌ واحدة . فأدّيت النخل وبقى على المال ، فأتى رسول الله ﷺ بمثل بيضة الدجاجة مِن ذهب من بعض المعادن ، فقال : « مافعل الفارسيُّ المكاتب ؟ » قال فدعيت له فقال : « خُذ هذه فأدّها ممـا عليك ياسلمان » . قال قلت : وأين تقع هذه مما علىّ يارسول الله ؟ قال : « خُذها فإن الله سيؤدى بها عنك » . قال فأخذتها فوزنت لهم منها — والذى نفس سلمان بيده — أربعين أوقية ، فأوفيتهم حقّهم وعتَقَ سلمان . فشهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخندقَ حرًّا ، ثم لم يفتنى معه مَشهَد .

قال ابن إسحاق : وحدثنى يزيد بن أبى حبيب عن رجل من عبد القيس عن سلمان أنه قال : لما قلت وأين تقع هذه من الذى على يارسول الله ؟ أخـذها رسول الله ﷺ فقلّبها على لسانه ، ثم قال : « خذها فأوفهم منها » . فأخذتها فأوفيتهم منها حقّهم كله — أربعين أوقية .

وقال محمد بن إسحاق : حدثنى عاصم بن عمر بن قتادة ، حدثنى من لا أتهم عن عُمَر بن عبد العزيز ابن مروان قال : حُدّثت عن سلمان أنه قال لرسول الله ﷺ — حين أخبره خبره — إن صاحب عمورية[2] قال له : إيت كذا وكذا من أرض الشام ، فإن بها رَجلاً بين غيضتين[3] ، يخرج كل سنة من هذه الغيضة إلى هذه الغيضة مستجيزاً ، يعترضه ذَوُو الأسقام فلا يدعو لأحد منهم إلا شُفى ، فاسأله عن هذا الدين الذى تبتغى فهو يخبرك عنه . قال سلمان : فخرجت حتى جئت حيث وُصف لى ، فوجدت الناس قد اجتمعوا بمرضاهم هناك ، حتى خرج لهم تلك الليلة مستجيزاً من إحدى الغَيضتين إلى الأُخرى ، فغشيه الناس بمرضاهم لايدعو لمريض إلا شُفى ، وغلبونى عليه فلم أخلُص إليه ، حتى دخل الغيضة التى يريد

(١) فقير النخلة : حفرة تحفر للفسيلة إذا حولت لتغرس فيها والجمع فقر بضمتين .

(٢) عمورية — مشددة الميم : بلد من بلاد الروم

(٣) قال ق القاموس : الغيضة — بالفتح : الأجمة ، ومجتمع الشجر فى مغيض ماء .

أن يدخل – إلا منكبه . قال : فتناولته فقال من هذا ؟ والتفت إلىّ ، قال : قلت يرحمك الله ! أخبرني عن الحنيفية دين إبراهيم ، قال : إنك لتسأل عن شيء ما يسأل عنه الناس اليوم ، قد أظلك زمان نبي يبعث بهذا الدين من أهل الحرم ، فأته فهو يحملك عليه ، ثم دخل . قال : فقال رسول الله ﷺ لسلمان : « لئن كنت صدقتني ياسلمان لقد لقيت عيسى بن مريم » . هكذا وقع في هذه الرواية ، وفيها رجل متهم – وهو شيخ عاصم بن عمر بن قتادة ، وقد قيل إنه الحسن بن عمارة . ثم هو منقطع بل معضل بين عمر بن عبد العزيز وسلمان رضي الله عنه . قوله : « لئن كنت صدقتني يا سلمان لقد لقيت عيسى بن مريم » – غريب جداً بل منكر ؛ فإن الفترة أقل ما قيل فيها إنها أربعمائة سنة ، وقيل ستمائة سنة بالشمسية ، وسلمان أكثر ما قيل – إنه عاش ثلاثمائة سنة وخمسين سنة . وحكى العباس بن يزيد البحراني إجماع مشايخه على أنه عاش مائتين وخمسين سنة ، واختلفوا فيما زاد إلى ثلاثمائة وخمسين سنة والله أعلم . والظاهر أنه قال : لقد لقيت وصىّ عيسى بن مريم ، فهذا ممكن بالصواب .

وقال السهيلي : الرجل المتهم – هو الحسن بن عمارة وهو ضعيف ، وإن صح لم يكن فيه نكارة ؛ لأن ابن جرير ذكر أن المسيح نزل من السماء بعد ما رفع ، فوجد أمه وامرأة أخرى يبكيان عند جذع المصلوب ، فأخبرهما أنه لم يقتل ، وبعث الحواريين بعد ذلك . قال : وإذا جاز نزوله مرة جاز نزوله مراراً ، ثم يكون نزوله الظاهر حين يكسر الصليب ويقتل الخنزير ، ويتزوج حينئذ امرأة من بني جذام . وإذا مات دفن في حجرة روضة رسول الله ﷺ .

وقد روى البيهقي في كتاب : [دلائل النبوة] قصة سلمان هذه من طريق يونس بن بكير عن محمد ابن إسحاق كما تقدم ، ورواها أيضاً عن الحاكم عن الأصم عن يحيى بن أبي طالب : حدثنا علي بن عاصم حدثنا حاتم بن أبي صفرة عن سماك بن حرب عن يزيد بن صوحان : أنه سمع سلمان يحدث كيف كان أول إسلامه ، فذكر قصة طويلة . وذكر أنه كان من رَامَهُرْمُز[1] ، وكان له أخ أكبر منه غني ، وكان سلمان فقيراً في كنف أخيه ، وأن ابن دُهقانها كان صاحباً له ، وكان يختلف معه إلى معلم لهم ، وأنه كان يختلف ذلك الغلام إلى عباد من النصارى في كهف لهم ، فسأله سلمان أن يذهب به معه إليهم . فقال له : إنك غلام وأخشى أن تنم عليهم فيقتلهم أبي ، فالتزم له أن لا يكون منه شيء يكرهه ، فذهب به معه فإذا هم ستة – أو سبعة – كأن الروح قد خرجت منهم من العبادة ؛ يصومون النهار ويقومون الليل ، يأكلون الشجر وما وجدوا . فذكروا عنهم أنهم يؤمنون بالرسل المتقدمين ، وأن عيسى عبد الله ورسوله وابن أمته أيده بالمعجزات . وقالوا له : يا غلام إن لك رباً ، وإن لك معاداً ، وإن بين يديك جنة وناراً ، وإن هؤلاء القوم الذين يعبدون النيران أهل كفر وضلالة ، لا يرضى الله بما يصنعون وليسوا على دينه .

---

(١) بلد بخوزستان .

ثم جعل يتردد مع ذلك الغلام إليهم ، ثم لزمهم سلمان بالكلية . ثم أجلاهم ملك تلك البلاد — وهو أبو ذلك الغلام الذى صحبه سلمان إليهم — عن أرضه . واحتبس الملك ابنه عنده . وعرض سلمان دينهم على أخيه الذى هو أكبر منه . فقال إنى مشتغل بنفسى فى طلب المعيشة . فارتحل معهم سلمان حتى دخلوا كنيسة الموصل فسلم عليهم أهلها ، ثم أرادوا أن يتركونى عندهم فأبيت إلا صحبتهم ، فخرجوا حتى أتوا وادياً بين جبال ، فتحدر إليهم رهبان تلك الناحية يسلمون عليهم ، واجتمعوا إليهم وجعلوا يسألونهم عن غيبتهم عنهم ويسألونهم عنى فيثنون علىّ خيراً . وجاء رجل معظم فيهم فخطبهم ، فأثنى على الله بما هو أهله ، وذكر الرسل وما أيدوا به ، وذكر عيسى بن مريم وأنه كان عبد الله ورسوله ، وأمرهم بالخير ونهاهم عن الشر .

ثم لما أرادوا الانصراف تبعه سلمان ولزمه ، قال : فكان يصوم النهار ويقوم الليل من الأحد إلى الأحد . فيخرج إليهم ويعظهم ويأمرهم وينهاهم ، فمكث على ذلك مدة طويلة . ثم أراد أن يزور بيت المقدس فصحبه سلمان إليه . قال : فكان أينما يمشى يلتفت إلىّ ويقبل علىّ . فيعظنى ويخبرنى أن لى رباً ، وأن بين يدى جنة وناراً وحساباً ، ويعلمنى ويذكرنى نحو ما كان يذكر القوم يوم الأحد . قال : فما يقول لى : يا سلمان ! إن الله سوف يبعث رسولا اسمه أحمد ، يخرج من تِهامة[1] ، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ، بين كتفيه خاتم النبوة . وهذا زمانه الذى يخرج فيه قد تقارب . فأما أنا فإنى شيخ كبير ولا أحسبنى أدركه . فإن أدركته أنت فصدقه واتبعه . قلت له : وإن أمرنى بترك دينك وما أنت عليه ؟ قال : وإن أمرك ؛ فإن الحق فيما يجىء به ورضى الرحمن فيما قال .

ثم ذكر قدومهما إلى بيت المقدس ، وأن صاحبه صلى فيه هاهنا وهاهنا ، ثم نام وقد أوصاه أنه إذا بلغ الظل مكان كذا أن يوقظه ، فتركه سلمان حيناً آخر أزيد مما قال ليستريح . فلما استيقظ ذكر الله ولام سلمان على ترك ما أمره من ذلك . ثم خرجا من بيت المقدس . فسأله مقعد فقال : يا عبد الله ! سألتك حين وصلت فلم تعطنى شيئاً ، وها أنا أسألك . فنظر فلم يجد أحداً . فأخذ بيده وقال : قم بسم الله ، فقام وليس به بأس ولا قَلَبَة[2] كأنما نشط من عقال . فقال لى يا عبد الله! احمل على متاعى حتى أذهب إلى أهلى فأبشرهم ، فاشتغلت به ثم أدركت الرجل فلم ألحقه . ولم أدر أين ذهب . وكلما سألت عنه قوماً قالوا أمامك . حتى لقينى ركب من العرب من بنى كلب فسألتهم ، فلما سمعوا لغتى أناخ رجل منهم بعيره ، فحملنى خلفه حتى أتوا بى بلادهم فباعونى ، فاشترتنى امرأة من الأنصار ، فجعلتنى فى حائط لها وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم ذكر ذهابه إليه بالصدقة والهدية ليستعلم ما قال صاحبه ، ثم تطلب النظر إلى خاتم النبوة . فلما

(١) تهامة — بالكسر : مكة المكرمة . (٢) القلبة — محركة : داء وتعب من علة .

رآه آمن من ساعته ، وأخبر رسول الله ﷺ خبره الذى جرى له . قال : فأمر رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق فاشتراه من سيدته فأعتقه ، قال : ثم سألته يوماً عن دين النصارى فقال : لا خير فيهم . قال : فوقع فى نفسى من أولئك الذين صحبتهم ، ومن ذلك الرجل الصالح الذى كان معى ببيت المقدس ، فدخلنى من ذلك أمر عظيم ، حتى أنزل الله على رسول الله ﷺ : (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لايستكبرون[1]) ، فدعانى رسول الله ﷺ فجئت وأنا خائف ، فجلست بين يديه فقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم (ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانياً وأنهم لا يستكبرون . . . الآيات) ، ثم قال : « ياسلمان أولئك الذين كنت معهم وصاحبك لم يكونوا نصارى – كانوا مسلمين » ، فقلت : يارسول الله ! والذى بعثك بالحق لهو أمرنى باتباعك ، فقلت له : فإن أمرنى بترك دينك وماأنت عليه ؟ قال نعم فاتركه ، فإن الحق ومايرضى الله فيما يأمرك . وفى هذا السياق غرابة كثيرة ، وفيه بعض المخالفة لسياق محمد بن إسحاق . وطريق محمد بن إسحاق أقوى إسناداً وأحسن اقتصاصاً وأقرب إلى ما رواه البخارى فى صحيحه ؛ من حديث معتمر بن سليمان بن طرخان التيمى عن أبيه ، عن أبى عثمان النهدى عن سلمان الفارسى : أنه تداوله بضعة عشر ، من رب إلى رب – أى من معلم إلى معلم ، ومرب إلى مثله – والله أعلم .

قال السهيلى : تداوله ثلاثون سيداً من سيد إلى سيد ، فالله أعلم . وكذلك استقصى قصة إسلامه الحافظ أبو نعيم فى الدلائل ، وأورد لها أسانيد وألفاظاً كثيرة ، وفى بعضها أن اسم سيدته التى كاتبته – « حلبسة » ، فالله أعلم .

ذكر أخبار غريبة فى ذلك

قال أبو نعيم فى الدلائل : حدثنا سليمان بن أحمد ، حدثنا محمد بن زكرياء الغلابى ، حدثنا العلاء بن الفضل بن عبد الملك بن أبى السوية المنقرى ، حدثنا عبادبن كسيب عن أبيه عن أبى عتوارة الخزاعى عن سعير بن سوادة العامرى، قال : كنت عشيقاً لعقيلة من عقائل الحى ، أركب لها الصعب والذلول ؛ لاأبقى من البلاد مسرحاً أرجو ربحاً فى متجر إلا أتيته ، فانصرفت من الشام بحرث وأثاث أريد به كُبة[2] الموسم ودهماء العرب ، فدخلت مكة بليل مسدف[3] فأقمت حتى تعرى عنى قميص الليل ، فرفعت رأسى فإذا قباب مسامتة شعف الجبال ، مضروبة بأنطاع[4] الطائف وإذا جزر تنحر وأخرى تساق ، وإذا أكلة وحثثة على الطهاة يقولون : ألا عجلوا ألا عجلوا ، وإذا رجل يجهر على نشز من الأرض ، ينادى : ياوفد

---

(١) الآية : ٨٢ من سورة المائدة (٢) الكبة بالفتح والضم : الزحام . (٣) أى مظلم . والسدفة وبضم : الظلمة . والأسدف : الأسود . (٤) جمع نطع ، وهو ما ظهر من أعلى الغارفيه آثار .

الله ! ميلوا إلى الغذاء : وأُنيسان على مدرجة يقول : ياوفد الله ! من طعم فليرح إلى العشاء ، فجهرنى ما رأيت ، فأقبلت أريدعميد القوم ، فمرف رجل الذى بى فقال أمامك ، وإذاشيخ كأن فى خديه الأساريع ، وكأن الشعرى توقد من جبينه ، قد لاث على رأسه عمامة سوداء ، قد أبرز من ملاثها جمة فينانة كأنها سماسم ـ قال فى بعض الروايات : تحته كرسى سماسم (١) ـ ومن دونها نمرقة ، بيده قضيب متخصر به ، حوله مشايخ جلس نواكس الأذقان ، ما منهم أحد يفيض بكلمة ، وقد كان نمى إلى خبر من أخبار الشام أن النبي الأمى هذا أوان نجومه ، فلما رأيته ظننته ذلك . فقلت السلام عليك يارسول الله ، فقال : مه مه ـ كلا . وكأن قد وليتنى إياه ، فقلت من هذا الشيخ ؟ فقالوا هذا أبو نضلة ، هذا هاشم بن عبد مناف ، فوليت وأنا أقول هذا والله المجد ، لامجد آل جفنة ـ يعنى ملوك عرب الشام من غسان ، كان يقال لهم آل جفنة ـ وهذه الوظيفة التى حكاها عن هاشم ـ هى الرفادة ، يعنى إطعام الحجيج زمن الموسم .

وقال أبو نعيم : حدثنا عبد الله بن محمد بن جعفر ، حدثنا محمد بن أحمد بن أبى يحيى ، حدثنا سعيد ابن عثمان ، حدثنا على بن قتيبة الخرسانى ، حدثنا خالد بن إلياس عن أبى بكر بن عبدالله بن أبى الجهم عن عن أبيه عن جده ، قال : سمعت أبا طالب يحدث عن عبد المطلب قال : بينا أنا نائم فى الحجر إذ رأيت رؤيا هالتنى ففزعت منها فزعاً شديداً ؛ فأتيت كاهنة قريش وعلىّ مِطارف خَزّ وجمتى تضرب منكبى ، فلما نظرت إلىّ عرفت فى وجهى التغيير ـ وأنا يومئذ سيد قومى ـ فقالت : مابال سيدنا قد أتانا متغير اللون ؟ هل رابه من حدثان الدهر شىء ؟ فقلت لها بلى ، وكان لايكلمها أحد من الناس حتى يقبل يدها اليمنى ، ثم يضع يده على أم رأسها ثم يذكر حاجته ، ولم أفعل لأنى كبير قومى ، فجلست فقلت: إنى رأيت الليلة ـ وأنا نائم فى الحجر ـ كأن شجرة تنبت قد نال رأسها السماء ، وضربت بأغصانها المشرق والمغرب ، وما رأيت نوراً أزهر منها ، أعظم من نور الشمس سبعين ضعفاً ، ورأيت العرب والعجم ساجدين لها ، وهى تزداد كل ساعة عظما ونوراً وارتفاعاً ؛ ساعة تخفى وساعة تزهر ، ورأيت رهطاً من قريش قد تعلقوا بأغصانها ، ورأيت قوماً من قريش يريدون قطعها ، فإذا دنوامنها أخرهم شاب لم أرقط أحسن منه وجهاً ولا أطيب منه ريحاً ، فيكسر أظهرهم ويقلع أعينهم . فرفعت يدى لأتناول منها نصيباً ، فمنعنى الشاب ، فقلت لمن النصيب ؟ فقال النصيب لهؤلاء الذين تعلقوا بها وسبقوك إليها ، فانتبهت مذعوراً فزعاً . فرأيت وجه الكاهنة قد تغير ، ثم قالت : لئن صدقت رؤياك ليخرجن من صلبك رجل يملك المشرق والمغرب ، ويدين له الناس . ثم قال ـ يعنى عبد المطلب ـ لأبى طالب : لعلك تكون هذا المولود ، قال : فكان أبو طالب يحدث بهذا الحديث بعد ما ولد رسول الله ﷺ وبعد ما بعث . ثم قال : كانت الشجرة والله أعلم ـ أبا القاسم الأمين ، فيقال لأبى طالب ألا تؤمن ؟ فيقول السبة والعار .

(١) المراد بسماسم الأولى : عيدان السمسم . وبالثانية : خشب أسود كالأبنوس .

وقال أبو نعيم : حدثنا سليمان بن أحمد ، حدثنا محمد بن زكرياء الغلابي حدثنا العباس بن بكار الضبي ، حدثنا أبو بكر الهذلي عن عكرمة عن ابن عباس ، قال : قال العباس : خرجت في تجارة إلى اليمن في ركب — منهم أبو سفيان بن حرب — فقدمت اليمن ، فكنت أصنع يوماً طعاماً وأنصرف بأبي سفيان وبالنفر ، ويصنع أبو سفيان يوماً ويفعل مثل ذلك ، فقال لي في يومي الذي كنت أصنع فيه : هل لك يا أبا الفضل أن تنصرف إلى بيتي وترسل إليّ غداءك ؟ فقلت نعم . فانصرفت أنا والنفر إلى بيته وأرسلت إليه الغداء . فلما تغذى القوم قاموا واحتبسني . فقال : هل علمت يا أبا الفضل أن ابن أخيك يزعم أنه رسول الله ؟ فقلت أيّ بني أخي ؟ فقال أبو سفيان : إياي تكتم ؟ وأي بني أخيك ينبغي أن يقول هذا إلا رجل واحد ؟ قلت وأيهم على ذلك ؟ قال : هو محمد بن عبد الله ، فقلت قد فعل ؟ قال بلى قد فعل . وأخرج كتاباً باسمه من ابنه حنظلة بن أبي سفيان فيه : أخبرك أن محمداً قام بالأبطح[1] فقال : « أنا رسول أدعوكم إلى الله عز وجل » . فقال العباس قلت : أجده يا أبا حنظلة صادقاً . فقال : مهلا يا أبا الفضل ، فوالله ما أحب أن يقول مثل هذا ؛ إني لأخشى أن يكون عليّ ضير من هذا الحديث يا بني عبد المطلب ، إنه والله ما برحت قريش تزعم أن لكم هِنةً وهِنةً ، كل واحدة منهما غاية . لنشدتك يا أبا الفضل هل سمعت ذلك ؟ قلت نعم قد سمعت ، قال فهذه والله شؤمتكم ، قلت فلعلها يمنتنا .

قال : فما كان بعد ذلك إلا ليالي حتى قدم عبد الله بن حذافة بالخبر وهو مؤمن ، ففشا ذلك في مجالس اليمن ، وكان أبو سفيان يجلس مجلساً باليمن يتحدث فيه حبر من أحبار اليهود ، فقال له اليهودي ما هذا الخبر ؟ بلغني أن فيكم عم هذا الرجل الذي قال ما قال . قال أبو سفيان : صدقوا وأنا عمه ، فقال اليهودي أخو أبيه ؟ قال نعم ! قال فحدثني عنه ، قال لا تسألني ، ما أحب أن يدعى هذا الأمر أبداً ، وما أحب أن أعيبه وغيره خير منه ، فرأى اليهودي أنه لا يغمس عليه ولا يحب أن يعيبه . فقال اليهودي : ليس به بأس على اليهود ، وتوراة موسى . قال العباس : فناداني الحبر فجئت ، فخرجت حتى جلست ذلك المجلس من الغد ، وفيه أبو سيفان بن حرب والحبر ، فقلت للحبر : بلغني أنك سألت ابن عمي عن رجل منا زعم أنه رسول الله ﷺ وأخبرك أنه عمه ، وليس بعمه ولكن ابن عمه ، وأنا عمه وأخو أبيه . قال أخو أبيه ؟ قلت أخو أبيه . فأقبل على أبي سفيان فقال صدق ؟ قال نعم صدق فقلت سلني فإن كذبت فليرد عليّ . فأقبل عليّ فقال : نشدتك هل كان لابن أخيك صبوة أو سفهة ؟ قلت لا وإله عبد المطلب ، ولا كذب ولا خان ، وإنه كان اسمه عند قريش الأمين . قال فهل كتب بيده ؟ قال العباس : فظننت أنه خير له أن يكتب بيده فأردت أن أقولها . ثم ذكرت مكان أبي سفيان يكذبني ويرد علي ، فقلت لا يكتب . فوثب الحبر ونزل رداؤه وقال : ذبحت يهود ، وقتلت يهودُ .

---

(١) الأبطح : مسيل واسع فيه دقاق الحصى ، والجمع أباطح وبطاح وبطائح .

قال العباس : فلما رجعنا إلى منزلنا قال أبو سفيان : ياأبا الفضل ، إن اليهود تفزع من ابن أخيك ، قلت قد رأيت ما رأيت ، فهل لك يا أبا سفيان أن تؤمن به ؟ فإن كان حقاً كنت قد سبقت ، وإن كان باطلا فمعك غيرك من أكفائك ، قال لا أومن به حتى أرى الخيل فى كداء[1] ، قلت ما تقول ؟ قال كلمة جاءت على فمى ، إلا أنى أعلم أن الله لايترك خيلا تطلع من كداء . قال العباس : فلما استفتح رسول الله ﷺ مكة ونظرنا إلى الخيل وقد طلعت من كداء — قلت يا أبا سفيان! تذكر الكلمة ؟ قال إى والله إنى لذاكرها ، فالحمد لله الذى هدانى للإسلام . وهذا سياق حسن عليه البهاء والنور وضياء الصدق ، وإن كان فى رجاله من هو متكلم فيه ، والله أعلم .

وقد تقدم ما ذكرناه فى قصة أبى سفيان مع أمية بن أبى الصلت ، وهو شبيه بهذا الباب ، وهو من أغرب الأخبار وأحسن السياقات وعليه النور . وسيأتى أيضاً قصة أبى سفيان مع هرقل ملك الروم حين سأله عن صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحواله ، واستدلاله بذلك على صدقه ونبوته ورسالته . وقال له : كنت أعلم أنه خارج ، ولكن لم أكن أظن أنه فيكم ، ولو أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقيه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه ، ولئن كان ما تقول حقاً ليملكن موضع قدمى هاتين . وكذلك وقع ، ولله الحمد والمنة .

وقد أكثر الحافظ أبو نعيم من إيراد الآثار والأخبار عن الرهبان والأحبار والعرب ، فأكثر وأطنب وأحسن وأطيب ، رحمه الله ورضى عنه .

قصة عمرو بن مرة الجهنى

قال الطبرانى : حدثنا على بن إبراهيم الخزاعى الأهوازى ، حدثنا عبد الله بن داود بن دلهاث بن إسماعيل بن عبد الله بن شريح بن ياسر بن سويد ، صاحب رسول الله ﷺ ، حدثنا أبى عن أبيه دلهاث عن أبيه إسماعيل : أن أباه عبد الله حدثه عن أبيه : أن أباه ياسر بن سويد حدثه عن عمرو بن مرة الجهنى قال : خرجت حاجاً فى جماعة من قومى فى الجاهلية ، فرأيت فى نومى — وأنا بمكة — نوراً ساطعاً من الكعبة حتى وصل إلى جبل يثرب ، وأشعر جهينة . فسمعت صوتاً بين النور وهو يقول : انقشعت الظلماء ، وسطع الضياء ، وبعث خاتم الأنبياء . ثم أضاء إضاءة أخرى ، حتى نظرت إلى قصور الحيرة وأبيض المدائن ، وسمعت صوتاً من النور وهو يقول : ظهر الإسلام ، وكسرت الأصنام ، ووصلت الأرحام ، فانتبهت فزعاً فقلت لقومى : والله ليحدثن لهذا الحى من قريش حدث وأخبرتهم بما رأيت ، فلما انتهينا إلى بلادنا جاءنى رجل فقال: إن نبيًّا يقال له أحمد قد بعث ، فأتيته فأخبرته بما رأيت ، فقال : «ياعمرو

---

(١) كداء — كسماء : جبل بأعلى مكة دخل النبى عليه السلام مكة منه عند الفتح .

ابن مرة ، أنا النبي المرسل إلى العباد كافة ؛ أدعوهم إلى الإسلام ، وآمرهم بحقن الدماء وصلة الأرحام ، وعبادة الله ورفض الأصنام ، وحج البيت وصيام شهر رمضان من اثنى عشر شهراً ؛ فمن أجاب فله الجنة ، ومن عصى فله النار . فآمن ياعمرو يؤمنك الله من هول جهنم » ، فقلت أشهد أن لا إلـه إلا الله وأنك رسول الله ، آمنت بما جئت من حلال وحرام ، وإن أرغم ذلك كثيراً من الأقوام . ثم أنشدته أبياتاً قلتها حين سمعت به ، وكان لنا صنم ، وكان أبي سادناً له فقمت إليه فكسرته ، ثم لحقت بالنبي صلى الله عليه وسلم وأنا أقول :

شهدت بأن الله حق وأنني ... لآلهـة الأحجار أول تارك

وشمرت عن ساق الإزار مهاجراً ... إليك أجوب القفر بعد الدكادك

لأصحب خير الناس نفساً ووالداً ... رسول مليك الناس فوق الحبائك

فقال النبي ﷺ : « مرحباً بك ياعمرو بن مرة » ، فقلت يارسول الله ابعثني إلى قومي لعل الله يمن عليهم بي كما من عليّ بك . فبعثني إليهم ، وقال : « عليك بالرفق والقول السديد ، ولا تكن فظاً ولامتكبراً ولا حسوداً » . فذكر أنه أتى قومه ، فدعاهم إلى مادعاه إليه رسول الله ﷺ فأسلموا كلهم — إلا رجلا واحداً منهم ، وأنه وفد بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرحب بهم وحياهم . وكتب لهم كتاباً هذه نسخته : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من الله على لسان رسوله ﷺ ، بكتاب صادق ، وحق ناطق مع عمرو بن مرة الجهني لجهينة بن زيد ؛ إن لكم بطون الأرض وسهولها ، وتلاع الأودية وظهورها ، تزرعون نباته وتشربون صافيه ، على أن تقروا بالخمس ، وتصلوا صلاة الخمس ، وفي التبيعة والصريمة إن اجتمعتا وإن تفرقتا شاة شاة ، ليس على أهل الميرة صدقة ، ليس الوردة اللبقة[1] وشهد على نبينا ﷺ من حضر من المسلمين بكتاب قيس بن شماس » . وذكر شعراً قاله عمرو بن مرة في ذلك كما هو مبسوط في المسند الكبير ، وبالله الثقة وعليه التكلان .

وقال الله تعالى : (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً) ، قال كثيرون من السلف : لما أخذ الله ميثاق بني آدم يوم (ألست بربكم ؟) — أخذ من النبيين ميثاقاً خاصاً ، وأكد مع هؤلاء الخمسة أولى العزم أصحاب الشرائع الكبار الذين أولهم نوح وآخرهم محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وقد روى الحافظ أبو نعيم في كتاب : [دلائل النبوة] — من طرق عن الوليد بن مسلم ، حدثنا الأوزاعي ، حدثنا يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة ، سئل النبي ﷺ : متى وجبت لك

---

(١) اللبقة . كذا في الأصل ، ولعله يريد أنه لا يؤخذ في الصدقة كرائم الأموال .

النبوة ؟ قال : « بين خلق آدم ونفخ الروح فيه » ، وهكذا رواه الترمذى من طريق الوليد بن مسلم . وقال حسن غريب من حديث أبى هريرة ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

وقال أبو نعيم : حدثنا سليمان بن أحمد ، حدثنا يعقوب بن إسحاق بن الزبير الحلبى ، حدثنا أبو جعفر النفيلى حدثنا عمرو بن واقد عن عروة بن رويم عن الصنابحى . قال : قال عمر : يارسول الله ، متى جعلت نبياً ؟ قال : « وآدم منجدل[1] فى الطين » ، ثم رواه من حديث نصر بن مزاحم عن قيس بن الربيع عن جابر الجعفى عن الشعبى عن ابن عباس قال : قيل يارسول الله متى كنت نبياً ؟ قال : « وآدم بين الروح والجسد » ، وفى الحديث الذى أوردناه فى قصة آدم – حين استخرج الله من صلبه ذريته – خص الأنبياء بنور بين أعينهم . والظاهر – والله أعلم – أنه كان على قدر منازلهم ورتبهم عند الله . وإذا كان الأمر كذلك فنور محمد ﷺ كان أظهر وأكبر وأعظم منهم كلهم ، وهذا تنويه عظيم وتنبيه ظاهر على شرفه وعلو قدره وفى هذا المعنى – الحديث الذى قال الإمام أحمد : حدثنا عبدالرحمن ابن مهدى ، حدثنا معاوية بن صالح عن سعيد بن سويد الكلبى عن عبد الأعلى بن هلال السلمى عن العرباض بن سارية ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إنى عند الله لخاتم النبيين وإن آدم لَمُنْجَدِلٌ فى طينته ، وسأنبئكم بأول ذلك ؛ دعوة أبى إبراهيم وبشارة عيسى بى ، ورؤيا أمى التى رأت ، وكذلك أمهات المؤمنين يرين » . ورواه الليث وابن وهب عن عبد الرحمن بن مهدى ، وعبد الله بن صالح عن معاوية بن صالح ، وزاد « إن أمه رأت حين وضعته نوراً أضاءت منه قصور الشام » . وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا منصور بن سعيد عن بديل عن عبد الله بن شقيق عن ميسرة الفجر قال : قلت يارسول الله متى كنت نبياً ؟ قال : « وآدم بين الروح والجسد » ، إسناده جيد أيضاً .وهكذا رواه إبراهيم بن طهمان وحماد بن زيد وخالد الحذاء عن بديل بن ميسرة به . ورواه أبو نعيم عن محمد ابن عمر بن أسلم عن محمد بن بكر بن عمرو الباهلى عن شيبان عن الحسن بن دينار عن عبد الله بن سفيان عن ميسرة الفجر ، قال : قلت يارسول الله متى كنت نبياً ؟ قال : « وآدم بين الروح والجسد » .

وقال الحافظ أبو نعيم فى كتابه [دلائل النبوة] : حدثنا أبو عمرو بن حمدان ، حدثنا الحسن بن سفيان ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا الوليد بن مسلم عن خليد بن دعلج وسعيد عن قتادة عن الحسن عن أبى هريرة عن النبى ﷺ ، فى قوله تعالى : (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم) – قال : « كنت أول النبيين فى الخلق وآخرهم فى البعث » . ثم رواه من طريق هشام بن عمار عن بقية عن سعيد بن نسير عن قتادة عن الحسن عن أبى هريرة مرفوعاً مثله . وقد رواه من طريق سعيد بن أبى عروبة وشيبان عن قتادة قال : ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال مثله وهذا أثبت وأصح ، والله أعلم .

(١) أى ملقى وساقط . يقال جدله فانجدل : صرعه على الجدالة وهى الأرض .

وهذا إخبار عن التنويه بذكره فى الملأ الأعلى ، وأنه معروف بذلك بينهم بأنه خاتم النبيين وآدم لم ينفخ فيه الروح ؛ لأن علم الله تعالى بذلك سابق قبل خلق السموات والأرض لامحالة ، فلم يبق إلا هذا الذى ذكرناه من الإعلام به فى الملأ الأعلى ، والله أعلم .

وقد أورد أبو نعيم من حديث عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبى هريرة الحديث المتفق عليه : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، المقضى لهم قبل الخلائق ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم » . وزاد أبو نعيم فى آخره : فكان ﷺ آخرهم فى البعث وبه ختمت النبوة . وهو السابق يوم القيامة ؛ لأنه أول مكتوب فى النبوة والعهد ، ثم قال : ففى هذا الحديث الفضيلة لرسول الله ﷺ لما أوجب الله له النبوة قبل تمام خلق آدم . ويحتمل أن يكون هذا الإيجاب هو ماأعلم الله ملائكته ماسبق فى علمه وقضائه من بعثته له فى آخر الزمان ، وهذا الكلام يوافق ماذكرناه ولله الحمد .

وروى الحاكم فى مستدركه من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ـ وفيه كلام ـ عن أبيه عن جده عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما اقترف آدم الخطيئة قال :يارب أسألك بحق محمد إلا غفرت لى ، فقال الله: يا آدم كيف عرفت محمداً ولم أخلقه بعد ؟ فقال يارب لأنك لما خلقتنى بيدك ونفخت فىّ من روحك ـ رفعت رأسى ، فرأيت على قوائم العرش مكتوباً ـ لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك . فقال الله صدقت يا آدم إنه لأحب الخلق إلىّ ، وإذ قد سألتنى بحقه فقد غفرت لك ، ولولا محمد ماخلقتك » . قال البيهقى : تفرد به عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف ، والله أعلم

وقد قال الله تعالى : (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمِنن به ولتنصرُنه ، قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصْرِى ؟ قالوا أقررنا ، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين * فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون)[1] قال على بن أبى طالب وعبد الله بن عباس رضى الله عنهما : مابعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق ؛ لئن بعث محمد ﷺ وهو حى ليؤمنن به ولينصرنه ، [وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته ، لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه][2] وهذا تنويه وتنبيه على شرفه وعظمته فى سائر الملل وعلى ألسنة الأنبياء ، وإعلام لهم ومنهم برسالته فى آخر الزمان ، وأنه أكرم المرسلين وخاتم النبيين . وقد أوضح أمره وكشف خبره وبين سره ، وجلى مجده ومولده وبلده ـ إبراهيم الخليل ، فى قوله عليه السلام حين فرغ من بناء البيت : (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم

---

(١) الآيتان : ٨٠ ، ٨١ من سورة آل عمران .

(٢) ما بين القوسين غير مثبت فى بعض النسخ .

إنك أنت العزيز الحكيم [(١)]) فكان أول بيان أمره على الجلية والوضوح بين أهل الأرض – على لسان إبراهيم الخليل ، أكرم الأنبياء على الله بعد محمد صلوات الله عليه وسلامه عليهما وعلى سائر الأنبياء ولهذا قال الإمام أحمد : حدثنا أبو النضر حدثنا الفرج – يعنى ابن فضالة – حدثنا لقمان بن عامر سمعت أبا أمامة قال : قلت يانبى الله ما كان بدء أمرك ؟ قال : « دعوة أبى إبراهيم ، وبُشرى عيسى ، ورأت أمى أنه خرج منها نور أضاءت منه قصور الشام » . تفرد به الإمام أحمد ، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة .

وروى الحافظ أبو بكر بن أبى عاصم فى كتاب المولد من طريق بقية ، عن صفوان بن عمرو عن حجر بن حجر عن أبى مريق ، أن أعرابياً قال : يارسول الله ! أى شىء كان أول أمر نبوتك ؟ فقال : « أخذ الله منى الميثاق كما أخذ من النبيين ميثاقهم » ، ورأت أم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منامها أنه خرج من بين رجليها سراج أضاءت له قصور الشام . وقال الإمام محمد بن إسحاق بن يسار : حدثنى ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا : يارسول الله أخبرنا عن نفسك ، قال : « دعوة أبى إبراهيم ، وبشرى عيسى ، ورأت أمى حين حبلت كأنه خرج منها نور أضاءت له بُصرى من أرض الشام » . إسناده جيداً أيضاً . وفيه بشارة لأهل محلتنا أرض بصرى ، وأنها أول بقعة من أرض الشام خلص إليها نور النبوة ، ولله الحمد والمنة . ولهذا كانت أول مدينة فتحت من أرض الشام ، وكان فتحها صلحاً فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه ، كما سيأتى بيانه . وقد قدمها رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين : فى صحبة عمه أبى طالب وهو ابن اثنتى عشرة سنة ، وكانت عندها قصة بحيرى الراهب كما بيناه . والثانية ومعه ميسرة مولى خديجة فى تجارة لها . و بها مبرك الناقة التى يقال لها ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بركت عليه فأثر ذلك فيها فيما يذكر ، ثم نقل و بنى عليه مسجد مشهور اليوم وهى المدينة التى أضاءت أعناق الإبل عندها من نور النار التى خرجت من أرض الحجاز سنة أربع وخمسين وستمائة ، وفق ما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله : « تخرج نار من أرض الحجاز تضىء لها أعناق الإبل ببصرى » . وسيأتى الكلام على ذلك فى موضعه إن شاء الله ، وبه الثقة وعليه التكلان .

وقال الله تعالى : (الذين يتبعون الرسول النبىّ الأمىّ الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصْرَهم والأغلال التى كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعَزَّرُوه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون ... الآية)[(٢)] .

---

(١) الآية : ١٢٩ من سورة البقرة . (٢) الآية : ١٥٧ من سورة الأعراف .

قال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل عن الجريرى عن أبى صخر العقيلى ، حدثنى رجل من الأعراب قال : جلبت جَلوبة[1] إلى المدينة فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما فرغت من بيعى قلت : لألقين هذا الرجل فلأسمعن منه ، قال : فتلقانى بين أبى بكر وعمر يمشون ، فتبعتهم حتى أتوا على رجل من اليهود ناشر التوراة يقرؤها ؛ يعزى بها نفسه عن ابن له فى الموت كأحسن الفتيان وأجملهم . فقال رسول الله ﷺ : « أنشدك بالذى أنزل التوراة ، هل تجدنى فى كتابك ذا صفتى ومخرجى ؟ » فقال برأسه هكذا ـ أى لا ، فقال ابنه : إى والذى أنزل التوراة ؛ إنا لنجد فى كتابنا صفتك ومخرجك ، و إنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله فقال : « أقيموا اليهودى عن أخيكم » ، ثم ولى كفنه والصلاة عليه . هذا إسناد جيد ، وله شواهد فى الصحيح عن أنس بن مالك رضى الله عنه .

وقال أبو القاسم البغوى : حدثنا عبد الواحد بن غياث ـ أبو بحر ـ حدثنا عبد العزيز بن مسلم ، حدثنا عاصم بن كليب عن أبيه عن الصلتان بن عاصم ، وذكر أن خاله قال : كنت جالساً عند النبى ﷺ إذ شخص بصره إلى رجل ، فإذا يهودى عليه قميص وسراويل ونعلان . قال : فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يكلمه وهو يقول : يارسول الله . فقال رسول الله ﷺ : « أتشهد أنى رسول الله ؟ » . قال لا . قال رسول الله ﷺ : « أتقرأ التوراة ؟ » ، قال نعم ، قال : « أتقرأ الإنجيل ؟ » ، قال نعم . قال : « والقرآن ؟ » قال : لا ، ولو تشاء قرأته . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « فيم تقرأ التوراة والإنجيل أتجدنى نبياً ؟ » قال : إنا نجد نعتك ومخرجك ، فلما خرجت رجونا أن تكون فينا ، فلما رأيناك عرفناك أنك لست به . قال رسول الله ﷺ : « ولم يايهودى ؟ » قال : إنا نجده مكتوباً ؛ يدخل من أمته الجنة سبعون ألفاً بغير حساب ، ولا نرى معك إلا نفراً يسيراً ، فقال رسول الله ﷺ : « إن أمتى لأكثر من سبعين ألفاً وسبعين ألفاً » هذا حديث غريب من هذا الوجه ، ولم يخرجوه .

وقال محمد بن إسحاق ، عن سالم مولى عبدالله بن مطيع عن أبى هريرة قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم : [يهود] فقال : أخرجوا أعلمكم » ، فقالوا عبد الله بن صوريا[2] ، فخلا به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فناشده بدينه ، وما أنعم الله به عليهم ، وأطعمهم من المن والسلوى ، وظللهم به من الغمام : « أتعلمنى رسول الله ؟ » قال : اللهم نعم . و إن القوم ليعرفون ما أعرف ، و إن صفتك ونعتك لمبين فى التوراة ، ولكنهم حسدوك . قال : « فما يمنعك أنت ؟ » قال أكره خلاف قومى ، وعسى أن يتبعوك و يسلموا فأسلم .

---

(١) الجلوبة : ذكور الإبل ، أو التى يحمل عليها متاع القوم ـ الجمع والواحد سواء .

(٢) كان من الأحبار المشهورين ، أسلم ثم كفر .

وقال سلمة بن الفضل عن محمد بن إسحاق عن محمد بن أبى محمد عن عكرمة عن ابن عباس أنه كان يقول : كتب رسول الله ﷺ إلى يهود خيبر . « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله صاحب موسى وأخيه ، والمصدق بما جاء به موسى ، ألا إن الله قال لكم يامعشر يهود وأهل التوراة ، وإنكم تجدون ذلك فى كتابكم : إن محمداً رسول الله (والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضواناً ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود . ذلك مثلهم فى التوراة ، ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيما)[1] ، وإنى أنشدكم بالله وبالذى أنزل عليكم ، وأنشدكم بالذى أطعم من كان قبلكم من أسلافكم وأسباطكم المن والسلوى ، وأنشدكم بالذى أيبس البحر لآبائكم حتى أنجاكم من فرعون وعمله — إلا أخبرتمونا : هل تجدون فيما أنزل الله عليكم أن تؤمنوا بمحمد ؟ فإن كنتم لاتجدون ذلك فى كتابكم فلا كره عليكم ، قد تبين الرشد من الغى ، وأدعوكم إلى الله وإلى نبيه صلى الله عليه وسلم » .

وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يسار فى كتاب المبتدا عن سعيد بن بشير ، عن قتادة عن كعب الأحبار . وروى غيره عن وهب بن منبه : أن بختنصر بعد أن خرب بيت المقدس واستذل بنى إسرائيل بسبع سنين ، رأى فى المنام رؤيا عظيمة هالته ، فجمع الكهنة والحزّار[2] ، وسألهم عن رؤياه تلك ، فقالوا ليقصها الملك حتى نخبره بتأويلها ، فقال : إنى نسيتها ، وإن لم تخبرونى بها إلى ثلاثة أيام — قتلتكم عن آخركم . فذهبوا خائفين وجلين من وعيده ، فسمع بذلك دانيال عليه السلام وهو فى سجنه ، فقال للسجان : اذهب إليه فقل له إن هاهنا رجلا عنده علم رؤياك وتأويلها ، فذهب إليه فأعلمه فطلبه ، فلما دخل عليه لم يسجد له ، فقال له ما منعك من السجود لى ؟ فقال : إن الله آتانى علماً وعلمنى وأمرنى أن لا أسجد لغيره ، فقال له بختنصر : إنى أحب الذين يوفون لأربابهم بالعهود ، فأخبرنى عن رؤياى . قال له دانيال : رأيت صنماً عظيماً رجلاه فى الأرض ورأسه فى السماء ، أعلاه من ذهب ووسطه من فضة ، وأسفله من نحاس ، وساقاه من حديد ، ورجلاه من فخار ، فبينما أنت تنظر إليه — وقد أعجبك حسنه وإحكام صنعته — قذفه الله بحجر من السماء ، فوقع على قمة رأسه حتى طحنه ، واختلط ذهبه وفضته ونحاسه وحديده وفخاره ، حتى تخيل لك أنه لو اجتمع الإنس والجن على أن يميزوا بعضه من بعض — لم يقدروا على ذلك . ونظرت إلى الحجر الذى قذف به يربو ويعظم وينتشر حتى ملأ الأرض كلها ، فصرت لاترى إلا الحجر والسماء . فقال له بختنصر : صدقت ؛ هذه الرؤيا التى رأيتها فما تأويلها ؟ فقال دانيال : أما الصنم فأمم مختلفة فى أول الزمان وفى وسطه وفى آخره ، وأما الحجر الذى قذف به

(١) آخر سورة الفتح (٢) الحزار : جمع حازر ، وهو الذى يقدر بالحدس والتخمين . والحزر : التقدير والخرص .

الصنم فدين يقذف الله به هذه الأمم فى آخر الزمان فيظهره عليها ، فيبعث الله نبياً أمياً من العرب فيدوخ به الأمم والأديان ، كما رأيت الحجر دوخ أصناف الصنم ، ويظهر على الأديان والأمم كما رأيت الحجر ظهر على الأرض كلها ، فيمحص الله به الحق ويزهق به الباطل ، ويهدى به أهل الضلالة ، ويعلم به الأميين ، ويقوى به الضعفة ، ويعز به الأذلة وينصر به المستضعفين . وذكر تمام القصة فى إطلاق بختنصر بنى إسرائيل على يدى دانيال عليه السلام .

وذكر الواقدى بأسانيده عن المغيرة بن شعبة فى قصة وفوده على المقوقس ملك الإسكندرية ، وسؤاله له عن صفات رسول الله ﷺ قريباً من سؤال هرقل لأبى سفيان صخر بن حرب . وذكر أنه سأل أساقفة النصارى فى الكنائس عن صفة رسول الله ﷺ وأخبروه عن ذلك ، وهى قطعة طويلة ذكرها الحافظ أبو نعيم فى الدلائل . وثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ مرّ بمدارس اليهود فقال لهم : « يامعشر اليهود أسلموا ، فو الذى نفسى بيده إنكم لتجدون صفتى فى كتبكم » الحديث وقال الإمام أحمد : حدثنا موسى بن داود . حدثنا فليح بن سليمان عن هلال بن على عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص ، فقلت أخبرنى عن صفات رسول الله ﷺ فى التوراة ، فقال أجل . والله إنه لموصوف فى التوراة كصفته فى القرآن : (ياأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً[1]) ، وحرزاً للأميين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ، لافظ ولا غليظ ولاصخاب فى الأسواق ، ولايدفع بالسيئة ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء ؛ بأن يقولوا لا إله إلا الله ، يفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفا . ورواه البخارى عن محمد بن سنان العوفى عن فليح به . ورواه أيضاً عن عبد الله ــ قيل ابن رجاء ، وقيل ابن صالح ــ عن عبد العزيز بن أبى سلمة عن هلال ابن علوية ، ولفظه قريب من هذا وفيه زيادة ورواه ابن جرير من حديث فليح عن هلال عن عطاء ، وزاد : قال عطاء فلقيت كعباً فسألته عن ذلك فما اختلف حرفاً . وقال فى البيوع : وقال سعيد عن هلال عن عطاء عن عبدالله بن سلام ، قال الحافظ أبو بكر البيهقى ، أخبرناه أبو الحسين بن الفضل القطان حدثنا عبد الله بن جعفر ، حدثنا يعقوب بن سفيان ، حدثنا أبو صالح ، حدثنا الليث ، حدثنى خالد بن يزيد عن سعيد بن أبى هلال ابن أسامة عن عطاء بن يسار عن ابن سلام أنه كان يقول : إنا لنجد صفة رسول الله ﷺ ؛ إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين ، أنت عبدى ورسولى ، سميته المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ، ولا يجزىء السيئة بمثلها ، ولكن يعفو ويتجاوز ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء ؛ بأن يشهدوا أن لا إله إلا الله يفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صما وقلوباً غلفا . وقال عطاء بن يسار : وأخبرنى الليثى أنه سمع كعب الأحبار يقول مثل ما قال ابن سلام .

---

(١) الآية ٤٥ من سورة الأحزاب .

قلت : وهذا عن عبد الله بن سلام أشبه ، ولكن الرواية عن عبد الله بن عمرو أكثر ، مع أنه كان قد وجد يوم اليرموك زاملتين من كتب أهل الكتاب ، وكان يحدث عنهما كثيراً ، وليعلم أن كثيراً من السلف كانوا يطلقون التوراة على كتب أهل الكتاب ، فهى عندهم أعم من التى أنزلها الله على موسى ، وقد ثبت شاهد ذلك من الحديث . وقال يونس عن محمد بن إسحاق : حدثنى محمد بن ثابت ابن شرحبيل عن ابن أبى أوفى ، عن أم الدرداء قالت : قلت لكعب الأحبار : كيف تجدون صفة رسول الله ﷺ فى التوراة ؟ قال : نجده محمد رسول الله ، اسمه المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ، وقد أعطى المفاتيح ؛ فيبصر الله به أعيناً عوراً ، ويسمع آذاناً وقراً ، ويقيم به ألسناً معوجة حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله واحد لا شريك له ، يعين به المظلوم ويمنعه . وقد روى عن كعب من غير هذا الوجه . وروى البيهقى عن الحاكم عن أبى الوليد الفقيه عن الحسن بن سفيان : حدثنا عتبة بن مكرم ، حدثنا أبو قطن عمرو بن الهيثم ، حدثنا حمزة بن الزيات عن سليمان الأعمش عن على بن مدرك عن أبى زرعة عن أبى هريرة (وما كنت بجانب الطور إذ نادينا[1]) . قال : نودوا يا أمة محمد ! استجبت لكم قبل أن تدعونى ، وأعطيتكم قبل أن تسألونى .

وذكر وهب بن منبه أن الله تعالى أوحى إلى داود فى الزبور : ياداود إنه سيأتى من بعدك نبى اسمه أحمد ومحمد ، صادقاً سيداً لا أغضب عليه أبداً ، ولا يغضبنى أبداً ، وقد غفرت له ـ قبل أن يعصينى ـ ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وأمته مرحومة ، أعطيتهم من النوافل مثل ما أعطيت الأنبياء ، وفرضت عليهم الفرائض التى افترضت على الأنبياء والرسل ، حتى يأتونى يوم القيامة ونورهم مثل نور الأنبياء ـ إلى أن قال : يا داود إنى فضلت محمداً وأمته على الأمم كلها .

والعلم بأنه موجود فى كتب أهل الكتاب معلوم من الدين ضرورة . وقد دل على ذلك آيات كثيرة فى الكتاب العزيز تكلمنا عليها فى مواضعها ولله الحمد . فمن ذلك قوله : (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم يؤمنون * وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين[2]) وقال تعالى : (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون[3]) ، وقال تعالى :(إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً * ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا[4]) أى إن كان وعدنا ربنا بوجود محمد وإرساله لكائن لامحالة فسبحان القدير على ما يشاء لا يعجزه شىء . وقال تعالى إخباراً عن القسيسين والرهبان : (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين[5]) . وفى قصة

---

(١) من الآية : ٤٦ من سورة القصص (٢) الآيتان : ٥٢ ، ٥٣ من سورة القصص (٣) الآية : ١٤٦ من سورة البقرة (٤) الآيتان : ١٠٧ ، ١٠٨ من آخر سورة الإسراء (٥) الآية : ٨٣ من سورة المائدة .

النجاشي وسلمان وعبد الله بن سلام وغيرهم كما سيأتي – شواهد كثيرة لهذا المعنى ، ولله الحمد والمنة .

وذكرنا في تضاعيف قصص الأنبياء ما تقدم الإشارة إليه ؛ من وصفهم لبعثة رسول الله ﷺ ونعته ، وبلد مولده ودار مهاجره ونعت أمته ؛ في قصة موسى وشعيا وإرمياء ودانيال وغيرهم . وقد أخبر الله تعالى عن آخر أنبياء بني إسرائيل وخاتمهم عيسى بن مريم : أنه قام في بني إسرائيل خطيباً قائلاً لهم : (إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ، ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد[1]) وفي الإنجيل البشارة بالفارقليط ، والمراد محمد ﷺ . وروى البيهقي عن الحاكم عن الأصم عن أحمد بن عبد الجبار عن يونس بن بكير عن يونس بن عمرو عن العيزار بن حرب عن عائشة رضى الله عنها ، أن رسول الله ﷺ قال : « مكتوب في الإنجيل ؛ لافظ ولا غليظ ، ولاصخاب في الأسواق ، ولا يجزى بالسيئة مثلها بل يعفو ويصفح » . وقال يعقوب بن سفيان : حدثنا فيض البجلي ، حدثنا سلام بن مسكين عن مقاتل بن حيان قال : أوحى الله عز وجل إلى عيسى بن مريم : « جد في أمري واسمع وأطع يا ابن الطاهرة البكر البتول[2] ، أنا خلقتك من غير فحل فجعلتك آية للعالمين ، فإياي فاعبد ، فبين لأهل سوران بالسريانية ، بلغ من بين يديك أني أنا الحق القائم الذي لا أزول ، صدقوا بالنبي الأمي العربي صاحب الجمل والمدرعة والعمامة – وهي التاج ، والنعلين ، والهراوة – وهي القضيب ، الجعد الرأس الصلت الجبين ، المقرون الحاجبين ، الأنجل العينين ، الأهدب الأشفار ، الأدعج العينين ، الأقنى الأنف الواضح الخدين ، الكث اللحية ، عرقه في وجهه كاللؤلؤ ، ريح المسك ينضح منه كأن عنقه إبريق فضة ، وكان الذهب يجرى في تراقيه . له شعرات من لبته إلى سرته تجرى كالقضيب ، ليس في بطنه شعر غيره ، شثن الكف والقدم ، إذا جاء مع الناس غمرهم ، وإذا مشى كأنما ينقلع من الصخر وينحدر من صبب ، ذو النسل القليل » – وكأنه أراد الذكور من صلبه – هكذا رواه البيهقي في دلائل النبوة من طريق يعقوب بن سفيان .

وروى البيهقي عن عثمان بن الحكم بن رافع بن سنان ، حدثني بعض عمومتي وآبائي : أنهم كانت عندهم ورقة يتوارثونها في الجاهلية ، حتى جاء الله بالإسلام وبقيت عندهم . فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ذكروها له وأتوه بها ، مكتوب فيها : بسم الله وقوله الحق وقول الظالمين في تباب ، هذا الذكر لأمة تأتي في آخر الزمان ، يبلون أطرافهم ويوترون على أوساطهم ، ويخوضون البحور إلى أعدائهم ، فيهم صلاة لو كانت في قوم نوح ماأهلكوا بالطوفان ، وفي عاد ماأهلكوا بالريح ، وفي ثمود ماأهلكوا بالصيحة : بسم الله وقوله الحق وقول الظالمين في تباب . ثم ذكر قصة أخرى قال فعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قرأت عليه فيها .

---

(١) من الآية : ٦ من سورة الصف .

(٢) البتول من النساء : العذراء المنقطعة من الأزواج ، وقيل المنقطعة إلى الله عن الدنيا .

وذكرنا عند قوله تعالى فى سورة الأعراف : (الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل[1]) — قصة هشام بن العاص الأموى ، حين بعثه الصديق فى سرية إلى هرقل يدعوه إلى الله عز وجل . فذكر أنه أخرج لهم صور الأنبياء فى رُقعة من آدم إلى محمد ، صلوات الله عليه وسلامه عليهم أجمعين — على النعت والشكل الذى كانوا عليه . ثم ذكر أنه لما أخرج صورة رسول الله ﷺ قام قائماً إكراماً له ، ثم جلس وجعل ينظر إليها و يتأملها . قال فقلنا له : من أين لك هذه الصورة ؟ فقال : إن آدم سأل ربه أن يريه جميع الأنبياء من ولده ، فأنزل عليه صورهم ، فكانت فى خزانة آدم عليه السلام عند مغرب الشمس ، فاستخرجها ذو القرنين ، فدفعها إلى دانيال . ثم قال : أما والله إن نفسى قد طابت بالخروج من ملكى ، وأنى كنت عبداً لأشركم ملكة حتى أموت ، ثم أجازنا فأحسن جائزتنا وسرحنا . فلما أتينا أبا بكر الصديق فحدثناه بما رأينا وما أجازنا وما قال لنا ، قال : فبكى أبو بكر وقال : مسكين لو أراد الله به خيراً لفعل ، ثم قال : أخبرنا رسول الله ﷺ أنهم واليهود يجدون نعت محمد عندهم رواه الحاكم بطوله ، فليكتب هاهنا من التفسير . ورواه البيهقى فى دلائل النبوة .

وقال الأموى : حدثنا عبد الله بن زياد عن ابن إسحاق ، قال وحدثنى يعقوب بن عبد الله بن جعفر بن عمرو بن أمية عن أبيه عن جده عمرو بن أمية قال : قدمت برقيق من عند النجاشى أعطانيهم فقالوا لى : ياعمرو لو ! رأينا رسول الله لعرفناه من غير أن تخبرنا ، فمر أبو بكر فقلت أهو هذا ؟ قالوا — لا ، فمر عمر فقلت أهو هذا ؟ قالوا — لا ، فدخلنا الدار فمر رسول الله ﷺ فنادونى : ياعمرو ، هذا رسول الله ﷺ ، فنظرت فإذا هو هو من غير أن يخبرهم به أحد ، عرفوه بما كانوا يجدونه مكتوباً عندهم . وقد تقدم إنذار سبأ لقومه و بشارته لهم بوجود رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شعر أسلفناه فى ترجمته فأغنى عن إعادته ، وتقدم قول الحبرين من اليهود لتبع اليمانى حين حاصر أهل المدينة : إنها مهاجر نبى يكون فى آخر الزمان ، فرجع عنها ونظم شعراً يتضمن السلام على النبى ﷺ .

قصة سيف بن ذى يزن الحميرى وبشارته بالنبى الأمى

وقال الحافظ أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل الخرائطى فى كتاب [هواتف الجان] : حدثنا على ابن حرب ، حدثنا أحمد بن عثمان بن حكيم ، حدثنا عمرو بن بكر — هو ابن بكار القعنبى — عن أحمد ابن القاسم عن محمد بن السائب الكلبى ، عن أبى صالح عن عبد الله بن عباس ، قال : لما ظهر سيف بن ذى يزن — قال ابن المنذر واسمه النعمان بن قيس — على الحبشة ، وذلك بعد مولد رسول الله ﷺ بسنتين ، أتته وفود العرب وشعراؤها تهنئه وتمدحه ، وتذكر ما كان من حسن بلائه ، وأتاه فيمن أتاه وفود

---

[1] من الآية : ١٥٧ من سورة الأعراف .

قريش ، فيهم عبد المطلب بن هاشم ، وأمية بن عبد شمس أبى عبد الله ، وعبد الله بن جدعان ، وخويلد ابن أسد ـ فى أناس من وجوه قريش ، فقدموا عليه صنعاء ، فإذا هو فى رأس غمدان الذى ذكره أمية ابن أبى الصلت فى قوله :

واشرب هنيئاً عليك التاج مرتفعاً فى رأس غُمدان داراً منك مِحلالا

فدخل عليه الآذن ، فأخبره بمكانهم فأذن لهم ، فدنا عبد المطلب فاستأذنه فى الكلام ، فقال له : إن كنت ممن يتكلم بين يدى فقد أذنا لك ، فقال له عبد المطلب : إن الله قد أحلك أيها الملك محلا رفيعاً صعباً منيعاً ، شامخاً باذخاً ، وأنبتك منبتاً طابت أرومته ، وعذبت جرثومته ، وثبت أصله ، وبسق فرعه ؛ فى أكرم موطن وأطيب معدن ، فأنت ـ أبيت اللعن ـ ملك العرب وربيعها الذى تخصب به البلاد ، ورأس العرب الذى له تنقاد ، وعمودها الذى عليه العماد ، ومعقلها الذى يلجأ إليه العباد ، وسلفك خير سلف ، وأنت لنا منهم خير خلف ، فلن يخمد من هم سلفه ، ولن يهلك من أنت خلفه ، ونحن أيها الملك أهل حرم الله وسدنة بيته ، أشخصنا إليك الذى أبهجك من كشف الكرب الذى قد فدحنا ، وفد التهنئة لا وفد المرزئة . قال : وأيهم أنت أيها المتكلم ؟ قال أنا عبد المطلب بن هاشم . قال ابن أختنا ؟ قال نعم ، قال ادن فأدناه ، ثم أقبل عليه وعلى القوم ، فقال : مرحباً وأهلا ، وناقة ورحلاً ، ومستناخاً سهلا ، وملكا ربحلا[1] ، يعطى عطاء جزلا . قد سمع الملك مقالتكم وعرف قرابتكم ، وقبل وسيلتكم ، فأنتم أهل الليل والنهار ، ولكم الكرامة ما أقمتم ، والحباء إذا ظعنتم . ثم نهضوا إلى دار الكرامة والوفود ، فأقاموا شهراً لا يصلون إليه ولا يأذن لهم بالانصراف ، ثم انتبه لهم انتباهة ، فأرسل إلى عبد المطلب فأدنى مجلسه وأخلاه ثم قال : ياعبد المطلب ! إنى مفض إليك من سر علمى مالو يكون غيرك لم أبح به ، ولكنى رأيتك معدنه فأطلعتك طليعه ، فليكن عندك مطوياً حتى يأذن الله فيه ، فإن الله بالغ أمره ؛ إنى أجد فى الكتاب المكنون والعلم المخزون الذى اخترناه لأنفسنا واحتجناه دون غيرنا ـ خبراً عظيما وخطراً جسيما ، فيه شرف الحياة وفضيلة الوفاء للناس عامة ولرهطك كافة ولك خاصة . فقال عبد المطلب : أيها الملك مثلك سرّ وبرّ[2] ، فما هو فداؤك أهل الوبر زمراً بعد زمر ؟ قال إذا ولد بتهامة ، غلام به علامة ، بين كتفيه شامة ـ كانت له الإمامة ، ولكم به الزعامة إلى يوم القيامة . قال عبد المطلب : أبيت اللعن ـ لقد أبت بخير ما آب به وافد ، ولولا هيبة الملك وإجلاله وإعظامه ـ لسألته من بشارته إياى ما أزداد به سروراً . قال ابن ذى يزن : هذا حينه الذى يولد فيه ، أو قد ولد . واسمه محمد ؛ يموت أبوه وأمه ويكفله جده وعمه . ولدناه مراراً ، والله باعثه جهاراً ، وجاعل له منا أنصاراً ؛ يعز بهم أولياءه ، ويذل بهم أعداءه ، ويضرب بهم الناس عن عرض ، ويستبيح بهم كرائم الأرض . يكسر الأوثان ويخمد النيران ، يعبد

(١) الربحل : الكثير العطاء والعظيم الشأن من الناس . (٢) يقال رجل بر يسر : أى يبر ويسر

الرحمن ويدحر الشيطان ، قوله فصل وحكمه عدل . يأمر بالمعروف ويفعله ، وينهى عن المنكر ويبطله .
فقال عبد المطلب : أيها الملك ! عز جدك وعلا كعبك ، ودام ملكك ، وطال عمرك ؛ فهذا نجارى ، فهل الملك سار لى بإفصاح ؟ فقد أوضح لى بعض الإيضاح . فقال ابن ذى يزن : والبيت ذى الحجب والعلامات على النقب — إنك ياعبد المطلب لجده غير كذب ، فخر عبد المطلب ساجداً ، فقال : ارفع رأسك ، ثلج صدرك وعلا أمرك ، فهل أحسست شيئاً مما ذكرت لك ؟ فقال : أيها الملك ! كان لى ابن وكنت به معجباً وعليه رفيقا ، فزوجته كريمة من كرائم قومه آمنة بنت وهب ، فجاءت بغلام سميته محمداً ، فمات أبوه وأمه وكفلته أنا وعمه . قال ابن ذى يزن : إن الذى قلت لك كما قلت ، فاحتفظ بابنك ، واحذر عليه اليهود فإنهم له أعداء ، ولن يجعل الله لهم عليه سبيلا ، واطو ما ذكرت لك دون هؤلاء الرهط الذين معك ؛ فإنى لست آمن أن تدخل لهم النفاسة من أن تكون لكم الرياسة ، فيطلبون له الغوائل ، وينصبون له الحبائل ، فهم فاعلون أو أبناؤهم . ولولا أنى أعلم أن الموت مجتاحى قبل مبعثه — لسرت بخيلى ورجلى حتى أصير بيثرب دار مملكته ؛ فإنى أجد فى الكتاب الناطق والعلم السابق : أن بيثرب استحكام أمره ، وأهل نصرته وموضع قبره ، ولولا أنى أقيه الآفات ، وأحذر عليه العاهات ، لأعلنت على حداثة سنه أمره ، ولأوطأت أسنان العرب عقبه ، ولكنى صارف ذلك إليك عن غير تقصير بمن معك .

قال : ثم أمر لكل رجل منهم بعشرة أعبد وعشرة إماء ، وبمائة من الإبل وحلتين من البرود وبخمسة أرطال من الذهب وعشرة أرطال فضة وكرش مملوء عنبراً ، وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك وقال له : إذا حال الحول فأتنى ، فمات ابن ذى يزن قبل أن يحول الحول ، فكان عبد المطلب كثيراً ما يقول : لايغبطنى رجل منكم بجزيل عطاء الملك ؛ فإنه إلى نفاد ، ولكن ليغبطنى بما يبقى لى ولعقبى من بعدى ذكره وفخره وشرفه ، فإذا قيل له متى ذلك ؟ قال : سيعلم ولو بعد حين .
قال : وفى ذلك يقول أمية بن عبد شمس :

جلبنا النصح تحقبه المطايا	على أكوار أجمال ونوق
مقلقلة مراتعها تعالى	إلى صنعاء من فج عميق[1]
تؤم بنا ابن ذى يزن وتغرى	بذات بطونها ذم الطريق
وترعى من مخائله بروقاً	مواصلة الوميض إلى بروق
فلما واصلت صنعاء حلت	بدار الملك والحسب العريق

وهذا رواه الحافظ أبو نعيم فى الدلائل ، من طريق عمرو بن بكير بن بكار القعنبى . ثم قال أبو نعيم : أخبرت عن أبى الحسن على بن إبراهيم بن عبد ربه بن محمد بن عبد العزيز بن عفير بن عبد العزيز

(١) هذا الشعر فى الأصول ، ولم يذكر فى الدلائل ولا فى غيره من المراجع .

ابن السفر بن عفير بن زرعة بن سيف بن ذى يزن ، حدثنى أبى أبو يزن إبراهيم ، حدثنا عمى أحمد ابن محمد أبو رجاء ـ به ، حدثنا عمى محمد بن عبد العزيز ، حدثنى عبد العزيز بن عفير عن أبيه عن زرعة ابن سيف بن ذى يزن الحميرى قال : لما ظهر جدى سيف بن ذى يزن على الحبشة ، وذكره بطوله .

وقال أبو بكر الخرائطى : حدثنا أبو يوسف يعقوب بن إسحاق القلوسى ، حدثنا العلاء بن الفضل ابن أبى سوية ، أخبرنى أبى عن أبيه عبد الملك بن أبى سوية عن جده أبى سوية عن أبيه خليفة ، قال : سألت محمد بن عثمان بن ربيعة بن سواة بن خثعم بن سعد فقلت : كيف سماك أبوك محمداً ؟ فقال : سألت أبى عما سألتنى عنه ، فقال : خرجت رابع أربعة من بنى تميم أنا منهم ، وسفيان بن مجاشع بن دارم ، وأسامة بن مالك بن جندب بن العقيد ، ويزيد بن ربيعة بن كنانة بن حربوص بن مازن ـ ونحن نريد ابن جفنة ملك غسان . فلما شارفنا الشام نزلنا على غدير عليه شجرات ، فتحدثنا فسمع كلامنا راهب ، فأشرف علينا فقال : إن هذه لغة ماهى بلغة هذه البلاد ، فقلنا : نعم نحن قوم من مضر ، قال من أى المضريين ؟ قلنا من خندف ، قال : أما إنه سيبعث وشيكاً نبى خاتم النبيين ، فسارعوا إليه وخذوا بحظكم منه ترشدوا . فقلنا له ماسمه ؟ قال : اسمه محمد . قال فرجعنا من عند ابن جفنة فولد لكل واحد منا ابن فسماه محمداً ـ يعنى أن كل واحد منهم طمع فى أن يكون هذا النبى المبشر به ولده .

وقال الحافظ أبو بكر الخرائطى : حدثنا عبد الله بن أبى سعد ، حدثنا حازم بن عقال بن الزهر ابن حبيب بن المنذر بن أبى الحصين بن السموءل بن عاديا ، حدثنى جابر بن جدان بن جميع بن عثمان ابن سماك بن الحصين بن السموءل بن عاديا ، قال : لما حضرت الأوس بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر ـ الوفاة ، اجتمع إليه قومه من غسان ، فقالوا : إنه قد حضرك من أمر الله ماترى ، وكنا نأمرك بالتزوج فى شبابك فتأبى ، وهذا أخوك الخزرج له خمسة بنين ، وليس لك ولد غير مالك ، فقال : لن يهلك هالك ترك مثل مالك ، إن الذى يخرج النار من الوثيمة[1] ـ قادر أن يجعل لمالك نسلاً ورجالا بُسلا ، وكل إلى الموت . ثم أقبل على مالك وقال : أى بنى ! المنية ولا الدنية ، العقاب ولا العتاب ، التجلد ولا التلدد[2] ، القبر خير من الفقر ، إنه من قل ذل ، ومن كر فر ، من كرم الكريم ، الدفع عن الحريم . والدهر يومان : فيوم لك ويوم عليك ؛ فإذا كان لك فلا تبطر ، وإذا كان عليك فاصطبر ، وكلاهما سينحسر ، ليس يثبت منهما الملك المتوج ، ولا اللئيم المُعلهَج[3] ، سلم ليومك حياك ربك ، ثم أنشأ يقول :

---

(١) الوثيمة : الحجارة ، يريد مايكون من شرر إذا قدحت الحجارة بالزند .

(٢) تلدد : تلفت يميناً وشمالا وتحير متبلدا .　　(٣) أى الأحمق .

شهدت السبايا يوم آل محرق ... وأدرك أمرى صيحة الله فى الحجر
فلم أر ذا ملك من الناس واحداً ... ولا سوقة إلا إلى الموت والقبر
فعلّ الذى أردى ثموداً وجرهماً ... سيعقب لى نسلاً على آخر الدهر
تقر بهم من آل عمرو بن عامر ... عيون لدى الداعى إلى طلب الوتر
فإن لم تك الأيام أبلين جدتى ... وشيبن رأسى والمشيب مع العمر
فإن لنا رباً علا فوق عرشه ... عليما بما يأتى من الخير والشر
ألم يأت قومى أن لله دعوة ... يفوز بها أهل السعادة والبر؟
إذا بعث المبعوث من آل غالب ... بمكة فيما بين مكة والحجر
هنالك فابغوا نصره ببلادكم ... بنى عامر إن السعادة فى النصر

قال : ثم قضى من ساعته

باب فى هواتف الجان

وهو ماألقته الجان على ألسنة الكهان ، ومسموعاً من الأوثان

[وقد تقدم كلام شق وسطيح لربيعة بن نصر ملك اليمن ، فى البشارة بوجود رسول الله ﷺ : رسول ذكىّ ، يأتى إليه الوحى من قبل العلى . وسيأتى فى المولد قول سطيح لعبد المسيح : إذ كثرت التلاوة وغاضت بحيرة ساوة ، وجاء صاحب الهراوة — يعنى بذلك رسول الله ﷺ كما سيأتى بيانه مفصلا][1] .

وقال البخارى : حدثنا يحيى بن سليمان الجعفى ، حدثنى ابن وهب ، حدثنى عمرو — هو محمد بن زيد أن سالماً حدثه عن عبد الله بن عمر قال : ماسمعت عمر يقول لشىء قط : إنى لأظنه كذا — إلا كان كما يظن . بينما عمر بن الخطاب جالس إذ مر به رجل جميل ، فقال لقد أخطأ ظنى — أو إن هذا على دينه فى الجاهلية أو لقد كان كاهنهم — علىّ الرجل ، فدعى به فقال له ذلك ، فقال : ما رأيت كاليوم أستقبل به رجل مُسلم . قال فإنى أعزم عليك إلا ماأخبرتنى ، قال : كنت كاهنهم فى الجاهلية ، قال : فما أعجب ماجاءتك به جنيتك ؟ قال : بينما أنا فى السوق يوماً جاءتنى أعرف فيها الفزع فقالت :

ألم تر الجن وإبلاسها[2] ... ويأسها من بعد إنكاسها ؟[3]
ولحوقها بالقلاص وأحلاسها[4]

---

(١) مابين القوسين غير مثبت فى بعض النسخ . (٢) إبلاسها : انكسارها وحزنها وتحيرها ، والإبلاس : الحيرة والسكون من الخوف والحزن (٣) أى ضعفها وذلها وإطراقها . (٤) الحلس : ما ولى ظهر البعير والدابة من كساء رقيق تحت الرحل ، والبرذعة ، والسرج . والقلاص — جمع قلوص : وهى الناقة الشابة .

قال عمر : صدق . بينما أنا نائم عند آلهتهم ، إذ جاء رجل بعجل فذبحه ، فصرخ به صارخ ـ لم أسمع صارخاً قط أشد صوتاً منه ـ يقول : ياجَليح[1] ، أمر نَجيح ، رجل فصيح ، يقول لا إلٓه إلا أنت فوثب القوم ، فقلت : لا أبرح حتى أعلم ماوراء هـذا . ثم نادى : ياجَليح أمر نجيح ، رجل فصيح ، يقول لا إلٓه إلا الله ، فقمت فما نشبنا أن قيل هذا نبي . تفرد به البخاري .

وهذا الرجل هو سواد بن قارب الأزدي ـ ويقال السدوسي ـ من أهل السراة من جبال البلقاء له صحبة ووفادة . قال أبو حاتم وابن منده : روى عنه سعيد بن جبير ، وأبو جعفر محمد بن علي ، وقال البخاري له صحبة . وهكذا ذكره في أسماء الصحابة أحمد بن روح البرذعي الحافظ ، والدار قطني وغيرهما . وقال الحافظ عبد الغني بن سعيد المصري : سواد بن قارب بالتخفيف . وقال عثمان الوقاصي عن محمد بن كعب القرظي : كان من أشراف أهل اليمن ، ذكره أبو نعيم في الدلائل . وقد روى حديثه من وجوه أخر مطولة بالبسط من رواية البخاري .

وقال محمد بن إسحاق : حدثني من لا أتهم ، عن عبد الله بن كعب مولى عثمان بن عفان ، أنه حُدِّث أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، بينما هو جالس في الناس في مسجد رسول الله ﷺ ، إذ أقبل رجل من العرب داخلاً المسجد يريد عمر بن الخطاب . فلما نظر إليه عمر قال : إن الرجل لعلى شِركه ما فارقه بعد ، أو لقد كان كاهناً في الجاهلية ـ فسلم عليه الرجل ثم جلس ، فقال له عمر : هل أسلمت ؟ قال نعم يا أمير المؤمنين . قال فهل كنت كاهناً في الجاهلية ؟ فقال الرجل سبحان الله يا أمير المؤمنين ! لقد خِلتَ فيَّ واستقبلتني بأمر ما أراك قلته لأحد من رعيتك منذ وليتَ ماوليتَ . فقال عمر : اللهم غفراً ، قد كنا في الجاهلية على شر من هذا ؛ نعبد الأصنام ونعتنق الأوثان ، حتى أكرمنا الله برسوله وبالإسلام . قال نعم ، والله يا أمير المؤمنين لقد كنت كاهناً في الجاهلية . قال فأخبرني ما جاء به صاحبك ؟ قال جاءني قبل الإسلام بشهر أو شَيْعِه[2] فقال : ألم تر إلى الجن وإبلاسها ، وإياسها من دينها ، ولُحوقها بالقِلاص وأحلاسها .

قال ابن إسحاق : هذا الكلام سجع وليس بشعر . [قال عبد الله بن كعب] : فقال عمر عند ذلك يحدث الناس : والله إني لعند وَثَن من أوثان الجاهلية في نفر من قريش ، قد ذبح له رجل من العرب عجلاً ، فنحن ننتظر قسمه أن يقسم لنا منه ، إذ سمعت من جوف العجل صوتاً ماسمعت صوتاً قط أشد منه ، وذلك قبل الإسلام بشهر أو شيعه يقول : ياذريح[3] ، أمر نجيح ، رجل يصيح ، يقول لا إلٓه إلا الله . قال ابن هشام : ويقال رجل يصيح ، بلسان فصيح ، يقول لا إلٓه إلا الله . قال وأنشدني بعض أهل العلم بالشعر :

---

(١) قال شارح البخاري معناه : الوقح المكافح بالعداوة . قيل يحتمل أن يكون نادى رجلا بعينه ، أو أراد من كان بتلك الصفة . (٢) أي دونه بقليل ، وشيع كل شيء ما هو له تبع . (٣) آل ذريح : بطن مشهور عند العرب .

عجبت للجن وإبلاسها وشَدِّها العيس بأحلاسها
تهوى إلى مكة تبغى الهدى ما مُؤمنو الجن كأنجاسها

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا يحيى بن حجر بن النعمان الشامى ، حدثنا على بن منصور الأنبارى عن محمد بن عبد الرحمن الوقاصى عن محمد بن كعب القرظى ، قال : بينما عمر بن الخطاب رضى الله عنه ذات يوم جالس، إذ مر به رجل ، فقيل يا أمير المؤمنين أتعرف هذا المار ؟ قال ومن هذا ؟ قالوا هذا سواد بن قارب ، الذى أتاه رئيه بظهور رسول الله ﷺ . قال فأرسل إليه عمر ، فقال له : أنت سواد ابن قارب ؟ قال نعم . قال فأنت على ما كنت عليه من كهانتك ؟ قال فغضب ، وقال ما استقبلنى بهذا أحد منذ أسلمت يا أمير المؤمنين ، فقال عمر يا سبحان الله ! ما كنا عليه من الشرك أعظم مما كنت عليه من كهانتك . فأخبرنى ما أنبأك رَئيّك بظهور رسول الله ﷺ ؟ قال نعم يا أمير المؤمنين ؛ بينما أنا ذات ليلة بين النائم واليقظان ، إذ أتانى رئِّيى فضربنى برجله . وقال قم يا سواد بن قارب ، واسمع مقالتى واعقل إن كنت تعقل ؛ إنه قد بعث رسول من لؤى بن غالب ، يدعو إلى الله و إلى عبادته . ثم أنشأ يقول :

عجبت للجن وتطلابها وشـدِّها العيس بأقتابها
تهوى إلى مكة تبغى الهدى ما صادق الجن ككذابها
فارحل إلى الصفوة من هاشم ليس قداماها كأذنابها

قال : قلت دعنى أنام فإنى أمسيت ناعساً . قال : فلما كانت الليلة الثانية أتانى فضربنى برجله . وقال قم يا سواد بن قارب واسمع مقالتى ، واعقل إن كنت تعقل ؛ إنه بعث رسول من لؤى بن غالب يدعو إلى الله وإلى عبادته ، ثم أنشأ يقول :

عجبت للجن وتحيارها وشدّها العيسَ بأكوارها
تهوى إلى مكة تبغى الهدى ما مؤمنو الجن ككفارها
فارحل إلى الصفوة من هاشم بين روابيها وأحجارها

قال : قلت دعنى أنام ؛ فإنى أمسيت ناعساً ، فلما كانت الليلة الثالثة أتانى فضربنى برجله ، وقال : قم يا سواد بن قارب فاسمع مقالتى ، واعقل إن كنت تعقل ؛ إنه قد بعث رسول من لؤى بن غالب يدعو إلى الله وإلى عبادته . ثم أنشأ يقول :

عجبت للجن وتحساسها وشدّها العيسَ بأحلاسها
تهوى إلى مكة تبغى الهدى ما خَـيِّرِ الجن كأنجاسها
فارحل إلى الصفوة من هاشم واسم بعينيك إلى رأسها

قال : فقمت وقلت : قد امتحن الله قلبي ، فرحّلت ناقتي ثم أتيت المدينة — يعني مكة — فإذا رسول الله ﷺ في أصحابه ، فدنوت فقلت : اسمع مقالتي يارسول الله ، قال هات . فأنشأت أقول :

أتاني نجيّ بعد هدء ورقدة ... ولم يك فيما قد تلوت بكاذب

ثلاث ليال قوله كل ليلة ... أتاك رسول من لؤى بن غالب

فشمرت عن ذيلي الإزار ووسطت ... بي الذعلب الوجناء غبر السباسب

فأشهد أن الله لا شيء غيره ... وأنك مأمون على كل غالب

وأنك أدنى المرسلين وسيلة ... إلى الله يابن الأكرمين الأطايب

فمرنا بما يأتيك ياخير من مشى ... وإن كان فيما جاء شيب الذوائب

وكن لي شفيعاً يوم لا ذو شفاعة ... سواك بمغن عن سواد بن قارب

قال ففرح رسول الله ﷺ وأصحابه بمقالتي فرحاً شديداً ، حتى رؤى الفرح في وجوههم . قال فوثب إليه عمر بن الخطاب فالتزمه ، وقال قد كنت أشتهي أن أسمع هذا الحديث منك ، فهل يأتيك رئيك اليوم ؟ قال : أما منذ قرأت القرآن فلا ، ونعم العوض كتاب الله من الجن . ثم قال عمر : كنا يوماً في حي من قريش يقال لهم آل ذريح ، وقد ذبحوا عجلا لهم والجزار يعالجه ، إذ سمعنا صوتاً من جوف العجل — ولا نرى شيئاً — قال : ياآل ذريح ! أمر نجيح ، صائح يصيح ، بلسان فصيح ، يشهد أن لا إله إلا الله ، وهذا منقطع من هذا الوجه ، ويشهد له رواية البخارى . وقد تساعدوا على أن السامع الصوت من العجل ، هو عمر بن الخطاب ، والله أعلم .

وقال الحافظ أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل الخرائطي في كتابه الذي جمعه في هواتف الجان : حدثنا أبو موسى عمران بن موسى المؤدب ، حدثنا محمد بن عمران بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، حدثنا سعيد بن عبيد الله الوصابي عن أبيه عن أبي جعفر محمد بن علي ، قال : دخل سواد بن قارب السدوسي على عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال : نشدتك بالله ياسواد بن قارب ، هل تحسن اليوم من كهانتك شيئاً ؟ فقال : سبحان الله ياأمير المؤمنين ! مااستقبلت أحداً من جلسائك بمثل مااستقبلتني به ، قال سبحان الله ياسواد ! ما كنا عليه من شركنا أعظم مما كنت عليه من كهانتك ، والله ياسواد لقد بلغني عنك حديث إنه لعجيب من العجب ، قال إي والله ياأمير المؤمنين ! إنه لعجب من العجب . قال فحدثنيه ، قال : كنت كاهناً في الجاهلية ، فبينا أنا ذات ليلة نائم إذا أتاني نجيّ فضربني برجله . ثم قال ياسواد اسمع أقل لك ، قلت هات ، قال :

عجبت للجن وأنجاسها ... ورحلها العيس بأحلاسها

تهوى إلى مكة تبغي الهدى ... مامؤمنوها مثل أرجاسها

فارحل إلى الصفوة من هاشم — واسم بعينيك إلى رأسها

قال فنمت ولم أحفل بقوله شيئاً ، فلما كانت الليلة الثانية أتاني فضربني برجله ، ثم قال لي : قم ياسواد بن قارب ، اسمع أقل لك ، قلت هات . قال :

عجبت للجن وتطلابها — وشدها العيس بأقتابها
تهوى إلى مكة تبغي الهدى — ما صادق الجن ككذابها
فارحل إلى الصفوة من هاشم — ليس المقاديم كأذنابها

قال : فحرك قوله مني شيئاً ونمت ، فلما كانت الليلة الثالثة أتاني فضربني برجله ، ثم قال ياسواد بن قارب ! أتعقل أم لا تعقل ؟ قلت وما ذاك ؟ قال ظهر بمكة نبي يدعو إلى عبادة ربه فالحق به ، اسمع أقل لك . قلت هات ، قال :

عجبت للجن وتنفارها — ورحلها العيس بأكوارها
تهوى إلى مكة تبغي الهدى — ما مؤمنو الجن ككفارها
فارحل إلى الصفوة من هاشم — بين روابيها وأحجارها

قال : فعلمت أن الله قد أراد بي خيراً فقمت إلى بردة لي ففتقتها ولبستها ووضعت رجلي في غرز ركاب الناقة ، وأقبلت حتى انتهيت إلى النبي ﷺ فعرض على الإسلام فأسلمت ، وأخبرته الخبر فقال : « إذا اجتمعت المسلمون فأخبرهم » ، فلما اجتمع المسلمون قمت فقلت :

أتاني نجيي بعد هدء ورقدة — ولم يك فيما قد بلوت بكاذب
ثلاث ليال قوله كل ليلة — أتاك رسول من لؤى بن غالب
فشمرت عن ذيلي الإزار ووسطت — بي الذعلب الوجناء غبر السباسب (1)
وأعلم أن الله لارب غيره — وأنك مأمون على كل غائب
وأنك أدنى المرسلين وسيلة — إلى الله يابن الأكرمين الأطايب
فمرنا بما يأتيك ياخير مرسل — وإن كان فيما جئت شيب الذوائب (2)

قال فسر المسلمون بذلك ، فقال عمر : هل تحس اليوم منها بشيء ؟ قال أما إذا علمني الله القرآن فلا .

وقد رواه محمد بن السائب الكلبي عن أبيه عن عمر بن حفص ، قال : لما ورد سواد بن قارب على عمر قال : ياسواد بن قارب ! مابقي من كهانتك ؟ فغضب وقال : ما أظنك يا أمير المؤمنين استقبلت أحداً من العرب بمثل هذا ، فلما رأى مافي وجهه من الغضب ، قال : انظر سواد ! للذي كنا عليه قبل اليوم من الشرك أعظم . ثم قال : ياسواد ، حدثني حديثاً كنت أشتهي أسمعه منك ، قال نعم . بينا أنا في إبل

(١) الذعلب بالكسر : الناقة السريعة (٢) الذوائب : جمع ذؤابة : وهي الناصية .

لى بالسراة ليلا وأنا نائم ، وكان لى نجيّ من الجن ، أتانى فضربنى برجله فقال لى قم ياسواد بن قارب ، فقد ظهر بتهامة نبي يدعو إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، فذكر القصة كما تقدم ، وزاد فى آخر الشعر :

وكن لى شفيعاً يوم لا ذو قرابة ... سواك بمغن عن سواد بن قارب[1]

فقال رسول الله ﷺ : « سر فى قومك وقل هذا الشعر فيهم » .

ورواه الحافظ ابن عساكر من طريق سليمان بن عبد الرحمن عن الحكم بن يعلى بن عطاء المحاربى عن عباد بن عبد الصمد عن سعيد بن جبير قال : أخبرنى سواد بن قارب الأزدى ، قال : كنت نائماً على جبل من جبال السراة ، فأتانى آت فضربنى برجله — وذكر القصة أيضاً .

ورواه أيضاً من طريق محمد بن البراء عن أبى بكر بن عياش عن أبى إسحاق عن البراء ، قال : قال سواد بن قارب : كنت نازلاً بالهند فجاءنى رئيّ ذات ليلة فذكر القصة . وقال بعد إنشاد الشعر الأخير : فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه وقال : « أفلحت ياسواد » .

وقال أبو نعيم فى كتاب [دلائل النبوة] : حدثنا عبد الله بن محمد بن جعفر ، حدثنا عبد الرحمن ابن الحسن ، حدثنا على بن حرب ، حدثنا أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب عن أبيه عن عبد الله العمانى ، قال : كان منا رجل يقال له مازن بن المضوب ، يسدن صنما بقرية يقال لها «سمايا» من عمان ، وكانت تعظمه بنو الصامت و بنو حطامة ومهرة — وهم أخوال مازن . وأمه زينب بنت عبد الله بن ربيعة بن حويص أحد بنى نمران ، قال مازن : فعترنا يوماً عند الصنم عتيرة — وهى الذبيحة[2] — فسمعت صوتاً من الصنم يقول : يامازن ! اسمع تسر ، ظهر خير و بطن شر ، بعث نبى من مضر ، بدين الله الأكبر ، فدع نحيتاً من حجر ، تسلم من حر سقر . قال ففزعت لذلك فزعاً شديداً . ثم عترنا بعد أيام عتيرة أخرى ، فسمعت صوتاً من الصنم يقول : أقبل إلى أقبل ، تسمع مالاتجهل ، هذا نبى مرسل ، جاء بحق منزل ، فآمن به كى تعدل ، عن حر نار تشعل ، وقودها الجندل . قال مازن : فقلت إن هذا لعجب ، و إن هذا لخير يراد بى . وقدم علينا رجل من الحجاز فقلت ماالخبر وراءك ؟ فقال ظهر رجل يقال له أحمد ، يقول لمن أتاه : أجيبوا داعى الله ، فقلت : هذا نبأ ماسمعت ، فثرت إلى الصنم فكسرته جذاذاً ، وركبت راحلتى حتى قدمت على رسول الله ﷺ فشرح الله صدرى للإسلام فأسلمت ، وقلت :

كسرت بأجرا جذاذاً وكان لنا ... ربا نطيف به ضلا بتضلال

فالهاشمى هدانا من ضلالتنا ... ولم يكن دينه منى على بال

ياراكباً بلغن عمراً و إخوتها ... إنى لمن قال ربى بأجرا قالى

يعنى بعمرو الصامت ، و إخوتها — حطامة . فقلت يارسول الله ! إنى امرؤ مولع بالطرب وبالهلوك

---

(١) روى : بمغن فتيلا عن سواد بن قارب . وهذا البيت يذكره النحويون شاهداً على جر خبر «لا» النافية بالباء الزائدة على قلة . (٢) شاة كانت تذبح فى رجب . أو ذبيحة تذبح للأصنام فيصب دمها على رأسها .

من النساء ، وشرب الخمر ، وألحت علينا السنون ، فأذهبن الأموال، وأهزلن السرارى ، وليس لى ولد ، فادعو الله أن يذهب عنى ما أجد و يأتينا بالحيا ، و يهب لى ولداً . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « اللهم أبدله بالطرب قراءة القرآن ، وبالحرام الحلال وبالإثم وبالعهر عفة ، وآته بالحيا وهب له ولداً » . قال فأذهب الله عنى ماأجد ، وأخصبت عمان ، وتزوجت أربع حرائر ، وحفظت شطر القرآن ، ووهب لى حيان بن مازن ، وأنشأ يقول :

إليك رسول الله خبت مطيتى تجوب الفيافى من عمان إلى العرج
لتشفع لى ياخير من وطىء الحصى فيغفر لى ربى فأرجع بالفلج
إلى معشر خالفت فى الله دينهم فلا رأيهم رأيى ولا شرجهم شرجى
وكنت امرأ بالخمر والعهر مولعاً شبابى حتى آذن الجسم بالنهج
فبدلنى بالخمر خوفاً وخشية وبالعهر إحصاناً فحصن لى فرجى
فأصبحت همى فى الجهاد ونيتى فلله ماصومى ولله ماحجى

قال : فلما أتيت قومى أنبونى وشتمونى ، وأمروا شاعراً لهم فهجانى ، فقلت إن رددت عليه فإنما أهجو نفسى . فرحلت عنهم فأتتنى منهم زلفة عظيمة وكنت القيم بأمورهم ، فقالوا ياابن عم ! عبنا عليك أمراً وكرهنا ذلك ، فإن أبيت ذلك فارجع وقم بأمورنا وشأنك وما تدين به . فرجعت معهم وقلت :

لبغضكم عندنا مر مذاقته وبغضنا عندكم ياقومنا لبن
لايفطن الدهر إن بثت معائبكم وكلكم حين يثنى عيبنا فطن
شاعرنا مفحم عنكم وشاعركم فى حدبنا مبلغ فى شتمنا لسن
مافى القلوب عليكم ـ فاعلموا ـ وغر وفى قلوبكم البغضاء والإحن

قال مازن : فهداهم الله بعد إلى الإسلام جميعاً .

وروى الحافظ أبو نعيم من حديث عبد الله بن محمد بن عقيل ، عن جابر بن عبد الله قال : إن أول خبر كان بالمدينة بمبعث رسول ﷺ : أن امرأة بالمدينة كان لها تابع من الجن ، فجاء فى صورة طائر أبيض فوقع على حائط لهم ، فقالت له : لم لاتنزل إلينا فتحدثنا ونحدثك ؟ وتخبرنا ونخبرك ؟ فقال لها : إنه قد بعث نبى بمكة ، حرم الزنا ومنع منا القرار .

وقال الواقدى : حدثنى عبدالرحمن بن عبد العزيز عن الزهرى عن على بن الحسين . قال : إن أول خبر قدم المدينة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن امرأة تدعى « فاطمة » ، كان لها تابع ، فجاءها ذات يوم ، فقام على الجدار ، فقالت : ألا تنزل ؟ فقال لا ـ إنه قد بعث الرسول الذى حرم الزنا .

---

(١) الفلج : الظفر والفوز (٢) المراد طريقهم ومنهجهم .

وأرسله بعض التابعين أيضاً وسماه بابن لوذان ، وذكر أنه كان قد غاب عنها مدة ، ثم لما قدم عاتبته فقال : إني جئت الرسول فسمعته يحرم الزنا ، فعليك السلام .

وقال الواقدي : حدثني محمد بن صالح عن عاصم بن عمر بن قتادة قال : قال عثمان بن عفان : خرجنا في عير إلى الشام — قبل أن يبعث رسول الله ﷺ ، فلما كنا بأفواه الشام — وبها كاهنة — فتعرضتنا ، فقالت : أتاني صاحبي فوقف على بابي ، فقلت ألا تدخل ؟ فقال لا سبيل إلى ذلك ، خرج أحمد وجاء أمر لا يطاق ، ثم انصرفت فرجعت إلى مكة ، فوجدت رسول الله ﷺ قد خرج بمكة يدعو إلى الله عز وجل .

وقال الواقدي : حدثني محمد بن عبد الله الزهري ، قال : كان الوحي يسمع ، فلما كان الإسلام منعوا . وكانت امرأة من بني أسد يقال لها « سعيرة » ، لها تابع من الجن ، فلما رأى الوحي لا يستطاع ، أتاها فدخل في صدرها فضج في صدرها فذهب عقلها ، فجعل يقول من صدرها : وضع العناق ، ومنع الرفاق ، وجاء أمر لا يطاق ، وأحمد حرم الزنا .

وقال الحافظ أبو بكر الخرائطي : حدثنا عبد الله بن محمد البلوي — بمصر — حدثنا عمارة بن زيد ، حدثنا عيسى بن يزيد عن صالح بن كيسان عمن حدثه ، عن مرداس بن قيس السدوسي قال : حضرت النبي ﷺ — وقد ذكرت عنده الكهانة وما كان من تغييرها عند مخرجه — فقلت : يا رسول الله ! قد كان عندنا في ذلك شيء ! أخبرك أن جارية منا يقال لها « الخلصة » لم يعلم عليها إلا خيراً ، إذ جاءتنا فقالت : يامعشر دوس ! العجب العجب لما أصابني ، هل علمتم إلا خيراً ؟ قلنا وما ذاك ؟ قالت إني لفي غنمي إذ غشيتني ظلمة ووجدت كبس[1] الرجل مع المرأة ، فقد خشيت أن أكون قد حبلت ، حتى إذا دنت ولادتها وضعت غلاماً أغضف[2] له أذنان كأذني الكلب ، فمكث فينا حتى إنه ليلعب مع الغلمان ، إذ وثب وثبة وألقى إزاره وصاح بأعلى صوته وجعل يقول : ياويلة ياويلة ، ياعولة ياعولة ، ياويل غنم ، ياويل فهم ، من قابس النار . الخيل والله وراء العقبة ، فيهن فتيان حسان نجبة . قال فركبنا وأخذنا للأداة ، وقلنا يا ويلك ما ترى ؟ فقال [هل] من جارية طامث ؟ فقلنا ومن لنا بها ؟ فقال شيخ منا : هي والله عندي عفيفة الأم ، فقلنا فعجلها . فأتى بالجارية وطلع الجبل ، وقال للجارية : اطرحي ثوبك واخرجي في وجوههم ، وقال للقوم اتبعوا أثرها ، وقال لرجل منا يقال له أحمد بن حابس : يا أحمد بن حابس ! عليك أول فارس ، فحمل أحمد فطعن أول فارس فصرعه وانهزموا فغنمناهم . قال فابتنينا عليهم بيتاً وسميناه « ذا الخلصة » . وكان لا يقول لنا شيئاً إلا كان كما يقول ، حتى إذا كان مبعثك يارسول الله ،

---

(١) الكبس : طم الحفرة بالتراب ، والكابوس يكنى به عن البضع ، وكبس الرجل المرأة : فعل بها مرة .
(٢) الغضف — محركة : استرخاء في الأذن .

قال لنا يوماً : يامعشر دوس ! نزلت بنو الحارث بن كعب ، فركبنا ، فقال لنا : أكدسوا الخيل كدساً ، أحشوا القوم رمساً ، أنفوهم غدية ، واشربوا الخمر عشية . قال فلقيناهم فهزمونا وغلبونا ، فرجعنا إليه فقلنا ماحالك ؟ وما الذى صنعت بنا ؟ فنظرنا إليه وقد احمرت عيناه وانتصبت أذناه ، وانبرم غضباناً حتى كاد أن ينفطر ، وقام فركبنا واغتفرنا هذه له ، ومكثنا بعد ذلك حيناً . ثم دعانا فقال : هل لكم فى غزوة تهب لكم عزاً ؟ وتجعل لكم حرزاً ؟ ويكون فى أيديكم كنزاً ؟ فقلنا ما أحوجنا إلى ذلك ! فقال اركبوا فركبنا ، فقلنا ماتقول ؟ فقال بنو الحارث بن مسلمة ، ثم قال قفوا فوقفنا . ثم قال عليكم بفهم ، ثم قال ليس لكم فيهم دم ، عليكم بمضر هم أرباب خيل ونعم ، ثم قال — لا ، رهط دريد ابن الصمة ، قليل العدد وفى الذمة ، ثم قال — لا ، ولكن عليكم بكعب بن ربيعة ، وأسكنوها ضيعة عامر بن صعصعة ، فليكن بهم الوقيعة . قال : فلقيناهم فهزمونا وفضحونا ، فرجعنا وقلنا : ويلك ماذا تصنع بنا ؟ قال ما أدرى ، كذبنى الذى كان يصدقنى . أسجنونى فى بيتى ثلاثاً ثم ائتونى ، ففعلنا به ذلك ثم أتيناه بعد ثالثة ، ففتحنا عنه فإذا هو كأنه حجرة نار ، فقال : يامعشر دوس ! حرست السماء وخرج خير الأنبياء . قلنا أين ؟ قال بمكة وأنا ميت فادفنونى فى رأس جبل ، فإنى سوف أضطرم ناراً ، وإن تركتمونى كنت عليكم عاراً ، فإذا رأيتم اضطرامى وتلهبى فاقذفونى بثلاثة أحجار ، ثم قولوا مع كل حجر : باسمك اللهم فإنى أهدى وأطفى . قال : وإنه مات فاشتعل ناراً ، ففعلنا به ما أمر ، وقد قذفناه بثلاثة أحجار نقول مع كل حجر : باسمك اللهم ، فخمد وطفى . وأقمنا حتى قدم علينا الحاج ، فأخبرونا بمبعثك يارسول الله . غريب جداً .

وروى الواقدى عن أبيه عن ابن أبى ذئب عن مسلم بن جندب عن النضر بن سفيان الهذلى عن أبيه ، قال : خرجنا فى عير لنا إلى الشام ، فلما كنا بين الزرقا ومعان قد عرسنا من الليل ، فإذا بفارس يقول — وهو بين السماء والأرض : أيها النيام ! هبوا فليس هذا بحين رقاد ؛ قد خرج أحمد فطردت الجن كل مطرد ، ففزعنا ونحن رفقة حزورة ، كلهم قد سمع بهذا ، فرجعنا إلى أهلنا فإذا هم يذكرون اختلافاً بمكة بين قريش ، فى نبى قد خرج فيهم من بنى عبد المطلب اسمه أحمد . ذكره أبو نعيم . وقال الخرائطى : حدثنا عبد الله بن محمد البلوى — بمصر — حدثنا عمارة بن زيد ، حدثنى عبد الله بن العلا ، حدثنى يحيى بن عروة عن أبيه : أن نفراً من قريش ؛ منهم ورقة بن نوفل بن أسد ابن عبد العزى بن قصى ، وزيد بن عمرو بن نفيل ، وعبد الله بن جحش بن رئاب ، وعثمان بن الحويرث — كانوا عند صنم لهم يجتمعون إليه ، قد اتخذوا ذلك اليوم من كل سنة عيداً ، كانوا يعظمونه وينحرون له الجزور ، ثم يأكلون ويشربون الخمر ويعكفون عليه ، فدخلوا عليه فى الليل فرأوه مكبوباً على وجهه ، فأنكروا ذلك فأخذوه فردوه إلى حاله ، فلم يلبث أن انقلب انقلاباً عنيفاً ، فأخذوه فردوه

إلى حاله ، فانقلب الثالثة . فلما رأوا ذلك اغتموا له وأعظموا ذلك فقال عثمان بن الحويرث : ماله قد أكثر التنكس ؟ إن هذا لأمر قد حدث ، وذلك فى الليلة التى ولد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعل عثمان يقول :

أيا صنم العيد الذى صف حوله صناديد وفد من بعيد ومن قرب
تنكست مغلوباً فما ذاك قل لنا أذاك سفيه أم تنكست للعتب ؟
فإن كان من ذنب أتينا فإننا نبوء بإقرار ونلوى عن الذنب
و إن كنت مغلوباً ونكست صاغراً فما أنت فى الأوثان بالسيد الرب

قال فأخذوا الصنم فردوه إلى حاله . فلما استوى هتف بهم هاتف من الصنم بصوت جهير وهو يقول :

تردى لمولود أنارت بنوره جميع فجاج الأرض فى الشرق والغرب
وخرت له الأوثان طراً وأرعدت قلوب ملوك الأرض طراً من الرعب
ونار جميع الفرس باخت وأظلمت وقد بات شاه الفرس فى أعظم الكرب
وصدت عن الكهان بالغيب جنّها فلا مخبر عنهم بحق ولا كذب
فيالقصى ارجعوا عن ضلالكم وهبوا إلى الإسلام والمنزل الرحب

قال : فلما سمعوا ذلك خلصوا نجيا ، فقال بعضهم لبعض : تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض ، فقالوا أجل ، فقال لهم ورقة بن نوفل : تعلمون والله ماقومكم على دين ، ولقد أخطأوا المحجة وتركوا دين إبراهيم ، ماحجر تطيفون به لايسمع ولا يبصر ؟ ولا ينفع ولا يضر ؟ ياقوم التمسوا لأنفسكم الدين . قال فخرجوا عند ذلك يضربون فى الأرض و يسألون عن الحنيفة دين إبراهيم عليه السلام . فأما ورقة ابن نوفل فتنصر وقرأ الكتب حتى علم علماً . وأما عثمان بن الحويرث فسار إلى قيصر فتنصر وحسنت منزلته عنده . وأما زيد بن عمرو بن نفيل فأراد الخروج فحبس ، ثم إنه خرج بعد ذلك فضرب فى الأرض حتى بلغ الرقة من أرض الجزيرة . فلقى بها راهباً عالماً فأخبره بالذى يطلب ، فقال له الراهب : إنك لتطلب ديناً ما تجد من يحملك عليه ، ولكن قد أظلك زمان نبى يخرج من بلدك يبعث بدين الحنيفة فلما قال له ذلك ، رجع يريد مكة فغارت عليه لخم فقتلوه . وأما عبد الله بن جحش فأقام بمكة حتى بعث النبى ﷺ . ثم خرج مع من خرج إلى أرض الحبشة ، فلما صار بها تنصر وفارق الإسلام فكان بها حتى هلك هنالك نصرانياً وتقدم فى ترجمة زيد بن عمرو بن نفيل له شاهد .

وقد قال الخرائطى : حدثنا أحمد بن إسحاق بن صالح أبو بكر الوراق ، حدثنا عمرو بن عثمان . حدثنى أبى ، حدثنا عبد الله بن عبد العزيز ، حدثنى محمد بن عبد العزيز عن الزهرى عن عبد الرحمن

ابن أنس السلمى عن العباس بن مرداس : أنه كان يمر فى لقاح له نصف النهار ، إذ طلعت عليه نعامة بيضاء عليها راكب ، عليه ثياب بياض مثل اللبن ، فقال : ياعباس بن مرداس ! ألم تر أن السماء قد كفت أحراسها ، وأن الحرب تجرعت أنفاسها ، وأن الخيل وضعت أحلاسها ، وأن الذى نزل بالبر والتقوى ، يوم الاثنين ليلة الثلاثاء ، صاحب الناقة القصواء ؟ قال فرجعت مرعوباً قد راعنى مارأيت وسمعت ، حتى جئت وثناً لنا يدعى الضِّمار ، وكنا نعبده ونكلم من جوفه ، فكنست ماحوله ثم تمسحت به وقبلته ، فإذا صائح من جوفه يقول :

قل للقبائل من سليم كلها　　هلك الضِّمار وفاز أهل المسجد

هلك الضِّمار وكان يعبد مدة　　قبل الصلاة مع النبى محمد

إن الذى ورث النبوة والهدى　　بعد ابن مريم من قريش مهتد

قال فخرجت مرعوباً حتى أتيت قومى ، فقصصت عليهم القصة ، وأخبرتهم الخبر ، وخرجت فى ثلاثمائة من قومى بنى حارثة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بالمدينة ، فدخلنا المسجد . فلما رآنى رسول الله ﷺ قال لى : « ياعباس كيف كان إسلامك » ؟ فقصصت عليه القصة . قال فسر بذلك وأسلمت أنا وقومى . ورواه الحافظ أبو نعيم فى الدلائل من حديث أبى بكر بن أبى عاصم عن عمرو ابن عثمان به . ثم رواه أيضاً من طريق الأصمعى ، حدثنى الوصافى عن منصور بن المعتمر عن قبيصة بن عمرو بن إسحاق الخزاعى عن العباس بن مرداس السلمى ، قال : أول إسلامى أن مرداساً أبى لما حضرته الوفاة ، أوصانى بصنم له يقال له « ضَمار[1] » ، فجعلته فى بيت وجعلت آتيه كل يوم مرة ، فلما ظهر النبى صلى الله عليه وسلم سمعت صوتاً مرسلا فى جوف الليل راعنى ، فوثبت إلى ضمار مستغيثاً ، وإذا بالصوت من جوفه وهو يقول :

قل للقبيلة من سليم كلها　　هلك الأنيس وعاش أهل المسجد

أودى ضَمارِ وكان يعبد مرة　　قبل الكتاب ، إلى النبى محمد

إن الذى ورث النبوة والهدى　　بعد ابن مريم من قريش مهتد

قال فكتمته الناس ، فلما رجع الناس من الأحزاب ، بينا أنا فى إبلى بطرف العقيق من ذات عرق راقداً ، سمعت صوتاً ، وإذا برجل على جناح نعامة وهو يقول : النور الذى وقع ليلة الثلاثاء مع صاحب الناقة العضباء ، فى ديار إخوان بنى العنقاء ، فأجابه هاتف من شماله وهو يقول :

بشر الجن وإبلاسها　　أن وضعت المطى أحلاسها

(١) ضمار — كحذام ورقاش ، وهذا البناء لايكون إلا فى أسماء المؤنث وهو مبنى على الكسر .

قال فوثبت مذعوراً ، وعلمت أن محمداً مرسل ، فركبت فرسي واحتثثت السير حتى انتهيت إليه فبايعته ، ثم انصرفت إلى ضمار فأحرقته بالنار ، ثم رجعت إلى رسول الله ﷺ فأنشدته شعراً أقول فيه :

لعمرك ! إنى يوم أجعل جاهلاً ضماراً لرب العالمين مشاركا
وتركى رسول الله والأوس حوله أولئك أنصار له ماأولئكا
كتاركسهل الأرض والحزن يبتغى ليسلك فى وعث الأمور المسالكا
فآمنت بالله الذى أنا عبده وخالفت من أمسى يريد المهالكا
ووجهت وجهى نحو مكة قاصداً أبايع نبى الأكرمين المباركا
نبى أتانا بعد عيسى بناطق من الحق فيه الفصل فيه كذلكا
أمين على القرآن أول شافع وأول مبعوث يجيب الملائكا
تلا فى عرى الإسلام بعد انتقاضها فأحكمها حتى أقام المناسكا
عنيتك ياخير البرية كلها توسطت فى الفرعين والمجد مالكا
وأنت المصفى من قريش إذا سمت على ضمرها تبقى القرون المباركا
إذا انتسب الحيان كعب ومالك وجدناك محضاً والنساء العواركا

قال الخرائطى : وحدثنا عبد الله بن محمد البلوى بمصر ،حدثنا عمارة بن زيد ، حدثنا إسحاق بن بشر وسلمة بن الفضل عن محمد بن إسحاق ، حدثنى شيخ من الأنصار يقال له عبد الله بن محمود من آل محمد ابن مسلمة ، قال : بلغنى أن رجالا من خثعم كانوا يقولون إن مما دعانا إلى الإسلام ، أنا كنا قوماً نعبد الأوثان ، فبينا نحن ذات يوم عند وثن لنا ، إذ أقبل نفر يتقاضون إليه ، يرجون الفرج من عنده لشىء شجر بينهم ، إذ هتف بهم هاتف يقول :

يأيها الناس ذو الأجسام من بين أشياخ إلى غلام
ما أنتم وطائش الأحلام ومسند الحكم إلى الأصنام
أكلكم فى حيرة نيام أم لاترون ما الذى أمامى
من ساطع يجلو دجى الظلام قد لاح للناظر من تهام
ذاك نبى سيد الأنام قد جاء بعد الكفر بالإسلام
أكرمه الرحمن من إمام ومن رسول صادق الكلام
أعدل ذى حكم من الأحكام يأمر بالصلاة والصيام

والبر والصـــلات للأرحام ۞ ويزجر الناس عن الآثام
والرجس والأوثان والحـرام ۞ من هاشم فى ذروة السنام
مستعلناً فى البلد الحرام

قال فلما سمعنا ذلك تفرقنا عنه ، وآتينا النبى صلى الله عليه وسلم فأسلمنا .

وقال الخرائطى : حدثنا عبد الله البلوى ، حدثنا عمارة ، حدثنى عبيد الله بن العلاء ، حدثنا محمد بن عكبر عن سعيد بن جبير : أن رجلا من بنى تميم يقال له رافع بن عمير — وكان أهدى الناس للطريق وأسراهم بليل ، وأجمهم على هول ، وكانت العرب تسميه لذلك دُعموص[1] العرب لهدايته وجراءته على السير — فذكر عن بدء إسلامه قال : إنى لأسير برمل عالج ذات ليلة ، إذ غلبنى النوم ، فنزلت عن راحلتى وأنختها ، وتوسدت ذراعها ونمت ، وقد تعوذت قبل نومى فقلت : أعوذ بعظيم هذا الوادى من الجن من أن أوذى أو أهاج ، فرأيت فى منامى رجلا شاباً يرصد ناقتى وبيده حربة يريد أن يضعها فى نحرها ، فانتبهت لذلك فزعاً ، فنظرت يميناً وشمالا فلم أر شيئاً ، فقلت هذا حلم . ثم عدت فغفوت فرأيت فى منامى مثل رؤياى الأولى ، فانتبهت فدرت حول ناقتى فلم أر شيئاً ، وإذا ناقتى ترعد . ثم غفوت فرأيت مثل ذلك فانتبهت ، فرأيت ناقتى تضطرب ، والتفت فإذا أنا برجل شاب كالذى رأيت فى المنام بيده حربة ، ورجل شيخ ممسك بيده يرده عنها وهو يقول :

يامالك بن مهلهـــل بن دثار ۞ مهلا فدًى لك مئزرى وإزارى
عن ناقة الإنسى لاتعرض لها ۞ واختر بها ماشئت من أثوارى
ولقد بدا لى منك مالم أحتسب ۞ ألا رعيت قرابــتى وذمارى ؟
تسـمو إليه بحربة مسمومة ۞ تباً لفعلك ياأبا الغفـــار
لولا الحياء وأن أهلك جيرة ۞ لعلمت ما كشفت من أخبارى

قال فأجابه الشاب وهو يقول :

أأردت أن تعلو وتخفض ذكرنا ۞ فى غـــير مزرية أبا العيزار ؟
ماكان فيهم سـيد فيما مضى ۞ إن الخيار همو بنو الأخيار
فاقصد لقصدك يامعكبر إنما ۞ كان المجـــير مهلهل بن دثار

قال فبينما هما يتنازعان ، إذ طلعت ثلاثة أثوار من الوحش ، فقال الشيخ للفتى : قم يابن أخت فخذ أيها شئت فداء لناقة جارى الإنسى ، فقام الفتى فأخذ منها ثوراً وانصرف . ثم التفت إلى الشيخ فقال

(١) الدعموص : الدخال فى الأمور الزوار للملوك ، ويقال : هود عيميص هذا الأمر — أى عالم به .

ياهـذا ! إذا نزلت وادياً من الأودية فخفت هوله فقل : أعوذ بالله رب محمد من هول هـذا الوادى ، ولا تعذ بأحد من الجن ، فقد بطل أمرها ، قال : فقلت له ومن محمد هـذا ؟ قال نبى عربى لاشرقى ولا غربى ، بعث يوم الاثنين . قلت وأين مسكنه ؟ قال يثرب ذات النخل . قال فركبت راحلتى حين برق لى الصبح وجددت السـير حتى تقحمت المدينة ، فرآنى رسول الله ﷺ فحدثنى بحديثى قبل أن أذكر له منه شيئاً ، ودعانى إلى الإسلام فأسلمت . قال سعيد بن جبير : وكنا نرى أنه هو الذى أنزل الله فيه : (وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً[1]) . وروى الخرائطى من طريق إبراهيم بن إسماعيل بن حماد بن أبى حنيفة عن داود بن الحسين عن عكرمة عن ابن عباس عن على ، قال : إذا كنت بواد تخاف السبع ، فقل : أعوذ بدانيال والجب ، من شر الأسـد . وروى البلوى عن عمارة بن زيد عن إبراهيم بن سعد عن محمد بن إسحاق : حدثنى يحيى بن عبد الله بن الحارث عن أبيه عن ابن عباس ــ قصة قتال علىّ الجن بالبئر ذات العلم التى بالجحفة ، حين بعثه رسول الله ﷺ يستقى لهم الماء ، فأرادوا منه وقطعوا الدلو ، فنزل إليهم . وهى قصة مطولة منـكرة جداً ، والله أعلم .

وقال الخرائطى : حدثنى أبو الحارث محمد بن مصعب الدمشقى وغيره : حدثنا سليمان ابن بنت شرحبيل الدمشقى ، حدثنا عبد القدوس بن الحجاج ، حدثنا خالد بن سعيد عن الشعبى عن رجل قال : كنت فى مجلس عمر بن الخطاب وعنده جماعة من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يتذاكرون على فضائل القرآن ؛ فقال بعضهم خواتيم سورة النحل ، وقال بعضهم سورة يٓس ، وقال على فأين أنتم عن فضيلة آية الـكرسى ؟ أما إنها سبعون كلمة فى كل كلمة بركة ، قال : وفى القوم عمرو بن معدى كرب لايحير جواباً ، فقال أين أنتم عن بسم الله الرحمن الرحيم ؟ فقال عمر : حدثنا ياأبا ثور . قال : بينا أنا فى الجاهلية إذ جهدنى الجوع فأقحمت فرسى فى البرية ، فما أصبت إلا بيض النعام ، فبينا أنا أسير إذا أنا بشيخ عربى فى خيمة ، وإلى جانبه جارية كأنها شمس طالعة ومعه غنيمات له ، فقلت له استأسر ثـكلتك أمك ، فرفع رأسـه إلىّ وقال : يافتى ! إن أردت قرى فانزل ، وإن أردت معونة أعناك . فقلت له استأسر فقال :

عرضنا عليك النزل منا تـكرماً ... فلم ترعوى جهلا كفعل الأشائم

وجئت ببهتان وزور ودون ما ... تمنيته بالبيض حز الغلاصم[2]

قال : ووثب إلىّ وثبة وهو يقول : بسم الله الرحمن الرحيم ، فـكأنى مثلت تحته . ثم قال أقتلك أم أخلى عنك ؟ قلت : بل خل عنى ، قال فخلى عنى . ثم إن نفسى جاذبتنى بالمعاودة ، فقلت استأسر ثـكلتك أمك ، فقال :

---

(١) الآية : ٦ من سورة الجن . (٢) الغلصمة : اللحم بين الرأس والعنق .

بيسم الله والرحمن فزنا هنالك والرحيم به قهرنا
وما تغنى جلادة ذى حفاظ إذا يوم لمعركة برزنا

ثم وثب لى وثبة كأنى مثلت تحته ، فقال أقتلك أم أخلى عنك ؟ قال : قلت بل خل عنى . فخلى عنى فانطلقت غير بعيد ، ثم قلت فى نفسى : ياعمرو ! أيقهرك هذا الشيخ ؟ والله للموت خير لك من الحياة ، فرجعت إليه فقلت له استأسر ثكلتك أمك . فوثب إلى وثبة وهو يقول : بسم الله الرحمن الرحيم ، فكأنى مثلت تحته ، فقال أقتلك أم أخلى عنك ؟ قلت بل خل عنى . فقال هيهات . يا جارية ائتينى بالمدية . فأتته بالمدية فجز ناصيتى . وكانت العرب إذا ظفرت برجل فجزت ناصيته استعبدته . فكنت معه أخدمه مدة . ثم إنه قال : ياعمرو ! أريد أن تركب معى البرية وليس بى منك وجل ؛ فإنى ببسم الله الرحمن الرحيم لواثق . قال فسرنا حتى أتينا واديا أشبا[1] مهولا مغولا ، فنادى بأعلى صوته : بسم الله الرحمن الرحيم ، فلم يبق طير فى وكره إلا طار . ثم أعاد القول فلم يبق سبع فى مربضه إلا هرب . ثم أعاد الصوت فإذا نحن بحبشى قد خرج علينا من الوادى كالنخلة السحوق[2] ، فقال لى ياعمرو ! إذا رأيتنا قد اتحدنا فقل غلبه صاحبى ببسم الله الرحمن الرحيم . قال فلما رأيتهما قد اتحدا ، قلت غلبه صاحبى باللات والعزى ، فلم يصنع الشيخ شيئاً . فرجع إلىّ وقال : قدعلمت أنك خالفت قولى ، قلت أجل ولست بعائد ، فقال إذا رأيتنا قد اتحدنا فقل غلبه صاحبى ببسم الله الرحمن الرحيم . فقلت أجل . فلما رأيتهما قد اتحدا ، قلت غلبه صاحبى ببسم الله الرحمن الرحيم فاتكأ عليه الشيخ فبعجه بسيفه فاشتق بطنه ، فاستخرج منه شيئاً كهيئة القنديل الأسود ، ثم قال : ياعمرو ! هذا غشه وغله .

ثم قال : أتدرى من تلك الجارية ؟ قلت لا ، قال : تلك الفارعة بنت السليل الجرهمى من خيار الجن . وهؤلاء أهلها بنو عمها ، يغزونى منهم كل عام رجل ، ينصرنى الله عليه ببسم الله الرحمن الرحيم . ثم قال : قد رأيت ما كان منى إلى الحبشى . وقد غلب على الجوع فائتنى بشىء آكله ، فأقحمت بفرسى البرية فما أصبت إلا بيض النعام ، فأتيته به فوجدته نائما ، وإذا تحت رأسه شىء كهيئة الخشبة ، فاستللته فإذا هو سيف عرضه شبر فى سبعة أشبار ، فضربت ساقيه ضربة أبنت الساقين مع القدمين . فاستوى على قفا ظهره وهو يقول : قاتلك الله ما أغدرك ياغدار ! قال عمر : ثم ماذا صنعت ؟ قلت فلم أزل أضربه بسيفى حتى قطعته إرباً إربا . قال فوجم لذلك ثم أنشأ يقول :

بالغدر نلت أخا الإسلام عن كثب ماإن سمعت كذا فى سالف العرب
والعجم تأنف مما جئته كرماً تباً لما جئته فى السيد الأرب

(١) أى به أشجار مختلطة ملتفة، يقال : أشب الشجر كفرح : التف . (٢) أى الطويلة .

إنى لأعجب أنى نلت قتلته ... أم كيف جازاك عند الذنب لم تنب ؟
قرم عفا عنك مرات وقد علقت ... بالجسم منك يداه موضع العطب
لو كنت آخذ فى الإسلام مافعلوا ... فى الجاهلية أهل الشرك والصلب
إذاً لنالتك من عدلى مشطبة ... تدعو لذائقها بالويل والحرب

قال : ثم ماكان من حال الجارية ؟ قلت : ثم إنى أتيت الجارية ، فلما رأتنى قالت مافعل الشيخ ؟ قلت قتله الحبشى ، فقالت كذبت بل قتلته أنت بغدرك . ثم أنشأت تقول :

ياعين جودى للفارس المغوار ... ثم جودى بواكفات غزار
لاتملى البكاء إذ خانك الد ... هر بواف حقيقة صبار
وتقى وذى وقار وحلم ... وعديل الفخار يوم الفخار
لهف نفسى على بقائك عمرو ... أسلمتك الأعمار للأقدار
ولعمرى لو لم ترمه بغدر ... رمت ليثاً كصارم بتار

قال : فأحفظنى قولها ، فاستللت سيفى ودخلت الخيمة لأقتلها فلم أر فى الخيمة أحداً ، فاستقت الماشية وجئت إلى أهلى ، وهذا أثر عجيب والظاهر أن الشيخ كان من الجان ، وكان ممن أسلم وتعلم القرآن ، وفيما تعلمه : بسم الله الرحمن الرحيم ، وكان يتعوذ بها .

وقال الخرائطى : حدثنا عبدالله بن محمد البلوى ، حدثنا عمارة بن زيد ، قال حدثنى عبد الله بن العلاء عن هشام بن عروة عن أبيه عن جدته أسماء بنت أبى بكر قالت : كان زيد بن عمرو بن نفيل ، وورقة ابن نوفل ، يذكران أنهما أتيا النجاشى بعد رجوع أبرهة من مكة ، قالا : فلما دخلنا عليه قال لنا ، أصدقانى أيها القرشيان ! هل ولد فيكم مولود أراد أبوه ذبحه ، فضرب عليه بالقداح فسلم ونحرت عنه إبل كثيرة ؟ قلنا نعم . قال فهل لكما علم به مافعل ؟ قلنا تزوج امرأة يقال لها آمنة بنت وهب ، تركها حاملا وخرج . قال فهل تعلمان ولد أم لا ؟ قال ورقة بن نوفل : أخبرك أيها الملك ! أنى ليلة قد بت عند وثن لنا كنا نطيف به ونعبده ، إذ سمعت من جوفه هاتفاً يقول :

ولد النبى فذلت الأملاك ... ونأى الضلال وأدبر الإشراك

ثم انتكس الصنم على وجهه . فقال زيد بن عمرو بن نفيل : عندى كخبره أيها الملك . قال هات ، قال : أنا فى مثل هذه الليلة التى ذكر فيها حديثه ، خرجت من عند أهلى وهم يذكرون حمل آمنة ، حتى أتيت جبل أبى قبيس أريد الخلو فيه لأمر رابنى ؛ إذ رأيت رجلا نزل من السماء له جناحان أخضران ، فوقف على أبى قبيس ، ثم أشرف على مكة فقال : ذل الشيطان ، و بطلت الأوثان ، وولد

الأمين . ثم نشر ثوباً معه وأهوى به نحو المشرق والمغرب ، فرأيته قد جلل ماتحت السماء ، وسطع نور كاد أن يختطف بصرى ، وهالنى مارأيت . وخفق الهاتف بجناحيه حتى سقط على الكعبة ، فسطع له نور أشرقت له تهامة ، وقال : ذكت الأرض وأدت ربيعها ، وأومأ إلى الأصنام التى كانت على الكعبة فسقطت كلها .

قال النجاشى : ويحكما ! أخبركما عما أصابنى ؛ إنى لنائم فى الليلة التى ذكرتما فى قبة وقت خلوتى ، إذ خرج على من الأرض عنق ورأس ، وهو يقول : حل الويل بأصحاب الفيل ، رمتهم طير أبابيل ، بحجارة من سجيل ، هلك الأشرم ، المعتدى المجرم . وولد النبى الأمى ، المكى الحرمى . من أجابه سعد ، ومن أباه عتد . ثم دخل الأرض فغاب ، فذهبت أصيح فلم أطق الكلام ، ورمت القيام فلم أطق القيام ، فصرعت القبة بيدى ، فسمع بذلك أهلى فجاؤنى ، فقلت احجبوا عنى الحبشة فحجبوهم عنى ، ثم أطلق عن لسانى ورجلى .

وسيأتى إن شاء الله تعالى فى قصة المولد ، رؤيا كسرى فى سقوط أربع عشرة شرفة من إيوانه وخمود نيرانه ، ورؤيا موبذانه . وتفسير سطيح لذلك على يدى عبد المسيح [١] .

وروى الحافظ أبو القاسم بن عساكر فى تاريخه فى ترجمة الحارث بن هانىء بن المدلج بن المقداد بن زَمْل بن عمرو العذرى عن أبيه عن جده عن أبيه عن زمل بن عمرو العذرى قال : كان لبنى عذرة صنم يقال له « حمام » . وكانوا يعظمونه ، وكان فى بنى هند بن حرام بن ضبه بن عبد بن كثير بن عذرة ، وكان سادنه رجلا يقال له طارق ، وكانوا يعترون [٢] عنده ، فلما ظهر رسول الله ﷺ سمعنا صوتاً يقول : يابنى هند بن حرام ! ظهر الحق وأودى حمام ، ودفع الشرك الإسلام . قال ففزعنا لذلك وهالنا ، فمكثنا أياماً . ثم سمعنا صوتاً وهو يقول : ياطارق ياطارق ، بعث النبى الصادق ، بوحى ناطق ، صدع صادع بأرض تهامة ؛ لناصريه السلامة ، ولخاذليه الندامة ، هذا الوداع منى إلى يوم القيامة . قال زَمْل فوقع الصنم لوجهه . قال فابتعت راحلة ورحلت حتى أتيت النبى ﷺ مع نفر من قومى ، وأنشدته شعراً قلته :

إليك رسول الله أعملت نصها	وكلفتها حزناً وغوراً من الرمل
لأنصر خير الناس نصراً مؤزراً	وأعقد حبلا من حبالك فى حبلى
وأشهد أن الله لا شىء غيره	أدين به ما أثقلت قدمى نعلى

قال فأسلمت وبايعته . وأخبرناه بما سمعنا فقال : « ذاك من كلام الجن » . ثم قال : « يامعشر

(١) قد مضت هذه القصة فى ميلاده صلى الله عليه وسلم ، من هذا الجزء (٢) أى يذبحون .

العرب : إنى رسول الله إليكم وإلى الأنام كافة ، أدعوكم إلى عبادة الله وحده ، وأنى رسوله وعبده ، وأن تحجوا البيت وتصوموا شهراً من اثنى عشر شهراً – وهو شهر رمضان ، فمن أجابنى فله الجنة نُزلا ، ومن عصانى كانت النار له منقلبا » . قال فأسلمنا وعقد لنا لواء ، وكتب لنا كتاباً نسخته : بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله لزَمل بن عمرو ومن أسلم معه خاصة ؛ إنى بعثته إلى قومه عامداً ، فمن أسلم ففى حزب الله ورسوله ، ومن أبى فله أمان شهرين . شهد على بن أبى طالب ومحمد بن مسلمة الأنصارى » . ثم قال ابن عساكر : غريب جداً .

وقال سعيد بن يحيى بن سعيد الأموى فى مغازيه : حدثنى محمد بن سعيد – يعنى عمه – قال : قال محمد بن المنكدر : إنه ذكر لى عن ابن عباس قال : هتف هاتف من الجن على أبى قبيس فقال :

قبح الله رأيكم آل فهر ... ما أدق العقول والأفهام
حين تعصى لمن يعيب عليها ... دين آبائها الحماة الكرام
حالف الجن جن بصرى عليكم ... ورجال النخيل والآطام
يوشك الخيل أن تردها تهادى ... تقتل القوم فى حرام بهام
هل كريم منكم له نفس حر ... ماجد الوالدين والأعمام
ضارب ضربة تكون نكالا ... ورواحاً من كربة واغتمام

قال ابن عباس : فأصبح هذا الشعر حديثاً لأهل مكة يتناشدونه بينهم ، فقال رسول الله ﷺ : « هذا شيطان يكلم الناس فى الأوثان يقال له مسعر ، والله مخزيه » . فمكثوا ثلاثة أيام فإذا هاتف يهتف على الجبل يقول :

نحن قتلنا فى ثلاث مسعرا ... إذ سفه الجن وسن المنكرا
قنعته سيفاً حساماً مشهرا ... بشتمه نبينا المطهرا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هذا عفريت من الجن اسمه سمج ، آمن بى سميته عبد الله ، أخبرنى أنه فى طلبه ثلاثة أيام » ، فقال علىّ : جزاه الله خيراً يارسول الله .

وقد روى الحافظ أبو نعيم فى الدلائل قال : حدثنا عبد الله بن محمد بن جعفر ، حدثنا أبو الفضل محمد بن عبد الرحمن بن موسى بن أبى حرب الصفار ، حدثنا عباس بن الفرج الرياشى ، حدثنا سليمان بن عبد العزيز بن أبى ثابت عن أبيه ، عن عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب ، عن ابن عباس عن سعد بن عبادة قال : بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حضرموت فى حاجة قبل الهجرة ، حتى إذا كنت فى بعض الطريق ساعة من الليل – سمعت هاتفاً يقول :

أبا عمرو تناوبنى السهود ... وراح النوم وامتنع الهجود
لذكر عصابة سلفوا وبادوا ... وكل الخلق قصرهم يبيد
تولوا واردين إلى المنايا ... حياضاً ليس منهلها الورود
مضوا لسبيلهم وبقيت خلفاً ... وحيداً ليس يسعفنى وحيد
سدى لاأستطيع علاج أمر ... إذا ماعالج الطفل الوليد
فلأياً مابقيت إلى أناس ... وقد باتت بمهلكها ثمود
وعاد والقرون بذى شعوب ... سواء كلهم إرم حصيد

قال ثم صاح به آخر: ياخرعب[1] ذهب بك العجب؛ إن العجب كل العجب، بين زهرة ويثرب. قال: وما ذاك ياشاحب[2]؟ قال نبي السلام، بعث بخير الكلام إلى جميع الأنام، فاخرج من البلد الحرام إلى نخيل وآطام. قال: ماهذا النبي المرسل والكتاب المنزل، والأمى المفضل؟ قال: رجل من ولد لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة. قال: هيهات! فات عن هذا سنى، وذهب عنه زمنى، لقد رأيتنى والنضر بن كنانه نرمى غرضاً واحداً، ونشرب حلباً بارداً، ولقد خرجت به من دوحة فى غداة شبمة[3]، وطلع مع الشمس وغرب معها، يروى مايسمع ويثبت مايبصر. ولئن كان هذا من ولده؛ لقد سل السيف وذهب الخوف، ودحض الزنا، وهلك الربا. قال: فأخبرنى مايكون؟ قال: ذهبت الضراء والبؤس والمجاعة، والشدة والشجاعة، إلا بقية فى خزاعة. وذهبت الضراء والبوس والخلق المنفوس، إلا بقية من الخزرج والأوس. وذهبت الخيلاء والفخر، والنميمة والغدر، إلا بقية فى بنى بكر – يعنى ابن هوازن. وذهب الفعل المندم والعمل المؤثم، إلا بقية فى خثعم. قال أخبرنى ما يكون؟ قال إذا غلبت البرة، وكظمت الحرة، فاخرج من بلاد الهجرة. وإذا كف السلام، وقطعت الأرحام، فاخرج من البلد الحرام قال أخبرنى ما يكون؟ قال: لو لا أذن تسمع، وعين تلمع، لأخبرتك بما تفزع، ثم قال:

لامنام هدأته بنعيم ... ياابن غوط ولا صباح أتانا

قال ثم صرصر صرصرة كأنها صرصرة حبلى، فذهب الفجر فذهبت لأنظر فإذا عَظاية[4] وثعبان ميتان. قال فما علمت أن رسول الله ﷺ هاجر إلى المدينة إلا بهذا الحديث. ثم رواه عن محمد بن جعفر عن إبراهيم بن على عن النضر بن سلمة عن حسان بن عبادة بن موسى عن عبد الحميد بن بهرام عن شهر عن ابن عباس عن سعد بن عبادة، قال: لما بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة

(١) الخرعب: الطويل اللحيم (٢) شحب لونه: تغير من هزال أو جوع. (٣) أى باردة.
(٤) العظاية: دوية كسام أبرص.

خرجت إلى حضرموت لبعض الحاج ، قال : فقضيت حاجتي ثم أقبلت ، حتى إذا كنت ببعض الطريق نمت ، ففزعت من الليل بصائح يقول :

أبا عمرو تناوبنى السهود ‏ ‏ ‏ وراح النوم وانقطع الهجود

وذكر مثله بطوله .

وقال أبو نعيم : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا إبراهيم بن على ، حدثنا النضر بن سلمة ، حدثنا أبو غزية محمد بن موسى ، عن العطاف بن خالد الوصابى عن خالد بن سعيد عن أبيه قال : سمعت تميما الدارى يقول : كنت بالشام حين بعث النبي ﷺ ، فخرجت لبعض حاجتي فأدركني الليل ، فقلت أنا فى جوار عظيم هذا الوادى الليلة . قال : فلما أخذت مضجعى إذا أنا بمناد ينادى ـ لا أراه ـ عُذبا لله ؛ فإن الجن لا تجير أحداً على الله ، فقلت : أيم الله ما تقول ؟ فقال قد خرج رسول الأميين ، رسول الله وصلينا خلفه بالحجون ، فأسلمنا واتبعناه ، وذهب كيد الجن ورميت بالشهب . فانطلق إلى محمد رسول رب العالمين فأسلم . قال تميم : فلما أصبحت ذهبت إلى دير أيوب ، فسألت راهباً وأخبرته الخبر ، فقال الراهب : قد صدقوك ؛ يخرج من الحرم ومهاجره الحرم ، وهو خير الأنبياء فلا تسبق إليه . قال تميم : فتكلفت الشخوص حتى جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلمت .

وقال حاتم بن إسماعيل عن عبد الله بن يزيد الهذلى ، عن عبد الله بن ساعدة الهذلى عن أبيه قال : كنا عند صنمنا « سواع » ، وقد جلبنا إليه غنما لنا ، مائتى شاة قد أصابها جرب ، فأدنيناها منه لنطلب بركته ، فسمعت منادياً من جوف الصنم ينادى : قد ذهب كيد الجن ، ورمينا بالشهب لنبى اسمه أحمد . قال : فقلت غويت والله ، فصدفت وجه غنمى منجداً إلى أهلى ، فرأيت رجلا فخبرنى بظهور النبي ﷺ . ذكره أبو نعيم هكذا معلقاً . ثم قال : حدثنا عمر بن محمد بن جعفر ، حدثنا إبراهيم بن السندى حدثنا النضر بن سلمة ، حدثنا محمد بن مسلمة المخزومى ، حدثنا يحيى بن سليمان عن حكيم بن عطاء الظفرى ـ من بنى سليم من ولد راشد بن عبد ربه ـ عن أبيه عن جده عن راشد بن عبد ربه ، قال : كان الصنم الذى يقال له « سواع » بالمعلاة ، من رهط تدين له هذيل و بنو ظفر بن سليم ، فأرسلت بنو ظفر راشد ابن عبد ربه بهدية من سليم إلى سواع ، قال راشد : فألقيت مع الفجر إلى صنم قبل صنم سواع ، فإذا صارخ يصرخ من جوفه : العجب كل العجب ، من خروج نبى من بنى عبد المطلب ، يحرم الزنا والربا والذبح للأصنام ، وحرست السماء ورمينا بالشهب ، العجب كل العجب . ثم هتف صنم آخر من جوفه : ترك الضمار وكان يعبد ، خرج النبي أحمد ، يصلى الصلاة و يأمر بالزكاة والصيام ، والبر والصلات للأرحام . ثم هتف من جوف صنم آخر هاتف يقول :

إن الذى ورث النبوة والهدى ‏ ‏ ‏ بعد ابن مريم من قريش مهتد

نبى أتى يخـــبر بما سبق وبما يكون اليوم حقاً أو غد

قال راشد : فألفيت سواعاً مع الفجر وثعلبان يلحسان ماحوله ، ويأكلان مايهدى له ، ثم يعوجان عليه ببولهما ، فعند ذلك يقول راشد بن عبد ربه :

أربٌ يبول الثعلبان برأسـه لقد ذَلّ من بالت عليه الثعالب

وذلك عند مخرج النبى صلى الله عليه وسلم ، ومهاجره إلى المدينة وتسامع الناس به ، فخرج راشد حتى أتى النبى ﷺ المدينة ومعه كلب له ، واسم راشد يومئذ ظالم ، واسم كلبه راشد ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ما اسمك ؟ » قال ظالم . قال : « فما اسم كلبك ؟ » قال راشد . قال : « اسمك راشد ، واسم كلبك ظالم » . وضحك النبى صلى الله عليه وسلم ، وبايع النبى ﷺ وأقام بمكة معه . ثم طلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم : قطيعة بوهاط[1] — ووصفها له — فأقطعه رسول الله ﷺ بالمعلاة من وهاط شأو الفرس ، ورميته ثلاث مرات بحجر ، وأعطاه إداوة مملوءة من ماء وتفل فيها وقال له : « فرغها فى أعلا القطيعة ولا تمنع الناس فضلها » — ففعل ، فجعل الماء معيناً يجرى إلى اليوم ففرس عليها النخل . ويقال إن وهاط كلها تشرب منه ، فسماها الناس ماء الرسول ﷺ . وأهل وهاط يغتسلون بها ، وبلغت رمية راشد الركب الذى يقال له ركب الحجر ، وغدا راشد على سواع فكسره .

وقال أبو نعيم : حدثنا سليمان بن أحمد ، حدثنا على بن إبراهيم الخزاعى الاهوازى ، حدثنا أبو محمد عبد الله بن داود بن دلهاث بن إسماعيل بن مسرع بن ياسر بن سويد صاحب رسول الله ﷺ ؛ حدثنا أبى عن أبيه دلهاث عن أبيه إسماعيل ، أن أباه عبد الله حدثه عن أبيه مسرع بن ياسر ، أن أباه ياسر حدثه عن عمرو بن مرة الجهنى ، أنه كان يحدث قال : خرجت حاجاً فى جماعة من قومى فى الجاهلية ، فرأيت فى المنام — وأنا بمكة — نوراً ساطعاً من الكعبة ، حتى أضاء فى جبل يثرب وأشعر جهينة ، فسمعت صوتاً فى النور وهو يقول : انقشعت الظلماء ، وسطع الضياء ، وبعث خاتم الأنبياء . ثم أضاء إضاءة أخرى حتى نظرت إلى قصور الحيرة وأبيض المدائن ، فسمعت صوتاً فى النور وهو يقول : ظهر الإسلام وكسرت الأصنام ، ووصلت الأرحام ، فانتبهت فزعاً ، فقلت لقومى : والله ليحدثن فى هذا الحى من قريش حدث ، وأخبرتهم بما رأيت فلما انتهينا إلى بلادنا جاءنا رجل فأخبرنا أن رجلا يقال له أحمد قد بعث ، فأتيته فأخبرته بما رأيت ، فقال : « ياعمرو بن مرة ! إنى لمرسل إلى العباد كافة أدعوهم إلى الإسلام ، وآمرهم بحقن الدماء وصلة الأرحام ، وعبادة الله ورفض الأصنام ، وحج البيت ، وصيام شهر من اثنى عشر شهراً — وهو شهر رمضان ، فمن أجاب فله الجنة ، ومن عصى فله النار ، فآمن ياعمرو بن مرة يؤمنك الله من نار جهنم » . فقلت أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، آمنت بكل ماجئت به من حلال

---

(١) الوهط : المكان المطمئن من الأرض المستوى ، ينبت فيه العضاه والسمر والطلح ، والجمع وهاط وأوهاط .

وحرام ، وإن أرغم ذلك كثيراً من الأقوام ، ثم أنشدته أبياتاً قلتها حين سمعت به ، وكان لنا صنم وكان أبي سادناً له ، فقمت إليه فكسرته ، ثم لحقت النبي صلى الله عليه وسلم وأنا أقول :

شهدت بأن الله حق وأنني لآلهة الأحجار أول تارك

فشمرت عن ساقي إزار مهاجر إليك أدب الغور بعد الدكادك

لأصحب خير الناس نفساً ووالداً رسول مليك الناس فوق الحبائك

فقال النبي ﷺ : « مرحباً بك ياعمرو بن مرة » ، فقلت يارسول الله بأبي أنت وأمي ! ابعث بي إلى قومي ، لعل الله أن يمن بي عليهم كما من بك علي ؛ فبعثني إليهم وقال : « عليك بالقول السديد ولا تكن فظاً ولا متكبراً ولا حسوداً » . فأتيت قومي فقلت لهم : يابني رفاعة ثم يابني جهينة ، إني رسول من رسول الله إليكم ، أدعوكم إلى الجنة ، وأحذركم النار ، وآمركم بحقن الدماء ، وصلة الأرحام وعبادة الله ، ورفض الأصنام ، وحج البيت ، وصيام شهر رمضان — شهر من اثني عشر شهراً ؛ فمن أجاب فله الجنة ، ومن عصى فله النار . يامعشر جهينة ، إن الله — وله الحمد — جعلكم خيار من أنتم منه ، وبغض إليكم في جاهليتكم ماحبب إلى غيركم من الرفث — لأنهم كانوا يجمعون بين الأختين ، ويخلف الرجل على امرأة أبيه — والترات في الشهر الحرام فأجيبوا هذا النبي المرسل صلى الله عليه وسلم من بني لؤي بن غالب ، تنالوا شرف الدنيا وكرامة الآخرة سارعوا سارعوا في ذلك يكون لكم فضيلة عند الله . فأجابوا إلا رجلا منهم قام فقال : ياعمرو بن مرة ! أمر الله عليك عيشك ، أتأمرنا أن نرفض آلهتنا ، ونفرق جماعتنا بمخالفة دين آبائنا ، إلى مايدعو هذا القرشي من أهل تهامة ؟ لا ولا مرحباً ولا كرامة ، ثم أنشأ يقول :

إن ابن مرة قد أتى بمقالة ليست مقالة من يريد صلاحا

إني لأحسب قوله وفعاله يوماً وإن طال الزمان رياحا

أتسفه الأشياخ ممن قد مضى من رام ذلك لا أصاب فلاحا

فقال عمرو بن مرة : الكاذب مني ومنك أمر الله عيشه ، وأبكم لسانه ، وأكمه بصره . قال عمرو ابن مرة : والله ما مات حتى سقط فوه ، وكان لايجد طعم الطعام ، وعمي وخرس . وخرج عمرو بن مرة ومن أسلم من قومه حتى أتوا النبي ﷺ ، فرحب بهم وحياهم ، وكتب لهم كتاباً هذه نسخته : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من الله على لسان رسول الله ؛ بكتاب صادق ، وحق ناطق ، مع عمرو بن مرة الجهني — لجهينة بن زيد ، إن لكم بطون الأرض وسهولها ، وتلاع الأودية وظهورها ، ترعون نباته وتشربون صافيه ؛ على أن تقروا بالخمس ، وتصلوا الصلوات الخمس ، وفي التبعة والصريمة

شاتان إن اجتمعتا ، وإن تفرقتا فشاة شاة . ليس على أهل الميرة صدقة ، ليس الوردة اللبقة » . وشهد من حضرنا من المسلمين بكتاب قيس بن شماس رضى الله عنهم . وذلك حين يقول عمرو بن مرة :

ألم تر أن الله أظهر دينه ... وبين برهان القران لعامر

كتاب من الرحمن نور لجمعنا ... وأحلافنا فى كل باد وحاضر

إلى خير من يمشى على الأرض كلها ... وأفضلها عند اعتكار الصرائر

أطعنا رسول الله لما تقطعت ... بطون الأعادى بالظبى والخواطر

فنحن قبيل قد بنى المجد حولنا ... إذا اجتلبت فى الحرب هام الأكابر

بنو الحرب نفريها بأيد طويلة ... وبيض تلالا فى أكف المغاور

ترى حوله الأنصار تحمى أميرهم ... بسمر العوالى والصفاح البواتر

إذا الحرب دارت عند كل عظيمة ... ودارت رحاها بالليوث الهواصر

تبلّج منه اللون وازداد وجهه ... كمثل ضياء البدر بين الزواهر

وقال أبو عثمان سعيد بن يحيى الأموى فى مغازيه : حدثنا عبد الله ، حدثنا أبو عبد الله ، حدثنا المجالد بن سعيد والأجلح عن الشعبى ، حدثنى شيخ من جهينة قال : مرض منا رجل مرضاً شديداً فثقل حتى حفرنا له قبره وهيأنا أمره ، فأغمى عليه ثم فتح عينيه وأفاق ، فقال أحفرتم لى ؟ قالوا نعم ، قال : فما فعل الفُصَل ـ وهو ابن عم له ـ قلنا صالح مر آنفاً يسأل عنك ، قال أما إنه يوشك أن يجعل فى حفرتى ، إنه أتانى آت حين أغمى علىّ فقال : أبك هبل ؟ أما ترى حفرتك تنتثل[1] ، وأمك قد كادت تثكل ؟ أرأيتك إن حولناها عنك بالمحول ، ثم ملأناها بالجندل ، وقذفنا فيها الفُصَل ، الذى مضى فأجزأك ، وظن أن لن يفعل . أتشكر لربك وتصل ، وتدع دين من أشرك وضل ؟ قال : قلت نعم . قال قم قد برئت . قال فبرىء الرجل ، ومات الفصل فجعل فى حفرته . قال الجهينى : فرأيت الجهينى بعد ذلك يصلى و يسب الأوثان ويقع فيها .

وقال الأموى : حدثنا عبد الله قال : بينما عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى مجلس يتحدثون عن الجن ، فقال خريم بن فاتك الأسدى : ألا أحدثك كيف كان إسلامى ؟ قال بلى ، قال إنى يوماً فى طلب ذود[2] لى أنا منها على أثر تنصب وتصعد ، حتى إذا كنت بأبرق العراق أنخت راحلتى ، وقلت أعوذ بعظيم هذه البلدة ، أعوذ برئيس هذا الوادى ، فإذا بهاتف يهتف بى :

ويحك ، عذ بالله ذى الجلال ... والمجد والعلياء والإفضال

ثم اتل آيات من الأنفال ... ووحد الله ولا تبالى

(١) أى يستخرج ترابها (٢) الذود من الإبل : ما بين الثلاث إلى العشر، إلا يكون حالا من الإناث .

قال فذعرت ذعراً شديداً ثم رجعت إلى نفسى فقلت :

يأيها الهاتف ماتقول أرشد عندك أم تضليل ؟

* بيّن ـ هداك الله ـ ما الحويل *

قال فقال : هذا رسول الله ذو الخيرات بيثرب يدعو إلى النجاة

يأمر بالبر وبالصلاة ويزع الناس عن الهنات

قال قلت له : والله لاأبرح حتى آتيه وأومن به ، فنصبت رجلى فى غرز راحلتى وقلت :

أرشدنى أرشدنى هديتا لاجعت ماعشت ولا عريتا

ولا برحت سيداً مقيتا لاتؤثر الخير الذى أتيتا

* على جميع الجن مابقيتا *

فقال : صاحبك الله وأدى رحلكا وعظم الأجر وعافا نفسكا
آمن به أفلج ربى حقكا وانصره نصراً عزيزاً نصركا

قال : قلت من أنت عافاك الله ، حتى أخبره إذا قدمت عليه ؟ فقال أنا ملك بن مالك ، وأنا نقيبه على جن نصيبين . وكفيت إبلك حتى أضمها إلى أهلك إن شاء الله قال فخرجت حتى أتيت المدينة يوم الجمعة والناس أرسال إلى المسجد ، والنبى ﷺ على المنبر كأنه البدر يخطب الناس ، فقلت أنيخ على باب المسجد حتى يصلى ، وأدخل عليه فأسلم ، وأخبره عن إسلامى ، فلما أنخت خرج إلىّ أبو ذر فقال : مرحباً وأهلاً وسهلاً ، قد بلغنا إسلامك ، فادخل فصل ، ففعلت . ثم جئت رسول الله ﷺ فأخبرنى بإسلامى فقلت الحمد لله ، قال : « أما إن صاحبك قد وفى لك وهو أهل ذلك ، وأدى إبلك إلى أهلك » .

وقد رواه الطبرانى فى ترجمة خريم بن فاتك من معجمه الكبير قائلا : حدثنا الحسين بن إسحاق التسيرى ، حدثنا محمد بن إبراهيم الشامى ، حدثنا عبد الله بن موسى الإسكندرى ، حدثنا محمد بن إسحاق عن سعيد بن أبى سعيد المقبرى ، عن أبى هريرة قال : قال خريم بن فاتك لعمر بن الخطاب : ياأمير المؤمنين ! ألا أخبرك كيف كان بدء إسلامى ؟ قال: بلى! فذكره ، غير أنه قال: فخرج إلى أبو بكر الصديق فقال : ادخل فقد بلغنا إسلامك ، فقلت لا أحسن الطهور فعلمنى ، فدخلت المسجد فرأيت رسول الله ﷺ كأنه البدر وهو يقول : «مامن مسلم توضأ فأحسن الوضوء ثم صلى صلاة يحفظها ويعقلها إلا دخل الجنة» . فقال لى عمر : لتأتينى على هذا ببينة أو لأنكلن بك ، فشهد لى شيخ قريش عثمان بن عفان فأجاز شهادته. ثم رواه عن محمد بن عثمان بن أبى شيبة عن محمد بن تيم عن محمد بن خليفة عن محمد بن الحسن عن أبيه قال : قال عمر بن الخطاب لخريم بن فاتك : حدثنى بحديث يعجبنى ، فذكر مثل السياق الأول سواء .

وقال أبو نعيم : حدثنا سليمان بن أحمد ، حدثنا أبو عبد الملك أحمد بن إبراهيم القرشى الدمشقى ،

حدثنا سليمان بن عبد الرحمن ابن بنت شرحبيل ، حدثنا إسماعيل بن عياش عن يحيى بن أبي عمرو الشيباني عن عبد الله بن الديلمي قال : أتى رجل ابن عباس فقال : بلغنا أنك تذكر سطيحاً تزعم أن الله خلقه ، ولم يخلق من بني آدم شيئاً يشبهه ؟ قال قال نعم ، إن الله خلق سطيحاً الغساني لحماً على وضم [1] ، ولم يكن فيه عظم ولا عصب إلا الجمجمة والكفان . وكان يطوى من رجليه إلى ترقوته كما يطوى الثوب ، ولم يكن فيه شيء يتحرك إلا لسانه ، فلما أراد الخروج إلى مكة حمل على وضمة فأتى به مكة ، فخرج إليه أربعة من قريش : عبد شمس ، وهاشم — ابنا عبد مناف بن قصي ، والأحوص بن فهر ، وعقيل بن أبي وقاص ، فانتموا إلى غير نسبهم ، وقالوا نحن أناس من جمح أتيناك ، بلغنا قدومك ، فرأينا أن إتياننا إياك حق لك واجب علينا . وأهدى إليه عقيل صفيحة هندية ، وصعدة [2] ردينية ، فوضعت على باب البيت الحرام لينظروا ، أهل يراها سطيح أم لا . فقال : ياعقيل ناولني يدك ، فناوله يده فقال : ياعقيل والعالم الخفية ، والغافر الخطية ، والذمة الوفية ، والكعبة المبنية — إنك للجائي بالهدية ، الصفيحة الهندية ، والصعدة الردينية . قالوا صدقت ياسطيح . فقال : والآتي بالفرح ، وقوس قزح ، وسائر الفرح ، واللطيم المنبطح ، والنخل والرطب والبلح — إن الغراب حيث مر سنح ، فأخبر أن القوم ليسوا من جمح ، وأن نسبهم من قريش ذي البطح . قالوا صدقت ياسطيح ، نحن أهل البيت الحرام ، أتيناك لنزورك لما بلغنا من علمك . فأخبرنا عما يكون في زماننا هذا ، وما يكون بعده ، فلعل أن يكون عندك في ذلك علم ، قال : الآن صدقتم ، خذوا مني ومن إلهام الله إياي .

أنتم يامعشر العرب في زمان الهرم ، سواء بصائركم و بصائر العجم ، لا علم عندكم ولا فهم ، وينشو من عقبكم ذوو فهم ، يطلبون أنواع العلم ، فيكسرون الصنم ، و يبلغون الردم ، و يقتلون العجم ، ويطلبون الغنم قالوا ياسطيح فمن يكون أولئك ؟ فقال لهم : والبيت ذي الأركان ، والأمن والسكان لينشأن من عقبكم ولدان يكسرون الأوثان ، و ينكرون عبادة الشيطان ، و يوحدون الرحمن ، و ينشرون دين الديان ، يشرفون البنيان ، و يستفتون الفتيان . قالوا ياسطيح من نسل من يكون أولئك ؟ قال : وأشرف الأشراف ، والمفضي للأشراف ، والمزعزع الأحقاف ، والمضعف الأضعاف ، لينشؤن الآلاف من عبد شمس وعبد مناف ، نشوءاً فيه اختلاف . قالوا ياسوءتاه ياسطيح مما تخبرنا من العلم بأمرهم ! ومن أي بلد يخرج أولئك ؟ فقال : والباقي الأبد ، والبالغ الأمد ، ليخرجن من ذا البلد ، فتى يهدي إلى الرشد ، يرفض يغوث والفند ، يبرأ من عبادة الضدد ، يعبد رباً انفرد ، ثم يتوفاه الله محموداً ، من الأرض مفقوداً ، وفي السماء مشهوداً .

---

(١) الوضم : كل ما يوقى به اللحم من الأرض ؛ من خشب وحصير ونحوهما .
(٢) الصعدة : القناة تنبت المستوية كذلك . والصفيحة : السيف العريض .

ثم يلى أمره الصديق إذا قضى صدق ، فى رد الحقوق لاخرق ولا نزق . ثم يلى أمره الحنيف ، مجرب غطريف ، ويترك قول العنيف ، قد ضاف المضيف ، وأحكم التحنيف . ثم يلى أمره داعياً لأمره مجربا ، فتجتمع له جموعاً وعصبا ، فيقتلونه نقمة عليه وغضبا ، فيؤخذ الشيخ فيذبح إربا ، فيقوم به رجال خطبا . ثم يلى أمره الناصر ، يخلط الرأى برأى المناكر ، يظهر فى الأرض العساكر . ثم يلى بعده ابنه يأخذ جمعه ويقل حمده ، ويأخذ المال ويأكل وحده ، ويكثر المال بعقبه من بعده ، ثم يلى من بعده عدة ملوك ، لاشك الدم فيهم مسفوك ، ثم بعدهم الصعلوك يطويهم كطى الدُّرنوك . ثم يلى من بعده عِظيَرّ يقصى الحق ويدنى مصر ، يفتتح الأرض افتتاحاً منكراً ، ثم يلى قصير القامة ، بظهره علامة يموت موتاً وسلامة . ثم يلى قليلا باكر ، يترك الملك بائر ، يلى أخوه بسنته ساير ، يختص بالأموال والمنابر . ثم يلى من بعده أهوج ، صاحب دنيا ونعيم مخلج ، يتشاوره معاشره وذووه ، ينهضون إليه يخلعونه ، بأخذ الملك ويقتلونه . ثم يلى أمره من بعده السابع ، يترك الملك محلا ضائع ، بنوه فى ملكه كالمشوه جامع . عند ذلك يطمع فى الملك كل عريان ، ويلى أمره اللهفان ، يرضى نزاراً جمع قحطان ، إذا التقيابدمشق جمعان ، بين بنيان ولبنان ، يصنف اليمن يومئذ صنفان ، صنف المشورة وصنف المخذول . لاترى إلا حباء محلول ، وأسيراً مغلول ، بين القراب والخيول . عند ذلك تخرب المنازل ، وتسلب الأرامل وتسقط الحوامل وتظهر الزلازل ، وتطلب الخلافة وائل ، فتغضب نزار ، فتدنى العبيد والأشرار ، وتقصى الأمثال والأخيار ، وتغلو الأسعار فى صفر الأصفار . يقتل كل حياً منه ، ثم يسيرون إلى خنادق وإنها ذات أشعار وأشجار ، تصد له الأنهار ويهزمهم أول النهار ، تظهر الأخيار ، فلا ينفعهم نوم ولا قرار ، حتى يدخل مصراً من الأمصار ، فيدركه القضاء والأقدار . ثم يجىء الرماة ، تلف مشاة ، لقتل الكماة وأسر الحماة ، وتهلك الغواة ، هنالك يدرك فى أعلى المياه . ثم يبور الدين ، وتقلب الأمور ، وتكفر الزبور ، وتقطع الجسور ، فلا يفلت إلا من كان فى جزائر البحور ، ثم تبور الحبوب ، وتظهر الأعاريب ، ليس فيهم معيب على أهل الفسوق والريب ، فى زمان عصيب ، لو كان للقوم حيا ، وما تغنى المنى . قالوا ثم ماذا ياسطيح ؟ قال ثم يظهر رجل من أهل اليمن كالشطَن ، يذهب الله على رأسه الفتن .

وهذا أثر غريب كتبناه لغرابته وما تضمن من الفتن والملاحم . وقد تقدم قصة شق وسطيح مع ربيعة ابن نصر ملك اليمن ، وكيف بشر بوجود رسول الله ﷺ ، وكذلك تقدم قصة سطيح مع ابن أخته عبد المسيح ، حين أرسله ملك بنى ساسان ، لارتجاس الإيوان ، وخمود النيران ، ورؤيا الموبذان . وذلك ليلة مولد الذى نسخ بشريعته سائر الأديان .

تم الجزء الثانى من البداية والنهاية . ويليه الجزء الثالث إن شاء الله

وأوله : باب كيفية بدء الوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فهرس الجزء الثانى
من « البداية والنهاية » لابن كثير





مطبعة الفجالة الجديدة
شارع الشيخ القويسنى رقم ٣٨ ب بالظاهر







